الجامع
لأحكام القرآن

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الأول

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

لعلّنا في غير حاجة إلى تعريف القرّاء بهذا التفسير العظيم، بعد أن عرفوه في طبعته الأولى؛ فأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير. إذ لم يكد يخرج منه جزء حتى تهافت عليه الجمهور، ممن عرفوا فضلَ القرطبي وعلمَه وأدبَه، ودقّته في تأويل كتاب الله تعالى، وعَرْض أقوال الأئمة من جهابذة المحققين، وأُولى البصر بكتاب الله من أعلام المجتهدين.

ولقد رأى القرّاء حين طلع عليهم تفسير القرطبي مبلغ ما بذله مؤلّفه فيه من جهد كبير، وعناية فائقة؛ يدلّان على عُمقه في البحث، ومقدرته على فهم كتاب الله، وإلمامه بأصول علوم الشريعة وفروعها، من لغة وأدب وبلاغة. يتجلّى كل أولئك في استنباطه الأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة، حتى ليكاد يستغنى به القارئ عن دراسة كتب الفقه، ثم في استشهاده بكثير من النصوص الأدبية من لغة العرب شعرها ونثرها؛ مما يشهد له بطول الباع وسَعة الأفق.

وإن أُخذ عليه شيء فليس إلا هَنَاتٍ يسيرةً، لا تنقص من مقداره، ولا تغضّ من قيمته؛ فقد ينبو الحسام، وقد يكبو الجواد.

فمن ذلك أنه خالف أحيانا ما اشترطه على نفسه في مقدّمة كتابه إذ يقول: « ... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين؛ إلا ما لا بُدّ منه، ولا غنى عنه للتبيين ... ».

Marfat.com

فليس مما لا بُدّ منه أو لا غنى عنه ماينقله عن كعب الأحبار : «أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فألق فى قلبه فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا[1] من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال ! لو نفضتّهم ألقيتّهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابة فدخلت فى منخره، فعجّ إلى الله منها فخرجت ... »[2] .

وليس مما لا بُدّ منه : « أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ، فلما أُهبطوا تأكّدت العداوة وجعل رزقها التراب[3] » .

وليس مما لا بُدّ منه ما يرويه عن ابن عباس قال : «سألت اليهودُ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : مَلَك من الملائكة معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله[4] » .

وليس مما لا بُدّ منه ما ذكره عن كلب أصحاب الكهف والاختلاف فى لونه وفى اسمه[5] . ولا ما يرويه عن الزُّهرى فى قوله تعالى « جاعِلِ الملائكةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : أن جبريل عليه السلام قال له : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وإنّ العرش لعلى كاهله، وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصْع[6] ... » .

ولا ما ذكره فى قوله تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فوقهم يومئذٍ ثَمَانِيَةٌ » : أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال[7] بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، وفوق ظهورهن العرش[8] » .

---

(١) اسم الحوت .　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٧ .　(٣) جـ ١ ص ٢١٣ .

(٤) جـ ١ ص ٢١٧　(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٠ .　(٦) جـ ١٤ ص ٣٢٠ والوصع : عصفور صغير .

(٧) الأوعال : جمع وعل ، وهو التيس الجبلى　(٨) جـ ١٨ ص ٢٦٧

Marfat.com

إلى غير ذلك من الأمثلة التي ترد في مناسبات مختلفة ، جارى فيها من سبقه من المفسرين الذين ينقلون عن الإسرائيليّات ولا يتحرّون الدقة في المعلومات الكونية ، خصوصا في الكلام على خلق السموات والأرض ، وتأويل الآيات التي تتعرض للظواهر الطبيعية ، أو تشير إلى المسائل العلمية .

وللمؤلف في ذلك كثير من العذر ؛ لأنه — رحمه الله — تابع فيه ثقافة عصره ، وما تجرى به ألسنة العلماء في ذلك الزمان .

وقد رأت الدار — بعد أن تحقّقت حاجة الناس إلى هذا الكتاب ، ورغبة الكثير من العلماء في الأقطار الإسلامية في ذيوعه — أن تقرر إعادة طبعه تعميما للفائدة .

هذا ، وسيرى القارئ أننا حرصنا على أن تكون هذه الطبعة موافقة لسابقتها في أجزائها وصفحاتها وأرقامها ، إلا في تفاوت يسير ، يستطيع القارئ أن يدركه في الصفحة التالية أو السابقة .

كما أننا نبهنا في هذه الطبعة إلى أمر لم يكن في سابقتها ؛ فعندما يذكر المؤلف عبارة : « على ما يأتى بيانه » نوضح ذلك في الهامش ، مبيّنين موضعه من الكتاب ؛ حتى يسهل على القارئ متابعة الدراسة ، وربط الكلام بعضه ببعض ، دون جهد أو عناء .

ولا يفوتنى أن أنوه بفضل حضرات الزملاء الذين آشتركوا معى في تصحيح هذا الكتاب في طبعته الأولى بعد جزئه الرابع ، وهم السادة : الشيخ إبراهيم اطفيش ، والشيخ بشندى خلف الله ، والشيخ محمد محمد حسنين .

والله المسئول أن ينفع بهذا التفسير الجليل ، وأن يجزى مؤلّفه خير الجزاء ، وأن يمين القائمين بنشر التراث الإسلامى من أمثال هذا الكتاب العظيم . وأن يوفّق « الدار » في تأدية رسالتها حتى تنهض بهذا العبء الكبير ، وتقدّم للعالم أجمع خير تراث تركه الأقدمون .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحابته أجمعين ؟

مصححه

أحمد عبد العليم البردونى

١٦ من المحرم سنة ١٣٧٢ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٥٢)

Marfat.com

ترجمة

أبي عبد الله القرطبي

مؤلف هذا التفسير[1]

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح (بإسكان الراء وبالحاء المهملة)، الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. أوقاتُه معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف.

مؤلّفاته — جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في اثني عشر مجلدا، سمّاه كتاب "الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّن من السنة وآي الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ (وهو هذا التفسير). وله كتاب "الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى". وكتاب "التذكار، في أفضل الأذكار". وضعه على طريقة التبيان للنووي، لكن هذا أتمّ منه وأكثر علما. وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التقصي". وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة". قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه. وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم". وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هذا. وكان مطّرحا للتكلّف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفح الطيّب: إنه من الراحلين من الأندلس.

---

(١) عن الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون، ونفح الطيب للمقري.

Marfat.com

شيوخه - سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه "المُفهِم، لما أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم".

وحدّث عن الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبي الحسن عليّ بن محمد بن علي بن حفص اليَحْصبيّ وغيرهما.

وكان مستقرا بمنية ابن خَصيب، وتُوُفّيَ ودُفن بها في ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١، رحمه الله ورضى عنه.

Marfat.com

فهـــرس الجـــزء الأوّل

صفحة

ترجمة أبي عبد الله القرطبي ... ... (و)

خطبة الكتاب، وفيها الكلام على علو شأن المفسرين ١

ذكر سبيل القرطبي فى التفسير ٣

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه
والعامل به... ... ... ٤

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس
فى ذلك، وفيه الكلام على تأثير القرآن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره، وما ورد فى ذلك من الآثار والوعيد ١٧

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه علماً وعملا،
والمراتب التى ينبغى لحامل القرآن أن يبلغها ٢٠

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معربا ٢٣

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله ٢٦

باب ما جاء فى حامل القرآن، ومن هو، وفيمن عاداه ٢٦

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته، وما يستحب أن يفعله
عند ختمه ٢٧

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى، والجرأة على ذلك، ومراتب
المفسرين، وفيه شيء من وجوه التفسير ٣١

باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء فى ذلك ٣٧

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جاء
أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه ٣٩

Marfat.com

صفحة

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منـه » ٤١

فصل فى قول كثير من العلمـاء أن القراءات السبع ليست هى الاحرف السـبعة ... ٤٦

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام بن حكيم فى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ... ٤٧

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف و إحراقه ما ســواها ، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسـلم ٤٩

فصل فى الرّد على الحلولية والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات ٥٥

فصل فى طعن الرافضة فى القرآن ٥٦

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ، ونقطه وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه ٥٩

باب ذكر معنى السورة والآية والحرف... ... ... ٦٥

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ٦٨

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها ٦٩

فصـل فى أن المعجزات على ضربين ٧٢

باب فى التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره ٧٨

باب فيما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن ، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان ٨٠

القول فى الاستعاذة، وفيها اثنتا عشرة مسألة ٨٦

الكلام على البسملة ، وفيها سبع وعشرون مسألة ٩١

تفسـير سـورة الفـاتحة

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى فضائلها وأسمائها ومعانيها، وفيه سبع مسائل... ... ... ١٠٨

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة ١١٤

Marfat.com

صفحة

الباب الثالث — فى التأمين، وفيه ثمان مسائل ١٢٧

الباب الرابع — فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة ١٣١

ســـورة البقـــرة

الكلام فى نزولها وفضلها ، وما جاء فيها ١٥٢

تفسير قوله تعالى : « الم . ذلك الكتاب ... » وبيان الأقوال الواردة فى أوائل السور المفتتحة بالحروف ١٥٤

الكلام على هداية القرآن، وفيه ست مسائل ١٥٩

تفسير قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ... » الآية . وفيه ست وعشرون مسألة : الكلام على الإيمان بالغيب ، وعن الصلاة و إقامتها وشرائطها ١٦٢

بحث فى الرزق و إنفاقه ١٧٧

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ... » الآية بيان حال الكافرين ومآلهم ، ومعنى الكفر ١٨٣

تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » الآية . وفيه عشر مسائل: بيان الختم على القلوب وعلى السمع وعلى البصر... ... ... ١٨٥

ذكر أقوال العلماء فى إمساك النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم... ... ... ١٩٨

ذكر ما قيل فى خلق السموات والأرض ، وما ورد فى ذلك من الآيات ، والاختلاف فيها... ... ... ٢٥٤

بحث فى تنصيب الخليفة ، والكلام على الإمامة العظمى ٢٦٤

بحث فى تسبيح الملائكة ٢٧٦

بحث فى كيفية خلق آدم عليه السلام واشتقاق اسمه ٢٧٩

ذكر اختلاف العلماء فى معنى الأسماء التى علمها آدم... ... ... ٢٨٢

Marfat.com

	صفحة
بحث فى أيما أفضل : الملائكة أم بنو آدم ؟ ...	٢٨٩
بحث فى السجود، ومعنى سجود الملائكة ...	٢٩٢
بحث فى إبليس لعنه الله ...	٢٩٤
الكلام على الجنة وسكنى آدم وحواء فيها، وفيه ثلاث عشرة مسألة ...	٢٩٨
ذكر الخلاف فى الشجرة، وكيف أكلا منه ...	٣٠٥
مطلب فى الأنبياء ، وهل وقع منهم صلوات الله عليهم صغائر من الذنوب يؤاخذون بها، و يعاتبون عليها أم لا ؟ ...	٣٠٨
بحث فى الأمر بقتل الحيات، والكلام فى تشكيل الجن بها ، و إسلام الجن والتبليغ إليهم، وفيه بعض أحوالهم وشيء من أخبارهم...	٣١٥
بحث فى الكلمات التى تلقاها آدم ...	٣٢٣
بحث فى أخذ الأجرة على تعلم القرآن والعلم ، وآختلاف العلماء فى هذا، وفى أخذ الأجرة على الصلاة ...	٣٣٥
بحث فى الزكاة ...	٣٤٣
بحث فى معنى قوله : « واركعوا مع الراكعين » وجملة من أحكام الصلاة...	٣٤٤
بحث فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل...	٣٨٩
بحث فى يوم عاشوراء ، وهل هو اليوم التاسع من المحرم أو العاشر؟ ...	٣٩١
الكلام على الأربعين يوما، وما وقع فيها من بنى إسرائيل ...	٣٩٥
بحث فى معنى الشكر ...	٣٩٧
الكلام على المنّ والسَّلْوَى ...	٤٠٦
بحث فى الآستسقاء ...	٤١٧
طلب اليهود استبدال المنّ والسلوى بالبقل ، وذكر الأصناف التى طلبوها ، ونزولهم مصر...	٤٢٢
بحث فى أكل البصل والثوم، واختلاف العلماء فيه...	٤٢٦

Marfat.com

صفحة

الكلام على المِلل ، وفيه ثمان مسائل ٤٣٢

القـول فى سبب رفع الطُّور ٤٣٦

اعتداء اليهود فى السبت ومسخ الله إياهم ٤٣٩

ذكر آختلاف العلماء فى الممسوخ هل ينسل أم لا؟ ٤٤٠

القول فى أمر الله اليهود بذبح البقرة ، والبحث فى شأنها ، وما ورد فى ذلك ٤٤٤

بحث فى معنى قوله : «وإذ قتلتم نفسا» وسبب القتل ٤٥٥

بحث فى القسامة وأحكامها ٤٥٧

موجب القسامة ٤٥٩

بحث فى شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟... ... ... ٤٦٢

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدّثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح الأنصارى الخزرجى الأندلسىّ ثم القرطبى، رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصَّمَد الواحد، الحىّ القيوم الذى لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ الإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا صلّى الله عليه وسلم ما آختلف المَلَوان[1]، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارقِ بين الشك واليقين؛ الذى أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعيت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرا . جعل أمثاله عِبَرًا لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن آستبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرّر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»[2] . خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا. فقَرَأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله أهلين منّا"[3] قالوا : يارسول الله، مَن هم ؟ قال: "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" أخرجه آبن ماجه فى سننه، وأبو بكر البزّار فى مُسنده . فما أحقّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر

(١) الملوان : الليل والنهار . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) فى سنن آبن ماجه : "من الناس".

Marfat.com

ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه. فإنه قد حُمّل أعباء الرسل، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» (١). ألا وإنّ الحجة على من علمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجهله. ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع؛ وآرتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا؛ كان القرآن حجة عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القرآن حجة لك أو عليك" خرّجه مسلم. فالواجب على مَن خصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته؛ ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه؛ قال الله تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» (٢). وقال الله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» (٣). جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره؛ ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه. ولا يلتمس الهُدى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة؛ فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة. ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مُشْكلا، وتحقيق ما كان منه محتملا؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال الله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (٤). ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم؛ قال الله تعالى: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» (٥). فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا. فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعيةَ كتابه، وآذاننا موارد سنن نبيّه؛ وهممنا مصروفةً إلى تعلّمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما؛ طالبين بذلك رِضا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم الملّة والدِّين.

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع، الذى آستقل بالسُّنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيتُ أن أشتغل به مَدَى عمرى، وأستفرغ

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة. (٢) آية ٢٩ سورة ص. (٣) آية ٢٤ سورة القتال.
(٤) آية ٤٤ سورة النحل. (٥) آية ١١ سورة المجادلة.

Marfat.com

فيه مُنّتي[1]؛ بأن أكتب فيه تعليقًا وجيزًا، يتضمّن نُكتًا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات؛ والردّ على أهل الزّيغ والضلالات، وأحاديث كثيرةً شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات؛ جامعًا بين معانيهما، ومُبيّنًا ما أشكل منهما؛ بأقاويل السلف، ومَن تبعهم من الخلف. وعملته تذكرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسي، وعملاً صالحا بعد موتى. قال الله تعالى: « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[2]. وقال تعالى: « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال الى قائليها، والأحاديث الى مصنّفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله. وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مُبهمًا، لا يعرف مَن أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نشير الى جُمَل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بدّ منه ولا غنًى عنه للتبيين؛ واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تُسفر عن معناها، وتُرشد الطالب الى مقتضاها؛ فضمّنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد، مسائل نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم؛ فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا الى آخر الكتاب.

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّنه من السّنة وآي الفرقان)، جعله الله خالصا لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه؛ إنه سميع الدعاء، قريب مجيب؛ آمين.

---

(١) المنة (بالضم): القوة. (٢) آية ١٣ سورة القيامة. (٣) آية ٥ سورة الانفطار.

Marfat.com

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعـامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نُكَتًا تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شئ، وصفةُ من ليس له شبيه ولا نِدّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ؛ وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجاباً في بعض العبادات، وندْباً في كثير من الأوقات؛ ويُزْجرون عنها إذا أجْنَبُوا(١)، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتى بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جدّه — وقوله الحق : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ»(٢) . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلاً منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هـذا الباب — فأول ذلك ما خرّجه الترمذيّ عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الربّ تبارك وتعالى مَن شَغله القرآنُ وذِكْرِى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " . قال : هـذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الدّارميّ السَّمَرْقَنْدِيّ في مسنده عن عبد الله قال : السبع الطُّوَل مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثانى مثل الزَّبور، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ . وأسند عن الحارث

(١) في نسخة : ويزجرون عنها إذا أجنبوا . (٢) آية ٢١ سورة الحشر .

Marfat.com

عن علىّ رضي الله عنه وخرّجه الترمذى قال : سمعت[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يملّه الأتقياء ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور[2]". «الحارث» رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما نقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا — والله أعلم — كذّبه الشعبىّ ؛ لأن الشعبىّ يذهب إلى تفضيل أبى بكر ، وإلى أنه أوّل من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظنّ الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهمْدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذّابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوىّ اللغوىّ فى كتاب «الردّ على من خالف مصحف عثمان» عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةٌ من تمسك به ونجاةٌ من اتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الردّ فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الم حرف ولا أُلفينّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر البيوت من الخير البيتُ الصِّفر من كتاب الله" . وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة

---

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) مع اختلاف فى بعض كلماته وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

Marfat.com

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ ، شَبّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليــه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ؛ فمن قال : مأدُبة ؛ أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليــه الناس . ومن قال : مأدَبة ؛ فإنه يذهب به إلى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : " إن هــذا القرآن مأدبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبتــه " . وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمــع أحدا يقول هذا غيره . [قال :] والتفسير الأول أعجب إليّ .

وروى البخاري عن عثمان بن عفّان عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه " . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجّة رِيحُها طَيّب وطعمها طَيّب ومَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُرّ " . وفي رواية : " مثــل الفاجر " بدل " المنافق " . وقال البخاري : " مثــل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ... " وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنباري : وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلواني حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم . ح[1] . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشَب : أن أبا عبد الرحمن

(١) جرت العادة بالاقتصار على الرمز في حدّثنا وأخبرنا ، واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهي الثاء والنون والألف ، وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد الى إسناد «ح» وهي حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل ، لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر في قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشيء ، بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا إليها : الحديث . ثم هــذه الحاء توجد في كتب المتأخرين كثيرا ، وهي كثيرة في صحيح مسلم ، قليلة في صحيح البخاري . (عن مقدّمة النووي على صحيح مسلم) .

Marfat.com

السلمي كان إذا ختم عليه الخاتمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عملتَ بالذى علمت . وروى الدارمي عن وهب الذماري قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام . قال سعيد[1]: السَّفَرة الملائكة، والأحكامُ[2] الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرة والذى يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران". التعتع : التردّد فى الكلام عِيًّا وصعوبة ؛ وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقَّى عن ذلك إلى أن شُبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الۤمۤ حرف ولكن ألِف حرف ولام حرف وميم حرف " . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رُوِىَ موقوفًا . وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفّة ؛ فقال : " أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحانَ أو إلى العَقِيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْماوَيْن[3] فى غير إثم ولا قطع رَحِم " فقلنا : يا رسول الله، كلنا نحب ذلك ، قال :"أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلمُ[4] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خير له من ثلاثٍ وأربعٌ خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل".

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"مَن نَفّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسِر يَسّر الله عليه

(١) سعيد هذا ، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبى يحيى التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف . (٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الفرض وذوو الأحكام ، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال . (٣) «كوماوين» تثنية كوماء : أى مشرفة السنام عاليته .
(٤) قوله : فيعلم ، ضبط بنصب الفعل ورفعه، و بتشديد اللام من التعليم ، و بتخفيفها من العلم .

Marfat.com

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عَوْن العبد ما كان العبد فى عَوْن أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه عِلْمًا سَهّل الله له طريقًا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذَكَرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه » .

وروى أبو داود والنسائى والدارمى والترمذى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة ». قال الترمذى : حديث حسن غريب. وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يجىء القرآن[1] يوم القيامة فيقول يارَبّ حُلّهْ فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يارب ارض عنه فيرضى عنه فيقال له اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة » . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ». وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه » .

وأسند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحَى إليه و يقال له يوم القيامة اقرأ وارق فيقرأ آية و يصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم » .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : « يجىء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

Marfat.com

نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقد أخذ النبوّة كلها". قال: وحدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزِىّ أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه فى عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النار". وقالت أم الدَّرْدَاء: دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها: ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضى الله عنها: إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنة، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن. ذكره أبو محمد مكىّ. وقال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: «فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ»[1]. قال ابن عباس: فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. ذكره مكىّ أيضا. وقال الليث: يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جل ذكره: «وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»[2]. و«لعلّ» من الله واجبة.

وفى مُسْنَد أبى داود الطَّيَالِسىّ — وهو أوّل مُسْنَدٍ أُلِّفَ فى الإسلام[3] — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتب من المقنطِرين". والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه. (٢) آية ٢٠٤ سورة الأعراف.

(٣) قوله: «وهو أوّل مسند ...» الخ. قال صاحب كشف الظنون: «والذى حمل قائل هذا القول تقدم عصره على أعصار من صنف المسانيد، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك، فانه ليس من تصنيف أبى داود، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصة عن أبى داود. ولأبى داود من الأحاديث التى لم تدخل هذا المسند قدره أو أكثر؛ كما ذكره البقاعى فى حاشية الألفية». وقد توفى الطيالسى سنة ٢٠٤ هـ.

Marfat.com

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، ومايكره منها ومايحرم، واختلاف النـاس فى ذلك

روى البُخَارِيّ عن قتادة قال: سألت أنَسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بِسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم.

وروى الترمذيّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يُقَطِّع قراءته يقول: « الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين » ثم يقف « الرَّحْمَنِ الرَّحِيم » ثم يقف، وكان يقرؤها « مَلِكِ يَوْمِ الدِّين ». قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

ورُوى عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن النـاس صَوْتًا مَن إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى". وروى عن زياد النُّمَـيْرِيّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ. فرفع صوته وطَرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصـوت عنـد الذكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المُسيّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين والنَّخَعِيّ وغيرهم؛ وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل إليه سـعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التّطريب بعدُ. وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » الآية (٢).

وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى ابن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

(١) رأى هنا بمعنى علم، وفى بعض النسخ: « رئيته » بالبناء للمجهول؛ ومعناه الظن. (٢) آية ٤١، ٤٢ سورة فصلت.

Marfat.com

فقال : لا يعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسُن الصوتُ به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، وآحتجّوا بقوله عليه السلام : "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم" رواه البَرَاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنَّسائي . و بقوله عليه السلام : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" أخرجه مسلم. و بقول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرا . و بما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفَتْح في مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع في قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وآبن المبارك والنَّضْر بن شُمَيْل ، وهو آختيار أبي جعفر الطبريّ وأبي الحسن بن بَطّال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه و يأتي . وأما ما آحتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ؛ أي زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن . قال الخَطّابيّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا هو من باب المقلوب ، كما قالوا : عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة ؛ فقدّم الأصوات على القرآن ، وهو الصحيح .

قال الخطابيّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "زينوا القرآن بأصواتكم" . أي الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة ؛ وقيل : معناه الحض على قراءة القرآن والدُّءُوب عليه . وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "زينوا أصواتكم بالقرآن" . وروى عن عمر أنه قال : "حَسِّنُوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" أي ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن ، كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت آبن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مرّ بنا أبو لُبابة فآتبعناه

Marfat.com

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت؟ قال : يحسّنه ما استطاع . ذكره أبو داود، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّي لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبّرت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتّلته . وهذا يدل [على] أنه كان يهُذّ[1] في قراءته مع حُسْن الصوت الذي جُبل عليه . والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها ؛ كما كان يقرأ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول : إن القرآن يُزَيّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأول هـذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه . وقد قيـل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك ، أي زينـوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعـالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ »[2] أي قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْآنَهُ »[3] أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا ؛ أي قراءة . وقال الشاعر[4] في عثمان رضي عنه :

ضَحُّوا بأشْمَطَ[5] عُنوانُ السجودِ به * يقطِّع الليـلَ تسبيحًا وقـرآنا

أي قراءة . فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنى

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة . (٢) آية ٧٨ سورة الإسراء .

(٣) آية ١٨ سورة القيامة . (٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٥) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب اللحية .

Marfat.com

الرجل بمعنى آستغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى آستغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حَبْناء التميمي :

كلانا غَنِيٌّ عن أخيـه حياتَه * ونحن إذا متْنا أشـدُّ تغانيـا

وإلى هـذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنة ووَكِيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وَقّاص . وقد رُوِى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهَوَيْه، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . وإلى هذا التأويل ذهب البخاريّ محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»[1] . والمراد الآستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنّى به . يتحزّن به؛ أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد آبن حِبّان البُسْتِيّ، وآحتجوا بمـا رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أَزِيز كأزيز المِرْجَل من البكاء . الأزيز (بزايين) : صوت الرعد وغَلَيان القِدْر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن؛ وعَضَدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "آقرأ عليّ" فقرأت عليه سورة « النسـاء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »[2] فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان . فهذه أربع تأويلات ، ليس فيهـا ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيهـا . وقال أبو سعيد بن الأعرابيّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم[3] مكان الغناء؛ فقال : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" .

التأويل الخامس — ما تأوله مَن آستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبي عاصم النبيـل تأويل آبن عُيَيْنـة فى قوله : "يتغنّ" يستغنى؛ فقـال :

(١) آية ٥١ سورة العنكبوت . (٢) آية ٤١ سورة النساء . (٣) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

Marfat.com

لم يصنع آبن عُيَيْنَة شيئا. وسُئل الشافعي عن تأويل آبن عُيينة فقال : نحن أعلم بهذا، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الآستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لما قال "يتغنّ" علمنا أنه أراد التغنّي . قال الطبري : المعروف عندنا في كلام العرب أن التغنّي إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغَنّ بالشِّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِنـاء بهذا الشعر مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى آستغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِـراق * عفيفَ المُنـاخ طَويلَ التَّغَنّ

وزعم أنه أراد الآستغناء فإنه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى في هـذا الموضع الإقامة، من قول العرب : غَنِيَ فلان بمكان كذا أي أقام ؛ ومنه قوله تعالى : «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا»(١) وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا مُتْنا أشدُّ تغانيا *

فإنه إغفال منه ، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا آستغنى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبـه . ومن قال هذا في فعل الآثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد ؛ فغير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمـرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبري من أنه لم يَرِد في كلام العرب تغنى بمعنى آسـتغنى ، فقد ذكره الجوهري كما ذكرنا ، وذكره الهَرَوِي أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة ؛ منها قول آبن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الآحتلام . وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصَّ وداوَيْت العَليلَ، وهو كثير؛ فيكون تغانى منها . وإذا آحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : "يتغنّ" الغناء والآستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الآستغناء أَوْلَى لو لم يكن لنـا تأويل غيره ، لأنه مروي عن

(١) آية ٩٢ سورة الأعراف .

Marfat.com

صحابي كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة ، ومعلوم أنه رأى الشافعي وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أذِن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن[1] يجهر به " . قال الطبري : ولو كان كما قال ابن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى . قلنا قوله : «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من قول أبي هريرة أو غيره . فإن كان الأول وفيه بُعْدٌ ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ، لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أي يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس آربعوا[2] على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصم ولا غائبا ... " الحديث ، وسيأتي . وكذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد آختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمّي كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسره الصحابي ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد آحتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعي فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه آبن أبي شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن عليّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا القرآن وغنّوا به وآكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصّيًا[3] من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ ، جيلًا بجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

---

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوي : يعني ما رضي الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن ، أي يجهر به ويحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة .

(٢) قوله : «آربعوا» أي كفّوا وارفقوا .

(٣) التفصي : التفلّت والخروج .

Marfat.com

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيـة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة الواحدة شبهات(١)، فيؤدّى ذلك إلى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير، إما ممدودة وإمّا مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيرله سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته ؛ وذكره البخارىّ وقال فى صـفة الترجيع : آءآءآء، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة ، كما يعترى رافع صوته إذا كان راكبا من آنضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ وإذا آحتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع. وروى آبن جُريج عن عطاء عن آبن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذّن" . أخرجه الدَّارَقُطْنِىّ فى سُنَنه . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألّا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٢) » . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٣) » .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز؛ ضلّ سعْيهم، وخاب

(١) سيذكر المؤلف فى باب (ذكر معنى السورة والآية) الخ : أن الشبهات هى الحروف ؛ ولم أر هذا التعبير لغيره .
(٢) آية ٩ سورة الحجر . (٣) آية ٤٢ سورة فصلت .

Marfat.com

عمالهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه ، جهلا بدينهم ، ومروقا عن سنة نبيهم ، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم ، ونزوعا إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فهم في غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » من حديث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم". اللحون : جمع لحن ، وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قراء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع في القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتل ، وهو المشبه بنور الأقحوان ، وهو المطلوب في قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا »[1] . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ، فقالت : ما لكم وصلاته ! [كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح][2] ثم نعتت قراءته ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا . أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا »[3] . وقال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[4] . روى مسلم عن أبي هريرة

(١) آية ٤ سورة المزمل . (٢) الزيادة عن سنن الترمذي وأبي داود .
(٣) آية ٣٦ سورة النساء . (٤) آية ١١٠ سورة الكهف .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل آستشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى آستشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار". وقال الترمذى فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة آسمه عبد الله، وقيل: عبد الرحمن . وقال : كنيت أبا هريرة لأنى حملت هرة فى كمى ، فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه " ؟ قلت : هرة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار " .

وخرج آبن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا " ثم التفت إلى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذى : حديث

Marfat.com

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعوذوا بالله من جُبّ الحَزَن " قالوا : يارسول الله وما جب الحزَن ؟ قال : " وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة " قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القراء المراءون بأعمالهم " قال : هذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن في جهنم لوادياً إن جهنم لتتعوذ من شرّ ذلك الوادي كل يوم سبع مرّات و إن في ذلك الوادي لَجُبّاً إن جهنم وذلك الوادي ليتعوذان بالله من شرّ ذلك الجُبّ و إن في الجُبّ لحيّةً و إن جهنم والوادي والجبّ ليتعوذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أعدها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويُخلص العمل لله؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله . فالذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره . كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذي عن أبي الدّرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله في بعض الكتب — أو أوحى — إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل و يطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوك(1) الكِبَاش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر إياي يخادعون و بي يستهزئون لأتيحنّ لهم فتنةً تذر الحليم فيهم حيْرَان " .

وخرّج الطبري في كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء حدّثنا المحاربيّ عن عمرو بن عامر البَجَليّ عن ابن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو من حدّثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشْعر". قالوا : يارسول الله، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به و تطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك و إن المُرائي يُدعى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضلّ عملُك و بَطَل

---

(1) المسوك (جمع مسك بفتح فسكون) : الجلد .

Marfat.com

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يامخادع" . وروى عَلْقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَرْبُو فيها الصغير، ويَهْرَم الكبير، وتُتَّخذ سُنة مُبْتَدَعة يجرى عليها النـاس فإذا غُيِّر منها شىء قيل : قد غُيِّرت السُّنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن ؟ قال : إذا كَثُر قرّاؤكم، وقَلّ فقهاؤكم، وكَثُر أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، والتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدِّين . وقال سفيان بن عُيَيْنَة : بلغنا عن آبن عباس أنه قال : لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهـم الله، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس . ورُوى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ»(١) قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره . وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسـه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن آبن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال . "إنما مَثَلُ صاحب القرآن كَمَثَل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذَكَرَه وإذا لم يقم به نَسِيَه" . وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجياً عفوَ ربه؛ ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختَم له؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن" . أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالمـا بأهل زمانه، متحفظًا من سلطانه، ساعياً فى خلاص نفسه، ونجاة مُهْجَته، مقدِّما بين يديه ما يقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما آستطاع . وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الوَرَع فى دينه، وآستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

(١) آية ٩٤ سورة الشعرا

Marfat.com

وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون. و بصمته إذا الناس يخوضون. و بخضوعه إذا الناس يختالون. و بحزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو و يصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام الله تعالى . و ينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طُرق الشبهات ، و يقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه. و يأخذ نفسه بالحلم والوقار. و ينبغي له أن يتواضع للفقراء، و يتجنب التكبّر والإعجاب، و يتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة. و يترك الجدال والمراء، و يأخذ نفسه بالرفق والأدب . و ينبغي له أن يكون ممن يؤمَن شره، و يُرجى خيره ويُسلم من ضره، ولا يسمع ممن نَمّ عنده؛ و يصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، و يَزينه ولا يَشينه، و ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن . فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فما مَثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا . و ينبغي له أن يعرف المكيّ من المدَنيّ ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام ، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام . وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره. فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيُّ المدَنيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل الناسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب. فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْميّ يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجرميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

Marfat.com

فبها يصــل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحاً ؛ وقد قال الضحاك فى قوله تعــالى : « وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ »(١) . قال : حقّ على كل مَن تعلّم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحوارىّ قال : أتينا فُضيل بن عِيَاض ســنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ؛ فقــال بعض القوم : إن كان خارجاً لشئ فسيخرج لتلاوة القرآن ؛ فأمرنا قارئا فقرأ فاطّلع علينا من كُوّة ؛ فقلنا : الســلام عليك ورحمة الله ؛ فقــال : وعليكم السلام ؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذى ، وإن ما أنتم فيــه حَدَثٌ فى الإســلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العــلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهــلا للجلوس معهم ، فنجلس دونهم ونسترق السمع ، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأنتم تطلبون العــلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمــا تريدون ؛ قال : قلنــا قد تعلمنا القرآن ؛ قال : إن فى تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحكَمه من مُتَشابِهه ، وناسخه من منسوخه ؛ إذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فُضَيْل وابنِ عُيَيْنة ، ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْـلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »(٢) .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرًا بالقرآن ، وعالمــا بالفُرْقان ؛ وهو قريب على مَن قربه عليه ، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا ، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثّورىّ . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيّة ثم جاءت النية بعد .

(١) آية ٧٩ سورة آل عمران . (٢) آيتا ٥٧ ، ٥٨ سورة يونس .

Marfat.com

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه .
وثواب من قرأ القرآن مُعْرِباً

قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم — من تفضيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذم اللحن وكراهيته — ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

من ذلك ما حدثنا يحيى بن سليمان الضبي قال حدثنا محمد — يعني ابن سعيد — قال حدثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُري عن أبيه عن جده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" . حدثني أبي قال حدثنا إبراهيم بن الهيثم قال حدثنا آدم — يعني ابن أبي إياس — قال حدثنا أبو الطيب المَرْوَزي قال حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكِّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وُكِّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة" . وروى جُوَيْبر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فإنه عربي ، والله يحب أن يُعْرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبي قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحبوا العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي" . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أحْسَنوا ، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماماً يلحن ؛ قال : أخّروه .

Marfat.com

وعن ابن أبى مليكة قال : قدم أعرابى فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يقرئنى مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل «براءة» ؛ فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسوله» . بالجر، فقال الأعرابى : أوَقد برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابى فدعاه فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يقرئنى، فأقرأنى هذا سورة «براءة» ، فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسوله» ؛ فقلت : أوَ قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابى ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : «إن الله برىء من المشركين ورسولُه» فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ؛ فأمر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ألّا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود[1] فوضع النحو .

وعن على بن الجعد قال سمعت شعبة يقول : مَثَلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها . وقال حماد بن سلمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو — أو قال العربية — فهو كمثل الحمار تُعلّق عليه مخلاة ليس فيها شعير . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التى هى الشرع .

قال ابن الأنبارى : وجاء عن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحويين فى ذلك ، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدثنا ابن أبى مريم قال : أنبأنا ابن فروخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن ابن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب . وحدثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدثنا خلف قال حدثنا حماد بن زيد عن على بن زيد بن جدعان قال سمعت سعيد بن جُبير و يوسف بن مِهْران يقولان : سمعنا ابن عباس يُسأل عن الشىء بالقرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبا الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : « وثيابك فطهر »[1] قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوب غادر * لبست ولا من سوءة أتقنع[2]

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنى ، وتمثل ببيت شعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الأم ذو حسب لئيم

وعنه أيضا الزنيم : الدعى الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زنيم تداعاه الرجال زيادة * كما زيد فى عرض الأديم الأكارع[3]

وعنه فى قوله تعالى : « ذواتا أفنان »[4] قال : ذواتا ظل وأغصان ، ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة * تدعو على فنن الغصون حماما

تدعو أبا فرخين صادف طائرا * ذا مخلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فإذا هم بالساهرة »[5] قال : الأرض ؛ قاله ابن عباس . وقال أمية بن أبى الصلت : « عندهم لحم بحر ولحم ساهرة »[6] . قال ابن الأنبارى : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحم ساهرة وبحر * وما فاهوا به لهم مقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جل وعز : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ما السنة ؟ قال : النعاس ؛ قال زهير بن أبى سلمى :

لا سنة فى طوال الليل تأخذه * ولا ينام ولا فى أمره فند[7]

(١) آية ٤ سورة المدثر. (٢) أورد المؤلف فى تفسير سورة المدثر ج ١٩ ص ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا :

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا فى اللسان والكامل للمبرد . وفى الأصول : « أكارعه » . (٤) آية ٤٨ سورة الرحمن .

(٥) آية ١٤ سورة النازعات . (٦) كذا فى الأصول ، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنبارى فيما يلى ، وسيأتى للمصنف فى تفسير سورة النازعات ج ١٩ ص ١٩٧ هذا البيت .

(٧) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأى من الكبر ، وقد يستعمل فى غير الكبر .

Marfat.com

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين . فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل : جُعلت فداءك ! تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ »[1] . وقال مجاهد : أحبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رَحَل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشام؛ فتجهز ورَحَل إلى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ »[2] طَلبتُ آسم هذا الرجل [الذى خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله][3] أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال آبن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب . وسيأتى . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ما يمنعنى إلا مهابته . فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مَثَلُ الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم رَوْعة ولا يدرون ما فى الكتاب؛ ومَثَل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو ، وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لين عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المقْسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه" . وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "القرآن أفضل من كل شىء فمن وَقّر القرآن فقد وقّر الله ومن آستخف بالقرآن آستخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمن وَالاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد آستخف بحق الله تعالى" .

(١) [illegible] (٢) آية ١٠٠ سورة النساء . (٣) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازى .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: «فمن حُرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمته أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه. — قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن. فطهّروها ونظّفوها ما آستطعتم. — ومن حرمته أن يتلبس كما يتلبس[1] للدخول على الأمير لأنه مناج. ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. — وكان أبو العالية إذا قرأ آعتم ولبس وآرتدى وآستقبل القبلة. — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع[2]. روى شعبة عن أبي حمزة عن آبن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[3] إذا تنخع مضمض، ثم أخذ في الذكر، وكان كلما تنخع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. — قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن — ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند آبتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم. ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان آبتدأ قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمته إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الآستعاذة الذي آستعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه[4]. ومن حرمته أن يؤدي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه، ويشهد بالبلاغ

(١) يتلبس: يلبس ثوبا يتحلى به. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى. (٣) التور: إناء يشرب فيه.

(٤) في نوادر الأصول: «إعرابه». وكلاهما مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" رواه الحاكم والبيهقي.

Marfat.com

رسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقت ربنا وبلغت رسلك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدًا عاليًا لسائر الكتب، علمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء. ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقّى النجاسات من المواضع، والمواقع التى توطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء. ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه. فإن العين تؤدّى إلى النفس، وبين النفس والصدر حجاب. والقرآن فى الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى إلى النفس. فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حظّها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرًا". ومن حرمته ألا يتأوّله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا. — حدّثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدّثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا، والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جئت على قدر

موسى . ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » [1] هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا ، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء . ولكن يقال : السورة التى يذكر فيها كذا . ..

قلت : هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم : "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه" خرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . — ومن حرمته الا يتلى منكوساً كفعل معلمى الصبيان . يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة ، فإن تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يقعّر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمز بين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا ، فإن ذلك محدث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم . ومن حرمته أن يجلّل تخطيطه إذا خطه . وعن أبى حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمرّ علىّ رضى الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له : أجِلّ قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطّا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى ، فقال : هكذا ، نوّره كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغّض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألّا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألّا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما ، هذا لمروره بنفسه ، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألّا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يتناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ، روى الأعمش عن إبراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغّر المصحف .

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدّرّة ، وقال : عظّموا القرآن . وروى عن رسول

[1] آية : ٢٤ سورة الحاقة

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسَيْجِد أو مُصَيْحِف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا ؛ وروى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغّر . وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدبار عليكم"(١). وقال ابن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة : تُغرون به السارق وزينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقى عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفين عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض ، فقال لشاب من هُذَيل : "ما هذا" قال : من كتاب الله كتبه يهودى ؛ فقال : "لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه" . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم ألا يصبه على كناسة ، ولا فى موضع نجاسة ، ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة لا يطؤه الناس . أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات ؛ لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال : يا رسول الله أى العمل أفضل؟ قال : "عليك بالحالّ المرتحل" قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوله كلما حلّ ارتحل" . —

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مسعر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(١) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : « فالدمار » بالميم بدل الباء الموحدة .

Marfat.com

أهله ودعا . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعَبْدة بن أبي لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا : أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التّيمي قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسي ، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّل النهار . — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به في الخلاء ، إلا أن يكون في غلاف من أَدَم أو فضة أو غيره ؛ فيكون كأنه في صدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمّى الله على كل نَفَس وعَظّم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيّته . روى لَيْث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد في قلبه قساوةً فليكتب « يس » في جام بزعفران ثم يشربه .

قلت : ومن حرمته ألّا يقال : سورة صغيرة . وكره أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ؛ ذكره مكيّ رحمه الله .

قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها الناس في الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي ، والجرأة على ذلك ، ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسّر من كتاب الله إلا آيًا بعدد ، علّمه إياهن جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث في مُغيّبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيّباته ما لم يُعلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

Marfat.com

النَّفَخات فى الصُّور ، وكِتْبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن آبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "آتّقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمِّدًا فليتبوّأ مقعده من النــار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النــار" . وروى أيضــا عن جُنْدب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّم فى أحد رواته[1] . وزاد رَزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقــد كفر . قال أبو بكر محمد بن القــاسم بن بشار بن محمــد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الردّ : فُسِّر حديث آبن عباس تفسيرين : أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بمــا لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتــابعين فهو متعرض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — : من قال فى القرآن قولًا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل؛ قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَميم مَعْشرِها * فــتَمّ فى قومها مُبَــوَّؤها[2]

وقال فى حديث جُنْدب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى؛ من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمــة السلف فأصاب فقــد أخطأ ، لحكمه على القرآن بمــا لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال آبن عطية : « ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عز وجل فيتسوّر[3] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء ، وآقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هــذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد بآجتهاده المبنىّ على قوانين علمٍ ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته ، هو سهيل بن أبى حزم واسمه مهران ، ويقال : عبد الله .

(٢) جاء فى لسان العرب مادة بوأ تفسيرا لهذا البيت : « أى نزلت من الكرم فى صميم النسب » .

(٣) قوله : فيتســوّر عليه ، من سوّر الحائط : هجم مثل اللص . ويعــنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر

Marfat.com

قلت : هذا صحيح وهو الذى آختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وهمه وخطر على باله من غير آستدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من آستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ »(١) . وهذا فاسد ؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الآستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن وآختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لآبن عباس وقال : "اللّهُمّ فَقِّهه فى الدِّين وعلِّمه التأويل" . فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه ؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . و إنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشيء رأى ، و إليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأوّل القرآن على وَفق رأيه وهواه ، ليحتجّ على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه ؛ أى رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(٢) و يشير إلى قلبه ، و يومئ إلى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله

(١) آية ٥٩ سورة النساء . (٢) آية ٢٤ سورة طه .

Marfat.com

الباطنيــة فى المقاصد الفاســدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فينزّلون القرآن على وَفق رأيهــم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعًا أنهـا غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير آستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدّلة[1] ، وما فيه من آلاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكِم ظاهر التفسير و بادر إلى آستنباط المعانى بمجرّد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زُمْرة من فسر القرآن بالرأى ؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منــه فى ظاهر التفسير أوّلا ليتّقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والآسـتنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصــول إلى الباطن قبــل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعـالى : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا »[2] معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا ، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى إليه . والله أعلم .

قال آبن عطية : « وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب وعامر الشعبىّ وغيرهمـا يعظّمون تفسير القرآن و يتوقّفون عنــه توزعا وآحتياطا لأنفسهم مــع إدراكهم وتقدّمهم » . قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمــة من السلف المـاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكل من القرآن؛ فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحْجِم عن القول . و بعضٌ يُشْفق من أن يجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه و يقتفى طريقه . فلعلّ متأخرا أن يفسر حرفاً برأيه و يخطئ فيــه و يقول : إمامى فى تفسير القــرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن آبن أبى مليكة قال : سـئل أبو بكر الصــديق رضى الله عنــه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظلّنى ، وأىّ أرض تُقلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا . (٢) آية ٥٩ سورة الإسراء .

Marfat.com

قال ابن عطية «وكان جلة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جُبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي». وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب. وكان علي رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه، وكان ابن عباس يقول: نِعم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه علي رضي الله عنه: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق. ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة قال: شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل؛ فقام إليه ابن الكواء[2] فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا؟ وذكر الحديث. وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه المَطِيّ لأتيته؛ فقال له رجل: أما لقيت علي بن أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته. وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مِثْل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ[3]. ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب الرد، وقال: الإخاذ عند العرب: الموضع الذي يحبس الماء كالغدير. قال أبو بكر: حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثنا سلام عن

---

(١) من قولهم: أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري كما في تاريخ الطبري في عدة مواضع.

(٣) قوله: من تلك الآخاذ. يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

Marfat.com

زيد العَمّى[1] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "أرحم أمتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ آبن جَبَل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعَاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال البطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذرّ".

قال آبن عطية : «ومن المبرِّزين فى التابعين الحسن البصرىّ ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة. قرأ مجاهد على آبن عباس قراءة تَفَهّم ووقوف عند كل آية ؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق آبن عباس، وإنما أخذ عن آبن جبير؛ وأما السُّدّىّ فكان عامر الشَّعْبىّ يطعن عليه وعلى أبى صالح؛ لأنه كان يراهما مقصِّرين فى النظر».

قلت : وقال يحيى بن مَعين : الكلبىّ ليس بشىء. وعن يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان قال قال الكلبى قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب. وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدَّروَغْ زَنْ[2] — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ — والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفُرْس. ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وآنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين". خرّجه أبو عمر وغيره. قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ البغدادى : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدِّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، وردّ تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعوّل فى أمر الدِّين عليهم، رضى الله عنهم.

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من راه بياعم. وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على آسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى، وهو مولى زياد بن أبيه. ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى.

(٢) آسمه باذام، وقيل : باذان، بمعجمة بين الفين. روى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ؛ كما فى تهذيب التهذيب.

Marfat.com

قال ابن عطية : « وألف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضل وعلى بن أبى طلحة والبخارى وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير ، وقرب البعيد منها وشفى فى الإسناد . ومن المبرزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو على الفارسى ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما . وعلى سننهما مكى بن أبى طالب رضى الله عنه . وأبو العباس المهدوى متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ، ونضر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء فى ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٣) وفرض طاعته فى غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(٤) . ذكر ابن عبد البر فى كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى محرمًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : ايتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى ؛ قال : فقرأ عليه « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وعن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تتخذا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتعذب عليهما أم تؤجر ، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(٥) . وروى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه

(١) آية ٤٤ سورة النحل . (٢) آية ٦٣ سورة النور . (٣) آية ٥٢ سورة الشورى .
(٤) آية ٧ سورة الحشر . (٥) آية ٣٦ سورة الأحزاب .

Marfat.com

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى: قوله "أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وَحْياً يُتْلَى، وأوتى من البيان مثله، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب؛ قال : فتحيّروا وضلّوا؛ قال والأريكة : السرير، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة(١)، قال: وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفّه والدّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها آستغناء عنها؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ »(٢) معناه تركهم الله آستغناء عنهم . وقوله : " فله أن يعقبهم بمثل قراه " هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراه عوض ما حَرَموه من قِراه . و"يعقبهم" يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة؛ ومنه قوله تعالى : « وإن عاقَبْتُم »(٣) أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فآعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(١) الحجلة : مثل القبة . (٢) آية ٦ سورة التغابن . (٣) آية ١٢٦ سورة النحل .

Marfat.com

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : " خذوا عني مناسككم " . وقال : "صلّوا كما رأيتموني أصلّي" . أخرجه البخاري . وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهْر في كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وإن السُّنة تفسّر هذا .

وروى الأوزاعيّ عن حسان بن عطيــة قال : كان الوحي ينزل على رســول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدّثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعيّ عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعيّ قال قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب . وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمــد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السُّنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجْسُر على هذا أن أقوله . ولكني أقول : إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلّم والفقه لكتاب الله تعالى ، وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم .
وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبَيّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبي عبد الرحمن السلميّ قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطإ مالك: أنه بلغه أن عبد الله

Marfat.com

آبن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمّى[(١)] « أسمـاء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى آثنتى عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبـارىّ : حدّثنى محمـد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيـد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمـرو عن زياد بن مخْراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسَهُل علينا العمل به، وإن من بَعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعُب عليهم العمل به .

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل آبن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يُرزقون العمل به . حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمـد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حمـاد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك إنا رَوَيْنا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نَحَر جزورا شكرًا لله، وإن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا ، فـا أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه، دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُلَيّة ومَعْمر، قال معمر : سمعت الزُّهرىّ يقول : من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : آعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . وقال آبن عبد البر : وروى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

Marfat.com

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همّتهم الدراية ، وأن السفهاء همّتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجُها ما به الإيمان قد وَجَبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه * وبعد ذلك علمٌ فرّج الكُرَبَا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فيه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها * فاختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كلّ العلوم تدبّره تر العجبا
واقرأ هُديت حديث المصطفى وسَلْ * مولاك ماتشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تَيَسّر منه "

روى مسلم عن أُبَيّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[1] بني غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين؛ فقال : " أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) : غدير صغير. وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير، وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

Marfat.com

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذيّ عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " ياجبريل إني بُعثت إلى أمة أمّية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قطّ فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال هذا : حديث صحيح . وثبت في الأمهات : البخاري ومسلم والموطإ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حبّان البُستيّ ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول — وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقْبِل وتعال وهَلُمّ . قال الطحاويّ : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على حرف؛ فقال ميكائيل : استزده؛ فقال : اقرأ على حرفين؛ فقال ميكائيل : استزده، حتى بلغ إلى سبعة أحرف؛ فقال : اقرأ فكلٌّ شافٍ كافٍ إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ؛ على نحو هَلُمّ وتعالَ وأقبِل واذهب وأسرع وعجّل . وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبَيّ بن كعب أنه كان يقرأ « لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا »[1] : للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنو أخّرونا، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الإسناد عن أُبَيّ أنه كان يقرأ « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ »[2] : مرّوا فيه، سَعَوْا فيه . وفي البخاريّ ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السّعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أُمّيين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوُسّع لهم

(١) آية ١٣ سورة الحديد . (٢) آية ٢٠ سورة البقرة .

Marfat.com

فى ٱختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ٱبن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ٱرتفعت تلك الضرورة فٱرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أُبَىّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أُبَىّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب" . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام ٱبن مسعود نحوه . قال القاضى ٱبن الطيّب[1] : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبَىّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا أسما لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها؛ يمنها ونزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتى جوامع الكَلِم؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هُذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله : «وَعَبَدَ الطّاغُوتَ»[2] . وقوله : «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ»[3] وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . وإلى هذا القول — بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات — ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام وٱختاره ٱبن عطية . قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاضى أبو بكر الباقلانى .

(٢) آية ٦٠ سورة المائدة . (٣) آية ١٢ سورة يوسف .

Marfat.com

أسعد بها وأكثر حظا فيهـا من بعض، وذكر حديث آبن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصـاحف : ما آختلفتم أنتم وزيد فآكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهـم . ذكره البخارى وذكر حديث آبن عباس قال : نزل القرآن بلغـة الكَعْبين ؛ كعب قريش وكعب خُزاعة . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى آبن الطيب رضى الله عنـه : معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »[1] ولم يقل قرشيًّا ؛ وهـذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان ، أو ربيعة دون مُضَر ؛ لأن آسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال آبن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عنـدى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغـة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال آبن عطية : معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنزل القرآن على سبعة أحرف" أى فيه عبارة سبع قبائل بلغـة جملتها نزل القرآن ، فيعبّر عن المعنى فيـه مرّة بعبارة قريش . ومرة بعبـارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش : آبتدأ [خلق الشىء وعمله][2] فجاءت فى القرآن فلم تتّجه لآبن عباس، حتى آختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فَطَرْتها ؛ قال آبن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى «فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ» . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعـالى « رَبَّنَـا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ »[3] حتى سمعت بنت ذى يَزَن تقول لزوجها : تعالَ أُفاتِحْكَ ؛ أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعـالى « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ »[4] أى على تنقص لهم . وكذلك آتفق لقطبـة بن مالك إذ

(١) آية ٣ سورة الزخرف . (٢) زيادة عن ابن عطية . (٣) آية ٨٩ سورة الأعراف .
(٤) آية ٤٧ سورة النحل .

Marfat.com

سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ »(١) ذكره مسلم فى باب (القراءة فى صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مُضَر؛ قاله قوم. وٱحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مُضَر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيم، ومنها لضَبَّة، ومنها لقَيْس؛ قالوا: هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ٱبن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر. وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها، مثل كَشْكَشَة قَيْس وتَمْتَمة تميم؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا، فيقولون فى « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً »(٢) : جعل رَبُّشِ تحتش سريّا؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء، وقد قرأ به الجِلَّة، وٱحتجوا بقراءة ٱبن مسعود : لَيَسْجُنُنَّه عتى حين؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذي الرُّمَّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها ❊ ولَوْنُكِ إلا عَنَّها غيرُ طائل

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الٱختلاف فى القراءة فوجدتها سبعاً : منها ما تتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطهرَ، « ويَضِيقُ صَدْرِي » ويضيقَ . ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل : « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعَد . ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها . ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش .

(١) آية ١٠ سورة ق . (٢) آية ٢٤ سورة مريم .

Marfat.com

ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود . ومنهـا بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت [سكرة] الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمْرٌ ونَهْىٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هـذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ »(١) فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام "أنزل القرآن على سبعة أحرف" القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالداوُدى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السـبعة ، ليست هى الأحرف السـبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهـم اختار فيما روى وعلم وجهـه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرف به ونُسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير؛ ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر ، وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

(١) آية ١١ سورة الحج .

Marfat.com

فى ذلك مصنفات، فآستمر الإجماع على الصواب، وحصل ماوعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما . قال آبن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه . وأما مايؤثر عن أبى السّمّال[1] ومن قارنه فإنه لا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يُعمل بها على أنها منه . وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة آبن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . فأما لو صرّح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والإثبات؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام . قال آبن عطية : أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف . ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : " فآقرءوا ما تيسّر منه " بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته، فأقرأ مرّة لأُبىّ بما عارضه به جبريل، ومرّة لآبن مسعود بما عارضه به أيضا؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة « الفرقان »، وقراءة

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) : هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى . له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة . وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع رفى ص ٣٦٨ محرفا، والتصويب عن طبقات القـــراء .

Marfat.com

هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كل قراءة منهما وقد اختلفا : " هكذا أقرأني جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلا » فقيل له : إنما نقرأ « وأقوم قيلا » . فقال أنس : وأصوب قيلا ، وأقوم قيلا وأهيأ ، واحد ؛ فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه ابطل معنى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(1) . روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته(2) بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرسله(3) اقرأ " فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هكذا أنزلت " ثم قال لي : " اقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه " .

قلت : وفي معنى حديث عمر هذا ، مارواه مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ؛ فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقرأا ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما ؛ فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ماقد غشيني ، ضرب في صدري ففضت عرقا ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقا ، فقال لي : "يا أبي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتي فرد إلي الثانية اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتي

(1) آية ٩ سورة الحجر . (2) قوله : لببته بردائه . أي جمعت ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته .

(3) أرسل الشيء : أطلقه .

Marfat.com

فردّ إلىّ الثالثة أقرأه على سبعة أحرف فلك بكل رَدّة رَدَدْتُكَهَا مسألة تسألنيها فقلت اللّهمّ آغفر لأمتى اللهم آغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يَرغَبُ إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام ".

قول أبىّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيْرة ودهشة؛ أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدّر عليه وقته؛ فإنه عظّم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ؛ و إلا فأىّ شيء يلزم من المحال والتكذيب من آختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النَّسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولمّا رأى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن آنشرح صدره وتنوّر باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ، ولمّا ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق آستحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه " ؟ قالوا : نعم ، قال : " ذلك صريح الإيمان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدّة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم متفرقًا فى صدور الرجال، وقد كتب الناس منه فى صُحُف وفى جَريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خَزَف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللِّخاف : حجارة بيض رِقاق ، واحدتها لَخْفة . والظُّرَر : حجر له حدّ كحد السكين ، والجمع ظِرار ؛ مثل رُطَب ورِطاب ، ورُبَع ورِباع ، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصِردان — فلما آستَحرّ[1] القتلُ

(١) قوله : آستحر ، أى آشتد وكثر .

Marfat.com

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء ، كأبىّ وابن مسعود وزيد؛ فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، بجمعه غير مرتب السُّوَر، بعد تعب شديد، رضى الله عنه . روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتَلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتـل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهبَ كثير من القرآن إلّا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن ؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيتُ الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنتَ تكتب الوحى لرسول الله صـلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفنى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صـدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف(١) والعُسُب(٢) وصـدور الرجال، حتى وجدت من سـورة « التوبة » آيتين مع خُزيمـة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيهـا القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن ابن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبى خزيمـة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمـة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُـلْ حَسْبِيَ اللّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم . (٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه .

Marfat.com

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال : حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري[1] — الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين — « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » . وقال الترمذي عنه : فقدت آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة ، فألحقتها في سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » في الجمع الأول ، على ما قاله البخاري والترمذي ؛ وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبري : أن آية « براءة » سقطت في الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ؛ على ما يأتي . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه . وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روي لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حذيفة المدينة — فيما ذكر البخاري والترمذي — دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله ، إني حضرت

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبي خزيمة بالكنية (القسطلاني) .

Marfat.com

هذه الغزوة، و جَمَعْتُ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما آختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة ،لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن النـاس قد آختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك. وهـذا شبيه بالكفر؛ قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد آختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشـيين : إذا آختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سـوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها، وآستصوبوا رأيه وكان رأيا سـديدا موفّقا؛ رحمة الله عليـه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : أن عثمان قَرَن بزيد أبَانَ بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جُعلت إمامًا فى هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح .

وقال آبن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل ،

Marfat.com

والله لقد أسلمت وإنه لفي صُلب رجل كافر ! . يريد زيد بن ثابت . ولذلك قال عبد الله ابن مسعود: يأهل العراق، اكتموا المصاحف التي عندكم وغُلُّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: « وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فالقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذي . وسيأتي الكلام في هذا في سورة « آل عمران »(١) إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنباري: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود في جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حيّ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار . ولا ينبغي أن يظنّ جاهل أن في هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما في الفضائل والمناقب . قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء نَتجه الغضب، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به، ولا يُشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم . فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون: المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت: هذا فيه نظر، وسيأتي . وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد — أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون في الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في آية ١٦١ راجع ج ٤ ص ٢٥٦

Marfat.com

فلان بن فلان ؛ فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَــل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال آبن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التـابوت ، فقال زيد : التـابوه . وقال آبن الزبير وسعيد بن العاصى : التـابوت ؛ فرُفع آختلافهم إلى عثمان فقال : آكتبوه بالتـاء ؛ فإنه نزل بلسان قريش. أخرجه البخارى والترمذى . قال آبن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليــه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخاً . قال غيره : قيـل سبعة . وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجّه بها إلى الآفاق، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات، فآتخذها قرّاء الأمصار معتمد آختياراتهم، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الآختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم آعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح، وأن القراءة بكل منها جائزة. قال آبن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرَق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يا معشر الناس، اتقوا الله! وإيّاكم والغُلُوّ فى عثمان، وقولكم : حرّاق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم. وعن عُمير بن سعيد قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا آجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم. وحرق عروة آبن الزبير كتب فقــه كانت عنــده يوم الحَرّة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

Marfat.com

ذكر الله تعالى؛ وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان. وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة: جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أداه الاجتهاد إلى ذلك.

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردٌّ على الحلولية[1] والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يُفعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثا، والمحدَث لا يصير قديما، وأن القديم ما لا أول لوجوده، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم؛ فقالوا: يجوز أن يصير المحدث قديما، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم: ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فإن قالوا: نعم، فارقوا الدين، وإن قالوا: لا، قيل لهم: فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت، فهل تقولون: إن كلام الله احترق؟ فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم؛ وإن قالوا: لا، قيل لهم أليس قلتم: إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت! وقلتم: إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فإن قالوا: احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم، منبّهًا على ما يقول أهل الحق: ولو كان القرآن في إهاب، ثم وقع في النار ما احترق. وقال الله عز وجل: "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم. فثبت بهذا

---

(١) الحلولية: فرقة من المتصوفة تقول: إن الله حالٌّ في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله. والحشوية: طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره.

Marfat.com

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول ، وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضـة — قبحهم الله تعـالى — فى القـرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحـرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ» . فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكّرها كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أَوْلا ، فالآية إنمـا ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنمـا ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فهى قرينـة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية «الأحزاب» فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : «أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ؛ وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس . قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا اجتماعهما فى الأنصـار ، أحدهما أوْسِىّ والآخر خَزْرجىّ» . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلّم أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

Marfat.com

وزيد، وأبو زيد؛ [قال][1] : ونحن ورثناه. وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عَقِباً ، وكان بَدْرِيّاً، واسم أبى زيد سعد بن عُبيد . قال ابن الطَّيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلىّ وتميم الدارىّ وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من فى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه و بعضه عن غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضى، عبدَ الله بن مسعود وسالما مولى أبى حُذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من هذا الذى يقرأ القرآن " . فقيل له : هذا عبد الله بن أُمّ عَبْد؛ فقال : " إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل " الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : " غضًّا كما أنزل " أى إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رُخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع و جماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابنِ أُمّ عَبْـد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة؛ فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

Marfat.com

ذلك وما بُدّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من آبن أم عبد — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب وسالم مَوْلى أبى حُذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد : حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت من فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم آثنتين وسبعين سورة — أو ثلاثا وسبعين سورة — وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »(1) . قال أبو إسحاق : وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنى إبراهيم بن موسى الخُوزى(2) حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين ، فلهذه العلّة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر « المعوّذتين » إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظى قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ؛ فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

(1) آية ٢٢٢ من السورة المذكورة . (2) كذا فى الأصول . والذى فى التهذيب وغيره : آبن يزيد .

Marfat.com

قلت : قوله عليه السلام " خذوا القرآن من أربعة من آبن أُمّ عَبْد " يدل على صحته ، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كلٌّ منهم عَزَا قراءته التي آختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ؛ فأسند عاصم قراءته إلى عليّ وآبن مسعود ، وأسند آبن كثير قراءته إلى أُبَيّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَيّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخَطّابي .

باب ما جاء في ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال آبن الطّيب : إن قال قائل قد آختلف السلف في ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكيّ على المدنيّ ، ومنهم من جعل في أوّل مصحفه الحمد، ومنهم من جعل في أوّله : « اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » ، وهذا أوّل مصحف عليّ رضى الله عنه . وأما مصحف آبن مسعود فإن أوّله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء، على ترتيب مختلف . ومصحف أُبَيّ كان أوّله : الحمد لله، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة؛ ثم كذلك على آختلاف شديد . قال القاضي أبو بكر بن الطّيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكيّ رحمه الله في تفسير سورة « براءة » وذكر أن ترتيب الآيات في السوَر ووضع البسملة في الأوائل هو من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولمّا لم يأمر بذلك في أوّل سورة « براءة » تُركت بلا بسملة؛ هذا أصح ما قيل في ذلك ، وسيأتي (١) .

وذكر آبن وهب في جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٦١

Marfat.com

ربيعة : قد قُدّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألّفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا ممـا ننتهى إليه، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال آبن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صـلّى الله عليه وسلّم فإنهم كانوا أبرهذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلّفا، وأقومها هَدْيًا، وأحسنها حالا ؛ آختارهم الله لصحبة نبيّه صـلّى الله عليه وسلّم و إقامة دينـه ، فآعرفوا لهم فضلهم، وآتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأما ما روى من آختلاف مصحف أُبَىّ وعلىّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن آبن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم . وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فرّق على النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى عشرين سـنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل، و يوقف جبريلُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية ؛ فآتساق السور كآتساق الآيات والحروف ، فكلّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن ربّ العـالمين ؛ فمن أخر سـورة مقدّمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسـد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ عنه هـذا الترتيب ، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن". وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » (1) . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن آبن عبـاس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

(1) آخر سورة « النساء » .

Marfat.com

لَا يُظْلَمُونَ » . فقال جبريل للنبيّ عليهما السـلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقـــرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهـذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه فى المصحف ، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه ،وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف ؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّه قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة ، ثم يقـرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها . وأما ما روى عن آبن مسعود وآبن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا ، وقالا : ذلك منكوس القلب ؛ فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، و يبتدئ من آخرها إلى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هـذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك و يقدر على الحفظ ، وهذا حظّره الله تعـالى ومنعه فى القرآن ؛ لأنه إفساد لسوره ومخالفة لمـا قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية ، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت سـورة البقرة والنساء إلا وأنا عنـده — تعنى بالمدينـة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ؛ ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السـوَر .

قال أبو بكر الإنبارى : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدّثنا حجاج بن منهال حدّثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ،

Marfat.com

و يأيها النبيّ لم تُحرّم إلى رأس العشر، و إذا زلزلت، و إذا جاء نصر الله . هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة؛ لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسلّم ما حكاه عن ربه تعالى . وقد قيل إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هذا الباب الموجود فى كلامنا المستحلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهـمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَها الخطوبُ
عيناكَ دَمْعُهما سَرُوبُ * كأنّ شأنَيْهما شَعيب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا، فقدّم المؤخر وأخر المقدّم؛ ومعنى سَروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجه فى الأرض؛ قال الشاعر[1] :

* أنّى سَرَبتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشئون، وهى مَواصِلُ قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجىء الدمع . شعيب : متفرّق .

---

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة « سرب » : « قال ابن برى : رواه ابن دريد « سربت » بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروب . ومن رواه « سريت » بالياء باثنتين فمعناه : كيف سريت ليلا، وأنت لا تسرين نهارا » .

Marfat.com

(فصل) — وأما شَكْل المصحف ونَقْطه فرُوِي أن عبد الملك بن مَرْوان أمر به وعمله، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا في القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات.

وأسند الزُّبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

(فصل) — وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية: مرّ بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك. وذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير في المصحف، وأنه كان يَحُكّه. وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب في المصحف. وقال أشهب: سمعت مالكا وسُئل عن العُشُور التي تكون في الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال: تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر في كل سورة ما فيها من آية، قال: إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شيء أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا. قال أشهب: ثم أخرج إلينا مصحفا لجدّه، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة في طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر. وقال قتادة: بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا. وقال يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجردا في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم. وعن أبي حمزة قال: رأى إبراهيم النَّخَعِي في مصحفي فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لي: امحه فإن عبد الله بن مسعود قال: لا تخلطوا في كتاب الله ما ليس فيه. وعن أبي بكر السراج قال قلت لأبي رزين: أأكتب في مصحفي سورة كذا وكذا؟ قال: إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن.

Marfat.com

قال الدانى رضى الله عنه : وهــذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشـير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمـرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحـرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(فصل) — وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفاظ والكُتّاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ . قال : وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا. قال: فأخبرونى إلى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن؟ فإذا هو فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » فى الفاء . قال : فأخبرونى بأثلاثه ؛ فإذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . قال : فأخبرونى بأسباعه على الحروف؛ فإذا أوّل سبع فى النساء «فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ» فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التـاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » فى الألف، والسبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَـةٍ » فى الهـاء ، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو ، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر ، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن . وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

(فصل) — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل ســتة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العـدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمّوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه إليه .

Marfat.com

وأما المدنيّ الأخير فهو فى قول إسمـاعيل بن جعفر : سـتة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القـرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمـد بن عيسى : وجميـع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذى رواه سليم(١) والكسائى عن حمزة ، وأسنده الكسائى إلى علىّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن . وأما عدد أهل الشام فقـال يحيى بن الحارث الذِّمَارى : سـتة آلاف ومائتان وست وعشرون . فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون؛ نقص آية . قال ٱبن ذَكْوان: فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا ، و يعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن — فى قول عطاء بن يسار — سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هـذا يخالف ما تقدّم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هـذا ما أحصينا من القـرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عدّ حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وٱنفصالها عنها، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاكَ سُـورةً * ترى كلّ مَلْك دونهـا يتـذبذبُ

أى منزلة شرف ٱرتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سُمِّيت بذلك لشرفها وٱرتفاعها كما يقال لما ٱرتفع من الأرض سـور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) فى الأصول : «مسلم» والراوى عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفى وهو أخص أصحاب حمزة به . (طبقات القراء) .

Marfat.com

عنده كسور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل . سُميت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة ، من قول العرب للبقيّة : سُؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ؛ فعلى هـذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واوا لآنضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سُورة ، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو . وقال الشاعر[1] :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَر *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لآنقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وآنفصاله ، أى هى بائنـة من أختها ومنفردة . وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ؛ أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ »[2] . وقال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها * لستة أعوام وذا العـامُ سابعُ

وقيل : سُميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم . قال بُرج بن مُسْهر الطائى :

خرجنا من النَّقبَيْن لا حَىَّ مثلنا * بآياتنا نُزجى اللِّقـاحَ المَطافلا

وقيل : سُميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . وآختلف النحويون فى أصل آية ؛ فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحرّكت الياء وآنفتح ما قبلها آنقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعـدها مدّة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثـل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحرّكها وآنفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لآلتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء[3] . وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهر من آيائه * غيرَ أثافيـه وأرمِـدائه

---

(١) هو الراعى ، وصدر البيت : * هنّ الحرائر لا ربات أخمرة *

(٢) آية ٢٤٨ من سورة « البقرة » .   (٣) قال فى اللسان مادة (أيا) : أياء جمع الجمع نادر .

Marfat.com

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشُّبهات(١) أي الحروف، وأطول الكلم في كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ»(٢). و«أَنُلْزِمُكُمُوهَا»(٣) وشبههما؛ فأما قوله: «فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»(٤) فهو عشرة أحرف في الرسم وأحد عشر في اللفظ(٥). وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا. وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى: «وَالْفَجْرِ». «وَالضُّحَى». «وَالْعَصْرِ». وكذلك «الٓمٓ». و«الٓمٓصٓ». و«طه». و«يسٓ». و«حمٓ» في قول الكوفيين، وذلك في فواتح السور، فأما في حشوهن فلا. قال أبو عمرو الداني: ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في الرحمن: «مُدْهَامَّتَانِ»(٦) لا غير. وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك في قوله: «حمٓ عٓسٓقٓ» على قول الكوفيين لا غير. وقد تكون الكلمة في غير هذا: الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا»(٧) قيل: إنما يعني بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ»(٨) إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى»(٩). قال مجاهد: لا إله إلا الله. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". وقد تسمّي العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون: قال قُسّ في كلمته كذا، أي في خطبته؛ وقال زُهير في كلمته كذا، أي في قصيدته؛ وقال فلان في كلمته يعني في رسالته؛ فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا.

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز. قال أبو عمرو الداني: فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف، وقد سبق التعبير به في ص ١٦ من هذا الجزء. (٢) سورة النور آية ٥٥
(٣) سورة هود آية ٢٨ (٤) سورة الحجر آية ٢٢ (٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى في الرسم فقط.
(٦) سورة الرحمن آية ٦٤ (٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ (٨) سورة القصص آية ٥ (٩) سورة الفتح آية ٢٦

Marfat.com

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أوكلمة ؟ قلت: كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليـه ، ولا ينفرد وحده فى الصـورة ولا ينفصل ممـا يختلط به ؛ وهـذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصـلة كانفراد الكلم وانفصالها ، فلذلك سُمّيت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غيرهذا : المذهبَ والوجهَ ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " أنزل القرآن على سـبعة أحرف " أى سبعة أوجه من اللغات ، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب ؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

واختلفوا هل وقع فيـه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ؛ فذهب القـاضى أبو بكر بن الطيب والطبرىّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربىّ صريح ، وما وجد فيـه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنمـا اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بهـا العرب والفرس والحبشة وغيرهم ، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتهـا لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّـا مبينًا ، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه . فالمشكاة : الكُوّة ونشأ : قام من الليل ؛ ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » و« يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد ؛ كله بلسان الحبشة . والغَسّاق: البارد المُنْتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان ؛ بلغة الروم . والسِّجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطُّور الجبل . واليَمّ : البحر بالسريانية . والتَّنُّور: وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية : «حقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهـذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهـا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات ، و برحلتى قريش ، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام ،

Marfat.com

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الصحيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى هذا الحد نزل بها القرآن . فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال ابن عطية : « وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر؛[1] لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأول أصح . وقوله : هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم، ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أو لا ، فإن كان الأول فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فإن قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فإن اختل منها شرط لا تكون معجـــزة .

(١) في الأصول : « والأخرى فرع ، لا أنا ندفع ... الخ » . والزيادة والتصويب عن ابن عطية .

Marfat.com

فالشرط الأوّل من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه ، و إنما وجب حصول هـذا الشرط للعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجىء الرسل وآدّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك و يسكن و يقوم و يقعد لم يكن هذا الذى آدّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، و إنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وآنشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثـانى هو أن تخرق العادة . و إنما وجب آشـتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجىء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما آدّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال و إن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول : الدليل على صدق أن يخرق الله تعـالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، و يشق الحجر و يخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات، ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقـام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعثته . ومثال هذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جمـاعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منـه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقى ؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما آستشهد به على صدقه ، قام ذلك مقـام قوله لو قال : صـدق فيما آدّعاه علىّ . فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

Marfat.com

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ، فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرّك الأرض عنـد قولى لهـا : تزلزلى ، فاذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب آشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة: آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هـذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبىّ ، فإن هـذا الكلام الذى خلقه الله تعـالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه . وكذلك ما روى أن مُسَـيْلِمة الكذاب لعنه الله تفـل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من المـاء ، فما فعل الله سبحانه من هـذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثـل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعـالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ماعمل بطل كونه نبيًّا ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهـذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن آدّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فآعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال: إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ماهو معروف مشهور، فإنا نقول: ذلك يدّعى الرسالة، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان مابين البصراء والعميان، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

Marfat.com

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأول — ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته ووجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العـدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل ، فنقل القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله إلينا بعـدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ظهور القـرآن على يديه وتحديه به . ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجـود البلدان ؛ كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة ، وأشباه ذلك من الأخبـار الكثيرة الظاهرة المتواترة ؛ فالقرآن معجزة نبينا صـلى الله عليه وسـلم الباقية بعده إلى يوم القيامة ، ومعجزة كل نبي انقرضت بانقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

Marfat.com

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبى ذر قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن ، ساحر ؛ وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء[1] الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق و إنهم لكاذبون . وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حم » فصلت ، على ما يأتى بيانه هنالك[2] ؛ فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك فى سورة «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»[3] إلى آخرها ، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[4] إلى آخر السورة ، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»[5] إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره ؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »[6] ، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ »[7] .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية ؛ و بمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ؛ وبها وقع التحدى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه و بحوره وأنحاؤه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٠٠ (٧) راجع جـ ٩ ص ٢٩٦

Marfat.com

ينضاف إليها أمرآخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سـورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مُغَيَّبَيْن : أحدهما — الإخبار عن الكَوْثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من أتباع سـائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عنـد نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا »(١) ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى؛ حتى يقـع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدّمت فى أوّل الدنيا إلى وقت نزوله من أُمِّيّ ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يَخُطّه بيمينه ؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه ، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السـلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجـاءهم — وهو أمّىّ من أُمة أُمِّيّة ، ليس لهـا بذلك علم — بمـا عرفوا من الكتب السالفة صحته ؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا ممـا لا سبيل إليه إلا عن تعلّم ؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردّدا إلى المتعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحْى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه ؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه ، وإلى وعد مقيّـد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »(٢) « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(٣) « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »(٤) و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »(٥) ، وشبه ذلك .

ومنهـا : الإخبار عن المغيّبات فى المستقبل التى لا يطلع عليهـا إلا بالوحى ؛ فمن ذلك :

(١) راجع جـ ١٩ ص ٧٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٦١ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٣٩ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٤ .

Marfat.com

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ »[1] الآية . ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنُّجح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ »[2] وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ »[3] . وقال « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ »[4] وقال : « الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ »[5] . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا ربّ العالمين ، أو مَن أوقفه عليها ربّ العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام ، في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام .

ومنها : الحِكَم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدميّ .

ومنها : التناسب في جميع ما تضمّنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[6] .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادي عشر قاله النَّظّام وبعض القدرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفة عند التحدي بمثله . وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصَّرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصَّرْفة

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٦٩ . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١ . (٦) راجع جـ ٥ ص ٢٩٠

Marfat.com

على قولين : أحدهما — أنهم صُرفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

قال ابن عطية : « وجه التحدّى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيّن المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره . والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أن بشرًا لم يكن محيطا قطّ ؛ فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ فى قدرة أحد من المخلوقين ، و يظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، و بشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ (١) » الآية . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرة الفوت ، والدار الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردّى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢) » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

(١) آية ٧ سورة القصص . (٢) آية ١٨٥ سورة آل عمران .

Marfat.com

مَنْ أَغْرَقْنَا »(١) . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة و إجرائها و إهلاك الكفرة ، وآستقرار السفينة وآستوائها ، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله ؛ أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ »(٢) . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »(٣) . فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السُّوَر القصار ، فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ »(٤) . فأُفحموا عن الجواب . وتقطّعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهْوَنَ كثيرا ، وأبلغ فى الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللَّحَن(٥) ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللَّسَن(٦) .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتى من جوامع الكلم ، وآختص به من غرائب الحِكَم ؛ إذا تأمّلتَ قوله صلّى الله عليه وسلّم فى صفة الجنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته منحطًّا عن رتبة القرآن ؛ وذلك فى قوله عليه السلام : "فيها ما لا عَيْنٌ رأت ولا أذُنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هـذا أعدل وزنا ، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ؛ على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال آتسع فيـه مجال المتصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلف ؛ وبهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنـة المعارضة ؛ كما قامت الحجة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

---

(١) آية ٤٠ سورة العنكبوت . (٢) آية ٣٣ ، ٣٤ سورة الطور . (٣) آية ١٣ سورة هود .
(٤) آية ٢٣ سورة البقرة . (٥) اللحن (بالتحريك) : الفطنة واللغة . (٦) اللسن (بالتحريك) : الفصاحة .

Marfat.com

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبىّ الذى أراد إظهاره ؛ فكان السـحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطّب فى زمن عيسى عليه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سُوَر القرآن وغيره

لا ٱلتفات لما وضعه الواضعون، وٱختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، فى فضـل سُوَر القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ٱرتكبها جماعة كثيرة، ٱختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ٱرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثـل : المغيرة بن سعيد الكوفى، ومحمـد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وغيرهما، وضـعوا أحاديث وحدّثوا بها ليُوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدى إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الٱستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره ٱبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دين، فٱنظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هَوِينا أمرًا صيّرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا، يدعون النـاس إلى فضائل الأعمال، كما رُوى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المَرْوَزِى ، ومحمد بن عكاشة الكِرمانى، وأحمـد بن عبد الله الجُوَيبارِى، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن ٱبن عباس فى فضل سُوَر القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت النـاس قد أعرضوا عن القرآن وٱشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن إسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

Marfat.com

الصلاح في كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن . وقد أخطأ الواحديّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤال والمُكْدين يقفون في الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد، قال جعفر بن محمد الطيالسي : صلّى أحمد بن حنبل ويحيي بن معين، في مسجد الرُّصَافة . فقام بين أيديهما قاصّ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيي بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان . وأخذ في قصة نحو من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيي ويحيي ينظر إلى أحمد، فقال : أنت حدّثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه . فقال له يحيي : من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيي بن معين؛ فقال أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا ؛ فقال له : أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيي : وكيف علمت أني أحمق ؟ قال : كأنه ليس في الدنيا يحيي بن مَعين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحَمام واللَّهْو به ؛ فأُهْدِى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَريّ[(١)]

(١) أبو البختري : هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . انتقل من المدينة إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقي من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيري وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفي سنة مائتين .

Marfat.com

القاضي فقال : روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سَبَق إلا فى خُفٍّ أو حافر أو جَناح" فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سَنِيّة ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحَمَام أن يذبح؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو آقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "آتقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه . فحذارِ مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّـنّة، أن القرآن آسم لكلام الله تعـالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليـه وسلّم معجزةً له — على نحو ما تقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور، مقـروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ فى المصاحف ؛ معلومةٌ على الآضطرار سُـوَرُه وآياته، مُبرّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ ، ولا فى حصره بعدّ، فمن آدّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، وردّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليـه، وردّ قوله تعالى : «قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»[1] ، وأبطل آية رسوله

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٦

Marfat.com

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادّ لكتاب الله ولمّا جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أُولى الجَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » . ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» . فادّعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادّعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ

Marfat.com

« أحد » وآدّعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن فى قراءة المسلمين .

وآدّعى أن المصحف الذى فى أيدينا آشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيّرة، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١)، فآدّعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب : « وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغى فى هذا وأشكاله حتى آدّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعــه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» . وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علِىّ وأنتم أذلة» . وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط علىّ مستقيم» . وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهـم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : « أليس قلت للنــاس » فى موضع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتــاء فشاذّ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يُحمل كتاب الله عليها .

وآدّعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أَوْلى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمتى أُبَىّ بن كعب " ولقوله عليه السلام : " مَن سَرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة آبن أمّ عَبْد " . وقال هــذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : « إنّ هذين »(٢)، « فأصدق وأكون »، « وبشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما أتانىَ الله » بفتح الياء . والذى فى المصحف : « إِنَّ هَــذَانِ »(٢) بالألف ،

(١) آية ١١٨ سورة المــائدة .

(٢) بتشديد النون، قراءة نافع .

Marfat.com

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين فى الموضعين .
وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين[1] ، يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم ، وفى المصحف نون واحدة ؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتُمِدُّونِ بِمَالٍ » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « ألا إن ثمودَ كفروا ربهم » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هـذا الذى شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العـدّ فيما تقدّم ممـا اختلفت فيه المصاحف ، وسيأتى بيان هـذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أُبَيّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عبـاس قرأ القرآن على أُبَيّ بن كعب « حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » ، فى رواية وقرأ أُبَيّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العـدالة والصّيانة ، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحي بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العـلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهـد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أُبَيّ بن كعب ، وقرأ أُبَيّ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أبى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُروى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليـه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَيّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ؛ وعن ابن عباس « ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

Marfat.com

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » . ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصـلاة بها تحلّ ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يُستتاب ؛ فإن تاب و إلا ضُربت عنقه . وقال أبو عبيد: لم يزل صَنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقـد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيغ فانكشف عواره، ووضحت فضائحه . قال أبو عبيد : وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله – بحُمْقهم – جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان ؛ فإذا قرأ قارئ : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقد كذَب على الله جلّ وعلا وقوّله مالم يقل، و بدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن مايحلّون به عُرا الإسلام، ويَنسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم . وفيـه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسـلام، وبثباته تقـام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتتحرى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجرًا ، وذكر عليًا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

Marfat.com

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نَفْيٌ له وكُفر ؛ ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِف لنا ربّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» ففي «هو» دلالة على موضع الرّد ومكان الجواب؛ فإذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ عن الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملّتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأيّ زيادة فى القرآن أوضح من هذه ، وكيف تخالط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفترٍ ومُبطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تُؤمِّلت وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تخلط به ، ولا توافق معناه . وذلك أن بعدها « لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها : فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون . فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ، لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى مَن خالف حرْفًا منه كفر . « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصّديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البليّة والنّقمة ، والشراب محال أن

Marfat.com

يؤكل. فإن آدّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله ردًا لقوله، وخزيا لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ»(1) إن شاء الله تعالى.

القول فى الآســتعاذة

وفيها آثنتا عشرة مسألة:

الأولى — أمر الله تعالى بالآستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ» أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر:

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ وآستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» وهو كثير.

الثانيـــة — هـــذا الأمر على النّدب فى قول الجمهور فى كل قراءة فى غير الصـــلاة. وآختلفوا فيه فى الصلاة. حكى النّقاش عن عطاء: أن الآستعاذة واجبة. وكان آبن سيرين والنّخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله فى الآستعاذة على العموم؛ وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان.

الثالثـــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

(1) راجع ج ٢ ص ٦١

Marfat.com

لفظ كتاب الله تعالى . ورُوِى عن ٱبن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " يا ٱبن أمّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم" .

الرابعة — روى أبو داود وٱبن ماجه في سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال : " الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا — ثلاثا — الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان مِن نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه" . قال عمرو: هَمْزُه المُوْتَةُ، ونَفْثُه الشِّعر، ونَفْخُه الكِبْرُ . وقال ٱبن ماجه : المُوْتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل مِن فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : " سبحانك اللّهمّ و بحمدك تبارك ٱسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه"، ثم يقرأ. وروى سليمان بن سالم عن ٱبن القاسم[2] رحمه الله أن الاستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ٱبن عطية : « وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى ٱسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نِعمت البِدْعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز » .

الخامسة — قال المَهْدَوِىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أسرَّها . وروى السُّدِّىّ[3] عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، فإذا نسيه

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (انظر سنن ٱبن ماجه ج ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود ج ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » . (٣) فى بعض النسخ : « المسيبى » .

Marfat.com

القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوذ، ثم ٱبتـدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأول قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســـة — حكى الزَّهراوى قال: نزلت الآية فى الصلاة ونُدبنا إلى الاستعاذة فى غير الصلاة وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده، ثم تأسّينا به .

السابعـــة — رُوى عن أبى هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربى: «ٱنتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم» . وقد روى أبو سعيد الخُدْرى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة؛ وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتها ٱمتثال الأمر؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها فى ٱمتثالها أمرًا أو ٱجتنابها نهيًا؛ وقد قيل : فائدتها ٱمتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ »(١) . قال ٱبن العربى: «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(٢) قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يعضُده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية» .

الثامنـــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : ٱستبّ رجلان عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" . فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلم فقال : هل تدرى ما قال

(١) آية ٥٢ سورة الحج . (٢) آية ٩٨ سورة النحل .

Marfat.com

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا تراني ! أخرجه البخاري أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني و بين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب (١) فإذا أحسستَه فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عني . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : " يا أرضُ ربّي وربّك الله أعوذ بالله من شرّك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر ما يَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد " . ورَوَتْ خَوْلة بنت حَكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : " مَن نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل " . أخرجه المُوَطّأ ومسلم والترمذيّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يُتعوّذ منه كثير ثابت في الأخبار، والله المستعان .

التاسعة — معنى الاستعاذة في كلام العرب : الاستجارة والتحيّز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان واستعذت به؛ أي لجأت إليه . وهو عياذي؛ أي ملجئي . وأعذت غيري به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك؛ أي أعوذ بالله منك؛ قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر * عَـوْذٌ بربّي منكُم وحُجُرْ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (٢) : حُجْرًا له (بالضم) أي دفعًا، وهو استعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعْوُذ نقلت الضمة إلى العين لاستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقال له خنزب . في نهاية ابن الأثير : «قال أبو عمرو : وهو لقب له، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم» . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادة (حجر) .

Marfat.com

العـاشرة — الشيطان واحد الشياطين، على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير. وشطنت داره أى بعدت، قال الشاعر[١]:

نأتْ بِسعادَ عنك نَوًى شَـطُونُ * فبانتْ والفـؤادُ بهـا رهـينُ

وبئر شَطُون أى بعيدة القعر. والشَّطَن: الحبل، سُمِّىَ به لبعد طرفيه وآمتداده. ووصف أعرابى فرسا [لايُحْفَى][٢] فقال: كأنه شيطان فى أشطان. وسُمِّىَ الشـيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرّده، وذلك أن كل عاتٍ متمرِّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان، قال جرير:

أيامَ يدعوننى الشيطانَ من غَزَلِى * وهُنّ يَهْـوَيْننى إذ كنتُ شـيطانَا

وقيل: إن شـيطانا مأخوذ من شاط يَشيط إذا هلك[٣]، فالنون زائدة. وشاط إذا آحترق. وشيّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه. وآشتاط الرجل إذا آحتدّ غضبا. وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن. وآشتاط إذا هلك، قال الأعشى:

قد نَخضِب العَيْر من مكنون فائِله[٤] * وقـد يَشِيط على أرماحنا البَـطَلُ

أى يهلك. ويردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول: تَشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تَشَيّط، ويردّ عليهم أيضا بيت أُمَيّة بن أبى الصَّلْت:

أيّمـا شاطنٍ عَصَـاه عَكَاه[٥] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه.

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعـد من الخير المهان. وأصـل الرجم: الرمى بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم. والرجم: القتل واللعن والطرد والشتم، وقـد قيل هذا كله فى قوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ». وقول أبى إبراهيم: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ»[٦]. وسيأتى إن شاء الله تعالى.

(١) هو النابغة الذبيانى، كما فى لسان العرب مادّة (شطن). (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (شطن).
(٣) فى الأصول: «إذا بطل» والتصويب عن اللسان. (٤) الفائل: عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك ينحدر فى الرجلين. (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شدّه. (٦) راجع ج ١١ ص ١١١ وج ١٣ ص ١٢١

Marfat.com

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : رأيت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص فى صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمّة منك؛ قال : ما هذا جزائى منك؛ قلت : وما جزاؤك منى يا عدوّ الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه فى رَحِم أمّه .

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : «بسم الله الرحمن الرحيم» قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذى وضعت لكم يا عبادى فى هذه السورة حق ، وإنى أفِى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرّى . و « بسم الله الرحمن الرحيم » مما أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمّنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات ؛ وهذا صحيح .

الثانية — قال سعيد بن أبى سكينة : بلغنى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه نظر إلى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغنى أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْر الحافى ، فإنه لما رفع الرقعة التى فيها آسم الله وطيبها طُيّب آسمه[1] ، ذكره القشيرى . وروى النسائى عن أبى المليح عن ردف رسول الله

(١) نص القصة كما فى وفيات الأعيان والرسالة القشيرية : « ... وسبب توبته أنه أصاب فى الطريق ورقة مكتوبا فيها آسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام ، فأخذها وآشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها فى شق حائط ، فرأى فى النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر ، طيبت آسمى لأطيبنك فى الدنيا والآخرة . فلما آنتبه من نومه تاب .

Marfat.com

صلى الله عليــه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوّته صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب " . وقال عليّ بن الحسين في تفسير قوله تعــالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا »(١) قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ٱبن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ليجعل الله تعــالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النــار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون في كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنالك هي قوّتهــم ، وببسم الله ٱستضلعوا . قال ٱبن عطيه : ونظير هذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين ، مراعاة للفظة « هي » من كلمات سورة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ٱبتدروا قول القائل : ربَّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ؛ فلذلك قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : " لقد رأيت بضعا وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل " . قال ٱبن عطية : وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثـــة — روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب « بٱسمك اللّهمّ » حتى أُمِر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمــا نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفي مصنف أبي داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعـــة — رُوي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : البسملة تِيجان السُّوَر . قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وقد ٱختلف العلماء في هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١ .

Marfat.com

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثاني) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة ؛ وتردّد قوله في سائر السُّوَر ؛ فمرّة قال : هي آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .

واحتج الشافعي بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر[1] عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها". رفع هذا الحديث عبدالحميد آبن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبوحاتم يقول فيه : محلّه الصدق ؛ وكان سفيان الثوريّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة آبن المبارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت عليّ آنفًا سورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» . وذكر الحديث ، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى[2] .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه . قال آبن العربي : « ويكفيك أنها

---

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا في الأصول والتصويب عن سنن الدارقطني وتهذيب التهذيب . وعبدالحميد بن جعفر هذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفي . راجع تهذيب التهذيب .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١٦ .

Marfat.com

ليست من القرآن آختـلاف الناس فيهـا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبـار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد « الحمد لله رب العالمين » قال الله تعالى حمدني عبدي و إذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي و إذا قال العبد « مالك يوم الدين » قال مجّدني عبدي — وقال مرة فوّض إلى عبدي — فإذا قال « إيّاك نعبد و إيّاك نستعين » قال هذا بيني و بين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال « آهدنا آلصراط آلمستقيم صراط آلذين أنعمت عليهم غير آلمغضوب عليهم ولا آلضالين » قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل " . فقوله سبحانه : "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة ، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ فجعل الثلاث الآيات الأُوَل لنفسه ، وآختص بها تبارك آسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه و بين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الآستعانة منـه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعـالى ، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبدي" أخرجه مالك ؛ ولم يقل : هاتان ؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال آبن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهـذه القسمة التي قسمها الله تعالى و بقوله عليـه السلام لأُبَيّ : " كيف تقرأ إذا آفتتحت الصـلاة " قال : فقرأت « الحمـد لله رب آلعالمين » حتى أتيت على آخرها — أن البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة؛ وأكثر القرّاء عدّوا « أنعمت عليهم » آية ، وكذا روى قتادة عن أبي نَضْرة عن أبي هريرة قال : الآية السادسـة « أنعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهـم عدّوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فإنها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت في النمل ، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح ؛ ولكن لكونها قرآنا ، أو لكونها فاصلة بين السور

Marfat.com

— كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود — أو تبركاً بها، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجُرَيرى[1] : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شيء من القرآن إلا فى «طس» «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ؛ والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها . وقد تولّى الدّارَقُطْنِيّ جمع ذلك فى جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صلّيت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا فى أول قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم، وهو المعقول، وذلك أن مسجد النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسُّنّة ؛ وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا استحبّوا قراءتها فى النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السَّعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) : وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

Marfat.com

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلّى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرًّا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هــذا هو المشهور من مذهبه عنــد أصحابه . وعنــه رواية أخرى أنها تقرأ أوّل السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أوّل أم القرآن . وروى عنــه ٱبن نافع ٱبتــداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهــل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ٱبن عمر، وٱبن شهاب ؛ وبه قال الشافعي وأحمــد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهــذا يدل على أن المسألة مسئلة ٱجتهادية لا قطعية ، كما ظنــه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الٱختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة؛ منهم : أبو حنيفة والثّورى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وٱبن مسعود وعمّار وٱبن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمد ٱبن حنبل وأبو عبيــد ؛ ورُوِىَ عن الأوزاعىّ مثــل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبــد البرّ فى (الٱستذكار) . وٱحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلّى بنــا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رُزَيق[(١)] عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال: صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقــد رُوى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون بالمسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة ـــ يعنون مُسَيْلِمة ـــ فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هــذا على

(١) كذا فى تهذيب التهذيب . وفى الأصول : « عمار عن رزيق » وهو خطأ .

Marfat.com

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة — اتفقت الأمة على جواز كَتْبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروَى مُجالد عن الشَّعْبي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وقال الزهري : مضت السُّنّة ألا يكتبوا في الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وذهب إلى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جُبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي نختاره ونستحبه .

السابعة — قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله : مُبَسْمِل، وهي لغة مُوَلّدة، وقد جاءت في الشعر؛ قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد بَسْمَلَتْ ليلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسملُ

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السِّكِّيت والمُطَرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة؛ أي من قول بسم الله . ومثله حَوْقَل الرجل، إذا قال : لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله . وهَلَّل، إذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطَبْقَل، إذ قال : أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عِزّك . وحَيْفَل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المُطَرِّز : الحَيْصَلة، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم : " أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخمّر إناءك وآذكر (١) آسم الله وأوكِ سقاءك وآذكر آسم الله " . وقال : " لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا " . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سمّ الله وكُلْ بيمينك وكلْ مما يليكَ" وقال : " إنّ الشيطان ليستحل الطعام الا يذكر آسم الله عليه" وقال : " من لم يذبح فليذبح بآسم الله " . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى آبن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " سَتْرُ ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكَنِيف أن يقول بسم الله " . وروى الدّارَقُطنىّ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمّى الله تعالى، ثم يُفرغ المـاء على يديه .

التاســعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَـدَريّة وغيرهم ممن يقول : إنّ أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الآحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الآبتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى « بسم الله » ، أى بالله . ومعنى « بالله »، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهـذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله « بسم الله » يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا آسمه عند آفتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الآفتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العاشـــرة — ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى إلى أن « آسم » صلة زائدة، وآستشهد بقول لَبِيد :

إلى الحَـوْل ثم آسم الســلام عليكما * ومَن يَبْكِ حَوْلًا كاملًا فقد آعتذر

---

(١) التخمير : التغطية . والوكاء: الخيط الذى تشد به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

Marfat.com

فذكر « آسم » زيادة، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هذا على أن الاسم هو المسمَّى . وسيأتى الكلام فيه في هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — آختلف فى معنى زيادة « آسم » ؛ فقال قُطْرُب : زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام : بالله .

الثانية عشرة — آختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : آبدأ بسم الله . أو على معنى الخبر؟ والتقدير : آبتدأت بسم الله؛ قولان : الأوّل للفرّاء ، والثانى للزجاج . فـ « باسم » فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى آبتدائى بسم الله؛ فـ « بسم الله » فى موضع رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محذوف؛ أى آبتدائى مستقرّ أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان «بسم الله» فى موضع نصب بثابت أو مستقرّ، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فـ « عنده » فى موضع نصب؛ رُوى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير آبتدائى بسم الله موجود أو ثابت، فـ « بآسم » فى موضع نصب بالمصدر الذى هو آبتدائى .

الثالثة عشرة — « بسم الله » ، تكتب بغير ألف آستغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الاستعمال ؛ بخلاف قوله : « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تُحذف الألف . وقال يحيى بن وَثّاب : لا تُحذف إلا مع « بسم الله » فقط، لأن الاستعمال إنما كثُر فيه .

الرابعة عشرة — وآختلف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

Marfat.com

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف آسماً ؛ نحو الكاف فى قول الشاعر[(١)] :

* ورُحْنا بِكَابْنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسْـطَنا *

أى بمثل آبن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — آسمٌ ، وزنه افْعٌ ، والذاهب منه الواو ؛ لأنه من سَمَوْت ، وجمعه أسماء ، وتصغيره سُمَىّ . وآختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقُفل وأقفال ؛ وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيـه أربع لغات : اِسم بالكسر ، وأُسم بالضم . قال أحمد بن يحيى : مَن ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقـال : سِمٌ وسُمٌ ، ويُنْشَد :

واللهُ أسمـاكَ سُمًـا مباركـا * آثـرك الله بـــه إيثاركـا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقــدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْح وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكا[(٢)] لكل عظم يَلْحَمُهْ *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا ، فهو قرضاب . « سِمُه » بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سُمُه *

وسكنت السين من « بآسم » آعتلالا[(٣)] على غير قيـاس ، وألفه ألف وصل ، وربمـا جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ؛ كقول الأحْوَص :

وما أنا بالمخْسُوس فى جِذْم مالكٍ * ولا مَن تَسَمَّى ثم يلتزم الإسمـا[(٤)]

---

(١) هو آمرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء ، مُلح . ويلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل آسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

Marfat.com

السادسة عشرة — تقول العرب في النسب إلى الاسم : سُِمَوِيّ ، وإن شئت اسْمِيّ ، تركته على حاله ، وجمعه أسماء ، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلوّ والرفعة ، فقيل : اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الاسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سُمِّيَ الاسم اسماً لأنه علا بقوّته على قسمي الكلام : الحرف والفعل ؛ والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل ؛ فلِعلوّه عليهما سمي اسما ؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة ؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» . والأوّل أصح ؛ لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء ؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة — فإن من قال الاسم مشتق من العُلُوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم ، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته ؛ وهذا قول أهل السُّنة . ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفاتٍ ، فإذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة ؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة ، وهو أعظم في الخطإ من قولهم : إن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمُسَمَّى وهي :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيّب — إلى أن الاسم هو المسمى ، وارتضاه ابن فُورَك ؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم ؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق ؛ فالخالق هو الرب ، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمّى بعينه من غير تفصيل .

Marfat.com

قال ٱبن الحصار : مَن ينفى الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمّى ، ومَن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان فى « البقرة » و « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه ٱسم الله الأعظم ولم يتسمّ به غيره؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلى قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمه الذى هو « الله » . فالله ٱسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهيّة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إله إلا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يُعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — وٱختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات علَم؟ . فذهب إلى الأوّل كثير من أهل العلم. وٱختلفوا فى ٱشتقاقه وأصله ؛فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه، مثل فِعَال؛ فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة. قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم،وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ٱبنُ عمِّكَ لا أفضلتَ فى حسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانى فتخزونى

كذا الرواية : فتخزونى، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء: معنى « بسم الله » بسم الإله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لامًا مشدّدة؛ كما قال عزّ وجلّ : «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا؛ كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر ؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وَالِهٌ وٱمرأة والهة ووَالِهٌ ، وماء موله[1] : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدد وتفتح الواو .

Marfat.com

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هـذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، و إسادة ووسادة؛ ورُوى عن الخليل . ورُوى عن الضحاك أنه قال : إنما سُمِّىَ « الله » إلهاً، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم ، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم . وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألَهُون إليه (بنصب اللام) ويأْلِهُون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الآرتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاهًا ، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيـل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبّد . وتألّه إذا تنسّك؛ ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة ؛ فإن آبن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هـذا ، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنـه قول الموحدين : لا إله إلا الله ، معناه لا معبود غير الله . و « إلا » فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الآستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب ، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار « لَهُ » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليـه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضّـل وغيرهم ، ورُوِىَ عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هـذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه؛ كقولك : يا الله ، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا آلرحمن ولا يا آلرحيم ، كما تقـول : يا الله ، فدل على أنهما من بِنْية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — وآختلفوا أيضا فى آشتقاق آسمه الرحمن؛ فقال بعضهم : لا آشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقًّا من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رَحْمنٌ بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

Marfat.com

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم، وقد قال الله عزّ وجلّ: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ» الآية. ولما كتب علىّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال سُهيل بن عمرو: أما «بسم الله الرحمن الرحيم» فما ندرى ما «بسم الله الرحمن الرحيم»! ولكن آكتب ما نعرف: باسمك اللّهمّ، الحديث. قال آبن العربى: إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، وآستدل على ذلك بقولهم: وما الرحمن؟ ولم يقولوا: ومَن الرحمن؟ قال آبن الحصّار: وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ». وذهب الجمهور من الناس إلى أن «الرحمن» مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثَنَّى ولا يجمع كما يُثَنَّى «الرحيم» ويُجمع.

قال آبن الحصار: ومما يدل على الآشتقاق ما خرّجه الترمذى وصحّحه عن عبد الرحمن آبن عَوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرّحم وشققت لها آسمًا من آسمى فمن وَصَلها وَصَلته ومَن قَطَعها قطعته". وهذا نص فى الآشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له.

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر آبن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له: أن «الرحمن» آسم عبرانىّ فجاء معه بـ «الرحيم». وأُنشد[(١)]:

لن تُدرِكوا المجدَ أو تَشْروا عباءَكُم * بالخَزِّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركون إلى القَسَّيْن هِجْرَتَكم * ومَسْحَكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا[(٢)]

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن: وقال أحمد بن يحيى: «الرحيم» عربىّ و«الرحمان» عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما. وهذا القول مرغوب عنه.

وقال أبو العباس: النعت قد يقع للمدح؛ كما تقول: قال جرير الشاعر. وروى مُطَرِّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: مدح نفسه. قال أبو إسحاق:

(١) قائله جرير. واليَنبوت: ضرب من الشجر. (٢) انظر شرح القاموس واللسان مادة «رحم».

Marfat.com

وهذا قولٌ حَسَن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قولٌ حَسَن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ؛ والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضّلٌ بعد تفضّل ، وإنعامٌ بعد إنعام ، وتقويةٌ لمطامع الراغبين ، ووعدٌ لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : هما بمعنًى واحد ، كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ؛ نحو قولك : رجل غضبان ، للمتلئ غضباً . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلَّس[1] :

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً * فإنك معطوفٌ عليك رَحيمُ

فـ«الرحمن» خاصّ الاسم عام الفعل . و «الرحيم» عام الاسم خاصّ الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : «الرحمن» اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله . «والرحيم» إنما هو فى جهة المؤمنين ؛ كما قال تعالى : «وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» . وقال العرزمىّ[2] : «الرحمن» بجميع خلقه فى الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعم العامة ، و «الرحيم» بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : «الرحمن» إذا سُئل أعطى ، و «الرحيم» إذا لم يُسأل غَضِب . وروى ابن ماجه فى سُنَنه والترمذىّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مَن لم يسأل الله يغضب عليه" لفظ الترمذىّ . وقال ابن ماجه : "مَن لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غَضِب عليه" . وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسىّ وهو خُوزِىّ[3] ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

---

(١) هو عملس بن عقيل ؛ كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم .

(٢) هو عبد الملك ابن أبى سليمان العرزمى ؛ كما فى الخلاصة .

(٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

Marfat.com

الله يَغْضب إن تركتَ ســؤاله * وبُنَىّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال ٱبن عباس : هما ٱسمان رقيقان ، أحدهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمة .

قال الخطابى : وهذا مشكل ؛ لأن الرقة لا مدخل لهـا فى شيء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البَجَلى : هذا وَهَم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شيء ، و إنما هما ٱسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يُحب الرفق و يُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العُنْف " .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن « الرحمن » مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره ، ألا تراه قال : « قُـلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ »[(1)] فعادل الاسم الذى لا يَشركه فيه غيره . وقال : « وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ »[(2)] فأخبر أن « الرحمن » هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسمّ به حتى قَرَع مسامعَه نَعْتُ الكذاب فألزمه الله تعـالى نَعْت الكذاب لذلك ، و إن كان كلّ كافرٍ كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلمة عَلَمـًا يُعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى ٱسمه الرحمن : إنه ٱسم الله الأعظم ، ذكره ٱبن العربى .

السادسة والعشرون — «الرحيم» صفة مطلقة للمخلوقين ، ولمـا فى «الرحمن» من العموم قدم فى كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدوى . وقيل : إن معنى «الرحيم» أى بالرحيم وصلتم إلى الله و إلى الرحمن ، فـ«الرحيم» نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن و بالرحيم ؛ أى و بمحمد صلى الله عليه وسـلم وصلتم إلىّ ، أى باتباعه و بمـا جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ؛ والله أعلم .

(١) آية ١١٠ سورة الإسراء جـ ١٠ ص ٣٤٢ (٢) آية ٤٥ سورة الزخرف جـ ١٦ ص ٩٥

Marfat.com

السابعة والعشرون — رُوى عن عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهــه أنه قال فى قــوله «بسم الله» : إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء . وأما «الرحمن» ، فهو عَوْنٌ لكلّ مَن آمن به، وهو آسم لم يُسَمّ به غيره . وأما «الرحيم» ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقــد فسّره بعضهم على الحــروف؛ فرُوى عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : "أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البَرّ والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة" . ورُوى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهــو على كل شيء قدير فلا شيء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو آفتتاح آسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح آسمه بصير، والسين مفتاح آسمه سميع، والميم مفتاح آسمه مليك، والألف مفتاح آسمه الله، واللام مفتاح آسمه لطيف، والهاء مفتاح آسمه هادى، والراء مفتاح آسمه رازق، والحاء مفتاح آسمه حليم، والنون مفتاح آسمه نور؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند آفتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون — وآختلف فى وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله»؛ فرُوِىَ عن أم سَلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : «الرحيمْ . الحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة . وقرأ به قوم من الكوفيين . وقرأ جمهور الناس : «الرحيمِ آلحمد» ، تُعرب «الرحيم» بالخفض وبوصل الألف من «الحمد» . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ «الرحيمَ الحمد» ، بفتح الميم وصلة الألف؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال آبن عطية: ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى: « الٓمٓ آلله » .

Marfat.com

تفسير سورة الفاتحة

" بحول الله وكرمه "

وفيها أربعة أبواب :

البـاب الأول ـ فى فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذى عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة[1] بينى و بين عبدى ولعبدى ما سأل" ، أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلّى، فذكر الحديث . قال ٱبن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على ٱسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على ٱسمه أيضا ؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد : «لا يوقف له على ٱسم» . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى ٱسمه . والحديث خرّجه البخارى عن أبى سعيد بن المُعَلّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يارسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال : " ألم يقل الله « ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ »[2] " — ثم قال : — " إنّى لأعلمنّك سورة هى أعظم السُّوَر فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : " الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتُه". قال ٱبن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

(١) أى وقال الله هى مقسومة .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٨٩

Marfat.com

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخاري، وآسمه رافع، ويقال : الحارث بن نُفَيع بن المعلى، ويقال : أوْس بن المعلى، ويقال : أبو سعيد بن أوس بن المعلى، تُوُفّيَ سنة أربع وسبعين وهو آبن أربع وستين [سنة](١)، وهو أوّل من صلّى إلى القِبْلة حين حُوّلت، وسيأتي(٢). وقد أسند حديثَ أُبَيّ يزيدُ بن زُرَيع قال : حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَيّ وهو يصلي؛ فذكر الحديث بمعناه.

وذكر آبن الأنباري في كتاب الردّ له : حدّثني أبي حدّثني أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيْبان عن منصور عن مجاهد قال : إنّ إبليس — لعنه الله — رَنّ أربع رنات : حين لُعن، وحين أُهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أُنزلت فاتحة الكتاب، وأُنزلت بالمدينة.

الثانية — آختلف العلماء في تفضيل بعض السُّوَر والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتيّ، وجماعة من الفقهاء. ورُوِي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى : « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » قال : محكمة مكان منسوخة. وروى آبن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. وآحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البُسْتيّ : ومعنى هذه اللفظة "ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن" : أن الله تعالى لا يُعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال آبن حجر في الإصابة : «وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك». (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٩

Marfat.com

ما يُعطى لقــارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم ســورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضــل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى. وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيّته وصفاته ليس موجودا مثلا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة؛ وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهَوَيْه(١) وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العــربى وابن الحصار؛ لحديث أبى ســعيد بن المُعَلَّى وحديث أُبَىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وســلم : " يا أُبَىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال: "لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبى ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص .

وقال ابن العربى : قوله : " ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها " وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هــذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشىء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل؛ كقولك : زيد أفضل العلمــاء، فهو أفضل النــاس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عــل بثوابها، وبهــذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه ابن خلكان فقال : « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعــدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضا : راهويه، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء » .

Marfat.com

كما صارت «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأبى : " أى آية فى القرآن أعظم " قال : «اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له " أفضلَ الذكر؛ لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيد، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وشَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب " . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها، وهى آثنا عشر آسما :

(الأول) الصلاة[1]، قال الله تعالى[2] : " قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين " الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) [سورة] الحمد، لأن فيها ذكر الحمد؛ كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء؛ وسُمّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتُفتتح بها الكتابة فى المصحف خطًّا، وتُفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب، وفى هذا الآسم خلاف، جوّزه الجمهور، وكرهه أنس والحسن وآبن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وآبن سيرين : أم الكتاب آسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ» .

(١) فى تفسير الألوسى وغيره : سورة الصلاة .	(٢) أى فى الحديث القدسى .

Marfat.com

(الخامس) أم القرآن، وٱختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وٱبن سيرين؛ والأحاديث الثابتة تردّ هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسُمّيت أم الكتاب لأنه يُبتدأ بكتابتها فى المصاحف، ويُبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى بن يَعْمَر : أمّ القُرَى : مكة، وأُمّ خُراسان : مَرْوُ، وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سُمّيت أم القرآن لأنها أوّله ومتضمّنة لجميع علومه، وبه سُمّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت، ومنه سُمّيت الأم أُمًّا لأنها أصل النَّسل، والأرض أمّا، فى قول أُميّة بن أبى الصَّلْت :

فالأرض مَعْقِلُنا وكانت أمّنا * فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب : أمّ؛ لتقدمها وٱتباع الجيش لها . وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى : «وَأُمَّهَاتُكُمْ» . ويقال أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظَّلَامَ بأُمّاتِكا *

وقيل : إن أمهات فى الناس، وأُمّات فى البهائم؛ حكاه ٱبن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى، سميت بذلك لأنها تُثَنّى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها ٱستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْرًا لها .

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والٱعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الٱبتهال إليه فى الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء، روى الدارمىّ عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سمّ"[1] .

(١) الذى فى مسند الدارمى عن عبد الملك بن عمير : قال قال رسول الله "فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء".

Marfat.com

(التاسع) الرُّقْيَة، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رَقَى سَيِّد الحيّ: "ما أدراك أنها رُقْيَة" فقال: يا رسول الله شيء أُلْقِيَ في رُوعِي، الحديث. خرّجه الأئمة، وسيأتي بتمامه.

(العاشر) الأساس، شكا رجل إلى الشعبيّ وجع الخاصرة؛ فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دُحِيَت؛ وأساس السموات عَرِيبا[1]، وهي السماء السابعة؛ وأساس الأرض عجيبا، وهي الأرض السابعة السفلى؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهي سُرّة الجنان عليها أُسِّست الجنة؛ وأساس النار جهنم، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب؛ وأساس الكتب القرآن؛ وأساس القرآن الفاتحة؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى[2].

(الحادي عشر) الوافية، قاله سفيان بن عُيَيْنة، لأنها لا تَتَنصّف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز.

(الثاني عشر) الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها. يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الاسكندراني قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها منها عِوَضًا".

الخامسة — قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». وقيل: السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره: "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل: أن فيها رقية؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدم والله أعلم.

---

(١) وفي بعض الأصول: غربيا (بالغين المعجمة). (٢) كذا في نسخ الأصل. ولو كان جوابا للأمر لكان «تشف» مجزوما.

Marfat.com

السادســة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال آبن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، وآختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجُوا المسجدَ وآدعـوا ربَّكم * وآدرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر»(١) إن شاء الله تعالى .

السابعــة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطُّوَل جمع أَطْوَل . وقـد سُمِّيت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطُّوَل فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتهـا على المفصّل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السُّوَر التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفى : أنها ست؛ وهذا شاذ . و إلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل «إياك نعبد» آية، وهى على عدّه ثمانى آيات؛ وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي» وقوله : "قسمت الصلاة" الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه ، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوّذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبـارى قال : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان آبن الأشعث حدّثنا آبن أبى قُدامة حدّثنا جَرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٩

Marfat.com

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: آختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــة — آختلفوا أهى مَكيّة أم مَدنيّة ؟ . فقال آبن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى — وآسمه رُفيع — وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِى فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » والحِجْر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفظ أنه كان فى الإسلام قط صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " . وهذا خبر عن الحُكْم ، لا عن الابتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى آبن الطيب آختلاف الناس فى أول ما نزل من القرآن؛ فقيل: المدّثر، وقيل : آقرأ، وقيل: الفاتحة . وذكر البَيْهقى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: "إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتَصِل الرَّحِم ، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عَتِيق، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال: آنطلق بنا إلى وَرَقة، فقال: "ومن أخبرك". قال: خديجة، فآنطلقا إليه فقصا عليه، فقال: "إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض" فقال : لا تفعل، إذا أتاك فآثبُت حتى تسمع ما يقول ثم آئتنى فأخبرنى . فلما خلا ناداه: يا محمد، قل «بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين —

Marfat.com

حتى بلغ — ولا الضالين» ، قل : لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له ؛ فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بَشّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبىّ مرسل ، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركنى ذلك لأجاهدن معك . فلما تُوُفّىَ ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البَيْهَقِىّ رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هـذا الحديث . فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» و «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ» .

الثالثـة — قال ٱبن عطية : ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد ؛ لما رواه مسلم عن ٱبن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم سمع نَقيضا من فوقه (١) ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه مَلَك ، فقال : هذا ملَك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم ؛ فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤتَهما نبىّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه . قال ٱبن عطية : وليس كما ظنّ ، فإن هـذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم المَلَك إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِماً به و بما ينزل معه ؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها ؛ والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبىّ صلى الله عليه وسلم بشىء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بهـا جبريل عليه السلام ، لقوله تعالى : «نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ؛ حكاه الثعلبى . وما ذكرناه أولى . فإنه جمع بين القرآن والسُّنة ، ولله الحمد والمنّـة .

(١) النقيض : الصوت .

Marfat.com

الرابعة — قد تقدّم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلّي إذا كبّر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت ، ولا يذكر توجيهاً ولا تسبيحاً ؛ لحديث عائشة وأنس المتقدّمين وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا آفتتحا الصلاة : سبحانك اللّهمّ و بحمدك ، تبارك آسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك . و به قال سفيان وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى رُوى عن علىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا آفتتح الصلاة كبّر ثم قال : "وجّهت وجهى" الحديث ، ذكره مسلم ، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله (1) .

قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ يقول : "اللّهمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهمّ نقّنى من خطاياى كما يُنَقّى الثوب الأبيض من الدّنس اللّهمّ آغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبَرَد" وآستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فآغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعىّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — وآختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعيّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . وآختلف قوله فيمن تركها ناسياً فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية آبن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال آبن خويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة و يسجد للسهو بعد السلام . قال آبن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة و يأتى بركعة بدلاً منها ، كمن

(1) راجع ج ٧ ص ١٥٣ .

Marfat.com

أسقط سجدة سهوًا . وهو آختيار آبن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة ؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة ، وهو الصحيح على ما يأتى . ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات ، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعى : إن تركها عامدا فى صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه، على آختلاف عن الأوزاعى فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوغ الآجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة ؛ نحو : « الحمد لله » . ولا أسوغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرى : يقرأ المصلى بأم القرآن فى كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها . قال آبن عبد البر : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود إليها ، كسائر المفروضات المتعينات فى العبادات.

السادســة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعًا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعًا أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ ، وهى المسألة :

السابعــة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صلاة السر؛ فإن فعل فقد أساء، ولا شيء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسألة :

الثامنــة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك ؛ لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالى أنازع القرآن" ، وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" ، وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

Marfat.com

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطِيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماماً كان أو مأموماً، جَهَر إمامُه أو أسرّ . وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم : يقرأ إذا أسرّ ولا يقرأ إذا جَهَر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر : فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفي بقراءة الإمام . حكاه آبن المنذر . وقال آبن وهب وأشهب وآبن عبدالحكم وآبن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئاً، جَهَر إمامه أو أسرّ ؛ لقوله عليه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عام، ولقول جابر : مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب"، وقوله : "مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ و به قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السختياني وأبو ثَور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعي ؛ و به قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبي سعيد الخُدْري وعثمان بن أبي العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول آبن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي ؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدوة، وفيهم الأُسْوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سُنَنه ما يرفع الخلاف و يزيل كل آحتمال فقال : حدّثنا أبو كُريب حدّثنا محمد بن فضيل، ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

Marfat.com

حدثنا عليّ بن مُسْهر جميعاً عن أبى سفيان السّعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا صــلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وســورة فى فريضــة أو غيرها " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليــه السلام قال للذى علمــه الصلاة : "وٱفعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا مارواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عُبــادة بن الصامت عن صــلاة الصبح ؛ وأقام أبو نعيم المؤذن الصــلاة فصلّى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلمــا ٱنصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأم القرآن وأبو نعيم يجهر ؟ قال : أجل ! صلّى بنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم بعض الصلوات التى يُجهر فيها بالقراءة فالتبستْ عليــه ؛ فلما ٱنصرف أقبــل علينا وجهه فقال : " هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة " ؟ فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ؛ قال : " فلا . وأنا أقول مالى يُنازعنى القرآن فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأم القرآن " . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ؛ وهو قول مالك بن أنس وٱبن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِيّ وقال : هــذا إسناد حسن ، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيليــاء(1) ، وأن أبا نعيم أوّل من أذّن فى بيت المَقْــدس . وقال أبو محمد عبــد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخاريّ فى تاريخــه ولا ٱبن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومســلم شيئا . وقال فيــه أبو عمر : مجهول . وذكر الدار قطنيّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرنى أن أقرأ ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرتُ . قال الدار قطنيّ : هذا إسناد صحيح . ورُوى عن جابر بن عبــد الله

(1) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

Marfat.com

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم آستدل بقوله تعالى[(1)] : "قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما آستدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : "و إذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرىّ ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "و إذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطنىّ : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمى فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبى عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعَدِىّ بن أبى عمارة . قال الدّارَقُطْنِيّ : فإجماعهم يدل على وَهَمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى ؛ ولكن ليس هو بالقوىّ ، تركه القَطّان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبى هريرة وقال : هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صَحّح حديث أبى هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبى موسى و إن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وآبن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيّب . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالى أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن آبن شهاب عن آبن أُكَيمة اللّيثى ، وآسمه فيما قال مالك : عمرو ،

---

(1) أى فى الحديث القدسى .

Marfat.com

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفِّىَ سنة إحدى ومائة وهو ٱبن تسع وسبعين سنة ، لم يَرْوِ عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره . والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج . ٱقرءوا فى أنفسكم . يُبَيِّنه حديث عبادة وفُتْيَا الفـاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالى أنازع القرآن" لمـا أفتى بخلافه؛ وقول الزهرى فى حديث ٱبن أُكَيمة : فٱنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جَهَر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالحمد على ما بيناه؛ وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[١] وهو ضعيف؛ كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر . أخرجه الدارقطنىّ وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة وإسرائيل ٱبن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة وجَرير بن عبد الحميد وغيرهم ، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلًا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيهـا بأم القرآن فـلم يصل إلا وراء الإمام ، فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قولَه . قال ٱبن عبد البر : ورواه يحيي ٱبن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم . وصـوابه موقوف على جابر كما فى المُوَطّأ . وفيـه من الفقه إبطالُ الركعة التى لا يُقرأ فيها بأم القرآن ، وهو يشهد لصحة ما ذهب إليـه ٱبن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتـدّ المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ، وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

---

(١) قد ترجمه ٱبن حجر فى التهذيب وٱبن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ٱبن سعد فى الطبقات قد وصفه بذلك .

Marfat.com

الحادية عشرة — قال ابن العربي : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النفي على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ؛ فمن تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : " افعل ذلك في صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم في أن الفاتحة لا تتعين ، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء . وقد عينها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبين عن الله تعالى مراده في قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : أُمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي : " اقرأ ما تيسر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن — زاد في رواية — فصاعدا " . وقوله عليه السلام : " هي خداج — ثلاثا — غير تمام " أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ؛ إذا ألقت ولدها لغير تمام ، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب في النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أمر ، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روي عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعي يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن

Marfat.com

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته و إن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسألة . وأما ما روى عن عمــر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد ؛ لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ، ومرّة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ؛ وقد ذكره مالك فى الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بأَخَرَة (1) . وقال ليس عليه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنــه . روى يحيى بن يحيى النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعيّ عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همّــام من عمر ؛ روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : ســئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمــر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هــذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدم من أصولهم فى ذلك . وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر ممــا جاء عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم . قال مالك : وســنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأوليَيْن بأم القرآن وسورة ، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعيّ : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه ، وقال : و إن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثَّوْرِيّ : يقرأ فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، و يسبّح فى الأخريين إن شاء ، و إن شاء قرأ ، و إن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(1) أى بتأخر وبعد عن الخير .

Marfat.com

صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اقرأ في الأوليين وسبح في الأخريين، وبه قال النخعي . قال سفيان: فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة . كقول الشافعي المصري ، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال ابن خويز منداد المالكي ؛ قال : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة . روى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين. ويسمعنا الآية أحيانا، وكان يطول في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك. ونص في تعين الفاتحة في كل ركعة ؛ خلافا لمن أبى ذلك، والحجة في السنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا النبي صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفي البخاري : وإن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخدري وخوات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمر وابن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن؛ فمنهم من حد آيتين. ومنهم من حد آية ، ومنهم من لم يحد ، وقال : شيء من القرآن معها؛ وكل هذا موجب لتعلم ما تيسر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة وأبي سعيد الخدري وغيرهما . وفي المدونة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال : حدثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

Marfat.com

السادسة عشرة — من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أَسَرّ فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمني ما يجزئني منه؛ قال : "قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله"؛ قال : يا رسول الله، هذا لله، فمالي؟ قال : "قل اللّهُمّ آرحمني وعافني وآهدني وآرزقني".

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهدَه، فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدًا أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الآجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربية من الأعجمين وغيرهم تُرجِم له الدعاء العربي بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال آبن المنذر : لا يجزئه ذلك؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية عشرين — من آفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة، فطرأ عليه العلم بها في أثناء الصلاة، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلِقت بحفظه من مجرّد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله في كتاب آبن سحنون .

Marfat.com

البــاب الثالث ــ فى التأمين، وفيه ثمــان مسائل

الأولى ــ ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعــد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون « ولا الضالين » : آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن ممــا ليس بقرآن .

الثانيـــة ــ ثبت فى الأمهات من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه مَن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث، الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين مَن خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيــل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء. لقوله عليه السلام : "آدعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة وآعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ " .

الثالثـــة ــ روى أبو داود عن أبى مُصَبّح المَقْرائى قال : كنا نجلس إلى أبى زُهير النميرى وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : آختمه بآمين. فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسلم يسمع منــه، فقال النبىّ صلى الله عليه وســلم : " أوجب إن ختم " فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : " بآمين فإنه إن ختم بآمين فقــد أوجب " فآنصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وســلم، فأتى الرجل فقال له : آختم يا فلان وأبشر . قال آبن عبد البر : أبو زهير النميرى آسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم ". وقال وهب بن مُنَبّه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكًا يقول : اللّهــمّ آغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر " لَقّننى جبريل آمين عنــد

Marfat.com

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : "آمين خاتم رب العالمين". قال الهروى قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](١) الآفات والبلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده و إظهار ما فيه . وفى حديث آخر : "آمين درجة فى الجنة". قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهمّ آستجب لنا ؛ وُضع موضع الدعاء. وقال قوم : هو آسم من أسماء الله ؛ رُوى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِساف ورواه آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله آبن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . وروى الكلبي عن أبى صالح عن آبن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رَبّ آفعل" . وقال مُقاتل : هو قوة للدعاء، وآستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيّب رجاءنا .

الخامســـة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين. قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنّى حبّها أبدًا * ويرحمُ الله عبـدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أبلّغها ألفين آمينا

وقال آخر فى القصر :

تباعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ؛ من أمّ إذا قصد، أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

Marfat.com

البيتَ الحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِى . قال الجوهرى : وهو مبنيٌّ على الفتح مثل أين وكيف؛ لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمَّن فلان تأمينا .

السادسة — اختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيّين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بُكَير : هو مخيَّر . وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك مَن خلفه؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك . وحجتهم حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَيٍّ عن أبى هريرة، وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حُجْر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِىّ ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سنة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخارى « باب جَهْر الإمام بالتأمين » .

وقال عطاء : «آمين» دعاء، أمّن ابنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة(١). قال الترمذى : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ؛ يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعى وأحمد وإسحاق . وفى الموطّأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتجّ بها المسجد . وأما حديث أبى موسى وسُمَيّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين؛ وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معًا، ولا يتقدّموه بقول : آمين؛

(١) اللجة : الصوت .

Marfat.com

لما ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليـه السلام : " إذا أمّن الإمام فأمّنوا " . وقال ٱبن نافع في كتاب ٱبن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول : « ولا الضالين » . وإذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل . وقال ٱبن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة ويقول : آمين.

السابعـــة — قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما رُوي في تأويل قوله تعالى : « قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعِيَيْن .

الجـواب : أنّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضـل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شـعارٍ ظاهر ، وإظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحـة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه ؛ وهذا بيّن .

الثامنـــة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما الســلام . ذكر الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبي قال حدّثنا رَزِين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتي ثلاثا لم تُعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك ٱسمه عنـدما ذكر دعاء موسى في تنزيله : « قد أجيبت دَعْوَتُكُمَا » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربّنا ، فكان من هارون التأمين، فسماه داعيا في تنزيله ، إذ صيّر ذلك منه دَعوة . وقد قيـل : إن آمين خاص لهذه الأمة ؛ لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ٱبن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ... ؛ الحديث . وأخرج أيضا من

Marfat.com

حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ماحسدتكم اليهود على شيء ماحسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين". قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم: إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين.

الباب الرابع – فيما تضمّنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخُدرِي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشَّربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أَخذ". وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هى من الباقيات الصالحات، قال [الله تعالى: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ[2]] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا». وقيل فى بعض الروايات: لكان ما أعطى أكثر مما أَخذ. فصيرُ الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله؛ فهذا

(١) هذا حمل منهم لحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها.

(٢) زيادة عن نوادر الأصول.

Marfat.com

فى التدبير[1] . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله؛ وكلاهما من الله فى الأصل ، الدنيـا منه والكلمة منـه ؛ أعطاه الدنيـا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بهـا فى الآخرة . وروى آبن ماجه عن آبن عمـر أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم حدّثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارَبّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فَعَضَّلَتْ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يارَبَّنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يارَبّ إنه قد قال يارَبّ لك الحمـد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما آكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر: آشتد وآستغلق ؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد): الشدائد. وعضّلت المرأة والشاة : إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هـذا يكون : أَعْضَلت الملكين أو عَضَّلَت الملكين بغير باء . والله أعلم . ورُوى عن مسـلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيـــة ــ آختلف العلماء أيّـما أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العـالمين أفضل ؛ لأن فى ضمنـه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمـد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيـد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضـل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . وآختار هذا القول آبن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى التذكير » .

Marfat.com

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ». والعالَمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ: إنه خَلْقٌ لهم؛ على ما يأتي بيانه.

الرابعة — الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لآستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر:

وأبلج محمودِ الثَّناءِ خَصَصْتُه * بأفْضَلِ أقوالي وأفْضَلِ أحْمُدِي

فالحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أَحْمَدُه حَمْدًا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد. والحمد أعمّ من الشكر، والمحمَّد: الذي كثرت خصاله المحمودة. قال الشاعر:

* إلى الماجد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّد *

وبذلك سُمّي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الشاعر (1):

فَشَقّ له مِن آسمه لِيُجِلَّه * فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحْمَدة: خلاف المذمة. وأَحْمَد الرجلُ: صار أمره إلى الحمد. وأحمدته: وجدته محمودًا؛ تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أي صادفته محمودا موافقًا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه. ورجل حُمَدَة — مثل هُمَزَة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها. وحَمَدة النار — بالتحريك —: صوت التهابها.

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضي. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وآبن عطاء. قال آبن عطاء: معناه الشكر لله؛ إذ كان منه الآمتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. وآستدل الطبري على أنهما بمعنًى بصحة قولك: الحمد لله شكرا. قال آبن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد؛ لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(1) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه.

Marfat.com

والقلب؛ والحمد إنمـا يكون باللسان خاصّة . وقيل : الحمد أعمّ ، لأن فيـه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضـع الشكر موضع الحمد . ورُوى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمةُ كل شاكر ، وإن آدم عليـه السلام قال حين عطَس : الحمـد لله . وقال الله لنوح عليـه السلام : « فَقُلِ الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين »[1] وقال إبراهيم عليـه السلام : « الحَمْـدُ لِلهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إسْمَاعِيـلَ وَإِسْحٰقَ »[2] . وقال فى قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُـؤْمِنِينَ »[3] . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا »[4] . وقال أهل الجنة : « الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ »[5] . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[6] . فهى كلمة كلّ شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بمـا أولى من الإحسان[7] . وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا : الحمد أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر؛ والجزاء مخصوص إنمـا يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمـد أعمّ فى الآية لأنه يزيد على الشكر . ويُذكر الحمـد بمعنى الرضا؛ يقال : بلوته فحمدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَحْمُودًا »[8] . وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله « الحمـد لله » : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد؛ لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية ، والميم من الملك ، والدال من الدّيمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم فى تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أوّلها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته فى جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد .

(١) آية ٢٨ سورة المؤمنون . (٢) آية ٣٩ سورة إبراهيم . (٣) آية ١٥ سورة النمل .
(٤) آية ١١١ سورة الإسراء . (٥) آية ٣٤ سورة فاطر . (٦) آية ١٠ سورة يونس .
(٧) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف . (٨) آية ٧٩ سورة الاسراء .

Marfat.com

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وٱفتتح كتابه بحمده، ولم يأذن فى ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيّه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»(١) . وقال عليه السلام : "ٱحثُوا فى وجوه المدّاحين التراب" رواه المقداد . وسيأتى القول فيه فى « النساء »(٢) إن شاء الله تعالى .

فمعنى «الحمد لله رب العالمين» : أى سبق الحمد منّى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة، وحمدى الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لمـا علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل؛ فٱستفراغ طَوْق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله : "لا أُحصى ثناء عليك" . وأنشدوا :

إذا نحنُ أثنينا عليــك بصالحٍ ٭ فأنتَ كما نُثْنِي وفوقَ الذى نُثْنِي

وقيل : حمد نفسه فى الأزل لمـا علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنّة .

السابعة — وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من « الحمــد لله » . ورُوى عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العجّاج : « الحمدَ لله » بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل . ويقال : «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة فى هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك : حمدت الله حمـدا ؛ إلا أن الذى يرفع الحمد يخبر أن الحمد منــه ومن جميع الخلق لله ؛ والذى ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرّضًا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا ؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث :"مَن شغل بذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" . وقيل : إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا : قولوا الحمد لله . قال الطبرى : «الحمد لله»

(١) آية ٣٢ سورة النجم . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦

Marfat.com

ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلمُ أننى سأكونُ رَمْسًا * إذا سار النّواعِجُ[1] لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى: المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبى عَبْلَة: «الحمدُ لُله» بضم الدال واللام على إتباع الثانى الأوّل؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم؛ نحو: أُجُوءُك، وهو منحدُرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم. قال:

* ... اضرب الساقينُ أُمُّك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة. وفى قراءةٍ لأهل مكة «مُرُدفين» بضم الراء إتباعا للميم، وعلى ذلك «مُقُتلين» بضم القاف. وقالوا: لِإمِّك، فكسروا الهمزة اتباعا للّام؛ وأنشد للنعمان بن بشير:

ويلِ امِّها فى هَـــواءِ الجَوِّ طالبــةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مَطْلوبُ[2]

الأصل: ويلٌ لأمها؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللام الميمَ. وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن علىّ: «الحمدِ لِله» بكسر الدال على إتباع الأوّل الثانى.

الثامنــــة — قوله تعالى: رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أى مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو رَبّه؛ فالربُّ: المالك. وفى الصحاح: والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للمَلِك؛ قال الحارث بن حِلِّزة:

وهُوَ الربّ والشَّهيدُ على يو * مِ الحِيَارَيْنِ[3] والبَلاءُ بَلاءُ

---

(١) النواعج من الإبل: السراع. (٢) وصف عقابا تتبع ذئبا لتصيده. وهذا البيت نسبه سيبويه فى كتابه مرة للنعمان (جـ ٢ ص ٢٧٢) وأخرى لامرئ القيس (جـ ١ ص ٣٥٣). ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب فى الشاهد ٢٦٦ لامرئ القيس أيضا. وقد ورد فى ديوانه: * لا كالذى فى هواء الجوّ... * وعلى هذا لا شاهد فيه. (٣) الحياران: موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء.

Marfat.com

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»(١) . وفى الحديث : "أن تلد الأَمَةُ ربَّها" أى سيدتها؛ وقد بيّناه فى كتاب (التذكرة) . والربّ : المصلح والمدبّر والجابر والقائم . قال الهَرَوِيّ وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد رَبّه يَرُبّه فهو رَبٌّ له ورابٌّ؛ ومنه سمى الربّانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : " هل لك من نعمة تَرُبُّها عليه " أى تقوم بها وتصلحها . والربّ : المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه * لقد ذَلّ مَنْ بالت عليه الثعالبُ

ويقال على التكثير(٢) : ربّاه وربّبه وربّته ؛ حكاه النحاس . وفى الصحاح : ورَبّ فلانٌ ولده يَرُبّه رَبًّا، وربّبه وتَرَبّبه بمعنًى؛ أى ربّاه . والمَرْبوب : المربَّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر «آل عمران»(٣) وسورة «إبراهيم»(٤) وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربّ والمَرْبوب، مع ما يتضمّنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال .

واختلف فى اشتقاقه؛ فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبّر لخلقه ومربّيهم، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»(٥) . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الربّ بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده . فيقال : الله رَبّ العباد، وزيد رَبّ الدار؛ فالله سبحانه رَبّ الأرباب؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رَبّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

(١) آية ٤٢ سورة يوسف . (٢) فى النحاس : «على التكبير» . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١٢ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٥) آية ٢٣ سورة النساء .

Marfat.com

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهـذه المعانى ، فهذا الفرق بين صـفة الخالق والمخلوقيـن .

الحادية عشرة — قوله تعـالى :﴿ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ٱختلف أهل التأويل فى «العالمين» ٱختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل؛ لقوله تعالى: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ»[1] أى من الناس . وقال العجّاج :

* خِنْدِفُ هامةُ هذا العألَمِ[2] *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال ٱبن عباس : العالَمون الجنّ والإنس ؛ دليله قوله تعالى : «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»[3] ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العـالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجنّ والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم؛ لأن هذا الجمع إنما هو جَمْع من يعقل خاصّة .

قال الأعشى :

* ما إنْ سمعتُ بمثلهم فى العالَمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون وهو معنى قول ٱبن عباس أيضـا : كل ذى رُوح دبّ على وجه الأرض . وقال وَهْب بن مُنَبِّه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدنيا عالَم منها . وقال أبو سعيد الخُدْرى : إن لله أربعين ألف عالَم ؛ الدنيـا من شرقها الى غربها عالَمٌ واحد . وقال مُقاتل : العالَمون ثمانون ألف عالَم، أربعون ألف عالَم فى البر، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيع ٱبن أنس عن أبى العالية قال : الجنّ عالَم ، والإنس عالَم ؛ وسـوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم، خلقهم لعبادته .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥ (٢) خندف اسم قبيلة من العرب ، وذكر العلامة الشنقيطى أن العجاج كان ينشد : العألم ، بالهمز والإسكان . (٣) سورة الفرقان آية ١

Marfat.com

قلت: والقول الأول أصح هذه الأقوال؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود؛ دليله قوله تعالى: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا»(١). ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلَامة؛ لأنه يدل على مُوجده. كذا قال الزجاج قال: العالَم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة. وقال الخليل: العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم: ما دلّ على الشيء؛ فالعالَم دالّ على أن له خالقا ومدبرا، وهذا واضح. وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنيد: الحمد لله؛ فقال له: أتمها كما قال الله، قل: رَبِّ العالمين؛ فقال الرجل: ومَن العالمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخى؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر.

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى «ربّ» فالنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أى هو رب العالمين.

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ وصف نفسه تعالى بعد «ربّ العالمين»، بأنه «الرحمن الرحيم»؛ لأنه لما كان فى اتصافه بـ«رب العالمين» ترهيب قرنه بـ«الرحمن الرحيم»، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال: «نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ»(٢). وقال: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»(٣). وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنّته أحد". وقد تقدّم ما فى هذين الاسمين من المعانى، فلا معنى لإعادته.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك؛ وفيه أربع لغات: مالك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَلِيك؛ قال الشاعر(٤):

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ ... عصينا المَلْك فيها أن ندينا

(١) آية ٢٣ سورة الشعراء. (٢) آية ٤٩ — ٥٠ سورة الحجر. (٣) آية ٣ سورة غافر.

(٤) هو عمرو بن كلثوم.

Marfat.com

وقال آخــر[1] :

فاقنع بما قَسم المليكُ فإنما * قَسم الخــلائقَ بيننا علاّمُها

الخلائق : الطبائع التي جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة في «مَلِك» فيقرأ «مَلِكى» على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — آختلف العلماء أيّما أبلغ : ملِك أو مالك ؟ والقراءتان مَرْويّتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. ذكرهما الترمذى ؛ فقيل : «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا؛ ولأن أمر الملِك نافذ على المـالك فى مِلْكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل: «مالك» أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم ؛ فالمـالك أبلغ تصرّفا وأعظم ؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو علىّ : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض مَن آختار القراءة بـ«ـملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شيء بقوله : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فلا فائدة فى قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار . قال أبو علىّ : ولاحجة فى هذا ؛ لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدّم العام ثم ذكر الخاص كقوله : «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ» فالخالق يعمّ . وذكر المصور لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعـالى : «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» بعد قوله : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» . والغيب يعمّ الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب آعتقادها ، والردّ على الكفرة الجاحدين لها؛ وكما قال : «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذى هو عام وذكر «الرحيم» بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» . وقال أبو حاتم : إن «مالكا» أبلغ فى مدح الخالق من «ملِك» ، و«ملك» أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قد يكون غير ملك و إذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، وآختار هـذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

Marfat.com

أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام؛ فتقول : مالك الدار والأرض والثوب . كما تقول : مالك الملوك . الثاني : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك ؛ ولا تقول : ملك المُلْك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المِلك ـ بكسر الميم ـ وهو لا يتضمن «المُلْك» ـ بضم الميم ـ و «ملك» يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة . ويتضمن أيضا الكمال، ولذلك استحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»(١). ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة في قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العجم وأشرف . ويتضمن الاقتدار والاختيار. وذلك أمر ضروري في المَلِك، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوه وغلبه غيره وازدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : «مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا»(٢) إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعاني الشريفة التي لا توجد في المالك .

قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك . وفيه من المعنى ما ليس في مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى . روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عز وجل" قال سفيان(٣) : «مثل : شاهان شاه . وقال

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) سورة النمل آية ٢٠ ، ٢١

(٣) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

Marfat.com

أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانيّ عن أخنع ؛ فقال : أوضع » . وعنـه قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه " . قال ابن الحصار : وكذلك «ملك يوم الدين» و «مالك الملك» لا ينبغى أن يُختلف فى أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمـالك وملك وهى :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظيـم : « إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا »(1) . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمّتى عُرِضُوا علىّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ(2) هذا البحر ملوكا على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة " .

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ؛ كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله فى العـام المقبل ، تأويله سيحج فى العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليـه وهو لم يفعله بعدُ ، وإنمـا أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : «مالك يوم الدين» على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدِّين أو فى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا إلى القدرة ؛ أى إنه قادر فى يوم الدين ، أو على يوم الدين وإحداثه ؛ لأن المـالك للشىء هو المتصرف فى الشىء والقادر عليه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شىء .

والوجه الأول أمَسّ بالعربية وأنفذ فى طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

Marfat.com

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ »(١) فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فآستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت آستقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(٢) . وجَمْعُ يوم أيام ؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أَيْوَم ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلاء . قال الراجز(٣) :

* نِعْمَ أخو الهيجاء في اليوم ٱليَمِي *

وهو مقلوب منه(٤) ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا ؛ كما قالوا : أَدْلٍ في جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدِّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ؛ كذلك قال آبن عباس وآبن مسعود وآبن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ »(٥) أي حسابهم . وقال : « ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(٦) وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ »(٧) أي مجزيّون محاسبون . وقال لَبِيد :

---

(١) سورة غافر آية ١٦ . (٢) سورة المائدة آية ٣ . (٣) هو أبو الأخزر الحماني كما في اللسان مادة « يوم » . (٤) قوله : « وهو » أي اليمي . (٥) سورة النور آية ٢٥ . (٦) سورة الجاثية آية ٢٨ . (٧) سورة الصافات آية ٥٣ .

Marfat.com

حصَادُك يومًا ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يومًا كما هو دائن

آخــــر :

إذا ما رمــونا رميناهـــمُ * ودِنّاهُم مثـــل ما يُقرِضـــونا

آخــــر :

وآعلم يقينـا [1] أن مُلكك زائلٌ * وآعلم بأن كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَيْنًا (بفتح الدال) ودِينا (بكسرها) جزيته؛ ومنه الدّيان في صفة الرب تعالى أى المجازى؛ وفى الحديث : "الكيِّس من دان نفسه" أى حاسب . وقيل : القضاء . روى عن آبن عباس أيضا؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعمْرُكَ ما كانت حَمُولةُ [2] مَعْبَـدٍ * على جُدِّها [3] حَرْبًا لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُـــرٍّ طِـــوالٍ * عَصينا المَـلْكَ فيها أنْ نَدِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيـــة والعشرون — قال ثعلب : دانَ الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينك من أمّ الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرَأتُ لهـا وضِيني [4] * أهـذا دِينُـــه أبدًا ودِينى

(١) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد آغتصبه أبنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... » الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها . (٣) الجدّ (بالضم) : البئر الجيدة الموضع من الكلإ . والخطاب لعمرو بن هنـد وقد أغار على إبل معبـد أخى طرفة . (٤) درأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير .

Marfat.com

والدِّين : سيرة الملك . قال زُهير :

لئن حللتَ بجوّ فى بنى أسد　*　فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ (١)

أراد فى موضع طاعة عمرو . والدِّين : الدّاء ؛ عن اللّحيانى . وأنشد :

* يادِينَ قلبك من سَلْمَى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ؛ لأنّ من أوّل السورة إلى هاهنا خبرًا عن الله تعالى وثناءً عليه ، كقوله : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» (٢) . ثم قال : «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً» . وعكسه : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ (٣) فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» على ما يأتى . و﴿ نَعْبُدُ ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق مُعبَّد إذا كان مذلّلا للسالكين ؛ قاله الهَرَوِىّ . ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك . ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أى نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق .

قال السُّلَمِىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقرّ بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» فقد برئ من الجبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدّم آهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه ؛ فقال له الساب : إياك أعْنى : فقال له الآخر : وعنك أُعرِض ؛ فقدّما الأهم . وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك ؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال العجّاج :

إيَّاك أدعُو فتقبَّل مَلَقِى　*　وآغفِر خطاياى وكثّر ورِقى

---

(١) جو (بالجيم) كما فى الأصول والديوان . قال البكرى فى معجمه : «انه موضع فى ديار بنى أسد» واستشهد ببيت زهير هذا . وفى القاموس وشرحه فى مادة الخو — بالخاء المعجمة — : «ويوم خو لبنى أسد ، قال زهير — وذكر البيت — قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأ وكان هذا اليوم لهم على بنى يربوع ... » . وفدك : موضع بخيبر .　(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ .　(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

Marfat.com

ويروى : وتمّر . وأما قول الشاعر[1] :

* إليكَ حتى بَلَغتْ إيّاكا *

فشاذٌّ لا يقاس عليــه . والورِق بكسر الرّاء من الدراهم ، و بفتحها المــال . وكرر الأسم لئلا يتوهّم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهورُ من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إياك» في الموضعين. وقرأ عمرو بن فائد : «إيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها . وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإياةُ الشمس (بكسر الهمزة) : ضوءها، وقد تُفتح . وقال[2] :

سَقَتْهُ إياةُ الشّمس إلا لِثاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم علَيــه بإثمد

فإن أسقطت الهــاء مددت . و يقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهي الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرّقاشيّ : «أياك» (بفتح الهمزة) وهي لغة مشهورة . وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوِي : «هياك» في الموضعين، وهي لغة؛ قال :

فهِيّاكَ والأمرَ الذى إن توسّعتْ * موارده ضاقت عليــك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

عطف جملة على جمــلة . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش : « نِستعين » بكسر النون، وهي لغة تميم وأسد وقيس وربيعة، ليدل على أنه من آستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل . وأصــل « نستعين » نستعْوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

---

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

(٢) قائله طرفة بن العبد . والهاء في « سقته » و « لثاته » يعود على الثغر ، وكذا المضمر الذى في « أسف » . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشربته حسنا . و «أسف» : ذرّ عليه . و «فلم تكدم عليه» : أى لم تعضض عظما فيؤثر في ثغرها . (عن شرح المعلقات) .

Marfat.com

آستعانة ، والأصل آستعوان ، قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقي ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى ، ولزمت الهاء عوضًا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ آهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦)

اِهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب؛ والمعنى : دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُربك . قال بعض العلماء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا في هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به [الداعي] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به ؛ وفي الحديث : "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السُّنن في أداء فرائضك ؛ وقيل : الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»[(١)] أي مِلنا ؛ وخرج عليه السلام في مرضه يتهادى بين آثنين ، أي يتمايل . ومنه الهدية ؛ لأنها تمال من ملك إلى ملك . ومنه الهَدْيُ للحيوان الذي يساق إلى الحَرَم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفُضيل بن عِياض : «الصراط المستقيم» طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى . قال محمد بن الحنفية في قوله عزّ وجل « آهدِنا الصراط المستقيم » : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحْوَل عن أبي العالية : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده . قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط في كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنّا أرضَهم بالخيل حتى * تركناهم أذلّ من الصّراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صِراط * إذا آعْوَجّ المواردُ مُسْتقيم

وقال آخر :

* فَصَدّ عن نَهج الصِّراطِ الواضح *

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦

Marfat.com

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغـة الروم ؛ قال ابن عطية : وهـذا ضعيف جدا . وقُرئ : السراط (بالسين) من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط مَن يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد . وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل . وحكى سَلَمة عن الفرّاء قال : الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكَلْب وبنى القَيْن، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد، ولسق به ولصق به . و « الصِّرَاطَ » نصب على المفعول الثانى ؛ لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر ؛ قال الله تعالى : «فَاهْدُوهُم(١) إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » . و بغير حرف كما فى هـذه الآية . « المستقيم » صفة لـ « لصراط » ، وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا(٢) فَاتَّبِعُوهُ» وأصله مُستقْوِم، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .

صراط بدل من الأوّل بدل الشيء من الشيء؛(٣) كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه : أدِم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيـل : هو صراط آخر، ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن « الَّذِين » فى الرفع(٤) والنصب والجر؛ وهُذَيل تقول : اللذُون فى الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذو ، ومنهم من يقول : الذى(٥)؛ وسيأتى .

وفى « عليهم » عشر لغات؛ قرئ بعامتها : «عليهُمْ» بضم الهاء وإسكان الميم . «وعليهِم» بكسر الهـاء وإسكان الميم . و « عليهِمِى » بكسر الهـاء والميم وإلحـاق ياء بعد الكسرة . و « عليهِمُو » بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و « عليهُمُو » بضم الهـاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم . و «عليهُمُ» بضم الهاء والميم من غير زيادة واو . وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القرّاء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء :

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ (٣) أى قوله تعالى : « اهدنا » وما بعده . (٤) قال أبو حيان فى البحر : واستعماله بحذف النون جائز . كذا فى اللسان .
(٥) أى إفرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر؛ كما يؤخذ من لسان العرب .

Marfat.com

« عليهُمِي » بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم؛ حكاها الحسن البصرى[1] عن العرب . و « عليهُمِ » بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء . و «عليهِمُ» بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو . و «عليهِمِ» بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم . وكلها صواب؛ قاله ٱبن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وٱبن الزبير رضى الله عنهما « صراط مَن أنعمت عليهم » . وٱختلف الناس فى المُنْعَم عليهم؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وٱنتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا »[2] . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم إليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يُضلّهم، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا »[3] الآية .

الثانيــة والثلاثون — غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴿٧﴾

ٱختلف فى «المغضوب عليهم» و «الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عَدِىّ بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ (٣) راجع جـ ٤ ص ١٩

Marfat.com

أيضا قوله سبحانه فى اليهود : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم »(١) وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »(٢) . وقيل : «المغضوب عليهم» المشركون . و «الضالين» المنافقون . وقيل : «المغضوب عليهم» هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ؛ و «الضالين» عن بركة قراءتها . حكاه السُّلَمِيّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره؛ وليس بشيء . قال الماوردى : وهذا وجه مردود؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : «المغضوب عليهم» بآتباع البدع؛ و «الضالين» عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن؛ وتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . و «عليهم» فى موضع رفع، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشدّة . ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض؛ سُمِّيت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة، فهو صفة ذات، و إرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة، ومنه الحديث : " إن الصدقة لتطفئ غضب الرب " فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق؛ ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا؛ قال :

ألم تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيَارُ * عن الحَيِّ المُضَلَّلِ أَيْنَ ساروا

والضُّلَضِلَة : حجر أملس يرِدُه الماء فى الوادى . وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفةٌ لونَه، قال :

* أو غَضْبَةٌ فى هَضْبَةٍ ما أَمْنَعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأُبَيّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين؛ فالخفض على البدل من «الذين»

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٥ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٢

Marfat.com

أو من الهاء والميم في «عليهم» ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أن الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إني لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول: الحيّ غير الميت ، والساكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأوّل للفارسيّ ، والثاني الزمخشريّ . والنصب في الراء على وجهين : على الحال من الذين ، أو من الهاء والميم في عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعني ؛ وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — «لا» في قوله «ولا الضالين» اختلف فيها ، فقيل هي زائدة ؛ قاله الطبريّ . ومنه قوله تعالى : « مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »(١) . وقيل : هي تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين ، حكاه مكيّ والمهدويّ . وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير ، وهي قراءة عمر وأُبَيّ ؛ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل في «الضالين» : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام في اللام فاجتمع ساكنان مَدّة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السختيانيّ : «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة ؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهي لغة . حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأَنٌّ »(٢) . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة . قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما العَوالى بالعبيط احمأرّت(٣)

نجُز تفسير سورة الحمد ؛ ولله الحمد والمنّة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٤ (٣) كذا ورد هذا الشطر في جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبي حيان والبيت كما في ديوانه واللسان مادة (جنن) :

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهدا * اذا ما احمأرّت بالعبيط العوامل

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان . وعوالى الرماح : أسنتها ؛ واحدتها عالية . والعبيط : الدم الطرى . واحمرّ الشيء واحمأرّ بمعنى .

Marfat.com

تفسير سورة البقرة

"بحول الله وكرمه ، لارب سواه"

وأول مبدوء به الكلامُ فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

سـورة البقرة مَدَنيّـة ، نزلت فى مُدَد شتّى . وقيل : هى أوّل سـورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ »[1] فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النّحر فى حِجّة الوَداع بِمِنًى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهـذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم . ويقال لهـا : فسطاط القرآن ؛ قاله خالد آبن مَعْدَان . وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها . وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى آثنتى عشرة سنة ، وآبنُه عبدُ الله فى ثمـانى سنين كما تقدّم .

قال آبن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألفُ أمر وألف نَهْى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعث رسول الله صلى الله عليه وسـلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِـنًّا لحفظه سورة البقرة، وقال له : "آذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "آقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة "، قال معاوية[2] : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابرَ إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيـه سورة البقرة" . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يُقرأ فيـه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال: إن لكل شىء سَناما وإن سَنام القرآن سورةُ البقرة، وإن لكل شىء لُبابا وإن لُباب القرآن المفصّل . قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص . وفى صحيح البُسْتِىّ

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥ (٢) معاوية هذا، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

Marfat.com

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء سَناما و إن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلًا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتــه ثلاثة أيام " . قال أبو حاتم البُسْتِيّ : قوله صـلى الله عليه وسـلم : " لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام " أراد : مردة الشياطين . وروى الدّارِمِيّ في مسنده عن الشَّعْبِيّ قال قال عبدالله : مَن قرأ عشر آيات مِن ســورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح ، أربعا من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أوّلهـا : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبي عنــه : لم يقربه ولا أهلَه يومئذ شـيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقْرَأْن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع — وكان من أصحاب عبد الله — : لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قـد حَفِظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر] (1) بن مالك بن جعفر آبن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحَسُن إسلامه وترك قولَ الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره وآستنشده؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك؛ فقال : ما كنتُ لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علّمني الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قولُه ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمـــد لله إذ لم يأتني أجـــلي * حتى آكتسيتُ من الإسلام سِرْبالا

قال آبن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السَّلولي ، وهو أصح عندي . وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه * والمرءُ يصلحه القَرِينُ الصالح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة (2) ، و يأتي في أوّل سورة آل عمران (3) زيادة بيان لفضل هذه السورة، إن شاء الله تعالى .

(1) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (جـ ١ ص ٢٣٥) طبع الهند . (2) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨ ، ٤٣١
(3) راجع جـ ٤ ص ٢

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب يسّــر وأعِن "

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

آختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور؛ فقال عامر الشَّعْبيّ وسفيان الثَّوْرِيّ وجماعةٌ من المحدّثين : هي سِرّ الله في القرآن ، ولله في كل كتاب من كُتُبه سِرٌّ . فهي من المتشابه الذي آنفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلّم فيها ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت (١) . ورُوِي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ عن عمر وعثمان وآبن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطّعة من المكتوم الذي لا يُفَسَّر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطّعة في القرآن إلا في أوائل السُّوَر ، ولا ندري ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبي طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم (٢) قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون (٣) به ، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفا من القرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم ، آختبارا من الله عزّ وجلّ وآمتحانا ؛ فمن آمن بها أُثيب وسعد، ومَن كفر وشكّ أَثِم وبَعُد . حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدّثنا محمد بن أبي بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمانٍ بغيب ؛ ثم قرأ : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » .

(١) في نسخة من الأصل : « ولا يجوز أن نتكلم فيها ... وتمرّ كما » الخ . وفي نسخة : « وتقرّ كما جاءت » .
(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «في التقريب الربيع بن خثيم» بضم المعجمة وفتح المثلثة . ولكن في الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .
(٣) في نسخة من الأصل : « تجزون به » .

Marfat.com

قلت : هــذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى (آل عمران) إن شاء الله تعـالى[1] . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهـا ، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهـا ؛ وآختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن آبن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن آسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العـرب حين تحـدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنـه أبلغ فى الحجـة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قُطْرُب : كانوا ينفرون عند آستماع القرآن ، فلما سمعوا : « الٓمٓ » و « الٓمٓصٓ » آستنكروا هذا اللفظ ، فلما أَنْصَتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم و يقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لمـا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ »[2] نزلت ليستغربوها فيفتحون لهـا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها ؛ كقول آبن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمـه لطيف ، والميم مفتاح آسمه مجيـد . وروى أبو الضُّحَى عن آبن عباس فى قوله . « الٓمٓ » قال : أنا الله أعلم ، « الٓر » أنا الله أرى ، « الٓمٓصٓ » أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن آسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . وآختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنًى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظمًا لهـا ووضعًا بدل الكلمات التى الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لهـا قِفِي فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيراتٍ وإن شــرًّا فَا * ولا أريـد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

(١) راجع جـ ٤ ص ٩   (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٦

Marfat.com

وقال آخر :

نادوهــم ألَا الجُمُــو ألَا تَا * قالــوا جميعا كلهــم ألَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فآركبوا . وفى الحديث : "من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول فى آقتل : أق ؛ كما قال عليه السلام "كفى بالسيف شا" معناه : شافيًا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسُّوَر . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها ، وهى من أسمائه؛ عن آبن عباس أيضا. وردّ بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قَسَمًا لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القَسَم قوله تعالى : « لا رَيْبَ فِيهِ » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه؛ لكان الكلام سديدا ، وتكون « لا » جواب القَسَم. فثبت أن قول الكلبى وما رُوى عن آبن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة فى القَسَم من الله تعالى، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدّق، ومكذّب؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم، والمكذب لا يصدق مع القَسَم؟ . قيل له : القرآن نزل بلغة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : « الٓمٓ » أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : « الٓمٓ » قال آسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أَوْدع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أوّل السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو ولىّ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقّه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم .

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها . وآختلف : هل لها محل من الإعراب؟ فقيل: لا؛ لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجّى فهى محكيّة. هذا مذهب الخليل وسيبويه .

Marfat.com

ومن قال : إنها أسماء السُّوَر فوضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ٱبتداء مضمر؛ أى هــذه «الٓمٓ»؛ كما تقول: هذه سورة البقرة. أو تكون رفعًا على الابتداء والخبر ذلك؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ٱبن كَيْسان النحوى : «الٓمٓ» فى موضع نصب؛ كما تقول : ٱقرأ «الٓمٓ» أو عليك «الٓمٓ». وقيل: فى موضع خفض بالقسم؛ لقول ٱبن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل: المعنى هذا الكتاب. و«ذلك» قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب؛ كما قال تعالى فى الإخبار عن نفســه جلّ وعزّ : «ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ»[1] ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرّمحُ يأطِرُ[2] مَتْنَه　*　تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا. فـ«ذلك» إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه: الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه. وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما؛ ومنه قوله تعالى : «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ»[3] «تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ»[4] أى هذه؛ لكنها لمـا ٱنقضت صارت كأنها بَعُدَت فقيــل تلك . وفى البخارى «وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن» . ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة؛ كقوله : «ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ»[5] هذا حكم الله .

قلت: وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك»؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : " يركبون ثَبَج[6] هذا البحر" أى ذلك البحر؛ والله أعلم . وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب .

وٱختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة؛ فقيل : «ذلك الكتاب» أى الكتاب الذى كَتبتُ على الخلائق بالسعادة وٱلشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه؛ أى لا مبدّل له . وقيل: ذلك الكتاب؛ أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل " أن رحمتى سبقت غضبى". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " لمـا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : "سبقت". وقيل :

(١) سورة السجدة آية ٦　(٢) يأطر : يثنى .　(٣) سورة الأنعام آية ٨٣ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٢　(٥) سورة الممتحنة آية ١٠　(٦) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

Marfat.com

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا ويقظانَ " الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »(١) لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنيرًا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك بمكة . وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل . و « الٓمٓ » اسم للقـرآن؛ والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ماليس فيهما . وقيل : إن «ذلك الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أومثل ذَيْنِك الكتابين؛ أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذَيْنِك الكتابين؛ فعبّر بـ«ذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ »(٢) أى عَوان بين تَيْنِك : الفارض والبكر ؛ وسيأتى . وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى اللّوح المحفوظ . وقال الكسائى : «ذلك» إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرّد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحدّيتُكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر من كَتَب يَكْتُب إذا جمع؛ ومنه قيـل : كَتِيبة؛ لاجتماعها . وتكتّبت الخيل صارت كتائب . وكتبتُ البغلةَ : إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمِها بحلْقة أو سَيْر؛ قال :

لا تأمنَنّ فَزارِيًّا حَلَلْتَ به * على قَلُوصك واكتُبْها بأسيار

(١) سورة المزمل آية ٥ (٢) آية ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

والكُتْبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ. والكَتْبُ : الخَرْز . قال ذو الرُّمة :

وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوارِزُها ✽ مُشَلْشِلٌ ضَيَّعتْه بينها الكُتَبُ (١)

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أومتفرقة؛ وسُمّى كتابا وإن كان مكتوبا؛ كما قال الشاعر :

تُؤَمِّلُ رجْعَةً منّى وفيها ✽ كتابٌ مثلَ ما لصِق الغِرَاء

والكتاب : الفَرْض والحُكم والقدَر؛ قال الجَعْدىّ :

يا ٱبنةَ عمّى كتاب الله أخرجنى ✽ عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى عام؛ ولذلك نُصب الريب به . وفى الرَّيْب ثلاثة معان :

أحدها — الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ ✽ إنما الرَّيْبُ مايقول الجهول

وثانيها — التُّهَمَة؛ قال جَميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِي ✽ فقلت كِلَانا يا بثين مُرِيب

وثالثها — الحاجة؛ قال (٢) :

قضينا من تِهامةَ كلَّ رَيْب ✽ وخَيْبَرَ ثم أَجْمَعْنا السيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ٱرتياب؛ والمعنى : أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى؛ أى لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا . وتقول : رابنى هذا الأمرُ إذا أدخل عليك شكًّا وخوفًا . وأراب : صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل :

---

(١) قوله : «وفراء» أى واسعة . و«غرفية» : مدبوغة بالغرف، وهو نبت تدبغ به الجلود . والثأى والثأَى (بسكون الهمزة وفتحها) . خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿فِيهِ﴾ الهاء فى «فيه» فى موضع خفض بفى، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها : فِيهِ هُـدى . ويليه فيهُ هُدى (بضم الهاء بغير واو)[1] وهى قراءة الزُّهْرِى وسلّام أبى المنذر. ويليه فِيهِى هُدى (بإثبات الياء) وهى قراءة آبن كثير. ويجوز فيهُو هُدى (بالواو). ويجوز فيه هدى (مدغما) وآرتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه» . والهُدَى فى كلام العرب معناه الرّشد والبيان؛ أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى .

الثانيـــة — الهُدَى هُديان : هُـدَى دلالة ، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »[2] . وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[3] فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ »[4] فالهُدى هـذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى : «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» وقوله : « وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . والهُدَى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت . قال أبو المعالى : وقد ترد الهـداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنـين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ»[5] ومنه قوله تعالى : فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ »[6] معناه فآسلكوهم إليها .

الثالثـــة — الهدى لفظ مؤنّث . قال الفرّاء : بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول : هذه هُدًى حسـنة . وقال اللِّحيانى : هو مذكّر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك ، ويتعدّى بحرف وبغير حرف وقد مضى فى «الفاتحة»[7]، تقول: هديْته الطريق وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار؛ أى عرّفته . الأولى لغة أهل الحجاز، والثانية حكاها الأخفش. وفى التنزيل: « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »[7] و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا »[8] . وقيل: إن الهُدَى آسم من أسماء النهار؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول آبن مُقْبِل :

(١) أى بعد الهاء من «فيه» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٦٠
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣
(٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء . (٨) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨

Marfat.com

[حتى أستبَنْتُ الهُدَى والبيــدُ هاجمةٌ[1] * يَخشعْــنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصــلِّينا]

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم ؛ لأنهــم آمنوا وصدّقوا بما فيــه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : «هُدًى للمتقين» أى كرامة لهم؛ يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامةً لهم و بيانًا لفضلهم .

وأصل «للمتقين» : للموتقيين بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لألتقاء الساكنيــن وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى آجتماع الواو والتاء وأدغمت التــاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامســـة — التقوى يقال أصلها فى اللغــة قلّة الكلام؛ حكاه آبن فارس . قات : ومنه الحديث: "التَّقِيّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من آتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك و بينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ[2] ولم ترد إسقاطه * فتناولتــه وآتقتــنا باليــد

وقال آخر :

فألقت قناعًا دونه الشمس وآتقت * بأحسن موصــولين كَفٍّ ومِعصمِ

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلة عن زِرّ بن حُبيش عن آبن مســعود قال قال يوما لآبن أخيــه : يآبن أخى ترى النــاس ما أكثرهم ؟ قال : نعــم ؛ قال : لا خير فيهــم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يآبن أخى ترى النــاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهــم إلا عالم أو متعــلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتقى من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيــل : المتقى الذى آتقى الشرك و برئ من النفاق . قال آبن عطية : وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول، والزيادة من اللسان مادة (هدى) والبحر المحيط فى هذا الموضع .

(٢) النصيف : ثوب تجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس و بينها فحجز أبصارهم عنها .

Marfat.com

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هــذا المعنى ابن المُعْتَز فنظمه :

خَلِّ الذنوب صـــغيرها * وكـبيرها ذاك التــقى

واصـــنع كماشٍ فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صـــغيرة * إن الجبــال من الحصى

السادســـة — التقوى فيها جماع الخيركله ، وهى وصية الله فى الأوّلين والآخرين ، وهى خير ما يستفيده الإنسان ؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شيء ؛ فقال :

يريد المــرء أن يُؤْتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المــرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه فى ســنه عن أبى أُمامة عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم أنه كان يقول : "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سَرّته وإن أقسم عليها أبَرّته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله" .

والأصــل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلَى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلٌ تقيّ أى خائف ، أصله وقى ؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة ؛ كما قالوا : تُجاه وتُراث ، والأصل وُجاه ووُرات .

قوله تعــالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

فيها ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض نعت «للمتقين» ، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين ، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون . والإيمــان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا »[1] أى بمصــدق ؛ ويتعدّى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ »[2] « فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ »[3] . وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية ١٧ (٢) سورة آل عمران آية ٧٣ (٣) سورة يونس آية ٨٣

Marfat.com

الأحول — ويلقب بزِقّ العَسَل — قال سمعت قتادة يقول : يابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فإن نفسك مائلة إلى السأْمة والفَتْرَة والمَلّة ؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المُتقوِّى ، والمؤمن هو المتشدِّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[2] إلى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربَّنا ربَّنا فى السرّ والعلانيـة حتى آستجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منـه : غابت الشمس تَغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مُغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأَجَمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — وآختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعّفه آبن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيـه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسـول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال آبن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السـلام حين قال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : «الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ[3] » وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ[4] » . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مَرْئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والآستدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء .　　(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .
(٣) سورة الأعراف آية ٧ .　　(٤) سورة الأنبياء آية ٤٩ .

Marfat.com

فهم يؤمنون أن لهم رَبًّا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم بآطلاعه عليهم ، وعلى هـذا تتفق الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله . وقيل : «بالغيب» أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنّا وقـد كان قومُنا * يصلّون للأوثان قبل محمّد

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة . وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها؛ على ما يأتى بيانه . يقال: قام الشىء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرِّجْل ؛ وإنمـا هو من قولك : قام الحق أى ظهـر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحـوا * حتى تُقيمَ الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل : « يقيمون » يديمون ، وأقامه أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضَيّعها فهو لمـا سواها أضيع .

الخامســـة — إقامة الصلاة معروفة؛ وهى سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها . وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وآبن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظـاهر ، وروى عن مالك ، وآختـاره آبن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والآستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال آبن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم : "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يَدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم ، فـما كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للاجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك . وقال بعض علمائنا : مَن تركها عمدا أعاد الصلاة، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لآستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن ، والله أعلم .

Marfat.com

السادســة — وآختلف العلمــاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فــا أدركتم فصَلُّوا وما فاتكم فأتِمّوا". رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا ثُوِّب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن لِيَمْشِ وعليه السَّكينة والوقار صَــلِّ ما أدركت وآقض ما سبقك" . وهذا نص . ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع آنبهر[1] فشوّش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتهــا وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم آبن عمر وآبن مسعود على آختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس ؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين المــاشى والراكب ؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المــاشى .

قلت : وآستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وســلم فى كل حال أولى ، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ؛ لأنه فى صلاة ومحال أن يكون خبره صلى الله عليه وســلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المــاشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه . ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدّارمى فى مسنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمــد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك فى صلاة" . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هــذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعــله كالمصلّى ؛ وهذه السنن تبيّن ـــ معنى قوله تعــالى : «فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ»[2] وأنه ليس المراد به الآشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل ؛ هكذا فسره مالك . وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء .

(٢) سورة الجمعة آية ٩

Marfat.com

السابعـــة ـــ وآختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام: "وما فاتكم فأتموا" وقوله: " وآقض ما سبقك " هل هما بمعنًى واحد أو لا ؟ فقيل : همـا بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمـام ، قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ »(1) وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(2) . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح ؛ ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأول جماعة من أصحاب مالك ـــ منهم آبن القاسم ـــ ولكنه يقضى ما فاته بالحمـد وسورة ، فيكون بانيـا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال آبن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهو الذى عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود آبن علىّ . وروى أشهب وهو الذى ذكره آبن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن آبن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال آبن عبد البر : من جعل ما أدرك أوّل صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا فى أول الصلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أول صلاته ، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : " فأتموا " والتمـام هو الآخر .

وآحتج الآخرون بقوله : "فآقضوا" والذى يقضيه هو الفائت ، إلا أن رواية من روى « فأتموا » أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أول صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة المـاجِشُون والمزنى وإسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء آطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم .

الثامنـــة ـــ الإقامة تمنع من آبتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " خرّجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة

---

(1) سورة الجمعة آية ١٠ . (2) سورة البقرة آية ٢٠٠

Marfat.com

فلا يقطعها ؛ لقوله تعـالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ »[1] وخاصة إذا صـلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاســعة ـــ وآختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد ـــ التى تصلَّى فيها الجمعة ـــ اللاصقة بالمسجد؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأَنْ يصلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إلىّ وأفضل من تركهما . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعى؛ إلا أنه يجوّز ركوعهما فى المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة . وقال الثورى : إن خشى فوت ركعـة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حىّ ويقال ابن حيّان: إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصـلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمـد بن حنبل وحكى عن مالك ؛ وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليـه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إما سـنة ، وإما فضيلة ، وإما رغيبة ؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن ابن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حُجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجـة الثّورى والأوزاعى ما روى عن عبـد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقـد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوانة[2] فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

---

(١) سورة محمد آية ٣٣ (٢) الأسطوانة : العامود .

Marfat.com

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد ، روى مسلم عن عبد الله بن مالك آبن بُحينة[(١)] قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ، و يمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صَحت ؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العـاشرة ــ الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء، مأخوذة من صَلّى يصلّى إذا دعا؛ ومنه قوله عليه السلام : " إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم و إن كان صائما فليُصَلّ " أى فليدْعُ . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين وينصرف ؛ والأول أشهر وعليـه من العلماء الأكثر . ولمـا وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسمـاء : ثم مسحه وصلّى عليـه ، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »[(٢)] أى آدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقـد قَرُبتُ مرتحـلا * يا ربّ جنّب أبِى الأوْصاب والوجَعَا
عليـكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتمِضى * نومًا فإن لجنْبِ المـرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرّيحُ فى دَنّهـا * وصلَّى على دَنّها وارْتَسَمْ

آرتسم الرجل : كبّر ودعا؛قاله فى الصحاح.وقال قوم: هى مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق فى وسط الظهر و يفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخذ المُصَلِّى فى سبق الخيل؛ لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلَوَى السابق ؛ فآشتقت الصلاة منه، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمـان فشبهت بالمُصَلِّ من الخيل، و إما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه. والصَّلا :مَغْرِز الذَّنَب من الفرس،

---

(١) « بحينة » : أمه ، وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣

Marfat.com

والاثنان صلوان . والمُصَلِّي : تالى السابق ؛ لأن رأسه عند صَلاه . وقال عليّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم ؛ ومنه صَلِيَ بالنار إذا لزمها ؛ ومنه « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً »(١) . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُناتِها علم الله * وإنّى بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرّها ؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصِّلاء . والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممدود ؛ فإن فتحت الصاد قَصَرت ، فقلت صَلا النار ، فكأنّ المصلى يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع ؛ قال الخارزنجى(٢) :

فلا تعْجل بأمرك واستدِمْهُ * فما صَلَّى عصاكَ(٣) كمستديم

والصلاة : الدعاء . والصلاة : الرحمة ؛ ومنه : " اللّهمّ صلّ على محمد " الحديث . والصلاة : العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ »(٤) الآية ؛ أى عبادتهم . والصلاة : النافلة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ »(٥) . والصلاة التسبيح ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ »(٦) أى من المصلين . ومنه سُبْحة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ »(٧) : نصلّى . والصلاة : القراءة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ »(٨) فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلّى فيه ؛ قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم علَم وضع لهذه العبادة ؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع ، ولم يُخلِ شرع من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها ؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى ، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج ، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام ، أو هل

---

(١) سورة الغاشية آية ٤ .

(٢) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان والتاج مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » .

(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان : « عصاه » .

(٤) سورة الأنفال آية ٣٥ .

(٥) سورة طه آية ١٣٢ .

(٦) سورة الصافات آية ١٤٣ .

(٧) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٨) سورة الإسراء آية ١١٠ .

Marfat.com

تلك الزيادة من الشرع تصيِّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع . هنا ٱختلافهم والأوّل أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ، والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين ؛ ولكن للعرب تحكُّمٌ فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدب؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكُّمٌ فى الأسماء ، والله أعلم .

الثانية عشرة — وٱختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معًا ؛ وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام والمتّقِى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية؛ على ما يأتى بيانه فى « طٰه »[1] إن شاء الله تعالى . وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى ٱبن ماجه عن أبى هريرة قال: هَجَّر[2] النبىُّ صلى الله عليه وسلم فهجَّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فٱلتفت إلىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أشكمت دَرْدَه" قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : "قم فصلّ فإن فى الصلاة شفاء" . فى رواية : "أشكمت درد" يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبه[3] أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛فمن شروطها: الطهارة،وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء[4] والمائدة[5] ، وستر العورة ، يأتى فى الأعراف[6] القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبيرة الإحرام والقيام لها ، وقراءة أم القرآن والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : "إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم ٱستقبل القبلة ثم كبر ثم ٱقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم ٱركع حتى تطمئن راكعا ثم ٱرفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء والمبادرة إليه .
(٣) حزبه الأمر : نابه وٱشتد عليه ، وقيل : ضغطه . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ فما بعد .

Marfat.com

حتى تعتــدل قائما ثم آسجد حتى تطمئن ساجدا ثم آرفع حتى تطمئن جالسا ثم آفعــل ذلك في صلاتك كلهــا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنِيّ وغيره .
قال علماؤنا : فبيّن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الأنتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام . أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما[(١)] . وأما رفع اليــدين فليس بواجب عند جماعة العلمــاء وعامة الفقهاء ؛ لحديث أبي هريرة وحديث رفاعة بن رافع . وقال داود و بعض أصحابه بوجوب ذلك عنــد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنــد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع مــن الركوع واجب ، وإنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ؛ وهو قول الحميدى، ورواية عن الأوزاعى .
وآحتجوا بقوله عليه السلام : " صلُّوا كما رأيتمونى أصلّى " أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ؛ لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور . وكان آبن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فمــا فوقها سجد للسهو قبــل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته ؛ وإن نسى تكبيرة واحدة أو آثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شيء عليــه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيهــا . وهــذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض ، وأنــ اليسير منه متجاوز عنــه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبّر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شيء عليــه ؛ ولا ينبغى لأحد أن يترك التكبير عامدا ؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح، وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهــل الحديث والمــالكيين غيرَ من ذهب مذهب آبن القاسم . وقد ترجم البخارى

(١) راجع ص ١١٧ ، ١٦٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صلّيت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، و إذا رفع رأسه كبّر، و إذا نهض من الركعتين كبّر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمرانُ بن حصين فقال : لقد ذكرنى هــذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أو قال : لقــد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم . وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، و إذا قام و إذا وضع، فأخبرت آبن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبى صلى الله عليه وسلم لا أُمَّ لك[1]! فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السَّبِيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا علىّ يومَ الجمَل صلاة أذكرنا بهــا صلاة رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيــام وقعود؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها و إما تركناها عمدا .

قلت: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ و بالله التوفيق .

الخــامسة عشرة ـــ وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبــه إسحاق بن رَاهْوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليــه السلام : " أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فآجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم ".

السادسة عشرة ـــ وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلمــاء الجلوس الأوّل وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا[2] من المُزَابنة[3]، والقِراض[4] من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. وآحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

---

(١) قوله : لا أم لك . فى نهاية آبن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعرَف لك أم . وقيــل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بعدٌ » .

(٢) العرايا : نخل كانت توهب ثمارها للمساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمــر .

(٣) المزابنة : بيــع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا ، و بيع الزبيب بالكرم .

(٤) القراض (بالكسر) : إجارة على التجر فى مال بجزء من ربحه .

Marfat.com

العامد لتركه تبطل صـلاته كما لا تبطل بترك سنن الصـلاة . آحتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصـلاة لرجع الساهي عنه إليه حتى يأتي به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، و يراعى فيه ما يراعى في الركوع والسجود من الولاء والرتبة ؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفي حديث عبد الله بن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسي أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمـا فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتي السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض في الصلاة يستوي في تركها السهو والعمد إلا في المؤتم .

وآختلفوا في حكم الجلوس الأخير في الصلاة وما الغرض من ذلك . وهي : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس والتشهد فرض والسـلام فرض . وممن قال ذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية ، وحكاه أبو مصعب في مختصره عن مالك وأهل المدينة ، و به قال داود . قال الشافعي : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . وآحتجوا بأن بيان النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فرض ؛ لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتموني أصلي " .

القول الثاني : أن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب ، و إنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، و إليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، فخالف الجمهور وشذّ ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ في صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد بيناه في كتاب المقتبس (١) . وهذا اللفظ إنمـا يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) في بعض الأصول : « المقتبس » .

Marfat.com

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . وآحتجوا بحديث آبن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال آبن العربي : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا في الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطة * أين الضُراطُ من السلامِ عليكُمُ

قال آبن العربي : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه ، وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثاني : فوقع في الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفَه ، وهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه في الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس فرض والسلام فرض، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية . وآحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه ، وآحتج إسحاق بحديث آبن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدّارَقُطْنيّ : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام آبن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابة ثقة . وقد تابعه غسّان بن الربيع على ذلك ، جعل آخر الحديث من كلام آبن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

الثامنة عشرة — وآختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب، وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشــة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصــل فى إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها بآتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو آفتتح رجل صلاته بسبعين آسما من آسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، و إن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهــدى لحديث علىّ ، وهو إمام فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحَسْبُك به !

وقد آختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الآفتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال آبن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقــد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هــذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنهــا فرض وركن من أركان الصلاة ، وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — وآختلف العلماء فى اللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منــه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هــذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر» لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ «الله الأكبر» و «الله الكبير» . والحجة لمــالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبّر . وفى سنن آبن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلىّ بن محمد الطنافسى قالا : حدّثنــا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمــد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى

Marfat.com

يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة آستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـودا

ثم إنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى؛ والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن آفتتح بلا إله إلا الله يجزيه . وإن قال : اللهم آغفر لى لم يجزه، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال آبن المنـذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسـدة؛ فمن كان هـذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسـية وإن كان يحسن العربية . قال آبن المنـذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمته، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال . والله أعلم .

الحادية والعشرون — وآتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال آبن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـا، أو قبل ذلك بشرط آستصحابها، فإن تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها. كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل، وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى آقترانها بأوله . قال آبن العربىّ : وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول: يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهى نظره إلى نية الصلاة، قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة، لأن

(١) أوحى : أسرع .

Marfat.com

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبى سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها؛ فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، فى «النساء»[1] والأوقات فى «هود[2] وسبحان[3] والروم[4]» وصلاة الليل فى «المزمل[5]» وسجود التلاوة فى «الأعراف[6]» وسجود الشكر فى «ص[7]» كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيـة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صبى مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصّص ويأكل ما تلصّصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السِّخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال . ولمـا أجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ فما بعد. (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٩ فما بعد. (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٤ ص ١٤ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٩ ص ٥١ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعد . (٧) راجع جـ ١٥ ص ١٨٣ .

Marfat.com

وأن الله تعـالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(١) وقال : «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ»(٢) وقال : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا»(٣) وهذا قاطع ؛ فالله تعـالى رازق حقيقة وآبن آدم رازق تجوزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة(٤) ، مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ»(٥) فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ الرزق مصـدر رزق يرزق رَزقا ورزقا ، فالرَّزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض](٦) . وآرتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغـة . وقال آبن السكيت : الرزق بلغة أَزْدِشَـنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»(٧) أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المـال من اليد ؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشـترى . ونَفَقت الدابةُ : خرجت روحها ؛ ومنه النافقاء لجُحْر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق ؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه . ونِيفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى : «إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ»(٨) .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦ فما بعد .
(٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد . (٨) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ .

Marfat.com

الخامسة والعشرون — وآختلف العلماء فى المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن آبن عباس — لمقارنتها الصـلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن آبن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دينارٌ أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رَقَبة ودينار تصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذى أنفقتــه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قِلابة[(1)]: وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة: وأىُّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صـدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة آحتملت الفرض والتطوّع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوّع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقرّبون بهـا إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات فى «براءة»[(2)] . وقيــل : إنه الحقوق الواجبة العارضــة فى الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لمـا قرنه بالصـلاة كان فرضا، ولمـا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أى يؤتون ما ألزمهــم الشرع من زكاة وغيرها ممـا يعنّ فى بعض الأحوال مع ما ندبهم إليــه . وقيــل : الإيمان بالغيب حظ القلب . و إقام الصـلاة حظ البـدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المـال، وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدّمين فى تأويل قوله تعالى: «وِمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» أى مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشــيرى .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث . (٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . جـ ٨ ص ٢٤٤ فقد قال آبن العربى إنها ناسخة لآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سَلَام وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعا في المؤمنين، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف أي وهم الذين. ومن جعلها في صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفا.

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب السالفة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا»(١) الآية. ويقال: لما نزلت هذه الآية: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» قالت اليهود والنصارى : نحن آمنّا بالغيب ، فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » قالوا : نحن نقيم الصلاة ، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ، فلما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفي حديث أبي ذرّ قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ(٢) ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ". الحديث أخرجه الحسين الآجُرّي وأبو حاتم البُسْتي.

وهنا مسئلة — إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثاني — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ (بالكسر) يَقْنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى،

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (٢) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

Marfat.com

وأنا على يقين منه. وإنما صارت الياء واوا فى قولك: مُوقِن، للضمة قبلها، وإذا صغرته رددته إلى الأصـل فقلت مُيَيْقِن . والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع . وربمـا عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمـائنا فى اليمين اللّغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شىء عليه ؛ قال الشاعر(١) :

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ وأيقَنَ أنّني * بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغامِرُهْ

يقول : تشمّم الأسـد ناقتى ، يظنّ أنى مُفْتَدٍ بها منه ، وأستحمى نفسى فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير؛ وسيأتى . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو؛ على ما يأتى .

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

قال النحاس أهل نجد يقولون: أُلاكَ، وبعضهم يقول: أُلالِكَ، بالكاف للخطاب . قال الكسائى : من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال أُلاك فواحده ذاك، وأُلالِك مثل أولئك، وأنشد ابن السكّيت :

أُلالِكَ قومى لم يكونوا أُشابةً(٢) * وهل يَعِظُ الضِّلّيلَ إلا أُلالِكا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

ذُمّ المنازلَ بعد منزلة اللِّوَى * والعيشَ بعـد أولئك الأيامِ

وقال تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »(٣) وقال علماؤنا : إن فى قوله تعالى : « مِنْ رَبِّهِمْ » ردًّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم ، تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال . « من أنفسهم »(٤) ، وقد تقدّم الكلام فيه وفى الهدى(٥) فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره «المفلحون» ، والثانى وخبره خبر الأول، ويجوز أن تكون «هم» زائدة ــ يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا ــ و « المفلحون » خبر « أولئك » .

(١) هو أبو سدرة الأسدى ، ويقال : الهجيمى .

(٢) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة فى الكسب : ما خالطه الحرام الذى لا خير فيه والسحت .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٩

(٤) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩ .

(٥) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحـديد بالحـديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقّها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سُمّى الأَكَّارُ[1] فلاحا . ويقال للذى شُقّت شفته السفلى أفلح ، وهو بيّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة، ومنه قول الرجل لأمرأته : آستفْلِحِى بأمْرِك ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حَىّ مدرك الفلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكلّ هَمّ من الهموم سـعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لافَلاح مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلادا كلّها حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَر

أى البقاء . وقال عبيد :

أفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضّـ * ـعْف وقـد يُخَـدَّعُ الأريبُ

أى أبق بما شئت من كَيْس وحُمق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل. فمعنى «وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون» : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال آبن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد. وقد آستعمل الفَلاح فى السَّحور؛ ومنه الحديث: حتى كاد يفوتنا الفَلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: وما الفَلاح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود. فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحا . والفلاح (بتشديد اللام) : المُكارِى فى قول القائل[2] :

لها رِطلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه * وفَلّاحٌ يسوق لها حِمارا

ثم الفَلاح فى العُرْف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

---

(١) الذى يحرث الأرض . (٢) هو عمرو بن أحمد الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

Marfat.com

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جنّتيهُم؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمتها؛ وليس ذلك في فيهم ولا من ربهم ولا جنّتيهم، ووافقه الكسائي في « عليهم الذلّة » و « إليهم اثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم. والكفر ضد الإيمان وهو المراد في الآية. وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان؛ ومنه قوله عليه السلام في النساء في حديث الكسوف: "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء" قيل: بمَ يا رسول الله؟ قال: "بكفرهن"؛ قيل أيكفرن بالله؟ قال: "يكفرن العَشير ويكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخاري وغيره.

وأصل الكُفْر في كلام العرب: الستر والتغطية؛ ومنه قول الشاعر:

* في ليلة كَفَر النُّجومَ غَمامُها *

أي سترها. ومنه سُمّيَ الليل كافرًا؛ لأنه يغطي كل شيء بسواده؛ قال الشاعر [(1)]:

فتذَكَّرا ثَقَلًا رَثِيدًا بعدما * ألقتْ ذُكاءُ يمينَها في كافر

ذكاء (بضم الذال والمدّ): اسم للشمس؛ ومنه قول الآخر:

فوردَتْ قبل انبلاج الفجرِ * وابْنُ ذُكاءٍ كامنٌ في كَفْر

أي في ليل. والكافر أيضا: البحر والنهر العظيم. والكافر: الزارع؛ والجمع كُفّار، قال الله تعالى: « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ » [(2)]. يعني الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب. ورماد

(1) هو ثعلبة بن صعيرة المازني، يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس. والثقل (بالتحريك) هنا: بيض النعام المصون. والرثيد: المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض. وألقت يمينها في كافر: أي بدأت في المغيب. اللسان مادة (كفر).

(2) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥

Marfat.com

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور : القُرى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا. وجيء بالاستفهام من أجل التسوية؛ ومثله قوله تعالى : « سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » (١) . وقال الشاعر (٢) :

وليـلٍ يقول الناسُ من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتسع زمانه للاحتراز ، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمْرًا وهو فى مَهَـلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَنَاذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خَوَّفه بعضُهم بعضا .

وآختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل: هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحدا . وقال آبن عباس والكلبي : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ بن أَخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأول أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنما مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر «إنّ»أى إن الذين كفروا لا يؤمنون. وقيل: خبر « إنّ» «سواء»وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله آبن كيسان. وقال محمد بن يزيد: «سواء» رفع بالابتداء، « أأنذرتهم أم لم تنذرهم »الخبر، والجملة خبر « إنّ» . قال النحاس: أى إنهم تبالهوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . وآختلف القراء فى قراءة «أأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٢٥ .

(٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

Marfat.com

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق: « آنذرتهم » بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، واختارها الخليل وسيبويه ، وهي لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر (١) :

أيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بين جُلَاجِلٍ * وبَيْنَ النَّقَا آنتِ أمْ أمُّ سالِمِ

هجاء « آنت » ألِفٌ واحدة . وقال آخر :

تطَـالَلْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتُهُ * فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروى عن ابن مُحَيْصِن أنه قرأ : « أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، فحذف لالتقاء الهمزتين ، أو لأن أم تدل على الاستفهام، كما قال الشاعر :

تَرُوحُ مِن الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ * وماذا يَضِيرُكَ لو تَنْتَظِـر

أراد: أتروح، فاكتفى بأم من الألف. وروى عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «أاأنذرتهم» فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية، وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا. وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين : « أأنذرتهم » وهو اختيار أبي عبيد ، وذلك بعيد عند الخليل . وقال سيبويه : يشبه في الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء، لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهذه سبعة أوجه من القراءات ، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن ، لأنه مخالف للسواد (٢) . قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : هأنذرتهم ، كما يقال هياك وإياك ، وقال الأخفش في قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : «ختم الله» . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختّم، شدّد للمبالغة. ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما في كتاب سيبويه ، والمفصل للزمخشري . (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

Marfat.com

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرّين والموت والقساوة والانصراف والحميّة والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُستَكبِرُونَ »(١) . وقال فى الحميـة : « إِذ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ »(٢) . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُم قَومٌ لَا يَفقَهُونَ »(٣) . وقال فى القساوة : « فَوَيلٌ لِلقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكرِ اللهِ »(٤) . وقال : « ثُمَّ قَسَت قُلُوبُكُم مِن بَعدِ ذَلِكَ »(٥) . وقال فى الموت : « أَوَ مَن كَانَ مَيتًا فَأَحيَينَاهُ »(٦) . وقال : « إِنَّمَا يَستَجِيبُ الَّذِينَ يَسمَعُونَ وَالمَوتَى يَبعَثُهُمُ اللهُ »(٧) . وقال فى الرّين : « كَلَّا بَل رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكسِبُونَ »(٨) . وقال فى المرض : « فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا »(٩) . وقال فى الطبع : « فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لَا يَفقَهُونَ »(١٠) . وقال : « بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيهَا بِكُفرِهِم »(١١) . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوعى عن الحق — سبحانه — مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته . وعلى السمع . عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعُـوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتهـا للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثـــة — فى هذه الآية أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمـان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمـانهم وهداهم؛فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٠
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٥) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ (٦) راجع جـ ٧ ص ٧٨
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ (٩) راجع جـ ٧ ص ٨١
(١٠) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ (١١) راجع جـ ٦ ص ٧

Marfat.com

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضلل الله فما له من هاد » (١) ! وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هـذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنمـا هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيـل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لمـا امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهـم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم؛ وإنمـا هو معنًى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعـالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » (٢) . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » (٢) . أي لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعـــة — قوله : ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره وخالص كل شيء وأشرفه قلبه؛ فالقلب موضع الفكر . وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء: رددته على وجهه . ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه؛ كما قيل :

ما سُمِّيَ القلب إلا مِنْ تقلُّبِـــه * فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٠		(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ و ٢٧١ .

Marfat.com

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقًا بينه و بين أصله . روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَثَلُ القلب مَثَل ريشة تقلّبها الرياح بفلاة" . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك" . فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » (١) . وسيأتى .

الخامسة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — و إن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدُقُ فتُنكت فى قلبه نكتة بيضاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه" . وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه" . قال : وهو الرَّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٢) . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن فى الجسد مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب —" دليل على أن الختم يكون حقيقيا ، والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة ، وهو يَعْضُد قول مجاهد ، والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدّثنا "أن الأمانة نزلت فى جَذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنة" . ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النَّومة فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيَظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كجمرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شىء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٠ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ .

Marfat.com

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجْلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيَّكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىَّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىَّ ساعيه(١) وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله : "الوَكْت" وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب : قد وكّت، فهو مُوَكِّت. وقوله : "المَجْل"، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : "كجمرٍ دحرجته" أى دورته على رجلك فنفط . "فتراه مُنْتَبِرًا" أى مرتفعا — ما يدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع؛ والله أعلم .

وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبَادٌّ(٢) كالكُوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكِر منكرا إلّا ما أُشْرِب من هواه ... " وذكر الحديث . " مُجَخِّيًا " : يعنى مائلا .

السادســـة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى : « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ »(٣) . وقال : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ »(٤) يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل. قال الله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »(٥) أى عقل؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين . والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ »(٦) . وقال : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ »(٧) . قال: والسمع يُدْرَك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة ؛ ولا يُدْرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة ، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين

(١) ساعيه : هو رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمرا دونه (النهاية). (٢) ويروى : «مربد» أى اختلط سواده بكدرة .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨ (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٤
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ (٧) راجع جـ ١٠ ص ١٥١

Marfat.com

بتفضيل البصر على السمع ؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام ، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضـل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير ؛ يقال : سمعت الشيء أسمعه سَمْعًا وسماعا ، فالسّمع مصدر سمعت ؛ والسمع أيضا آسم للجارحة المسموع بهـا سُمِّيت بالمصدر . وقيل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ؛ كما قال الشاعر[(١)] :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيــضٌ وأما جلدها فصَليبُ

إنما يريد جلودها فوحّد ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر[(٢)] في مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا * في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد في حلوقكم ؛ ومثله قول الآخر :

كأنه وجهُ تُرْكِـيَّيْنِ قد غضبا * مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين ، فقال وجه تركيين ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : « وعلى أسماعهم » ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الآستماع ؛ يقال : سَمْعُك حديثي — أي آستماعك إلى حديثي — يعجبني ؛ ومنه قول ذي الرُّمّة يصف ثورا تَسمَّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توَجَّسَ رِكْزًا مُقفِرٌ نَدُسٌ * بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمعه كَذِبُ

---

(١) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهي المعيية من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أي أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وبدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أي محرم يابس لأنه ملقى بالفلاة لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ؛ أي قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوي ؛ كما في كتاب سيبويه

Marfat.com

أى مافى ٱستماعه كذب؛ أى هو صادق الاستماع . والنَّدُس : الحاذق . والنَّبْأة : الصوت الخفى، وكذلك الركز . والسِّمع (بكسر السين وإسكان الميم) : ذِكر الإنسان بالجميل؛ يقال : ذهب سِمْعه فى النـاس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : «وعلى سمعهم» . و «غِشَاوَةٌ» رفع على الابتداء وما قبله خبر . والضمائر فى «قلوبهم» وما عُطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب؛ لانه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاسـعة — ومنه غاشية السَّرْج؛ وغشيت الشيء أغشيه . قال النابغة :

هلّا سألت بنى ذُبْيان ما حسبِي * إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأَشْمَطَ البَرَمَا (١)

وقال آخر (٢) :

صحبتُـكَ إذ عينى عليهـا غشاوةٌ * فلما ٱنجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال ٱبن كَيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفرّاء : غشاوى مثل أداوى . وقرئ : «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله :

* علفتُها تِبْنًـا وماء باردا *

وقول الآخر (٣) :

يا ليت زوجَك قـد غدا * متقـلِّدا سـيفًا ورُمْحَـا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسى : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سَعة وٱختيار؛ فقراءة الرفع أحسن . وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلًا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار؛ والوقف على «قلوبهم» . وقال آخرون : الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم؛ فالوقف على هذا على «غشاوة» . وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَةَ بفتحها، وروى عن

(١) الأشمط : الذى خالطه الشيب . والبرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ويأكل معهم من لحمه .
(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى؛ كما فى اللسان مادة (غشا) . (٣) هو عبد الله بن الزبعرى؛ كما فى الكامل للبرد ص ١٨٩ طبع أوربا .

Marfat.com

أبي عمرو: غشوة، ردّه إلى أصل المصدر . قال ٱبن كيسان : و يجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غشاوة ، كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد، إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان. وفي التنزيل : «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»(1) وهو مشتق من الحبس والمنع؛ يقال في اللغة : أَعْذِبه عن كذا أي ٱحبسه وٱمنعه؛ ومنه سمي عذوبة الماء؛ لأنها قد أعذبت . وٱستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو و يفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول عليّ رضي الله عنه : أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج؛ أي ٱحبسوهن . وعنه رضي الله عنه وقد شيّع سَرِيّةً فقال : أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته؛ وفي المثل : « لألجمنّك لجاما معذبا » أي مانعا عن ركوب الناس . ويقال : أَعْذَبَ أي ٱمتنع . وأَعْذَبَ غيره ؛ . فهو لازم ومتعدّ ؛ فسمي العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس و يمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ٱبن جُريج عن مجاهد قال: نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، وٱثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين . وروى أسباط عن السدّي في قوله : «وَمِنَ النَّاسِ» قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس ٱسم جنس، وٱسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانيـــة — وٱختلف النحاة في لفظ الناس ؛ فقيل : هو ٱسم من أسماء الجموع ، جمع إنسان و إنسانة ، على غير اللفظ ، وتصغيره نُوَيس . فالناس من النَّوْس وهو الحركة ؛ يقال : ناس ينوس أي تحرّك ؛ ومنه حديث أم زرع : « أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ » . وقيل : أصله من نسي؛ فأصل

(1) راجع جـ ١٢ ص ١٦٦

Marfat.com

ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ماقبلها فانقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال آبن عباس : نسي آدم عهــد الله فسُمِّيَ إنسانا . وقال عليــه السلام : "نسي آدم فنسيَتْ ذريّتُه" . وفي التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ»(١) وسيأتي . وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنّما * سُمِّيتَ إنســانًا لأنــك ناسي

وقال آخــر :

فإنْ نَسِيتَ عهودا منك سالفةً * فآعفِرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل : سمي إنسانا لِأُنْسه بحواء . وقيل : لِأُنْسه بربه ، فالهمزة أصلية ؛ قال الشاعر :

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلّا لِأُنْسِهِ * ولا القلبُ إلّا أنّه يَتَقَلَّبُ

الثالثــة — لمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين في مقابلتهم ؛ إذ الكفر والإيمان طرفان . ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم ؛ لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق : « وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » . ففي هذا ردّ على الكَرّاميّة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب ؛ وآحتجوا بقوله تعالى : « فَأَثَابَهُمُ اللّٰهُ(٢) بِمَا قَالُوا » . ولم يقل : بما قالوا وأضمروا ؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منّي دماءهم وأموالهم" . وهذا منهم قصور وجمود ، وتركُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والآعتقاد ؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان" . أخرجه آبن ماجه في سُنَنه . فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السِّجستاني وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق ؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الآعتقاد .

الرابعــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه ، بل يبغضه ويعاديه ؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافي بالإيمان ، فالله محب له ، موالٍ له ، راضٍ عنه . وكلّ مَن علم الله أنه يوافي بالكفر ، فالله مبغض له ، ساخط

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١   (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠

Marfat.com

عليـه، معادٍ له ، لا لأجل إيمانه، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لامحالة، وكافر لايُعاقَب. فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر، فالله ساخط عليه معادٍ له . والذى لا يعاقب هو الموافى بالإيمـان ، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له ، بل محبّ له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمـانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامســـة — بأن المؤمن يستحق الثواب ، والكافر يستحق العقاب ، بل يجب تقييده بالموافاة . ولأجل هذا قلنا : إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته؛ لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرِيّةُ فى هذا وقالت: إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم. وهذا فاسد؛ لمـا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر. ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبـد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْيُ السعادة فى سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثل ذلك ثم يُرسِل الله المَلَك فينْفُخ فيه الرُّوح ويُؤْمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" . فإن قيل وهى : —

Marfat.com

السادســـة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن آبن عباس أخبرنا أبو رَزين العقيلى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأشرب أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغيّر طعمه" قال قلت: كيف يحيي الله الموتى؟ قال: "أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت: بلى. قال: "كذلك النشور" قال قلت: كيف لى أن أعلم أنى مؤمن؟ قال: "ليس أحد من هذه الأمة — قال آبن أبى قيس: أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن".

قلت: وهــذا الحديث وإن كان ســنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث آبن مسعود؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام: "وإنمـا الأعمال بالخواتيم". وهذا إنمـا يدل على أنه مؤمن فى الحال؛ والله أعلم.

السابعـــة — قال علماء اللغة: إنمـا سُمّى المنافق منافقًا لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيها باليربوع، له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء. وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

قال علماؤنا: معنى «يخادعون الله» أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لعملهم عمل المخادع. وقيــل: فى الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ عن الحسن وغيره. وجعل خداعهم لرسوله خداعا له؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله. ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان

Marfat.com

خلاف ما أبطنوه من الكفر، لِيَحْقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهـم قد نجوْا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغــة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ؛ حكاه ثعلب عن آبن الأعرابى . وأنشد :

أَبْيَضُ اللَّونِ لذيذٌ طعْمُه * طيِّبُ الرِّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ[1]

قلت : فـ «يخادعون الله» على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسّرًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى . وفى التنزيل : «يُرَاءُونَ النَّاسَ»[2] . وقيل : أصله الإخفاء؛ ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشىء؛ حكاه آبن فارس وغيره . وتقول العرب : آنخدع الضب فى جُحره .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفى وإيجاب ؛ أى ماتحلّ عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : مَن خَدَع من لا يُخْدع فإنما يَخْدع نفسه . وهذا صحيح ؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معــه فى الخداع فإنمـا يخدع نفسه . ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه الســلام أنه قال : " لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر " قالوا : يارسول الله، وكيف يُخادَع اللهُ ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره " . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» .

وقرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين؛ ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وآبن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّق العجلىّ : «يُخَدِّعون الله» (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شــدّاد والجارود بضم الياء وإسكان الخــاء وفتح الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجر ؛ كما قال تعالى : «وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ» أى من قومه .

---

(١) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر امرأة . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخـدعهم وفازوا ؛ وإنمـا ذلك فى الدنيـا ، وفى الآخرة يقال لهم : « ٱرْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً » على ما يأتى(١). قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بالشيء أى فطنت له ؛ ومنه الشاعر لفطنته ؛ لأنه يفطن لمـا لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِى ؛ أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ، وإما جَحْداً وتكذيباً . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ماخرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير فى امر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكّن الراء .

قوله تعالى : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً ﴾ قيل : هو دعاء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكًّا ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مُرْسِـلَ الرِّيحِ جنوباً وصَبَا * إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضبَا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه . وعلى هـذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شرّ خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعـالى عن زيادة مرضهم ؛ أى فزادهم الله مرضا إلى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ »(٢) . وقال أرباب المعانى : « فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى بسكونهم إلى الدنيا وحبّهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها . وقوله : « فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً » أى وَكَلَهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين. « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بما يفنى عما يبقى . وقال الجُنَيْد : عِلَلُ القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « أليم » فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع، مثل السميع بمعنى المُسْمِع؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلا :

ونرفعُ من صُدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُكُّ وجوهَها وَهَجٌ ألِيمُ (١)

وآلم إذا أوجع . والإيلام : الإيجاع . والألم : الوجع ، وقد أَلِم يألَمُ ألَمًا . والتألُّم : التوجّع . ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كَرِيم وكُرَماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ما مصدرية ؛ أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ؛ ومعناه بكَذِبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلماء فى إمساك النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأوّل — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد آتفق العلماء على بَكْرة أبيهم (٢) على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإنما آختلفوا فى سائر الأحكام . قال آبن العربى : وهذا منتقض، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت ؛ لأن المُجَذّر قتل أباه سُويدا يوم بُعاث (٣) ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتله ؛ فأخبر به جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به ؛ لأن قتله كان غِيلة (٤)، وقتل الغِيلة حَدٌّ من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم وآنقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيّةً فى عَيْنٍ بوَحْيٍ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . ونرفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة آبن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوربا .

Marfat.com

القول الثانى — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان يُستتاب ولا يُقتل . قال آبن العربى : وهذا وَهَمٌ ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد ، ولا يقول أحد إن آستتابة الزنديق واجبة (١) وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضًا عنهم مع علمه بهم . فهـذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن آستتابة الزنديق جائزة (٢) قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى" أخرجه البخارى ومسلم . وقد كان يُعطى للؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء آعتقادهم تألفًا ؛ وهـذا هو قول علمائنـا وغيرهم . قال آبن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمـه الله فى كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضى إسماعيل والأبهرى وآبن المـاجشون ، وآحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » إلى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » (٣) . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزّندقة فينا اليوم ؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليــه بها دون آستتابة ؛ وهو أحد قولى الشـافعى . قال مالك : وإنمـا كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضى إسمـاعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبَىّ (٤) إلا زيد بن أرقم وحده ، ولا على الجُلَاس (٥) بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه ؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعىّ رحمه الله محتجًا للقول الآخر : السُّنّة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد

---

(١) الذى فى كتاب الأحكام لابن العربى : « ... أن آستتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا فى الأصول وكتاب الأحكام لآبن العربى . ولعل صواب العبارة : « إن آستتابة الزنديق واجبة » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٥

(٤) سيذكر الإمام القرطبى قصته عند تفسير سورة « المنافقون » .

(٥) كان متهما بالنفاق ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية . وستأتى قصته عند تفسير هذه الآية فى سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وقد أوردها آبن هشام فى سيرته ص ٣٥٥ طبع أوربا . وآبن عبد البر فى الآستيعاب جـ ١ ص ٩٧ طبع الهند .

Marfat.com

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإســلام مع العـلم بنفاقهم ؛ لأن مايظهرونه يَجُبُّ ماقبــله . وقال الطبرى : جعل الله تعــالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رســول الله صلى الله عليه وســلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَل سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : «وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» . قال آبن عطية : ينفصل المــالكيون عما لزموه من هــذه الآية بأنهــا لم تُعَيِّن أشخاصهم فيها وإنمــا جاء فيها توبيخ لكل مغموص[1] عليــه بالنفاق ؛ وبقى لكل واحد منهــم أن يقول : لم أُرَد بهــا وما أنا إلا مؤمن، ولو عُيِّن أحد لمــا جَبّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه؛ وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعــالى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبّتهم أن يفسِدهم المنافقون أو يفســدوا دينهم فلم يكن فى تَبْقِيَتهم ضرر، وليس كذلك اليوم؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعــالى : وَإِذَا قِيــلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَــا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها « قالوا » ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : «إذا» آسم يدلّ على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

(١) قوله : لكل مغموص . أى مطعون فى دينه، متهم بالنفاق .

Marfat.com

جمـلة؛ تقول : أجيئك إذا احمرّ البُسْر، وإذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنها آسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقْدَم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك: إن تأتنى آتك . والفاء : إن تأتنى فأنا أُحسن إليك. وإذا كقوله تعالى: « وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »[1] . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها ✽ خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ[2]

فعطف « فنضارب » بالجزم على « كان » لأنه مجزوم ، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربَ ؛ بالنصب . وقد تزاد على « إذا » « ما » تأكيدًا، فيُجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

فقام أبو لَيْلَى إليه آبنُ ظالمٍ ✽ وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيّد ما قال كعب بن زُهير :

وإذا ما تشـاءُ تبعثُ منهـا ✽ مغربَ الشمسِ ناشطًا مَذْعُورا[3]

يعنى أن الجيّد ألا يجزم بإذا ، كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرّد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ؛ لأنها تضمنت جُثّة . وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ؛ فإنما تضمّنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : « اليومَ خَمْرٌ وغدًا أمرٌ » فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القول وأصله قُوِل؛ نُقلت كسرة الواو إلى القاف فآنقلبت الواو ياء . ويجوز: «قيل لهم» بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين؛ لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش: ويجوز «قُيل» بضم القاف والياء . وقال الكسائى: ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله، وهى لغة قيس . وكذلك جِىء وغِيض وحِيل وسِيق وسِىء

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٤ (٢) يقول : إذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم . (٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر .

Marfat.com

وسِيئت . وكذلك روى هشام عن آبن عباس،[1] ورُوَيْس[2] عن يعقوب . وأَشَمّ منها نافع سيء وسيئت خاصــة . وزاد آبن ذَكوان : حِيل وسِيق ؛ وكسر الباقون فى الجميع . فأما هُــذيل وبنو دُبَير من أسد و بنى فَقْعَس فيقولون : « قَوْل » بواو ساكنة .

قوله : ﴿لَاتُفْسِدُوا﴾ «لا» نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الآستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشيء يَفْسُد فَسادا وفُسودًا وهو فاسد وفسِيد . والمعنى فى الآية : لا تُفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيــل : كانت الأرض قبــل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وســلم فيها الفساد، و يفعــل فيها بالمعاصي؛ فلمــا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم آرتفع الفساد وصلحت الأرض . فإذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»[3] .

قوله : ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة ، وهى آسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرْضة ، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أرَضات ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات . ثم قالوا أرَضون فجمعوا بالواو والنون؛ والمؤنث لايجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة ، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضًا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها ، و ربما سُكِّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرْض وآراض ، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس؛ كأنهم جمعوا آرُضًــا . وكل ما ســفل فهــو أرض . وأَرْض أرِيضة ؛ أى زكيّة بيّنة الأراضة . وقد أرُضت بالضم ، أى زكت . قال أبو عمرو: نزلنا أرضا أريضة ؛ أى معجبة للعين ؛ و يقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض : أسفل قوائم الدابة ؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقَلِّب أرْضَهــا البَيْطارُ * ولا لِحَبْلَيْــهِ بهــا حَبَــارُ

(١) فى نسخة : « ابن عامر» . (٢) ورويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارئ ، راوى يعقوب ابن إسحاق . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٦

Marfat.com

أى أثر . والأرض : النَّفْضَة والرِّعْدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبـد الله بن الحارث قال : زُلْزِلَت الأرض بالبصرة ؛ فقال ٱبن عباس : والله ما أدرى ! أَزُلزلت الأرض أم بى أرْض ؟ أى أم بى رِعدة ؛ وقال ذو الرُّمّة يصف صائدا :

إذا تَوَجّس رِكْزًا من سَنابكهـا * أو كان صاحبَ أرضٍ أو به المُومُ (١)

والأرض : الزُّكام . وقد آرضه الله إيراضا ؛ أى أزكمه فهو مأروض . وفسيل مستأرِض ، ووَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق فى الأرض ؛ فأما إذا نبت على جـذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض ؛ أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك ؛ أى أخلقهم . وشىء عرِيض أريض إتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أرِيض ؛ أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل « نحن » نَحْنُ ، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : « نحن » لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلما ٱضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : لهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : « نحن » مثل قبلُ وبعدُ ؛ لأنها متعلقة بالإخبار عن ٱثنين وأكثر ، فـ« أنا » للواحد و« نحن » للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا ؛ قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ » (٢) . والمؤنث فى هـذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر ؛ تقول المـرأة : قمت وذهبت ، وقمنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فٱعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ ٱسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد . وصَلَح الشىء (بضم اللام وفتحها) لغتان ؛ قاله ٱبن السِّكِّيت . والصُّـلوح (بضم الصاد) مصـدر صَلُح (بضم اللام) ؛ قال الشاعر :

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل . وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه : أن الصياد يُذهِبُ نَفَسَه إلى السماء ويَفْغَر إليها أبدا لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . (عن اللسان) . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٣

Marfat.com

فكيف بإطراق إذا ما شَتَمْتَنِى * وما بعــدَ شَتْمِ الوالدين صُـلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة . والصِّلْح (بكسر الصاد) : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح ؛ أى أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » وهذا صحيح . وكُسرت « إنّ » لأنها مبتدأة ؛ قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها[(١)] ؛ كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا . و « هُمْ » يجوز أن يكون مبتدأ و « الْمُفْسِدُونَ » خبره والمبتدأ وخبره خبر « إنّ » . ويجوز أن تكون « هم » توكيدا للهاء والميم فى « إنهم » . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — و « المفسدون » خبر « إنّ » ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون ، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن كَيْسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبيين الحق واتباعه . « وَلَكِنْ » حرف تأكيد واستدراك ولا بدّ فيه من نفى وإثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، و إن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الاقتصار بعده على اسم واحد إذا تقدّم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة

(١) فى العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعدهما كانتا بمعنى حقا أنك ... وإذا كسرت كانتا أداتى استفتاح . راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

Marfat.com

مضادة لما قبلها كما فى هذه الآية، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت؛ لأنهم قد ٱستغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشَرْعه ، كما صدّق المهاجرون والمحققون[1] من أهل يَثْرِب . وألف «آمنوا» ألف قطع؛ لأنك تقول : يؤمن، والكاف فى موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ عن ٱبن عباس . وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء وٱستهزاء فأطلع الله نبيّه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورقّة الحُلُوم وفساد البصائر إنما هى فى حيّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّين الذى على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبى صالح عن ٱبن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود؛ أى وإذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن الناس : عبد الله بن سَلَام وأصحابُه ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السَّفَه فى كلام العرب : الخفّة والرقة؛ يقال : ثوب سفيه إذا كان ردىء النسج خفيفه ، أو كان باليًا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به؛ قال ذو الرُّمة :

مَشَين كما ٱهتزّتْ رماحٌ تسفّهتْ　＊　أعالِيَها مَرُّ الرياح النّواسِمِ[2]

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقرونا بالإخلاص خالصا عن شوائب النفاق كما قال الألوسى وغيره .

(٢) وصف نساء فيقول : إذا مشين ٱهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الخفيفة الهبوب .

Marfat.com

وتسفهت الشيء : آستحقرته . والسّفه : ضـدّ الحلم . ويقال : إنّ السّـفه أنْ يكثر الرجل شرب المـاء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء[1] أربعـة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بيـن الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية . وإن شئت حقّقتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل « وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ؛ وقد تقدّم . والعلم معرفة المعـلوم على ما هو به ؛ تقول : عَلِمت الشيء أعلمـه عِلْمًا عرفته ، وعالمتُ الرجل فَعَلَمْتُـه أعْلُمُه (بالضم فى المستقبل) : غلبته بالعلم .

قوله تعـالى : وَإِذَا لَقُـوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـوا قَالُوٓا ءَامَنَّـا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَـكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لَقُوا : لَقِيُوا، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لآلتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : « لاقوا الذين آمنوا » . والأصل لاقيوا، تحرّكت الياء وقبلها فتحة آنقلبت ألفا، آجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لآلتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضُمّت الواو فى لاقُوا فى الإدراج وحُذفت من لَقُوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها، وحُركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل: لم وُصلت « خَلَوْا » بـ« إلى » وعُرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : « خلوْا » هنا بمعنى ذهبوا وآنصرفوا؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

كيف تَرانِى قالبـا مِجَـنِّى * [أَضْرِبُ أَمْرِى ظهرَه لبطْنِ][2]
* قد قتـل الله زِيادًا عَنّى *

(١) أى مع كلمة ألا التى بعدها . (٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد ، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

Marfat.com

لـما أنزله منزلة صَرَف . وقال قوم : «إلى» بمعنى مع ؛ وفيه ضعف . وقال قوم : « إلى» بمعنى الباء ؛ وهذا يأباه الخليــل وسيبويه . وقيل : المعنى و إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ؛ فـ«إلى» على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير ؛ وقد تقدم القول فى آشتقاقه ومعناه فى الآستعاذة[1] . وآختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا ؛ فقال آبن عباس والسُّدّى : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع مَن ذ كر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه . وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب ؛ يقال : هَزِئَ به وآستهزأ ؛ قال الراجز[2] :

قـد هَزِئت مِنّى أمُّ طَيْسَلَهْ　＊　قالت أراه مُعدما لا مال لَهْ

وقيل : أصل الآستهزاء : الآنتقام ؛ كما قال الآخر :

قد آستهزءوا منهم بألفَىْ مُدجّج　＊　سَرَاتُهم وسْطَ الصَّحَاصِح جُثَّمُ[3]

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم و يعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على آستهزائهم ؛ فسمى العقوبة بآسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم :

ألَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا　＊　فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى آنتصاره جهلا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ و إنما قاله ليَزْدَوِج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه و إن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة . وقال

---

(١) راجع ص ٩٠　(٢) هو صغر الغى الهلالى . والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية :　تهزأ منى أخت آل طيسله　＊　قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٣) الصحاصح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء . والجاثم : اللازم مكانه لا يبرح .

Marfat.com

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة . والقصاص لا يكون ٱعتداء؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مَكْرٌ ولا هزء ولا كَيْد ، إنما هو جزاء لمكرهم وٱستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا" . قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا . وقيل المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل. وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هى فى تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة[1] فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبي عن أبى صالح عن ٱبن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر ٱستهزاءهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم «إنما نحن مستهزئون» بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. «الله يستهزئ بهم » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبَحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الحِجال ينظرون اليهم ، فإذا ٱنتهوا إلى الباب سُدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلِّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ»[2] إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو ٱستدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راض عنهم ، وهو تعالى

(١) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٦٦

Marfat.com

قد حتّم عذابهم. فهذا على تأمل البشر كأنه ٱستهزاء ومكر وخداع؛ ودلّ على هذا التأويل قولُه صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه ٱستدراج" . ثم نزع بهذه الآية : «فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1] . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ[2] مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » : كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويُملِي لهم؛ كما قال : « إِنَّمَا نُمْلِي[3] لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » وأصله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر ، وأمدّ فى الخير؛ قال الله تعالى : «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ[4] وَبَنِينَ» . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ[5] وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفرّاء واللّحيانى: مددت، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النّهرُ[6] [النهر]، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ[7] مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » . وأمددت، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجيش بمَدَد؛ ومنه : « يُمْدِدْكُمْ[8] رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وأمدّ الجُرْحُ؛ لأن المِدّة من غيره، أى صارت فيه مِدّة .

قوله تعالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم . وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى[9] الْمَاءُ » أى ٱرتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزّان. وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى[10] » أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى فى الآية : يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون . وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيّرين فى الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار، ويقال رجل عامه

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف فى بعض اللفظ ، وفيه : ثم تلا « فلما نسوا » الآية بدل نزع . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٧ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٥) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ (٦) الزيادة عن اللسان مادّة (مد) . (٧) راجع جـ ١٤ ص ٧٦ (٨) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ (٩) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (١٠) راجع جـ ١٩ ص ١٩٩

Marfat.com

وعَمِه : حائر متردّد ، وجمعه عُمَّـه . وذهبت إبلُه العُمَّهى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمى في العين ، والعَمَه في القلب ؛ وفي التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[(١)] » .

قوله تعالى : أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَـا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُـدَىٰ ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو في «اشتروا» فرقًا بينها وبين الواو الأصلية؛ نحو: «وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ». وقال ابن كَيْسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حُرّكت بالضم كما فعل في «نحن» . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر[(٢)] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قَعْنَب أبي السَّمّال العدوي أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وإن كان[(٣)] ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائي همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمـان ؛ كما قال : « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَىٰ » فعبّر عنه بالشراء ؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عبـاس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعاً ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء . قال أبو ذُؤيب :

فإن تَزْعُميـني كنتُ أجهلُ فيكم * فإني شَريتُ[(٤)] الحِـلمَ بعدكِ بالجهـلِ

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٧ (٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «في التقريب بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفي المغني بفتح الميم وضمها » . (٣) في بعض الأصول : « وإن ما قبلها مفتوحا » ، وفي البعض الآخر : « وإن كان قبلها مفتوحا » . (٤) ويروى : « اشتريت » كما في ديوان أبي ذؤيب . يقول : إن كنت تزعمين أني كنت أجهل في هواي لكم وصبوتي إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

وأصل الضلالة : الحيرة . ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة؛ قال جلّ وعزّ: « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ »(١) أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِح بَيْعُك، وخَسِرتْ صفقتك؛ وقولهم: ليلٌ قائم، ونهارٌ صائم؛ والمعنى: رَبِحتَ وخَسِرْتَ فى بيعك،وقمت فى ليلك وصُمت فى نهارك؛أى فما ربحوا فى تجارتهم. وقال الشاعر:

نهـارُك هائمٌ وليـلُك نائمُ ٭ كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

آبن كَيْسان : ويجوز تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى آشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والآهتداء ضد الضلال ، وقد تقدّم(٣) .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف، فهى آسم ؛ كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنْهَى ذوِى شَـطَطٍ ٭ كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ(٤)

وقول آمرئ القيس :

ورُحْنَا بِكَابْنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسطَنا ٭ تَصَوَّبُ فيـه العينُ طَـوْرًا وتَرْتقِى(٥)

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١ (٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

(٤) المعنى : لاينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ؛ أى نافذ إلى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (من خزانة الأدب) .

(٥) يقول رجعنا بفرس كأنه آبن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب : أى يقاد فلا يركب .

Marfat.com

أراد مثل الطعن، و بمثل آبن المـاء. و يجوز أن يكون الخبر محذوفا؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هـذا حرف. والمَثَل والمِثْل والمثِيل واحد ومعناه الشبيه. والمتماثلان: المتشابهان؛ هكذا قال أهل اللغة.

قوله ﴿ الَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع. قال آبن الشَّجَرى هبةُ الله بن علىّ: ومن العـرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد؛ كما قال:

وإن الذى حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ (١)

وقيل فى قول الله تعالى «وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (٢): إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى» قيل: المعنى كمثل الذين آستوقدوا، ولذلك قال: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ»؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. فأما قوله تعالى: «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» (٣) فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا. وقيل: إنما وحّد «الذى» و«آستوقد» لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال «بنورهم». وآستوقد بمعنى أوقد، مثل آستجاب بمعنى أجاب؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش؛ ومنه قول الشاعر (٤):

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجِبْه عنـد ذاك مُجيبُ

أى يجبه. وآختلف النحاة فى جواب لمـّا، وفى عود الضمير من «نورهم»؛ فقيل: جواب لمـّا محذوف وهو طَفِئت، والضمير فى «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة؛ كما قال تعالى: «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ» (٥). وقيل: جوابه «ذهب»، والضمير فى «نورهم» عائد على «الذى»؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردُّده. والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

(١) فلج (بفتح أوله وسكون ثانيه): موضع بين البصرة وضَرِيّة. وقيـل هو واد بطريق البصرة إلى مكة، ببطنه منازل للحاج. قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع (عن اللسان).
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠١
(٤) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (عن اللسان). (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦

Marfat.com

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمـان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليـلة مظلمة فاستضاء بهـا ورأى ما ينبغى ان يتقيه وأمن منه، فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى و بق متحيرا، فكذلك المنافقون لـما آمنوا آغتَرّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ »[1] — ويذهب نورهم؛ ولهـذا يقولون : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »[2] . وقيـل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار، وآنصرافهم عن مودتهم وآرتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النـار مؤنثة وهى من النـور وهو أيضا الإشراق. وهى من الواو؛ لأنك تقول فى التصغير : نويرة، وفى الجمـع نور وأنوار ونيران، آنقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتـان ؛ يقال : ضاء القمـرُ يَضُوء ضَوْءًا وأضاء يُضىء ؛ يكون لازما ومتعدّيًا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف ، والعامة بالألف ؛ قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى الليل حتى نَظّم الجَزْعَ ثاقِبه[3]

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و«حَوْله» ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته إليها. و ﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أى أبقاهم. ﴿فِى ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة. وقرأ الأعمش : «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل. ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت. وقرأ أشهب العقيلى : «ظُلَمات» بفتح اللام. قال البصريون: أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف. وقال الكسائى : «ظلمات» جمع الجمع، جمع ظُلَم. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال: غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على « ظلمات » .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ (٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها): ضرب من الخرز. وقيل : هو الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، فشبه به الأعين .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ «صُمٌّ» أى هم صمّ ، فهو خبر ابتداء مضمر . وفى قراءة عبدالله ابن مسعود وحفصة : صُمًّا بكمًا عميًا ، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ (١) أَيْنَمَا ثُقِفُوا » ، وكما قال : « وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ (٢) الْحَطَبِ » ، وكما قال الشاعر : (٣)

سَقَوْنِى الخمرَ ثم تَكَنَّفُونِى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُداةَ الله» على الذم . فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ«تَرَكَهُمْ» ؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يبصرون» . والصمم فى كلام العرب : الانسداد ؛ يقال : قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال : رجل أبكم وبَكِيم ؛ أى أخرس بيّن الخرس والبكم ؛ قال :

فليتَ لِسانِى كان نِصْفَينِ منهما * بَكِيمٌ ونصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر ؛ وقد عَمِىَ فهو أعمى ، وقوم عُمْىٌ ، وأعماه الله . وتعامى الرجل : أرى ذلك من نفسه . وعَمِىَ عليه الأمر إذا التبس ؛ ومنه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ (٤) » . وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة مّا ؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عما ساءَه سَمِيعُ *

وقال آخـــر :

وعوراءِ الكلامِ صَممتُ عنها * ولو أنى أشاء بها سميعُ

وقال الدارمىّ :

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارِى جارتى الخِدْرُ

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم امرأته حين احتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم الى مفاداتها وكانت سبية عنده (عن شرح الشواهد) . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٤

Marfat.com

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُــلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وٱخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : «صمٌّ» عن ٱستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عميٌ» عن الإبصار له .

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "و إذا رأيت الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوك الأرض فذاك من أشراطها". والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعَه غيره، وهُذيل تقول: أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم ؛ حسب ما بيّنه التنزيل فى ســورة « سبأ » [(١)] .

قوله تعالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الطبرى : « أو » بمعنى الواو، وقاله الفرّاء . وأنشــد :

وقد زَعَمتْ ليْـلَى بأنّى فاجرٌ * لنفسى تُقاها أو عليها فُجُورُها [(٢)]

وقال آخــر [(٣)] :

نال الخلافةَ أو[(٤)] كانت له قَدَرًا * كما أتى ربَّهُ موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيــل : « أو » للتخيير أى مثّلوهم بهذا أو بهذا ، لا على الاقتصار على أحد الأمرين ، والمعنى أو كأصحاب صَيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . وٱشـتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل، قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيني وبيـن مُغَمَّرٍ * سَقَتكِ رَوايا المُـزْنِ حيث تَصُوبُ [(٥)]

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢ (٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .

(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز . (٤) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل « أو » .

(٥) المغمــر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور ؛ كأن الجهل غمــره وٱستولى عليه . وروايا المزن : التى تروى بكثرة مائها .

Marfat.com

وأصـله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية : مَثَلهم كَمَثل الذى آستوقد نارا أو كمثل صيب »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكّر وتؤنث ، وتجمع على أسميـة وسموات وسُمِىّ ، على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـــه الرياحُ والسُّـــمِىُّ(٢) *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر ، سُمّى به لنزوله من السماء . قال حسان بن ثابت :

ديارٌ من بنى الحَسْحاس قَفْرٌ * تُعَفِّيهـا الروامِسُ والسماء

وقال آخـــر(٣) :

إذا سَقط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه و إن كانوا غِضـابَا

و يسمّى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : مازِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛ قال(٤) :

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سمـاؤه * فَرَيّا وأمّا أرضُـــه فُمُحُولُ

والسماء : ما علا . والأرض : ما سفل ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن ، وهو الغيم ؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات(٥) فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ماتقدم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما) .

(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

وآختلف العلمـاء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن آبن عباس قال : سألت اليهود النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ قال : " ملك من الملائكة [موكل بالسحاب] (١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله " . فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : " زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر الله " قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : آسم الصوت المسموع، وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فجّعني الرعدُ والصواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهـةِ النّجُـدِ

وروى عن آبن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت .

وآختلفوا فى البرق؛ فروى عن علىّ وآبن مسعود وآبن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى . وعن آبن عباس أيضا هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صوت آصطكاك أجرام السحاب . والبرق ماينقدح من آصطكاكها . وهذا مردود لايصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وآرتعد : آضطرب؛ ومنه الحديث : " فجيء بهما تُرْعَدُ فرائصهما " الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصله من البريق والضوء؛ ومنه البُراق : دابّة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِىَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من البرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق : تهدّد وأوعد؛ قال آبن أحمر :

ياجُلّ ما بَعُدَتْ عليك بلادُنا * وطِلابُنا فآبْرُقْ بأرضك وآرعُدِ

(١) زيادة عن الترمذى .

Marfat.com

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد ، وأنكره الأصمعى . وآحتج عليه بقول الكُمَيْت :

أبرِق وأرعِـــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكُمَيت بحجة .

فائدة — روى آبن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينـة والشام ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يسـمع الرعد : سبحان مَن يسبّح الرعد بحمـده والملائكة من خيفته ، عُوفى ممـا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا وآجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك ؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! فى رواية فإذا بَرَدة[1] قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى سورة « الرعد »[2] إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن آبن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللّهمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهْلكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يسـمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام ، وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأُصْبِـع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ؛ وهى مؤنثة . وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر ، فيقال : أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت : أُذَيْن ؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الاسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنتـه إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ : إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٥

Marfat.com

والجمع. وأذانيّ: عظيم الأذنين. ونعجة أَذْناء، وكَبْش آذَن. وأَذَّنت النعل وغيرها تأذينا: إذا جعلت لها أُذُنًا. وأَذَّنت الصبيّ: عَرَكت أذنه.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أى من أجل الصواعق. والصّواعق جمع صاعقة. قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا ٱشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فيه وهى الصواعق. وكذا قال الخليل، قال: هى الواقعــة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد. وحكى الخليل عن قوم: الساعقة (بالسين). وقال أبو بكر النقاش: يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنًى واحد. وقرأ الحسن: من «الصواقع» (بتقديم القاف)؛ ومنه قول أبى النَّجْم:

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ * تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصَّواقِعِ

قال النحاس: وهى لغة تميم وبعض بنى ربيعــة. ويقال: صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضا صيحة العذاب؛ قال الله عز وجل: «فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ[1] الْعَذَابِ الْهُونِ». ويقال: صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقًا؛ أى غُشِىَ عليه؛ ومنه قوله تعالى: «وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا[2]» فأصعقه غيره. قال ٱبن مُقْبِل:

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانِه * أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَــواهِلُهْ[3]

وقوله تعـالى: «فَصَعِقَ[4] مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ» أى مات. وشـبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق. فالظلمات مَثَلٌ لمـا يعتقدونه من الكفر، والرعد والبرق مَثَلٌ لمـا يُخَوَّفون به. وقيل: مَثَّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لمـا فيه من الإشكال عليهم، والعمى هو الظلمات؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تَبْهَرهم هو البرق. والصواعق

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٩. (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٩ (٣) النعرة (مثال الهمزة): ذباب ضخم أزرق العين أخضر، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة. واللبان: الصدر، وقيــل: وسطه، وقيل: ما بين الثديين، ويكون للانسان وغيره. وأصعقتها صواهله: أى قتلها صهيله. (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩.

Marfat.com

مَثَلٌ لمـا فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ حَذَرٌ وحِذارٌ بمعنًى، وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب؛ لأنه موقوع له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :

وأغفِرُ عَـوْراءَ الكريمِ ٱدّخارَه * وأُعْرِضُ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّما(١)

وقال الفراء: هو منصوب على التميز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت؛ ويَمات أيضا ؛ قال الراجز :

بُنَيَّـــتِى سَـــيِّدَةَ البَناتِ * عِيشِى ولا يُؤْمَن أن تَماتِى

فهو ميِّت وميْت ، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون . والمُوَات(بالضم) : الموت . والمَوَات (بالفتح) : ما لا رُوح فيه . والمَوات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد . والمَوَتان (بالتحريك) : خلاف الحيوان؛ يقال : ٱشْترِ المَوَتانَ ، ولا تشترِ الحيوان؛ أى ٱشترِ الأرضين والدور، ولا تشترِ الرقيق والدواب . والمُوْتان(بالضم) : مَوْتٌ يقع فى الماشية؛ يقال : وقع فى المـال مُوتان . وأماته الله وموّته ؛ شُدّد للمبالغة . وقال :

فعُـرْوةُ مات مَوتًا مستريحًا * فهأنذا أُمَـــوَّتُ كلّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها، فهى مُميت ومُميتة . قال أبو عبيد: وكذلك المرأة ، وجمعها مَماويت . قال ٱبن السِّكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبنٌ أو بنُونَ . والمتَماوِت من صفة الناسك المرائى . وموت مائتٌ ، كقولك : ليلٌ لائلٌ ؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكّد به . والمُسْتَمِيتُ للأمر : المُسْترسِل له ؛ قال رُؤْبة :

---

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : إذا جهل علىّ الكريم احتملت جهله إبقاء عليه وٱدّخارا له ، وإن سبنى اللئيم اعرضت عن شتمه .

Marfat.com

وزَبَدُ البحــرِ له كَتِيت * واللَّيــل فـوق المـاءِ مُسْتَمِيتْ[١]

المستميت أيضـا : المستقتل الذى لا يبـالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحـديث : " أرى القـوم مُسْتَمِيتِين " وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة (بالضم) : جنس من الجنون والصرع يعـترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقـله كالنائم والسكران . ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو) : آسم أرض قُتل بها[٢] جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ آبتداء وخبر؛ أى لا يفوتونه . يقال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تَيَقَّنوا * بما قد رأَوْا مالوا جميعًا إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ[٣] » . وأصله مُحْيِط ، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكِّنت . فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٤] » . وقيل : «مُحِيطٌ بِالكافرين» أى عالم بهم . دليله : «وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[٥]» . وقيل : مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ[٦] » أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب .

وزبـد البحـر له كتيت * تراه والحـوت له نئيـت
كلاهما مغتمس مفتـوت * وكلكل الماء له مبيـت
والليـل فوق الماء مستميت * يدفع عنه جوفه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدة) . المغتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لا يشبع . (٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام وعلى آثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة «مات» . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٦ (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٢٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال: كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن : يكاد أن يفعل؛ كما قال رُؤْبة :

* قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحا[1] *

مشتق من المصح وهو الدرس. والأجود أن تكون بغير «أن» ؛ لأنها لمقاربة الحال، و«أن» تَصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ[2] يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير ، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحـال . وكاد فعلٌ متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : « وما كِدْتُ آئبا[3] » . ويجرى مجرى كاد كَرِب وجَعَل وقارب وطَفِق ، فى كون خبرها بغير « أن » ؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا[4] يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة ، والحال لا يكون معها « أن » ، فاعلم .

قوله تعـالى : ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمّىَ الطير خُطّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مَثَلًا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم . ومن جعله مَثَلًا للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . ويَخْطَف و يَخطِف لغتان قرئ بهما . وقد خطِفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفًا، وهى اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف . الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أبصارَهم » . وقال النحاس: فى «يخطف» سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَف . وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب: يَخطِف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِىّ وأبو رجاء العُطارِدِى بفتح الياء وكسر الخـاء والطاء . ورُوِى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز «يِخِطِّف» بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط.

(١) يمصح : يذهب و يدرس. (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٠ (٣) قائله تأبط شرا . والبيت بتمامه :

فأُبْتُ إلى فَهْمٍ وما كدت آئبا * وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

(٤) راجع جـ ٧ ص ١٨٠

Marfat.com

والسابعة حكاها عبد الوارث قال : رأيت في مصحف أبيّ بن كعب « يَتَخطف »، وزعم سيبويه والكسائي أن من قرأ « يِخِطِف » بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يختطف ، ثم أدغم التاء في الطاء فالتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخاء ألقى حركة التاء عليها . وقال الكسائي : ومن كسر الياء فلأن الألف في اختطف مكسورة . فأما ماحكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبي رجاء « يَخْطِّف » . قال ابن مجاهد : وأظنه غلطا ؛ واستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الخَطْفَةَ »(١) لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ جمع بَصَر، وهي حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن و براهينه الساطعة تَبْهرهم . ومن جعل « البرق » مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ « كلما » منصوب لأنه ظرف . وإذا كان « كلما » بمعنى « إذا » فهي موصولة والعامل فيه « مَشَوْا » وهو جوابه ، ولا يعمل فيه « أضاء » ؛ لأنه في صلة ما . والمفعول في قول المبرد محذوف ، التقدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريقَ . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَل بمعنًى ، كسَكَت وأسْكَت ، فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقدم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أنِسُوا ومَشَوْا معه ، فإذا نزل من القرآن مايَعْمَوْنَ فيه ويَضلون به أو يكلَّفونه «قاموا» ، أي ثبتوا على نفاقهم ؛ عن ابن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا : دين محمد دينٌ مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا في نفاقهم ؛ عن ابن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهذا قول حسن ، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ »(٢) . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءا ، فارتقى من

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٧ .　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٧ .

Marfat.com

تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر، كأن تضيء عليه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقي في ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها. ورُوِي عن ٱبن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصِر النبيّ صلى الله عليه وسلم ببَدْر طمِعوا وقالوا : هذا والله النبيّ الذي بشّرنا به موسى لا تردّ له راية ؛ فلما نُكِب بأُحُد ٱرتدوا وشكّوا؛ وهذا ضعيف. والآية في المنافقين، وهذا أصح عن ٱبن عباس، والمعنى يتناول الجميع.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تَمَنٍّ وفيه معنى الجزاء، وجوابه اللام. والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما في الآية أوّلا، أو لأنهما أشرف ما في الإنسان. وقرئ «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام في هذا.(1)

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه. وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر. والقدير أبلغ في الوصف من القادر؛ قاله الزجاجيّ. وقال الهرويّ : والقدير والقادر بمعنًى واحد؛ يقال : قَدَرت على الشيء أقدِر قَدْرًا وقَدَرًا ومَقْدِرة ومَقْدُرة وقُدْرانًا ؛ أي قُدْرة. والاقتدار على الشيء : القدرة عليه. فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم. فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فعَل ويفعَل ما يشاء على وَفْق علمه وٱختياره. ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبدّ بقدرته. وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فعلٍ مُضَمَّنُه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبًا لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيتها في المنافقين. وقد تقدّمت الرواية فيها عن ٱبن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضا.

(1) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء.

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أوّلها « يأيها الناس » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها « يأيها الذين آمنوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهــذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما يأيها النـاس . وأما قولها في « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عُرْوة بن الزبير : ما كان من حَدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » في قوله : « يأيهـا » حرف نداء . « أيُّ » منادَى مفرد مبنيّ على الضم؛ لأنه منادى في اللفظ، و « ها » للتنبيه . « النّاسُ » مرفوع صفة لأي عنـد جماعة النحويين ؛ ما عدا المـازنى فإنه أجاز النصب قياسًا على جوازه في : يا هــذا الرجلَ . وقيــل : ضُمّت « أي » كما ضُمّ المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عِوَضًا عن ياء أخرى ، و إنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الأسم بينهما؛ كما قالوا : ها هو ذا . وقيل : لمـا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوا في الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف ، وأجروا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، وٱلتزموا رفعــه ؛ لأنه المقصود بالنـداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى؛ فٱعلمه .

وٱختُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما — الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليـه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ » . الثانى — أنه عام في جميع النـاس؛ فيكون خطابه للؤمنين بٱستدامة العبادة، وللكافرين بٱبتدائها . وهذا حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام .

Marfat.com

قال طرفـــة :

* وظيفًا وظيفًا فوق مَورٍ مُعبَّدِ(١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التَّنَسُّك . وعبَّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعـالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتقريعًا لهم . وقيـل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفي أصل الخلق وجهان : أحدهما ـ التقدير؛ يقال : خَلَقتُ الأديم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع؛ قال الشاعر(٢) :

ولأنتَ تَفْـرِى ما خَلَقتَ وبعـ * ـضُ القـوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلَقتُ إلا فَرَيتُ ، ولا وعَدتُ إلا وَفَيتُ . الثـانى : الإنشاء والاختراع والإبداع؛ قال الله تعالى : « وتَخْلُقُونَ إفكًا(٣) » .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عنـدهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ في العظة؛ فذكّرهم مَن قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خَلَقَهم يميتهـم ؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوا من إهلاك من أهلك؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ابتُلوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » متصلة باعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثـله فيما ورد في كلام الله تعـالى من قوله : « لعلكم تَعقِلون ، لعلّكم تَشكُرون ، لعلّكم تَذَكَّرُون ، لعلّكم تَهتَدُون » فيه ثلاث تأويلات :

---

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *
تبارى : تعارض ، يقال : هما يتباريان في السير ، إذا فعل هـذا شيئا فعل هذا مثله . والعتاق : الكرام من الإبل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : أتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هـذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من النـاقة أن تجعـل رجلها في موضع يدها إذا سارت . والمـور : الطريق (عن شرح المعلقات) .

(٢) هو زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدّرت أمرا قطعته وأمضيته . وغيرك يقدّر ما لا يقطعه ؛ لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٥

Marfat.com

الأول — أن « لعـلّ » على بابها من الترجّى والتوقّع ، والترجّى والتوقّع إنما هو فى حيز البشر ؛ فكأنه قيـل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقـلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هـذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه فى قوله عز وجل : « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »(١) قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . واختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب استعملت « لعـلّ » مجرّدة من الشك بمعـنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا ؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروبَ لعلّنا * نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتألّقِ

المعنى : كُفُّوا الحروب لنكُفّ، ولو كانت «لعل» هنا شكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبرى .

الثالث — أن تكون « لعل » بمعنى التعرض للشيء ؛ كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » : أى لعلكم أن تجعـلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار . وهـذا من قول العرب : اتقاه بحقه إذا استقبله به ؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا احمرّ البأس اتقينا بالنبىّ صلى الله عليه وسـلم؛ أى جعلناه وقاية لنا من العدو . وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهرَ يَدْمَى نَحْرُه * حتى اتّقتنى الخيلُ بابْنَى حِذْيَمِ

قوله تعـالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعدّيه إلى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ »(١) وقوله : « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى؛ ومنه قوله تعالى : « حمٓ . وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا »(٢) . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا »(٢) . « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا »(٢) أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ؛ كما قال الشاعر(٣) :

وقد جَعلتْ نَفسِى تَطيبُ لِضَغمةٍ * لِضَغمِهِما هَا يَقرَعُ العظمَ نابُها

وقد تأتى زائدة؛ كما قال الآخر :

وقد جعلتُ أرى الآثنين أربعةً * والواحد آثنينِ لمّا هدّنى ٱلكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعـالى « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ » : إنهـا زائدة . وجعل وآجتعل بمعنًى واحد؛ قال الشاعر(٤) :

ناط أَمرَ الضِّعافِ وآجتعل اللّيـ * ـلَ كحَبْلِ العادِيَةِ الممدُودِ

﴿ فِرَٰشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرون عليهـا . وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا »(٥) . والبحار تركب إلى سائر منافعها؛ كما قال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ »(٦) .

الثانيـــة — قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبـات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرفًا .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ و ٣٨٦ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦١ و ٦٩ و ٧١ .

(٣) هو معقل بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ، فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بهـا . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابهـا . يجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيهـا إلى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد الشنتمرى) .

(٤) هو أبو زبيـد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقـول : جعل يسير الليـل كله مستقيا كاستقامة حبل البئر إلى المـاء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

Marfat.com

وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ السماء للارض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقـوله الحق : « وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا »(١) . وكل ما علا فأظلّ قيل له سمـاء ؛ وقـد تقدّم القول فيه(٢) . والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا » نعت للرب . ويقال : بَنَى فلان بيتًا ، و بنى على أهله — بِناء فيهما — أى زَفّها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأنّ الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّة ليلة دخوله بها؛فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ. و بَنَّى(مقصورا) شدّد للكثرة، وٱبتنى دارا و بَنَى بمعنًى ؛ ومنه بنيان الحائط ؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ ، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ ، فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛لأنها أجلد،وهى بٱلألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، و بعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، و بعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، و إن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ ؛ مثل جِمَال وأجْمَال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ الثمرات جمـع ثمرة . ويقال : ثَمَر مثل شَجَر . ويقال ثُمُر مثل خُشُب . و يقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمَار مثل إكام جمع ثمر . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام»(٣) إن شاء الله . وثمار السّياط : عُقَدُ أطرافها.

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات.﴿رِزْقًا﴾ طعاماً لكم، وعلفًا لدوابكم ؛ وقد بيّن هذا قولُه تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَآئِقَ غُلْبًا . وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا . مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »(٤) . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى(٥) والحمد لله .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢١٨ (٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

فإن قيل : كيف أطلق ٱسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملّك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك و يصح بها الآنتفاع ؛ فهى رزق .

الخامســـة — قلت : ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرًا إلى هــذا المعنى : "والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه". أخرجه مسلم. و يدخل فى معنى الآحتطاب جميـع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زُخرف الدنيا فقــد أخذ بطرف من جعل لله ندًّا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء، والماء طيبا والكلأ طعاما، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح[(١)] لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّةٍ فيــه لأحد عليك . وقال نَوْف البِكَالِيّ : رأيت عليّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين ، قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم ٱتخذوا الأرض بساطًا، وتُرابها فِراشا، وماءها طِيبا، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام ... وذكر باقى الخبر، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ»[(٢)] إن شاء الله تعالى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَـلُوا ﴾ نَهْىٌ . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ، واحدها نِدّ ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « نِدًّا » ؛ قال الشاعر :

نَحْمَـــدُ الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعلْ

وقال حسّان :

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ * فشرُّكما لخيركما الفِــداء

---

(١) فى الأصل : « أباح » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

(٢) راجع ج ٢ ص ٣٠٨

Marfat.com

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة ؛ قال لبيد :

لكَيْلا يكون السَّنْدَرِىّ نَدِيدَتِي ﴿ وأجعلَ أقواما عُموماً عَماعِما[(١)]

وقال أبو عبيــدة : « أندادا » أضدادا . النحاس : « أندادا » مفعــول أوّل ، و « لله » فى موضع الثانى . الجوهرى : والنَّــدّ (بفتح النون) : التَّلّ المرتفع فى السماء . والنَّــدّ من الطيب ليس بعربىّ . ونَدّ البعير يَنِدّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه ؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنَادِّ »[(٢)] . ونَدَّد به أى شهّره وسمّع به .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى . فالجواب من وجهين : أحدهما — « وأنتم تعلمون » يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل المــاء وأنبت الرزق ؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهــم دون الأنداد . الثــانى — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد . وقال ابن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادًا بعد علمكم الذى هو نَفْىُ الجهل بأن الله واحد .

قوله تعــالى : وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ أى فى شــك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القــرآن ، والمراد المشركون الذين تُحُــدُّوا ، فإنهم لمــا سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هــذا كلام الله ،

---

(١) السندرى : ابن يزيد الكلابى ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيــل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعــنى الشطر الثانى : وأجعل أقــواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس مادة ندد) .　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١١ .

Marfat.com

و إنا لفى شك منه ؛ فنزلت الآية . ووجه آتصالها بمـا قبلها أن الله سبحانه لمـا ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّــه ، وأن ما جاء به ليس مُفترًى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعـنى محمدا صلى الله عليه وسـلم . والعبد مأخوذ من التعبُّـد وهو التذلّل ؛ فسُمِّيَ المملوكُ ــ من جنس ما يفعله ــ عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفَة :

إلى أن تحامتني العشيرة كلها * وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المُعَبَّدِ

أى المذلّل . قال بعضهـم : لمـا كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بهـا أشرف الخطط ، سَمَّى نبيّه عبدًا ، وأنشدوا :

ياقومِ قلـبي عند زهراءَ * يعـرفه السـامعُ والرائى

لاتَدْعُـني إلا بيَا عبدَها * فإنه أشـرف أسمـائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتوا مقصور لأنه من باب المجىء ؛ قاله آبن كَيْسان . وهو أمرٌ معناه التعجيز ؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه . والسورة واحدة السُّوَر . وقد تقدّم الكلام فيها (١) وفى إعجاز القرآن (٢) ، فلا معنى للإعادة . و«مِن» ــ فى قوله ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ــ زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى « مثله » عائد على القرآن عند الجمهـور من العلماء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيـل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعـنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه . وقيـل : يعود على النبيّ صلى الله عليه وسـلم . والمعنى : من بَشَرٍ أُمِّيٍّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمِن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على « مثله » ليس بتامّ ؛ لأن « وآدعوا » نَسَقٌ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفَـرّاء : آلهتكم . وقال آبن كَيْسان : فإن قيـل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء ليشهـدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهـدوه ، وإنما قيـل لهم : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْـلِهِ » ؟ فالجواب : أن

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٦٩ ــ ٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

المعــنى ٱستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهــدوا ما تأتون به؛ فيكون الرّدّ على الجميع أوكدَ في الحجة عليهم .

قلت: هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد: معنى «وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ» أى ٱدعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : « شهداءكم » نصب بالفعل جمع شهيد؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللهِ ﴾ أى من غيره ، ودُون نقيض فوق؛ وهو تقصير عن الغاية ، و يكون ظرفًا . والدُّون : الحقير الخسيس؛ قال:

إذا ما علا المـرء رام العـــلاء * ويقنــع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منــه فعل؛ و بعضهم يقول منــه : دان يَدُون دَوْنًا . ويقال : هــذا دُون ذاك؛ أى أقرب منه . ويقال في الإغراء بالشيء : دُونَكَهُ . قالت تَميم للحجاج : أقْبِرنا[1] صالحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُوه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة؛ لقولهم في آية أخرى : «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا»[2] . والصدق : خلاف الكذب، وقد صَدَق في الحديث . والصِّدْق : الصُّلب من الرماح . ويقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق : الملازم للصدق . ويقال : رجل صِدْقٍ؛ كما يقال: نِعْمَ الرجل. والصداقة مشتقة من الصدق في النصح والودّ .

قوله تعــالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تُطيقوا ذلك فيما يأتي . والوقف على هذا على «صادقين» تامّ . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وٱدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا في أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، و يرى رأى الخوارج . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

Marfat.com

فإن قيل : كيف دخلت «إن» على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن «إن» ها هنا غير عاملة فى اللفظ ، فدخلت على « لم » كما تدخل على الماضى؛ لأنها لا تعمل فى «لم» كما لا تعمل فى الماضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ[1] أبيتَ اللعنَ بالصَّفَدِ *

وفى حديث آبن عمر حين ذُهب به إلى النار فى منامه : فقيل لى «لن تُرَعْ» . هذا على تلك اللغة . وفى قوله : «وَلَنْ تَفْعَلُوا» إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال آبن كَيْسان : «ولن تفعلوا» توقيفًا لهم على أنه الحق ، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب ، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعر ، وأنه أساطير الأوّلين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا» ؛ أى آتقوا النار بتصديق النبىّ صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى[2] فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى ، مثل قَضَى يقضى . «النارَ» مفعولة . «التى» من نعتها . وفيها ثلاث لغات : التى واللّتِ (بكسر التاء) واللّتْ (بإسكانها) . وهى آسم مُبْهَم للمؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير ، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتا (بحذف النون) واللّتانّ (بتشديد النون) . وفى جمعها خمس لغات:

---

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هــذا الثناء فإن تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحيــة كانوا يحيون بهــا الملوك . والصفد : العطاء ؛ معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هــذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى ؛ فلم أمدحك متعرضا لعطائك ، لكن امتدحتك إقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

Marfat.com

اللّاتِي ، وهي لغة القرآن . واللّاتِ (بكسر التاء بلا ياء) . واللّوَاتِي . واللّوَاتِ (بلا ياء)؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللّواتِي والّتِي واللّاتِي * زعمن أن قد كَبِرَتْ لِداتِي

واللّــوا (بإسقاط التاء) ؛ هــذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن الشّجري : اللّائي (بالهمز وإثبات الياء) . واللّاءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء) . واللّا (بحذف الهمزة) . فإن جمعت الجمــع قلت في اللّاتي : اللّواتي. وفي اللّائي : اللوائي . قال الجوهري : وتصغير الّتي اللُّتَيّا (بالفتح والتشديد) ؛ قال الراجز[1] :

بعد اللُّتَيّا واللّتَيّا والّتِي * إذا عَلَتْهَا أنفسٌ تَرَدَّتِ

و بعض الشعراء أدخل على « الّتي» حرف النــداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ؛ وقال :

من أجلِكِ يا الّتِي تَيَّمْتِ قلبي * وأنت بخيــلةٌ بالــوُدّ عنّي

ويقال : وقع فلان في اللّتَيّا والّتِي ؛ وهما آسمان من أسماء الدّاهية . والوقود (بالفتح): الحطب . و بالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبًا لها ؛ أجارنا الله منها . «والحجارة» هي حجارة الكبريت الأسود — عن ابن مسعود والفرّاء — وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميــع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة ، كثرة الدخان، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حَرّها إذا حَمِيَت . وليس في قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من كَوْن الجنّ والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ[2] » أي حطب جهنم . وعليــه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار؛وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

(١) هو العجاج . وصف دواهي شنيعة . يقول : بعــد الجهد والمشرف الذي أشرفت عليه . وهي تردت . سقطت هاوية وهلكت .   (٢) راجع ج ١١ ص ٣٤٢

Marfat.com

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذّبين بالنار والحجارة . وقد جاء الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلُّ مُؤْذٍ في النار " . وفي تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس في الدنيا عذّبه الله في الآخرة بالنار . الثاني — أن كل ما يؤذى الناس في الدنيا من السباع والهوام وغيرها في النار مُعَدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصّة . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح(١) — في رواية — ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفل من النار " . «وَقُودُهَا» مبتدأ. « النَّاسُ » خبره . « والحجارةُ » عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف : « وُقُودها » (بضم الواو) . وقرأ عُبيد بن عُمير : «وَقِيدُها النّاسُ» . قال الكسائى والأخفش : الوقود (بفتح الواو) : الحطب ، و (بالضم) : الفعل ؛ يقال : وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُودًا (بالضم) ووَقَدًا وقِدَةً [ووَقِيدا ووَقْدًا](٢) ووَقَدَانًا ، أي تَوَقّدت . وأوْقدتها أنا واستوقدتها أيضا . والاتّقاد مثل التَّوَقُّد ، والموضع مَوْقِد ؛ مثل مجلس ، والنار مُوقَدة . والوَقْدة : شدّة الحرّ ، وهي عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها» [بفتح الواو](٣) لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحُكي أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر. قال النحاس : وذهب إلى أن الأول أكثر ، قال : كما أن الوَضُوء الماءُ ، والوُضُوء المصدر.

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة ؛ على ما يأتي. وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافًا للمبتدعة في قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطي الأندلسي. روى مسلم عن عبد الله بن مسعود(٤) قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وَجْبَةً(٥) ؛

(١) الضحضاح في الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، وٱستعير للنار .
(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .
(٤) كذا في الأصول . وفي صحيح مسلم : « عن أبي هريرة » . (٥) الوجبة : صوت الشيء يسقط فيسمع له ، كالهدة .

Marfat.com

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تدرون ما هذا " قال قلنا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هذا حجر رُمِيَ به في النار منذ سبعين خَرِيفًا فهو يَهْوِي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها " .

وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابي أعذّب بِكِ من أشاء وقال لهذه أنتِ رحمتي أرحم بِكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ". وأخرجه مسلم[1] بمعناه . يقال : احتجّت بمعنى تحتج ؛ للحديث المتقدم حديث ابن مسعود[2] ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أريهما في صلاة الكسوف ، ورآهما أيضا في إسرائه ودخل الجنة ؛ فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق . و﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدّة ، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ[3] » فمعناه قد حصرت صدورهم ؛ فمع « حَصِرت » قد مضمرة لأن الماضي لا يكون حالا إلا مع قد؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على « الحجارة » . ويجوز أن يكون كلامًا منقطعًا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ[4] » . وقال السِّجِسْتاني : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » من صلة « التي » ؛ كما قال في آل عمران : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ[5] » . ابن الأنباريّ : وهذا غلط ؛ لأن التي في سورة البقرة قد وُصلت بقوله : « وَقُودُهَا النَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ، وفي آل عمران ليس لها صلة غير « أُعِدَّتْ » .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

(١) بمراجعة صحيحي البخاري ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخاري بمعناه .
(٢) يلاحظ أن راوي الحديث المتقدم في صحيحي مسلم والبخاري أبو هريرة .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٠٩ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٣ . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٠٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة — وهي ظاهر الجلد — لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك ؛ ثم الغالب أن يُستعمل في السرور مقيَّدًا بالخير المُبَشَّر به ، وغير مقيّد أيضا . ولا يُستعمل في الغمّ والشرّ إلا مُقيَّدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به ؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بَشَرته وبَشَّرته — مخفّف ومشدّد — بِشارة (بكسر الباء) فأبشر واستبشر . وبَشِر يَبْشَر إذا فَرِح . ووجه بشير إذا كان حَسَنًا بيّن البَشارة (بفتح الباء) . والبُشْرَى : ما يُعطاه المُبَشِّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال : مَن بَشَّرني من عبيدي بكذا فهو حُرّ ؛ فبَشّره واحد من عبيـده فأكثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثاني . واختلفـوا إذا قال : مَن أخبرني من عبيدي بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثاني مثل الأوّل ؛ فقال أصحاب الشافعي : نعم ؛ لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلَّف إنما قصـد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عُرْفًا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمـد ابن الحسن بين قـوله : أخبرني ، أو حَدّثني ؛ فقـال : إذا قال الرجل أيّ غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حُرٌّ — ولا نيّةَ له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق ؛ لأن هذا خبر . وإن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق ؛ لأنه قال : أيّ غلام أخبرني فهـو حُرٌّ . ولو أخبروه كلّهـم عَتَقوا ؛ وإن كان عَنَى — حين حلف — بالخبر كلام مشافهة لم يَعتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : وإذا قال أيّ غلام لي حَدّثني ؛ فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ رَدّ على من يقول : إن الإيمان بمجرده يقتضي الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنـة تُنال بالإيمان والعمل الصالح . وقيل : الجنة تُنال بالإيمان ، والدّرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

Marfat.com

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « بَشِّر » ، والمعنى و بشر الذين آمنوا بأن لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمـل الفعل . وقال الكسائى و جمـاعة من البصريين : « أن » فى موضع خفض بإضمار الباء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب اسم « أن » ، « وأن » وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى . والجنّات : البساتين ، و إنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنه : المِجَنّ والجَنِين والجنة .

﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع النعت لجنات ، وهو مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها ، ولم يجر لها ذكر ، لأن الجنّات دالة عليها .

﴿ الأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار ، فنُسب الجرى إلى الأنهار توسُّعًا ، و إنما يجرى المـاء وحده فحذف اختصارا ، كما قال تعالى : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» (١) أى أهلها . وقال الشاعر (٢) :

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت　＊　واستبّ بعدك يا كليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس ، فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت ، أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس ابن الخَطِيم :

مَلَكْتُ (٣) بها كفى فأنهرت فَتْقَها　＊　يرى قائم من دونهـا ما وراءَها

أى وسّعتها ؛ يصف طَعْنة . ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما أنهر الدَّمَ وذُكِر اسم الله عليه فكُلُوه" . معناه : ما وسّع الذبح حتى يجرى الدّمُ كالنهر . و جمع النَّهَر : نُهُر وأنهار . ونَهَرٌ نَهِر : كثير المـاء ؛ قال أبو ذُؤَيب :

أقامت به فابتنت خَيْمَةً　＊　على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِـــرْ (٤)

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦　(٢) هو مهلهل أخو كليب .　(٣) ملكت : أى شددت وقويت .

(٤) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى إلى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب ؛ وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

Marfat.com

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقفُ على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله : «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ» من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدره؛ وقد تقدّم القول فى الرزق[1] . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا؛ وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزِقنا فى الدنيا؛ لأن لَوْنها يشبه لون ثمار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل: « مِن قبلُ » يعنى فى الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمار فى أوّل النهار فأكلوا منها ، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رُزقنا مِن قبل؛ يعنى أُطْعِمْنا فى أوّل النهار؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعمًا غير طعم الأوّل .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلوا من أتيت. وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء. وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة، وفى الثانية للخدام .

﴿بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ حال من الضمير فى « به » ؛ أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عِكْرِمة : يُشبه ثمرَ الدنيا ويباينه فى جُلّ الصفات . ٱبن عباس : هذا على وجه التعجُّب، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء؛ فكأنهم تعجّبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رَذْل فيه؛ كقوله تعالى : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ ابتداء وخبر . وأزواج : جمع زَوْج. والمرأة : زَوْج الرجل . والرجل زَوْج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفَرّاء أنه يقال: زوجة؛ وأنشد الفَرَزْدَق :

و إن الذى يَسْعَى لِيُفْسِد زَوْجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[2]

---

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

Marfat.com

وقال عمّار بن ياسر في شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ٱبتلاكم . ذكره البخارى ، وٱختاره الكسائى .

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج. ومُطَهَّرةٌ فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات . ذكر عبد الرازق قال أخبرنى الثَّوْرِىّ عن ٱبن أبى نَجيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يَبُلْنَ ولا يَتَغوَّطْنَ ولا يَلِدْن ولا يَحِضْنَ ولا يُمْنِين ولا يَبْصُقْنَ . وقد أتينا على هـذا كلّه فى وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ « هم » مبتدأ . « خالدون » خبره ، والظرف مُلْغًى . ويجـوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحـال . والخلود : البقاء؛ ومنه جَنّة الخُلْد . وقد تستعمل مجازًا فيما يطول ؛ ومنه قولهم فى الدعاء : خلّد الله مُلْكه ، أى طوّله . قال زُهَيْر :

ألَا لا أرى على الحوادث باقيًا * ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيَا

وأمّا الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقةً .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ قال ٱبن عبـاس فى رواية أبى صالح : لمـا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنافقين : يعنى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » قالوا : الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال ؛ فأنزل الله هذه الآية . وفى رواية عطاء عن ٱبن عباس قال : لما ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ »(١) وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٧

Marfat.com

بجمله كبَيْت العنكبوت ، قالوا : أرأيتَ حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد ، أيّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضربَ للشركين به المثَل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِيُ، عينه ولامه حرفا علة ؛ أُعِلّت اللام منه بأن آستثقلت الضمة على الياء فسكنت . وآسم الفاعل على هـذا : مستحيٍ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين . وقرأ آبن مُحَيْصِن «يستحِي» بكسر الحاء و ياء واحدة ساكنة ؛ ورُوِى عن آبن كثير، وهى لغة تميم و بكر آبن وائل ؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم آستثقلت الضمة على الثانيـة فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ وآسم الفاعل مُسْتَحٍ ، والجمع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . وآختلف المتأوّلون فى معنى «يستحيي» فى هذه الآية ؛ فقيل: لا يخشى؛ ورجّحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ »(١) بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الآستحياء الآنقباض عن الشيء والآمتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح؛ وهذا مُحال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أم سَلَمة رضى الله عنها قالت: جاءت أم سُلَيم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ «يضرب» معناه يبيّن، و «أن» مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف من . « مَثَلًا » منصوب بيضرب . «بَعُوضَةً» فى نصبها أربعة أوجه :

الأوّل — تكون « ما » زائدة ، و « بعوضةً » بدلا من « مَثَلًا » .

الثـانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مَثَلًا». و «بعوضةً» نعت لما ؛ فوصفت « ما » بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليـل ؛ قاله الفرّاء والزّجاج وثعلب .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠

Marfat.com

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلًا مّا بين بعوضـة ، فحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها ، والفاء بمعنى الى ، أى إلى ما فوقها . وهـذا قول الكسائى والفرّاء أيضا ، وأنشد أبو العباس :

يا أحسنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَـدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصــلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قرْن ، فلما أسقط « بين » نصب .

الرابـع — أن يكون « يضرب » بمعنى يجعل ، فتكون « بعوضةً » المفعول الثـانى . وقرأ الضحاك و إبراهيم بن أبى عَبْلَة ورُؤبة بن العَجّاج « بعوضةٌ » بالرفع ، وهى لغـة تميم . قال أبو الفتـح : ووجه ذلك أن « ما » آسم بمنزلة الذى ، و « بعوضـةٌ » رفع على إضمـار المبتدأ، التقدير : لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهـم : « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منـه فى « الذى » ؛ لأن « الذى » إنما له وجه واحد والآسم معه أطول . و يقال : إن معنى ضربت له مثـلا ، مَثّلت له مَثَلًا . وهذه الأبنيـة على ضربٍ واحد ، وعلى مثـال واحد ونوع واحد ؛ والضَّرْبُ النَّوْع . والبَعوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَع و بَعَض بمعنًى ، وقد بعّضته تبعيضًا ، أى جزّأته فتبعّض . والبَعُوض : البَـقّ[(1)] ، الواحدة بعوضة ؛ سُمّيت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ «ما» الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى « فما فوقها » — والله أعلم — ما دونها ؛ أى إنهـا فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهـذا كقولك فى الكلام : أتراه قصـيرا ؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ؛ أى هو أقصر ممـا ترى . وقال قتادة وآبن جُريج : المعنى فى الكِبَر . والضمير فى «أنه» عائد على المَثَل؛ أى إن المَثَل حق .

(١) قال الدميرى : « هو وهم » . وذكر البعوض بأوصافها . و يدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنـه صلى الله عليه وسلم : " لوكانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ... " الحديث .

Marfat.com

والحق خلاف الباطل . والحـق : واحد الحقوق . والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منـه ؛ يقال : هذه حَقّتِي ، أى حَقّى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم وبنى عامر فى « أمّا » أَيْمـا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنْشد بيتُ عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أَيْمَا إذا الشمس عارضتْ * فيَضْحَى وأيْمَا بالعشِيّ فيَخْصَـرُ[1]

قوله تعـالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ آختلف النحويون فى « ماذا » ؛ فقيل : هى بمنزلة آسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بـ«أراد» . قال آبن كَيْسان : وهو الجيّد . وقيل : « ما » آسم تام فى موضع رفع بالآبتداء، و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الآبتـداء ، ويكون التقـدير : ما الذى أراده الله بهـذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الإنكار بلفظ الآستفهام . و « مَثَلًا » منصوب على القطع ؛ التقدير : أراد مثلا ؛ قاله ثَعْلَب . وقال آبن كَيْسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعـالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ؛ أى ما مراد الله بهذا المَثَل الذى يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هُدًى . وقيـل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهُـدَى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ أى يوفّق ويَخْذل؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعـنى « يُضِلّ بِهِ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سَمّيته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يُضل أحدًا . هذا طريقهم فى الإضلال، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغـة ؛ لأنه يقال : ضَلَّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضـله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

---

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

Marfat.com

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أنه من قول الله تعالى. و«الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقـدير : وما يُضِـل به أحدا إلا الفاسقين الذين سبق في علمه أنه لا يهديهـم . ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال نَوْف البِكاليّ : قال عزير فيما ينـاجي ربّه عزّ وجلّ : إلهي تخلق خلقًا فتُضل من تشاء وتهـدي من تشاء . قال فقيل: يا عزير أعرض عن هذا ! لتُعْرِضَنّ[1] عن هذا أو لأمْحُوَنّك من النبوّة، إني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون . والضلال أصله الهلاك؛ يقال منـه : ضلّ المـاءُ في اللبن إذا ٱستهلك؛ ومنه قوله تعالى : « أئذا ضَلَلْنا في ٱلأَرْضِ »[2] وقـد تقدّم في الفاتحة[3] . والفِسْق أصلـه في كلام العرب الخروج عن الشيء؛ يقال : فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفأرة من جُحْرها . والفُوَيْسِقة : الفأرة ؛ وفي الحديث : " خمسٌ فواسِـقُ يُقْتَلْنَ في الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفأرة والكلب العَقُو ر والحُدَيّا " . روته عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه مسلم. وفي رواية "العقرب" مكان "الحية" . فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها ٱسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا ـ عن الأخفش ـ فِسْقًا وفُسوقًا؛ أي فَجَر. فأما قوله تعالى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج . وزعم ٱبن الأعرابيّ أنه لم يسمع قط في كلام الجاهليـة ولا في شـعرهم فاسق[4] . قال : وهـذا عجب ، وهو كلام عربيّ حكاه عنـه ٱبن فارس والجوهري .

قلت : قـد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب « الزاهر » له لمـا تكلم على معنى الفسـق قول الشاعر :

يَذْهَبْنَ في نَجْـدٍ وغَوْرًا[5] غائرا ٭ فواسـقًا عن قَصْـدها جَوائرا

(١) في نسخة من الأصل : أعرض عن هذا و إلا محوتك من النبوّة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١

(٣) راجع ص ١٥٠ (٤) أي بمعنى الخارج من طاعة الله ، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية .

(٥) غورا ، منصوب بفعل محذوف ؛ أي ويسلكن . (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

Marfat.com

والفِسِّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ ويا خُبَثُ، يريد : ياأيها الفاسق، ويأيها الخبيث . والفِسْق فى عُرْف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (٢٧)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ « الذين » فى موضع نصب على النعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف؛ أى هم الذين . وقد تقدّم[(١)] .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ ﴾ النَّقْض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عَهد . والنُّقَاضة : ما نُقِض من حبل الشَّعر . والمُناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقِيضة فى الشِّعر: ما يُنْقَض به . والنِّقْض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هــذا العهد؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين آستخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيــل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيــل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج: عهده جل وعز ما أخذه على النبيّين ومن آتبعهم ألا يكفروا بالنبيّ صــلى الله عليــه وسلم . ودليــل ذلك : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ »[(٢)] إلى قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » أى عهدى . قال : وظاهر ما قبلُ وما بعــدُ يدلّ على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقـد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل ؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق ، صارت الواو ياء لأنكسار ما قبلها — والمياثق والمياثيق أيضا ، وأنشد آبن الأعرابى :

حِمىً لا يُحَـلّ الدهرَ إلا بإذننا ⁂ ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ المياثِق

والمَوْثِق : المِيثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ القطع معروف ، والمصدر — فى الرَّحِم — القطيعة ؛ يقال : قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة ؛ مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبـل قطعًا . وقَطَعت النهر قُطُوعا . وقَطَعتِ الطيرُ قُطوعا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعَة : إذا قلّت مياههم . ورجل به قُطْعٌ : أى آنبهار[(٢)] .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ ﴾ « ما » فى موضع نصب بـ « يقطعون » . و « أنْ » إن شئت كانت بدلا من « ما » وإن شئت من الهاء فى « به » وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئـلا يوصل ؛ أى كراهة أن يوصـل . وآختلف ما الشيء الذى أُمِر بوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهى عامة فى كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل . هـذا قول الجمهور ؛ والرَّحِم جزء من هذا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى يعبـدون غير الله تعـالى ويجورون فى الأفعال ، إذ هى بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد المياثق » والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء ، وقيل آنقطاعه .

Marfat.com

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ ابتداء وخبر . و«هم» زائدة، ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ ، « الخاسرون » خبره ، والثانى وخبره خبر الأوّل كما تقــدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفسه حَظَّها من الفلاح والفَوْز . والخُسْران : النقصان ، كان فى ميزان أو غيره ؛ قال جرير :

إن سَلِيطًا فى الخَسَار إنّهْ * أولادُ قومٍ خُلِقوا أقِنّــهْ[2]

يعنى بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسِرت الشىء (بالفتح) وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى : الضلال والهلاك . فقيل للهالك : خاسر ؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعــــة — فى هــذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهــدٍ جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره ؛ لذمّ الله تعالى مَن نقض عهده . وقــد قال : « أَوْفُــوا بِٱلْعُقُودِ[3] » وقد قال لنبيّه عليه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد؛ على ما يأتى بيانه فى موضعه[4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعــالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

« كيف » سؤال عن الحال ، وهى اسم فى موضع نصب بـ « تَكْفُرُونَ » ، وهى مبنيّة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ؛ لأنّ فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لهــا الفتح لخفته ؛ أى هــؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيــل : كيف يجوز أن يكون هــذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لمــا لم يثبتوا أمر محمد عليــه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقــد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٢ (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١

Marfat.com

أشركوا؛ لأنهم لم يقروا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : « كيف » لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطى : وبخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوَات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء ، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد . وقال الفراء : « أمواتا » خبر « كنتم » .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام؛ كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، وكم من موْتة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذى لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ، ثم للإحياء فى الدنيا ، ثم للإماتة فيها قَوِى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا — أى نُطَفًا — فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة ، ثم يميتكم فى القبر ، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات ، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم ، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ؛ فعلى هذا تجىء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم ؛ فيكون على هذا خمس موتات ، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

Marfat.com

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار؛ لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيَوْن ولكنّ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن في الشفاعة فجِيء بهم ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فيَنْبُتُون نباتَ الحِبّة تكون في حَمِيل السَّيْل". فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية[1]. أخرجه مسلم.

قلت: فقوله "فأماتهم الله" حقيقة في الموت؛ لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريمًا لهم. وقيل: يجوز أنْ يكون "أماتهم" عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتًا على الحقيقة؛ والأوّل أصح. وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا، وإنما هو على الحقيقة، ومثله: «وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا»[2] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقيل: المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيّ الذي جاءكم، ثم يميتكم فيموت ذِكْرُكم، ثم يحييكم للبعث.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم. وقيل: إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ»[3] فإعادتهم كابتدائهم؛ فهو رجوع. و«تُرْجَعُونَ» قراءة الجماعة. ويحيى بن يَعْمَر وآبن أبي إسحاق ومجاهد وآبن مُحَيْصِن وسلام بن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

(١) الذي في صحيح مسلم: «... قد كان بالبادية». والضبائر: هم الجماعات في تفرقة، وواحدتها ضبارة، مثل عمارة وعمائر، وكل مجتمع ضبارة. والحِبّة (بالكسر): بذور البقل. وقيل هو نبت صغير ينبت في الحشيش؛ فأما الحَبّة (بالفتح) فهي الحنطة والشعير ونحوهما. وحميل السيل: هو ما يجيء به السيل من الغُثاء.

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٨ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ﴿ خَلَقَ ﴾ معناه ٱخترع وأوْجد بعد العَدَم . وقد يقال فى الإنسان : «خَلَق» عند إنشائه شيئا ؛ ومنه قول الشاعر :

مَن كان يَخْلُق ما يقو * ل فحِيلَتِى فيــه قليلَهْ

وقد تقدّم هذا المعنى[1] . وقال ٱبن كَيْسان : «خَلَقَ لَكُمْ» أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهــذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـــة — ٱستدل من قال إن أصل الأشياء التى يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها — كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوات وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ »[2] الآية — حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدُوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلق فلم تُخلق عبثا ؛ فلا بُدّ لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهى راجعــة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نَيل لذّتهـا ، أو فى ٱجتنابهـا لنُختبَر بذلك ، أو فى ٱعتبارنا بهـا . ولا يحصل شيء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين . ثم هو معارَض بمـا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضـون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما من فعل لا ندرك منه حُسْنًا ولا قُبْحًا إلا ويمكن أن يكون حَسَنًا فى نفســه ، ولا مُعيِّن قبل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهــذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المـالكية والصَّيرفىُّ فى هـذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .	(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠

Marfat.com

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها في تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره، وإنما حظّه تعرّف الأمور على ما هي عليه . قال ٱبن عطية : وحكى ٱبن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع ، أو لها تعلّق به ، أو لها حالٌ تُستصحَب . قال : فينبغي أن يُعتمد على هذا ، ويغنى عن النظر في حظر وإباحة ووقف .

الثالثـــة — الصحيح في معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الٱعتبار. يدلّ عليه ما قبله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والٱستواء إلى السماء وتسويتها؛ أي الذي قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السّموات والأرض،لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى « لكم » الٱنتفاع؛ أي لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالٱنتفاع الٱعتبار لَمَا ذكرنا . فإن قيل : وأي ٱعتبار في العقارب والحيّات ؛ قلنا : قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار في النار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصي؛ وذلك أعظم الٱعتبار . قال ٱبن العربيّ : وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظرًا ولا إباحةً ولا وقفًا؛ وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعاني في قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقَوّوا به على طاعته، لا لتصرفوه في وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وَهَبَ لك الكلَّ وسخّره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده ، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه في المعاد ، ولا تستكثر كثيرَ برّه على قليل عملك ؛ فقد ٱبتدأك بعظيم النِّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يُعطِيَه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما عندي شيء ولكن ٱبتع عليّ فإذا جاء شيء قضينا" فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

Marfat.com

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلّم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعُرِف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لخوف الإقلال من سوء الظن بالله ؛ لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ؛ وقال فى تنزيله : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» ، «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» . فهذه الأشياء كلها مسخّرة للآدمى قطعًا لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ»[1] . وقال : «فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»[2] ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سبقت رحمتى غضبى يا بن آدم أَنفِق أُنفِق عليك يمينُ الله ملأى سحًّا[3] لا يَغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ". وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أعطِ منفقا خلفًا و يقول الآخر اللّهمّ أعط مُمْسكًا تلفًا". وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن آستنار صدره ، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا وآجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وآنقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "آنفَحِى أو آنضَحِى[4] أو أنفق ولا تُحصى فيُحصىَ الله عليكِ ولا تُوعى فيُوعِىَ[5] عليكِ" . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧　　(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٠٦　　(٣) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء .

(٤) قال النووى : «والنفح والنضح العطاء ، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح» .

(٥) الايعاء : جعل الشئ فى الوعاء ؛ أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك .

Marfat.com

سائل مرة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرت له بشيء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : " مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصِي فيُحصِيَ الله عزّ وجلّ عليكِ " .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه . والاستواء في اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء ؛ قال الله تعالى : «فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ » ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفْـرة * وقد حلّق النجم اليمانيّ فاستوى

أي ارتفع وعلا ، واستوت الشمس على رأسي واستوت الطير على قِمّة رأسي ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات ، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه ، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهـذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعـالى : « الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ »[1] قال مالك : الاستـواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء في قوله عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ قال : الاستواء في كلام العرب على وجهين ، أحدهما : أن يَسْتوِيَ الرجل وينتهي شبابه وقوّته ، أو يستوي عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان[2] فلان مقبلا على فلان ثم استوى عليّ وإليّ يشاتمني . على معنى أقبل إليّ وعليّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى إلى السماء صعد. وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك في كلام العـرب جائز . وقال البيهقي أبو بكر أحـمد بن عليّ بن الحسين : قوله :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٩ (٢) عبارة الأصول : « ... كان مقبلا عليّ يشاتمني وإليّ سـواء ، على معنى ... الخ » وبها لا يستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبري .

Marfat.com

« آستوى » بمعنى أقبل صحيح ، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء ، والقصد هو الإرادة ، وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولفظة « ثم » تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن آبن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبي ، والكلبي ضعيف . وقال سفيان بن عُيينة وآبن كَيسان في قوله « ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ » : قصد إليها ، أي بخلقه وآختراعه ؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد ؛ وآختاره الطبري . ويُذكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال : آستوى بمعنى أنه آرتفع . قال البيهقي : ومراده من ذلك — والله أعلم — آرتفاع أمره ، وهو بخار الماء الذي وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال آبن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى آستولى ؛ كما قال الشاعر[1] :

قد آستَوَى بِشْرٌ على العِراق ✱ مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْراق

قال آبن عطية : وهذا إنما يجيء في قوله تعالى : « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ » .

قلت : قد تقدّم في قول الفرّاء عليّ و إليّ بمعنًى . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة « الأعراف »[2] إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســـة — يظهر من هــذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبــل السماء ؛ وكذلك في « حم السجدة »[3] . وقال في النازعات : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا »[4] فوصف خلقها ؛ ثم قال : « وَٱلْأَرْضَ بَعْـدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . فكأن السماء على هــذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعــالى : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ »[5] وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا ؛ حكاه عنه الطبري . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذي كان عرشه عليه ، فجعله أرضا وثار منه دخان فآرتفع ، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ، ثم دحا[6] الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مَدْحُوّة .

---

(١) هو الأخطل كما في شرح القاموس .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٣ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ .
(٦) دحا الشيء : بسطه .

Marfat.com

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم آستوى إلى السماء وهى دخان فسواها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما[1] يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السُّدِّى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن آبن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانى عن آبن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى قوله عزّ وجلّ : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فآرتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والآثنين. فجعل الأرض على حُوت — والحُوت هو النُّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : « نٓ وَٱلْقَلَمِ »[2] — والحوت فى الماء و [الماء][3] على صَفاة[4]، والصفاة على ظهر ملَك، والملَك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرك الحوت فآضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى : « وَأَلْقَى فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ »[5] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ »[6] يقول : من سأل فهكذا الأمر، « ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الإسلامى؛ فجلّ من له العصمة .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٣ . (٣) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه .

(٤) الصفاة : العريض من الحجارة الأملس . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٩٠ .

(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ .

Marfat.com

فيه خلق السموات والأرض، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زَيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زِينة وحِفظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب آستوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(١) وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام ؛ على ما يأتي بيانه في هذه السورة إن شاء الله تعالى . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبي ظَبْيان عن آبن عباس قال إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شيء «القلم» فقال له آكتب . فقال: يا ربّ وما أكتب؟ قال : آكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّون فدحا الأرض عليها ، فآرتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ وآضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال ؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة . ففي هذه الرواية خلق الأرض قبل آرتفاع بخار الماء الذي هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أَوْلَى ؛ لقوله تعالى: « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(٢) والله أعلم بما فعل؛ فقد آختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحُوت الذي على ظهره الأرض كلها ، فألقى في قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك ؛ فبعث الله دابة فدخلت في منخره ؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذي نفسي بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعــة — أصل خلق الأشياء كلّها من الماء ، لما رواه آبن ماجه في سننه ، وأبو حاتم البُسْتِيّ في صحيح مسنده عن أبي هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت عيني ، أنبئني عن كل شيء . قال: "كل شيء خُلق من الماء" فقلت : أخبرني عن

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٢

Marfat.com

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة . قال : " أطعِم الطعام وأفشِ السّــلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام ". قال أبو حاتم قولُ أبي هريرة : « أنبئني عن كل شيء » أراد به عن كل شيء خُلق من المــاء . والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : " كل شيء خلق من المــاء " وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوّل شيء خلقه الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبَادة بن الصّامت مرفوعا. قال البيهقي : وإنمــا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعــد خلق المــاء والريح والعرش « القــلم » . وذلك بيّن في حديث عِمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المــاء والنور والظلمــة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هــؤلاء ؟ قال : لا أدرى . قال : ثم أتى الرجل عبــدَ الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فأتى الرجلُ عبدَ الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المــاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هؤلاء ؟ فتلا عبــد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ »(1) فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهــل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أي من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق المــاء أوّلا ، أو المــاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمــا خلق بعدُ ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه ، سبحانه جلّ وعزّ .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع . ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »(2) وقد اختلف فيه ؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيل : « ومن الأرض مثلهنّ » أي في غلظهن

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ (2) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

Marfat.com

وما بينهنّ . وقيل : هى سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الداوُدِىّ . والصحيح الأوّل ، وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ شبرا من الأرض ظُلْماً طُوِّقه إلى سبع أرضين". وعن عائشة رضى الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبى هريرة : " لا يأخذ أحدٌ شبرا من الأرض بغير حقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة](١) " . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إلٰه إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إلٰه إلا الله قال لا إلٰه إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّنى به قال يا موسى لو أن السموات السّبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كِفّة ولا إلٰه إلا الله فى كِفّة مالت بهن لا إلٰه إلا الله " . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم " هل تدرون ما هذا" فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هـذا العَنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الرَّقيع(٢) سقفٌ محفوظ ومَوْج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم و بينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم و بينها [مسيرة(٣)] خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " [فإن فوق(٣) ذلك] سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة(٣)] خمسمائة سنة " ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال: " هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش و بينه و بين السماء بُعْدُ ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذى تحتكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال: " فإنها الأرض — ثم قال: — هل تدرون ما تحت ذلك" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذى .

Marfat.com

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة ســنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دُلّيتم بحبل الى الأرض السُّفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد : لهبط على عِلْم الله وقدرته و لطانه، [علم الله وقدرته وسلطانه[1]] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضُّحَى — وآسمه مسلم — عن آبن عباس أنه قال : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيّكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، و إبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى[2]. قال البيهقى : إسناد هذا عن آبن عباس صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضُّحا عليه دليلا ؛ والله أعلم .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ آبتداء وخبر. « ما » فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ أهل نجد يُميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخّمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون ؛ أى فسوّى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوّى بينهنّ سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : آنتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ آبتداء وخبر . والأصل فى « هو » تحريك الهاء ، والإسكان آستخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنّثة ؛ مثل عَنان، وتذكيرها شاذّ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش، وسماءة فى قول الزجاج، وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع و إمّا على أنها مفرد آسم جنس . ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس . وقيل : جعلهنّ سواء .

---

(١) زيادة عن صحيح الترمذى .

(٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

Marfat.com

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق، وهو خالق كل شيء؛ فوجب أن يكون عالما بكل شيء ؛ وقد قال: « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجهمية : عالم بعلم قائم لا فى محل ، تعالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات؛ والرد على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال: « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ »(٢) ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ »(٣) الآية . وسندل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »(٤) إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالون عن نافع بإسكان الهاء من: هو وهى، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثم؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثم. وزاد أبو عون عن الحلوانى عن قالون إسكان الهاء من «أَنْ يُمِلَّ هُوَ» ، والباقون بالتحريك.

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ و إذا حرفا توقيت ؛ فإذ للماضى ، و إذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المبرد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا، و إذ قلت . و إذا جاء « إذا » مع الماضى كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

(١) راجع جـ١٨ ص٢١٤ (٢) راجع جـ٦ ص١٩ (٣) راجع جـ٧ ص١ (٤) راجع جـ٢ ص٣٠١

Marfat.com

أى يجىء . وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيـدة : « إذ » زائدة ؛ والتقـدير : وقال ربك ؛ وآستشهد بقول الأَسْوَد بن يَعْفُر :

فإذْ[1] وذلك لا مَهـاةَ لذِكـرِه * والدهرُ يُعْقِب صالحاً بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ؛ لأن «إذ» آسم وهي ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا آجترام من أبى عبيدة ؛ ذكر الله عز وجل خلق النـاس وغيرهم ؛ فالتقدير وآبتدأ خلقكم إذ قال ؛ فكان هـذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّـــة مَن يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وآذكر إذ قال . وقيـل : هو مردود إلى قوله تعالى: « آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعـالى وخطابه للملائكة متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . وهـذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى آرتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المـالك والسيّد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدّم بيانه[2] .

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها مَلَك. قال آبن كَيْسان وغيره: وزن مَلَك فَعَـل من الملك . وقال أبو عبيدة ؛ هو مفعل من لأَكَ إذا أرسـل . والأَلُوكة والمَـأْلُكة والمَـأْلُكة : الرسالة ؛ قال لَبِيد :

وغلامٍ أرســلتْهُ أمُّه * بألُوكٍ فبذلْنا ما سأَلْ

وقال آخر[3] :

أبلِــغ النُّعمانَ عنّى مَأْلُـكًا * إننى قدطال حبسى وآنتظارِى

---

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء. (٣) هو عدى بن زيد؛ كما فى اللسان مادة (ألك) . ويروى «إنه» بدل : «إنى»

Marfat.com

ويقال : أَلِكْنِي أي أرسلني ؛ فأصله على هـــذا مَأْلَك، الهمزة فاء الفعل فإنهـــم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلْأَك ، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك . وقيل أصـــله مَلْأَك من مَلَك يملك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن آبن كَيْسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشـــعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيّ ولكن لمَـــلأَك　*　تنزّل من جوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل : لا آشتقاق للَملَك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ؛ ومثله الصَّلادمة . والصَّلادم : الخيل الشّداد، واحدها صِلْدِم. وقيل : هى للبالغة، كعلاّمة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للشورة ولكن لآستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهـــم ؛ فقال عز وجل : « آسْجُدُوا لآدَمَ » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعل» هنا بمعنى خالق ؛ ذكره الطبرى عن أبى رَوْق، و يقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد، وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى آبن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " دُحِيَت الأرض من مكة " ولذلك سُمّيت أمّ القرى، قال : وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والرّكن والمقام . و« خليفة » يكون بمعنى فاعل؛ أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِيَ . ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أى مخلف؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين، و بتسكينها من الطالحين؛ هذا هو المعروف، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف»[(١)] إن شاء الله. و«خليفة» بالفاء قراءة الجماعة، إلا ما رُوِيَ عن زيد بن عليّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف. والمعنيّ بالخليفة هنا — فى قول آبن مسعود وآبن عباس و جميع أهل التأويل — آدم عليه السلام، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أوّل رسول إلى الأرض؛ كما فى حديث أبى ذرّ، قال قلت : يارسول الله أنبيًّا كان مرسَلًا ؟ قال : " نعم " الحديث . و يقال : لمن كان رسولا ولم يكن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٠

Marfat.com

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »(1) . وأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة . ورُوى عن وهب بن مُنَبّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم .

الرابعـــة ـــ هذه الآية أصلٌ فى نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوى عن الأصَمّ(2) حيث كان عن الشريعة أصَمّ ، وكذلك كل من قال بقوله واتّبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفَىء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إمامًا يتولّى ذلك . ودليلُنا قولُ الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »، وقوله تعالى: « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد آختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سَقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير؛ فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لمـا ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنهـا ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصدّيق رضى الله عنه لمـا حضرته الوفاة عهـد إلى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(1) راجع جـ ٤ ص ٢ (2) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

Marfat.com

واجب علينا ولا عليك؛ تدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدّين الذى به قوام المسلمين، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، و إن السمع إنمـا ورد على جهة التأكيد لقضيـة العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبّح ولا يُحسّن ؛ و إذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســـة — إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، خبّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة آختيار أهل الحَلّ والعَقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : آختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، و إجماع أهل الآجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بَنَوْه على أصلهم أن القياس والرأى والآجتهاد باطل لا يُعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم آختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النص على أبى بكر، وفرقة تدّعى النص على العباس ، وفرقة تدّعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعةَ إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ؛ لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ، و إذا وجب العلم به لم يَخْلُ ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورةً أو آستدلالا ، أو يكون من أخبـار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

Marfat.com

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيّن وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان، وحج البيت ونحوها؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة، فبطلت هـذه الدعوى، و بطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به. وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأيّ وجه كان، وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قومًا ينقلون النّص صريحا في إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد — على ما يأتي بيانه — كذلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرق أولى بالنص من الآخر. وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد . فإن تعسّف متعسّف وادّعى التواتر والعلم الضروري بالنّص فينبغي أن يقابَلوا على الفَور بنقيض دعواهم في النّص على أبي بكر و بأخبـار في ذلك كثيرة تقوم أيضا في جملتها مقام النص؛ ثم لا شك في تصميم مَن عدا الإماميّة على نفي النّص؛ وهم الخلق الكثير والجمّ الغفير. والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحطّ عن معشار أعداد مخالفي الإماميـة ؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بَغـداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادســة — في ردّ الأحاديث التي آحتجّ بها الإمامية في النّص على عليّ رضي الله عنه، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وآرتدت، وخالفت أمر الرسول عنادا؛ منها قوله عليه السلام: "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه اللّهُمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه" . قالوا : والمَوْلَى في اللغة بمعنى أَوْلَى ؛ فلما قال : " فعليّ مولاه " بفاء التعقيب عُلم أن المراد بقوله « مولى» أنه أحق وأولى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليه السلام لعليّ: " أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي " . قالوا : ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركا له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ، وكان أخًا له ولم يكن ذلك لعلي ، وكان خليفة؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة، إلى غير ذلك مما آحتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

Marfat.com

والجواب عن الحديث الأول : أنه ليس بمتواتر، وقد آختلف في صحته، وقد طعن فيه أبو داود السجستاني وأبو حاتم الرازي، وآستدلا على بطلانه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مزينة وجهينة وغفار وأسلم موالي دون الناس كلهم ليس لهم مولى دون الله ورسوله". قالوا : فلو كان قد قال : "من كنت مولاه فعلي مولاه" لكان أحد الخبرين كذبا .

جواب ثان — وهو أن الخبر وإن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيه ما يدل على إمامته، وإنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الولي، فيكون معنى الخبر : من كنت وليه فعلي وليه؛ قال الله تعالى : «فإن الله هو مولاه» أي وليه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علي كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعلي .

جواب ثالث — وهو أن هذا الخبر ورد على سبب، وذلك أن أسامة وعليا آختصما، فقال علي لأسامة : أنت مولاي . فقال : لست مولاك، بل أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال : "من كنت مولاه فعلي مولاه" .

جواب رابع — وهو أن عليا عليه السلام لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها : النساء سواها كثير . شق ذلك عليها، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردا لقولهم، وتكذيبا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم لعلي عليه السلام . وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتي من بيان وفاتيهما في سورة «المائدة»[(1)] — وما كان خليفة بعده وإنما كان الخليفة يوشع بن نون؛ فلو أراد بقوله : "أنت مني بمنزلة هارون من موسى" الخلافة لقال : أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هذا دل على أنه لم يرد هذا، وإنما أراد أني آستخلفتك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة

(1) راجع جـ ٦ ص ١٢١

ربّه . وقد قيل : إن هـذا الحديث خرج على سبب ، وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما خرج الى غَزْوة تَبُوك آستخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهله وقومه؛ فأرجف به أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغْضًا وقِلًى له ، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ! فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى". وإذا ثبت أنه أراد الآستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هذه الفضيلة غيره؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف فى كل غَزاة غزاها رجلًا من أصحابه ، منهم : آبن أم مَكْتُوم ، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وَقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . ورُوى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى" . وهذا الخبر ورد آبتداء ، وخبر علىّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أَوْلى منه بالإمامة ، والله أعلم .

السابعـــة — وآختلف فيما يكون به الإمام إمامًا وذلك ثلاث طرق ، أحدها : النص ، وقد تقدّم الخلاف فيه ، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى وبكر آبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على أبى بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق ، أو على جماعة كما فعل عمر ، وهو الطريق الثانى ؛ ويكون التخيير إليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم [فى تعيين عثمان بن عفان رضى الله عنه] (١) . الطريق الثالث : إجماع أهل الحَلّ والعَقْد ، وذلك أن الجماعة فى مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا آستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم آجتمعوا عليه ورَضُوه فإن كل مَن خلفَهم وأمامَهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام ، إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد ؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة فى تفسير العلامى نقلا عن القرطبى .

Marfat.com

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لمـا فى إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يغل[1] عليهن قلب مؤمن إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنـــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْد فذلك ثابت و يلزم الغير فعله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البيعة لأبى بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مُجْمَع عليه .

التاســـعة — فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا ؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى إليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه ، و إذا ائتمنك على سرّ من أمر الدِّين لم تُفْشِــه . وقال ابنُ خُوَيْزِ مَنْداد : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة ، والله أعلم .

العـاشرة — واختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود ؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهذا احتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعى كل مدّعٍ[2] أنه عُقد له سرًّا ، و يؤدّى إلى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى[3] فى ستة دلّ على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(١) روى « لا يغل » بضم الياء وكسر الغين ؛ أى لا يكون معها فى قلبه غش ودغل ونفاق . وروى « لا يَغِل » بفتح الياء ؛ أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق . (٢) فى تفسير العلامى : « مبتدع » .

(٣) الستة : هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — للمسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا .

Marfat.com

و بينه أن شهادة الأثنين معتبرة ، وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام ؛ وهى أحد عشر :

الأول — أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الأئمة من قريش" . وقد آختلف فى هذا .

الثانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الأستفتاء فى الحوادث ؛ وهذا متّفق عليه .

الثالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثغور وحماية البيضة (١) وردع الأمة والآنتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

الرابع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه ؛ ولأنه هو الذى يولى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حُرًّا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام و إسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما و إن آختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لايجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم ؛ لقوله عليه السلام : "أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

(١) بيضة الاسلام : جماعتهم .

Marfat.com

بمن تستشفعون " . وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »(1) فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدلّ على القوة وسلامة الأعضاء. وقوله : «ٱصطفاه» معناه ٱختاره ، وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالغيب ، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش ؛ فإن الإجماع قد ٱنعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدوّ وحماية البيضة وسدّ الخلل وٱستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول ؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول ، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وٱجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نُصب ثم فَسَق بعد ٱنبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم ؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود وٱستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدم ذكره ؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الابتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شىء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبادة : " وألا نُنازع الأمر أهله [قال](2) إلا أن تروا كُفْرًا بَواحًا عندكم من الله فيه برهان " .

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٤٦		(2) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة . و «بواحا» أى جهارا ؛ من باح بالشىء يبوح به إذا أعلنه .

Marfat.com

وفى حديث عَوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتَعرِفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئَ ومَن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع — قالوا: يا رسول الله ألاّ نقاتلهم؟ قال : — لا ما صَلَّوْا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصًا يؤثّر فى الإمامة . فأما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك. والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه انعزل قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك؛ ولأن الإمام ناظر للغيب[(1)] فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّة مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البيعة لعُذْر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبِر وقُهِر ؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأوّل وقُتل الآخر؛ واختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتلَه وموْته . والأوّل أظهر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما " . رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ أخرجه مسلم .

(1) فى بعض الأصول : « للغير » .

Marfat.com

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليُطعه إن آستطاع فإن جاء آخر ينازعه فآضربوا عنق الآخر". رواه مسلم أيضا، ومن حديث عَرْفَجَة : "فآضربوه بالسيف كائنا من كان" . وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدّى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجيّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجيّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجيّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل . أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرفى العالَم؛ ثم قالوا : لو آتفق عقد الإمامة لشخصين نُزّل ذلك منزلة تزويج وَلِيَّين آمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُقع واحد متضايق الخطط والمخاليف (١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النَّوَى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل ؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا آثنين فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه ؛ ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحى .

Marfat.com

لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه ؛ لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأمّة عليه . وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما آدّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة . ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما ؛ ولا قال أحدهما إنى إمام ومخالفى إمام . فإن قالوا : العقـل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمْع الإجماعُ ، وقد وُجد على المنع .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُعلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله : «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» ؟ فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعـالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم : «إِنِّي أَعْلَمُ» وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء . وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العِزّة . فجاء قولهم : «أَتَجْعَلُ فِيهَا» على جهة الأستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال آبن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجب من آستخلاف الله من يعصيه أو من عِصيان الله من يستخلفه فى أرضه ويُنعم عليه بذلك ، وإمّا على طريق الآستعظام والإكبار للفصلين جميعا : الآستخلاف والعصيان. وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى : «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» أهو الذى أعلمهم أم غيره ،

Marfat.com

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة فى قوله « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أتجعل فيها مَن يفسد فيها » . وفى الكلام حذف على مذهبه؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا و يفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأوّل أيضا حسن جدا، لأن فيه آستخراج العلم وآستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء؛ وما بين القولين حسن، فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله : "كيف تركتم عبادى" — على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره — إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، و إظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم : « إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ «مَن» فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه «فيها» . «يُفسد» على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى . وفى التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . ﴿ وَيَسْفِكُ ﴾ عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « ويَسْفِكَ الدِّمَاءَ » بالنصب ، يجعله جواب الأستفهام بالواو ، كما قال[1] :

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بينى * و بينكمُ المـــودّةُ والإخاءُ

والسَّـفْكُ : الصّب . سفكت الدم أَسفِكه سَفْكًا : صببته . وكذلك الدمع ؛ حكاه آبن فارس والجوهرى . والسفّاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام . قال المهدوى : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم ، وقد يستعمل فى نثر الكلام ؛ يقال سفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دَمٌ ، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْىٌ . وقيل : دَمَىٌ ، ولا يكون آسم على حرفين إلا وقد حُذف منه ، والمحذوف منه ياء وقد نُطق به على الأصل ؛ قال الشاعر :

فــلو أنّا على حجــر ذُبحنــا * جَرَى الدَّميــان بالخبر اليقين

---

(١) القائل هو الحطيئة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزهك عمّا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعْشى بنى ثَعْلبة :

أقــول لمّـا جاءنى فَخْــرُه * سبحانَ من عَلْقَمــةَ الفاخرِ

أى براءة من عَلْقمــة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رســول الله صــلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل ســوء " . وهو مشتق من السّبح وهو الجَرْى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا »(1) فالمسبِّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء . وقد تقدّم الكلام فى «نحن»(2)، ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى ساكنان .

مســئلة : وآختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة ، فقال آبن مسعود وآبن عباس : تسبيحهم صلاتهم ؛ ومنه قول الله تعالى : «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»(3) أى المُصلّين . وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر ، قاله المفضّل ؛ وآستشهد بقول جرير :

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّمـا * سَبَحَ(4) الحجيجُ وكَبّرُوا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله ؛ على عُرفه فى اللغة ، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذَرّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما آصطفى الله لملائكته [أو لعباده](5) سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليـلة أُسْرِىَ به سمع تسبيحًا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهقى .

---

(1) راجع ج ١٩ ص ٤١ (2) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(3) راجع ج ١٥ ص ١٢٣ (4) فى ديوان جرير : «شبح» . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش .

(5) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء، وقد تقدّم[(١)] . ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» آعتراضا بين الكلامين؛ كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس ، ثم آعترضوا على جهة التسليم ؛ أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظمك ونمجدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهـد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفســنا لك آبتغاء مرضاتك . وقال قوم منهـم قتادة : « نقدّس لك » معناه نصـلّى . والتقديس : الصلاة . قال آبن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح ؛ فإن الصـلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : " سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح ". روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى : «آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[(٢)]» أى المطهّرة . وقال : «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ[(٣)]» يعنى الطاهر؛ ومثله : «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى[(٤)]» وبيت المَقْدس سُمّى به لأنه المكان الذى يُتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل : قَدَس؛ لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس . وفى الحديث : " لا قُدِّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها مِن قويّهـا " . يريد لا طهّرها الله ؛ أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه . فالقُدْس : الطُّهْر من غير خلاف؛ وقال الشاعر[(٥)] :

فأدْرَكْنه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّسَا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَـدِّس

أى المطهّر . فالصــلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلِّى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٥
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٥ (٤) راجع جـ ١١ ص ١٧٥ (٥) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشـبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقـدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتـح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب الثور يأخذن بساقه وفخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «أعلم» فيه تأويلان ؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه ٱسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر، بمعنى كبير ؛ وكما قال[1] :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنّى لَأَوْجَلُ * على أيِّنا تعــدُو المنيّــة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون « ما » في موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم في الميم . وإن جعلته ٱسما بمعنى عالم تكون « ما » في موضع خفض بالإضافة . قال ٱبن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنما الخلاف في « أفعل » إذا سُمِّيَ به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه ، والأخفش يَصْرِفه . قال المهدوِيّ : يجوز أن تقدّر التنوين في «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم، وتنصب «ما» به ؛ فيكون مثل حَواجُّ بيتَ الله . قال الجوهري : ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله ، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن ، وإن لم يكنّ حججن قلت : حواجُّ بيتَ الله ، فتنصب البيت ؛ لأنك تريد التنوين في حواجّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٱختلف علماء التأويل في المراد بقوله تعالى : « مَا لَا تَعْلَمُونَ » . فقال ٱبن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرفه ، وٱعتقد أن ذلك لمزِيّة له ؛ فٱستخف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك ؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لما قالت الملائكة « أَتَجْعَلُ فِيهَا » وقد علم الله أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إني أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن ؛ فهو عام .

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوجا بأخته ، فٱتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبدا ؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له . (عن أشعار الحماسة) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «علّم» معناه عرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام؛ على ما يأتى . وقرئ : «وعُلِّمَ» غير مسمّى الفاعل . والأول أظهر؛ على ما يأتى . قال علماء الصوفية : علّمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(1) . وقال ٱبن عطاء : لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر . وقيل : أبا محمد؛ كُنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلِيّ . وقيل : كُنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين؛ لأنه أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية ، فإذا ٱحتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادِم فى الجمع؛ لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش .

وٱختلف فى ٱشتقاقه؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمّى بما خلق منه ؛ قاله ٱبن عباس . وقيل . إنه مشتق من الأُدْمَة وهى السُّمْرة . وٱختلفوا فى الأُدْمَة ، فزعم الضحاك أنها السُّمْرة؛ وزعم النَّضْر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ؛ مأخوذ من قولهم : ناقة أدماء ، إذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْم وأوادم؛ كحُمْر وأحامر؛ ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير : إنما سُمّى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سُمّى إنسانا لأنه نَسِي؛ ذكره ٱبن سعد فى الطبقات . وروى

(1) راجع جـ ١١ ص ٢٥١

Marfat.com

السُّدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن آبن عباس وعن مُرّة الهَمْدانى عن آبن مسـعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منـك أن تنقص منى أو تَشِينَنى(١)؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنهـا عاذت بك فأعذتهـا . فبعث ميكائيـل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخاط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمـراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنـو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعد به ، فقال الله تعـالى له : " أمَا رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك" فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ، اللازب : هو الذى يلتصق بعضه ببعض، ثم تُرك حتى أنتن؛ فذلك حيث يقول: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» قال : مُنتِن . ثم قال للملائكة : «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»(٢) . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه . يقول: أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدى ولم أتكبّر أنا عنه ! فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سـنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لمـا رأوه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفَخّار تكون له صَلْصلة؛ فذلك حين يقول: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»(٣) . ويقول لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلّطت عليه لأهلكنّـه . ويقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هـذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربّنا؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فُضّل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فُضّلتُ عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

---

(١) فى نسـخة . «أن تقبض منى أو تسيئنى» . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أوّل طبع أوربا) : «أن تنقص مني شيئا وتشيني» . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٢٧ (٣) راجع ج ١٧ ص ١٩٠

Marfat.com

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عَطَس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »[1] « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »[2] وذكر القصة .

و روى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسَّهل والحَزْن والخبيث والطيِّب" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

النـاسُ أخيافٌ[3] وشتّى فى الشِّيَمْ　＊　وكلُّهم يجمعهـــم وَجهُ الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ؛ والله أعلم . ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام »[4] وغيرها إن شاء الله تعالى .

و « آدم » لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين؛ لأنه على أفعل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلتين . فإن نكّرته ولم يكن نعتًا لم يَصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صَرفه . قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ، ولا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق و يراد به المسمَّى ؛ كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأول يقال : الاسم هو المسمَّى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمَّى ؛ وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٨　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥　　(٣) الأخياف : المختلفون فى الأخلاق والأشكال .　　(٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ و جـ ٧ ص ١٦٨

Marfat.com

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا» على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعةً وتسعين آسماً". ويجري مجرى الذات، يقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ وآسمٌ بمعنًى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ آسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى »[1] « تَبَارَكَ آسْمُ رَبِّكَ » « إنْ هِيَ إلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » .

الثالثـــة — وآختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علّمها لآدم عليه السلام؛ فقال آبن عباس وعِكرمة وقتادة ومجاهد وآبن جُبير: علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن عليّ قال : كنت جالسا عند آبن عباس فذكروا آسم الآنية وآسم السَّوْط ؛ قال آبن عباس : « وعلّم آدم الأسماء كلها » .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتي؛ وهو الذي يقتضيه لفظ « كلها » إذ هو آسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفي البخاريّ من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو آستشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كلّ شيء" الحديث . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا . وكذلك قال آبن عباس : علّمه أسماء كل شيء حتى الجَفْنة والمِحْلَب . وروى شَيْبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمّى كل شيء بآسمه وأنحى[2] منفعة كل شيء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى في هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا . وقال الطبريّ : علّمه أسماء الملائكة وذرّيته؛ وآختار هذا ورجّحه بقوله : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ . وقال آبن زيد : علّمه أسماء ذرّيته كلهم . الربيع بن خُثَيْم[3] : أسماء الملائكة خاصة . القُتَبيّ : أسماء ما خلق في الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأوّل أصح، لما ذكرناه آنفًا ولما نبيّنه إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) أنحى : صرف . وفي الطبري : « ألجأ » .
(٣) في التقريب بضم المعجمة وفتح المثلثة . وفي الخلاصة « خيثم » بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

Marfat.com

الرابعــة — وآختلف المتأولون أيضا هـل عرض على الملائكة أسماء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال آبن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض؛ أي أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع. وفي الحديث "إنه عَرَضهم أمثال الذَّرّ". وقال آبن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفي حرف آبن مسعود: «عرضهنّ»؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث. وفي حرف أُبَيّ: «عرضها». مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال في الأسماء إنها التسميات فاستقام على قراءة أُبَيّ «عرضها». وتقول في قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدلّ على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: «عرضهم». وقال في «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن و إن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسبب وذلك أسماؤها. قال آبن عطية: والذي يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا آسمه كذا. وهذا آسمه كذا. وقال المـاوَرْدِيّ: وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين. ثم في زمن عرضهـم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني — أنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامســة — وآختلف في أول من تكلم باللسان العربيّ؛ فرُوِيَ عن كَعْب الأحبار: أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال: أول مَن تكلّم بالعربيـة جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه الســلام وألقاها نوح على لسان آبنه سام؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب. ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو آبن عشر سنين". وقد رُوى أيضا: أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد روى غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

Marfat.com

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له؛ قال الله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا» واللغات كلّها أسماء فهى داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛ قال صلى الله عليه وسلم: "وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة" وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربيّـة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه الســلام . وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم . وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل؛ على ما تقدّم، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر . ولغة تَميم وبعض قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى :

هَؤُلَا ثم هَؤُلَا كلًّا أعطيـ * ـتَ نِعالًا مَحْذُوَّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول : هولاء؛ فيحذف الألف والهمزة .[1]

السادســـة — قوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى؛ قاله المبرّد . ومعنى «صادقين» عالمين؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا : «سبحانك» ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : «كَمْ لَبِثْتَ» فلم يشترط عليـه الإصابة، فقـال ولم يُصب ولم يُعنَّف؛ وهذا بيّن لا خفاء فيـه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى «إن كنتم» : إذ كنتم، وقالا : هـذا خطأ . و «أَنْبِئُونِي» معناه أخبرونى . والنبأ : الخبر؛ ومنه النبيء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .[2]

السابعـــة — قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما

(١) فى البحر لأبى حيان «بحذف ألف ها وهمزة أولاء وإقرار الواو التى بعد تلك الهمزة» .

(٢) فى قوله تعالى : «ويقتلون النبيين بغير الحق ...» وراجع ص ٤٣١ من هذا الجزء .

Marfat.com

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة[1]، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك . وهـذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . و « ما » فى « ماعلمتنا » بمعنى الذى ؛ أى إلا الذى علّمتنا؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـــة — الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهم فيَضلّون ويُضلّون . وأما ماورد من الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروى البُسْتِيّ[2] فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ البقاع شرّ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرّها الأسواق . وقال الصّدّيق للجَدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد ؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسئل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن مسئلة فقال : لا علم لى بها؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعمَ ماقال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدارميّ فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عقيل

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨ ؛ (٢) فى نسخة « النسائى » .

Marfat.com

يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيَّة(١) قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدّين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَج ؟ فقال له القاسم : وعَمَّ ذاك ؟ قال : لأنك آبن إمَامَىْ هُدًى : آبنُ أبي بكر وعمر(٢). قال يقول له القاسم : أقْبَحُ من ذاك عند مَن عَقَل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت آبن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يُوَرِّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهَيْثَم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في آثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف في العلم . قال آبن عبد البَرّ : من بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت آبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقلّ من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذى يُقسِي القلب ويُورث الضِّغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضي الله عنه وقد قال : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أُوقيّة ولو كانت بنت ذي العَصَبة — يعني يزيد بن الحُصين الحارثي — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال ؛ فقامت آمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس(٣) فقالت : ماذلك لك !

---

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبي بكر رضى الله عنه ؛ تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو آبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جدّه الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وآبن عمر جدّه الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) الفطس (بالتحريك) : آنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

Marfat.com

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فقال عمر : آمرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وَكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القُرَظي قال : سأل رجل عليًّا رضي الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علي : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذي علمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْرَوان فأخذت على بكر آبن حماد حديثَ مُسَدّد ، ثم رحلتُ إلى بغداد ولقيت الناس ، فلما آنصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ مِن مُجتابِي النِّمار"[1] فقال : إنما هو مُجتابي الثِّمار ؛ فقلتَ إنما هو مُجتابي النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لي : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هـذا . ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان في المسجد — فإن له بمثل هذا علمًا ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابي النِّمار ، كما قلت وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة ، جيوبهم أمامهم[2] . والنِّمار جمع نَمِرة[3] . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه : رَغِم أنفي للحق ، رَغِم أنفي للحق . وآنصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحــدّثتُ في مجلس * تنـاهى حديثي إلى ما علمتُ
ولم أَعْــدُ علمي إلى غيره * وكان إذا ما تنـاهى سكتْ

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ « سبحان » منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّي عن معنى نُسَبّحك تسبيحًا . وقال الكسائي . هو منصوب على أنه نداء مضاف . و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى . و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ؛ و بينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكِم ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرف عن مُفعِل إلى فَعيل ، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَميع ومُؤْلِم إلى أليم ؛ قاله آبن

(١) مشققة مخططة . (٢) مجتابي النمار ؛ أي لابسيها . يقال : آجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٣) وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر .

Marfat.com

الأنبارى. وقال قوم: «الحكيم» المانع من الفساد؛ ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد. قال جرير:

أَبَنِى حَنِيفَةَ أَحْكِموا سُفهاءَكم * إنّى أخافُ عليكمُ أن أغْضَبَا

أى آمنعوهم من الفساد. وقال زهير:

القائد الخيلَ مَنْكُوبًا(١) دوابرُها * قد أُحْكِمَتْ حَكَمَاتِ القِدِّ والأَبَقَا

القدّ: الجلد. والأَبَق: القُنَّب(٢). والعرب تقول: أَحْكِم اليتيم عن كذا وكذا؛ يريدون منعه. والسورة المُحْكَمَة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحِكمة من هـذا؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل. ويقال: أَحْكَمَ الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد. فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير.

قوله تعـالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلو شأنه؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه. فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له، مختصًّا بالعلم.

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفى الحديث: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًا لطالب العلم" أى تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل(٣) العلم خاصّة

---

(١) النَّكب: أن ينكُب الحجر ظفرا أو حافرا. والدوابر: أواخر الحوافر. يقول: يقود الخيل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها. (٢) القنب (بكسر القاف وضمها): ضرب من الكتان. (٣) فى نسخة من الأصل: «لأجل».

Marfat.com

من بين سائر عيال الله[1]؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدّبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذلّلت إعظامًا للعلم وأهله، ورضًى منهم[2] بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربّانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثة — آختلف العلماء من هذا الباب، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين: فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. آحتجّ من فضّل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ». «لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ». وقوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ[3]» وقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ[4]». وفي البخاري: «يقول الله عز وجل: "من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"». وهذا نص. آحتجّ من فضل بني آدم بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ[5]» بالهمز، من برأ الله الخلق. وقوله عليه السلام: "وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًى لطالب العلم" الحديث. أخرجه أبو داود، وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة؛ وليس ها هنا شيء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشيعة: إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم: المسجود له لا يكون أفضل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) في نسخ من الأصل: «عمال الله». (٢) في نسخة: «ورضى الله عنهم ... الخ».
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦ (٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٩ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥

Marfat.com

لا يكون إلا لله تعالى؛ لأن السجود عبادة، والعبادةُ لا تكون إلا لله ، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد، وهذا واضح . وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ دليل على أن أحدا لا يعـلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعـالى ؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام » إن شاء الله تعالى عند[1] قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» حكاه مكّى والمـاوَرْدِىّ . وقال الزَّهراوىّ : ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم. ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جُبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفســه من الكبر والمعصية . قال ابن عطية : وجاء « تكتمون » للجماعة ؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب واتساعها ؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفِيهٌ منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[2]» و إنما ناداه منهم عُيَيْنَة ، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينـار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : إن الله عز وجل لـمـا خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء، قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم ، [فقالوا[3] : و] ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقا إلا كنا أكرم عليه منه . و «ما» فى قوله : «ما تبدون» يجوز أن ينتصب بـ«أعلم» على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به«ما» فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله، وقد تقدّم[4].

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠٩ (٣) زيادة من تفسير الطبرى .

(٤) راجع ص ٢٧٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وإِذْ قُلْنَا﴾ أى وآذكر . وأما قول أبى عبيدة : إنّ «إذْ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم[1] . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعـل الجماعة تفخيمًا و إشادةً بذكره . والملائكةُ جمع مَلَك؛ وقد تقـدّم[2] . وتقدّم القول أيضا فى آدم وآشتقاقه[3] فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعا لضم الجيم فى « آسجدوا » . ونظيره « الحمدُ لله » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿آسْجُدُوا﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمْـعٍ تَضِلّ البُـلْقُ فى حَجَراته ٭ ترى الأُكْمَ فيهـا سُجَّدًا للحوافِرِ

الأُكْم : الجبال الصغار . جعلها سُجَّدًا للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعَيْنٌ ساجدة؛ أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض . قال آبن فارس : سَجَد إذ تطامن، وكلّ ما سجد فقد ذلّ . والإسجاد : إدامة النّظر . قال أبو عمرو : وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال[4] :

فُضُـولَ أزِمّتِهـا أسجدتْ ٭ سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

٭ وقلنَ له أسْجِدْ لِليْـلَى فأسجدَا ٭

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهمُ الإسجاد : دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال :

٭ وافَى بهـا كدراهم الإسجاد ٭

---

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢

(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩ (٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما آرتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

Marfat.com

الثالثــة — آستدلّ من فضّل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم . والجواب أن معنى «آسجدوا لآدم» آسجدوا لى مستقبلين وَجْه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ » أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عنـد إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أن المسجود له لا يكون أفضـلَ من الساجد بدليل القِبْـلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له؟ قيل له : إن الملائكة لمـا آستعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرَهم بالسجود لغيره ليريهم آستغناءه عنهم وعن عبادتهم. وقال بعضهم : عيّروا آدم وآستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّنع به فأمروا بالسجود له تكريمًا . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا » لمـا قال لهم : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَـةً » وكان علم منهـم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هـذا، فقال لهم : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفةً ، فإذا نفختُ فيه من روحى فقعوا له ساجدين . والمعنى : ليكون ذلك عقوبةً لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد آستدلّ آبن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » (1) . وأمّنه من العـذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » (2) . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ » (3) . قيل له : إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل : لَعَمْرِى . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدرًا من العرش والجنان السّبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأمّا قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام: « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة ، والله أعلم .

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ (2) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٢ (3) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢

Marfat.com

الرابعــة ــ وآختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد آتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة؛ فقال الجمهور : كان هــذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد فى الصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود فى العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدم كالقِبْلة لنا . ومعنى «لآدم» : إلى آدم؛ كما يقال صلّى للقبْلة؛ أى إلى القبلة . وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقًى على أصل اللّغــة؛ فهو من التذلّل والآنقياد؛ أى آخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل . ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى آمتثلوا ما أمروا به

وآختُلِف أيضا هل كان ذلك السجود خاصًّا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى ، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام ؛ لقوله تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا[1] » فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين" . روى آبن ماجه فى سُننه والبُسْتِىّ فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمــا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا" فقال: يا رسول الله ، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال :"فلا تفعل فإنى لو أَمَرتُ شيئا أن يسجد لشىء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأةُ حقَّ ربّها حتى تؤدّى حقَّ زوجها حتى لو سألها نفسها وهى على قَتَب لم تمنعه" . لفظ البُسْتِىّ . ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب[2] عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونَهى عن السجود للبشر ، وأمر بالمصافحة .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤

(٢) القتب : رحل صغير على قدر السنام .

Marfat.com

قلت : وهذا السجود المنهيّ عنه قد اتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام[1] لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالةً منه ؛ ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم .

الخامســة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : ابن عباس وابن مسعود وابن جُريج وابن المسيّب وقتادة وغيرهم ؛ وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجّحه الطبري؛ وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلِس بعد. روى سِماك ابن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا. وحكى الماوَرْدي عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنة . وقال سعيد بن جُبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم ؛ وخلق سائر[2] الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكا؛ وروى نحوه عن ابن عباس وقال : اسمه الحارث . وقال شَهْر ابن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجنّ الذين كانوا في الأرض وقاتلهم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخُوطب؛ وحكاه الطبري عن ابن مسعود . والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ»، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» في أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ * إلا الرّقادَ والرقادُ ممنوعْ

واحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة. أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلاً منه ،لا يُسئل عما يَفعل، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة. وقول من قال: إنه كان من جنّ الأرض فسُبِي،

(١) في نسخ من الأصل : « للأقدم » . (٢) في نسخ : « معاشر » .

Marfat.com

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جُند من الملائكة؛ حكاه المهدوىّ وغيره . وحكى الثّعلبى عن ٱبن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السموم ، وخُلقت الملائكة من نور ، وكان ٱسمه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة ٱجتهادا وأكثرهم علمـا ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفًا وعظمة ، فذلك الذى دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما . فإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فٱرْجُه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبْراً . والملائكة قد تُسَمَّى جِنًّا لٱستتارها ؛ وفى التنزيل : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(١) ؛ وقال الشاعر(٢) فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسَخَّرَ من جِنّ الملائِك تِسعةً * قيـامًا لَدَيْه يعمـلون بلا أَجْرِ

وأيضا لمـا كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فٱشتق ٱسمه من ٱسمها ، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل ، مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى . ولم ينصرف ؛ لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء فشبّه بالأعجمية ؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا ٱشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف ؛ قاله الزجاج وغيره .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه ٱمتنع من فعـل ما أُمِر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إذا قرأ ٱبن آدم السجدة [فسجد](٣) ٱعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه — وفى رواية : ياوَيْلِى — أُمِر ٱبن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأُمِرتُ بالسجود فأبَيْتُ فلِىَ النار" . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يأبَى إباءً ، وهو حرف نادر جاء على فَعَـل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحلْق ؛ وقد قيـل : إن الألف مضارِعة لحروف الحلْق . قال الزجاج : سمعت إسماعيـل بن إسحاق القاضى يقول : القول

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤ (٢) هو أعشى قيس ، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان .
(٣) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

عندى أن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار : الاستعظام؛ فكأنه كره السجود فى حقه واستعظمه فى حق آدم ؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهًا لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكبر عبّر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنة مَن [كان](١) فى قلبه مثقالُ حبة من خَرْدل من كِبر" . فى رواية فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه و إبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . و يروى : « وغمص » بالصاد المهملة ، والمعنى واحد؛ يقال : غَمَصه يَغْمِصه غَمْصًا واغتمصه؛ أى استصغره ولم يره شيئا . وغَمَص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولًا قاله ؛ أى عِبته عليه . وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»(٢) . «أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» . «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» فكفّره الله بذلك . فكلّ من سفّه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أول معصية كانت الحسد والكبر، حسَد إبليسُ آدم ، وشح آدم فى أكله من الشجرة . وقال قتادة : حسَد إبليسُ آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهـذا طِينىّ . وكان بدء الذنوب الكِبْر، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار؛ ومنه قوله تعالى : « فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » . وقال الشاعر(٣) :

بتَيْهاءَ قَفْـرٍ والمَطِىّ كأنها * قطا الحَزْن قد كانت فِراخًا بُيوضُها

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٠

(٣) هو ابن أحمر؛ كما فى اللسان مادة « كون » .

Marfat.com

أى صارت . وقال ٱبن فُورَك . «كان» هنا بمعنى صار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهـذا صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : "وإنما الأعمال بالخواتيم" . وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأُعْطِى الرياسة والخِزانة فى الجنة على الاستدراج ؛ كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعطى بَلْعام(١) الاسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ٱبن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ(٢) » أى ٱستكبرت ولا كِبْر لك ، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيدىّ والكبر لى ! فلذلك قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وكان أصل خلقته من نار العِزّة؛ ولذلك حلف بالعزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » فالعزّة أورثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة .

التاسعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايته ؛ خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولىّ ، إذ لو لم يكن وليًّا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنًا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنّا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى؛ لأن الولىّ لله تعالى مَن علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولما ٱتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان ، علم أن ذلك ليس

(١) فى تاريخ ٱبن الأثير والطبرى إنه بلعم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ ٱبن الأثير ج ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٥٠٨ طبع أوربا .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٢٨

Marfat.com

يدلّ على ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعَرِيّ وغيره . وذهب الطَّبَرِي إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم، وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العاشرة — وآختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا، و إن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا في الأرض . وآختلف أيضا هل كفر إبليس جهلًا أو عنادًا على قولين بين أهل السُّنة ، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلًا قال : إنه سُلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادًا قال : كفر ومعه علمه . قال آبن عطية : والكفر [عنادا](١) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ﴾ لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، و بعد إخراجه قال لآدم : آسكن ؛ أى لازم الإقامة وآتخذها مسكنًا، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونًا . والسَّكَن : النار ؛ قال الشاعر :

قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكِّين معروف ، سُمِّيَ به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرّفه وحركته . وسُكَّانُ(٢) السفينة عربيّ ؛ لأنه يُسَكِّنها عن الاضطراب .

(١) زيادة عن تفسير آبن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التي به تعدّل .

Marfat.com

الثانيـــة ــ فى قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون مِلْكا، ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما فى الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة.(١)

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا ٱنقضت مدة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل دارى لك سُكْنَى حتى تموت فهى له حياته وموته، وإذا قال: دارى هذه ٱسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونَحْوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أن الخلاف فى العُمْرَى أقوى منه فى السُّكْنَى. وسيأتى الكلام فى العُمْرَى فى «هود»(٢) إن شاء الله تعالى. قال الحَرْبيّ: سمعت ٱبن الإعرابى يقول: لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شيء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل فى دار لك مدّة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتُّ قبلى رجعتْ إلىّ وإن متُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلُّ واحد منهما موتَ صاحبه؛ ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وَصِيَّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ٱبن ماجه فى سُننه؛ الأوّل رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها" ففى هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى فى الحكم. الثانى رواه ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا رُقْبَى فمن أُرْقِب شيئا فهو له حياتَه ومماتَه". قال: والرُّقْبَى أن

---

(١) فى بعض الأصول: «لا دخول ثواب». (٢) راجع جـ ٩ ص ٥٧

Marfat.com

يقول هو للآخر: منّى ومنك موتا. فقوله: "لا رُقْبى" نهىٌ يدلّ على المنع؛ وقوله: "مَن أُرْقِب شيئًا فهو له" يدلّ على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النَّسائى. وذكر عن آبن عباس قال: العُمْرى والرُّقْبى سواء. وقال آبن المنذر: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العُمْرى جائزة لمن أُعمرها والرُّقْبى جائزة لمن أرقِبها". فقد صحّح الحديثَ آبنُ المنذر؛ وهو حجة لمن قال بأن العُمْرى والرُّقْبى سواء. ورُوى عن علىّ؛ وبه قال الثَّورِىّ وأحمد، وأنها لا ترجع إلى الأوّل أبدا؛ وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَن أرقب شيئا فهو سبيل الميراث.

والإفقار مأخوذ من فَقار الظَّهر. أفقرتك ناقتى: أعرتُك فَقارها لتركبها. وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه. ومثله الإخبال، يقال: أخبلت فلانا إذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير:

هنالك إن يُستَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلوا * وإن يُسْئلوا يُعطُوا وإن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة: العطيّة. والمِنْحة: منحة اللّبن. والمَنِيحة: الناقةُ أو الشاة يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العاريّةُ مُؤدّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضِىّ والزَّعيم غارم". رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ والدّارَقُطْنِىّ وغيرهما، وهو صحيح.

والإطراق: إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلانا فحلَه: إذا طلبه ليضرب فى إبله؛ فأطرقه إياه؛ ويقال: أطرقنى فحلك أى أعرنى فحلك ليضرب فى إبلى. وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طروقا؛ أى قعَا عليها. وطَرُوقة الفحل: أُنثاه؛ يقال: ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيد للضمير الذى فى الفعل؛ ومثله «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ». ولا يجوز آسكن وزوجك، ولا آذهب وربك، إلا فى ضرورة الشعر؛ كما قال:

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى * كنعاج المَلا تَعسَّفْنَ رملا (١)

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة. و«زهر» جمع زهراء، وهى البيضاء المشرقة. والتهادى: المشى الرويد الساكن. والنعاج: بقر الوحش. «تعسفن»: ركبن.

Marfat.com

فـ « وزُهْر » معطوف على المضمر فى « أقبلتْ » ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعْد : قم وزيد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن « زَوْجٌ » بغير هاء ، وقد تقدّم القول فيه (١) . وقد جاء فى صحيح مسلم : « زوجة » ، حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : " يا فلانُ هذه زوجتى فلانة " . فقال يارسول الله ، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من الإنسان مَجْرى الدم " . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام ، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه (٢) من غير أن يَحُسّ آدم عليه السلام بذلك ؛ ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على آمرأته ؛ فلما آنتبه قيل له : من هذه ؟ قال : آمرأة ؛ قيل : وما آسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل : ولِمَ سُمِّيت آمرأة ؟ قال : لأنها من المرء أُخذت ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خُلقت من حيّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم ؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه ياحوّاء ؟ قالت : لا ؛ وفى قلبها أضعافُ ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صَدَقت آمرأة فى حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء . وقال آبن مسعود وآبن عباس : لما أُسْكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشًا ، فلمّا نام خُلقت حوّاء من ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها و يأنس بها ؛ فلما آنتبه رآها فقال : من أنت ؟! قالت : آمرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إليّ ؛ وهو معنى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا (٣) » . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء ؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة خُلقت من ضلع — فى رواية : و إن أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

---

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .　　(٢) الضلع ، كعنب وجذع .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧

Marfat.com

لك على طريقة واحدة فإن آستمتعت بها آستمتعت [بها](١) وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها " . وقال الشاعر :

هى الضِّلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها * ألَا إنّ تقـويم الضلوع آنكسارها
أتجمـع ضَعفًا وآقتـدارًا على الفـتى * أليس عجيبا ضـعفُها وآقتـدارها

ومن هـذا الباب آستدل العلمـاء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيـه علامات النساء والرجال من اللِّحية والثَّدى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المـرأة أُعْطى نصيب رجل — روىٌ ذلك عن علىّ رضى الله عنـه — لخلق حوّاء من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى(٢) .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ الجَنَّة ﴾ الجنة : البُستان ، وقد تقدّم القول فيها(٣) . ولا التفات لمـا ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فى جنة الخُلْد وإنما كان فى جنة بأرض عَدَن . وآستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لمـا وصل إليه إبليس، فإن الله يقول : « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(٤) » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا(٥) » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَـلَامًا سَلَامًا(٦) » . وأنه لا يخرج منهـا أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(٧) » . وأيضا فإن جنـة الخُلْد هى دار القُدْس ، قُدِّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا . وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب ، وأُخرِج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخُلْد والمُلْك الذى لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعـالى عَرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة، لم يُفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِىَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى: أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ٦٥ (٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٨٢ (٦) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٦
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٣٤

Marfat.com

المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لرد على موسى ؛ فلمـا سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أنّ الدار التي أخرجهم الله عزّ وجلّ منهـا بخلاف الدار التي أُخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منـه بعد المعصية ، وقد دخلها النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقًّا . وأما قولهم : إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعـالى من الخطايا فجهلٌ منهم ؛ وذلك أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وهي الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُـوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي ؛ وكذلك دار القُدْس . قال أبو الحسن بن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام ، فلا معنى لقول مَن خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخُـلْد وهو في دار الخلد ؛ فيُعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم وهو في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل ، فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلاً ، على ما قال أبو أمامة على ما يأتي .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور «رَغَدًا» بفتح الغين . وقرأ النَّخَعي وابن وثّاب بسكونها . والرَّغَد : العيش الدارُّ الهنيّ الذي لا عَناء فيه ؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث في عيش رَغَد (١)

ويقال : رَغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغـين وكسرها) . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا في رَغَد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصـدر محذوف . وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث ، كلّها لغات ، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما في تفسير أبي حيان والطبري .

Marfat.com

السابعـــة ـــ قوله تعـــالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ؛ لأن الإباحة فيه وقعت[1] . قال آبن العربى : سمعت الشاشىّ فى مجلس النَّضْر [بن شُميل][2] يقول : إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه . وفى الصحاح : قَرُب الشيءُ يقرُب قُرْبًا أى دنا . وقَرِبته (بالكسر) أقْرَبه قُرْبانا أى دنوت منه . وقَرَبت أقْرُب قِرابة ـــ مثل كتبت أكتب كتابة ـــ إذا سِرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة ؛ والآسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ : ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لوِرْد الغد . وقال آبن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمـا أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال آبن عطية : وهذا مثالٌ بيِّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تقرَبا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلَّد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا يُنْهى . والدليل على هذا قوله تعالى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فدلّ على خروجه منها .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ الآسم المبهَم يُنعت بمـا فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهـذه الشجرة . وقـرأ آبن مُحَيْصِن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل ؛ لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ولذلك آنكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(١) أى من غير تلك الشجرة .

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفى هذه الحكاية عن آبن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » . والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسـين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سـنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .
أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .
وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

Marfat.com

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة؛ ثلاثُ لغات، وقرئ « الشِّجرة » بكسر الشين . والشَّجرة والشَّجرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْراء أى كثيرة الأشجار ، وواد شَجِير؛ ولا يقال : واد أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء ، وطَرَفة وطَرْفاء ، وحَلَفة وحَلْفاء . وكان الأصمعى يقول فى واحد الحَلْفاء: حَلِفة؛ بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشَّجراء واحد وجمع ، وكذلك القَصْباء والطَّرْفاء والحَلْفاء . والمَشْجَرة : موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهرى .

التاســعة — وآختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهى عنها فأكل منها ؛ فقال آبن مسعود وآبن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر . وقال آبن عباس أيضا وأبو مالك وقَتادة : هى السُّنْبُلة ، والحبةُ منها ككُلَى البقر، أحْلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه . وقال آبن جُريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التِّين ، وكذا روى سعيد[(1)] عن قتادة؛ ولذلك تُعَبَّرُ فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السُّهَيْلى . قال آبن عطية : وليس فى شئ من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها . وقال القُشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنة .

العـاشرة — وآختلفوا كيف أكل منهـا مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليهـا ، فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غرّه [بالأخذ[(2)]] بالظاهر . قال آبن العربى : وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنِث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لاحِنْث فيه . وقال

(١) فى نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة .　　(٢) الزيادة من آبن العربى .

Marfat.com

مالك وأصحابه : إن ٱقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وإن ٱقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه وحنث بأكل غيره ؛ وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

وقد ٱختلف علماؤنا فى فرع من هذا، وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال فى الكتاب : يحنَث ؛ لأنها هكذا تؤكل . وقال ٱبن المَوّاز : لا شىء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة وإنما أكل خبزا فراعى الاسم والصفة . ولو قال فى يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما ٱشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأولا النهى على الندب . قال ٱبن العربى : وهذا وإن كان مسئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا ؛ لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » (١) . وقال ٱبن المُسيّب : إنما أكل آدم بعد أن سَقَته حوّاء الخمر فسكر وكان فى غير عقله . وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال ٱبن العربى : وهذا فاسد نقلًا وعقلًا ، أما النقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : «لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض وٱقتحام الجرائم .

قلت : قد ٱستنبط بعض العلماء نبوة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ» فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جل وعز . وقيل : أكلها ناسيًا ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد .

قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى آيه بذلك حتمًا وجزمًا فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » (١) . ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعُلُو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضييعًا صار به عاصيًا ؛ أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت فى كِفّة ميزان ووُضع حِلْم آدم فى كِفّة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ وص ٢٥٢

Marfat.com

قلت : قولُ أبي أُمامة هذا عمومٌ في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان أوفر الناس حلمًا وعقلًا. وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأوّل أيضا حَسَن ؛ فظنّا أن المراد العَين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبًا وحريرًا فقال : "هذان حرامان على ذكور أمتي" . وقال في خبر آخر : "هذان مهلكان أمتي" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقـال : إن أوّل مَن أكل من الشجرة حـوّاء بإغواء إبليس إياها — على ما يأتي بيانه — وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهي أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا — «حُبّك الشيء يُعمِي ويُصِم» — فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد، فألحّ على حوّاء وألحّت حوّاء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سَلِمْتَ أنت؛ فأكلتْ فلم يضرها، فأتت آدم فقالت : كُل فإني قد أكلتُ فلم يضرّني ؛ فأكل فبـدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » بجمعهما في النّهي ؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهيّ عنه منهما جميعًا ، وخَفِيت على آدم هذه المسئلة ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان؛ إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقـد ٱختلف علمـاؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ٱبن القـاسم : لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا بٱجتماعهما في الدخول ؛ حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحنون . وقال ٱبن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث؛ كما لو حلف ألّا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتطلُق التي دخلت وحدها؛ لأن دخول

Marfat.com

كلّ واحدة منهما شرطٌ فى طلاقها أو عتقها. قال ٱبن العربى: وهذا بعيد؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطًا إجماعًا .

قلت : الصحيح الأول، و إن النّهى إذا كان معلّقًا على فعلين لا تحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار، فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نَهْىٌ لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه ؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا، فلما أكلت لم يصبها شىء ؛ لأن المنهىّ عنه ما وُجد كاملًا . وخَفِىَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» . وقيل: نسى قوله : « إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ » . والله أعلم .

الثـانية عشرة ــ وٱختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء ــ صلوات الله عليهم أجمعين ــ صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها أم لا ــ بعد ٱتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رزيلة فيها شَيْن ونقص إجماعًا عند القاضى أبى بكر[(1)]، وعند الأستاذ أبى إسحاق[(2)] أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم ــ ؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين : تقع الصغائر منهم . خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهـم معصومون من جميع ذلك ، وٱحتجّوا بمـا وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك فى الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحـاب مالك وأبى حنيفة والشافعى : إنهــم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأنا أُمِرنا باتباعهم فى أفعـالهم وآثارهم وسِيَرهم أمرًا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بٱمتثال أمرٍ لعلّه معصية، لا سيّمـا على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

(٢) هو إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني . وفى الأصول : « عند الأستاذ أبى بكر » وهو تحريف . (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف) .

Marfat.com

الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى : وآختلفوا فى الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونَسَبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بهـا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا؛ وكل ذلك وَرَد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها و إن قَبِل ذلك آحادها؛ وكل ذلك ممـا لا يُزْرِى بمناصبهم، و إنمـا تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهـة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات ؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلو أقدارهم ؛ إذ قـد يؤاخذ الوزير بمـا يثاب عليـه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — و إن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح فى رُتَبهم ، بل قد تلافاهم وآجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم وآختارهم وآصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسـلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظُّلم أصـله وضع الشىء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت . قال النابغة .

وقفتُ فيها أُصَـيْلالًا أسائلها * عَيَّتْ جوابًا وما بالرَّبع مِن أحد
إلا الأوارِىَّ لأيًا ما أُبَيِّنهـا * والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَد (١)

ويُسَمّى ذلك التراب الظَّلِيم . قال الشاعر :

فأصبحَ فى غبراءَ بعـد إشاحةٍ (٢) * على العيش مردودٍ عليها ظَليمُها

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشد به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه المـاء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة . راجع خزانة الأدب فى إعرابه .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

Marfat.com

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه : * ... ظَلّامون للجُزُر[1] *

ويقال : سقانا ظَلِيمة طيّبة ، إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظَلَم وَطْبَه[2] ، إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوب ويُخْرِج زُبْده . واللّبنُ مظلوم وظَلِيم . قال :

وقائـلةٍ ظلمتُ لكم سِـقائى[3] * وهـل يَخْفَى على العَكَدِ الظَّلِيمِ

ورجل ظَلِيم : شديد الظلم . والظلم : الشرك؛ قال الله تعالى : « إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[4] » .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حُذفت النون من « كُلَا » لأنه أَمْر، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذّ. قال سيبويه : من العرب من يقول أُؤْكُل ؛ فيُتِمّ . يقال منه : أَكَلْت الطعـام أَكْلًا ومأكَلًا . والأَكْلة (بالفتح) : المرّة الواحدة حتى تشبـع . والأُكْلة (بالضم) : اللُّقْمة؛ تقول : أكلت أُكْلَةً واحدةً ؛ أى لُقْمة، وهى القُرْصة أيضـا . وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك، أى طُعْمَةٌ لك . والأُكُل أيضـا ما أُكِل . ويقال : فلان ذو أُكُلٍ ؛ إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع . ﴿ رَغَدًا ﴾ نعتٌ لمصـدر محذوف ؛ أى أَكْلًا رَغَدًا . قال ابن كَيْسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : « رَغَدًا » أى لا حساب عليهم . والرّغد فى اللغـة : الكثير الذى لا يُعَنِّيـك؛ ويقال : أرغد القوم؛ إذا وقعوا فى خِصْب وسَعَة . وقد تقدّم[5] هذا المعنى . و﴿ حَيْثُ ﴾ مبنية على الضّم ؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضُمّت . قال الكسائى : لغـة قيس وكِنانة الضّم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسـد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضـع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[6] » وتُضمّ وتُفتح . ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من « هـذه » بدل من ياء الأصل؛ لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها

---

(١) عجز بيت لابن مقبل ، وهو بتمامه :

عاد الأذلّة فى دار وكان بها * هُرْتُ الشّقاشق ظلّامون للجزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٣) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٦٢ (٥) راجع المسألة السادسة ص ٢٠٣ من هذا الجزء . (٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف ، و ٤٤ سورة القلم .

Marfat.com

إلا هاء « هــذه » . ومن العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتى هنــد . وحكى سيبويه : هذه هند ؛ بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل بن عَبّاد قال : كان آبن كَثير وآبن مُحَيْصِن لا يُثبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة « رَغَدًا » بفتح الغين . وروى عن آبن وثّاب والنَّخَعِى أنهما سكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفرّاء قال يقال : هذه فعلت وهذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال . وهــذِ فعلت ، بكسر الذال من غير إلحــاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تافعلت . وأنشد :

خَلِيلَىَّ لَوْلا ساكنُ الدّارِ لم أُقِمْ * بِتَا الدّارِ إلّا عابرَ آبنِ سـبيل

قال آبن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزلة ذى بإسقاط ها من هذى، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء: مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها ؛ لأن الآسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿فتكونا﴾ عطف على «تقربا» فلذلك حُذفت النون . وزعم الجَرْمى[1] أن الفاء هى الناصبة ؛ وكلاهما جائز .

قوله تعـالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة « فَأَزَلّهما » بغير ألف، من الزَّلّة وهى الخطيئة ؛ أى آستزلّهما وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزالهما » بألف ، من التَّنحية ؛ أى نحّاهما . يقال: أزلته فزال . قال آبن كَيْسان : فأزالهما من الزوال؛ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى، إلّا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزللته فزَلّ . ودلّ على هذا قولُه تعالى : « إِنَّمَا آسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا[2] » ، وقوله :

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم ؛ لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣

Marfat.com

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزَّلَل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه. وقد قيل: إن معنى أزلهما مِن زلّ عن المكان إذا تنحّى؛ فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال. قال آمرؤ القيس:

يُزِلّ الغـــلامَ الخِفَّ عن صَهَواته * ويُلْوِى بأثواب العَنيف المثقَّـــلِ (١)

وقال أيضا:

كُمَيتٍ يُزِلّ اللِّبْدَ عن حال مَتْنِه * كما زلّت الصَّـــفْواء بالمتــنزِّلِ (٢)

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله: «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض؛ لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة فى الأرض. ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أُبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل آزداد سُخْنة (٣) عَين وغَيظ نفس وخَيبة ظنّ. قال الله جلّ ثناؤه: «ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» (٤) فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارًا له فى داره؛ فكم بين الخليفة والجار! صلى الله عليه وسلم. ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّى إغواء آدم؛ وآختلف فى الكيفية، فقال آبن مسعود وآبن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنَبِّه: دخل الجنة فى فم الحيّة وهى ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

---

(١) الخف (بالكسر): الخفيف. والصهوة: موضع اللبد من ظهر الفرس. ويلوى بها: يذهب بها من شدة عدوه. والعنيف: الذى لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل. والمثقل: الثقيل.

(٢) الكميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. والحال: موضع اللبد من ظهر الفرس. والصفواء (جمع صفاة): الصخرة الملساء. والمتنزل: الذى ينزل عليها فيزلق عنها.

(٣) سخنت عينه: نقيض قرت. (٤) راجع ج ١١ ص ٢٥٧

Marfat.com

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها لجاء بها إلى حوّاء فقال : آنظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها ! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت؟ فقال : أنا هذا يارب؛ قال : ألا تخرج؟ قال أستحى منك يارب؛ قال : آهبط إلى الأرض التى خُلقت منها . ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أُمرنا بقتلها ، على ما يأتى بيانه . وقيل لحوّاء : كما أدْمَيْت الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سَفيهة وقد كنت حَليمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من آبن آدم مجرى الدم " . والله أعلم . وسيأتى فى الأعراف[1] أنه لما أكل بقى عُريانًا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبَكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فآستتر به، فبُلِىَ بالعُرْى دون الشجر . والله أعلم . وقيل : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثــة — يُذكر أن الحيـة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكّدت العـداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسك . روى آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم " فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لها : أدخلينى الجنة وأنت فى ذمّتى؛ فكان آبن عباس يقول : أخفِرُوا[2] ذِمّة إبليس . وروت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[3] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت : سمعت

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ . (٢) أى آنقضوا عهده وذمامه . (٣) فى التقريب : « بفتح أوّلها وتشديد الراء المهملة مع المد » . وفى أسد الغابة : « بفتح السين وإمالة الراء المشدّدة ، وآخره ياء ساكنة » .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقتلوا الحيّات صغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومَن قتلته كان شهيدا" . قال علماؤنا : وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده ؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه في النار أبدًا" . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعــة — روى ابن جُريج عن عمرو بن دينار عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود [(1)] قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بمنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقتلوها" فسبقتنا إلى جُحر فدخلته ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هاتوا بسعفة ونار فاضرموها عليه نارا" . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى ؛ قالوا : فلم يَبق [(2)] لهذا العدو حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيــل : قد رُوى عن إبراهيم النَّخَعِي أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار ، وقال : هو مُثْلَة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعمل على الأثر الذى جاء : "لا تعذّبوا بعذاب الله" فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غار وقد أنزلت عليه : «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فنحن نأخذها من فيه رَطْبَة ، إذ خرجت علينا حيّة ، فقال : "اقتلوها" ، فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها" . فلم يُضرم نارا ولا احتال في قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها ، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنــار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : "وقاها الله شرّكم" أى قتلكم إيّاها "كما وقاكم شرها" أى لَسْعَها .

(1) كذا في جميع نسخ الأصل . وفي غيرها من التفاسير : « عن عبد الله بن مسعود » . ويبدو أن الأصل : « عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله » الخ . (2) الضمير للحديث ؛ أى لم يبق هذا الحديث الخ .

Marfat.com

الخامســة — الأمرُ بقتل الحيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المَخُوفة من الحيات ؛ فما كان منها متحقِّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله ؛ لقوله : " آقتلوا الحيّات وآقتلوا ذا الطُّفْيَتين[(١)] والأبتر فإنهما يَخْطفان البصر ويُسقطان الحَبَل ". فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما . وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضا لظاهر الأمر العام ، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر ، فيستصحب ذلك فيــه ، ولأنه كله مروّع بصورته وبمــا في النفوس من النّفرة عنه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب الشّجاعة ولو على قتــل حيّة " . فشجّع على قتلها . وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا : " آقتلوا الحيات [كلّهنّ][(٢)] فمن خاف ثأرهنّ فليس منى " . والله أعلم .

السادســة — ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذن ثلاثة أيام ؛ لقوله عليه السلام : " إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام " . وقد حمل بعض العلماء هــذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها ؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جنّ غير المدينــة أحدٌ أو لا ؛ قاله آبن نافع . وقال مالك : نهى عن قتــل جِنّان[(٣)] البيوت في جميع البــلاد . وهو الصحيح ؛ لأن الله عز وجل قال : « وإذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ[(٤)] » الآية . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن " وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة ؛ الحديث . وسيأتي بكماله في سورة « الجنّ[(٥)] » إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يُحرج[(٦)] عليه ويُنذر ؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

---

(١) ذو الطفيتين : حية لها خطان أسودان كالطفيتين أي الخوصتين . (٢) الزيادة عن سنن أبي داود .

(٣) جنان (بتشديد النون الأولى ، جمع جان) : ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام ، وهو كثير في بيوت الناس . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠ (٥) راجع جـ ١٩ ص ١ فما بعد .

(٦) في هامش نسخة من الأصل : « التحريج هو أن يقول لها : أنت في حرج — أي في ضيق — إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل » . وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان .

Marfat.com

السابعـــة — روى الأئمة عن أبى السائب مَوْلى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبى سعيد الخُدْرِىّ فى بيته، قال: فوجدته يصلّى، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عَراجِينَ ناحية البيت، فالتفتّ فإذا حيّة، فوثبتُ لأقتلها؛ فأشار إلىّ أن ٱجلس فجلست؛ فلما ٱنصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت نعم؛ فقال: كان فيه فَتًى منّا حديثُ عهد بعُرْس، قال: فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخَنْدَق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله؛ فٱستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظَة". فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع؛ فإذا ٱمرأتُه بين البابين قائمة فأهْوَى إليها بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غَيْرة؛ فقالت له: ٱكفف عليك رمحك، وٱدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فٱنتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتًا، الحيّةُ أمِ الفتى! قال: فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له، وقلنا: ٱدع الله يحييه [لنا][1]؛ فقال: "ٱستغفروا لأخيكم[2] — ثم قال: — إنّ بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذِنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان". وفى طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لهذه البيوت عوامر[3] فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر — وقال لهم: — ٱذهبوا فٱدفِنوا صاحبكم". قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لا يُفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلمًا وأن الجن قتلته به قصاصًا؛ لأنه لو سُلِّمَ أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنما قصد إلى قتل ما سُوِّغ قتل نوعه شرعًا؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه. فالأولى

(١) الزيادة عن صحيح مسلم. (٢) فى صحيح مسلم: «لصاحبكم».

(٣) العوامر: الحيات التى تكون فى البيوت، واحدها عامر وعامرة.

Marfat.com

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وآنتقاما . وقد قتلت سعد آبن عُبادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وُجد ميتًا فى مغتسله وقد آخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قــد قتلنا ســيّد الخز * رَج سعدَ بن عُباده

ورمينـــاه بسهميـ * ـن فلم نُخْط فؤاده

وإنما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقًا يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوِى من وجوه أن عائشةَ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قتلت جانًّا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ، فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت بآثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة؛ فتصدّقت وأعتقت رِقابًا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيّـات التى نَهى النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنـــة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أَحَبُّ إلىّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار؛ وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرِّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام: "ثلاثة أيام". وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات ، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنانى عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

Marfat.com

عليه السلام . وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام ؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـــلوه .

قلت: وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة؛ والحديث يردّه. والله أعلم.

وقد حكى ٱبن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : "أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان — عليه السلام — ألّا تؤذيننا وألّا تظهرنّ علينا .

التاسعـــة — روى جُبير عن نُفير عن أبى ثعلبة الخُشَنِيّ — وٱسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يحـلّون ويظعَنون". وروى أبو الدَّرداء — وٱسمه عُوَيْمر — قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه" .

العاشرة — ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل ٱبتداء ، لأجل إذايته من غير خلاف؛ كالحيّة والعَقْرب والفار والوَزَغ، وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "خمسٌ فواسقُ يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم ..." . وذكر الحديث .

فالحيّة أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فَكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : "ٱقتلوها ولو كنتم فى الصلاة" يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة[1] نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهذا من نوع ما يُرْوَى فى الحية . ورُوِى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال :"مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سام أبرص .

Marfat.com

قتل كافرا ". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " مَن قَتَل وَزَغة فى أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك " وفى رواية أنه قال : " فى أوّل ضربة سبعون حسنة " .

والفارة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخُدْرِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يقتل المُحْرِمُ الحيّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُع العادى والكلب العقور والفُوَيْسقة ". وآستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فَتِيلةَ لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبيّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة . هذا كلّه فى معنى الحيّة؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى « المائدة »(1) وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ حُذفت الألف من « آهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحُذفت الألف من « قلنا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصَفّى عن أبى حَيْوَة ضمّ الباء فى « آهبطوا » ، وهى لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعدّى أن يأتى على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان؛ فى قول آبن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْديب فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(2) ومعه ريح الجنة فعلِق بشجرها وأوديتها فآمتلأ ما هناك طِيبا؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع؛ فأورث ولده الصلع . وفى البخاريّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله آدم

(1) راجع جـ ٦ ص ٣٠٣ (2) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : « راهون » .

Marfat.com

وطوله ستون ذراعا" الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . واهبطت حوّاء بجُدّة وإبليس بالأُبُلّة[(١)]، والحيّة ببَيْسان[(٢)]، وقيل : بسِجِسْتان[(٣)] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبِدّ[(٤)] الذى يأكلها و يفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحياتِ؛ ذكره أبو الحسن المسعودى.

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ «بعضكم» مبتدأ ، «عدوّ» خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم. وحذفت الواو من و «بعضكم» لأن فى الكلام عائدا، كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعْدو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصُّراح . وقيل : هو مأخـوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يَعْدُوك هـذا الأمر؛ أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوّا لمجاوزة الحـد فى مكروه صاحبه؛ ومنه العَـدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشىء؛ والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ و إن كان صحيحا معنًى . يدلّ عليه قوله عليـه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه آتق الله فينا فإنك إذا آستقمت آستقمنا و إن آعوججت آعوججنا". فإن قيل: كيف قال « عدوّ » ولم يقـل أعداء؛ ففيه جوابان . أحدهما : أن بَعْضًا وكُلّا يُخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن؛ قال الله تعالى: « وَكُلُّهُمْ ءاتِيهِ يَوْمَ آلْقِيَامَةِ فَرْدًا[(٥)] » على اللفظ ، وقال تعـالى : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[(٦)] » على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجل : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[(٧)] » بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ آلْعَـدُوُّ[(٨)] » . وقال آبن فارس : العدوّ آسم جامع للواحد والآثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحرى .

(٢) بيسان : بلدة بمرو و بالشام وموضع باليمامة .

(٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : آسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) .

(٤) العربد (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى .

(٥) راجع ج ١١ ص ١٦٠

(٦) راجع ج ١٣ ص ٢٤١

(٧) راجع ج ١٠ ص ٤٢٠

(٨) راجع ج ١٨ ص ١٢٥

Marfat.com

الثالثــة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظًا للمحْنة . والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قـد ظهر من الحكمة الأزليّة فى ذلك ، وهى نشر نَسـله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم ، ورتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِىّ ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . ولله أن يفعل مايشاء . وقد قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهـذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقـد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض . وإنمـا قلنا إنمـا أهبطه بعد أن تاب عليـه لقوله ثانية : « قُلْنَا اهْبِطُوا » وسيأتى[1] .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ابتـداء وخبر ؛ أى موضـع استقرار . قاله أبو العالية وابن زيد . وقال السُّدّىّ : « مُسْتَقَرّ » يعنى القبور .

قلت : وقول الله تعـالى : « جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً »[2] يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع مايُستمتع به من أكل ولُبس وحيـاة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمَتّع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قـبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليـلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ اختلف المتأوّلون فى الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهـذا قول من يقول : المستقرّ هو المقام فى الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقرّ هو القبور . وقال الربيع : « إلى حين » إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كابِى الرَّماد[3] عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه * حِينَ الشتاءِ كحَوْضِ المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِفَ الحوض لَقَفًا ؛ أى تهوّر من أسفله واتّسع . وربمـا أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزَة :

العاطفـون تَحِين ما مِن عاطفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ

(١) ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٨ (٣) كابى الرماد : أى عظيم الرماد .

Marfat.com

والحين أيضـا : المدّة ؛ ومنه قوله تعـالى : « هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(١) .
والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ »(٢) . قال ٱبن عرفة : الحين
القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ»(٣) أى حتى تفنى
آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »(٤) أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛
وقيل : بل غُدْوَةً وعَشِيًّا . قال الأزهرىّ : الحين ٱسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها
طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتّة . قال : والحين
يوم القيامة . والحين : الغُدْوَة والعَشِيّة ؛ قال الله تعـالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ »(٥) . ويقال : عاملته محاينةً ؛ من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حينًا .
وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَيْنَةُ :

وإنّ سُلُوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولاحان حينُها

السابعـــة — لمـا ٱختلف أهل اللسان فى الحين ٱختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛
فقال الفـرّاء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه ، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه :
« تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا »(٥) ستة أشهر. قال ٱبن العربى : الحين المجهول لا يتعلق به حُكم ؛
والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف ؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك
يرى فى الأحكام والأيمـان أعمّ الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط
فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا ، وليس فيـه نص
عن صاحب الشريعة ، وإنمـا المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغةً . فمن نَذَر أن
يصلّى حينًا فيُحمل على ركعة عنـد الشافعى ؛ لأنه أقل النافلة ، قياساً على ركعة الوتر. وقال
مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل . وذكر ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد
فى أحكامه : أن من حلف ألّا يكلم فلانا حينًا أو لا يفعل كذا حينًا ، أن الحين سنة . قال :
وٱتفقوا فى الأحكام أنـ من حلف ألّا يفعل كذا حينًا أو لا يكلّم فلانا حينًا ، أن الزيادة
على سنة لم تدخل فى يمينه .

(١) راجع جـ ١٩ ص ١١٦ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٤

Marfat.com

قلت : هذا الاتفاق إنما هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : من حاف ألا يفعل شيئا إلى حين أو زمان أو دهر، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشَّعْبى وعَبِيدة فى قوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيد : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا . وقال: لا نُحنثه أبدًا، والوَرَع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثَور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعله لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعىّ تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغة لمعنًى معين . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : «إلى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها ؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ تلقّى قيل معناه : فَهِم وفَطِن . وقيل : قَبِل وأخذ، وكان عليه السلام يتلقّى الوَحْى؛ أى يستقبله ويأخذه ويتلقّفه . تقول: خرجنا نتلقّى الحجيج ؛ أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّى تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّى مِن التلقّن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنما يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنّى مِن تظنّن، ونقصّى من نقصّص. ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك ؛ ولهذا لا يقال : تقبّى مِن تقبّل ، ولا تلقّى مِن تلقّن ؛ فاعلم . وحكى مكىّ أنه ألهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولها تعلّمه لها وعمله بها .

Marfat.com

الثانيـــة ــ وٱختلف أهل التأويل في الكلمات ؛ فقال ٱبن عباس والحسن وسعيد ٱبن جبير والضحاك ومجاهد هي قوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »(١) . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهُمّ لا إلٰهَ إلّا أنت ربّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوبا على ساق العرش « محمد رسول الله » فتشفّع بذلك ؛ فهي الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والاستغفار والحزن . قال ٱبن عطية : وهذا يقتضي أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب ؛ فقال : يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي »(٢) . وقال يونس : « لا إِلٰهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »(٣) . وعن ٱبن عباس ووهب بن مُنَبّه : أن الكلمات « سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فٱغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فتُبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم » . وقال محمد بن كعب هي قوله : « لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فتُبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فٱرحمني إنك أنت الغفور الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فٱرحمني إنك أرحم الراحمين » . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمد لله » . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم(٤) :

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أي قَبِل توبته، أو وفّقه للتوبة . وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم جمعة ؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد : رجع إلى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع ؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٦١ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٢
(٤) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

الرابعـــة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له فى الذنب بإجماع، وقد قال: «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» و «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» . فالجواب : أن آدم عليه السلام لما خوطب فى أوّل القصة بقوله : « ٱسْكُنْ» خصّه بالذكر فى التلقّ ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تُذكر، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ» . وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا »[1] أى التجارة لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما، والمعنى متقارب . وقال الشاعر[2] :

رَمانى بأمرٍ كنتُ منه ووالدِى * بريئًا ومن فوق الطَّوِىّ[3] رمانِى

وفى التنزيل : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »[4] فحذف إيجازا وآختصارا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التواب، وتكرر فى القرآن معرّفا ومنكرا وآسما وفعلا . وقد يُطلق على العبد أيضا تواب؛ قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ »[5] . قال آبن العربى : ولعلمائنا فى وصف الربّ بأنه تواب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز فى حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدْعَى به كما فى الكتاب والسُّنّة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقىّ لله سبحانه وتعالى، وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك . وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع فى قلب المسىء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ . (٢) هو عمرو بن أحمر الباهلى . (٣) الذى فى شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمرى : « وصف فى البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة فى بئر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما » . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ . (٥) راجع جـ ٣ ص ٩١ .

Marfat.com

السادســـة ــ لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى : تائب، آسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليــه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليــه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان فى اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح فى هذا الباب، على ما بيّناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ »(١) . وقال: « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »(٢) . وإنما قيل لله عز وجل : توّاب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعـــة ــ اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التّوبة ؛ لأنّ الله سبحانه وتعـالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافا للمعتزلة ومَن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهــذا الأصل العظيم فى الدّين « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئا ويحطّ عنه ذنوبه « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »(٣) .

الثامنـــة ــ قرأ آبن كثير : « فتلقّى آدمَ مِنْ رَبّهِ كلماتٌ » . والباقون برفع « آدم » ونصب « كلمات » . والقراءتان ترجعان إلى معنًى ؛ لأنّ آدم إذا تلقّى الكلمات فقــد تلقته . وقيــل : لمـا كانت الكلمات هى المنقــذة لآدم بتوفيق الله تعـالى له لقبوله إياها ودعائه بهـا كانت الكلمات فاعلة ، وكأن الأصل على هــذه القراءة « فتلقّت آدمَ مِن ربه كلماتٌ » ؛ لكن لمّا بعــد ما بين المؤنث وفعــله حَسُن حذف علامة التأنيث . وهــذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلام إذا جاء فعــل المؤنث بغير علامة ؛ ومنــه قولهم : حضر القــاضى اليوم آمرأة . وقيــل : إن الكلمات لـمّا لم يكن تأنيثــه حقيقيا حُمِــل على معنى الكَلِم ، فذُكِّر . وقــرأ الأعمش : « آدمْ مِّن ربه » مدغمـا . وقرأ أبو نَوفل بن أبى عقرب : « أنه » بفتح الهمــزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر البـاقون على الأستئناف . وأدغم الهـاء فى الهـاء أبو عمــرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهــم . وقيــل : لا يجوز ؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦ (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٦

Marfat.com

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو ، وأنشـد :

لهُ زَجَلٌ كأنّهُ صَوْتُ حادٍ　*　إذا طَلَب الوَسِـيقةَ أو زَميرُ[1]

فعلى هـذا يجوز الإدغام ، وهو رفع بالابتداء . « التوّاب » خبره ، والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ، على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جُبير : لمـا أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيهـا شيء غير النّسر فى البر ، والحوت فى البحر ، فكان النسر يأوى إلى الحوت فيبيت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشى على رجليه و يبطش بيديه ! فقال الحوت : لئن كنتَ صادقًا مالى منه فى البحر مَنْجى ، ولا لك فى البر منه مَخْلَص ! .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ، كما تقول لرجل : قُمْ قُمْ . وقيـل : كرّر الأمر لمـا علّق بكل أمر منهمـا حُكمًا غيرَ حُكمِ الآخر ، فعلّق بالأول العداوة ، و بالثانى إتيـان الهدى . وقيل : الهبوط الأول من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء إلى الأرض . وعلى هذا يكون فيـه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة ، كما دلّ عليـه حديث الإسراء ، على ما يأتى[2] .

﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن مُنَبِّه : لمـا هبط آدم عليـه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه ، فآجتمعوا وولّوا أمرهم إلى الكلب

---

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا ؛ فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها ، وكأن صوته لمـا فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى و يطربها ، أو صوت مزمار . والزجل : صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥

Marfat.com

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ؛ ففعل ، فلما رأت السباع أن الكلب ألِف آدم تفرّقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذىّ الحكيم نحو هذا، وأن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم[1] على آدم ليؤذوه؛ وكان أشدهم عليه الكلب، فأُميت فؤاده؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فآطمأن إليه وألفه؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين؛ فلو رُمى بمَدَرٍ ولّى هاربا ثم يعود آلفًا لهم . ففيه شعبة من إبليس، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويهِرّ ويعدو على الآدمىّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وآنقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولَهَثُه[2] على كل أحواله من موت فؤاده؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف[3] » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هُدًى » ؛ فقيل : كتاب الله؛ قاله السُّدّى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهُدَى الرسل، وهى إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر؛ كما جاء فى حديث أبى ذَرّ ، وخرّجه الآجُرّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى؛ خلافًا للقدرية وغيرهم؛ كما تقدّم[4] وقرأ الجَحْدَرِىّ « هُـدَىَّ » وهو لغـة هذيل، يقولون : هُـدَىَّ وعَصَىَّ ومَحْيَىَّ . وأنشد النحويون لأبى ذُؤَيْب يرثى بنيه :

سَبَقُوا هَوَىَّ وأعنقوا لهواهمُ * فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ[5]

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٣ (٤) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء .
(٥) « هوىّ » : يريد هواى؛ أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » جعلهم كأنهم هووا الذهاب إلى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . « فتخرموا » أى أخذوا واحدا واحدا .

Marfat.com

قال النحاس : وعلّة هــذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ماقبلها؛ فلما لم يَجُز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » فى قوله : « إمّا » زائدة على « إنْ » التى للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثانى فى قوله : « فَمَنْ تَبِعَ » . و « مَن » فى موضع رفع بالابتداء . و « تبع » فى موضع جزم بالشرط . « فَلَا خَوْفٌ » جوابه . قال سيبويه : الشرط الثانى وجوابه هما جواب الأوّل . وقال الكسائى : فلا خَوْفٌ عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا فى المستقبل . وخاوفنى فلان فخُفْتُه، أى كنت أشدّ خوفًا منه . والتخوّف : التنقّص، ومنه قوله تعالى : «أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ»(1) . وقرأ الزُّهْرِىّ والحسن وعيسى بن عمر وآبن أبى إسحاق ويعقوب : « فلا خوفَ » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن « لا » لا تعمل فى معرفة، فآختاروا فى الأوّل الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» فى قولك : فلا خوف؛ بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضدّ السرور، ولا يكون إلا على ماض . وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا، مثل أسلكه وسلكه؛ ومحزون بُنِيَ عليه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . وآحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى فى الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفى أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أشركوا؛ لقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصحبة : الاقتران بالشيء فى حالة مّا ، فى زمان مّا ؛ فإن كانت الملازمة والخُلطة فهى كمال الصحبة؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لهـا . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على ما نبيّنه فى « براءة »(1) إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد ٱبن ، والأصل فيه بنى، وقيل : بَنَوٌ؛ فمن قال : المحذوف منه واو ٱحتج بقولهم : البنوة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوة، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو، لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ٱبن بيّن البنوة، والتصغير بُنَىّ . قال الفراء : يقال : يا بُنَىِّ ويا بُنَىَّ لغتان ، مثل يا أبتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والآبن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وليس فى الأنبيـاء من له ٱسمان غيره، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره فى كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه ٱسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سمّاه الله رُوحًا وكَلِمة، وكانوا يسمّونه أبِيل الأَبِيلِين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح. وذكر البيهقى فى «دلائل النبوة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو ٱسمين ، محمد وأحمـد نبينا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم .

(1) راجع جـ ٨ ص ١٤٨

Marfat.com

قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسمـاء ، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ، بيانها في مواضعها .

وإسرائيل: آسم أعجمي، ولذلك لم ينصرف؛ وهو في موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل، وهي لغة القرآن . و إسرائيل، بمدّة مهموزة مختلسة، حكاها شنبوذ عن ورش . و إسرايِيل، بمدّة بعد اليـاء من غير همز، وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهريّ بغير همز ولا مدّ . و إسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة . و إسراءَل، بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال آبن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد، و إيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله، و إيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ، فكأن إسرائيل الذي شدّه الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوي . وقال السُّهيلي : سمّيَ إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أي أسرى إلى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الآسم عبرانياً و بعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الذكر آسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذِكرا . وآجعله منـك على ذُكْر (بضم الذال) أي لا تنسـه . قال الكسائي : ما كان بالضمير فهـو مضموم الذال، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضا الشرف؛ ومنه قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »(١) . قال آبن الأنباري : والمعنى في الآية آذكروا شكر نعمتي؛ فحذف الشكر آكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب؛ أي لا تغفلوا عن نعمتي التي أنعمت عليكم ولا تناسوها؛ وهو حسن . والنعمة هنا آسم جنس . فهي مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(٢) أي نعمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوَى ، وفجّر لهم

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩٣　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧

Marfat.com

من الحجر الماء ، إلى ما آستودعهم من التـوراة التى فيها صـفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته . والنعم على الآباء نعم على الأبناء ؛ لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تنبيـــه — قال أرباب المعـانى : ربط سـبحانه وتعالى بنى إسرائيـل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى ذكره ، فقـال : « آذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ »(١) ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابه . وقرأ الزهرى : « أُوَفِّ » (بفتح الواو وشـد الفـاء) للتكثير . وآختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ »(٢) ، وقوله : « وَلَقَـدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا »(٣) . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »(٤) . وقال الزجاج : « أَوْفُوا بعهدى » الذى عهدت إليكم فى التوراة من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، « أُوفِ بعهدكم » بمـا ضمنت لكم على ذلك ، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، « أُوفِ » بقبولهـا منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : « أَوْفُوا بعهدى » فى العبادات ، « أُوف بعهدكم » أى أوصلكم إلى منـازل الرعايات . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى حفظ آداب الظواهر ، « اوف بعهدكم » بتزيين سرائركم . وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره . هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ » ، « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ » ؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له ، بل ذلك تفضّل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرَّهْبُ والرَّهَبُ والرَّهْبَـة : الخوف . ويتضمن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعـد النون لأنهـا رأس آية . وقـرأ ابن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١ (٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء
(٣) راجع جـ ٦ ص ١١٢ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤

Marfat.com

أبي إسحاق: « فارْهَبونِي » بالياء، وكذا « فاتّقوني »؛ على الأصل. « و إيّايَ » منصوب بإضمار فعـل، وكذا الأختيـار في الأمر والنهي والأستفهام؛ التقـدير: وإياي آرهبوا فارهبون. ويجوز في الكلام وأنا فارهبون؛ على الأبتداء والخبر. وكون « فارهبون » الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فارهبون.

قوله تعـالى: وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أي صدّقوا؛ يعني بالقرآن. ﴿ مُصَدِّقاً ﴾ حال من الضمير في « أنزلت »؛ التقدير بما أنزلته مصدقا؛ والعامل فيه أنزلت. ويجوز أن يكون حالا من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا. ويجوز أن تكون مصدرية؛ التقدير آمنوا بإنزال. ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يعني من التوراة.

قوله تعـالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير في « به » قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم؛ قاله أبو العالية وقال ابن جُريج: هو عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله: « بِمَا أَنْزَلْتُ ». وقيل: على التوراة، إذ تضمنها قوله: « لِمَا معكم ».

فإن قيل: كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين؛ قيل: التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به. وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر به. وحكى سيبويه: هو أظرف الفتيان وأجمله؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتًى وأجمله. وقال: « أوّل كافر به » وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم في مثل هـذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم علم. و « أول » عند سيبويه نصب على خبر كان. وهو مما لم ينطق منه بفعل؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو. وإنما لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين: العين والفـاء؛ وهذا مذهب البصريين. وقال الكوفيون: هو من وَأَلَ إذا نجا؛ فأصله أوأل، ثم خُفّفت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت

Marfat.com

فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى : « والجمع الأوائل والأوالِى أيضا على القلب . وقال قوم : أصــله وَوّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة . و إنمـا لم يجمع على أواول لأستثقالهم آجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيــل : هو أفعل من آل يؤول ، فأصله أأْوَل ، قلب فجاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم .

مســـئلة — لا حُجّة فى هــذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب ، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أولا وآخرا ؛ وخصّ الأول بالذكر لأن التقدّم(1) فيه أغلظ ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنًا؛ أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رُشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنــه ؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبــار كانوا يعلّمون دينهــم بالأجرة فنُهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يآبن آدم عَلّم مجانًا كما عُلِّمت مجانًا ؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنــا قليلا ، يعنى الدنيــا ومدّتها والعيش الذى هو نزر لا خطر له ؛ فسُمّى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنًا ؛ لأنهم جعلوه عوضا ؛ فانطلق عليــه آسم الثمن و إن لم يكن ثمنًا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنبًا أوظفِرتَ به * فـــا أصبتَ بترك الحج مِن ثَمَن

قلت : وهذه الآية و إن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو آمتنع من تعليم ما وَجَب عليــه ، أو أداء ما علمه

---

(1) فى نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

Marfat.com

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل في مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن تعلّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " يعني ريحها .

الثانيـــة — وقد آختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان في معناها — ؛ فمنع ذلك الزُّهري وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نيّة التقرّب والإخلاص؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا» . وروى آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين " . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول في المعلمين ؟ قال : " درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء " . وروى عُبَادة بن الصّامت قال : علّمت ناسا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة، فأهدى إليّ رجل منهم قوسًا؛ فقلت : ليست بمال وأرمي عنها في سبيل الله، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال : " إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقًا من نار فاقبلها " . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء؛ لقوله عليه السلام في حديث آبن عباس — حديث الرُّقْيَة — : " إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتابُ الله " . أخرجه البخاري ؛ وهو نصّ يرفع الخلاف ، فينبغي أن يعوّل عليه .

وأمّا ما آحتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه في مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عبادات مختصّة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال آبن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة؛ ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحًا أو شعرا أو غناء معلوما بأجر معلوم؛ فيجوز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

Marfat.com

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السُّنّة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته ، و إلا فعلى المسلمين؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لما ولى الخلافة وعُيِّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق؛ فقيل له فى ذلك، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق، ولا يصح منها شيء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طَريف عن عكرمة عنه؛ وسعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، و إنما رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف(١) عند أهل العلم ولكنه له مناكير، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أُبَىّ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبَىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أُعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبىّ وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار" .

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

Marfat.com

الثالثـــة — وآختلف العلماء فى حكم المصلّى بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من آستُؤجِر فى رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو الا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبوثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ على ما تقدّم . قال آبن عبد البر : وهذه المسئلة معلّقة من التى قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهـذا أصل آخر من الكتاب فى « براءة » إن شاء الله تعـالى . وكره آبن القـاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال آبن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيـه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللّخمِىّ : ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبـه . وأما الغناء والنَّـوح فممنوع على كل حال .

الرابعـــة — روى الدارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد آبن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا على بن وهب الهمدانىّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه ؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هـذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأىّ جفاء رأيت منى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عَرَفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد آبن شهاب الزهرىّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم، مالنا نكره المـوت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيـا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى ؟ قال : أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله ، وأمّا المسىء فكالآبق يَقْدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ! ما لنا عند الله؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله . قال : وأىّ مكان أجده؟ قال :

Marfat.com

«إنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ»(١) . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم، فأى عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأى الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع؟ قال : دعاء المحسَن إليه للمحسِن . قال : أى الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ(٢) ، ليس فيها مَنّ ولا أذًى . قال : فأى القول أعدل ؟ قال : قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأى المؤمنين أكْيَس؟ قال : رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها . قال : فأى المؤمنين أحمق؟ قال : رجل انحطّ فى هوَى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أوَ تُعفيني؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تُلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا المُلْكَ عنوة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ فقـد ارتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبتَ ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نُصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتمسّكُون بالمروة وتقسمون بالسّوِيّة . قال له سليمان : فكيف لنـا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حِلّه وتضعه فى أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصيبَ منـا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيُذيقنى الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك . قال: تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال له سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لى . قال أبو حازم : اللّهُمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيَسِّره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى . قال له سليمان : قطّ ! قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٧ (٢) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

Marfat.com

إن كنت من أهـله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمى عن قوس ليس لها وَتَر . قال له سليمان : أوصني؛ قال : سأوصيك وأوجز : عظِّم ربك، ونزِّهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب [إليه](١) أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إيّاي هَزْلاً أو ردّي عليك بَذْلاً(٢) ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها](١) لنفسي ! إن موسى بن عمران لما وَرَد ماء مَدْيَن وجد عليه رِعاءً يَسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما ، فقالتا : لا نَسقي حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير](١) ؛ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظّل فقال : رَبِّ إني لِمَا أنزلتَ إليّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع . فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبي يدعوك ليَجزيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا ؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعا مستوحشا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق ثيابها على ظهرها فتصِفُ له عَجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرِض مرّة ويغضّ أخرى ؛ فلما عِيل صبره ناداها : يا أَمَةَ الله كوني خلفي ، وأريني السَّمت بقولك . فلما دخل على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهيَّأ ؛ فقال له شعيب : اجلس يا شاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكني أخاف أن يكون هذا عِوضًا لِمَا سقيتُ لهما ، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا يا شابّ ، ولكنها عادتي وعادة آبائي : نَقْرِي الضيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المائة دينار عوضًا لما حدّثتُ فالميتة والدَّمُ ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلّ من هذه . وإن كان لحق في بيت المال فلي فيها نظراء، فإن ساوَيْت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة .

(١) الزيادة عن مسند الدارمي .		(٢) بذلا : أي راجيا بَذْلَك وعطاءك .

Marfat.com

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عِوَضًا ، ولا على وصيته بَدَلًا ، ولا على نصيحته صَفَدًا[1] ؛ بل بيّن الحق وصَدَع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فَزَع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يمنعنّ أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقدّم معنى التقوى[3] . وقرئ « فاتقونى » بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله « وإيّاى فاتقون » قال : موضع علمى السابق فيكم . « وإيّاى فارهبون » قال : موضع المكر والاستدراج[4] ؛ لقول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »[5] ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »[5] . فما استثنى نبيًّا ولا صدّيقًا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَستُ عليه الأمر أَلْبِسه ، إذا مزجتَ بيّنه بمُشْكِله وحقَّه بباطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ »[6] . وفى الأمر لُبْسة ؛ أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يُعرَف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا

صَدِّق مقالتَه واحذر عداوته * والبس عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

---

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢٠ (٣) راجع ص ١٦١ وما بعدها .

(٤) العبارة ها هنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : « وقال سهل : « وإياى فارهبون » موضع اليقين بمعرفته ، « وإياى فاتقون » موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .

(٥) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٥٤ . (٦) راجع جـ ٦ ص ٣٩٤ .

Marfat.com

وقال العجّاج :

لما لَبَسْنَ الحــقَّ بالتَّجَنِّي * غَنِينَ واستبدلْن زيدًا مِنِّي

روى سعيد عن قتادة في قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الحقَّ بِالبَاطِلِ » ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به — الإسلامُ ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكَتيبةٍ لَبّستها بكتيبة *

أنه من هذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا في معنى الآية ؛ أى لا تُغَطّوا . ومنه لبس الثوب ؛ يقال : لبست الثوب ألْبَسه . ولباس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجَعْدىّ :

إذا ما الضّجيع ثَنَى جِيدَها * تَثَنَّتْ عليه فكانت لباسًا

وقال الأخْطل :

وقد لَبِستُ لهذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يُلبس من ثياب ودرع ؛ قال الله تعالى : « وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » (1) . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس ؛ أى مستمتع . قال :

ألَا إن بعد العُدْم للمرء قِنْوة (2) * وبعد المشيب طول عُمْرٍ ومَلْبَسا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألَا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشيء يبطل بُطْلا وبُطولا وبُطلانا [ذهب ضياعا وخسرا] (3) ، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلًا ؛ أى هَدَرا . والباطل : الشيطان . والبَطَل : الشجاع ، سُمّى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لِواء بأيدى ماجدٍ بطلٍ * لا يقطع الخَرق إلا طرفُه سامى

(1) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ (2) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .
(3) الزيادة من اللسان .

Marfat.com

والمرأةُ بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطَالة[(١)] ؛ أى صار شجاعا . و بطَل الأجير (بالفتح) بِطَالة ؛ أى تعطّل ، فهو بطّال . وآختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فرُوِى عن آبن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ؛ وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حقّ ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال آبن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليـه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول آبن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على « تَلْبِسُوا » فيكون مجزوما ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن ، التقـدير : لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ؛ أى وأن تكتموه . قال آبن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سيرين : نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لمـا أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدو عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليـه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنــون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسـلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ[(٢)] » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ؛ أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، و إنمـا نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ[(٣)] » الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

(١) فى تاج العروس : « والبطالة بالكسر والضم لغتان فى البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة . الكسر نقـله الليث ، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٦ (٣) ص ٣٦٥ .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمرٌ معناه الوجوب ، ولا خلاف فيه ، وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة وآشتقاقها وفى جملة من أحكامها(١) ، والحمد لله .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمرٌ أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيتـه : أعطيته؛ قال الله تعـالى : « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ » . وأتيته — بالقصر من غير مَدّ — جئته ؛ فإذا كان المجىء بمعنى الآستقبال مُدّ ؛ ومنـه الحديث : "ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه" . وسيأتى .

الثالثـــة — الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نمـا وزاد؛ يقال : زكا الزرعُ والمـالُ يزكو ، إذا كثر وزاد . ورجل زكى ؛ أى زائد الخير . وسُمّى الإخراج من المـال زكاة وهو نقص منـه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكّى . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء . وزكأت النـاقة بولدها تزكأ به : إذا رمتْ به من بين رجليها . وزكا الفرد : إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة * لم يَخْلَقُوا وجدود النـاس تَعْتَلِـجُ

جمع جَدّ، وهو الحظّ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خسًا : الفردُ، وزكًا : الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضى الشاهد . فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثنـاء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ؛ أى طهر من دنس الجَرْحة والإغفال(٢) . فكأن الخارج من المـال يطهّره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس ؛ وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا(٣) » .

الرابعـــة — وآختلف فى المـراد بالزكاة هنـا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتهـا بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك فى سماع آبن القاسم .

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء. (٢) فى نسخة : «أو الإغفال» وكذا فى تفسير آبن عطية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ .

Marfat.com

قلت : فعلى الأوّل — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمــة عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم قال : " ليس فى حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق[(١)] ولا فيما دون خمس ذَوْد[(٢)] صدقة ولا فيما دون خمس أواقٍ صدقة ". وقال البخارى : " خمس أواق من الورِق ". وروى البخارىّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيما سَقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا[(٣)] العُشْرُ وما سُقِى بالنَّضح[(٤)] نصفُ العُشر ". وسيأتى بيان هذا الباب فى « الأنعام »[(٥)] إن شاء الله تعالى. ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً[(٦)] » . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوله مالك هنا ، وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى[(٧)] . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة « الأعلى » ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث . وسيأتى ، فأضافها إلى رمضان .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُوا ﴾ الركوع فى اللغة الانحناء بالشخص ؛ وكل منحن راكع . قال لَبيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكعُ

وقال ابن دُرَيد : الرَّكعة الهُوّة فى الأرض ، لغــة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار أيضا فى الانحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ عَلّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع . وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . (٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ابن الأثير : « هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العذى (الزرع الذى لا يسق إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسق سيحا ، والأوّل أشهر » . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سق من الآبار . (٥) راجع جـ ٧ ص ٩٩ . (٦) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ . (٧) راجع جـ ٢٠ ص ٢١ .

Marfat.com

السادســة — وٱختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة [عبارة][(1)] عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال: «وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ» أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة". وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع . وقيل: لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران بن حُصين — للنبيّ صلى الله عليه وسلم : على ألّا أخرّ إلا قائمًا . فمن تأويله على ألّا أركع ؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه ٱطمأنت بذلك نفسه وٱمتثل ما أُمر به من الركوع.

السابعــة — الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا؛ وذلك أدناه . روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين؛ وكان إذا ركع لم يُشخص[(2)] رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر[(3)] ظهره ؛ الحديث .

الثامنــة — الركوع فرض ، قرآنا وسُنّة ، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : «ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا»[(4)] . وزادت السُّنة الطمأنينةَ فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبيّنًا من حديث أبى حُميد الساعدىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حَذْو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(1) زيادة يقتضيها السياق . (2) الإشخاص : الرفع . والتصويب : الخفض .
(3) هصر ظهره : أى ثناه إلى الأرض . (4) راجع جـ ١٢ ص ٩٨

Marfat.com

ٱنبساط الكلب " . وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سجدتَ فضَع كفيك وٱرفع مرفقيك " . وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليـه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خَوّى بيديه — يعني جنح حتى يرى وَضَح إبطيه من ورائه — و إذا قعد ٱطمأن على فخذه اليسرى .

التاســعة — وٱختلف العلماء فيمن وضــع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثوريّ وأحمد، وهو قول النَّخَعِيّ. قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو خَيْثَمة[1] وٱبن أبي شيبة . قال إسحاق : إن سجــد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، ورُوى عن ٱبن عباس وســعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وٱبن سِيرِين والحسن البصري ؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور و يعقوب ومحمد . قال ٱبن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال ٱبن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبي حُمَيد ، وقد تقدّم . وروى البخاري عن ٱبن عباس قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمِرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ[2] الثياب والشَّعَر " . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم وروى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأول ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

(١) كذا في بعض نسخ الأصل وتفسير العلامى نقلا عن القرطبي . وفي نسخة : « أبو حنيفة » .

(٢) قوله : « ولا نكفت » : أي لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

Marfat.com

العاشرة — ويكره السجود على كَوْر العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين. مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله في الصلاة، فإن لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . وروى مسلم عن مُعَيْقيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : " إن كنتَ فاعلا فواحدة " . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدّة الحرّ ؛ فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحادية عشرة — لما قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منها ما يُسمَّى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك ؛ فأخذوا بأقلّ الاسم في ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة . قال ٱبن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح في الأثر ، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر ؛ وهي رواية ٱبن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القاضى أبو بكر بن العربي : وقد تكاثرت الرواية عن ٱبن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة ؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فإن كان لٱبن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد ٱنتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدّارَقُطْنيّ وعلىّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى ، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ " وجعل الرجل يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلما جاء فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وعليك ٱرجع فصلّ فإنك لم تصلّ " . قال همام [1] : فلا ندرى ، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل :

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

Marfat.com

ما ألوتُ ، فلا أدرى ما عِبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغسِل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همّام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبّر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال : — لا تَتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » (١) . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حُذيفة رجلًا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متَّ لمتَّ على غير الفِطرة التى فَطَر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ « مع » تقتضى المَعيّة والجمعيّة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد آختلف العلماء فى شهود الجماعة على قولين؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة. وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال آبن عبد البر: وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ (٢) بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث آبن عمر . وروى عن أبى هريرة رضى الله

(١) راجع جـ ١١ ص ١٢١ . (٢) الفذ : المنفرد .

Marfat.com

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا". وقال داود: الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاةَ لجار المسجد إلا في المسجد" خرّجه أبو داود وصحّحه أبو محمد عبد الحق؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثَوْر وغيرهم . وقال الشافعي : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنـذر . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبيّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلي في بيته ؛ فرخص له؛ فلما ولّى دعاه فقال: "[هل](1) تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال: "فأجب" . وقال أبو داود في هذا الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرّجه من حديث ابن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العـذر ؟ قال : خوفٌ أو مرض — لم تُقبل منـه الصلاة التي صلى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدي . والصحيح موقوف على ابن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له". على أن قاسم بن أصبَغ ذكره في كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال حدّثنا سليمان بن حرب، حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر". وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومَغراء العبدي روى عنه أبو إسحاق. وقال ابن مسعود : ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام: "بيننا و بين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما" . قال ابن المنذر : ولقـد روينا عن غير واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "مَن سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعريّ . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول

(1) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

الله صلى الله عليـه وسلم : "لقد هممت أن آمر فِتيتي فيجمعوا حُزَمًا من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهـم ليست لهم عِلّة فأحرقها عليهـم" . هذا ما آحتج به من أوجب الصـلاة فى الجماعة فرضا، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة، بدليل حديث آبن عمر وأبى هريرة. وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه "لا صلاة له" على الكمال والفضل، وكذلك قوله عليه السلام لآبن أم مكتوم: "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت" لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه همّ ولم يفعل، وإنمـا مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبـد الله قال : « مَن سرّه أن يلق الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدَى، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صلّيتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلّف فى بيته لتركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم،ولو تركتم سُنة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلْتم ،وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد إلى مسجد من هـذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهـا سيئة،ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنهـا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى بين الرجلين (١) حتى يقام فى الصّف » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الآجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضَلال، ولهذا قال القاضى أبو الفضل عِياض : اُختلف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن، هل يقاتل عليها أولا ؟ والصحيح قتالهم؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصـلاته فى سوقه بضعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنهزه (٢) إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْط خُطوة إلا رُفع له بهـا درجةً

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما .

(٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه ؛ وهو بمعنى قوله بعده : "لا يريد إلا الصلاة" .

Marfat.com

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيـه يقولون اللّهمّ ٱرحمه اللّهمّ ٱغفر له اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه " . قيل لأبى هريرة : ما يحدث ؟ قال : يَفْسُو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة ــ وٱختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنمـا يكون ذلك الفضـل للجماعة التى تكون فى المسجد ، لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحـديث ؛ قولان . والأول أظهر ؛ لأن الجماعة هو الوصف الذى عُلّق عليه الحُكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة ــ وٱختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا . وقال ٱبن حبيب : نعم؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصـلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله " . رواه أُبَىّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة ــ وٱختلفوا أيضا فيمن صـلّى فى جماعة هل يُعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنمـا يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده فى بيته وأهلِه أو فى غير بيتـه؛ وأمّا من صلّى فى جماعة و إن قلّت فإنه لا يعيد فى جمـاعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمـد بن حنبل و إسحاق بن راهَوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصـلاة أن يعيدها معهم إن شاء؛ لأنها نافلة وسـنة . وروى ذلك عن حُذيفة بن اليَمَـان وأبى موسى الأشـعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبى والنَّخَعى، وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

ٱحتج مالك بقوله صلى الله عليـه وسلم : " لا تُصلّى صلاةٌ فى يوم مرتين " . ومنهم من يقول : لا تصلّوا . رواه سليمان بن يَسار عن ٱبن عمر . وٱتفق أحمـد و إسحاق على أن معنى

Marfat.com

هـذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضـة ، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلّاها مع الإمام على أنها سُـنّة أو تطوّع فليس بإعادة الصلاة، وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنها لكم نافلة" . من حديث أبى ذر وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "يَؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا فى الهجرة سـواءً فأقدمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعد فى بيتـه على تَكْرِمته إلا بإذنه" وفى رواية "سِـنًّا" مكان "سِلْمًا" . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُه ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق النـاس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّـنّة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّى به . وكَرِهه بعضهم وقالوا : السُّنة أن يصلّى صاحب البيت . قال ابن المنذر : روّينا عن الأشعث ابن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤم القوم أقرؤهم ابن سيرين والثورىّ و إسحاقُ وأصحابُ الرأى . قال ابن المنذر : بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة . وقال مالك : يتقدم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، و إن للسنّ حقًّا . وقال الأوزاعىّ : يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآنـ ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بمـا ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه؛ لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن، وقد كان من عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء؛ واستدلّوا بتقديم النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم : " إذا سافرتم فليؤمّكم أقرؤكم وإن كان أصغركم وإذا أمّكم فهو أميركم " . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبى هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخاريّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء مَمَرِّ[1] الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يُقَرّ[2] فى صدرى ؛ وكانت العرب تَلَوَّم[3] بإسلامها فيقولون : آتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبيّ الله حقًّا ، قال : " صلوا صلاة كذا فى حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذّن أحدكم وليؤمّكم أكثركم قرآنا " . فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لِمَا كنت أتلقّى من الركبان ، فقدّمونى بين أيديهم وأنا آبن ست أو سبع سنين ، وكانت علىّ بُردة إذا سجدت تقلّصتْ عنى ، فقالت آمرأة من الحىّ : ألا تغطّون[4] عنا آستَ قارئكم ! فآشتروْا فقطعوا لى قميصا ، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبيّ غير البالغ الحسنُ البصرى وإسحاقُ بن راهْوَيْه ، وآختاره آبن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله فى جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤمّ القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو آبن سَلِمة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يؤمّ فى سائر الصلوات ولا يؤمّ فى يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأتْ إمامته فى المكتوبة أجزأت إمامته فى الأعياد ، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعىّ : لا يؤمّ الغلام فى الصلاة المكتوبة حتى يحتلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شىء فإنه يؤمّهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن آضطرّوا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملةٌ مالكٌ والثورىّ وأصحابُ الرأى .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على آستقامة جائزٌ من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن فى أم القرآن لحنًا يُخِلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء ، ويجوز فتحها ؛ أى موضع مرورهم . (٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار . وفى رواية « يقرا » بألف مقصورة أى يجمع ، أو بهمزة من القراءة . وفى رواية « يغرى » أى يلصق . (٣) تلوّم : تنتظر . (٤) فى الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له .

Marfat.com

من « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » و بضم التاء فى « أَنْعَمْتَ » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ؛ و إن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته ؛ لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثلَه . ولا يجوز الائتمام بآمرأة ولا خُنْثَى مُشْكِل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أمّيّ ، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتى ذكره ، إلا الأمّيّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأُمّيّ الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أمّيًّا مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلّى الأُمّيّ بقوم يقرءون و بقوم أمّيين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامّة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة ؛ لأن كلًّا مؤدٍّ فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا ؛ لأن كلا مؤدّ فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلى][1] كيف صلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . و إن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت آمرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهى خلفه تصلّى . ورُوِىَ هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشلّ والأقطع والخصيّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال آبن وهب : لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل ؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال . وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف آبن أم مكتوم يؤمّ الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصيّ قياسا ونظرا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان آبن عباس وعتبان آبن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى ؛ وعليه عامة العلماء .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

التاسعة عشرة — واختلفوا فى إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك: أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبى رَباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزُّهرى والنَّخَعى وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق. وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى. وغيره أحبّ إليهم. وقال الشافعى: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزأه. وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبويه شىء. ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلاً للإمامة. قال ابن المنذر: يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤم القومَ أقرؤهم". وقال أبو عمر: ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدِّين.

الموفية عشرين — وأما العبد فروى البخارى عن ابن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصْبة — موضع بقُباء — قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤمهم سالم مَوْلَى أبى حُذيفة وكان أكثرهم قرآنا. وعنه قال: كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد قُبَاء، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف. قال ابن المنذر: وأمّ أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص فى إمامة العبد النَّخَعِىُّ والشعبىُّ والحسنُ البصرى والحكمُ والثورىُّ والشافعى وأحمد وإسحاق وأصحابُ الرأى؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز. وقال مالك: لا يؤمهم إلا أن يكون العبد قارئا ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه. قال ابن المنذر: العبد داخل فى جملة قول النبى صلى الله عليه وسلم: "يؤم القوم أقرؤهم".

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخارى عن أبى بكرة قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم

Marfat.com

امرأة" . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذّن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها . قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال ٱبن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور: لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المُزَنِيّ .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ٱبن أَيْمَن[1] جواز إمامتها للنساء . وأما الخُنْثَى المشكل فقال الشافعى : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانيــة والعشرون — الكافر المخالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمد يقولان : لا يجزئهم و يعيدون . وقاله مالك وأصحابه ؛ لأنه ليس من أهل القُربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمُزَنِيّ لا إعادة على مَن صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلمًا عند الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ ، وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : و يصلى خلف أئمة الجَوْر ، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . وقال ٱبن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته .

الرابعــة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال ٱبن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

(١) فى نسخة : « ابن أبى أيمن » .

Marfat.com

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تؤمّن آمرأة رجلا ولا يؤمّن أعرابى مهاجرا ولا يؤمّن فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هـذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدعان عن سعيد بن المسيّب ، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تُزَكّوا صلاتكم فقدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومى وهو ضعيف ؛ قاله الدّارَقُطْنِي . وقال فيه أبو أحمد بن عَدِىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن آبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدّارَقُطْنِيّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدُكم فيما بينكم و بين الله " . قال الدّارقطني : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى ؛ قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جُعل الإمام ليُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا و إذا ركع فآركعوا و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهمّ ربّنا ولك الحمد و إذا سجد فآسجدوا و إذا صلى جالسا فصلوا جلوسًا أجمعون " .

وقد آختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين : أحدهما — أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر ورُوِىَ عن آبن عمر . ذكر سُنيد قال حدثنا آبن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صلّيت إلى جنب آبن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلّم الإمام أخذ آبن عمر بيدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : مَن أنت ؟ قلتُ : فلان بن فلان ؛ قال : أنتَ من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلّى ؟ قلت : أو ما رأيتنى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله و إنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

Marfat.com

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : مَن فعـل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها و إن أسقط بعض سنتها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة و إمامه فى أخرى فقد آقتدى و إن كان يرفع قبله و يخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد و يرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسىء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه آبن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام؛ لأن الإتبـاع الحسىّ والشرعى مفقود، وليس الأمر هكذا عنـد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأوّل؛ فإن الإمام إنمـا جُعل ليؤتم به و يُقتدَى به بأفعاله؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا »[1] أى يأتمّون بك؛ على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ ثم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : " إذا كبّر فكبّروا " الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب، وهو المبيِّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدًا شديدًا فقال : " أمَا يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار " . أخرجه المُوَطّأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنمـا ناصيته بيد شيطان . وقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " كلّ عملٍ ليس عليــه أَمْرُنا فهو رَدٌّ " . يعنى مردود . فمن تعمّد خلاف إمامه عالمـا بأنه مأمور بآتباعه منهىّ عن مخالفته فقـد آستخف بصلاته وخالف ما أُمر به؛ فواجب ألّا تجزى عنه صلاته تلك؛ والله أعلم .

السادسة والعشرون — فإن رفع رأسه ساهيًا قبل الإمام فقال مالك رحمــه الله : السُّنّة فيمن سهـا ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعـله ؛ لأن النبىّ صلى الله عليــه وسلم قال : " إنمـا جُعل الإمام ليؤتم به

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٧

Marfat.com

فلا تختلفوا عليه" . قال ٱبن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا؛ لقوله : « وذلك خطأ ممن فعله »؛ لأن الساهي الإثمُ عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِىَ عن الشافعي في أحد قوليه : أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبّر ٱنصرف وأومأ إليهم — أى كما أنتم — ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما انصرف قال : "إني كنت جُنُبًا فنسيتُ أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبّر وكبّرنا معه» وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا » في «النساء»[1] إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — وروى مسلم عن أبي مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : "ٱستوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ ٱختلافا . زاد من حديث عبد الله : "وإيّاكم وهَيْشاتِ[2] الأسواق" . وقوله : "ٱستوُوا" أمْرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأوّل وهو الذي يلي الإمام، على ما يأتي بيانه في سورة « الحجر »[3] إن شاء الله تعالى . وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — وٱختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لٱختلاف الآثار في ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : يُفْضِي المصلّي بأَلْيَتَيْه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى؛ لما رواه في مُوَطّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أراني هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثني أن أباه كان يفعل ذلك .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ (٢) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وٱرتفاع الأصوات .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠

Marfat.com

قات : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمـد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوِّ به، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائما ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا ، وكان يقول فى كل ركعتين التحية ، وكان يفرُش رجـله اليسرى و ينصب رجله اليمنى ، وكان يَنْهَى عن عُقْبة الشيطان(1) ، ويَنْهَى أن يفترِش الرجل ذراعيه آفتراش السَّبُع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قات : ولهذا الحـديث — والله أعلم — قال آبن عمر : إنمـا سُنَّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثَّوْرى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صـالح بن حَىّ : ينصب اليمنى و يقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حُجْر ؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمـد وإسحـاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغـرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حُميـد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صـلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه ، و إذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره ، فإذا رفع آستوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما وآستقبل بأطراف أصابع رجليه القبـلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجـله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته .

قال الطبرى : إن فعل هذا لحسن ، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعَاوِىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة ؛ فلما آنصرف نهانى فقال : آصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال آبن الأثير : « هو أن يضع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

Marfat.com

كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ٱبن عبد البر : وما وصفه ٱبن عمر من وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مُجْمَعٌ عليه، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها، وحسبك بهذا . إلا أنهم ٱختلفوا في تحريك أصبعه السبابة، فمنهم من رأى تحريكها، ومنهم من لم يره . وكل ذلك مروِيّ في الآثار الصحاح المسندة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمد لله . وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسلم ثم لقيته فسمعته منه وزادني فيه : قال : " هي مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه و يقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود في حديث ٱبن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . و إلى هذا ذهب بعض العراقيين، فمَنَع من تحريكها . و بعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها، إلا أنهم ٱختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين؛ تأوّل مَن والاه بأن قال : إن ذلك يذكّر بموالاة الحضور في الصلاة ؛ و بأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتي الشهادة، وتأوّل في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد؛ والله أعلم .

الحادية والثلاثون — وٱختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة؛ فقال مالك : هي كالرجل، ولا تخالفه فيها بعد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوريّ : تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعِيّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها . وهو قول الشَّعْبي : تقعد كيف تيسر لها . وقال الشافعيّ : تجلس بأستر ما يكون لها .

Marfat.com

الثانيــة والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنـا لآبن عبـاس في الإقعاء على القدمين؛ فقال : هي السُّنّة ؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال آبن عباس : [بل](١) هي سُنّة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد آختلف العلماء في صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع . قال آبن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيــه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهــل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهــل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضي عياض : والأشبه عندي في تأويل الإقعاء الذي قال فيه آبن عباس إنه من السُّنّة، الذي فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسّرا عن آبن عبـاس : من السُّـنة أن تمس عقبيـك أليتك . رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر . قال القاضي : وقد رُوي عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن مَعمر عن آبن طاوس عن أبيه أنه رأى آبن عمر وآبن عباس وابن الزبير يُقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلمــاء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روي عن الحسن بن حَيّ أنه أوجب التسليمتين معًا . قال أبو جعفر الطحاوي : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال آبن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح في إيجابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قولُه صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسلّم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها آسم تسليم .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

قلت: هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة، إلا أنه تواردت[1] السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمىّ وحديث عمّار وحديث البَراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وَقّاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدَّراوَرْدِىّ كلُّهم عن عمرو بن يحيى المازنى عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر : حدّثنى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت ؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه ، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهذا إسناد مدنى صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة ، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد؛ لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا . وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبى وقّاص وعائشة وأنس ؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدَّارَقُطْنىّ عن ابن مسعود أنه قال : من السُّنة أن يخفى التشهّد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واختار الشافعى وأصحابه والليث بن سعد تشهّد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

(١) فى نسخة : « توارثت » .

Marfat.com

لله ، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله " . واختار الثّوري والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ٱبن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله ، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله][1] صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء " . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ٱبن مسعود . وهذا كله ٱختلاف فى مباح ليس شىء منه على الوجوب ، والحمد لله وحده . فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ » . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »[2] . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، ويأتى فى « آل عمران »[3] حكم صلاة المريض غير الامام ، ويأتى فى « النساء »[4] فى صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتى فى سورة « مريم »[5] حكم الامام يصلى أرفع من المأموم ، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد تقدّم فى أوّل السورة جملة من أحكامها ، والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

---

(١) الزيادة عن مسلم . (٢) راجع ج ٣ ص ٢١٣ (٣) راجع ج ٤ ص ٣١١

(٤) راجع ج ٥ ص ٣٥١ (٥) راجع ج ١١ ص ٨٥

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا آستفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهل التأويل علماءُ اليهود . قال آبن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : آثبت على الذى أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن آبن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بآتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جُريج : كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي . وقالت فرقة : كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانيـة — في شدّة عذاب مَن هذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أُسرى بى مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار[1] ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسْون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسْون أنفسهم يجرّون قُصْبهم[2] في نار جهنم فيقال لهم من أنتم ؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين ؛ لأن في سنده الخصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك آبن مَعين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صُدَىّ بن عجلان الباهلي ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن مَعين — حَزَوّر القرشي مولى خالد بن عبد الله آبن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمي . كان يختلف إلى

(١) كذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل (جـ ٣ ص ١٢٠) وتفسير الفخر الرازي (جـ ١ ص ٤٩٦) . وفي الأصول : « من أمتك » .
(٢) سيأتي معنى « القصب » .

Marfat.com

الشؤم في تجارته . قال يحيى بن مَعين : هو صالح الحديث ، فقــد رواه مسلم في صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النــار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](١) فيجتمع إليــه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكن](١) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب (بضم القاف) : المِعَى ، وجمعــه أقصاب . والأقتاب : الأمعــاء ، واحدها قِتب . ومعنى « فتندلق » : فتخرج بسرعة . وروينا « فتنفلق » .

قلت : فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالمــا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيــام بوظيفة كل واحد منهما أشــدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنمــا ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشدّ النــاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمــه " . أخرجه ابن ماجه في سُننه .

الثالثـــة ــ اعلم وفّقك الله تعــالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذمّ الله تعــالى في كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بهــا ؛ وبّخهم به توبيخا يُتْــلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّــاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إنّ قومًا يأمرونا * بالذى لا يفعـــلونا
لمجانين وإن هــم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتى كأنك ذو تُقًى * وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لاتنــه عن خلق وتأتى مثـــله * عار عليــك إذا فعلت عظـــيم

وابدأ بنفســك فانهها عن غيها * فإن انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى * بالقول منــك وينفع التعلـــيم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعــد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس : ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقى يأمر النـاس بالتـــقى * طبيب يداوى والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعـــة — قال إبراهيم النخعي : إنى لأكره القصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر » الآية ، وقوله : « لم تقولون ما لا تفعلون »[1] ، وقوله : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »[2] . وقال سلم[3] بن عمرو :

ما أقبح التزهيـد من واعظ * يزهـــد الناس ولا يزهـــد

لو كان فى تزهيده صـادقا * أضحى وأمسى بيته المسـجد

إن رفض الدنيا فما بالــه * يستمنح النـاس ويسـترفد

والرزق مقسوم على من ترى * ينـاله[4] الأبيض والأســود

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله : عظ أصحابك ؛ فقال إنى أخاف أن أقول مالا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأينا يفعل ما يقول ! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعـة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيـه شيء ، ما أمر

(١) راجع جـ ١٨ ص ٧٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٩ (٣) كذا فى الأصول . و[illegible] الأبيات لمجاز ، وهو ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر . راجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب [illegible] .
(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « [illegible] » .

Marfat.com

أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه شىء (١) ! .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . والبِرّ : الصدق . والبِرّ : ولد الثعلب . والبِرّ : سَوق الغنم؛ ومنه قولهم : « لا يعرف هِرًّا من بِرٍّ » أى لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لا هُمّ رَبّ إن بكرا (٢) دونكا * يَبَرّك الناس ويفجرونكا

أراد بقوله « يبرّك الناس » : أى يطيعونك . ويقال : إن البِرّ الفؤادُ فى قوله :

أكون مكان البِرّ منه ودونه (٣) * وأجعل مالى دونه وأوامره

والبُرّ (بضم الباء) معروف، و(بفتحها) الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد بَرّ وبارّ؛ أى يُعظّم والديه ويكرمهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك؛ وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ (٤) »، وقوله : « فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ (٥) »، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (٦) » . ويكون خلاف الذِّكر والحفظ؛ ومنه الحديث : " نَسِيَ آدمُ فنسِيَتْ ذرّيتُه " . وسيأتى . يقال : رجل نَسْيان (بفتح النون) : كثير النِّسيان للشىء . وقد نَسِيت الشىء نِسياناً، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك)؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرق . وأنفس : جمع نَفْس، جمع قِلّة . والنَّفس : الروح؛ يقال : خرجت نَفْسه، قال أبو خِراش :

نجا سالم والنَّفس منه بشِدْقه * ولم يَنْج إلا جَفْن سَيف ومِئزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : « اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٧) » يريد الأرواح؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك

---

(١) فى نسخة : «عليه» . (٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : « بكوا » بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » . (٣) كذا فى الأصول واللسان مادة «برر» . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمنى ودونه *

(٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨

(٧) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠

Marfat.com

بيّن فى قول بلال للنبىّ صلّى الله عليه وسلم فى حديث ٱبن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك؛ وهو أَوْلى ما يقال به . والنّفْس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر[1] :

تسـيل على حدّ السّـيوف نفوسُنا * وليست عـلى غير الظُّبات تسـيل[2]

وقال إبراهيم النَّخَعِىّ : ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس المـاء إذا مات فيـه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر[3] :

نُبِّئْتُ أن بنى سُحَيم أدخـلوا * أبياتَهم تامُورَ نَفْسِ المُنذرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعـة — قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم . «وتَتْلُون» : تقرءون . «الكتاب» : التـوراة . وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم . وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك ٱستعمل فى القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نَسَقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا، وتلوتُ القرآن تِلاوة . وتلوتُ الرجلَ تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَتْ لى من حقى تُلاوة وتَلِية؛ أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتَتَلَّيتُ حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد: تَلِّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمَق .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هـذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع ؛ ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدّية؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتـل الجانى . ومنه ٱعتقال البطن واللّسان . ومنـه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل . نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغشّى به الهوادج؛ قال عَلْقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطـير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) فى اللسان : «حد الظبات» . (٣) هو أوس بن حجر؛ يحرض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حملوا دمه إلى أبياتهم . (عن اللسان) .

Marfat.com

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحمًا من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال آبن فارس : والعقل من شِيات الثياب ما كان نقشه طولا؛ وما كان نقشــه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بمـا أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاســعة ــ آتفق أهــل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقــديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لمـا آختصّ بالآتصاف به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقــد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهــم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط ؛ أى غير مركب . ثم آختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محــله القلب ، لأن القلب معدن الحيــاة ومادة الحواس . وهــذا القول فى العقل بأنه جوهر فاســد ، من حيث إن الجواهر متمــاثلة؛ فلوكان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهــذا القول و إن كان أقرب ممـا قبله فيبعد عن الصواب من جهــة أن الإدراك من صــفات الحىّ ، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ أبو إسحــاق الأسفراينى وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم ، بدليل أنه لا يقال : عَقَلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو آختيار أبى المعــالى فى الإرشاد ؛ وآختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بهــا درك العلوم . وآعترض على مذهب القاضى وآستدل على فساد مذهبــه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

Marfat.com

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبد الله بن مجاهد أنهما قالا : العقل آلة التمييز . وحكى عن أبي العباس القلانسي أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعي ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة(١) واستعمالها في الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة؛ والقلانسي أطلق ما أطلقه توسعا في العبارات، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر. وسيأتي في هذه السورة بيان فائدته في آية(٢) التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (٤٥)

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ الصبر : الحبس في اللغة . وقتل فلان صبرا ؛ أي أمسك وحبس حتى أتلف . وصبرت نفسي على الشيء : حبستها . والمصبورة التي نهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت، وهي المجثمة . وقال عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرة * ترسو إذا نفس الجبان تطلع

الثانيــة — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصي ؛ وإذا صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ؛ هذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنما يقال : صابر على كذا . فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »(٣) .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿وَٱلصَّلَاةِ﴾ خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا حزبه(٤) أمر فزع إلى الصلاة ؛ ومنه ما روى أن عبد الله

(١) في بعض نسخ الأصل : « في الآلة المبنية » .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤١ .
(٤) حزبه : أي نزل به مهم أو أصابه غم .

Marfat.com

ابن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو فى سفر فاسترجع وقال : عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجْرٌ ساقه الله . ثم تنحَّى عن الطريق وصلّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هـذا التأويل هى الشرعية . وقال قوم: هى الدعاء على عُرْفها فى اللغة ؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ » ؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر فى هـذه الآية الصوم ؛ ومنه قيـل لرمضان : شهر الصبر ، فجاء الصوم والصلاة على هـذا القول فى الآية متناسبًا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد فى الدنيا ، والصلاة تنهَى عن الفحشاء والمنكر ، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذى يذكّر الآخرة . والله أعلم.

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبيـاء والصالحين . قال يحيي بن اليمـان : الصبر ألا تتمنّى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضا بمـا قضى الله من أمر دنيـاك وآخرتك . وقال الشعبيّ : قال عليّ رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبرى : وصدق عليّ رضى الله عنه ؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمـان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامســـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »(1) . وجعـل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هـذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ »(2) الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ، ومدح أهله فقال : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(3) . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ » أى الصائمون؛ لقوله تعالى فى صحيح السُّنّة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الصيام لى وأنا أَجزِى به " فلم يذكر ثوابا مقدّرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

(1) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (2) راجع جـ ٣ ص ٣٠٢ . (3) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .

Marfat.com

السادســـة — من فَضْل الصّبر وصفُ الله تعالى نفســه به؛ كما فى حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد أو ليس شيء أصـبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم لَيَدْعُون له ولدا و إنه ليعافيهـم و يرزقهم " . أخرجه البخارى . قال علمــاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصـفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد فى التنزيل و إنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوله أهل السُّنة على تأويل الحلم؛ قاله آبن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه «الصبور» للبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : «و إنهـا» ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ؛ لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع . والمصـلّى يمتنع من جميع ذلك ، بجوارحه كلها مقيّدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعبَ على النفس ومكابدتها أشـدّ ، فلذلك قال : «و إنها لكبيرةٌ» . وقيـل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ، كقوله : «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ»(١) ، وقوله : «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا»(٢) . فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعمّ ، وإلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمـّا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ»(٣) . ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل فى رضا الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

إنّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأسـ * ـودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٧ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ (٤) هو حسان بن ثابت .

Marfat.com

ولم يقل يعاصيا ، ردّ إلى الشباب لأن الشَّعر داخل فيه . وقيل : ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف آختصارا ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »(1) ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر(2) :

فمن يك أمسى بالمدينة رَحْلُه * فإنى وقَيَّارٌ بها لغـريبُ

وقال آخر(3) :

لكلّ هَمٍّ مِن الهمـوم سَـعَهْ * والصُّبْحُ والمُسْيُ لا فلاح مَعَهْ

أراد : لغريبان ، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التي يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر ، وهى الآستعانة التي يقتضيها قوله : «وَٱسْتَعِينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ؛ لأن الصبر والصلاة ممـا كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إنمـا هو إليها . « وكبيرةٌ » معناه ثقيلة شاقة ، خبر « إنّ » . ويجوز في غير القرآن : وإنه لكبيرة . « إلا على الخاشعين » فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أُيِّد في الأزل بخصائص الآجتباء والهدى .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع في القلب ، وهو الخوف وغض البصر في الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذي يُرَى أثر الذل والخشوع عليه ؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمادٌ ككُحْل العين لأْياً أُبَيِّنه * ونؤيٌ كجِذْم الحوض أَثْلَمُ خاشعُ

ومكان خاشع : لا يُهتَدى له . وخَشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشِيُّ صدره إذا ألقى بُصاقاً لزِجاً . وخَشَع ببصره إذا غَضّه . والخُشْـعة : قطعة من الأرض رِخْـوة ؛ وفي الحديث : "كانت خُشْعة على المـاء ثم دُحيت بعد"(4) . وبلدة خاشعة : مغبرّة لا منزل

---

(1) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦

(2) هو ضابئ البرجمى ؛ كما في اللسان مادة (قير) والكامل للبرد (جـ ١ ص ١٨١) طبع أوربا .

(3) هو الأضبط بن قريع السعدى ؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(4) الذى في نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على المـاء فدحيت منها الأرض » .

Marfat.com

بها . قال سفيان الثوريّ : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوريّ، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعيّ عن الخشوع؛ فقال: أُعَيْمِش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء ، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب . وقال عليّ بن أبي طالب : الخشوع في القلب ، وأن تلين كفّيك للمرء المسلم، وألّا تلتفت في صلاتك . وسيأتي هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»[1] . فمن اظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده؛ لقول الله تبارك وتعالى : « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »[2] .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقًا متأدبًا متذللًا . وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك؛ وأما المذموم فتكلّفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوْا بعين البر والإجلال، وذلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقًّا . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقًّا .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ «الذين» في موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[3] وقوله : «فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا »[4] . قال دُرَيد بن الصِّمّة :

فقلت لهم ظُنّوا بألفَيْ مدجّج * سَراتُهم في الفارسيّ المُسَرَّدِ

(١) راجع جـ١٢ ص١٠٢ (٢) راجع جـ١٥ ص٢٤٨ (٣) راجع جـ١٨ ص٢٧٠ (٤) راجع جـ١١ ص٣

Marfat.com

وقال أبو دُواد :

رُبّ همّ فرّجته بغـريم * وغيوب كشفتها بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ، ويضمر فى الكلام بذنوبهم ؛ فكأنهم يتوقّعون لقـاءه مذنبين ؛ ذكر المهدوىّ والمـاوردى . قال ابن عطية : وهـذا تعسّف . وزعم الفرّاء أن الظنّ قـد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصـل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه ، وقد يوقع موقع اليقين ؛ كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحسّ ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هـذا إنسـانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحسّ بعـد ؛ كهذه الآية والشـعر ، وكقوله تعـالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجيء اليقين بمعنى الظن ، وقد تقدّم بيـانه أول السورة . وتقول : سُـؤت به ظنًّا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُـمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأول ، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْـهِ ﴾ أى إلى ربهم ، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعـالى : يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدّم[1] . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالَمِى زمانهم ، وأهل كل زمان عالَم . وقيل : على كل العالمين بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعـالى : وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ أمرٌ معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام في التقوى (١) . « يوماً » يريد عذابه وهَوْله ، وهو يوم القيامة . وٱنتصب على المفعول بـ«ٱتقوا» . ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزى ، على الإضافة . وفي الكلام حذف بين النحويين فيه ٱختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه؛ كما قال :

* ويوماً شهدناه سُلَيما وعامرا (٢) *

أي شهدنا فيه . وقال الكسائي : هـذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : وٱتقوا يوما لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء . وإنمـا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها . قال : لا يجوز أن تقول : هـذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز : الذي تكلمت زيد؛ بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفرّاء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوي أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا » : أي لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنّي هـذا الأمر يَجْزِى؛ كما تقول : قَضَى عني . وٱجتزأت بالشيء ٱجتزاء إذا ٱكتفيت به؛ قال الشاعر :

فإنّ الغـدر في الأقوام عارٌ　*　وأنّ الحرّ يجزأ بالكُرَاع

أي يكتفي بهـا . وفي حديث عمر : " إذا أجريت المـاء على المـاء جَزَى عنـك " . يريد إذا صببت المـاء على البول في الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفي صحيح الحـديث عن أبي بُردة بن نِيَار في الأُضْحِيَة : " لن تَجزِىَ عن أحد بعدك " أي لن تغني . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليهـا شيء؛ فإن كان فإنهـا تجزى وتقضى وتغنى ،

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .　　(٢) سليم وعامر : قبليتان من قيس عيلان .

Marfat.com

بغير آختيـارها من حسناتها ما عليهـا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنـده مَظلِمة لأخيـه من عِرْضه أو شىءٌ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلِمته و إن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفلِس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم[(1)]. وقرئ «تُجزِئُ» بضم التاء والهمز . و يقال : جَزَى وأجزى بمعنًى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جَزَى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن * ليجزئَ إلا كاملٌ وآبنُ كامل

الثالثـــة[(2)] — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الآثنان، تقول : كان وَتْرًا فشفَعتُه شَـفْعًا؛ والشُّفْعة منـه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا آجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعاً . وناقة شَفُوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . وآستشفعته إلى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليـه فى فلان فَشفّعنى فيــه ؛ فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، و إيصال منفعته للشفوع .

الرابعـــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنـالهم شفاعة الشافعيــن من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين . وقـد تمسّك القاضى عليهــم فى الرّد بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقّى هذه الأخبار بالقبول ؛ ولم يبدُ من

---

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (جـ ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التى بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

Marfat.com

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور روايتها و إطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار ، مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون . وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ »[1] ، « ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعمّ هذه الآيات كل مَن يعمل سوءا وكل نفس ، و إنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعةً لأقوام ونفاها عن أقوام ؛ فقال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »[2] وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ٱرْتَضَى »[3] وقال : « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ »[4] . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ » النفسُ الكافرة لا كل نفس . ونحن و إن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلّدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها ، و بدليل قوله : « و يَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »[5] ، وقوله : « إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقد قال تعالى « ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى » والفاسق غير مُرْتَضًى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، و إنما قال : « لِمَنِ ٱرْتَضَى » ومن ٱرتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون ؛ بدليل قوله : « لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »[6] . وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا " . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتَضَى هو التائب الذى ٱتخذ عند الله عهدا بالإنابة إليه ، بدليل أن الملائكة ٱستغفروا لهم ، وقال : « فَٱغْفِرْ لِلذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦	(٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٦	(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥	(٥) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥	(٦) راجع جـ ١١ ص ١٥٣

Marfat.com

فإذا قبـل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشـفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فاغفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون فى شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما ٱفترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : "لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى — فقيل : ولا أنت يا رسول الله؟ — فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته" .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء ؛ لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حَسُن التذكير؛ لأنك قد فرقت؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ »(١) .

السادســة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى فِداء. والعدل (بفتح العين) : الفِداء، و(بكسرها): المِثْل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . ويقال : عَدْلُ الشىء هو الذى يساويه قيمةً وقدرا وإن لم يكن من جنسه. والعِدل(بالكسر) : هو الذى يساوى الشىء من جنسه وفى جِرْمه . وحكى الطبرىّ : أن من العـرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى يعانون . والنّصر : العَوْن. والأنصار: الأعوان؛ ومنـه قوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ »(٢) أى من يضم نُصرته إلى نصرتى . وٱنتصر الرجل : ٱنتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرتُ أرضَ بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر(٣) :

(١) راجع ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٩ (٣) هو الراعى يخاطب خيلا (عن اللسان) .

Marfat.com

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فوَدِّعى * بلادَ تميم وانْصُرى أرضَ عامرِ

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء؛ قال :

إنى وأَسْطارٍ سُـطِرن سطرًا * لقـائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنـا أباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعـالى عن يوم القيامة أنه لاتقبل فيـه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فِدْية . وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر ؛ لأنها هى المعـانى التى آعتادها بنو آدم فى الدنيا؛ فإن الواقع فى الشدّة لايتخلص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يفتدى .

قوله تعـالى : وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُـونَ أَبْنَـآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِـيمٌ ﴿٤٩﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» فى موضع نصب عطف على « آذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم ؛ أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للموجودين والمراد مَن سـلف من الآباء؛ كما قال : « إِنَّا لَمَّـا طَغَى المَـاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الجَارِيَةِ »[1] أى حملنا آباءكم . وقيل : إنمـا قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سـببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى « نجيناكم » ألقيناكم على نَجْـوَة من الأرض ، وهى ما آرتفع منهـا . هذا هو الأصل ؛ ثم سُمِّىَ كل فائز ناجيًا . فالناجى مَن خرج من ضيق إلى سَعة . وقرئ : « وإذ نَجَّيْتُكم » على التوحيد .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «آل فرعون» قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينـه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه . خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسـلم فاطمة

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ .

Marfat.com

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : « وأغرقنا آل فرعون » « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (١) أي آل دينه ؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة . ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فإنه ليس من آل محمـد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » (٢) . وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول : " [ألا] (٣) إن آل أبي — يعني فلانا (٤) — ليسوا [لي] (٣) بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين " . وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصة ؛ لحديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : " قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيـد " . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأول أصح لمـا ذكرناه ؛ ولحديث عبـد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللهم صل عليهم " فأتاه أبي بصدقته فقال : " اللهم صل على آل أبي أوفى " .

الثالثـــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائي : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال في البـلدان هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال في الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة . قال : وقد سمعناه في البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٦ (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٤) قوله : يعني فلانا . وروى "ألا إن آل أبي فلان" . قال النووي : «هذه الكناية هي من بعض الرواة ، خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضي عياض : قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبي العاص » . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته . راجع سيرة ابن هشام (جـ ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

Marfat.com

الرابعة — واختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى ؛ فلا يقال إلا اللهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم ابن السِّيد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إن العبد يمـ * ـنع رَحْلَه فامنع حِلالك[1]
وانصر على آل الصّليـ * ـب وعابديه اليومَ آلك

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تَحْمِى حقيقةَ آلِكا

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أى تجب عليه حمايته .

الخامسة — واختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل . وقال المهدَوى : أصله أَوْل . وقيل : أهل؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون ، وتصغيره أُوَيْل؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان : إذا جمعت آلًا قلت آلون؛ فإن جمعت آلًا الذى هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ « فرعون » قيل : إنه آسم ذلك المَلِك بعينه . وقيل إنه آسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم، والنجاشى للحبشة . وإن آسم فرعون موسى : قابوس؛ فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : آسمه الوليد آبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مُرّة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلى : وكل من وَلِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن ،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

Marfat.com

وهو ذو فرعنة؛ أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هذه الأمة " . « وفرعونَ » فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ يَسُـومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم و يلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خَسْف إذا أَوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو آبن كُلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفًا * أَبَينـا أن نُقِرّ الخسف فينـا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سـائمة الغنم لمداومتها الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء(١) ، وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال؛ أى سائمين لكم .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ « يسومونكم » ومعناه أشـدّ العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتًا؛ بمعنى سوما سيئا . فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون و يزرعون ، وصنف يتخدّمون ـــ وكان قومه جندا ملوكا ـــ ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاسعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ « يذبّحون » بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » كما قال ـــ أنشده سيبويه ـــ :

مَتَى تأتنا تُلْمِـم بنا فى ديارنا * تجـد حطبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجـا

قال الفرّاء وغيره : «يذبّحون» بغير واو على التفسير لقوله : « يَسُومُونكم سُـوءَ العذاب » كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ، فلا تحتاج إلى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ »(٢) ، وفى سورة إبراهيم : « و يذبّحون » بالواو ، لأن المعنى

(١) يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هـذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، و يحتمل أن تكون فى موضع الحال؛ أى سائميكم » .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ .

Marfat.com

يعــذبونكم بالذبح وبغير الذبح . فقوله : « وَيُذَبِّحُونَ أبناءَكم » جنس آخر من العذاب ، لا تفسير لمـا قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة « البقــرة » والواو قد تزاد ، كما قال :

* فلمّـا أجزنا ساحة الحىّ وآنتحى *

أى قد آنتحى . وقال آخر :

إلى المَـلِك القَرْم وآبن الهمام * وليث الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم آبن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ آبن مُحَيْصِن «يَذْبَحون» بفتح الباء . والذَّبح : الشق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدَّن : بزلته ؛ أى كشفته . وسعدُ الذّابِحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح : جمع مذبح، وهو إذا جاء السيل لخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقى البنات ، وعبّر عنهم باسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : « يذبّحون أبناءكم » يعنى الرجال ، وسُمُّوا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وآستدل هذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتوليهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرى : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد آختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النَّخَعى؛ وقاله الشافعى ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلَين معًا ، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المأمور

Marfat.com

قولان : أحدهما — أن عليه القَوَد . والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه آبن المنذر . وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد في ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحتلمًا ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية . وقال آبن نافع : لا يُقتل السيد إذا أمر عبده — وإن كان أعجميًّا — بقتل إنسان . قال آبن حبيب : وبقول آبن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور في مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتل المأمور دون الآمر ، ويُضرب الآمر ويُحبس . وقال أحمد في السيّد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يُقتل السيّد . وروى هذا القول عن عليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما . وقال عليّ : ويُستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويُحبس العبد ويُضرب ويؤدّب . وقال الثوريّ : يُعزَّر السيد . وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبد . وقال قتادة : يُقتلان جميعا . وقال الشافعيّ : إن كان العبد فصيحا يَعقِل قُتل العبد وعُوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجميًّا فعلى السيّد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يُقتل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس — وهو القول الثاني — ويقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعيّ وأحمد وإسحاق في الرجل يأمر الرجلَ بقتل الرجل ؛ وذكره آبن المنذر . وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالي في البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا في القَوَد ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانية عشرة — قرأ الجمهور « يذبِّحون » بالتشديد على المبالغة . وقرأ آبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذّبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوِيَ قد رأى في منامه نارا خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأُوِّلت له رؤياه : أن مولودا من بني إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

Marfat.com

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿وفى ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى امتحان واختبار. و ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسنًا ويكون سيئا، وأصله المحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحسن بلاء، وللسيّئ بلاء؛ حكاه الهَرَوِى. وقال قوم : الإشارة بـ «ذلكم» إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا فى الخير، أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم. وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا فى الشر؛ والمعنى : وفى الذبح مكروه وامتحان. وقال ابن كَيْسان : ويقال فى الخير أبلاه الله وبلاه؛ وأنشد :

جزى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم　＊　وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو[1]

فجمع بين اللغتين. والأكثر فى الخير أبليته. وفى الشر بلوته. وفى الاختبار ابتليته وبلوته؛ قاله النحاس.

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ « إذ » فى موضع نصب. و « فرقنا » فلقنا؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، أى الجبل العظيم. وأصل الفَرْق الفصل؛ ومنه فَرْق الشعر؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا »[2] يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »[3] يعنى يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »[4] أى فصّلناه وأحكمناه. وقرأ الزُّهْرِىّ : « فرّقنا » بتشديد الراء؛ أى جعلناه فرقا. ومعنى «بكم» أى لكم، فالباء بمعنى اللام. وقيل : الباء فى مكانها؛ أى فرقنا البحر بدخولكم إياه. أى صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أَوْلَى، يبيّنه « فانفلق » .

(١) قائله زهير　(٢) راجع جـ١٩ ص١٥٣　(٣) راجع جـ٨ ص٢٠　(٤) راجع جـ١٠ ص٣٣٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ البحر معروف، سُمّى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْى؛ أى كثيره . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مَنْدُوب فرس أبى طلحة : " وإنْ وجدناه لبحرًا " . والبحر : الماء الملح . ويقال : أبحر الماء : مَلُح؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْـرًا فزادنى * إلى مَرَضى أن أبْحَرَ المَشْرَبُ العذْبُ

والبحر : البلدة؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أى بلدتنا . قاله الأُموىّ . والبَحَر : السُّلال[1] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْـرَةً بَحْرَةً ؛ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملكًا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء، ممدود، ونجاة، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته ؛ وقرئ بهما « وإذ نجيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يقال : غَرِق فى الماء غَرَقًا فهو غَرِق وغارق أيضا؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

* من بين مقتولٍ وطافٍ غارِقِ[2] *

وأغرقه غيره وغَرّقه فهو مغرَق وغريق . ولجام مغرّق بالفضة ؛ أى مُحَلًّى . والتغريق : القتل ؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قَيْسًا غَرّقته القوابلُ[3] *

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط ، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

(١) السلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أو زكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادئة . (عن القاموس) .

(٢) صدر البيت :

* وأصبحوا فى الماء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت :

* أطورين فى عام غزاة ورحلة *

Marfat.com

إذا غرّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرَةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِح رَءُوماً سَـلُوبُهَا

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثاني؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب

القول فى آختلاف العلماء فى كيفيّة إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أُوحِيَ إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكَة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ »(١) . وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عِدّة بنى إسرائيل نَيِّفا على ستمائة ألف . وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون اتّبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذرّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمـد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى آنتهى إلى البحر؛ فقال له : آنْفَرِقْ ؛ فقال له البحر : لقد آستكبرت ياموسى ! وهل فَرَقْتُ لأحـد من ولد آدم فأفرق لك! قال : ومع موسى رجل على حصان له ؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال : ما أُمِرتُ إلا بهذا الوجه ؛ قال : فأقحم فرسه فسبَح فخرج . فقال أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ ثم آقتحم الثانيـة فسبَح به حتى خرج ؛ فقال : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ فقـال : ما أُمرتُ

(١) راجع ج ١٣ ص ١٠٥ .

Marfat.com

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: «أنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ» فضرب به موسى بعصاه؛ «فَٱنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ». فكان فيه ٱثنا عشر فِرقا، لاثنى عشر سِبْطا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد المـاء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن ٱنفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكَنَّاه أبا خالد[(١)]. ذكره ٱبن أبى شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كاف، وسيأتى فى سورة «يونس، والشعراء[(٢)]» زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه. فروى مسلم عن ٱبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا اليوم الذى تصومونه" فقالوا: هـذا يوم عظيم أنجى الله فيـه موسى وقومه وغَرَّق فرعونَ وقومه، فصـامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه. فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضا عن ٱبن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "أنتم أحق بموسى منهم فصوموا".

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه ٱقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لمـا روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخارىّ ومسلم.

---

(١) أى كنى موسى البحر. (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٧ وجـ ١٣ ص ١٠٥.

Marfat.com

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمـا صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك في الجاهلية، أي بمكة؛ فلمـا قدم المدينـة ووجد اليهود يصومونه قال : "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم" فصـامه آتباعا لموسى . «وأمر بصيامه» أي أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا : هـذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتي بيانه في« الأنعام»(١) عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » .

مسئلة — اختلف في يوم عاشـوراء ؛ هل هو التاسـع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعيّ إلى أنه التاسع؛ لحـديث الحكم بن الأعرج قال : آنتهيت إلى آبن عباس رضي الله عنهما وهو متوسّد رداءه في زمزم، فقلت له : أخبرني عن صوم عاشوراء؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فآعدُد وأصبِحْ يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال نعم . خرّجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصري ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذي حديث الحَكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه : أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن آبن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث آبن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذيّ : وروى عن آبن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهـذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل وإسحـاق . قال غيره : وقول آبن عباس للسائل : « فآعدُد وأصبح يوم التاسع صائمـا » ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسـع مضافا إلى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جمْع بين الأحاديث . وقول آبن عباس للحَكَم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش؛ وإلا فمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ . يبيّنه ما خرّجه آبن ماجه في سُننه ومسلم في صحيحه عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بَقِيت إلى قابلٍ لأصومنّ اليوم التاسع" .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

Marfat.com

فضيلة ـــ روى أبو قتادة أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السّنة التى قبله". أخرجه مسلم والترمذيّ ، وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : "صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة" إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة فى موضـع الحال، ومعناه بأبصاركم؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على المـاء فنظروا إليهم يغرقون، وإلى أنفسهم ينجون؛ ففى هذا أعظم المِنّة. وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه مِنّة بعد مِنّة . وقيل : المعنى «وأنتم تنظرون» أى ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا فى شـغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر؛ كما تقول: هذا الأمر منك بمرأى ومسمع؛ أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لمـا أنجاهم وغرّق عدوّهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غَرِق! حتى أمر الله البحر فلفَظَه فنظروا إليه.

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَـاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلما أن سمع الله (١) تكذيبهم نبيـه عليه السلام، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل؛ فلما أطمأنوا و بُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرِقوا فى النعمة، رأوا قوما يعكُفون على أصنام لهم؛ قالوا ياموسى آجعل لنا إلهـًا كما لهم آلهة؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلهـًا وهو فضّلكم على العالمين؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدسـة فى أيدى الجبارين قد غُلبوا عليهـا فآحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لحُمْة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنـا . قال : « يَاقَوْمِ آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَـةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » إلى قوله «قَاعِدُونَ» حتى دعا عليهم وسمّـاهم فاسقين . فبقوا فى التِّيه أربعين سـنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسّلْوَى وبالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْناء

(١) فى نسخة : « فلم يَعْدُ أن سمع الله ... » الخ .

Marfat.com

ليجيئهم بالتوراة ، فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه (١) — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فآدخلوا البـاب سُجّدًا وقولوا حِطّة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء ستِّيرا ، فقالوا : إنه آدر (٢) . فلما آغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجـالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثوبى ! فذلك قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه (٣) — ، ثم لمـا مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة (٤) — ، ثم سألوه أن يعلموا آية فى قبول قربانهم ، فجعلت نار تجيء من السماء فتقبل قربانهـم ، ثم سألوه أنْ بيّن لنـا كفارات ذنوبنا فى الدنيا ، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : «عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسمّيه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرِضــه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدّلوا التوراة وآفتروا على الله وكتبوا بأيديهم وآشتروا به عَرَضًا ، ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هـذه الفصول مستوفًى فى موضـعه إن شاء الله تعـالى . وقال الطبرى : وفى أخبـار القرآن على لسان محمد عليـه السلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العـرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ثُمَّ ٱتَّخَـذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْـدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

فيــه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣ (٢) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠ (٤) راجع جـ ٦ ص ١٣٠

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وَعَدْنَا » بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ »[1] وقوله : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»[2] ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكي : وأيضا فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمله على الواحد، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ و به قرأ قتادة وابن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكي : المواعدة أصلها من اثنين ، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب؛ قالوا : طارقت النعل ، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا ؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . والاختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه ، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن ، وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا في شيء؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة ؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء ، و إنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » ها هنا بالألف جيد ؛ لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول واتباع يجرى مجرى المواعدة . قال ابن عطية . ورجح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح ؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى آسم أعجمى لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على — مايروى — يقولون للـاء : مو، وللشجر : شا[1] . فلما وُجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سُمّىَ موسى . قال السُّـدّى : لمـا خافت عليه أمّه جعلته فى التابوت وألقته فى اليمّ — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليمّ بين أشجـار عند بيت فرعون، فخرج جوارى آسـية آمرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمّىَ باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن آسم الذى آلتقطته صابوث . قال آبن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث آبن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله[2] بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثـانى، وفى الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال : « وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة؛ فعدّوا — فيما ذكر المفسرين — عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده . فآتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرىّ : هذا إلهكم وإله موسى، فاطمئنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى[3] » . فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا آثنـا عشر ألفا فيما روى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألق الألواح فرفع من جملتهـا ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحـرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر ؛ فشربوا من مائه حُبًّـا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال آبن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

(٢) كذا فى الأصول ، وآسم الجلالة زائد ، ولا يبعد أن يكون الأصل : عبد الله ، وهو معنى إسرائيل . راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ .

Marfat.com

وورمت بطونهم ؛ فتـابوا ولم تُقبـل توبتهم دون أن يَقتـلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعـالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى آرتفاع الضّحى؛ فقتل بعضهم بعضا ، لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجّ موسى إلى الله صارخا : ياربّاه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله؛ فقبل توبة مَن بقي وجعل مَن قُتل في الشهداء؛ على ما يأتى .

الرابعـــة — إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ، فالليالى أوّل الشهور والأيام تَبَع لهـا .

الخامســـة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقـد أنه كان يفطر بالليـل ، فلما نصّ على الليـالى آقتضت قـوّة الكلام أنه عليـه السلام واصـل أربعين يوما بلياليها . قال آبن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضـل الجوهرى رحمـه الله يعظ النـاس فى الخلوة بالله والدُنُوّ منه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقـول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَـا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا آستدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام(1) من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « الأعراف »(2) زيادة أحكام لهـذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيانٌ فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه »(3) إن شاء الله تعالى .

السادسـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى آتخذتموه إلهـا من بعد موسى . وأصل آتخذتم ٱتخذتم ، من الأخذ، ووزنه آفتعلتم ، سهلت الهمزة الثـانية لآمتناع همزتين فجاء إيتخذتم، فآضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ، وواوا فى موتخذ،

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٢٩ (2) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ وص ٢٨٤ (3) راجع جـ ١١ ص ٢٣٥

Marfat.com

فبُدلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم آجتُلبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا » فآستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير؛ قال الشاعر[(١)] :

أَسْتحدثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خبَرًا * أم راجع القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه فى القــرآن : « أَطَّلَعَ الغَيْبَ » . « أَصْطَفَى البَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى على الفارسى أن « آتخذتم » ، من تخذ لا من أخذ . ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم[(٢)] . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ ألْبَتّة . وكل من آستحق عقوبة فتُركت له فقــد عُفِيَ عنه . فالعفو : مَحْوُ الذنب؛ أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم . مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريحُ الأثر؛ أى أذهبته . وعفا الشيءُ : كثر . فهو من الأضداد؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسُمِّيَ العجل عجــلًا لآستعجالهم عبــادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجَّوْل مثــله ، والجمع العجاجيل؛ والأنثى عِجْلة . عن أبى الجرّاح .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل[(٣)] . وأما الشكر فهو فى اللغــة الظهور؛ من قوله : دابة شَكُور؛ إذا ظهر عليهــا من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العَلَف . وحقيقته الثنــاء على الإنسان بمعروف يُولِيكه ، كما تقدم

---

(١) هو ذو الرمة . (٢) راجع ص ٣٠٩ (٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

في الفاتحة[١] . قال الجوهري : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف؛ يقال : شكرته وشكرت له؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكُفران . وتشكّرت له مثل شكَرت له . وروى الترمذيّ وأبو داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابي : هذا الكلام يتأول على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه و يكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعـــة — في عبارات العلمـــاء في معنى الشكر؛ فقال سَهْل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصـية في السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصـير الشكر للنعم؛ ولذلك قال تعالى : « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً »[٢] . فقال داود : كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتني وشكرتني؛ إذ قد عرفت أن الشـكر مني نعمة . قال : يا ربّ فأرني أخفى نعمك عليّ . قال : يا داود تنفّس؛ فتنفّس داود . فقال الله تعالى : مَن يُحصي هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه السـلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها عملي كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتني . وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدي السَّريّ السَّقَطِيّ ألعب وأنا ابن سبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه . فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السريّ لي . وقال الشـبليّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسـنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبّار الأرض والسموات . وقال ذو النُّون المصريّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

---

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٦

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

« إذ » آسم للوقت المـاضى . و « إذا » آسم للوقت المستقبل . و « آتينا » : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[1] . والكتاب : التوراة بإجمـاع من المتأولين . وآختلف فى الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقُطْرُب : المعنى آتينا موسى التوراة ، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هـذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحـاق الزجاج : يكون الفـرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء؛ ومنه قول الشاعر :

وقَدَّمتِ الأديمَ لراهشَيْه[2] * وألفَى قولَها كذِبًا ومَيْنَا

وقال آخر[3] :

ألَا حبّذا هِنـدٌ وأرضٌ بها هِنـدٌ * وهِندٌ أتى من دونها النَّأْيُ والبُعْدُ

فنسق البُعد على النّأى ، والمَيْنُ على الكذب ؛ لآختلاف اللفظين تأكيدا؛ ومنه قول عنترة :

حُيّيتَ مِن طَلَل تقادمَ عهدُه * أقْوَى وأقفرَ بعـد أمّ الهيْـثَمِ

قال النحاس : وهذا إنمـا يجيء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ؛ أى الذى علمه إياه . وقال آبن زيد : الفرقان آنفراق البحـر له حتى صار فِرَقًا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله آبن بحـر . وقيل : الواو صـلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى المَلِك القَرْم وآبن الهمام * وليثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

(١) راجع ص ٢٦١ ص ٣٤٣ (٢) الرواية المشهورة فى البيت : «فقددت الأديم» وهو لعدى بن زيد . والقد : القطع . والأديم : الجلد . والراهشان : عرقان فى باطن الذراع . (٣) هو الحطيئة .

Marfat.com

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة . ودليل هذا التأويل قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ »(١) أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفَرْق بينهم و بين قوم فرعون ؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك . ونظيره : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » . فقيل : يعنى به يوم بَدْر ؛ نصر الله فيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم(٢) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زُهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

وقال تعالى : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبىّ مرسل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادًى مضاف . وحذفت الياء فى « يا قوم » لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى ؛ لأنها اسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها و إن شئت ألحقت معها هاء ؛ فقلت : يا قوميَهْ . و إن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ ؛ فقلت : يا قوما، و إن شئت قلت : يا قومُ ؛ بمعنى يأيها القوم . و إن جعلتهم نكرة نصبت ونونت . وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام ؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٢ (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ آستغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » . وقال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل مَن فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عِجْلُ كلِّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عِجْل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ لمـا قال لهم : فتــوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذَلِّلوها بالطاعات وكُفُّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا . والقتــل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالمــاء . قال سفيان بن عُيَيْنَة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزُّهْرِيّ : لمـا قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كُفُّوا . فكان ذلك شهادةً للقتول وتوبةً للحيّ ؛ على ما تقــدّم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفًّا ، ودخل الذيــن لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلُوا — إذ لم يعبدوا العجل — مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهــم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو آتقاه بيد أو رجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم — يعني من قتل — وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . و إنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأوّل — ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه ؛ و إنما آعتزلوا ، وكان الواجب عليهــم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغَيَّر عوقب الجميع . روى جَرِير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

Marfat.com

بالمعاصى هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمّهم الله بعقاب" . أخرجه ابن ماجه فى سُننه . وسيأتى الكلام فى هذا المعنى إن شاء الله تعالى . فلما استحرّ (١) فيهم القتل و بلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم . قاله ابن عباس وعلىّ رضى الله عنهما . وإنمـا رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود فى قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هى أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة — ؛ أى استقبلوها من العثرة بالقتل .

قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ : الخالق؛ و بينهما فرق؛ وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث . والخالق هو المقـدّر الناقل من حال إلى حال . والبَرِيّة : الخلق؛ وهى فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز . وقرأ أبو عمرو «بارئْكم» — بسكون الهمزة — ويشعركم وينصركم ويأمركم . واختلف النحاة فى هـذا؛ فمنهم من يُسكّن الضمة والكسرة فى الوصل؛ وذلك فى الشعر . وقال أبو العباس المبرد : لا يجوز التسكين مع توالى الحركات فى حرف الإعراب فى كلام ولا شِعر . وقراءة أبى عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة؛ وأنشدوا :

إذا اعوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِّ (٢) أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ

وقال امرؤ القيس :

فاليومَ أشـربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ (٣) * إثمًا من الله ولا واغِـلِ

وقال آخـــر :

* قالتْ سُليمَى اشترْ لنا سَوِيقا *

وقال الآخـــر :

رُحتِ وفى رجليـكِ ما فيهما * وقد بدا هَنْـكِ من المئزرِ

---

(١) استحرّ : اشتدّ وكثر . (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو) : الصحراء . وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفن البحر . (٣) المستحقب : المكتسب . والواغل : الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه . يقول هـذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمـر حتى يثأر به ؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها ، إذ وفّى بنذره فيها .

Marfat.com

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب .
قال أبو عليّ : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات . وأصل برأ من تبرّى الشيء من الشيء وهو انفصاله منه . فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود ؛ ومنه برَأت من المرض برْءًا (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز . وغيرهم يقول : برِئت من المرض بُرْءًا (بالضم) ؛ و برئت منك ومن الديون والعيوب براءة ؛ ومنه المبارأة للمرأة . وقد بارأ شريكه وآمرأته .

قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، تقديره ففعلتم « فتاب عليكم » ؛ أى فتجاوز عنكم ، أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم معناه[1] ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يا مُوسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدّقك . ﴿ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ قيل : هم السبعون الذين آختارهم موسى ؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف[2] إن شاء الله تعالى . قال آبن فُورَك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد آختُلِف فى جواز رؤية الله تعالى ؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيا والآخرة . وأهل السُّنّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة ؛ فعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية

(١) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٢٢٥	(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

Marfat.com

محالا ، وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى «الأنعام» و«الأعراف»(١) إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عيانا ، قاله آبن عباس . وأصل الجهر الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة ، أى غير مستتر بشىء . وقرأ آبن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان ، مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا ، فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى — أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعيانا ، فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكّد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قـد تقدّم فى أوّل الســورة معنى الصاعقة(٢) . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ « الصَّعْقة » ، وهى قراءة آبن مُحَيْصِن فى جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضـع الحال . و يقـال : كيف يموتون وهم ينظـرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دور آل فلان تَراءى ، أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى « تنظرون » أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لآستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا آحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، وآحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا . والمعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيـل : ماتوا مَوْتَ همود يعتبر به الغير ، ثم أرسـلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصـله إثارة الشىء من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها ، أى حركتها ؛ قال آمرؤ القيس :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٧٨ (٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وفتيان صدق قد بعثتُ بسُحْرة[1] * فقاموا جميعًا بين عاثٍ ونشْوان

وقال عنـــترة :

وصحـابةٍ شُمِّ الأنوف بعثتهـــم * ليـلا وقد مال الكرى بطُلاها[2]

وقال بعضهم : « بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأول أصح ؛ لأن الأصـل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» . على ما يأتى[3] .

الخامســـة — قال المـاوَرْدِىّ : واختُلف فى بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل مِن تعبّد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأول أصح ؛ فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك ممـا اضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥٧)

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أى تسترها ؛ وكل مغطّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السَّحَر . وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .
(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق .　　(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠

Marfat.com

إذا غطّاه الغَيْم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليــه السلام : " إنه لَيُغان على قلبى " . قال صاحب العين : غِين عليه : غُطّى عليـه . والغَيْنـــ : شجر ملتف . وقال السُّدّى : الغمام السحاب الأبيض . وفعـل هـذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، و ينجـلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التِّيه بين مصر والشام لمـا آمتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ، وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »(١) . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص(٢) أربعين ســنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ســتة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهـار كله و ينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . و إذ كانوا بأجمعهم فى التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى . قالوا : مَن لنا من حرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وســط محلتهم . وذكر مكّى : عمود من نار . قالوا : من لنا بالمـاء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألّا يبـلى لهم ثوب ولا يَخْلَق ولا يدرن ، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَى ﴾ اختُلِف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيـل : الترنجبين(٣) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، و يقال : الطّرنجبين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حُلوة . وقيل عسل . وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ؛ عن وهب بن مُنَبِّه . وقيل : « المنّ » مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ؛ أى مما خلقه الله لهم فى التِّيه . قال أبو عبيد : إنمـا شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه . أى من جنس مَنّ

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٨ (٢) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « إن الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردنّ إلى رفح ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) . (٣) الترنجبين : طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

Marfat.com

بنى إسرائيل فى أنه كان دون تكلُّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ، فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدّخر منـه شيئا فسد عليه ، إلا فى يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شىء .

الثالثــة — لمـا نصّ عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : اما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، واما لغير ذلك فركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى آستعمالها بحتًا فى جميع مرض العين . وهذا كما آستعمل أبو وَجْزَة العسلَ فى جميع الأمراض كلّها حتى فى الكحل ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل »[1] إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن آثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة — بالتاء — على عكس شجرة وشجر . والمنّ آسم جنس لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلِف فى السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمانَى بعينه ؛ قاله الضحاك . قال آبن عطية : السَّـلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهذَلىّ[2] فقال :

وقاسمهـا بالله جَهْــدًا لأَنتمُ ۞ ألذّ من السَّلوَى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرِّج[3] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ، وآستدلّ ببيت الهذلىّ ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّىَ به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلوان[4] ، وأنشد :

لو أشرب السُّـلوان ما سَلِبتُ ۞ ما بى غِنًى عنـك وإن غَنِيتُ[5]

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦   (٢) هو خالد بن زهير .   (٣) هو مؤرج بن عمر السدوسى ، ويكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة .   (٤) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) .   (٥) البيت لرؤبة .

Marfat.com

وقال الجوهرى : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهُذَلىّ :

* ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا *

ولم يذكر غلطا . والسُّـلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُـلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديد العيش يا مَىّ ما أسْلُو

وآسم ذلك الماء السُّلوان . وقال بعضهم : السـلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطباء يسمونه المُفَرِّح . يقال : سَلِيت وسلوْت ؛ لغتان . وهو فى سُلوة من العيش ، أى فى رغد ؛ عن أبى زيد .

الخامســـة — وآختلف فى السَّـلْوى هل هو جمع أو مفـرد ؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه؛ مثـل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته ؛ كما قالوا : دفْلَى[1] للواحد والجماعة ، وسُمَانَى وشُكاعَى[2] فى الواحـد والجميع . وقال الخليـل : واحده سلواة؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكرك هزّةٌ[3] * كما آنتفض السُّلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السَّلْوَى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادســـة — «والسَّلْوَى» عطفٌ على « المنّ » ،ولم يظهر فيه الإعراب،لأنه مقصور. ووجب هذا فى المقصور كله؛ لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف . قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقر له؛ فأشبه الحركة فآستحالت حركته . وقال الفـرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السـابعـــة — قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ « كلوا» فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها . (٣) فى الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

Marfat.com

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التى يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أى المدينة؛ سُمّيت بذلك لأنها تقرّت أى اجتمعت؛ ومنه قَرَيت الماء فى الحوض، أى جمعته؛ واسم ذلك الماء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِىَ به الضيف؛ قاله الجوهرى . والمِقْراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل الماء . والقَرَا للظهر؛ ومنه قوله (١) :

* لاحِـــقُ بطنٍ بِقَـــرًا سمينِ *

والمقارى : الجفان الكبار؛ قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّعُ *

وواحد المقارى مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . واختُلف فى تعيينها؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أريحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كَيْسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُن وفلسطين وتَدْمُر . وهـذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التِّيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال ، فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ اباحة . و ﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرًا واســعًا؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أى أكلا رَغَدًا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال؛ على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : « رغدا » .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَـابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يُجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أبْوِبَة للازدواج؛ قال الشاعر[1] :

هتّـاك أخبيةٍ ولاّج أبوِبَة * يَخْلِط بالبِرّ منه الجِدّ واللّينا

واو أفرده لم يجـز . ومثله قوله عليه السلام : "مرحبا بالقوم ــ أو بالوفد ــ غيرَخَزَايا ولا نَدامَى" . وتبوّ بت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شىء من بابَتِك ؛ أى يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود[2] فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذى أمِروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حِطّة»؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . و « سجدا » قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . و ﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ؛ أى مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت «حِطّةً» بالنصب ، على معنى احطط عنـا ذنوبنا حِطة . قال النحاس : الحديث[3] عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفى حديث آخر عنـه قيل لهم : قولوا مغفرة ــ تفسير للنصب ؛ أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع . وهو أولى فى اللغة ؛ لمـا حكى عن العرب فى معنى بدّل، قال أحـمد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أى غيرته ولم أزِل عينه . وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال[4] :

* عـزْلَ الأمير للأمير المُبْدَل *

---

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) (٢) راجع ص ٢٤٥ .
(٣) فى الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . و«الحديث» مبتدأ ، وخبره « تفسير » . (٤) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

Marfat.com

وقال الله عز وجل : « قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديث[(١)] ابن مسعود قالوا : «حِطّة» تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : « حِطّةٌ » بمعنى حُطّ ذنوبنا ؛ أُمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تغلب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعل اللّـ * ـه بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس في المجمل : «حِطّة» كلمة أُمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهري أيضا في الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سُجّدا وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبدّلوا][(٢)] فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حَبّة في شَعَرة " . وأخرجه البخاري وقال : " فبدلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ في شعرة " . في غير الصحيحين : « حنطة في شَعَر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهي لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ؛ حكاها ابن قتيبة ، وحكاه الهروي عن السدّي ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وقال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . ورُوِيَ أن الباب جُعل قصيرا ليدخلوه رُكّعا فدخلوه متوركين على أستاههم . والله أعلم .

السادسة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبّد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذمّ الله تعالى من بدّل ما أمره بقوله . وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى إلى ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

---

(١) في الأصل : « والحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحُكِىَ عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم آبن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة . وقال مجاهد : أنْقُص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . و روى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم . وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ . وذلك هو الأحوط فى الدّين والأتقى والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأسْقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فآختلفوا علىّ فى اللفظ وآجتمعوا فى المعنى . وكان النَّخَعِىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلت لكم إنى أحدّثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ؛ إنما هو المعنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس . وآتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قِصصًا ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

Marfat.com

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . آحتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ، وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نَضّر الله آمرأً سمع مقالتى فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه فى دعاء علمه : " آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيّك الذى أرسلت " ؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ونبيك الذى أرسلت " . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " فرُبّ حاملِ فقه غير فقيه ورُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن آسم الرسول يقع على الكافة ، وآسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة . فلما قال : "ونبيك" ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : "الذى أرسلت" . وأيضا فإن نقله من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ليجمع بين النبوة والرسالة . ومستقبح فى الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذى أرسله ، وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأول . وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذى أرسله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

Marfat.com

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأول، و يؤدّى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عُدمت لم يجز . قال آبن العربيّ : الخلاف فى هذه المسألة إنمـا يُتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجِبِلّية الذّوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغيّرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد آختلفت؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تعاجم آبن العربيّ رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل . نعم، لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم.

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وآبن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها، وهى أبينها؛ لأن قبلها «وَ إِذْ قُلْنَا آدْخُلُوا» فجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى ؛ والتقدير وقلنا آدخلوا الباب سُجّدًا نغفر، ولأن بعده « وسَنَزِيدُ » بالنون . و «خطاياكم» آتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لمـا حال بين المؤنث و بين فعله ؛ على ما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » . وحَسُن الياء والتاء و إن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : « و إذ قلنا » لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فآستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليل: الأصل فى خطايا أن يقول : خطايئٌ ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا ؛ فلمـا آجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأول خطايِئٌ ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

Marfat.com

خطائئ ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة ، فأبدلت من الثانيـة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دوابّ .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد ، وسـنزيد فى إحسان من لم يرفع للغـد . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص ، وسيزيد فى إحسان من هو محسن؛ أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم . وهو ٱسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شرّه . وفى حديث جبريل عليه السلام : "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ «الذين» فى موضع رفع؛ أى فبدّل الظالمون منهـم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والابتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ؛ وقُرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشىء بغـيره . وبدّله الله من الخوف

Marfat.com

أمْنًا . وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدَل . وٱستبدل الشيء بغيره ، وتبدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر . قال ٱبن دُرَيد : الواحد بديل . والبـديل : البدل . و بدَلُ الشيء : غيره ؛ يقال : بَدَلٌ وبِدْلٌ ، لغتان ؛ مثل : شَبَه وشِبْه ، ومَثَل ومِثْل ، ونَكَل ونِكْل . قال أبو عبيد[(١)] : لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وجع يكون في اليدين والرجلين . وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلًا .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام ؛ كما في هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : ممـا كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم ؛ ومنه قول الخنساء :

تعـرّقني الدهرُ نَهْسًا[(٢)] وحَزًّا * وأوجعني الدهرُ قرعًا وغَمْزًا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها . والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام ؛ كقوله تعـالى : « ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم : الحاقة ما هي ، والقارعة ما هي ؛ ومثله : « فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ » . كرر « أصحاب الميمنة» تفخيمًا لمـا ينيلهم من جزيل الثواب ؛ وكرر لفظ « أصحاب المشأمة » لمـا ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبًـا * كان الغـرابُ مقطّعَ الأوداج

وقد جمع عَدِيّ بن زيد المعنيين فقال :

---

(١) في الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهري .
(٢) في بعض الأصول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره ، أي جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّص الموتُ ذا الغنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّـذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ * وهندٌ أتى من دونها النأْيُ والبعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ رِجْزًا ﴾ قراءة الجماعة «رِجْزًا» بكسر الراء، وآبن مُحَيْصِن بضم الراء . والرجز : العذاب (بالزاى)، و (بالسين) : النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى : «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» ؛ أى نَتْنًا إلى نَتْنهم؛ قاله الكسائى . وقال الفرّاء : الرِّجْز هو الرِّجْس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّـدْغ والزُّدْغ ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى . قال الفرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم) : آسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : « والرُّجْزَ فَاهْجُرْ »(1) . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شعرا . وهو مشـتق من الرَّجَز؛ وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت آرتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفِسْق الخروج، وقد تقدّم(2) . وقرأ آبن وثّاب والنَّخَعى : « يَفْسِقُون » بكسر السين .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ كُسرت الذال لآلتقاء الساكنين . والسين سين السؤال؛ مثل : آستعلم وآستخبر وآستنصر، ونحو ذلك؛ أى طلب وسأل السَّقْيَ لقومه . والعرب تقول : سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى؛ قال(3) :

(1) راجع جـ ١٩ ص ٦٥ (2) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (3) هو لبيد (كما فى اللسان) .

Marfat.com

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْقَى * نُمَيْراً والقبائلَ من هِلال

وقيل : سقيتُه مِن سقيِ الشَّفَة، وأسقيته دَلَلته على الماء .

الثانيــة — الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذّلة مع التوبة النَّصوح . وقد استسقى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج إلى المصلّى متواضعاً متذلّلاً متخشعاً مترسّلاً متضرّعاً، وحسبك به ! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد؛ فأنّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر: "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثــة — سُنّة الاستسقاء الخروج إلى المصلّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصلاة ؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صلاة ولا خروج، وإنما هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فاكتفى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان سُنّة ؛ ولما قصد البيان بيّن بفعله ، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة « هود »[1] إن شاء الله .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف ، وهو اسم مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو؛ قال[2] :

* على عَصَوَيْها[3] سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ *

(١) لم يذكر المصنف شيئا عن الاستسقاء فى سورة « هود » ، وإنما هو مذكور فى سورة « نوح » جـ ١٨ ص ٣٠٢ (٢) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * فجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٣) عصويها : عرقوتى الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . والمشبرق : المخرق .

Marfat.com

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ ، وهو فعول ، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة ؛ وأعْصٍ أيضا مثله ؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ . وفي المثل : «العَصَا من العُصَيّة» أي بعض الأمر من بعض. وقولهم : « ألْقَى عصاه » أي أقام وترك الأسفار، وهو مَثَل . قال :

فألقتْ عصاها وٱستقرّ بها النَّوَى * كما قَـرّ عَيْنـًا بالإياب المسافرُ

وفي التنزيل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَـا » [1] . وهناك يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أوّل لحن سُمِع بالعراق هذه عصاتي . وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ؛ ومنه يقال في الخوارج : قد شَقُّوا عصا المسلمين ؛ أي اجتماعهم وٱئتلافهم . وٱنشقّت العصا، أي وقع الخلاف، قال الشاعر :

إذا كانت الهَيْجاءُ وٱنشقّتِ العصا * فحَسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّـدُ

أي يكفيك ويكفي الضحاك . وقولهـم : لا ترفع عصاك عن أهلك، يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار ، وفي الكثير حِجار وحِجارة، والحجارة نادر . وهو كقولنا : جَمَل وجِمالة، وذَكَر وذِكارة، كذا قال ٱبن فارس والجوهري .

قلت : وفي القرآن « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » . « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ » . « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً » . « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ » . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِـمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا، إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَٱنْفَجَرَتْ﴾ في الكلام حذف، تقديره فضرب فٱنفجرت . وقد كان تعالى قادرا على تفجير المـاء وفلق الحجـر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد. والانفجار : الانشقاق، ومنه ٱنشـق الفجر . وٱنفجر المـاء ٱنفجارا : ٱنفتح . والفُجْرة : موضع تفجّر المـاء . والانبجاس أضيق من الانفجار ؛ لأنه يكون ٱنبجاسا ثم يصير ٱنفجارا . وقيل : ٱنبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق، بمعنًى واحد، حكاه الهَرَوِيّ وغيره .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٦ .

Marfat.com

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ « اثنتا » فى موضع رفع بـ « ا نفجرت » وعلامة الرفع فيها الألف . وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبدا لصحة معناها . « عَيْنًا » نُصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرة » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز « عشْرة » وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال : عَيْنُ المـاء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعينُ الرُّكْبة(١) ، وعين الشمس . والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة . والعين : مطر يدوم خمساً أو ستًّا لا يقلع . وبلد قليل العَيْن : أى قليـل الناس . وما بها عين ، محرّكة الياء(٢) . والعين : الثقب فى المزادة . والعَيْنُ من المـاء مُشبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج المـاء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لمـا كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين المـاء ؛ لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لمـا استسق موسى عليه السـلام لقومه أمر أن يضرب عنـد استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربّعًا طُورِيًّا (من الطور) على قدر رأس الشاه يلق فى كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع فى وسط محلّتهم . وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهـذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له آسم الحجـر ليضرب موسى أىّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لمـا اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برّأه الله ثما رماه به قومه . قال آبن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعًا ، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، و إذا استغنوا عن المـاء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة و باء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : « عين الرَّكِيَّة » (براء مفتوحة و ياء مثناة من تحت) وهى مفجر ماء البئر ومنبعها .

(٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرّك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

Marfat.com

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسـلم من نبع المـاء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم فى المعجزة، فإنا نشاهد المـاء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار، ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم، يخرج المـاء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتِيَ بتَـوْر(١) فأدخل يده فيه؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّـر من بين أصابعه ويقول : " حيّ على الطّهور " . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيـل كالقبائل فى العـرب ، وهم ذُرّية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليـه السلام؛ وكان لكل سِـبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحجر أربعـة أوجه ، يخرج من كل وجه ثلاث أعين ؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم . وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمســون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضـع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى، واشربوا المـاء المتفجّر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى لا تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد ؛ نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيّاً ، وعثا يَعْثُو عُثُوّاً ، وعاث يَعِيث عَيْثاً وعُيُوثاً ومَعَاثاً؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد؛ ومنه العُثّة ، وهى السُّوسة التى تلحس الصّوف . و﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لاختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

---

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صُفْر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هذا القول منهم في التيه حين ملّوا المنّ والسّلوى ، وتذكّروا عيشهم الأول بمصر . قال الحسن : كانوا نتانى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرهم[(1)] عِكْرِ السّوء ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ، فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيل : لتكرارهما في كل يوم غذاء ؛ كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض ؛ لاستغناء كل واحد منّا بنفسه . وكذلك كانوا ؛ فهم أول من اتخذ العبيد والخدم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » وقال : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أي ما شربوه من الخمر ، على ما يأتي بيانه[(2)] . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خُصّ بالطعام البُرّ والتمر ، كما في حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : كنا نُخرج صدقة الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعام أو صاعا من

(1) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصل . وقيل : العادة والديدن . و العكر (بالتحريك) : دُرْدِيّ كل شيء .

(2) راجع جـ ٦ ص ٢٩٣ .

Marfat.com

شعير، الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت إلى سوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب . والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال : طعمُه مرّ . والطَّعْم أيضا : ما يشتهى منه؛ يقال : ليس له طعم . وما فلان بذى طعم : إذا كان غثًّا . والطُّعم (بالضم) : الطعام؛ قال أبو خراش :

أَرُدُّ شُجَاعَ البطن لو تعلمينه[1] * وأُوثِرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ
وأغتبِق الماءَ القَرَاحَ فأنتهى * إذا الزادُ أمسى لِلْمُزَلَّج[2] ذا طَعْمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يُشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أى من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : "إنها طَعامُ طُعْمٍ وشفاءُ سُقْم"[3] . وٱستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : "إذا ٱستطعمكم الإمامُ فأطعموه" . يقول : إذا ٱستفتح فٱفتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشاعر :

نَعامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو * د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياما[4]

قوله تعالى : ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ لغة بنى عامر «فٱدعِ» بكسر العين لٱلتقاء الساكنين؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف . و « يُخْرِجْ » مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخْرِجْ، يُخْرِج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(١) فى ديوان الهذليين واللسان مادة (طعم) : « قد تعلمينه » . (٢) المزلّج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (٣) أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .

(٤) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخدو * د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله : فأما بنو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : « يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء ولا تطعمه » .

Marfat.com

اللام ، وضعّفه الزجاج . و « مِن » ، فى قوله « ممّـا » زائدة فى قول الأخفش ، وغير زائدة فى قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنمـا دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ « يُخرِج » فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأوْلى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام ؛ التقدير : يخرج لنا ممـا تُنبت الأرض مأكولا . فـ«مِن» الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . و﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من « ما » بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليه ، وكذا ما بعده ؛ فآعلمه . والبَقْل معروف ، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ماله ســاق . والقِثّاء أيضا معــروف ، وقد تُضمّ قافه ، وهى قراءة يحيى بن وثّاب وطلحة آبن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر . وقيل فى جمع قِثّاء : قَثَائِىّ ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِىّ ؛ إلا أن قثّاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القومَ ؛ أى أطعمتهم ذلك .

[وفَثَأتُ القِدْرَ سكّنت غليانها بالمـاء ؛ قال الجَعْدِىّ[(١)] :

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا * ونَفْثُؤها عنّا إذا حَمْيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ؛ أى أعيا وآنبهر . وأفثأ الحـرُّ أى سكن وفتر . ومن أمثالهم فى اليسير من البِرّ قولهم : إنّ الرَّثِيئـة تفثأ الغضب » . وأصله أن رجلا كان غَضِب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسقَوه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم . الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر . رَثَأت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخثُر ، والاسم الرَّثِيئة . وآرتثأ اللبن خثر] .

وروى آبن ماجه حدّثنا محمـد بن عبـد الله بن نمير حدّثنا يونس بن بُكَير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّى تعالجنى للسِّمْنة ، تريد أن تُدخلنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمـا آستقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهوا على أنه من مادة « قثأ » بالقاف ؛ والواقع أنه من مادة « فثأ » بالفاء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَفُومِهَا﴾ اختلف فى الفُوم، فقيل : هو الثُّوم؛ لأنه المشاكل للبصل . رواه جُوَيْبِر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[(١)] . وجَدَثٌ وجَدَفٌ؛ للقبر . وقرأ آبن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة ؛ وروى ذلك عن آبن عباس . وقال أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت :

كانت منـازلهم إذ ذاك ظـاهرةً * فيها الفَرادِيسُ والفُومانُ والبَصَـلُ

الفراديس : واحدها فرديس . وكَرْم مُفَرْدَس؛ أى معرّش .

وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لئامُ الأصول * طعـامُكُمُ الفُـومُ والحَوْقَـلُ

يعنى الثوم والبصـل ؛ وهو قول الكسائى والنّضر بن شُمَيل . وقيل : الفُوم الحنطـة ؛ روى عن آبن عباس أيضا وأكثر المفسرين ؛ وآختاره النحاس، قال : وهو أَوْلى، ومن قال به أعلى ، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيْبِر بنظير لرُوايته ؛ وإن كان الكسائى والفراء قد آختارا القول الأوّل، لإبدال العرب الفاء من الثاء ؛ والإبدال لا يقاس عليه ؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد آبن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى النـاس شخصًا واجدًا * ورَدَ المدينــةَ عن زراعة فُـومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعامًا لا بُرّ فيه، والبرّ أصل الغذاء ! .

وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واجد * نزل المدينـة عن زراعة فُومِ[(٢)]

وقال آبن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة ؛ وأنشد :

وقال رَبِيئُهم لمّـا أتانا[(٣)] * بِكَفّهِ فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (جـ ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : « عن زراعة فول » . وقبل البيت :

ولقـد نظرت إلى الشموس ودونها * حرج مـن الرحمن غـير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية .

(٣) فى بعض الأصول : « وقال رئيسهم » . الربئ . (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

Marfat.com

والهاء في « كُفّه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفُوم : الحِمّص، لغةٌ شاميّة . وبائعه فاميّ ، مغيَّر عن فُوميّ؛ لأنهم قد يغيّرون في النسب؛ كما قالوا : سُهْليّ ودُهْريّ . ويقال : فَوِّموا لنا ؛ أي آختبزوا . قال الفرّاء : هي لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُختَبز .

مسئلة — آختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول . فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للأحاديث الثابتة في ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر — القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضًا — إلى المنع، وقالوا : كل مامَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . وآحتجّوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيّه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ ببَدْر[(1)] فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ، قال : فأُخْبِر بما فيها من البقول؛ فقال : "قرّبوها" — إلى بعض أصحابه كان معه — فلما رآه كره أكلها ، قال : "كُلْ فإنّي أُناجِي مَن لا تُناجِي" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيِّنٌ في الخصوص له والإباحة لغيره . وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي أيوب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبي أيوب ، فصنع للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثُوم، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل . ففزع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا ولكني أكرَهُه" . قال : فإني أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعني يأتيه الوحي) . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لي تحريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها" . فهذه الأحاديث تُشعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك . لكن قد علمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضي التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هذه البقلة الثوم — وقال مرة : من أكل البصل والثوم

(1) في الأصول : « بقدر » ، والتصويب عن سنن أبي داود . يعني بالبدر الطبق ؛ شبه بالبدر لا ستدارته .

Marfat.com

والكُرّاث — فلا يَقرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم" . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طُول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هـذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسـجد أمر به فأُخرج إلى البَقيـع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ العدس معروف . والعَدَسَةُ : بَثْرَةٌ تخرج بالإنسان ، وربمـا قتلت . وعَدَسْ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليـك إمارةٌ * نَجوْتِ وهـذا تحملين طَليقُ (١)

والعَـدْس : شـدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسـه . وعَدَسَ فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَسَتْ إليه المنيّة أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلِّفها هَوْلَ الظـلامِ ولم أزَلْ * أخا الليـلِ مَعْدوسًا إلىّ وعادِسَا

أى يُسار إلىّ بالليل . وعَدَسْ : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم من حديث علىّ أنه قال : "عليكم بالعـدس فإنه مبارَك مقـدّس وإنه يُرِقّ القلب ويكثر الدَّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم" ؛ ذكره الثعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم (٢) ، ويوما بعدس . قال الحَليمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضـيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفّف البدن فيخفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحِنْطة من جملة الحبوب وهى الفُوم على الصحيح ، والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السـلام ؛ فصار لكل واحد من الحبتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

(١) البيت ليزيد بن مفرغ .		(٢) فى بعض نسخ الأصل : « بملح » .

Marfat.com

عليـه وسلم لم يَشبع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الآستبدال : وضع الشيء موضع الآخر؛ ومنه البدل ، وقد تقدّم . و « أدْنَى » مأخوذ — عند الزجاج — من الدُّنُوّ أي القُرْب في القيمة ؛ من قولهم : ثَوْبٌ مقارِب ؛ أي قليل الثمن . وقال عليّ بن سليمان : هو مهموز من الدنيء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أي الأحط ؛ وأصله أَدْوَن ، أفْعَل ، قُلب فجاء أفْلَع ؛ وحُوّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرِئَ في الشـواذّ « أدنى »(١) . ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذى هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذى هو خير .

وآختُلِف في الوجوه التي توجب فضل المنّ والسَّلْوَى على الشيء الذى طلبوه وهي خمسة :

الأوّل — أن البقول لمـا كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثـانى — لمـا كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في آستدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ في الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هـذه الخصائل ، كان أدنى في هذا الوجه .

الثـالث — لمـا كان ما منّ الله به عليهـم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابـــع — لمـا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفَةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمـا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيةَ في حِلّه وخُلوصـه لنزوله مـن عند الله ، والحبـوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

(١) كذا في نسخ الأصل . والذى في كتب الشواذ : « أدنأ بالهمز » وهي قراءة زهير الفرقبي » .

Marfat.com

مسئلة — فى هـذه الآية دليلٌ على جـواز أكل الطّيّبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلّم يحبّ الحلْوى والعَسَـل ، ويشرب المـاء البارد العَذْب ، وسيأتى هذا المعنى فى « المـائدة »[1] و « النحل »[2] إن شاء الله مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْراً ﴾ تقدّم معنى الهبوط[3] ، وهذا أمر معناه التعجيز ، كقوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا » . لأنهم كانوا فى التِّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أعطوا ما طلبوه . و « مِصْراً » بالتنوين منـكّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصْراً من الأمصار غير معيّن . وروى عكرمة عن ٱبن عباس فى قوله : « ٱهْبِطُوا مِصْراً » قال : مِصْراً من هـذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صَرَفهـا أيضا : أراد مِصْرَ فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما ٱقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبمـا تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعـد التِّيه . وٱستدلّ الآخرون بمـا فى القـرآن من أن الله أَوْرث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : لخفّتها وشبهها بِهنْد ودَعْد ؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضـــل مِئْزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ[4]

فجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هـذا ؛ لأنك لو سمّيت ٱمرأة بزيد لم تَصرِف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصَرَف . وقرأ الحسن وأَبَان بن تَغْلِب وطلحة : « مِصْرَ » بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَيّ بن كعب وقراءة ٱبن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ؛ ذكره ٱبن عطية . والمِصر أصله فى اللغة الحدّ . ومِصر الدّار : حدودها . قال ٱبن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون فى شروطهم «ٱشترى فلان الدار بِمُصُورِها» أى حدودها ؛ قال عَدِيّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به * بين النهار وبين الليـل قد فَصَـلاَ

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٣ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ . (٣) راجع ص ٣١٩ .

(٤) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيهـا اللبن و يشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ «ما» نصب بإن . وقرأ ابن وثّاب والنّخعي «سِألتم» بكسر السين؛ يقال : سألت وسلت بغير همز . وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى ألزموها وقُضِىَ عليهم بها؛ مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق فى جرير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجها * وقَضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد؛ أى حمل وألزم . والذِّلة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودىّ وإن كان غنيًّا خاليًا من زِىّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزية؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع، وهى مأخوذة من السكون؛ أى قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذّلة الصَّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ابن عباس : « وضُرِبَتْ عليهم الذّلةُ والمسكنةُ » قال : هم أصحاب القَبَالات[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا ﴾ أى انقلبوا ورجعوا؛ أى لزمهم ذلك . ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : "أبوءُ بنعمتك علىّ" أى أُقِرّ بها وأُلزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع؛ يقال باء بكذا، أى رجع به . وباء إلى المَبَاءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء؛ أى سواء، يرجعون فيه إلى معنًى واحد . وقال الشاعر[(٢)] :

ألَا تَنْتَهِى عنّا ملوكٌ وتَتّقِى * محارِمَنا لا يَبْؤُؤُ الدّمُ بالدّمِ

أى لا يرجع الدّم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا * وأُبْنا بالملوكِ مُصَفَّدِينا[(٣)]

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة[(٤)] .

---

(١) فى تفسير ابن كثير : « ...... القبالات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبى (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى، ولا شاهد فيه، إذ الرواية فيه : «فآبوا... وأبنا» ومادة « آب » غير مادة « باء » وإن كان معنى المادتين واحدا . (٤) راجع ص ١٤٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذّبون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بكتابه ومعجزات أنبيائه ، كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام . ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على « يكفرون » . ورُوِىَ عن الحسن « يُقَتِّلُون » وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النَّبيئين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ »[(١)] . و « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا » فإنه قرأ بلا مدّ ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترَكَ الهمزَ فى جميع ذلك البـاقون . فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر ، وآسم فاعله مُنْبِئٌ . ويجمع نبىء أنبياء ، وقد جاء فى جمع نبىّ نُبآء ، قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِىّ يمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَم النُّبَآءِ إنك مُرْسَـلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيل هُداكا

هذا معنى قراءة الهمز . وآختلف القائلون بترك الهمز ؛ فمنهم من آشتق اشتقاق من همز ، ثم سهّل الهمز . ومنهـم من قال : هو مشتق من نَبَـا يَنْبُـو إذا ظهر . فالنبىّ من النبوّة وهو الآرتفاع ؛ فمنزلة النبىّ رفيعة . والنبىّ بترك الهمز أيضا الطريق ، فسُمِّىَ الرسول نبيًّا لاهتداء الخلق به كالطريق ؛ قال الشاعر[(٢)] :

لأصبح رَتْمًـا دُقاق الحَصَى * مكانَ النَّبِىّ مِن الكاثِب

رتَمْت الشىء : كسرته ؛ يقال : رتم أنفه ورثمه ، بالتاء والثـاء جميعا . والرتم أيضا المرتوم أى المكسور . والكاثب آسم جبل . فالأنبياء لنـا كالسُّبُل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يانبىء الله ، وهمز . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستُ بنبىء الله — وهمز — ولكنى نبىّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضُعِّف سند هذا الحديث ؛ ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المـادح : * ياخاتَمَ النُّبآء ... * ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار .

(١) ج ١٤ ص ٢١٠ وص ٢٢٣

(٢) هو اوس بن حجر (كما فى اللسان) .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنمـا خرج هـذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق؛ فكان هـذا تعظيما للشُّنْعة عليهم؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق، ولكن يُقتل على الحق؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم؛ كمثل من يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ٱبن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبيـاء إلا من لم يؤمر بقتال، وكلّ مَن أمر بقتال نُصر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ «ذلك» ردّ على الأوّل وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى « بمـا » باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . وٱعتصتِ النَّواةُ إذا ٱشـتدّت . والاعتداء : تجاوز الحـدّ فى كل شيء ؛ وعُرِف فى الظلم والمعـاصى .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢)

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صـدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسـلم . وقال سُـفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهـم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَادُوا) معناه صاروا يهودا؛ نُسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليـه السلام؛ فقلبت العرب الذال دالا ؛ لأن الأعجمية إذا عُرّبت غُيّرت

Marfat.com

عن لفظها . وقيل : سُمُّـوا بذلك لتوبتهـم عن عبـادة العجل . هاد : تاب . والهـائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى آمرؤ من حُبّه هائدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إِنَّا هُـدْنَا إِلَيْكَ » أى تُبنا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيـادة إذا تابوا . وقال آبن عرفة : « هُدْنَا إِلَيْـك » أى سـكَنّا إلى أمرك . والهـوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبو السَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثـــة — قوله تعـالى : (وَالنَّصَارَى) جمـع ، واحده نَصْرانىّ . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء ، وهذا قول سـيبويه . والأنثى نصرانة، كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر[1] :

صدتْ كما صـــدّ عمـا لا يَحِلّ له * ساقِى نَصارَى قُبيل الفِصْح[2] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ، كَمَهْرِىّ ومَهارَى . وأنشد سـيبويه شاهدًا على قوله :

تـــراه إذا دار العِشَـــا مُتَحَنِّفًـا * ويُضْحى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشـــد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجَـد رأسُها * كما أسجَـدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ[3]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءى النسب؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وآمرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًّا . وفى الحديث : ” فأبواه يُهَوّدانِه أو يُنَصّرانِه “ . وقال عليه السلام : ” لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودىّ ولا نَصرانىّ

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصـل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح : فطر النصارى ، وهو عيد لهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

Marfat.com

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " . وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها؛ وقياسه النصرانيون . ثم قيل : سُمّوا بذلك لقرية تسمّى « ناصرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسب إليها فقيل : عيسى الناصرى؛ فلما نُسب أصحابه إليه قيل النصارى؛ قاله آبن عباس وقتادة . وقال الجوهرى : ونصران قرية بالشام ينسب إليها النصارى، ويقال ناصرة . وقيل : سُمّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا؛ قال الشاعر :

لما رأيتُ نَبَطًا أنصارَا * شمَّرت عن ركبتىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » .

الرابعة — قوله تعالى : (وَالصَّابِئِينَ) جمع صابئ، وقيل : صاب؛ ولذلك آختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأت ثنية الغلام إذا خرجت . ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامسة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم — على ما يأتى بيانه فى المائدة (١) — وضرب الجزية عليهم؛ على ما يأتى فى سورة « براءة » (٢) إن شاء الله . وآختُلف فى الصابئين؛ فقال السُّدّى : هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن راهويه . قال آبن المنذر وقال إسحاق: لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة: لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل: هم قوم يُشبه دينُهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وآبن أبى نَجيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة، لا تؤكل ذبائحهم . آبن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة ويقرءون الزبور ويصلّون الخمس؛ رآهم زياد

(١) راجع ج ٦ ص ٧٦ .   (٢) راجع ج ٨ ص ١١٠ .

Marfat.com

آبن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم — فيما ذكره بعض علمائنا — أنهم مُوَحّدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة ؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإصْطَخْرِىّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أى صدّق . و « مَن » فى قوله : « مَنْ آمَنَ » فى موضع نصب بدل من « الذين » . والفاء فى قوله « فَلَهُمْ » داخلة بسبب الإبهام الذى فى « مَن » . و « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » آبتـداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون «من» فى موضع رفع بالآبتداء، ومعناها الشرط . و « آمن » فى موضع جزم بالشرط ، والفاء الجواب . و « لهم أجرهم » خبر « من » ، والجملة كلها خبر « إنّ » ؛ والعائد على « الذين » محذوف؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمـان بالله واليوم الآخر آندارج الإيمـان بالرسل والكتب والبعث .

السابعـــة — إن قال قائل : لِمَ جُمِـع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» و « آمن » لفظ مفرد ليس بجمع ، و إنمـا كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أنّ « مَن » يقع على الواحد والتثنية والجمع ، بخائز أن يرجع الضمير مفرداً ومثنًّى ومجموعاً ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى . وقال : « ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ . وقال الشاعر :

أَلِمَّـا بسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَا ✽ وقُولَا لهـا عُوجِى على مَن تخَلّفُوا

وقال الفرزدق :

تعـالَ فإنْ عاهـدتَنى لا تخـونُنى ✽ نكن مثـلَ مَن ياذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب ، وتخلّف . وقال تعـالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » فحمل على المعنى ؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيهـا . و إذا جرى ما بعد « مَن » على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هـذه الآية . و إذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعـدُ على اللفظ ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقـد مضى الكلام فى قوله تعـالى : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1] . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثامنـــة — رُوِىَ عن ٱبن عباس أن قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » الآية . منسوخ بقوله تعـالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمـانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ »[1] . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فٱستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلعته فرميت به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ٱبن الأعرابيّ : الناتِقُ الرافِعُ، والناتِقُ الباسِطُ، والناتِقُ الفاتِقُ . وٱمرأة ناتِق ومِنتاق : كثيرة الولد . وقال القُتَبيّ : أخذ ذلك مِن نَتْقِ السِّقاء، وهو نفضه حتى تقتلع الزُّبْدة منـه . قال وقوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » قال : قُلِع من أصله .

وٱختلف فى الطور؛ فقيل : الطور ٱسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره؛ رواه ٱبن جريج عن ٱبن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبت . وقال مجاهـد وقتاده : أى جبل كان . إلا أن مجاهدا قال : هو ٱسم لكل جبل بالسريانية؛ وقاله أبو العاليـة . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب فى مقدمة الكتاب[2] . والحمد لله . وزعم البكرى أنه سُمِّىَ بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لمـا جاء بنى إسرائيل من عنـد الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصعِقوا ثم أُحيوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فٱقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٣ (٢) راجع ص ٦٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

فرسخ فى مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلّة ، وأُتُوا ببحر من خَلْفهم ، ونار من قِبَـل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سـقط عليكم الجبـل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التـوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بهـا عباده ، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعـالى اخترع وقت سجودهم الإيمـان [فى قلوبهم(١)] لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا، فحذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِـد واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدّى . وقيل : بنيّـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقـوّة ، بكثرة درس . ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيـهِ ﴾ أى تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها؛ فإن ذلك نَبْذٌ لهـا ؛ على ما قاله الشعبي وابن عُيَيْنة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ(٢) » . وقد روى النسائيّ عن أبى سعيد الخُدْريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ مِن شرّ الناس رجلًا فاسقًا يقرأ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شيء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه . فـا لزم إذًا مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنـا وواجبٌ علينا . قال الله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ(٣) » . فأُمرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهـود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئًا ؛ لغلبـة الجهل وطلب الرياسـة واتباع الأهواء . روى الترمذيّ عن جُبَيْر بن نُفَـير عن أبى الدردا قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليـه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هـذا أوانُ

(١) زيادة من تفسير ابن عطية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤١ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٠

Marfat.com

يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء " . فقال زياد بن لَبِيد الأنصاري : كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لَنقرأنه ولَنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : " ثَكِلَتْك أمُّك يا زياد أن كنتُ لأعُدّك من فقهاء المدينة هـذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فـماذا تُغني عنهم " وذكر الحديث ، وسيأتى . وخرّجه النسائي من حديث جُبير بن نُفير أيضا عن عَوف بن مالك الأشجعي من طريق صحيحة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : " ثَكِلَتْك أمُّـك يا زياد هـذه التوراة والإنجيل عند اليهـود والنصارى " . وفى المُوَطّأ عن عبدالله بن مسعود قال لإنسان : « إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضيّع حروفه ، قليلٍ مَن يسأل ، كثيرٍ مَن يُعطى ، يطيلون الصلاة ويُقْصِرون فيـه الخطبـة ، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتى على النـاس زمان قليلٌ فقهاؤه ، كثيرٌ قرّاؤه ، تُحفظ فيه حروف القرآن ، وتُضيّع حدوده ، كثيرٌ من يسأل ، قليلٌ من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصرون الصلاة ، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » . وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقـد قال يحيى : سألت ٱبن نافع عن قوله : يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم ؟ قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذى ٱفترض عليهم . وتقـدّم القول فى معنى قوله : « لعلكم تتقون »(١) . فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولّى تفعّل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم ؛ ثم ٱستعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقـدات ٱتساعا ومجازا . وقـوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى من بعـد البرهان ، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقـوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ « فضلُ » مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ؛ لأن العرب ٱستغنت عن إظهاره ؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ ، فإذا جاءوا بهـا لم يحذفوا الخبر . والتقدير فلولا فضل الله تداركم . ﴿ وَرَحْمَتُـهُ ﴾ عطف على « فضل » أى

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

لطفــه وإمهاله . ﴿لَكُنتُم﴾ جواب «لولا» . ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان؛ وقد تقدّم(١) . وقيل : فضله قبول التوبة، و«رحمته» العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ابن فارس في المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ «علمتم» معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى . فإذا قلت : عرفت زيدا، فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيدا، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد، وهو قول سيبويه : «علمتم» بمعنى عرفتم . وعلى الثاني إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقــد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفي التنزيل : «لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» . كل هــذا بمعنى المعرفة، فاعلم . «ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ» صلة «الذين» . والاعتداء . التجاوز، وقد تقدّم(٢) .

الثانيــة — روى النّسائي عن صفوان بن عسّال قال : قال يهوديّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هــذا النبيّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبيّ لو سمعك ! فإن له أربعة أعين(٣) . فأتيا رسول الله صلى الله عليــه وسلم وسألاه عن تسع آيات بيّنات؛ فقال لهم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتــلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحــق ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ولا تَسْحَروا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألّا تعــدوا في السّبت" . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبيّ . قال : "فـما

(١) راجع ص ٢٤٨　　(٢) راجع ص ٤٣٢　　(٣) الذي في نسخة النسائي : «لو سمعك كان له أربعة أعين» مع تأنيث العدد أيضا .

Marfat.com

يمنعكم أن تتبعونى " ! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذُرّيته نبيّ ، وإنا نخاف إن آتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان »(١) إن شاء الله تعالى .

الثالثة — ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت. والأول قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الآستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم آبن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة(٢) وألقاها فى ذَنَب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِىَ به فى الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهى وآعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى؛ فيقول : ألم نَنْهَكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وسيأتى فى « الأعراف »(٣) قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلقتها. وقيل : هو مأخوذ من السُّبُوت الذى هو الراحة والدعة .

وآختلف العلماء فى الممسوخ هل يَنْسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم . وآختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ (٢) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة تطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها . راجع جـ ٧ ص ٣٠٦

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠٧

Marfat.com

ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال آبن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال آبن عطية : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما آحتج به آبن العربى وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفار ألَا ترونها إذا وُضع لهـا ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضع لها ألبانُ الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضَّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر ؛ قال جابر : أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسختْ" فمتأول على ما يأتى . قال آبن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردة قد زَنَت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط فى بعضها ، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال آبن العربى : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفاً عن سَلف إلى زمان عمرو؟ قلنـا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه فى مُسُوخهم(1) حتى يكون أبلغ فى الحجـة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبـارهم ومسوخهم(1) ، حتى يعلموا أن الله يعـلم ما يُسِرّون وما يُعلنـون ، ويُحصى ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّـه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هـذا كلامه فى الأحكام ، ولا حجة فى شىء منه . وأما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمـرو بن ميمون الأَوْدىّ فى الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة آجتمع عليها قردة

(1) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

Marfat.com

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسـعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارى من كتابه ، فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها ، فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمى عن الفَرَبْرِى أصلًا شىء من هذا الخبر فى القردة ، ولعلها من المُقْحَمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارى فى التاريخ الكبير : قال لى نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال : رأيت فى الجاهليـة قِردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم . وليس فيه «قد زنت» . فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارى دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذى ظنّه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب عمرو بن ميمون وأن كنيته أبو عبـد الله « معدود فى كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأن رواته مجهولون . وقد ذكره البخارى عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدى مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان ، وليسا ممن يُحتج بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلَّف ، و إقامة الحدود فى البهـائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفأر" وفى الضب : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخت" وما كان مثله ، فإنمـا كان ظنًّا وخوفًا لأن يكون الضب والفأر وغيرهما ممـا مُسخ ، وكان هذا حَدْسًا منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلًا ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنـه ذلك التخوف ، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا ممـا مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى ممـا مسخ ؟ فقال : "إنّ الله لم يُهلكْ قومًا أو يعذّب قومًا فيجعل لهم نسلًا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك" . وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛

Marfat.com

فدلّ على صحة ما ذكرنا . وبالله توفيقنا . ورُوِى عن مجاهد فى تفسير هذه الآية أنه إنمـا مُسِخت قلوبُهم فقط ، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة . ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ « قردة » خبر كان . ﴿خَاسِئِينَ﴾ نعت ، وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير فى « كونوا » . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأْته خَسْأً وخَسِئ وانخسأ ؛ أى أبعدته فبَعُدَ . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا »[(١)] أى مبعَدًا . وقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا »[(٢)] أى تباعدوا تبـاعد سخط . قال الكسائى : خَسَأ الرجل خُسُوءا ، وخَسَأْته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القَمِىء . يقال : قَمُؤَ الرجل قَماء وقَماءة صار قميئًا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعـالى : ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمة التى مُسِخت . وقيـل : الحيتان ؛ وفيه بُعْدٌ . والنَّكال : الزجر والعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيـود . وسُمِّيت القيـود أنكالا لأنها يُنْكَل بهـا ؛ أى يمنع . ويقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل[(٣)] ؛ لأن الدابة تُمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا آمتنع . والتنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تَنْـكُل مَن وراءهم ؛ أى تُجبّنهم . وقال الأزهرى : النكال العقوبة . آبن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكّل بالإنسان ؛ قال[(٤)] :

* فآرم على أقفائهم بمَنْكَل *

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٣) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنمـا هو بالكسر لا غير . (٤) القائل رباح المؤملى . وقبله :

* يارب أشقانى بنـو مؤمل * وبعده : * بصخرة أو عرض جيش جحفل *

(عن شرح القاموس) .

Marfat.com

قوله : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ قال آبن عباس والسُّدّى : لِمَا بين يدى المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لمن يعمل بعدها مثـل تلك الذنوب . قال الفـرّاء : جُعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ؛ ولِمَا يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال آبن عطية : وهذا قول جيّد، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن آبن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . وآختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم . وعن آبن عباس أيضا : « لما بين يديها وما خلفها » من القُرَى . وقال قتادة : « لما بين يديها » من ذنوبهم، « وما خلفها » من صيد الحيتان .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عطف على نكال ، ووزنُهـا مَفْعِـلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعِظَة الاسم . قال الخليل : الوَعْظ التذكير بالخير فيما يَرِقّ له القلب . قال المـاوَرْدِىّ : وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعـاندين . قال آبن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتَّقٍ من كل أمة . وقال الزجاج : « وموعظة للمتقين » لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جلّ وعزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ آنتهكوا حُرَم الله فى سَبْتهم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ حُكى عن أبى عمـرو أنه قرأ « يَأْمُرْكُمْ » بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هـذا لأن الراء حرف الإعراب، وإنمـا الصحيح عن أبى عمـرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ فى موضع نصب بـ « يأمركم » ؛ أى بأن تذبحوا . ﴿ بَقَـرَةً ﴾ نصب بـ « تذبحوا » . وقـد تقدّم[1] معنى الذبح، فلا معنى لإعادته .

---

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدّم فى التلاوة ، وقوله : « قَتَلْتُمْ نَفْسًا » مقدّم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : « قتلتم » فى النزول مقدّما ، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأُمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون « وإذ قتلتم » مقدّما فى المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ؛ لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وانقضائه فى قوله : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ — إلى قوله — إِلَّا قَلِيلٌ »(١) . فذكر إهلاك مَن هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . فذكر الركوب متأخرا فى الخطاب ؛ ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا »(٢) . وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثـالثـــة — لاخلاف بين العلماء أن الذبح أَوْلَى فى الغنم ، والنحر أَوْلَى فى الإبل ، والتخيّر فى البقر . وقيل : الذبح أَوْلَى ؛ لأنه الذى ذكره الله ، ولِقُرب المنحر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرّم أكل ما نُحر مما يُذبح ، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشئ ولا يحرمه . وسيأتى فى سورة « المائدة » أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ »(٣) مستوفًى إن شاء الله تعالى . قال الماوردى : وإنما أُمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علّة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حىّ ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى ، والثور اسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣   (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦   (٣) راجع جـ ٦ ص ٥٤

Marfat.com

بَقَر بطنه ، أى شقه ؛ فالبقرة تَشق الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ؛ لأنه بَقَر العلم وعرف أصله ، أى شقه . والبَقِيرة : ثوب يُشق فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمَّين . وفى حديث آبن عباس فى شأن الهُدهد " فبقر الأرض " . قال شَمِر : بَقَر نَظَر موضع الماء ، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهرى : البقر آسم للجنس وجمعه باقر . آبن عرفة : يقال بقير وباقر وبَيْقور . وقرأ عكرمة وآبن يعمر « إن الباقر »[(١)] . والثَّور : واحد الثيران . والثَّور : السيِّد من الرجال . والثَّور القطعة من الأَقِط . والثَّور : الطُّحْلُب . وثَوْر : جبل . وثَوْر : قبيلة من العرب . وفى الحديث : " ووقت العشاء ما لم يغب ثَوْر الشفق " يعنى آنتشاره ؛ يقال : ثار يثور ثوراً وثورانا إذا آنتشر فى الأفق . وفى الحديث : " من أراد العلم فلْيُثَوِّر القرآن " . قال شَمِر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم — قيل : آسمه عاميل — وآشتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتتل ورسول الله بين أظهرنا ؛ فأتوه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسامة[(٢)] فى التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عما سألوه عنه وآحتكموا فيه عنده ؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهزء : اللعب والسُّخرية ؛ وقد تقدم[(٣)] . وقرأ الجَحْدَرى « أيتخذنا » بالياء ؛ أى قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ؛ فاستعاذ منه عليه السلام ؛ لأنها صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم . فآستعاذ من الجهل ، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا ؛

---

(١) فى لسان العرب : فأما بقر و باقر و بقير و بيقور و باقور و باقورة فأسماء للجميع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : «فقلنا اضربوه ببعضها» راجع ص ٤٥٧ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٢٠٧ .

Marfat.com

لمن يخبرهم عن الله تعالى ، وظاهر هـذا القول يدلّ على فساد آعتقاد مَن قاله . ولا يصحّ إيمان مَن قال لنبيّ قد ظهرت معجزته ، — وقال : إن الله يأمرك بكذا — : أتتخذنا هُزُؤا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم اوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهـة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل ، وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهـل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل آسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعْل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُـل ورُسْل ، وعُون وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا »[1] فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه إن شاء الله تعـالى .

مســـئلة — فى الآية دليل على منع الآستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبـه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الآستهزاء بسبيل ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمـة بعده . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبَّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيهـا القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الآستهزاء ، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

Marfat.com

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو آمتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله آبن عباس وأبو العاليـة وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ولغـة بني عامر «آدع» وقد تقدّم[1] . و﴿يُبَيِّن﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر . وماهيّة الشيء : حقيقته وذاته التي هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لمـا أمر ببقرة آقتضى أيّ بقرة كانت ، فلمـا زاد في الصفة نسـخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : في ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخه بآبنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارض : المسِنّة . وقد فَرَضَت تفرِض فروضًا؛ أي أسنّت . ويقال للشيء القديم فارض؛ قال الراجز :

شيَّبَ أصداغِي فرأسِي أبيضُ ... مَحَامـِلٌ[2] فيهـا رجال فُـرّضُ

يعني هَرْمَى؛ قال آخر :

لعَمْرُك[3] قـد أعطيتَ جارك فارضًا ... تُساق إليــه ما تقــوم على رِجْلِ

أي قديمـا؛ وقال آخر :

يا رُبّ ذي ضِغْنٍ عليّ فارضِ ... له قُـروء كقُروء الحـائِضِ

---

(١) راجع ص ٤٢٣

(٢) في الصحاح للجوهري : «محافل» بالفاء ، وفيـه رواية أخرى رواها آبن الأعرابي هي :

* محامل بيض وقـوم فرض *

يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة «فرض» .

(٣) رواية اللسان : «لعمري لقد» وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عنى بقرة هَرِمَة .

Marfat.com

أى قديم . و «لا فارِضٌ» رفع على الصّفة لبقرة . «ولَا بِكْرٌ» عطف . وقيل : «لا فارضٌ» خبر مبتدأ مضمر ؛ أى لا هى فارض وكذا «لا ذلول» ، وكذلك «لَا تَسْقِى الْحَرْثَ» وكذلك «مُسَلَّمَةٌ» فاعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القُتَبِيّ أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ * أصبحتَ مِنّى كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضًا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل؛ وهى مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِيّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التى قد ولدت بطنًا أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْت بَهِيم اللَّوْنِ ليس بفارضٍ * ولا بِعَوانٍ ذاتِ لَوْنٍ مُخَصَّفِ

فرس أَخْصَف : إذا ٱرتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهد : العَوَان من البقر هى التى قد ولدت مَرّة بعد مَرّة . وحكاه أهل اللغة . ويقال : إن العَوَان النّخلةُ الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَروسٌ تُهِرّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ (١)

أى لا هى صغيرة ولا هى مُسِنّة؛ أى هى عَوان، وجمعها «عُونٌ» بضم العين وسكون الواو؛ وسُمع «عُوُن» بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم . وحكى الفَرّاء من العوان عَوّنت تَعْوِينًا .

قوله تعالى : ﴿فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه . وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور فى أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفَوْر؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدلّ على صحة ذلك أنه تعالى ٱستقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أُمِروا به فقال :

(١) فى الأصول : «تهز» بالزاى . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى «تهر الناس» أى تصيّرهم يهرّونها ؛ أى يكرهونها . ولقحت : اشتدت . ومضرة : ملحة . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة معوجة .

Marfat.com

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيل : لا ، بل على التراخى؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد .

قوله تعالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ «ما» ٱستفهام مبتدأة، و « لونها » الخبر . ويجوز نصب « لونها » بـ « يبيّن » ، وتكون « ما » زائدة . واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة . واللَّوْن : النَّوع . وفلان مُتلَوِّن : إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ؛ قال :

كلّ يوم تتلوّن * غير هذا بك أجمل

ولَوّن البُسْر تلوينًا : إذا بدا فيه أثر النُّضج . واللَّوْن : الدَّقَل، وهو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة، واحدها لِينة .

قوله : ﴿صَفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون ، من الصُّفرة المعروفة . قال مكيّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وٱبن جُبير : كانت صفراء القرن والظِّلف فقط . وعن الحسن أيضا : « صفراء » معناه سوداء؛ قال الشاعر (١) :

تلك خَيْلِي منه وتلك رِكابِي * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيب

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر ؛ وهذا شاذّ لا يُستعمل مجازا إلا فى الإبل؛ قال الله تعالى : « كأنّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ » وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة . ولو أراد السواد لما أكّده بالفُقُوع، وذلك نعتٌ مختص بالصّفرة، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب : أسوَدُ حالِكٌ وحَلْكوك وحُلْكُوك، ودَجُوجِيّ وغِرْبيب ، وأحمرُ قانِئ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهِقٌ ولِهَاق ويَقق ، وأخضرُ ناضِرٌ ، وأصفرُ فاقِعٌ ؛ هكذا نصّ نَقَلة اللغة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى ؛ كما فى اللسان .

Marfat.com

الكسائي : يقال فَقَع لَونُها يَفقَع فُقوعاً إذا خَلَصت صُـفْرته . والإفقاع : سـوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وفقّع بأصابعه إذا صوّت؛ ومنه حديث ابن عباس : نهى عن التفقيع في الصلاة ؛ وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تُنقِض(1) . ولم ينصرف «صفراء» في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيها ألف التأنيث وهي ملازمة فخالفت الهاء ؛ لأن ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، كفاطمة وعائشة .

قوله تعالى : ﴿فَاقِـعٌ لَوْنُهَا﴾ يريد خالصًا لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها . ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال وهب : كأن شُـعاع الشمس يخرج من جلدها ؛ ولهـذا قال ابن عبـاس : الصـفرة تسرّ النفس . وحضّ على لبـاس النِّعال الصُّفر؛ حكاه عنـه النقاش . وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : من لبس نعلي جلد أصفرَ قلّ همّه ؛ لأن الله تعـالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبي . ونَهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود؛ لأنها تُهِمّ . ومعنى « تسرّ» تُعجِب . وقال أبو العالية : معناه في سَمْتها ومنظرها فهي ذاتُ وصفين، والله أعلم .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ سالوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمع ، ولذلك قال : « إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَـا » فذكّره للفظ تذكير البقر. قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعي : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة؛ حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس، والأعرج فيما ذكر الثعلبي « إن البقر تَشّابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء في الشين . وقرأ مجاهد «تَشَبَّه» كقراءتهما ،

(1) كل صوت لمفصل وأصبع فهو تنقيض .

Marfat.com

إلا أنه بغير ألف . وفى مصحف أُبَيّ «تشّابهت» بتشديد الشين . قال أبو حاتم: وهو غلط؛ لأن التـاء فى هذا الباب لا تُدغم إلا فى المضارعة . وقرأ يحيى بن يَعمر « إن الباقر يشابه » جعله فعلا مستقبلا، وذكّر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تَشَـابَهُ » بتخفيف الشـين وضم الهـاء؛ وحكاها الثّعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز « يَشابه » بتخفيف الشين والياء، و إنمـا جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه لحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر والبَيْقور والبَقير لغاتٌ بمعنًى، والعرب تذكّره وتؤنّثه، و إلى ذلك ترجع معانى القراءات فى «تشّابه» . وقيل: إنمـا قالوا : « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليمـان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر " فِتَناً كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر " . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم؛ وفى آستثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ مّا وآنقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو ما آستثنوا ما آهتدوْا إليها أبدا "(١) . وتقدير الكلام و إنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء آهتماماً به . و « شـاء » فى موضع جزم بالشرط، وجوابه عنـد سيبويه الجملة « إن » وما عملت فيه . وعند أبى العباس المبرّد محذوف .

قوله تعـالى : قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلولٌ » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : « لا ذلول » نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي « لا ذلولَ » بالنصب على النفى والخبر مضمر . ويجوز لا هى ذلول، لا هى تسقى الحرث، هى مُسَلّمة . ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل؛ يقال : بقرة مذلّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال) . ورجل ذليل بيّن الذُّل (بضم الذال) . أى هى بقرة صعبة غير رَيِّضة لم تذلّل بالعمل .

(١) فى نسخة من الأصل : « لولا » وروى الحديث من طرق بلفظ : « لو لم يستثنوا » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الأَرْضَ ﴾ « تُثير » فى موضـع رفع على الصفة للبقرة ؛ أى هى بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وَحْشِيَّة ، ولهـذا وصفها الله تعـالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، أى لا يُسْنَى بهـا لسَقْى الزرع ولا يُسقى عليهـا . والوقف هاهنا حســن . وقال قوم : « تثير » فعـل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لهـا ، وأنها كانت تحـرث ولا تسقى . والوقف على هـذا التأويل « لا ذلول » . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما ـــ ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون « تثير » مسـتأنفا ؛ لأن بعـده « ولا تسقى الحرث » ، فلو كان مستأنفًا لمـا جمع بين الواو و « لا » . الثـانى ـــ أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون « تثير الأرض » فى غير العمل مرحًا ونشاطًا ، كما قال آمرؤ القيس :

يُهيل ويُذرى تُرْبَه ويُثيره * إثارة نَبَّـاثِ[1] الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفا ، « ولا تسقى » معطوف عليه ؛ فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها ؛ ومنه الحديث : "أثيروا القرآن فإنه[2] عِلْمُ الأوّلين والآخرين" وفى رواية أخرى : "من أراد العلم فَلْيُثَوِّر[3] القرآن" وقد تقدّم . وفى التنزيل : « وأثاروا الأرض » أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حُرِث وزُرِع . وسيأتى .

مســئلة ـــ فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السَّـلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ والليث والشافعىّ . وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفًا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصّفةَ تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسـلم دِيَةَ الخطأ فى ذمّة من أوجبها عليه دَيْنًـا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله « نباث الهواجر » يعنى الرجل الذى إذا اشـتد عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خمسا . (٢) فى نهاية ابن الأثير : « فإن فيه » . (٣) راجع ص ٤٤٦ .

Marfat.com

الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثوريّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم في الحيوان . ورُوِيَ عن ابن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة ، وكل ذلك يزيد في ثمنه و يرفع من قيمته . وسيأتي حكم السَّلَم وشروطه في آخر السورة في آية الدَّيْن(١)، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أي هي مُسَلَّمة . ويجوز أن يكون وصفا ؛ أي أنها بقرة مُسَلَّمة من العَرَج وسائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مُسَلَّمة من العمل لنفي الله العمل عنها . وقال الحسن : يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لَون يخالف معظم لونها ، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » . وأصل « شِيَة » وِشْي ، حُذفت الواو كما حذفت من يشي ، والأصل يوشي ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة . والشِّيَة مأخوذة من وَشْي الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين . وثَوْر مُوَشًّى : في وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشِّيَة اللون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغَيِّر الكلام ويُلَوِّنه فيجعله ضروبا ويزين منه ماشاء . والوَشْيُ : الكثرة . ووَشَى بنو فلان : كثروا . ويقال : فَرَسٌ أبلقُ ، وكَبْشٌ أَخْرَجُ ، وتَيس أَبْرَقُ ، وغرابٌ أَبْقَعُ ، وثور أَشْيَهُ . كل ذلك بمعنى البُلْقَة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين الله يُسْرٌ ، والتعمّق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بني إسرائيل وُلد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضَة وقال : اللهمّ إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي . ومات الرجل ، فلما كبر الصبي قالت له أمه — وكان بَرًّا بها — : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها — وكانت مستوحشة — فجعل يقودها نحو أمه ؛ فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أمروا بها ؛ فساموه فاشتطّ عليهم . وكان قيمتها على

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٧ فما بعدها .

Marfat.com

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا آشتطّ علينا ؛ فقال لهم : أرضُوه فى مِلكه ، فاشتروْها منه بوزنها مرّة ؛ قاله عَبيدة . السُّدّى : بوزنها عشر مرات . وقيل : بملء مَسْكِها دنانير . وذكر مكّى : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا ألآن » قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجهاً آخر « قالوا لَانَ » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو « عاداً لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالُ لَان » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لآلتقاء الساكنين . قال الزجاج : « الآن » مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت . فبُنيت كما بُنى هذا ، وفُتحت النون لآلتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعل ؛ تشبيهاً بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة [1] . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفاً من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه .

قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدم على أوّل القصة، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها . فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً ؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أوّل القصة .

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

وفى سبب قتله قولان : أحدهما — لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابنُ عمّها فمنعه عمّه ؛ فقتله وحمله من قريتــه إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيــل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ، فإنه كان فقيرا وآدّعى قتله على بعض الأسباط . قال عِكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له آثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلا فى سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وآدّعى هؤلاء على هؤلاء ؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إنّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» الآية . ومعنى « ادّارَأْتُمْ » : آختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم ؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل. ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ فى موضع نصب بـ «مُخْرِج » ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿تَكْتُمُونَ﴾ جملة فى موضع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمــدٍ من حينئذ ؛ قاله عَبيدة السَّلْمانيّ . قال آبن عباس : قَتل هــذا الرجلُ عمَّه ليرثه . قال آبن عطية : و بمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى « مُوَطَّئه » أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلاَح فى عمّه هى كانت سبب ألا يَرِث قاتلٌ؛ ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدِّية ولا من المــال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويَرِث قاتل الخطأ من المــال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعى ؛ لأنه لا يُتّهم على أنه قتــله ليرثه و يأخذ ماله . وقال ســفيان الثَّوْرِيّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً من المــال ولا من الدِّية . وهو قول شُرَيح وطاوس والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ . ورواه الشَّعْبِيّ عن عمر وعلىّ وزيد قالوا : لا يَرِث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المــال جميعا؛ حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث(١) إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ فما بعدها .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب، إذ فيه يُركَّب خَلْق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها؛ فلما ضُرِب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مســـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ٱبن وهب وٱبن القاسم على صحة القول بالقَسامة بقول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلانٌ قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلان قتلنى ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال؛ فبطل ٱعتبار قول المقتول دمى عنـد فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبرًا جزمًا لا يدخله ٱحتمال ؛ فافترقا . قال ٱبن العربىّ : المعجزة كانت فى إحيائه ؛ فلمـا صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد . وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك ، وليس فى القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فلعله أمرهم بالقسامة معه . وٱستبعد ذلك البخارىّ والشافعىّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله فى الدّم وهو لا يُقبل قوله فى درهم .

مســـئلة — اختلف العلماء فى الحُكم بالقَسامة ؛ فرُوِىَ عن سالم وأبى قِلَابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُيَيْنة[1] التّوقف فى الحُكم بهـا . وإليـه مال البخارى ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحُكم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱختلفوا فى كيفيّة الحُكم بها؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلَفوا ٱستحقُّوا ، وإن نَكَلُوا حلَف المدّعَى عليهم خمسين يمينًا وبَرِءُوا . هذا قول أهل المدينة واللَّيث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

(١) فى نسخة : « الحكم بن عتيبة » .

Marfat.com

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوِىَ هذا عن عمر بن الخطاب والشَّعْبي والنَّخَعِي ، و به قال الثَّوْرِي والكوفيّون ؛ وآحتجُّوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير آبن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود . و بما رواه أبو داود عن الزُّهْرِي عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهـم : " أيحلف منكم خمسون رجلا " . فأبوا ؛ فقال للأنصار : " آستحقّوا " فقالوا : نحلف على الغيب يا رســول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وســلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعَى عليه" فعيِّنــوا[(1)] . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به في الدعاوى الذى نَبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : " لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لآدّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمـين على المدّعى عليه[(2)] " . رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد في تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائي وقال : ولم يتابع سعيد في هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وســلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وآبنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثقفيّ وعيسى بنُ حماد و بِشْرُ بن المفضَّل ؛ فهؤلاء سبعة . و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث ســعيد بن عُبيد . قال أبو محمد الأصيلي : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بنَ عُبيد قال في حديثه : فَوَداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى في الدِّيات ولا يُصالح بها عن غير أهلها ، وحديث أبي داود مرســل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هـذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء . قال آبن المنذر ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعِي واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكْم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله في كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله عليــه وسلم حكمًا في شيء من الأشــياء فيُستثنى من جملة هــذا الخبر . فما دلّ عليه الكتاب إلزام القــاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخصّ

(1) هذه الكلمة ساقطة في بعض النسخ . (2) كذا ورد هذا الحديث في بعض نسخ الأصل وصحيح مسلم . قال ابن الملك : إنما ذكر اليمين فقط لأنها هي الحجة في الدعوى آخرا ، و إلا فعلى المدعى إقامة البينة أولا .

Marfat.com

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . ومما خصّته السُّنّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسَامة . وقد روى ٱبن جُريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " البيّنةُ على مَن ٱدّعى واليمينُ على مَن أنكر إلّا في القَسَامة " . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقد ٱحتج مالك لهذه المسئلة في مُوَطّئه بما فيه كفاية؛ فتأمله هناك .

مسـألة — وٱختلفوا أيضا في وجوب القَوَد بالقسامة ؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها ؛ وهو قول مالك واللّيث وأحمد وأبي ثَوْر؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبِكم " . و روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقَسَامة من بني نضر بن مالك . قال الدّارَقُطْني : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخاري : رأيت عليّ بن المدِيني وأحمد بن حنبل والحُمَيْدي و إسحاق بن رَاهُويه يحتجّون به؛ قاله الدارقطني في السنن . وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة ، وإنما توجب الدّية . رُوي هذا عن عمر وٱبن عباس ؛ وهو قول النَّخَعي والحسن ، و إليه ذهب الثّوري والكوفيون والشافعي و إسحاق ، وٱحتجوا بما رواه مالك عن ٱبن أبي ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبي حَثْمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب " . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقّون دَمَ صاحبِكم " دِية دمِ قتيلِكم ؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم؛ ومن ٱستحق دية صاحبه فقد ٱستحق دمه؛ لأن الدّية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك ٱستحقاقا للدم .

مسـألة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه . واللَّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صدق مدّعي القتل ؛ كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتشحّط[(١)] في دمه ، والمتّهم نحوه أو قُربه عليه آثار القتل . وقد ٱختلف في اللَّوْث والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمي عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا في رواية ٱبن القاسم عنه .

(١) يتشحط في دمه : أي يتخبط فيه و يضطرب ويتمرغ .

Marfat.com

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى آبن وهب أن شهادة النساء لَوث . وذكر محمد عن آبن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضى أبو بكر بن العربى : آختلف فى اللّوث آختلافا كثيرا ؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحبّ إلىّ . قال : وأخذ به آبن القاسم وآبن عبد الحكم . ورُوى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمى عند فلان ومات كانت القَسامة . وبه قال مالك واللّيث بن سعد . وآحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللّوْث الشاهد العدل ، أو يأتى ببيّنة و إن لم يكونوا عدولا . وأوْجب الثورىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، وآستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ؛ قالوا : إذا وُجد قتيل فى مَحلّة قومٍ وبه أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم . وذهب مالك والشافعىّ إلى أن القتيل إذا وُجد فى مَحلّة قومٍ أنه هَدَر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســـئلة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائى : لا يقول مالك بالقسامة إلا باللّوْث ، فلم أوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال آبن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان ؛ وبأن العداوة لَوْث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثا ؛ كما تقدم . قال الشافعى :

Marfat.com

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التى كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل فى أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مسـألة — وآختلفوا فى القتيـل يوجد فى المحلة التى أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأى : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شىء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيـل فالدّيَةُ على المشترى وليس على السكان شىء، وإن كان أرباب الدُور غُيَّبًا وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذى وُجد القتيل بين أظهرهم شىء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان فى الدُّور . وحكى هذا القول عن آبن أبى ليلى ، وآحتج بأن أهل خَيْبَرَ كانوا عُمّالاً سُكّانًا يعملون فوُجد القتيل فيهم . قال الثورى ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل، يعنى أهل الدور . وقال أحمد : القول قول آبن أبى ليلى فى القسامة لا فى الدية . وقال الشافعى : وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء . قال آبن المنذر : وهذا أصح .

مسـألة — ولا يحلف فى القسامة أقلّ من خمسين يمينا؛ لقوله عليه السلام فى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يمينًا واحدة، فان كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمـان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف فى العمد أقل من آثنين من الرجال، لايحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليـاء من العَصَبة خمسين يمينًا . هذا مذهب مالك والليث والثّورى والأوزاعى وأحمـد وداود . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفُسهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينًا يبرئون بها أنفسهم؛ وهو قول الشافعى . قال الشافعى : لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثَوْر وآختاره آبن المنذر وهو الصحيح؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه

Marfat.com

الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يُدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِىَ عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق .

مسـألة — فى قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، واختاره الكرخى ونصّ عليه ابن بُكير القاضى من علمائنا، وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومَنازعه فى كتبه، وإليه مال الشافعى، وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(١) على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم(٢) . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلتُ نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ (٢) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء

Marfat.com

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال آبن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوبا ، ولا أشدّ تكذيباً لنبيّهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة من الشقاء جمود العين وقَساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا" .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ «أو» قيل : هى بمعنى الواو، كما قال : «آثِمًا أَوْ كَفُورًا» . «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل؛ كقوله تعالى : «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ»[2] المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مِثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتِها أو أنت فى العين أملح[3]

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب؛ ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلِىّ :

أحبّ محمدا حبًّا شديدا * وعبّاسا وحمزة أو عليّا
فإن يك حبّهم رشدا أُصِبْه * ولستُ بمخطئٍ إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر، وإنما قصد الإبهام. وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ، ثم آستشهد بقوله تعالى : «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»[4] وقال : أو كان شاكًّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة

---

(١) القساء (بالفتح والمد) : مصدر، مثل القسوة والقساوة .
(٢) راجع ١٥ ص ١٣٠
(٣) راجع البيت فى خزانة الأدب فى الشاهد ٨٩٥
(٤) راجع ج ١٤ ص ٢٩٨

Marfat.com

تصيبوا ، أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك ، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر ، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر . فالمعنى : هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشدّ» مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله «كالحجارة» ؛ لأن المعنى فهى مثل الحجارة أو أشدّ . ويجوز أو « أشدَّ » بالفتح عطف على الحجارة . و ﴿قَسْوَةً﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَةَ « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار (١) . ويشّقّق أصله يتشقّق ، أدغمت التاء فى الشين ؛ وهذه عبارة عن العيون التى لم تَعْظُم حتى تكون أنهارا ، أو عن الحجارة التى تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون ، وقرأ «لمّا يتفجر» «لمّا يتشقّق» بتشديد «لما» فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعـذر شقىّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لما تتفجر بالتاء ، ولا يجوز لما تتشقق بالتاء ؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار ، وهذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى ؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةً تتشقق ؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشّق واحد الشُّقوق ؛ فهو فى الأصل مصدر ، تقول : بيد فلان ورجليه شقوق ، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب ، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها (٢) ؛ عن يعقوب . والشّق : الصبح . و«ما» فى قوله :

---

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق . وقيل : ما فوق الرسغ الى الساق .

Marfat.com

«لَمَا يَتَفَجَّرُ» فى موضع نصب؛ لأنها آسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ منه الْمَاءُ» . وقرأ قتادة « وإنْ » فى الموضعين ، مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج الماء منها وتردّيها . قال مجاهد : ماتردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن آبن جُرَيج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : « وإن منها لما يَهْبِط من خشيةِ الله » : البَرَد الهابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز ؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة؛ أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرىّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ؛ كما آستعيرت الإرادة للجدار فى قوله : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ »، وكما قال زيد الخيل : (١)

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سورُ المدينة والجبالُ الخُشّعُ

وذكر آبن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : « وإنّ مِنها » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ؛ أى من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح؛ فإنه لايمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى رُوِىَ عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : ” إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية

---

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وفى كتاب سيبويه إلى جرير . ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين آنصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

Marfat.com

إني لأعرفه الآن ". وكما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال لى ثَبِير[١] اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله ". فناداه حراء: إلىّ يارسول الله. وفي التنزيل: « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ[٢] » الآية. وقال: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ[٣] » يعنى تذللا وخضوعا، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان[٤] » إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «بغافل» فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم فى موضع رفع. والباء توكيد. « عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم؛ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[٥] ». ولا تحتاج «ما» إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم؛ أى عن الذى تعملونه. وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام ما.

---

(١) ثبير: جبل معروف عند مكة. (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٣
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٧ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠

تمّ الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى، وأوله قوله تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية.

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثاني

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت

Marfat.com

فهـــرس الجـــزء الثـــانى

ســـورة البقـــرة

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ... » الآية . فيـه أربع مسائل . ١
تفسير قوله تعالى : « وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ... » الآية ٣
تفسير قوله تعالى : « ومنهـم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أمَانِيّ ... » الآية .
فيه أربع مسائل : ٥
تفسير قوله تعالى : « فَوَيْلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ... » الآية . فيه خمس مسائل : معنى الويل وٱختلاف العلماء فيه . أوّل من كتب بالقلم . التحذير من التبديل والزيادة فى الشرع ٧
تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن تمسّنا النـارُ إلا أيامًا معدودةً ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الآختلاف فى سبب نزولها ١٠
تفسير قوله تعالى : « بَلَى مَن كسب سيئة ... » . الآية. فيه ثلاث مسائل: الكلام على « بـلى ونعم » . معنى السيئة . بيان أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما . ١١
تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ... » الاية . فيـه عشر مسائل : الآختلاف فى الميثـاق . الحض على برّ الوالدين واليتامى وذى القربى والمساكين . الأمر بالإحسان إلى جميع الناس ١٢
تفسير قوله تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ... » الآية . سبب نزول هذه الآية . الكلام على الأسـارى وفَكّ الأسرى ١٩
تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا ... » الآية . معنى التَّقْفية . بيان ما أوتيه عيسى عليه السلام من البينات ، ومعنى روح القدس ٢٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « بئسما اشتروا به أنفسهم ... » الآية . الكلام فى « بئسما » . ٢٧

تفسير قوله تعالى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ... » الآية . الكلام على البينات. ٣٠

تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ... » الآية ٣١

تفسير قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ... » الآية . الكلام على حرص اليهود على الحياة ٣٤

تفسير قوله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل ... » الآية . الكلام على سبب نزولها . بيان ما فى جبريل وميكائيل من اللغات ٣٦

تفسير قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ... » الآية . فيه أربع وعشرون مسألة : الكلام على السحر وأصله . الاختلاف فى هل له حقيقة أولا . من السحر ما يكون كفرا من فاعله . الفرق بين السحر والمعجزة . اختلاف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذمى . الكلام على هاروت وماروت ٤١

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ... » الاية . فيه خمس مسائل : بيان أن الله تعالى أمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها . الكلام على سد الذرائع وحمايتها ٥٧

تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها ... » الآية . فيه خمس عشرة مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . بيان النسخ فى كلام العرب وحكمه . اختلاف العلماء فى الأخبار هل يدخلها النسخ . بيان الطرق لمعرفة الناسخ ٦١

تفسير قوله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم ... » الآية . فيه مسألتان : الكلام على الحسد وأن فيه مذموما ومحمودا ٧٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ومَن أظلم ممن منع مساجد الله ... » الآية . فيه سبع مسائل
اختلف فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت . خراب المساجد يكون حقيقةً
ويكون مجازا . لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه . فى الآية دليل على أن الكافر
ليس له دخول المسجد بحال ٧٦

تفسير قوله تعالى : « ولله المشرقُ والمغربُ ... » الآية . فيه خمس مسائل :
اختلاف العلماء فى معنى « فأينما تُوَلُّوا » . الكلام على استقبال القبلة
فى الصلاة . التنفّل على الدابة . صلاة الجنازة على الغائب . اختلف فى تأويل
الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسُّنة ٧٩

تفسير قوله تعالى : « بَديعُ السمواتِ والأرض ... » الآية . فيه ست مسائل :
الكلام على البدعة وبيان معانيها . بيان أن الأمر فى قوله : « وإذا قَضَى
أمرا » ينصرف على أربعة عشر وجهًا ٨٦

تفسير قوله تعالى : « ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى ... » الآية . فيه
مسألتان : الكلام على الدِّين والمِلّة والشريعة . بيان أن الكفر كله مِلّةٌ واحدة. ٩٣

تفسير قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يَتْلُونَه ... » الآية . الكلام على هذه
الآية وفيمن نزلت ٩٥

تفسير قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهن ... » الآية . فيه
عشرون مسألة : الكلام على نَسَب إبراهيم . اختلاف العلماء فى المراد
بالكلمات . الكلام على الختان واختلاف العلماء فيه . الكلام على الاستحداد .
الكلام على تقليم الأظفار . تنظيف اللِّثة وتَنْقِيَة البَراجم . الكلام على قصّ
الشارب . الكلام على الشيب . معنى الذّرية وما فيها من اللغات . المراد بالعهد
فى قوله تعالى « لا ينال عَهْدِى الظالمين » . الكلام على الإمامة ومن يكون
إماما . القول فى أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أَوْلَى من الخروج عليه ٩٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيتَ مَثابةً للناس ... » الآية . الكلام على إقامة الحدّ فى الحَرَم . قول عمر رضى الله عنه : «وافقتُ ربى فى ثلاث» . الكلام على مقام إبراهيم . الكلام على الصلاة داخل الكعبة وعلى ظهرها . آختلاف العلماء أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ١١٠

تفسير قوله تعالى : «وإذ قال إبراهيم ربِّ آجعل هذا بلدًا آمنًا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام فى مكة، وهل صارت حَرَمًا بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك . ١١٧

تفسير قوله تعالى : « وإذ يَرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل ... » الآية . آختلاف العلماء فيمن بنى البيت أوّلا وأسّسه ١٢٠

تفسير قوله تعالى : « رَبّنَا وآجعلنا مُسْلِمَيْن لك ... » الآية . معنى الأُمّة . بيان المراد بالمناسك ، وأصل النسك فى اللغة ١٢٦

تفسير قوله تعالى : « رَبّنَا وآبعث فيهم رسولًا منهم ... » الآية . المعنى المراد من الحكمة ١٣١

تفسير قوله تعالى : « إذ قال له ربُّه أَسْلِم ... » الآية . معنى الإسلام فى كلام العرب . ١٣٤

تفسير قوله تعالى : « ووَصّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويعقوبُ ... » الآية . الكلام على أولاد إبراهيم ١٣٥

تفسير قوله تعالى : « تلك أُمّةٌ قد خَلَتْ ... » الآية . مذهب أهل السُّنة والجبرية والمعتزلة فى أفعال العباد ١٣٩

تفسير قوله تعالى : « صِبْغَةَ الله ومَن أحْسَنُ مِن الله صِبْغَةً ... » الآيات . بيان المراد بالصبغة . الكلام على الإخلاص ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة : المراد بالسفهاء هنا . الكلام على سبب نزول هذه الآية . الآختلاف

Marfat.com

صفحة

فى وقت تحويل القبلة . الاختلاف فى كيفية استقبال الرسول عليه السلام لبيت المقدس . الكلام على أن فى هـذه الآية دليلا على جواز نسخ السنة بالقرآن، وعلى جواز القطع بخبر الواحد، وعلى أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبد بالحكم الأول . ١٤٧

تفسير قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا ... » الآية . فيه أربع مسائل : معنى الوسط . الكلام على قوله « وما كان الله لِيُضيعَ إيمانكم » ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « قد نَرى تَقَلُّبَ وجهِك فى السماء ... » الآية . الكلام على الشّطر . بيان أن الكعبة قبلة فى كل أفق . اختلف هل فرض الغائب استقبال عينها أو جهتها ١٥٨

تفسير قوله تعالى : « ولكلٍّ وِجْهةٌ هو مُوَلِّيها ... » الآية . فيه أربع مسائل : معنى الوجهة . الحث على المبادرة بالصلاة أول وقتها ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم .. » الآية . بيان أصل الذكر ومعناه . الكلام على الشكر ١٧١

تفسير قوله تعالى : « ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشىء من الخوف والجوع ... » الآية . معنى البلاء . الكلام على الصبر وما جاء فيه ١٧٣

تفسير قوله تعالى : « الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ ... » الاية . فيه ست مسائل : معنى المصيبة واشتقاقها . من أعظم المصائب المصيبةُ فى الدِّين ١٧٥

تفسير قوله تعالى : « إن الصَّفا والمَرْوَةَ من شعائر الله ... » الآية . فيه تسع مسائل : الكلام على الصفا والمروة وما هما . أصل الصفا فى اللغة . معنى الشعائر . طوافه صلى الله عليه وسلم بالصفا والمروة حين قدم مكة . اختلاف العلماء فى وجوب السعى بين الصفا والمروة . لا يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبًا إلا من عذر ١٧٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات ... » الآية . فيه سبع مسائل : اختلف في هذه الآية هل هي عامة في كل من كتم حقًا ، أم خاصة باليهود . لا يجوز تعليم المبتدع الجدال، ولا نشر الرخص في السفهاء . في الآية دليل على وجوب العمل بقول الواحد ١٨٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ... » الآيات . القول في أن الكافر المعين لا يجوز لعنه . الخلاف في لعن العاصي المعين ١٨٨

تفسير قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد ... » الآية . فيه مسألتان : سبب نزول هذه الآية ١٩٠

تفسير قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ... » الآية . فيه أربع عشرة مسألة : بيان ما في السموات والأرض من آيات . القول في اختلاف الليل والنهار، واشتقاقهما . الكلام على الفلك وركوب البحر . الكلام على الرياح وتصريفها وأسمائها . الكلام على السحاب . دليل الوحدانية ١٩١

تفسير قوله تعالى : « يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ... » الآية . فيه أربع مسائل : سبب نزول هذه الآية . معنى الطيب والحلال . النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وما هي خطواته ٢٠٧

تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ... » الآية . فيه سبع مسائل : أقوال العلماء في التقليد ٢١٠

تفسير قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ... » الآية . فيه أربع وثلاثون مسألة : الكلام في تحريم الميتة واستثناء السمك منها . اختلاف العلماء في جواز الانتفاع بالميتة أو بشيء من النجاسات . القول في جلد الميتة وشعرها وأنفحتها ولبنها . إذا وقع في القدر حيوان طائر أو غيره فمات . اتفاق العلماء على أن الدم حرام نجس . بيان تحريم لحم الخنزير وشحمه وشعره واشتقاق لفظه . الكلام

Marfat.com

صفحة

فيما أهلّ به لغير الله. الترخيص للمضطر فى الأكل من الميتة بقدر ما يَسُدُّ رَمَقَه، وبيان الاضطرار. حكم المضطر إلى شرب الخمر والتداوى بها ٢١٦

تفسير قوله تعالى: « ليس البِرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم ... » الآية. فيه ثمانى مسائل: بيان أن البر هو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر. الردّ على اليهود والنصارى فى ادّعائهم حصر البِرّ على قبلتهم. الكلام فى المال هل فيه حقّ سوى الزكاة. ٢٣٧

تفسير قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاصُ فى القتلَى .. » الآية. فيه سبع عشرة مسألة: سبب مشروعية القصاص وكيفيته. بيان الخلاف فى أخذ الدِّية من قاتل العمد. اختلافهم فيمن قَتل بعد أخذ الدية ٢٤٤

تفسير قوله تعالى: ولكم فى القصاص حياةٌ ... » الآية. فيه أربع مسائل: اتفاق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد حقّه دون السلطان ٢٥٦

تفسير قوله تعالى: « كُتب عليكم إذا حَضَر أحدَكم الموتُ ... » الآية. فيه إحدى وعشرون مسألة: الكلام فى مشروعية الوصية. اختلاف العلماء فى وجوب الوصية على من خلّف مالا. القول فى أنه لا يجوز لأحد أن يوصى بأكثر من الثلث. إجماع العلماء على أن للإنسان أن يغيّر وصيته و يرجع فيما شاء منها. اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى منسوخة أو مُحكَمة. الكلام فى الوصية للأقربين وغيرهم. الاختلاف فى وصية البالغ الضعيف فى عقله والسفيه... ... ٢٥٧

تفسير قوله تعالى: « فمن بدّله بعد ما سمعه ... » الآية. فيه أربع مسائل: الكلام على الدَّين الذى أوصى به الميت. ما يجوز تبديله من الوصية، وما لا يجوز إمضاؤه ٢٦٨

تفسير قوله تعالى: « فمن خاف من مُوصٍ جَنَفًا أو إثمًا ... » الآية. فيه ست مسائل: فى الآية دليل على الحكم بالظن. الكلام على أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عند الموت ٢٦٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيامُ ... » الآية . فيه ست مسائل : الكلام على الصوم لغة وشرعًا . فضل الصوم . اختلف أهل التأويل فى موضع التشبيه ، هل يرجع إلى وقت الصوم وقدره ، أو هو راجع إلى أصل وجوبه ، أو على صفته ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : «فمن كان منكم مريضا أو على سفر» . فيه ست عشرة مسألة : الكلام على المرض الذى يجب معه الفطر . اختلاف العلماء فى السفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر . اتفاق العلماء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيِّت الفطر . اختلافهم فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر . الكلام على قضاء ما أفطره الصائم . الاختلاف فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه . القول فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ٢٧٦

تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين يُطيقونه فِدْيَة ... » فيه خمس مسائل : هل الآية منسوخة أو محكمة . الاختلاف فى مقدار الفدية ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « شَهْرُ رمضانَ الذى أنزل فيه القرآنُ ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : الكلام على رمضان وآشتقاقه . هل يقال رمضان دون أن يضاف إلى شهر . الآختلاف فى ثبوت هلال رمضان . القول فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوّال . الكلام فى اختلاف المطالع . القول فى أن القرآن نزل فى أوقات مختلفة . ماذا يجب على الكافر إذا أسلم، أو على الصبي إذا بلغ فى رمضان . الكلام فى رؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهارًا . القول فيما إذا اختلف الناس فى آخر يوم من رمضان . التكبير فى آخر رمضان و بيان لفظه ٢٩٠

تفسير قوله تعالى : « و إذا سألك عبادى عنى ... » الآية . فيه أربع مسائل : الآختلاف فى سبب نزول هذه الآية . الكلام على الدعاء، وما يمنع من إجابته. ٣٠٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أُحِلّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم ... » الآية . فيه ست وثلاثون مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . معنى الرفث فى كلام العرب . الاختلاف فى الحد الذى يجب به الإمساك . الكلام على النية فى الصيام . ماذكر فى قوله : «الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» . القول فيمن أفطر فى رمضان عامدا . اختلافهم فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى رمضان . من جامع ناسياً لصومه او أكل . الكلام فيمن قَبّل أو باشر وهو صائم . القول فى صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جُنُب . الحائض تطهر قبل الفجر فى رمضان . إن ظنّ أن الشمس قد غَرَبت لغَيْم أو غيره فأفطر . النَّهىُ عن الوصال فى الصوم . يستحبّ للصائم أن يصوم ستة أيام من شوّال . الكلام على الاعتكاف لغة وشرعًا . إجماع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى المسجد . ما يلزم المعتكف ٣١٤

تفسير قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... » الآية . فيه ثمانى مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية . مايقع عليه اسم الباطل . الأقوال فى أن حكم الحاكم على الظاهر لايغيِّر حكم الباطن . النَّهىُ عن الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة . اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مالٍ قلّ أو كثر أنه يُفَسَّق بذلك ٣٣٧

تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الأهِلّة ... » الآية . فيه اثنتا عشرة مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . معنى الهلال . جعلت الأهلة مواقيت لزوال الإشكال فى الآجال والمعاملات وغيرها . كان الأنصار إذا حَجُّوا وعادُوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فنُهُوا عن ذلك . الكلام على الحُمْس... ... ... ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ... الآية » . فيه ثلاث مسائل : بيان أن هذه أول آية نزلت فى الأمر بالقتال . الكلام على صُلح الحديبية . النهى عن الاعتداء فى قتل الصبيان وما أشبههم إلا أن يكون لهم إذاية ٣٤٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وٱقتلوهم حيث ثقفتموهم ... » الآية . فيه خمس مسائل :

الكلام على القتال عند المسجد الحرام ٣٥٠

تفسير قوله تعالى : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ...» الآية . فيه مسألتان : ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : «الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحُرُماتُ قِصاصٌ ...» الآية . فيه عشر مسائل : القول فى سبب نزول هذه الآية . هل لمن تعدّى عليه فى مال أو جرح أن يتعدّى بمثل ما تُعُـدّى به عليه ، أو أن أمور القصاص وَقْفٌ على الحكام . ٱختـلاف العلماء فى المكافأة فى أخذ الحقوق هل تُسمّى عدواناً . ٱختلافهم فيمن ٱستهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العروض التى لا تُكال ولا تُوزَن . القول فى أن هذه الآية أصل فى المماثلة فى القصاص ٣٥٤

تفسير قوله تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التّهْلُكَة ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : أقوال العلماء فى الإلقاء باليد إلى التهلكة . ٱختلاف العلماء فى ٱقتحام الرجل فى الحرب وحمله على العدو وحده ٣٦١

تفسير قوله تعالى : « وأتِمّوا الحجّ والعُمْرةَ لله » . فيه سبع مسائل : ٱختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله . الكلام على مواقيت الحج . الدليل على وجوب العمرة . القول فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوِى حجّاً ولا عمرة . ٱختلاف العلماء فى المراهق والعبد يُحرِمان بالحج ثم يَحتلم هذا ويَعتق هذا قبل الوقوف بعرفة ٣٦٥

تفسير قوله تعالى : « فإن أُحصِرتم فما ٱستيسر من الهَـدْى » . فيه ٱثنتا عشرة مسألة : أقوال العلمـاء فى الإحصار فى الحج . ماذا يجب على المُحْصَر . القول فى الحاصر . الكلام فى الحلق والهدى . بيان الخلاف فى الإطعام فى فدية الأذى، وبيان مكانها . الكلام على التمتع والإفراد والقِران . الترخيص فى الصوم لمن لم يجد الهَـدْى ٣٧١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ ... » الاية . فيه أربع عشرة مسألة : الاختلاف فى الأشهر المعلومات . الاختلاف فى الإهلال بالحج فى غير أشهر الحج . معنى الرفث والفسوق والجدال فى الحج ٤٠٥

تفسير قوله تعالى : « ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلًا من ربكم » فيه مسألتان : جواز التجارة فى الحج للحاج ٤١٣

تفسير قوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات ... » الآية . فيه ست عشرة مسألة : الكلام على عرفات والوقوف بها . بيان فضل يوم عرفة . اختلاف العلماء فى جيئة الصلاة بالمزدلفة . الكلام على المبيت بالمزدلفة ٤١٤

تفسير قوله تعالى : « ثم أفيضوا من حيثُ أفاض النـاسُ ... » الآية . فيه أربع مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية ٤٢٧

تفسير قوله تعالى : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ... » الآية . فيه مسألتان : معنى المناسك ٤٣١

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الاختلاف فى تأويل الحسنتين . القول فى أن هذه الآية من جوامع الدعاء التى عمّت الدنيا والآخرة ٤٣٢

تفسير قوله تعالى : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن الرجل يأخذ مالًا يحج به عن غيره فيكون له ثواب ٤٣٤

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بعون الله وتوفيقه ، قد فرغنا من إعادة طبع الجزء الثانى من كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى ، بعد مقابلته على عدّة نسخ مخطوطة ، وقد أشرنا إلى كل نسخة بحرف؛ ليسهل على الباحث الرجوع إليها عند الحاجة، وهى :

١ — نسخة المكتبة الأزهرية رقم ٢٥٨ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ز » .

٢ — نسخة مكتبة حليم رقم ١ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ح » .

٣ — نسخة الدار رقم ٩٥ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « أ » .

٤ — نسخة الدار رقم ٢٦٨ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ب » .

٥ — نسخة الدار رقم ٢٨٣ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ج » .

هذا ، وإنا نسأل الله تعالى التوفيق والسداد . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحابته وسلم .

في ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٣
٢٧ من يناير سنة ١٩٥٤

مصححه
أحمد عبد العليم البردونى
وكيل القسم الأدبى

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ هذا آستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود؛ أى إن كفروا فلهم سابقة فى ذلك . والخطاب لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذى كان بينهم . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة؛ عن آبن عباس . أى لا تحزن على تكذيبهم إياك، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا . و « أنْ » فى موضع نصب ، أى فى أن يؤمنوا؛ نصب بأن، ولذلك حذفت منه النون .

يقال : طَمِع فيه طَمَعًا وطَمَاعِيَة — مخفف — فهو طَمِع؛ على وزن فَعِل . وأطمعه فيه غيره . ويقال فى التعجب : طَمُع الرجل — بضم الميم — أى صار كثير الطمع . والطمع : رِزق الجُنـد؛ يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم؛ أى بأرزاقهـم . وآمرأة مِطْماع : تُطمِع ولا تُمكِّن .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿وَقَـدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الفريق آسم جمع لا واحد له من لفظه، وجمعـه فى أدنى العـدد أفرقة . وفى الكثير أفرقاء . ﴿يَسْمَعُونَ﴾ فى موضع نصب خبر « كان » . ويجوز أن يكون الخبر « مِنْهم »، و يكون « يَسمعون » نعتًا لفريق؛ وفيه بُعْدٌ . ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ قراءة الجماعة . وقرأ الأعمش « كَلِمَ الله » على جمع كلمة . قال سيبويه : وآعلم أن ناسا من ربيعة يقولون « مِنْهِم » بكسر الهـاء إتباعا لكسرة الميم؛ ولم يكن المسكن حاجزا حصينا عنده . « كلامَ الله » مفعول بـ « يسمعون » . والمراد السبعون الذين آختارهم موسى عليه

Marfat.com

السلام، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره ، وحرّفوا القول فى إخبارهم لقومهم . هذا قول الربيع وآبن إسحاق ؛ وفى هـذا القول ضعف . ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ ، وأذهب بفضيلة موسى وآختصاصه بالتكليم . وقد قال السُّدّى وغيره : لم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع و يعيده لهم؛ فلما فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ »(١) .

فإن قيل : فقد روى الكلبىّ عن أبى صالح عن آبن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه ، فسمعوا صوتًا كصوت الشَّبُّور(٢) : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحىّ القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة » .

قلت : هذا حديث باطل لا يصح ، رواه آبن مَرْوان عن الكلبىّ وكلاهما ضعيف لا يحتج به ؛ وإنما الكلام شىء خُصّ به موسى من بين جميع ولد آدم ؛ فإن كان كلّم قومه أيضا حتى أسمعهم كلامه فما فَضُلَ موسى عليهم ؛ وقد قال وقوله الحق : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي »(٣) . وهذا واضح .

الثالثــة ــ وآختلف النـاس بمـاذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع قبـل ذلك خطابه؛ فمنهم من قال: إنه سمع كلاما ليس بحروف وأصوات، وليس فيه تقطيع ولا نفس؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر و إنما هو كلام رب العالمين . وقال آخرون: إنه لما سمع كلامًا لا من جهة ، وكلامُ البشر يُسمع من جهة من الجهات الستّ ، علم أنه ليس من كلام البشر . وقيل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام؛ فعلم أنه كلام الله . وقيل فيه : إن المعجزة دلّت على أن ما سمعه هو كلام الله ؛ وذلك أنه قيل له : ألق عصاك، فألقاها فصارت ثعبانا؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذى يقول له : « إِنِّي أَنَا رَبُّكَ »(٤) هو الله جلّ وعزّ . وقيل : إنه قد كان أضمر فى نفسه شيئا لا يقف عليه

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٥ .
(٢) الشبور (على وزن التنور) : البوق .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٨٠ .
(٤) راجع جـ ١١ ص ١٧٢

Marfat.com

إلا علام الغيوب ، فأخبره الله تعالى فى خطابه بذلك الضمير، فعلم أن الذى يخاطبه هو الله جل وعز . وسيأتى فى سورة «القصص» بيان معنى قوله تعالى : «نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ»(1) إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال مجاهد والسُّدّى : هم علماء اليهود الذين يحرّفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أى عرفوه وعلموه . وهذا توبيخ لهم ؛ أى إن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السَّنن، فكيف تطمعون فى إيمانهم ! .

ودلّ هــذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ هذا فى المنافقين . وأصل «لقوا» لقيُوا وقــد تقدّم(2) . ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية فى اليهود، وذلك أن ناسًا منهم أسلموا ثم نافقوا ؛ فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بمــا عُذِّب به آباؤهم ؛ فقالت لهم اليهود : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى حكم الله عليكم من العذاب ، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم ؛ عن ابن عباس والسُّدّى . وقيل : إن عليًّا لمــا نازل قُرَيظة يوم خَيْبر سَمِع سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إليه وقال : يا رسول الله، لا تبلغ إليهم، وعرّض له ؛ فقال: "أظنك سمعت شتمى منهم لو رأونى لكفّوا عن ذلك" ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا، فقال لهم : "أنقضتم العهــد يا إخوة القردة والخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا :

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢٨١ (2) راجع جـ ١ ص ٢٠٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

والأمانى جمع أُمنِيّـة وهى التلاوة ، وأصلها أُمْنُويَة على وزن أُفعولة ، فأدغمت الواو فى اليـاء فانكسرت النون من أجل اليـاء فصارت أُمنيـة ؛ ومنه قوله تعـالى : « إِلَّا إِذَا تَمَـنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِه » (١) أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته . وقال كعب بن مالك :

تمنّى كتابَ الله أوّلَ ليلِه * وآخِرَه لاقى حِمامَ المقادرِ

وقال آخر :

تمنّى كتابَ الله آخرَ ليلِه * تمنّىَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ

والأمانى أيضا الأكاذيب ؛ ومنـه قول عثمان رضى الله عنه : ما تمنّيتُ منـذ أسلمت ؛ أى ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دَأْب وهو يحدّث : أهذا شىء رَوَيْتَه أم شىء تمنّيتَه ؟ أى افتعلتَه . وبهذا المعنى فسّر ابن عباس ومجاهد « أمانىّ » فى الآية . والأمانىّ أيضا ما يتمنّاه الإنسان ويشتهيه . قال قتادة : « إلا أمانىّ » يعنى أنهم يتمنّون على الله ما ليس لهم . وقيل : الأمانى التقدير ؛ يقال : مَنَى له أى قدّر ؛ قاله الجوهرى ، وحكاه ابن بحر ، وأنشد قول الشاعر : (٢)

لا تأمَنَنّ وإن أمسيتَ فى حَرَمٍ * حتى تُلاقِىَ ما يَمْـنِى لك المـانِى

أى يقدّر لك المقدّر .

الثالثـــة ــــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ « إنْ » بمعنى ما النـافية ؛ كما قال تعالى : « إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ » . و « يَظُنُّون » يكذبون ويحدثون ؛ لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون ، وإنما هم مقلّدون لأحبارهم فيما يقرءون به .

قال أبو بكر الأنبـارى : وقد حدّثنا أحمد بن يحيى النحوى أن العرب تجعل الظنّ عِلْمًا وشكًّا وكذبًا ، وقال : إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظنّ يقين ، وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظنّ شك . وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظنّ كذب ؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أراد إلا يكذبون .

الرابعـــة ــــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نعتَ الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدّلون ويحرّفون فقال وقوله الحق : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » الآية . وذلك أنه لمـا درس

(١) راجع ج ١٢ ص ٧٩ .

(٢) نسب شارح القاموس هذا البيت لسويد بن عامر المصطلق .

Marfat.com

الأمر فيهم، وساءت رعية علمائهم، وأقبلوا على الدنيا حرصًا وطمعًا، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس إليهم، فأحدثوا في شريعتهم وبدلوها، وألحقوا ذلك بالتوراة، وقالوا لسفهائهم: هذا من عند الله؛ ليقبلوها عنهم فتتأكد رياستهم وينالوا به حطام الدنيا وأوساخها. وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل؛ وهم العرب، أي ما أخذنا من أموالهم فهو حلّ لنا. وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا: لا يضرنا ذنب، فنحن أحباؤه وأبناؤه؛ تعالى الله عن ذلك! وإنما كان في التوراة «يا أحباري ويا أبناء رسلي» فغيروه وكتبوا «يا أحبائي ويا أبنائي» فأنزل الله تكذيبهم: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم (١)». فقالت: لن يعذبنا الله، وإن عذبنا فأربعين يومًا مقدار أيام العجل؛ فأنزل الله تعالى: «وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا (٢)». قال ابن مقسم: يعني توحيدًا، بدليل قوله تعالى: «إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا (٣)» يعني لا إله إلا الله «فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ». ثم أكذبهم فقال: «بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ. وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٤)». فبين تعالى أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان، لا بما قالوه.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ اختلف في الويل ما هو (٥)؛ فروى عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار. وروى أبو سعيد الخدري أن الويل واد في جهنم بين

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٠　(٢) راجع ص ١٠ من هذا الجزء.　(٣) راجع ج ١١ ص ١٥٣
(٤) راجع ص ١١ من هذا الجزء.　(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط بعد أن ذكر الأقوال التي وردت في معنى الويل: «لو صح في تفسير الويل شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب المصير إليه، وقد تكلمت العرب في نظمها ونثرها بلفظ الويل قبل أن يجيء القرآن ولم تطلقه على شيء من هذه التفاسير، وإنما مدلوله ما فسره به أهل اللغة».

Marfat.com

جبلين يهوى فيه الهاوى أربعين خريفًا . وروى سفيان وعطاء بن يَسار : أن الويل فى هذه الآية وادٍ يجرى بفناء جهنم من صديد أهل النار . وقيل: صهريج فى جهنم . وحكى الزَّهراوى عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم . وعن ابن عباس : الويل المشقة من العـذاب . وقال الخليل : الويل شدّة الشر.(١) الأصمعى : الويلُ تفجّعٌ، والوَيْحُ ترحّمٌ . سيبويه : وَيْلٌ لمن وقع فى الهلكة، ووَيْحٌ زجرٌ لمن أشرف على الهلكة . ابن عرفة : الويل الحزن؛ يقال : تَوَيَّل الرجل إذا دعا بالويل؛ وإنمـا يقال ذلك عند الحزن والمكروه؛ ومنه قوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » . وقيل : أصله الهلكة؛ وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل؛ ومنه قوله تعـالى : « يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـذَا الْكِتَابِ »(٢) . وهى الوَيْل والوَيْلة، وهما الهلكة، والجمع الويلات؛ قال :

* له الوَيْل إن أمْسَى ولا أمّ هاشم *

وقال أيضـا :

* فقالت لك الوَيْلات إنك مُرْجِلى *

وارتفع « وَيْلٌ » بالابتـداء، وجاز الابتـداء به وإن كان نكرة لأن فيـه معنى الدعاء . قال الأخفش : ويجوز النصب على إضمـار فعل؛ أى ألزمهم الله وَيْلًا . وقال الفرّاء : الأصل فى الويل « وَىْ » أى حُزْن؛ كما تقول : وَىْ لفلان؛ أى حُزْن له، فوصلته العـرب باللام وقدّروها منه فأعربوها . والأحسن فيه إذا فُصل عن الإضافة الرفع؛ لأنه يقتضى الوقوع . ويصحّ النصب على معنى الدعاء؛ كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يُسمع على بنـائه إلا وَيْح ووَيْس ووَيْه ووَيْك ووَيْل ووَيْب؛ وكله يتقارب فى المعنى . وقد فرّق بينهـا قوم؛ وهى مصادر لم تنطق العرب منهـا بفعل . قال الجَرْمِىّ : وممـا ينتصب انتصاب المصادر وَيْلَه وعَوْلَه ووَيْحَه ووَيْسَه؛ فإذا أدخلت اللام رفعت فقلت : وَيْلٌ له، ووَيْحٌ له .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ الكتابة معروفة . وأوّل من كتب بالقلم وخطّ به إدريس عليه السلام؛ وجاء ذلك فى حديث أبى ذرّ، خرّجه الآجُرّى وغيره . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطى الخط فصار وراثة فى ولده .

(١) كذا فى نسخ الأصل، وكتاب البحر لأبى حيان .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد ، فإنه قـد عُلم أن الكَتْب لا يكون إلا باليـد ؛ فهو مثل قوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْـهِ » ، وقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ » . وقيل : فائدة « بأيديهم » بيان لجُرْمهم و إثبات لمجاهرتهم ، فإن مَن تولّى الفعل أشدّ مواقعة ممن لم يتولّه و إن كان رأيا له . وقال آبن السّراج : « بأيديهم » كناية عن أنهم من تلقائهم دون أن ينزل عليهم ، و إن لم تكن حقيقة فى كَتْبِ أيديهم .

الرابعـــة — فى هذه الآية والتى قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة فى الشرع ؛ فكل من بدّل وغيّر أو آبتدع فى دين الله ما ليس منـه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هـذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم ؛ وقد حذّر رســول الله صلى الله عليه وسلم أمّته لمـا قد علم ما يكون فى آخر الزمان فقال : " ألَا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب آفترقوا على آثنتين وسبعين مِلّة و إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النـار إلا واحدة " الحديث ، وسيأتى . فحذّرهم أن يُحدِثوا من تلقاء أنفسهم فى الدِّين خلاف كتاب الله أو سنته أو ســنة أصحابه فيُضِلّوا به الناس ؛ وقـد وقع ماحذّره وشاع ، وكثر وذاع ؛ فإنا لله و إنّا إليــه راجعون .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة ؛ إمّا لفنائه وعدم ثباته ، و إمّا لكونه حراما ؛ لأن الحرام لا بركة فيـه ولا يربو عند الله . قال آبن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابهم رَبْعة أسمر ، فجعلوه آدم سَبْطًا طويلا ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبيّ — صلى الله عليه وسلم — الذى يُبعث فى آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا . وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب ؛ فخافوا إن بيّنوا أن تذهب مآ كلهم ورياستهم ؛ فمن ثَمّ غيّروا .

ثم قال تعـالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّـا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّـا يَكْسِبُونَ ﴾ قيـل من المآكل . وقيل من المعاصى . وكرّر الويل تغليظًا لفعلهم .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا﴾ يعنى اليهود . ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ آختلف فى سبب نزولها؛ فقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود : "مَن أهل النار". قالوا : نحن، ثم تخلُفونا أنتم . فقال : "كذبتم لقد علمتم أنّا لا نخلفكم" فنزلت هذه الآية؛ قاله آبن زيد . وقال عكرمة عن آبن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف، و إنما يعذَّب الناس فى النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد فى النار من أيام الآخرة، و إنما هى سبعة أيام؛ فأنزل الله الآية؛ وهذا قول مجاهد . وقالت طائفة : قالت اليهود إن فى التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم يقطعون فى كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم . ورواه الضحاك عن آبن عباس . وعن آبن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبًا أن ما بين طرف جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم . وقالوا : إنما نعذَّب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . وعن آبن عباس أيضا وقتادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل؛ فأكذبهم الله، كما تقدّم .

الثانيــة — فى هذه الآية رَدٌّ على أبى حنيفة وأصحابه حيث آستدلّوا بقوله عليه السلام : "دَعى الصلاة أيامَ أقرائك" فى أن مدة الحيض ما يُسمَّى أيام الحيض، وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة؛ قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمَّى يوما و يومين، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام؛ و إنمـا يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة؛ قال الله تعـالى : « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ »(١)، « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ »(٢)، « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا »(٣)

(١) راجع ص ٣٩٩ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٩

Marfat.com

فيقال لهم : فقد قال الله تعــالى فى الصوم : « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » يعنى جميــع الشهر ؛ وقال : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّــارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ »(١) يعــنى أربعين يوما . وأيضا فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يُرَد به تحديد العدد ؛ بل يقال : أيامُ مَشْيِك وسَفرِك و إقامتك ، و إن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد؛ ولعله أراد ما كان معتادا لها ، والعادة ستّ أو سبع ؛ فخرّج الكلام عليه ، والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ تقدّم القول فى « آتخذ »(٢) فلا معنى لإعادته . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أى أسلفتم عملًا صالحا فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار! أو هل عرفتم ذلك بوَحْيِه الذى عهده إليكم ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع .

قوله تعــالى : بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ هُمْ فِيهَـا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس « بلى » و « نعم » آسمين . و إنمــا هما حرفان مثل « بل » وغيره؛ وهى ردّ لقولهم : لن تمسّنا النار . وقال الكوفيون : أصلها بل التى للإضراب عن الأوّل ، زيدت عليها اليــاء ليحسن الوقف ، وضمّنت الياء معنى الإيجاب والإنعام . ف «بلى» تدلّ على ردّ الجحد ، والياء تدلّ على الإيجاب لمــا بعدُ . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم ؛ لكان المعنى لا ، لم آخذ ؛ لأنك حققت النفى وما بعده . فإذا قلت : بلى ؛ صــار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك علىّ شىء ؛ فقال الآخر : نعم ؛ كان ذلك تصديقا ؛ لأن لا شىء

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٠ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

له عليه؛ ولو قال : بلى ، كان ردّا لقوله ؛ وتقديره : بلى لى عليك . وفى التنزيل «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»(١) ولو قالوا نعم لكفروا .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ سَيِّئَةً ﴾ السيئة الشِّرك . قال ٱبن جُرَيج قلت لعطاء : «مَن كسب سيئة» ؟ قال : الشرك ؛ وتلا «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ»(٢) . وكذا قال الحسن وقتادة ، قالا : والخطيئة الكبيرة .

الثالثـــة ـــ لمـا قال تعـالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ دلّ على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما ؛ ومثـله قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا »(٣) ، وقوله عليـه السلام لسُفيان بن عبد الله الثَّقَفي وقد قال له : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولًا لا أسأل عنـه أحدًا بعدك . قال : " قل آمنت بالله ثم ٱستقم " . رواه مسلم . وقد مضى القول فى هذا المعنى وما للعلماء فيه عند قوله تعـالى لآدم وحواء : «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»(٤) . وقرأ نافع «خطيئاته» بالجمع ، الباقون بالإفراد ؛ والمعنى الكثرة ، مثل قوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(٥) .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ تقدّم الكلام فى بيان هذه الألفاظ(٦) . وٱختلف فى الميثاق هنـا ؛ فقال مَكّى : هو الميثاق الذى أُخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر . وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء فى حياتهم على ألسنة أنبيائهم

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٦ (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٤٥ (٣) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧
(٤) راجع ج ١ ص ٣٠٤ (٥) راجع ج ٩ ص ٣٦٧ (٦) راجع ج ١ ص ٢٤٦ ، ٣٣٠

Marfat.com

وهو قوله : « لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » وعبادةُ الله إثبات توحيده ، وتصديقُ رُسُله ، والعملُ بما أنزل فى كتبه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال سيبويه : « لا تعبدون » متعلق بقَسَم ؛ والمعنى وإذ استحلفناهم والله لا تعبدون ؛ وأجازه المبرّد والكسائى والفراء . وقرأ أُبَيّ وآبن مسعود « لا تعبدوا » على النّهى ؛ ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : « وقوموا ، وقولوا ، وأقيموا ، وآتوا » . وقيل : هو فى موضع الحال ؛ أى أخذنا ميثاقهم موحّدين ، أو غير معاندين ؛ قاله قُطْرب والمبرّد أيضا . وهذا إنما يتجه على قراءة آبن كثير وحمزة والكسائى « يعبدون » بالياء من أسفل . وقال الفراء والزجاج وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله ، وبأن يحسنوا للوالدين ، وبألا يَسفكوا الدماء ؛ ثم حذفت أنْ والباء فآرتفع الفعل لزوالها ؛ كقوله تعالى : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي »(١) . قال المبرّد : هذا خطأ ؛ لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا ؛ تقول : وبلدٍ قطعت ؛ أى رُبّ بلد .

قلت : ليس هذا بخطإ ، بل هما وجهان صحيحان ، وعليهما أنشد سيبويه :

ألا أيّها ذا الزّاجرى أحضُرُ الوَغَى * وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِى(٢)

بالنصب والرفع ؛ فالنصب على إضمار أن ، والرفع على حذفها .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أى وأمرناهم بالوالدين إحسانا . وقَرَن الله عز وجل فى هـذه الآية حق الوالدين بالتوحيد ؛ لأن النّشأة الأولى من عند الله ، والنّشء الثانى — وهو التربية — من جهة الوالدين ؛ ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ »(٣) . والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف ، والتواضعُ لهما ، وآمتثال أمرهما ، والدعاءُ بالمغفرة بعد مماتهما ، وصلةُ أهل ودّهما ؛ على ما يأتى بيانه مفصّلا فى « الإسراء »(٤) إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦ (٢) البيت لطرفة بن العبد فى معلقته .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٥ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٨

Marfat.com

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَذِي الْقُرْبَى ﴾ عطف ذى القربى على الوالدين . والقُرْبَى : بمعنى القرابة ، وهو مصدر كالرُّجْعَى والعُقْبَى ؛ أى وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم . وسيأتى بيان هذا مفصَّلا فى سورة « القتال »[1] إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ اليتامى عطف أيضا، وهو جمع يتيم؛ مثل نَدامَى جمع نَديم . واليُتْم فى بنى آدم بفقـد الأب ، وفى البهائم بفقد الأم . وحكى الماوردىّ أن اليتيم يقال فى بنى آدم فى فقد الأم؛ والأوّل المعروف . وأصله الانفراد؛ يقال : صبىّ يتيم؛ أى منفرد من أبيه . و بيت يتيم : أى ليس قبله ولا بعده شىء من الشِّعْر . ودُرّة يتيمة : ليس لها نظير . وقيل : أصله الإبطاء؛ فسُمّى به اليتيم؛ لأن البِرّ يبطئ عنه . و يقال : يَتُم يَيْتُم يُتْماً؛ مثل عَظُم يَعْظُم . و يَتِم يَيْتَم يُتْماً ويَتَماً؛ مثل سَمِع يَسْمَع؛ ذكر الوجهين الفرّاء . وقد أيتمه الله . ويدلّ هذا على الرأفة باليتيم والحضّ على كفالته وحفظ ماله؛ على ما يأتى بيانه فى « النساء »[2] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة " . وأشار مالك[3] بالسبّابة والوسطى؛ رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وخرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث الحسن بن دينار[4] أبى سعيد البصرىّ وهو الحسن بن واصل قال حدّثنا الأسود بن عبد الرحمن عن هِصّان[5] عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما قعد يتيم مع قوم على قَصْعتهم فيقرب قَصْعتهم الشيطان " . وخرّج أيضا من حديث حسين بن قيس وهو أبو على الرَّحَبىّ[6] عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن ضمّ يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يُغنيه الله عز وجل غُفرت له ذنوبه ألبتّة إلا أن يعمل عملا لا يُغفر ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غُفرت له ذنوبه — قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : — عيناه ومن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يَبِنّ[7] أو يمتن غُفرت له ذنوبه ألبتّة

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٤٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ٨ (٣) مالك : أحد رواة سند هذا الحديث . (٤) لأنه ربيب دينار . (٥) فى تهذيب التهذيب : « بكسر أوّله وتشديد المهملة آخره نون » وهو ابن كاهن و يقال ابن كاهل ، كان أبوه كاهنا فى الجاهلية » . (٦) الرحبى (بفتح الراء والحاء المهملتين وباء موحدة) : منسوب إلى رحبة من زوعة . (٧) يبن : يتزوجن .

Marfat.com

إلا أن يعمل عملا لا يُغفر" فناداه رجل من الأعراب ممن هاجر فقال: يا رسول الله أوآثنتين؟ فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " أوآثنتين " . فكان آبن عباس إذا حدّث بهــذا الحديث قال : هذا والله من غرائب الحديث وغُرَرِه .

السادســة — السَّبابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام ، وكانت في الجاهليــة تدعى بالسبابة؛ لأنهم كانوا يَسبُّون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الآسم فسمَّوْها المشيرة ؛ لأنهم كانوا يشيرون بهــا إلى الله في التوحيد . وتُسمَّى أيضا بالسـَّباحة، جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حُجْر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بمــا كانت تعرفه في الجاهليــة فغلبت . وروى عن أصابع رسول الله صلى الله عليــه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم الوسطى أقصر منها ، ثم البنصر أقصر من الوسطى . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مِقْسَم الطائفيّ قال حدّثتني عمتي سارة بنت مِقْسَم أنهــا سمعت ميمونة بنت كَرْدَم قالت : خرجتُ في حجّة حجّها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وسأله أبي عن أشياء، فلقد رأيتني أتعجّب وأنا جارية من طول أصبعه التي تلي الإبهــام على سائر أصابعه . فقوله عليه الســلام : " أنا وهو كهاتين في الجنة " ، وقوله في الحديث الآخر : " أُحشَر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا " وأشار بأصابعه الثلاث ؛ فإنمــا أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال : نحشر هكذا ونحن مشرفون ، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة . فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل الحديث على الآنضمام والآقتراب بعضهم من بعض في محل القربة . وهــذا معنى بعيد ؛ لأن منازل الرسل والنبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين مراتب متباينة ، ومنازل مختلفة .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ « المساكين » عطف أيضا؛ أي وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين ، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم . وهذا يتضمّن الحضّ على الصدقة والمؤاساة وتفقّد أحوال المساكين والضعفاء . روى مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله — وأحسبه قال —

Marfat.com

وكالقائم لا يَفْتُرُ[1] وكالصائم لا يُفطِر". قال ابن المنذر: وكان طاوس يرى السعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله.

الثامنة — قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ «حُسْنًا» نصب على المصدر على المعنى؛ لأن المعنى ليَحْسُن قولُكم. وقيل: التقدير وقولوا للناس قولًا ذا حُسْن؛ فهو مصدر لا على المعنى. وقرأ حمزة والكسائى «حَسَنًا» بفتح الحاء والسين. قال الأخفش: هما بمعنًى واحد؛ مثل البُخْل والبَخَل، والرُّشْد والرَّشَد. وحكى الأخفش: «حُسْنَى» بغير تنوين على فُعْلى. قال النحاس: «وهذا لا يجوز فى العربية،لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام، نحو الفُضْلَى والكُبْرَى والحُسْنَى؛ هذا قول سيبويه. وقرأ عيسى بن عمر «حُسُنًا» بضمتين؛ مثل الحُلُم». قال ابن عباس: المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومُرُوهم بها. ابن جُرَيج: قولوا للناس صدقا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا تغيّروا نعته. سُفيان الثَّوْرى: مُروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر. أبو العالية: قولوا لهم الطيِّب من القول،وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به. وهذا كله حض على مكارم الأخلاق؛ فينبغى للإنسان أن يكون قوله للناس ليِّنا ووجهه منبسطًا طَلْقًا مع البَرّ والفاجر، والسُّنى والمبتدع، من غير مداهنة،ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا»[2]. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه. وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فىّ حدّة فأقول لهم بعض القول الغليظ؛ فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا»[3]. فدخل فى هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفىّ. وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة: "لا تكونى فحّاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء". وقيل: أراد بالناس محمدا صلى الله عليه وسلم؛ كقوله: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»[4]. فكأنه قال: قولوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم حُسْنًا. وحكى

(١) كذا فى صحيح مسلم. والذى فى نسخ الأصل: «لا يفتر من صلاة ... الخ». (٢) راجع ج ١١ ص ١٩٩. (٣) فى بعض نسخ الأصل: «فكيف فى غيرهما». (٤) راجع ج ٥ ص ٢٥١.

Marfat.com

المهـدوى عن قتادة أن قوله : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » منسوخ بآية السـيف . وحكاه أبو نصر عبد الرحيم[١] عن آبن عباس . قال آبن عباس : نزلت هذه الآية فى الآبتداء ثم نسختها آية السيف . قال آبن عطية : وهـذا يدلّ على أن هـذه الأمة خوطبت بمثل هـذا اللفظ فى صدر الإسلام ؛ وأما الخبر عن بنى إسرائيل وما أُمِروا به فلا نسخ فيه ، والله أعلم .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ﴾ تقدّم[٢] القول فيه . والخطاب لبنى إسرائيل . قال آبن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يُتقبَّل ؛ ولا تنزل على ما لم يُتقبَّل ، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يحتاج إلى نقل ، كما ثبت ذلك فى الغنائم . وقد روى عن آبن عباس أنه قال : الزكاة التى أُمِروا بها طاعةُ الله والإخلاصُ .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ الخطاب لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ وأسند إليهم تولّى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل فى إعراضهم عن الحق مثلهم ؛ كما قال : « شِنْشِنَة[٣] أعرفها من أَخْزَم » . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كعبد الله بن سَلَام وأصحابه . و « قليـلًا » نصب على الآستثناء ؛ والمستثنى عند سـيبويه منصوب ؛ لأنه مشبه بالمفعول . وقال محمد ابن يزيد : هو مفعول على الحقيقـة ؛ المعنى آستثنيت قليـلا . ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ابتداء وخبر . والإعراض والتولّى بمعنًى واحد ، مخالَف بينهما فى اللفظ . وقيل : التولّى بالجسم ، والإعراض بالقلب . قال المهـدوى : « وأنتم مُعرِضُون » حال ؛ لأن التولّى فيـه دلالة على الإعراض .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « عبد الرحمن » . (٢) يراجع ج ١ ص ١٦٤ ، ٣٤٣ طبعة ثانية .

(٣) الشنشنة (بالكسر) : الطبيعة والخليقة والسجية . قال الأصمعى : وهذا بيت رجز تمثل به لأبى أخزم الطائى ؛ وهـو :

إن بنىّ زمّلونى بالدم ✱ شنشنة أعرفها من أخزم
✱ من يلق آساد الرجال يكلم ✱

قال آبن برى : كان أخزم عاقا لأبيه فمات وترك بنين وعقوا جدهم وضربوه وأدموه ، فقال ذلك . (عن اللسان) .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ تقدّم القول فيه[1] . ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ المراد بنـو إسرائيـل ؛ ودخل فيه بالمعنى مَن بعـدهم . « لَا تَسْفِكُونَ » مثـل « لا تَعبُدُون »[2] في الإعراب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وشعيب بن أبي حمـزة بضم الفاء ، وهي لغة ؛ وأبو نهيـك « تُسَفِّكون » بضم التاء وتشـديد الفاء وفتح السـين . والسَّفْك : الصّب . وقد تقدّم[3] . ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ ﴾ معطوف . ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ النفس مأخوذة من النَّفاسة ، فنفس الإنسان أشرف مافيه . والدار : المنزل الذي فيه أبنية المقام بخلاف منزل الآرتحال . وقال الخليل : كل موضع حلّه قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سُمِّيت دارًا لدورها على سكانها ؛ كما سُمِّيَ الحـائط حائطا لإحاطته على ما يحـويه . و﴿ أَقْـرَرْتُمْ ﴾ من الإقرار ؛ أي بهذا الميثاق الذي أُخذ عليكم وعلى أوائلكم . ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ من الشهادة ؛ أي شهداء بقلوبكم على هذا . وقيل : الشهادة بمعنى الحضور ؛ أي تحضرون سفك دمائكم وإخراج أنفسكم من دياركم .

الثانيـــة ــ فإن قيـل : وهل يَسفِك أحد دمه ويُخرج نفسه من داره ؟ قيـل له : لمـا كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا في الأمم كالشخص الواحد جعل قتـل بعضهم بعضا وإخراج بعضهم بعضا قتلًا لأنفسهم ونَفيًا لها . وقيل : المراد القصاص ؛ أي لا يَقتل أحد فيُقتل قصاصًا ، فكأنه سفك دمه . وكذلك لا يزني ولا يرتدّ ، فإن ذلك يبيـح الدم . ولا يُفسِد فيُنْفَى ، فيكون قد أخرج نفسه من دياره . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ وإن كان صحيح المعنى . وإنمـا كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيـل في التوراة ميثاقا ألّا يقتـل بعضهم بعضا ، ولا يَنفيه ولا يسترقّه ، ولا يدعه يسرق ؛ إلى غير ذلك من الطاعات .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ . (٢) راجع ص ١٣ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

قلت : وهذا كله محرّم علينا، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا؛ فإنا لله و إنا إليه راجعون ! وفى التنزيل : «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» (١) وسيأتى . قال آبن خُوَيْزِ منداد : وقد يجوز أن يراد به الظاهر ، لا يقتل الإنسان نفسه ، ولا يخرج من داره سفهًا ؛ كما تقتل الهند أنفسها . أو يقتل الإنسان نفسه من جَهد و بلاء يصيبه ، أو يَهيم فى الصحراء ولا يأوى البيوت جهلًا فى ديانته وسفهًا فى حِلمه ؛ فهو عموم فى جميع ذلك . وقد روى أن عثمان بن مَظْعُون بايع فى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزموا أن يلبسوا المسوح ، وأن يَهيموا فى الصحراء ولا يأوُوا البيوت ، ولا يأكلوا اللحم ولا يغشوا النساء ؛ فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده ، فقال لآمرأته : " ما حديثٌ بلغنى عن عثمان " ؟ وكرهت أن تُفشى سِرّ زوجها ، وأن تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالت : يا رسول الله، إن كان قد بلغك شيء فهو كما بلغك؛ فقال : "قولى لعثمان أخلاف لسُنّتى أم على غير مِلّتى إنى أصلّى وأنام وأصوم وأُفطر وأَغْشَى النساء وآوى البيوت وآكل اللحم فمن رَغِب عن سُنّتى فليس منى" فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ﴾ « أنتم » فى موضع رفع بالآبتداء ، ولا يعرب ؛ لأنه مضمر . وضُمت التاء من « أنتم » لأنها كانت مفتوحة إذا خاطبت واحدا مذكّرا، ومكسورة

(١) راجع جـ ٧ ص ٩ .

Marfat.com

إذا خاطبت واحدة مؤنثـة ؛ فلما ثنّيت أو جمعت لم يبـق إلا الضمة . ﴿ هَـٰؤُلَاءِ ﴾ قال القُتَبِيّ : التقدير يا هـؤلاء . قال النحاس : هذا خطأ على قول سـيبويه ، ولا يجوز هـذا أقبـل . وقال الزجاج : هـؤلاء بمعنى الذين . و﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ داخل فى الصـلة؛ أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيـل : « هؤلاء » رفع بالابتداء ، و « أنتم » خبر مقـدم ، و « تقتلون » حال من أولاء . وقيـل : « هؤلاء » نصب بإضمار أعـنى . وقرأ الزُّهْرِى « تُقَتِّـلون » بضم التاء مشددا ، وكذلك « فَلِمَ تُقَتِّلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ » . وهذه الآية خطاب للواجهين لايحتمل ردّه إلى الأسـلاف . نزلت فى بنى قَيْنُقاع وقُرَيظة والنَّضِير من اليهـود؛ وكانت بنو قَيْنُقاع أعداء قُرَيظـة ، وكانت الأَوْس حلفاء بنى قَيْنُقاع ، والخَـزْرج حلفاء بنى قُرَيظة . والنَّضير والأوس والخزرج إخـوان ، وقريظة والنضير أيضا إخوان ، ثم ٱفترقـوا فكانوا يقتتلون ، ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم؛ فعيّرهم الله بذلك فقال : «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ» .

قوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ معنى « تظاهرون » تتعاونون ؛ مشتق من الظَّهر ؛ لأن بعضهم يقوّى بعضًا فيكون له كالظهر؛ ومنه قول الشاعر :

تظاهرتم أَسْتاه بيتٍ تجمّعت[(١)] * على واحد لازِلْتُمْ قِرْنَ واحدِ

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان : الإفراط فى الظلم والتجاوز فيه . وقرأ أهل المدينة وأهل مكة «تَظّاهرون» بالتشديد، يُدغمون التاء فى الظاء لقرب مخرجهما؛ والأصل تتظاهرون . وقرأ الكوفيون «تَظَاهرون» مخففًا ، حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها ؛ وكذا « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ »[(٢)] . وقرأ قتادة « تَظْهرون عليهم » وكله راجع إلى معنى التعاون؛ ومنه : « وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا »[(٣)] وقـوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ »[(٤)] فٱعلمه .

قوله تعالى :﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى ﴾ شرط . وجـوابه « تفادوهم » و « أُسارَى » نصب على الحال . قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقول : ما صار فى أيديهم فهم

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : « ... أستاه قوم ... الخ » . وقد وردت رواية البيت فى تفسير الشوكانى هكذا : * تظاهرتم من كل أوب ووجهة ... الخ *

(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٩٠ (٣) راجع جـ ١٣ ص ٦١ (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٩١

Marfat.com

الأسارى، وما جاء مستأسِرًا فهم الأَسْرَى . ولا يعرف أهل اللغـة ما قال أبو عمرو، إنمـا هو كما تقول : سَكارى وسَكْرى . وقراءة الجماعة « أُسارى » ما عدا حمزة فإنه قرأ « أَسْرَى » على فَعْلَى، جمع أسير بمعنى مأسور، والباب — في تكسيره إذا كان كذلك — فَعْلَى، كما تقول : قتيل وقتلى ، وجريح وجرحى . قال أبو حاتم : ولا يجوز أَسارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سَكارى، وفَعالى هو الأصل ، وفُعالَى داخلة عليها . وحُكي عن محمد بن يزيد قال : يقال أسـير وأُسراء، كظريف وظرفاء . قال ابن فارس : يقال في جمع أسـير أسرى وأسارى، وقرئ بهما . وقيل : أَسارى (بفتح الهمزة) وليست بالعالية .

الثانيـــة — الأسير مشتق من الإسار ، وهو القِدّ الذي يُشدّ به المحمل فسمّي أسيرا ؛ لأنه يشدّ وثاقه ، والعرب تقول : قد أُسِرَ قتبه[1] ، أي شدّه ، ثم سُمّيَ كل أَخيذ أسيرا وإن لم يؤسر، وقال الأعشى :

وقَيَّـدني الشِّـعرُ في بيتِـهِ * كما قَيَّـد الآسراتُ الحِمـارا[2]

أي أنا في بيتـه، يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . فأمّا الأَسْر في قوله عز وجل : « وشَـدَدْنا أَسْرَهُمْ[3] » فهو الخَلْق . وأُسرة الرجل رهطه، لأنه يتقوى بهم .

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ كذا قرأ نافع وحمزة والكسائي . والباقون « تَفْدُوهم » من الفداء . والفداء : طلب الفدية في الأسير الذي في أيديهم . قال الجوهري : « الفداء إذا كُسِر أوله يُمَدّ ويُقصر، وإذا فُتح فهو مقصور؛ يقال : قُمْ فَدًى لك أبي . ومن العرب من يكسر « فِداءً » بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة؛ فيقول: فداءٍ لك، لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء . وأنشد الأصمعي للنابغة :

مَهْلًا فِـداءٍ لك الأقوامُ كلُّهمُ * وما أُثَمِّـرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

ويقال : فَداه وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه . وفَداه بنفسه ، وفدّاه يُفَدّيه إذا قال جعلت فداك . وتَفادَوْا، أي فَـدَى بعضهم بعضا » . والفِدية والفَدَى والفِـداء كله بمعنًى واحد .

(١) القتب (بكسر فسكون وبالتحريك أيضا) : رحل صغير على قدر سنام البعير .
(٢) الحمار : من معانيه أنه خشبة في مقدم الرحل تقبض عليها المرأة . وقيل : العود الذي يحمل عليه الأقتاب . والآسرات : النساء اللواتي يؤكدن الرحال بالقد ويوثقنها .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٤٩

Marfat.com

وفاديت نفسى إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئا، بمعنى فديت ؛ ومنه قول العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم : فاديتُ نفسى وفاديتُ عَقيلًا . وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين الثانى منهما بحرف الجر، تقول : فديت نفسى بمالى وفاديته بمالى؛ قال الشاعر :

فَفِى فادِى أسيرَكِ إنّ قومى * وقومَكِ ما أرى لهُم اجتماعَا

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ «هو» مبتدأ وهو كناية عن الإخراج، و«مُحَرَّمٌ» خبره، و«إخراجُهم» بدل من «هو» وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة، والجملة التى بعده خبره ؛ أى والأمر محرّم عليكم إخراجهم . فـ «إخراجهم» مبتدأ ثان . و «محرم» خبره، والجملة خبر عن «هو»؛ وفى «محرّم» ضمير ما لم يسم فاعله يعود على الإخراج . ويجوز أن يكون «محرَّم» مبتدأ ، و «إخراجهم» مفعول ما لم يُسَمّ فاعله يسدّ مسدّ خبر «محرم» ، والجملة خبر عن «هو» . وزعم الفراء أن «هو» عماد؛ وهذا عند البصريين خطأ لا معنى له ؛ لأن العماد لا يكون فى أول الكلام . ويُقرأ «وهْوَ» بسكون الهاء لثقل الضمة ؛ كما قال الشاعر[(١)] :

فهْـو لا تَنْمِى رَمِيَّتُه[(٢)] * ماله لا عُـدّ مِن نَفَرِهْ

وكذلك إن جئت باللام وثم ؛ وقد تقدّم[(٣)] . قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة، وفداء أساراهم؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبّخهم الله على ذلك توبيخا يُتلى فقال: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ» وهو التوراة «وتكفرون ببعض» ! !

قلت : ولَعَمْرُ الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت الآية وجوب فكّ الأسرى، وبذلك وردت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه

(١) هو امرؤ القيس ؛ كما فى اللسان وشرح الديوان .

(٢) أنميت الصيد فنمى ينمى ، وذلك أن ترميه فتصيبه ويذهب عنك فيموت بعد ما يغيب .

(٣) يراجع ج ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية .

Marfat.com

فك الأسارى وأمر بفكهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين وانعقد به الإجماع . ويجب فك الأسارى من بيت المـال ، فإن لم يكن فهـو فرض على كافة المسلمين ؛ ومن قام به منهـم أسقط الفرض عن الباقين . وسيأتى (١) .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ابتداء وخبر . والخزى الهوان . قال الجوهرى : وخزى — بالكسر — يخزى خزيا إذا ذل وهان . قال ابن السكيت : وقع فى بلية . وأخزاه الله ، وخزى أيضا يخزى خزاية إذا استحيا ، فهو خزيان . وقوم خزايا وامرأة خزيا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ ﴾ « يردون » بالياء قراءة العامة ، وقرأ الحسن « تردون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تقدم القول فيه (٢) ، وكذلك : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا ﴾ الآية (٣) ؛ فلا معنى للإعادة . « يوم » منصوب بـ « يردون » .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التـوراة . ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا . والتقفية : الإتباع والإرداف ؛ مأخوذ من إتباع القفا وهو مؤخر العنق . تقـول استقفيته إذا جئت من خلفه ؛ ومنه سميت قافية الشعر ؛ لأنها تتلو سائر الكلام . والقافية : القفا ؛ ومنه الحديث : " يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم " . والقفى والقفاوة : ما يدخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه . وقفوت الرجل : قذفته بفجور . وفلان قفوتى أى تهمتى . وقفوتى أى خيرتى . قال ابن دريد كأنه من الأضداد . قال العلماء : وهذه الآية مثل قوله تعالى : « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا (٤) » . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٦ . (٣) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٢٥ .

Marfat.com

بلزومها إلى عيسى عليـه السلام . ويقال : رُسُل ورُسْل لغتان، الأولى لغة الحجاز، والثانيـة لغة تميم، وسواء كان مُضافاً أو غير مضاف . وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف إلى حرفين، ويُثقل إذا أضاف إلى حرف واحد .

قوله تعـالى : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الحجج والدّلالات، وهى التى ذكرها الله فى «آل عمران» و «المـائدة» (١)، قاله ٱبن عباس . ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أى قويناه . وقرأ مجاهـد وٱبن مُحَيْصن «آيدناه» بالمـدّ، وهما لغتان . ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُـدُسِ ﴾ روى أبو مالك وأبو صالح عن ٱبن عباس ومَعْمر عن قتادة قالا : جبريل عليه السلام . وقال حسان :

وجبريلٌ رسـولُ الله فِينـا * ورُوحُ القُدْس ليس به خَفاءُ

قال النحاس : وسُمّيَ جبريل روحا وأضيف إلى القـدس؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له رُوحًا من غير ولادة والد ولده؛ وكذلك سُمّيَ عيسى رُوحًا لهذا . وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال : القدس هو الله عز وجل . وكذا قال الحسن : القـدس هو الله، وروحه جبريل . وروى أبو رَوْق عن الضحاك عن ٱبن عباس : «بِروحِ ٱلقُدُس» قال : هو الاسم الذى كان يحيى به عيسى الموتى؛ وقاله سعيد بن جبير وعبيد بن عمير، وهو ٱسم الله الأعظم . وقيل : المراد الإنجيل؛ سمّاه روحًا كما سمى الله القرآن روحا فى قوله تعالى : «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِن أَمْرِنَا» (٢). والأول أظهر، والله تعالى أعلم . والقدس : الطهارة . وقد تقدّم (٣) .

قوله تعالى :﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَـا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ ﴾ أى بما لا يوافقها ويلائمها؛ وحُذفت الهاء لطول الاسم؛ أى بما لا تهواه . ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن إجابته ٱحتقارًا للرسـل، وٱستبعادا للرسالة . وأصـل الهوى الميل إلى الشيء؛ ويجمع أهـواء، كما جاء فى التنزيل، ولا يجمع أهوية؛ على أنهم قد قالوا فى نَدًى أندية؛ قال الشاعر :

فى ليـلةٍ من جُمادَى ذاتِ أنـديةٍ * لا يُبصِر الكلبُ فى ظَلْمائها الطُّنُبا (٤)

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٣، جـ ٦ ص ٣٦٣
(٢) راجع جـ ١٦ ص ٥٤
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٧ طبعة ثانية .
(٤) الطنب (بضم الطاء وسكون النون وضمها) : حبل الخباء والسرادق وغيرهما .

Marfat.com

قال الجوهري : وهـو شاذ . وسُمّيَ الهَوَى هَوًى لأنه يهوِي بصاحبه إلى النـار ؛ ولذلك لايستعمل فى الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه ؛ وهذه الآية من ذلك . وقد يستعمل فى الحق ، ومنه قول عمر رضى الله عنه فى أسارى بَدْر : فهَوِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت . وقالت عائشة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى صحيح الحديث : والله ما أرَى ربّك إلّا يُسارِع فى هواك . أخرجهما مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَفَـرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ « ففريقًا » منصوب بـ « كذّبتم » ، وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام ، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام ، على ما يأتى بيانه فى « سبحان »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَقَالُواْ قُلُوبُنَـا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ بسكون اللام جمـع أغلف ؛ أى عليها أغطية . وهو مثل قوله : « قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّـا تَدْعُونَا إِلَيْهِ »(٢) أى فى أوْعيـة . قال مجاهـد : « غُلْف » عليها غشاوة . وقال عكرمة : عليهـا طابع . وحكى أهل اللغـة غَلَّفت السيف جعلت له غلافا ؛ فقَلْب أغلف ، أى مستور عن الفهـم والتمييز . وقرأ ٱبن عباس والأعرج وٱبن مُحَيْصِن «غُلُف» بضم اللام . قال ٱبن عباس : أى قلوبنا ممتلئة علمًا لاتحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره . وقيل : هو جمع غِلاف ؛ مثل خِمار وخُمُـر ؛ أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وَعَينا علما كثيرا ! وقيل : المعـنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم . فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم بيّن أن السبب فى نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لُعِنوا بما تقدّم من كفرهم وٱجترائهم ؛ وهـذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه . وأصل اللّعن فى كلام العـرب الطّرد والإبعاد . ويقال للذئب : لعين . وللرجل الطريد : لعين ؛ وقال الشمّاخ :

ذَعَرْتُ به القطا ونَفَيْتُ عنـه ... مَقـامَ الذّئب كالرجل اللّعـين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٨ .   (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٩ .

Marfat.com

ووجه الكلام : مقام الذئب اللعين كالرجل ؛ فالمعنى أبعـدهم الله من رحمته . وقيل : من توفيقه وهدايته . وقيل : من كل خير ؛ وهذا عام . « فقليلًا » نعت لمصدر محـذوف ؛ تقديره فإيمانًا قليـلا ما يؤمنون . وقال معْمَر : المعـنى لا يؤمنون إلا بقليـل ممـا فى أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ ويكون « قليـلا » منصوب بنزع حرف الصفة . و « ما » صـلة ؛ أى فقليلا يؤمنون . وقال الواقدى : معناه لا يؤمنون قليـلا ولا كثيرا؛ كما تقول : ما أقلَّ ما يفعل كذا؛ أى لا يفعله ألبتة . وقال الكسائى : تقول العرب مررْنا بأرضٍ قلَّ ما تنبت الكُرّاث والبصل؛ أى لا تنبت شيئا .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ نعت لكتاب ؛ ويجوز فى غير القـرآن نصبه على الحال ؛ وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ بالنصب فيما رُوِىَ . ﴿ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ يعنى التوراة والإنجيل يخـبرهم بما فيهما . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ أى يستنصرون . والاستفتاح الاستنصار . استفتحت : استنصرت . وفى الحديث : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين؛ أى يستنصر بدعائهم وصلاتهم[1] . ومنه « فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ[2] » . والنصر: فتح شىء مغلق؛ فهو يرجع إلى قولهم فتحت الباب . وروى النسائىّ عن أبى سعيد الخدرى[3] أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما نصر[4] الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم و إخلاصهم " . وروى النسائى أيضا عن أبى الدرداء قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول :

(١) الذى فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة فتح : «أى يستنصر بهم» . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢١٧ .

(٣) يلاحظ أن راوى هذا الحديث هو سـعد بن أبى وقاص ؛ فنى سنن النسائى (جـ ١ ص ٦٥ طبع المطبعة الميمنية) باب الاستنصار بالضعيف : أخبرنا محمد بن إدريس ... مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن ... » الخ .

(٤) الذى فى سنن النسائى : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها » .

Marfat.com

" أبغونى الضعيف فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم " . قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت(١) يهود بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم . قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ؛ فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بك يا محمد، إلى قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ جواب « لما » الفاء وما بعدها فى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ فى قول الفراء ؛ وجواب « لما » الثانية « كفروا » . وقال الأخفش سعيد : جواب « لما » محذوف لعلم السامع ؛ وقاله الزجاج . وقال المبرد : جواب « لما » فى قوله : « كفروا » ، وأعيدت « لما » الثانية لطول الكلام . ويفيد ذلك تقرير الذنب وتأكيدا له .

قوله تعالى : بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا ﴾ بئس فى كلام العرب مستوفية للذم ؛ كما أن « نعم » مستوفية للمدح . وفى كل واحدة منها أربع لغات : بِئْس بَأْس بَئِس بِئِس . نِعْم نَعْم نَعِم نِعِم . ومذهب سيبويه أن « ما » فاعلة بئس ، ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس والنكرات . وكذا نعم ؛ فتقول نعم الرجلُ زيدٌ ، ونعم رجلًا زيدٌ ؛ فإذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبدا ؛ فإذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبدا ؛ ونصب رجل على التمييز . وفى نعم مضمر على شريطة التفسير ؛ وزيد مرفوع على وجهين : على خبر ابتداء محذوف ؛ كأنه قيل من الممدوح ؟ قلت هو زيد ، والآخر على الابتداء وما قبله خبره . وأجاز أبو على أن تليها « ما » موصولة وغير موصولة من حيث كانت مبهمة تقع على الكثرة ولا تخص واحدا

(١) فى ب : « فعاذت » بالذال المعجمة .

Marfat.com

بعينه؛ والتقدير عند سيبويه : بئس الشيء آشتروا به أنفسهم أن يكفروا . فـ«أن يكفروا» فى موضع رفع بالآبتداء وخبره فيما قبله ؛ كقولك : بئس الرجل زيد ، و « ما » على هـذا القول موصـولة . وقال الأخفش : « ما » فى موضع نصب على التمييز ؛ كقولك : بئس رجلًا زيدٌ ، فالتقدير بئس شيئا أن يكفروا . فـ « آشتروا به أنفسهم » على هذا القول صفة « ما » . وقال الفراء : « بئسما » بجملته شيء واحد رُكّب كحبّذا . وفى هذا القول آعتراض؛ لأنه يبقى فعـل بلا فاعل . وقال الكسائى : « ما » و « آشـتروا » بمنزلة آسم واحد قائم بنفسه ، والتقدير بئس آشتراؤهم أن يكفروا . وهـذا مردود ، فإن نعم وبئس لا يدخلان على آسم معيّن مُعرّف ، والشراء قد تعرّف بإضافته إلى الضمير . قال النحاس : وأبين هذه الأقوال قول الأخفش وسيبويه . قال الفراء والكسائى : « أن يكفروا » إن شئت كانت « أن » فى موضع خفض ردًّا على الهـاء فى به . قال الفراء : أى آشتروا أنفسهم بأن يكفروا بما أنزل الله . فآشترى بمعنى باع وبمعنى آبتاع؛ والمعنى : بئس الشيء الذى آختاروا لأنفسهم حيث آستبدلوا الباطل بالحق ، والكفر بالإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بَغْيًا ﴾ معناه حسدًا ؛ قاله قتادة والسُّدّى، وهو مفعول من أجله ، وهو على الحقيقة مصدر. الأصمعى: وهو مأخوذ من قولهم: قد بَغَى الجرح إذا فسد . وقيل: أصله الطلب ، ولذلك سُميت الزانية بَغِيًّا . ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لأن ينزّل ؛ أى لأجل إنزال الله الفضل على نبيّه صلى الله عليه وسلم . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو ويعقوب وآبن مُحَيْصِن « أن يُنْزِل » مخففًا ، وكذلك سائر ما فى القرآن ، إلا « وَمَا نُنَزِّلُه » فى «الحِجْر»[1] ، وفى « الأنعام » « عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً »[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَبَـاءُوا ﴾ أى رجعوا؛ وأكثر ما يقال فى الشر؛ وقد تقدّم[3] . ﴿ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ تقدّم معنى غضب الله عليهم[4] ، وهو عقابه؛ فقيل : الغضب الأول لعبادتهـم العجل ، والثانى لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسـلم؛ قاله آبن عباس . وقال عكرمة : لأنهم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد ؛ يعـنى اليهود . وروى سـعيد عن قتادة : الأول لكفـرهم

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

بالإنجيل ، والثـانى لكفرهم بالقرآن . وقال قوم : المراد التأبيد وشدّة الحال عليهم ، لا أنه أراد غضبين معلّلين بمعصيتين . و ﴿مُهِينٌ﴾ مأخوذ من الهوان ، وهو ما اقتضى الخلود فى النار دائما بخلاف خلود العصاة من المسلمين ، فإن ذلك تمحيص لهم وتطهير ، كرجم الزانى وقطع يد السارق ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النساء »(١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ أى صدّقوا ﴿بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعنى القرآن ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ﴾ أى نصدّق ﴿بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى التوراة . ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى بمـا سواه ؛ عن الفرّاء . وقتادة : بمـا بعده ؛ وهو قول أبى عُبيدة . والمعنى واحد . قال الجوهرى : وراء بمعنى خلف ، وقد تكون بمعنى قدّام . وهى من الأضداد ؛ قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾(٢) أى أمامهـم ؛ وتصغيرها وُرَيِّئة (بالهـاء) وهى شاذّة . وانتصب « وراءه » على الظرف . قال الأخفش : يقال لَقِيته من وراءُ ، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف تجعله اسما وهو غير متمكّن ؛ كقولك : مِن قبلُ ومِن بعدُ ؛ وأنشد :

إذا أنا لم أُومَن عليكَ ولم يكن * لقـاؤكَ إلا مِن وراءُ وراءُ(٣)

قلت : ومنه قول إبراهيم عليـه السلام فى حديث الشفاعة : "إنمـا(٤) كنتُ خليلاً مِن وراءَ وراءَ" . والوراء : ولد الولد أيضا .

قوله تعـالى : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكّدة عند سيبويه . ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ ما فى موضع خفض باللام ، و « معهم » صلتها ، و « معهم » نصب بالاستقرار ؛ ومن أسكن جعله حرفا .

(١) راجع جـ ٥ ص ٨٧ — ويأتى أيضا فى المـائدة والنور ، راجع جـ ٦ ص ١٥٩ ، جـ ١٢ ص ١٥٩

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤ (٣) البيت لعُتَىّ بن مالك العقيلى . (عن اللسان) .

(٤) الذى فى نهاية واللسان مادة (ورى) : « إنى كنت ... الخ » . وفيهما : هكذا يروى مبنيا على الفتح ؛ أى من خلف حجاب .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بمـا أنزل عليهم ، وتكذيبٌ منه لهم وتوبيخ ؛ المعنى : فكيف قتلتم وقد نُهيتم عن ذلك ! فالخطاب لمن حضر محمدا صلى الله عليه وسلم والمراد أسلافهم . وإنمـا توجّه الخطاب لأبنائهم؛ لأنهم كانوا يتولّون أولئك الذين قتلوا ، كما قال : « وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَـاءَ »(١) فإذا تولّوهم فهم بمنزلتهم . وقيل : لأنهم رَضُوا فعلهم فنُسب ذلك إليهم . وجاء « تقتلون » بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضيّ لمـا ارتفع الإشكال بقوله : « مِنْ قَبْـلُ » . وإذا لم يشكل فجائز أن يأتى المـاضى بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى المـاضى؛ قال الحُطَيئة :

شَهِد الحُطَيئةُ يـوم يلقَى رَبَّـه ✱ أنّ الوليـد أحقّ بالعـــذرِ

شهد بمعنى يشهد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن كنتم معتقدين الإيمـان فلِم رضيتم بقتـل الأنبياء ! وقيل : « إنْ » بمعنى ما ، وأصل « لِمَ » لِمـا ، حذفت الألف فرقًا بين الاستفهام والخبر؛ ولا ينبغى أن يوقف عليه؛ لأنه إن وقف عليـه بلا هاء كان لحنًا ، وإن وقف عليه بالهـاء زيد فى السواد .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْـدِهِۦ وَأَنْتُمْ ظَـٰلِمُونَ (٩٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ اللام لام القَسَم . والبينات قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »(٢) وهى العصا ، والسُّنون ، واليد ، والدّم ، والطُّوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، وفلق البحر . وقيل : البينات التوراة ، وما فيها من الدلالات .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ توبيخ ، و « ثُمّ » أبلغ من الواو فى التقريع؛ أى بعد النظر فى الآيات والإتيان بها اتخذتم . وهذا يدلّ على أنهم إنمـا فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر فى الآيات؛ وذلك أعظم لجرمهم .

---

(١) راجع ج ٦ ص ٢٥٤ (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٣٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ تقدّم[1] الكلام في هذا . ومعنى «اسمعوا» أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط ، وإنما المراد اعملوا بما سمعتم والتزموه ؛ ومنه قولهم : سمع الله لمن حمده ؛ أي قبل وأجاب . قال :

دعوتُ الله حتى خِفتُ ألّا * يكون الله يسمع ما أقول

أي يقبل؛ وقال الراجز :

والسمعُ والطاعةُ والتسليمُ * خيرٌ وأعْفَى لبني تميمِ

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ اختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقةً باللسان نُطْقًا ، أو يكونوا فعلوا فعلًا قام مقام القول فيكون مجازا؛ كما قال :

امتلأ الحوْضُ وقال قَطْني * مهلًا رُوَيْدًا قد ملأتَ بطْني

وهذا احتجاج عليهم في قولهم : « نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » .

قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ أي حُبّ العجل ، والمعنى : جعلت قلوبهم تُشربه ، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكّن أمر العجل في قلوبهم . وفي الحديث : "تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأيّ قلبٍ أُشربها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء" الحديث ، خرّجه مسلم . يقال أُشرب قلبُه حبَّ كذا ؛ قال زهير :

فصحوتُ عنها بعد حُبّ داخلٍ * والحبُّ تُشربُه فؤادَك داءُ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ وما بعدها ، طبعة ثانية .

Marfat.com

وإنما عبّر عن حُبّ العجل بالشُّرب دون الأكل لأن شرب المـاء يتغلغل فى الأعضـاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لهـا غير متغلغل فيها . وقد زاد على هـذا المعنى أحد التابعين فقال فى زوجته عَثْمَة ، وكان عَتَب عليها فى بعض الأمر فطلّقها وكان مُحِبًّا لها :

تغلغل حُبُّ عَثْمَةَ فى فؤادى * فباديه مـع الخـافى يسـير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب * ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرتُ العهد منها * أطير لو أن إنسانا يطير

وقال السُّدّى وابن جُريج : إن موسى عليه السلام بَرَد العجل وذرّاه فى المـاء، وقال لبنى إسرائيـل : اشربوا من ذلك المـاء ؛ فشرب جميعهم ، فمن كان يحبّ العجل خرجت بُرادة الذهب على شَفَتَيْه . ورُوِىَ أنه ما شربه أحد إلا جُنّ ؛ حكاه القُشيرى .

قلت : أمّا تذريته فى البحر فقـد دلّ عليه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا »(١) ؛ وأمّا شُرْبُ المـاء وظهور البُرادة على الشِّفاه فيردّه قوله تعالى : «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ». والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾ أى إيمانكم الذى زعمتم فى قولكم : نؤمن بما أُنزِل علينا . وقيل : إن هذا الكلام خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أُمِر أن يوبّخهم؛ أى قل لهم يا محمد : بئس هـذه الأشياء التى فعلتم وأمركم بهـا إيمانكم . وقـد مضى الكلام فى « بئسما » والحمد لله وحده(٢) .

قوله تعـالى : قُـلْ إِن كَانَتْ لَـكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِنـدَ ٱللَّهِ خَالِصَـةً مِّن دُونِ ٱلنَّـاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَـا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

لمـا ادّعت اليهـود دعاوى باطلة حكاها الله عز وجل عنهـم فى كتابه ؛ كقوله تعالى : « لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْـدُودَةً » ، وقوله : « وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّـةَ إِلَّا مَنْ كَانَ

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٣ . (٢) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

هُودًا أو نَصَارَى »، وقالوا : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »[1] أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد : « إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ » يعنى الجنـة « فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أقوالكم ؛ لأن من آعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحبَّ إليه من الحياة فى الدنيا، لمـا يصير إليه من نعيم الجنة، و يزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمنّى ذلك فرقًا من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم فى قولهم : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »، وحرصهم على الدنيا؛ ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم بقوله الحق : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ تحقيقًا لكذبهم . وأيضا لو تمنّوا الموت لمـاتوا ؛ كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو أن اليهود تمنّوا الموت لمـاتوا ورأوا مقامهم[2] من النار " . وقيل : إن الله صرفهم عن إظهار التمنى، وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيّه صـلى الله عليه وسلم؛ فهذه ثلاثة أوجه فى تركهم التمنى . وحكى عِكرمة عن آبن عباس فى قوله : « فتمنّوا الموت » أن المراد آدعوا بالموت على أكذب الفريقين منّا ومنكم؛ فما دعوا لعلمهم بكذبهم .

فإن قيل : فالتمنى يكون باللسان تارة و بالقلب أخرى؛ فمن أين علم أنهم لم يتمنّوه بقلوبهم ؟ قيل له : نطق القرآن بذلك بقوله « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » ولو تمنّوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ردّا على النبى صلى الله عليه وسلم و إبطالا لحجته؛ وهذا بيّن .

قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً ﴾ نصب على خبر كان؛ و إن شئت كان حالا، ويكون « عند الله » فى موضع الخبر . ﴿ أَبَدًا ﴾ ظرف زمان يقع على القليل والكثير ؛ كالحين والوقت ، وهو هنا من أوّل العمر إلى الموت . و « ما » فى قوله « بِمَا » بمعنى الذى والعائد محذوف؛ والتقدير قدّمته، وتكون مصدرية ولا تحتاج إلى عائد . و « أيديهم » فى موضع رفع، حُذفت الضمة من اليـاء لثقلها مع الكسرة ؛ و إن كانت فى موضع نصب حرّكتها ؛ لأن النصب خفيف، ويجوز إسكانها فى الشعر . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ آبتداء وخبر .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « مقاعدهم » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ يعنى اليهود . ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل : المعنى وأحرص، فحذف « مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » لمعرفتهم بذنوبهم وألّا خيرلهم عند الله؛ ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة ؛ ألا ترى قول شاعرهم : (١)

تمتّـع من الدنيـا فإنك فانٍ * من النَّشَوات والنساء الحسان

والضمير فى «أَحَدُهُمْ» يعود فى هذا القول على اليهود . وقيل : إن الكلام تم فى «حياة» ثم آستؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين . قيـل : هم المجوس ؛ وذلك بيِّن فى أدعياتهم للعاطس بلغاتهم بمـا معناه « عِشْ ألفَ سنة » . وخُصّ الألف بالذكر لأنهـا نهاية العقد فى الحساب . وذهب الحسن إلى أن « الذين أشركوا » مشركو العرب ، خُصُّوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث؛ فهم يتمنّون طول العمر. وأصل سنة سَنْهَة. وقيل: سَنْوَة. وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة.

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أصل « يَوَدُّ » يَوْدَد، أُدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين ؛ وقُلبت حركة الدال على الواو ؛ ليـدل ذلك على أنه يفعل . وحكى الكسائى : وَدَدْت ؛ فيجوز على هذا يِوَدّ بكسر الواو . ومعنى يَوَدّ : يتمنّى .

قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ اختلف النحاة فى هو، فقيل: هو ضمير الأحد المتقدّم، التقدير ما أحدهم بمزحزحه، وخبر الابتداء فى المجرور . « أن يُعَمَّر » فاعل بمزحزح . وقالت فرقة : هو ضمير التعمير ، والتقـدير وما التعمير بمزحزحه ، والخبر فى المجرور ، « أن يعمر » بدل من التعمير على هـذا القول . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : « هو » عماد .

(١) البيت لآمرئ القيس . والنشوات (جمع نشوة) : السكر .

Marfat.com

قلت : وفيه بُعْدٌ، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين؛ مثل قوله : « إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ » (١)، وقوله : « وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » (٢) ونحو ذلك . وقيل : « ما » عاملة حجازية، و« هو » اسمها، والخبر في « بِمُزَحْزِحِهِ » . وقالت طائفة : « هو » ضمير الأمر والشأن . ابن عطية : وفيه بُعْدٌ، فإن المحفوظ عن النحاة أن يفسر بجملة سالمة من حرف جر .

وقوله : ﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ الزحزحة : الإبعاد والتنحية؛ يقال : زحزحته أى باعدته فتزحزح أى تنحى وتباعد؛ يكون لازمًا ومتعديًا؛ قال الشاعر في المتعدى :

يا قابضَ الرُّوحِ من نفس إذا احتضرتْ　＊　وغافرَ الذنب زَحْزِحْنِي عن النارِ

وأنشده ذو الرُّمة :

يا قابضَ الروح عن جسم عصَى زمنًا　＊　وغافرَ الذنب زحزحني عن النار

وقال آخر في اللازم :

خليلَيَّ ما بالُ الدُّجَى لا يتزحزح　＊　وما بالُ ضَوْءِ الصبح لا يتوضَّحُ

وروى النسائى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من صام يوما في سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفا" .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بما يعمل هؤلاء الذين يَوَدّ أحدهم أن يُعمَّر ألف سنة . ومن قرأ بالتاء فالتقدير عنده : قل لهم يا محمد الله بصير بما تعملون . وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيّات الأمور . والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به؛ ومنه قولهم : فلان بصير بالطّب، و بصير بالفقه، و بصير بملاقاة الرجال؛ قال :

فإن تسألونى بالنساء فإننى　＊　بصيرٌ بأدواء النساء طبيب

قال الخطّابى : البصير العالم، والبصير المُبْصِر . وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إبصار، أى مدركة للبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة والقوة؛ فالله بصير بعباده، أى جاعل عباده مبصرين .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ .　　(٢) راجع جـ ١٦ ص ١١٥ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنه ليس نبيّ من الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة و بالوَحْى ، فمَن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: "جبريل" قالوا : ذاك الذى ينزل بالحـرب و بالقتال ، ذاك عدوّنا ! لو قلت : ميكائيـل الذى ينزل بالقطر وبالرحمـة تابعناك ، فأنزل الله الآية إلى قـوله : « لِلْكَافِرِينَ » أخرجه الترمـذى .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ الضمير فى «إنه» يحتمل معنيين ؛ الأوّل : فإن الله نزّل جبريل على قلبك . الثـانى : فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك . وخصّ القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقّى المعارف . ودلّت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذمّ معاديه .

وقوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بإرادته وعلمه . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى التوراة . ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم معناه(١) ، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ ﴾ شرط ، وجوابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . وهذا وعيد وذمٌّ لمُعادى جبريل عليـه السلام ، وإعلانٌ أن عداوة البعض تقتضى عداوة الله لهم . وعداوة العبد لله هى معصيته وآجتناب طاعته ، ومعادات أوليائه . وعداوةُ الله للعبـد تعذيبه و إظهار أثر العداوة عليه .

فإن قيـل : لِمَ خصّ الله جبريل وميكائيل بالذكر و إن كان ذكر الملائكة قـد عمّهما ؟ قيل له : خصّهما بالذكر تشريفًا لهما ، كما قال : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »(٢) . وقيل : خُصَّا لأن اليهود ذكروهما ، ونزلت الآية بسببهما ، فذِكْرُهما واجبٌ لئلا تقول اليهود : إنا لم نعـاد

(١) يراجع ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٣٨ طبعة ثانية .
(٢) راجع ج ١٧ ص ١٨٥ .

Marfat.com

الله وجميع ملائكته ؛ فنصّ الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص . ولعلماء اللسان في جبريل وميكائيل عليهما السلام لغات ؛ فأما التي في جبريل فعَشْر :

الأولى — جبريل ؛ وهي لغة أهل الحجاز ؛ قال حسان بن ثابت :

* وجِبْرِيلٌ رسولُ الله فينا *

الثانيـة — جَبْريل (بفتح الجيم) وهي قراءة الحسن وآبن كثير؛ ورُوِيَ عن آبن كثير أنه قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أزال أقرؤهما أبدًا كذلك .

الثالثـة — جَبْرَئِيل (بياء بعد الهمزة ، مثال جبرعيل) ، كما قرأ أهل الكوفة ؛ وأنشدوا :

شَهِدنا فما تلق لنا من كتيبة * مَدَى الدهر إلا جَبْرَئِيلُ أمامُها (١)

وهي لغة تميم وقيس .

الرابعـة — جَبْرَئِل (على وزن جَبْرَعِل) مقصور ، وهي قراءة أبي بكر عن عاصم .

الخامسـة — مثلها ، وهي قراءة يحيى بن يَعْمَر ، إلا أنه شدّد اللام .

السادسـة — جبرائل (بألف بعد الراء ثم همزة) وبها قرأ عكرمة .

السابعـة — مثلها ؛ إلا أن بعد الهمزة ياء .

الثامنـة — جبرييل (بياءين بغير همزة) وبها قرأ الأعمش ويحيى بن يعمر أيضا .

التاسـعة — جَبْرَئين (بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون) .

العاشرة — جِبْرِين (بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة) وهي لغة بني أسد .

قال الطبري : ولم يُقرأ بها . قال النحاس — وذكر قراءة آبن كثير — : « لا يُعرف في كلام العرب فَعْليل؛ وفيه فِعْليل؛ نحو دِهليز وقِطمير و بِرطيل؛ وليس ينكر أن يكون في كلام العجم ما ليس له نظير في كلام العرب ، وليس ينكر أن يكثر تغيّره، كما قالوا : إبراهيم و إبْرَهَم و إبراهُم

(١) البيت لكعب بن مالك ، كما في شرح القاموس .

Marfat.com

وإبراهام » . قال غيره : جبريل آسم أعجمى عرّبته العرب ، فلها فيه هـذه اللغات ولذلك لم ينصرف .

قلت : قد تقـدّم فى أوّل الكتاب[1] أن الصحيح فى هذه الألفاظ عربية نزل بها جبريل بلسان عربىّ مبين . قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل .

وأمّا اللغات التى فى ميكائيل فستّ :

الأولى ــ ميكاييل، قراءة نافع . وميكائيل (بياء بعد الهمزة) قراءة حمزة . ميكال ، لغة أهـل الحجاز ، وهى قراءة أبى عمـرو وحفص عن عاصم . ورُوِىَ عن آبن كثير الثـلاثة أوجه؛ قال كعب بن مالك :

ويوم بَدْرٍ لقينا كم لنـا مَدَدٌ ❊ فيه مع النصر ميكالٌ وجبريلُ

وقال آخر[2] :

عبدوا الصّليب وكذّبوا بمحمّد ❊ وبجـــبرئيل وكذّبوا ميكالا

الرابعـــة ــ ميكئيل ، مثل ميكعيل ؛ وهى قراءة آبن مُحَيْصِن .

الخامســـة ــ ميكاييل (بياءين) وهى قراءة الأعمش باختلاف عنه .

السادســة ــ ميكاَل ؛ كما يقال (إسراءل بهمزة مفتــوحة) ، وهو آسم أعجمى فـلذلك لم ينصرف . وذكر آبن عباس أن جَبْر وميكا وإسراف هى كلها بالأعجمية بمعنى: عبد ومملوك . وإيل : آسم الله تعالى؛ ومنه قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حين سمع سَجْع مُسَيْلِمة: هذا كلام لم يخرج من إلّ ؛ وفى التنزيل : « لَا يَرْقُبُون فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا ولا ذِمَّةً » فى أحد التأويلين ، وسيأتى[3] . قال المـاوردى : إن جبريل وميكائيل اسمانـــ ؛ أحدهما عبد الله ، والآخر عبيد الله؛ لأن إيل هو الله تعالى، وجبر هو عبد ، وميكا هو عبيد ؛ فكأن جبريل عبد الله، وميكائيل عبيد الله ؛ هذا قول آبن عباس ، وليس له فى المفسرين مخالف .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٦٨ طبعة ثانية . (٢) هو جرير ؛ كما فى ديوانه . (٣) راجع جـ ٨ ص ٧٩

Marfat.com

قلت : وزاد بعض المفسرين : و إسرافيل عبــد الرحمن . قال النحاس : ومن تأوّل الحــديث « جبر » عبد ، و « إلّ » الله وجب عليه أن يقول : هــذا جَبْرُئل و رأيت جبرَئل ومررت بجبرئل ؛ وهذا لا يقــال ؛ فوجب أن يكون معنى الحديث أنه مُسَمًّى بهــذا . قال غيره : ولو كان كما قالوا لكان مصروفا ، فتركُ الصرف يدلّ على أنه آسم واحد مفرد ليس بمضاف . وروى عبد الغني الحافظ من حديث أَفْلَت بن خليفة — وهو فُليت العامري وهو أبو حسان — عن جَسْرة بنت دَجاجة عن عائشــة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمّ ربّ جبريل وميكايل و إسرافيل أعوذ بك من حرّ النار وعذاب القبر".

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

قال آبن عباس رضى الله عنهما : هــذا جواب لآبن صوريا[١] حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بيّنة فنتبعك بها ؟ فأنزل الله هذه الآية ؛ ذكره الطبري .

قوله تعالى : أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الواو واو العطف ، دخلت عليها ألف الآستفهام كما تدخل على الفاء في قوله : « أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ »[٢] ، «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ»[٣] ، «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ»[٤] . وعلى ثُمّ كقوله : « أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ »[٥] هذا قول سيبويه . وقال الأخفش : الواو زائدة . ومذهب الكسائي أنهــا أو ، حُرّكت الواو منها تسهيلًا . وقرأها قوم أوْ ، ساكنة الواو فتجيء بمعنى بل ؛ كما يقول القائل : لأضربنك ؛ فيقول المجيب : أو يكفي الله . قال آبن عطية : وهذا كله متكلّف ؛ والصحيح قول سيبويه . «كلما» نصب على الظرف ؛ والمعنى

(١) كذا في نسخ الأصل وتفسير الطبري وأسباب النزول للواحدي . وفي سيرة ابن هشام (ص ٣٧٩ طبع أوربا) : « أبو صلوبا الفطيوني » .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٢١٤
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠
(٥) راجع جـ ٨ ص ٣٥١

Marfat.com

فى الآية مالك بن الصّيف ، ويقال فيه آبن الضيف (١) ، كان قد قال : والله ما أخذ علينا عهدٌ فى كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركى العرب ؛ فلما بُعث كفروا به . وقال عطاء : هى العهود التى كانت بين النبىّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود فنقضوها ، كفعل قُريظة والنَّضير؛ دليله قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٢) » .

قوله تعالى : ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ؛ ومنه النَّبيذ والمنبوذ ، قال أبو الأسود :

وخبّرنى مَن كنت أرسلتُ إنما ❊ أخذتَ كتابى معرضًا بشمالكا
نظرتَ إلى عنـــوانه فنبـذتَه ❊ كنبذك نعلًا أخلقتْ من نعالكا

آخـــر :

إن الذين أمرتهم أن يعـدلوا ❊ نبذوا كتابك وآستحلّوا المَحْرَمَا

وهـذا مَثل يُضرَب لمن آستخفّ بالشىء فلا يعمل به ؛ تقول العرب : آجعل هـذا خَلْفَ ظهـرك ، ودَبْرًا منـك ، وتحت قدمك ؛ أى آتركه وأعرض عنـه ؛ قال الله تعـالى : « وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا (٣) » . وأنشد الفراء :

تَمِيمُ بنَ زيد لا تكونَنّ حاجتى ❊ بظَهْــرٍ فلا يَعْيَا علىّ جوابهـا (٤)

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ابتداء . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الخبر .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

(١) فى أ ، ب ، ح : « الصيت » بالتاء المثناة ، وفى ج : « الصيب » بالباء . والتصويب عن سيرة آبن هشام ص ٣٥٢ طبع أوربا .
(٢) ج ٨ ص ٣٠
(٣) ج ٩ ص ٩١
(٤) البيت للفرزدق ؛ يخاطب تميم بن زيد القينى وكان على السند . (عن النقائض ص ٣٨١ طبع أوربا) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ نعتٌ لرسول ، ويجوز نصبه على الحال . ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ جواب « لما » . ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ نصب بـ « نَبَذَ » ، والمراد التوراة ؛ لأن كفرهم بالنبيّ عليه السلام وتكذيبهم له نبذٌ لها . قال السُّدّى : نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسِحْرِ هاروت وماروت . وقيل : يجوز أن يعنى به القرآن . قال الشَّعْبِيّ : هو بين أيديهم يقرءونه ؛ ولكن نبذوا العمل به . وقال سفيان بن عُيَيْنة : أدرجوه فى الحرير والديباج ، وحلّوه بالذهب والفضة ، ولم يُحِلّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه ؛ فذلك النبذ . وقد تقدّم بيانه مستوفًى [(1)] . ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تشبيهٌ بمن لا يعلم ، إذ فعلوا فعل الجاهل ، فيجىء من اللفظ أنهم كفروا على علم .

قوله تعالى : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا ، وهم اليهود . وقال السُّدّى : عارضت اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف و بسحرِ هاروت وماروت . وقال محمد بن إسحاق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمانَ فى المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود

(١) فى الصفحة السابقة .

Marfat.com

كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أى ألقت إلى بنى آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر وٱستسخار الطير والشياطين كان سحرا . وقال الكلبي : كتبت الشياطين السحر والنِّيرَنْجِيَّات (١) على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلّاه حين ٱنتزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان؛ فلما مات سليمان ٱستخرجوه وقالوا للناس : إنما ملّككم بهذا فتعلّموه؛ فأما علماء بنى إسرائيل فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان ! وأما السِّفْلة فقالوا : هذا علم سليمان؛ وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتب أنبيائهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله عز وجل على نبيّه عذر سليمان وأظهر براءته مما رُمى به فقال : « وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ » . قال عطاء : « تتلو » تقرأ من التلاوة . وقال ٱبن عباس : « تتلو » تتبع؛ كما تقول : جاء القوم يتلو بعضهم بعضا . وقال الطبرى : « ٱتبعوا » بمعنى فضّلوا .

قلت : لأن كل من اتبع شيئا وجعله أمامه فقد فضّله على غيره ، ومعنى « تتلو » يعنى تلت ، فهو بمعنى المضىّ؛ قال الشاعر :

وإذا مررتَ بقبره فٱعْقِر به * كُومَ الهِجانِ (٢) وكلّ طرف سابح
وٱنضح جوانبَ قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دَمٍ وذبائح

أى فلقد كان . و « ما » مفعول بـ « ٱتبعوا » ؛ أى ٱتبعوا ما تقوّلته الشياطين على سليمان وتلته . وقيل : «ما» نفىٌ، وليس بشىء لا فى نظام الكلام ولا فى صحته؛ قاله ابن العربى . ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى على شرعه ونبوّته . قال الزجاج : المعنى على عهد مُلك سليمان . وقيل : المعنى فى ملك سليمان؛ يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره . قال الفرّاء : تصلح على وفى، فى مثل هذا الموضع . وقال « علَى » ولم يقل بعْدَ لقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

(١) اختلفت الأصول فى رسم هذه الكلمة ، والذى فى القاموس : « النيرنج » قال شارح القاموس : « هكذا فى سائر النسخ ، والمقول عن نص كلام الليث : «النيرج» بإسقاط النون الثانية . وكذا ورد فى اللسان . وهو أُخَذ كالسحر وليس به ، إنما هو تشبيه وتلبيس » .

(٢) الكوم (بالضم) : جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . والهجان من الإبل : البيض الكرام .

Marfat.com

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ » أي في تلاوته . وقد تقـدم معنى الشيطان واشتقاقه، فلا معنى لإعادته[2] . والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن؛ وهو المفهوم من هذا الاسم . وقيل : المراد شياطين الإنس المتمردون في الضلال؛ كقول جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلي * وكن يهـوينني إذ كنتُ شـيطانا

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ تبرئة من الله لسليمان؛ ولم يتقدم في الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسـبه إلى الكفر، ثم قال : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ فأثبت كفرهم بتعليم السحر . و « يُعَلِّمُونَ » في موضع نصب على الحال، و يجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر ثان . وقرأ الكوفيون سوى عاصم « ولكنِ الشياطينُ » بتخفيف « لكن » ، و رفع النون من « الشياطين » ؛ وكذلك في الأنفال « ولكنِ اللهُ رمى »[3] ووافقهم ابن عامر . الباقون بالتشديد والنصب . و « لكن » كلمة لها معنيان : نفي الخبر المـاضي، و إثبات الخبر المستقبل؛ وهي مبنية من ثلاث كلمات : لا ، ك ، إن . « لا » نفي ، و « الكاف » خطاب ، و « إن » إثبـات وتحقيق ؛ فذهبت الهمزة استثقالا ، وهي تثقَّـل وتخفَّف؛ فإذا ثُقِّلت نصبت كإنّ الثقيلة، و إذا خُفِّفت رفعت بها كما ترفع بإن الخفيفة .

الثالثـــة — السحر، قيل : السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيُخَيَّل للسحور أنهـا بخلاف ما هي به؛ كالذي يرى السراب من بعيد فيُخَيَّل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيرًا حثيثًا يُخَيَّل إليه أن ما يرى من الأشجـار والجبال سائرة معه . وقيـل : هو مشتق من سَحَرتُ الصبيَّ إذا خدعته، وكذلك إذا علَّلته . والتسحير مثله؛ قال لَبِيد :

فإن تسألينا فيمَ نحن فإننـا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

---

(١) راجع ج ١٢ ص ٧٩ (٢) راجع ج ١ ص ٩٠ طبعة ثانية . (٣) راجع ج ٧ ص ٣٨٤

Marfat.com

آخــر[1] :

أرانا مُوضِعِين لأمرِ غَيْبٍ[2] * ونُسْحَرُ بالطعام وبالشَّراب
عصـافيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ * وأجْرأ من مُجَلِّحَةِ الذِّئاب[3]

وقوله تعـالى : « إِنَّمَـا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » يقال : المُسَحَّر الذى خُلق ذا سَحْر، ويقال من المعلَّلين ؛ أى ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب . وقيل : أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله فى خُفية . وقيـل : أصـله الصَّرف؛ يقال : ما سَحَرك عن كذا ، أى ما صرفك عنه؛ فالسِّحر مصروف عن جهته . وقيل : أصله الاستمالة ؛ وكلّ من آستمالك فقد سحرك . وقيل فى قوله تعـالى : « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » أى سُحِرنا فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا . وقال الجوهرى : السِّحر الأُخْذة ، وكلُّ ما لَطُف مأخذه ودَقّ فهو سحر؛ وقد سحره يَسحره سِحرًا . والساحر : العـالم ، وسحره أيضا بمعنى خدعه ؛ وقد ذكرناه . وقال آبن مسعود : كنّا نُسَمِّى السحر فى الجاهلية العِضَه . والعِضَهُ عند العرب : شدّة البَهْت وتمويه الكذب؛ قال الشاعر:

أعـوذ بربِّى من النّافثا * تِ فى عِضَهِ العاضه المُعْضِه

الرابعـــة — وآختلف هل له حقيقة أم لا؛ فذكر الغَزْنَوِىّ الحنفى فى عيون المعانى له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض . قال : وعندنا أصـله طِلَّسم يُبنى على تأثير خصائص الكواكب ؛ كتأثير الشمس فى زئبـق عِصِىّ فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهّلوا له ما عَسُر .

قلت : وعندنا أنه حقّ وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء، على ما يأتى . ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشَّعْوَذة . والشَّعْوَذِىّ : البريد لخفَّة سيره . قال آبن فارس فى المُجْمَل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليـدين وأُخْذَةٌ كالسحر؛ ومنه ما يكون كلامًا يُحفظ ، ورُقًى من أسمـاء الله تعالى . وقد يكون من عهود الشياطين؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

(١) هو امرؤ القيس ؛ كما فى ديوانه واللسان .
(٢) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت ؛ وأنه قد غيب عنا وقته ، ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب .
(٣) ذئب مجلع : جرىء .

Marfat.com

الخامســـة — سمى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الفصاحةَ فى الكلام واللَّسانة فيه سِحْرًا ؛ فقال : " إنّ من البيان لَسحرا " أخرجه مالك وغيره . وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهّم السامع أنه حـق ؛ فعلى هـذا يكون قوله عليـه السلام . " إنّ من البيان لَسِـحْرًا " خرج مخرج الذم للبـلاغة والفصاحة ، إذ شبّهها بالسحر . وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان ؛ قاله جماعة من أهل العلم . والأوّل أصح ؛ والدليل عليه قوله عليه السلام : " فلعلّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض " ، وقـوله : " إنّ أبغضكم إلىّ الثَّرْثَارون المُتَفيهِقُون " . الثَّرثرة : كثرة الكلام وترديده ؛ يقال : ثرثر الرجل فهو ثرثار مِهذار . والمُتَفَيْهِق نحوه . قال ابن دُريد . فلان يتفيهق فى كلامه إذا توسّع فيه وتنطّع ؛ قال : وأصله الفَهْق وهو الامتلاء ؛ كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهـذا المعنى الذى ذكرناه فسّره عامر الشعبيّ راوى الحـديث وصَعْصَعة بن صُوحان فقالا : أمّا قوله صلى الله عليه وسلم : "إنّ من البيان لسحرًا" فالرجل يكون عليه الحق وهو أَلْحَنُ بالحجج من صاحب الحق فيَسْحَرُ القومَ ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه ؛ وإنما يحمد العلمـاء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حدّ الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . وهذا بيّن . والحمد لله .

السادســـة — من السِّحر ما يكون كُفرًا من فاعله ؛ مثل ما يدعون من تغيير صُوَر الناس ، وإخراجهم فى هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر فى ليلة ، والطيران فى الهواء ؛ فكل من فعل هذا ليُوهِم الناس أنه محقّ فذلك كفر منه ؛ قاله أبو نصر عبـد الرحيم القُشَيرى . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يُقلب الحيوان من صورة إلى صورة ، فيجعل الإنسان حمـارا أو نحوه ، ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ؛ فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء ، يدّعى مثـل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيّأ مع هـذا علم صحة النبوّة إذ قد يحصل مثلها بالحيـلة . وأما من زعم أن السحر خُدَع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر إلا أن يَقتل بفعله أحدا فيُقتل به .

Marfat.com

السابعة — ذهب أهل السُّنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الأستراباذى من أصحاب الشافعى إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضَرْب من الخفّة والشعْوَذة ؛ كما قال تعالى : « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى »(١) ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال « يُخَيَّل إليه » . وقال أيضا : « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ »(٢) . وهذا لا حجة فيه ؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل ووَرَد بها السمع ؛ فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ، ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس ، فدلّ على أن له حقيقة . وقوله تعالى فى قصة سَحَرة فرعون : «وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ» وسورة «الفلق» ؛ مع آتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لَبِيد بن الأعْصَم ، وهو مما خرّجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : سَحر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يهودىٌّ من يهود بنى زُرَيق يقال له لَبِيد بن الأعصم ؛ الحديث . وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لما حُلّ السّحر : "إن الله شفانى" . والشفاء إنما يكون برفع العِلّة وزوال المرض ؛ فدلّ على أن له حقًّا وحقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ، ولا عبرة مع آتفاقهم بحُثَالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق . ولقد شاع السِّحر وذاع فى سابق الزمان وتكلّم الناس فيه ، ولم يَبْدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن آبن عباس قال : عُلِّم السحر فى قرية من قرى مصر يقال لها : « الفَرَما » فمن كذّب به فهو كافر ، مكذّب لله ورسوله ، منكِرٌ لما عُلم مشاهدةً وعِيانًا .

الثامنة — قال علماؤنا : لا يُنكَر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات مما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو ، إلى غير ذلك مما قام الدليل على آستحالة كونه من مقدورات العباد . قالوا : ولا يبعد فى السحر أن يستدِق جسم الساحر حتى يتولّج فى الكُوّات والخوخات والآنتصاب على رأس قصبة ، والجَرْى على

(١) راجع ج ١١ ص ٢٢٢ (٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٩

Marfat.com

خيط مستدق، والطيران فى الهواء والمشي على الماء وركوب كلب وغير ذلك . ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولدا، ولا يكون الساحر مستقلا به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدثها عند وجود السحر، كما يخلق الشبع عند الأكل، والرى عند شرب الماء . روى سفيان عن عمار الذهبي أن ساحرا كان عند الوليد بن عُقْبة يمشي على الحبل، ويدخل فى آست الحمار ويخرج من فيه ؛ فآشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله جندب — هذا هو جُنْدَب بن كعب الأزدى ويقال البَجَلي — وهو الذى قال فى حقه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يكون فى أمتى رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرّق بين الحق والباطل" . فكانوا يرونه جُنْدَبًا هذا قاتل الساحر . قال على بن المديني : روى عنه حارثة بن مُضَرِّب .

التاسعة — أجمع المسلمون على أنه ليس فى السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقُمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام . فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر . قال القاضى أبو بكر بن الطيّب : وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه .

العاشرة — فى الفرق بين السحر والمعجزة ؛ قال علماؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد . والمعجزة لا يمكّن الله أحدا أن يأتى بمثلها وبمعارضتها، ثم الساحر لم يَدّع النبوّة فالذى يصدر منه متميّز عن المعجزة؛ فإن المعجزة شرطها آقتران دعوى النبوّة والتحدّى بها، كما تقدّم فى مقدّمة الكتاب (١) .

الحادية عشرة — وآختلف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذّمّى؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته؛ لأنه أمرٌ يستسرّ به كالزنديق والزانى، ولأن الله تعالى سمّى السحر كفرًا بقوله : « وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » وهو قول أحمد بن حنبل وأبى ثور وإسحاق والشافعى

(١) يراجع جـ ١ ص ٦٩ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

وأبى حنيفة . ورُوى قتـل الساحر عن عمـر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبى موسى وقيس ابن سعد وعن سبعة من التابعين . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "حَدُّ الساحرِ ضَرْبُهُ بالسيف" خرّجه الترمذى وليس بالقوىّ؛ انفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه ابن عُيَيْنة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن مُرْسَـلًا ؛ ومنهم من جعله عن الحسن عن جُنْدَب . قال ابن المنذر : وقد رَوَينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها فى الرِّقاب . قال ابن المنذر : و إذا أقرّ الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرا وجب قتله إن لم يَتُب ، وكذلك لو ثبتت به عليـه بيّنة ووصفت البينة كلامًا يكون كفرا . و إن كان الكلام الذى ذكر أنه سَحَر به ليس بكفر لم يجز قتـله ، فإن كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتُصّ منه إن كان عَمَد ذلك ؛ و إن كان مما لا قصاص فيه ففيه دِيَة ذلك . قال ابن المنـذر : و إذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى المسألة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسُّنة ؛ وقـد يجوز أن يكون السِّحر الذى أمَر من أمر منهم بقتل الساحر سحرا يكون كفرا فيكون ذلك موافقًا لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرًا . فإن احتج محتجّ بحديث جُنْدَب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "حدُّ الساحر ضربه بالسيف" فلو صحّ لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذى يكون سحره كفرا ، فيكون ذلك موافقا للأخبار التى جاءت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يحلّ دَمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ..." .

قلت : وهذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تُستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف . والله تعـالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة أن السحر لا يتمّ إلا مع الكفر والاستكبار ، أو تعظيم الشيطان فالسحر إذًا دالٌّ على الكفر على هذا التقدير ، والله تعالى أعلم . وروى عن الشافعى : لا يُقتل الساحر إلا أن يَقتل بسحره ويقول تعمّدت القتل ، و إن قال لم أتعمده لم يُقتل ، وكانت فيه الدّية كقتل الخطأ ؛ و إن أضر به أُدِّب على قدر الضرر . قال ابن العربى : وهـذا باطل من وجهين ؛ أحدهما : أنه لم يعلم السحر ، وحقيقته أنه كلام

Marfat.com

مؤلف يُعظّم به غير الله تعالى، وتُنسب إليه المقادير والكائنات . الثانى : أن الله سبحانه قد صرّح فى كتابه بأنه كُفر فقال : « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » بقول السحر « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » به وبتعليمه . وهاروت وماروت يقولان: «إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» وهذا تأكيد للبيان .

احتج أصحاب مالك بأنه لا تُقبل توبته؛ لأن السحر باطن لا يُظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ؛ وإنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدًا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائبا قبل أن يُشهد عليهما قُبلت توبتهما ؛ والحجة لذلك قوله تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »[1] فدلّ على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب ، فكذلك هذان .

الثانية عشرة — وأما ساحر الذّمة ؛ فقيل يُقتل . وقال مالك : لا يُقتل إلا أن يَقتل بسحره ويَضمن ماجَنَى، ويُقتل إن جاء منه مالم يُعاهد عليه . وقال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : فأمّا إذا كان ذِمّيًّا فقد ٱختلفت الرواية عن مالك ؛ فقال مرّة : يُستتاب وتوبتُه الإسلام . وقال مرّة : يُقتل وإن أسلم . وأما الحربيّ فلا يُقتل إذا تاب؛ وكذلك قال مالك فى ذميّ سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم : يُستتاب وتوبتُه الإسلام . وقال مرّة : يُقتل ولا يُستتاب كالمسلم. وقال مالك أيضا فى الذّمى إذا سَحَر: يُعاقب؛ إلا أن يكون قَتل بسحره، أو أحدث حدثًا فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يُقتل؛ لأنه قد نقض العهد . ولا يرث الساحر ورثتُه؛ لأنه كافر إلا أن يكون سِحْره لا يُسمّى كفرًا . وقال مالك فى المرأة تَعقِد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تُنكّل ولا تُقتل .

الثالثة عشرة — وٱختلفوا هل يُسئل الساحر حلّ السحر عن المسحور ؛ فأجازه سعيد ابن المسيّب على ما ذكره البخارى، وإليه مال المُزَنِيّ وكرهه الحسن البصرى. وقال الشّعبي: لا بأس بالنُّشْرة[2] . قال ٱبن بطّال : وفى كتاب وَهْب بن مُنَبّه أن يأخذ سبع ورقات من سِدْر

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٦ . (٢) النشرة (بالضم) : ضرب من الرقية والعلاج ، يعالج به من كان يظن أن به مسًّا من الجن ؛ لأنه يُنشَر بها عنه ما خامره من الداء ، أى يكشف ويزال

Marfat.com

أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضرب به بالماء و يقرأ عليه آية الكرسى، ثم يحسو منه ثلاث حسوات و يغتسل به ؛ فإنه يذهب عنه كل ما به ، إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

الرابعة عشرة — أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ؛ ودل إنكارهم على قلة مبالاتهم وركاكة دياناتهم ، وليس فى إثباتهم مستحيل عقلى ؛ وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم ، وحق على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يثبت ما قضى العقل بجوازه ، ونص الشرع على ثبوته ؛ قال الله تعالى : « وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » وقال : «وَمِنَ ٱلشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ»(١) إلى غير ذلك من الآى ، وسورة «الجن» تقضى بذلك ؛ وقال عليه السلام : "إن الشيطان يجرى من آبن آدم مجرى الدم" . وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس ، وأحالوا روحين فى جسد ؛ والعقل لا يحيل سلوكهم فى الإنس إذا كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله بعض الناس بل أكثرهم ، ولو كانوا كثافا لصح ذلك أيضا منهم ، كما يصح دخول الطعام والشراب فى الفراغ من الجسم ، وكذلك الديدان قد تكون فى بنى آدم وهى أحياء .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ « ما » نفى ؛ والواو للعطف على قوله : « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ» وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ؛ فنفى الله ذلك . وفى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ؛ فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله « وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » . هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه ؛ فالسحر من آستخراج الشياطين للطافة جوهرهم ، ودقة أفهامهم ؛ وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة فى حال طمثهن ؛ قال الله تعالى : « وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ »(٢) . وقال الشاعر :

أعوذ بربى من النافثا ت ... ...

السادسة عشرة — إن قال قائل : كيف يكون آثنان بدلا من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه ؛ فالجواب من وجوه ثلاثة ؛ الأول : أن الأثنين قد يطلق عليهما آسم

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٢ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٥٧

Marfat.com

الجمـع؛ كما قال تعـالى : « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ » ولا يحجبها عن الثلث إلى السدس إلا آثنان من الإخوة فصاعدا؛ على ما يأتى بيانه فى « النساء »(١) . الثانى : أنهما لمـا كانا الرأس فى التعليم نص عليهما دون أتباعهما ؛ كما قال تعـالى : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(٢) . الثالث : إنما خصا بالذكر من بينهم لتمردهما؛ كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »(٣) وقوله : « وجبريل وميكال » . وهذا كثير فى القرآن وفى كلام العـرب، فقد ينص بالذكر على بعض أشخاص العموم إما لشرفه و إما لفضله؛ كقوله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ »(٤) وقـوله : « وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ »، و إما لطيبه كقوله : « فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »؛ و إما لأكثريته؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : "جُعلت لىَ الأرضُ مسجدًا وتربتها طهـورا" ، و إما لتمرده وعتوه كما فى هـذه الآية، والله تعالى أعلم . وقد قيل : إن « ما » عطف على السحر وهى مفعولة؛ فعلى هذا يكون « ما » بمعنى الذى، و يكون السحر منزلا على الملكين فتنة للناس وآمتحانا، ولله أن يمتحن عباده بما شاء؛ كما آمتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان : إنمـا نحن فتنة؛ أى محنة من الله ، نخبرك أن عمـل الساحر كفر فإن أطعتنا نجوت ، و إن عصيتنا هلكت . وقد روى عن على وآبن مسعود وآبن عباس وآبن عمـر وكعب الأحبار والسـدى والكلبى ما معناه : أنه لمـا كثر الفساد من أولاد آدم عليـه السلام — وذلك فى زمن إدريس عليه السلام — عيرتهم الملائكة؛ فقال الله تعالى : أما إنكم لو كنتم مكانهم وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم؛ فقالوا : سبحانك! ما كان ينبغى لنا ذلك؛ قال : فآختاروا ملكين من خياركم؛ فآختاروا هاروت وماروت ، فأنزلهما إلى الأرض فركب فيهما الشهوة ، فما مر بهما شهر حتى فُتنا بآمرأة آسمها بالنبطية « بيدخت » وبالفارسية « ناهيل »(٥) و بالعربية « الزهرة » آختصمت إليهما ، وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا فى دينها ويشربا الخمر و يقتلا النفس التى حرم الله؛ فأجاباها وشربا الخمر وألمـا بها ؛ فرآهما رجل فقتلاه ، وسألتهما عن الآسم الذى يصعدان به إلى السماء فعلماها فتكلمت به

(١) راجع جـ ٥ ص ٧٢ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٧٧ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ١٠٩ . (٥) فى بعض نسخ الأصل : « ناهيد » بالدال المهملة بدل اللام .

Marfat.com

فعرجت فمسخت كوكبا . وقال سالم عن أبيه عن عبد الله : فحدثني كعب الحبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عملا بما حرّم الله عليهما . وفي غير هذا الحديث : فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ؛ فهما يعذبان ببابل في سرب من الأرض . قيل : بابل العراق . وقيل : بابل نهاوند . وكان ابن عمر فيما يروى عن عطاء أنه كان إذا رأى الزهرة وسهيلا سبهما وشتمهما ؛ و يقول : إن سهيلا كان عشارا[1] باليمن يظلم الناس ، و إن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت .

قلنا : هذا كله ضعيف و بعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»[2] . «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[3] . «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ»[3] . وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة و يوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح . ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففي الخبر : "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة زحل والمشتري وبهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر". وهذا معنى قول الله تعالى : «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»[3] . فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلا قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم إن قول الملائكة : «ما كان ينبغي لنا» عورة[4] : لا تقدر على فتنتنا ؛ وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون .

السابعة عشرة — قرأ ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن : «الملِكين» بكسر اللام . قال ابن أبزى : هما داود وسليمان . فـ«ما» على هذا القول أيضا نافية ؛ وضعف هذا القول ابن العربي . وقال الحسن : هما علجان كانا ببابل ملِكين ؛ فـ«ما» على هذا القول مفعولة غير نافية .

---

(١) العشار : الذي يقبض عشر الأموال . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٩٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ ، ٢٧٨ (٤) كذا في ا ، ب ، جـ . وفي ح ، ز : «عوده» . وكتب على هامش الأزهرية : «لعله : تقديره» . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن «غوره» وغور كل شيء : عمقه و بعده .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعُجْمة، وهي قُطر من الأرض ؛ قيـل : العراق وما والاه . وقال ابن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحيرة و بابل . وقال قتادة : هي من نَصيبين إلى رأس العين . وقال قوم : هي بالمغرب. قال ابن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نهاوَنْد؛ فالله تعالى أعلم .

واختلف في تسميته ببابل ؛ فقيـل : سُمِّيَ بذلك لتبلبل الألسن بهـا حين سقط صَرْح نمروذ . وقيـل : سُمِّيَ به لأن الله تعالى لـمـا أراد أن يخالف بين ألســنة بني آدم بعث ريحًا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل؛ فبلبل الله ألسنتهم بها ؛ ثم فرّقتهم تلك الريح في البـلاد . والبلبلة: التفريق، قال معناه الخليل . وقال أبو عمر بن عبد البر: من أخصر ما قيل في البَلْبَلَة وأحسنه ما رواه داود بن أبي هند عن عِلْباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لـمـا هبط إلى أسفل الجُـودي ابتنى قرية وسمّاها ثمـانين ؛ فأصبح ذات يوم وقـد تَبَلْبَلَت ألسنتهم على ثمانين لغة ، إحداها اللسان العربي ، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

التاسعة عشرة — روى عبدالله بن بشر المـازني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الدنيا فوالذي نفسي بيـده إنها لأسحر من هاروت وماروت" . قال علماؤنا : إنمـا كانت الدنيا أسحر منهما لأنها تسحرك بخدعها ، وتكتمك فتنتها ، فتـدعوك إلى التحارص عليها والتنافس فيها ، والجمع لها والمنع ، حتى تفرّق بينك وبين طاعة الله تعالى، وتفرّق بينك وبين رؤية الحق ورعايته ؛ فالدنيا أسحر منهما ، تأخذ بقلبك عن الله، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده . وسحر الدنيـا : محبّتها وتلذّذك بشهواتها ، وتمنّيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حُبّك الشيء يُعْمِي ويُصِمّ"

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ لا ينصرف « هاروت » ؛ لأنه أعجميّ معرفة ، وكذا « ماروت » ؛ ويجمع هواريت ومواريت؛ مثل طواغيت؛ و يقـال : هوارتة وهوار، وموارتة ومَوار، ومثله جالوت وطالوت؛ فاعلم . وقد تقدّم هل هما ملكان أو غيرهما ؟ خلاف . قال الزّجاج : ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : أيْ والذي أنزل

Marfat.com

على الملكين، وأن الملكين يعلّمان الناس تعليم إنذار من السّحر لا تعليم دعاء إليـه . قال الزجاج : وهذا القول الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر، ومعناه أنهما يعلّمان الناس على النهى فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا، ولا تحتالوا بكذا لتفرّقوا بين المرء وزوجه . والذى أُنزل عليهما هو النّهى، كأنه قولا للناس : لا تعملوا كذا؛ فـ «يُعلّمان» بمعنى يُعْلِمان؛ كما قال : «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ»(1) أى أكرمنا .

الحادية والعشرون ـــ قوله تعـالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ «من» زائدة للتوكيد، والتقدير : وما يعلمان أحدا . ﴿حَتَّى يَقُولَا﴾ نصب بحتى فلذلك حذفت منه النون؛ ولغـة هُذيل وثَقيف «عتّى» بالعين غير المعجمة . والضمير فى «يعلّمان» لهـاروت وماروت . وفى «يُعلّمان» قولان؛ أحدهما : أنه على بابه من التعليم . الثانى : أنه من الإعلام لا من التعليم؛ فـ «يُعلّمان» بمعنى يُعْلِمان، وقد جاء فى كلام العرب تعـلّم بمعنى أعلم؛ ذكره ابن الأعرابى وابن الأنبارى . قال كعب بن مالك :

تعـلّم رسـول الله أنك مُدرِكى * وأن وعيدًا منك كالأخذ باليـد

وقال القُطامىّ :

تعلّم أن بعد الغىّ رشـدا * وأن لذلك الغىّ انقشاعا

وقال زُهـير :

تعـلّمنْ ها لعمـرُ الله ذا قسمًا * فاقدِر بذرعك وانظر أين تنسلِكُ(2)

وقال آخر :

تعـلّم أنـه لا طـير إلا * عـلى متطيِّر وهـو الثُّبـور

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ لمـا أنبأا بفتنتهما كانت الدنيا أسحر منهما حين كتمت فتنتها . ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ قالت فرقة بتعليم السحر، وقالت فرقة باستعماله . وحكى المهدوىّ أنه استهزاء؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحقّقا ضلاله .

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٣

(2) فى البيت شاهد آخر، وهو تقديم «ها» التى للتنبيه على «ذا» وقد حال بينهما بقوله : «لعمر الله» والمعنى تعلمن لعمر الله هذا ما أقسم به . وفى الديوان : «فاقصد بذرعك» .

Marfat.com

الثانيــة والعشرون ــ قوله تعــالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ قال سيبو يه : التقدير فهــم يتعلمون؛ قال ومثله « كُنْ فَيَكُونُ » . وقيل : هو معطوف على موضع «مَا يُعَلِّمَانِ» ؛ لأن قوله : « وَمَا يُعَلِّمَانِ » و إن دخلت عليه ما النافية فضمّنه الإيجاب فى التعليم . وقال الفرّاء : هى مردودة على قوله : « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » فيتعلمون؛ و يكون « فيتعلمون » متصلة بقوله « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ » فيأتون فيتعلمون . قال السُّدّى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنمــا نحن فتنة فلا تكفر؛ فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هــذا الرَّماد فَبُلْ فيه؛ فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع إلى السماء ، وهو الإيمان ؛ ثم يخرج منه دخان أســود فيدخل فى أذنيــه وهو الكفر ؛ فإذا أخبرهما بمــا رآه من ذلك علّماه ما يفرّقون به بين المرء وزوجه . ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر ليس يقــدر على أكثر ممــا أخبر الله عنه من التفرقة ؛ لأن الله ذكر ذلك فى معرض الذمّ للسحر والغاية فى تعليمه ؛ فلو كان يقــدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفــة : ذلك خرج على الأغلب ، ولا ينكر أن السحر له تأثير فى القــلوب ، بالحب والبُغض و بإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه ، و يحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأســقام ؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة و إنكاره معاندة ؛ وقــد تقدّم هذا ، والحمد لله .

الثــالثة والعشرون ــ قوله تعــالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ « مَا هُمْ » إشارة إلى السحرة . وقيــل إلى اليهود ، وقيــل إلى الشياطين . « بِضَارِّينَ بِهِ » أى بالسحر . « مِنْ أَحَدٍ » أى أحدا ، ومن زائدة . « إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وقضائه لا بأمره ؛ لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء و يقضى على الخلق بها . وقال الزجاج : «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» إلا بعلم الله . قال النحاس : وقول أبى إسحاق «إلّا بإذن الله» إلا بعلم الله غلط ؛ لأنه إنما يقال فى العــلم أَذَنٌ ، وقد أذنت أَذَنًا . ولكن لمــا لم يحل فيما بينهم و بينه وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجــازا .

الرابعة والعشرون ــ قوله تعــالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يريد فى الآخرة وإن أخذوا بها نفعًا قليلا فى الدنيا . وقيل : يضرهم فى الدنيــا ؛ لأن ضرر السحر والتفريق يعود

Marfat.com

على الساحر فى الدنيا إذا عثر عليه ؛ لأنه يُؤدَّب ويُزجَر، ويلحقه شؤم السحر . وباقى الآى بين لتقدّم معانيها . واللام فى « وَلَقَدْ عَلِمُوا » لام توكيد . ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ ﴾ لام يمين، وهى للتوكيد أيضا . وموضع «من» رفع بالابتداء؛ لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيما بعدها . و«مَن» بمعنى الذى . وقال الفرّاء : هى للمجازاة . وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شرط، و «مَن» بمعنى الذى؛ كما تقول : لقد علمت، لمن جاءك ما له عقل . ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ «من» زائدة ، والتقدير ما له فى الآخرة خلاق، ولا تزاد فى الواجب؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون: تكون زائدة فى الواجب؛ واستدلوا بقوله تعالى : «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ»(1) والخلاق: النصيب؛ قاله مجاهد . قال الزجاج : وكذلك هو عند أهل اللغة، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير . وسئل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ فأخبر أنهم قد علموا؛ ثم قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون؛ فالجواب وهو قول قُطْرُب والأخفش: أن يكون الذين يعلمون الشياطين، والذين شَرَوا أنفسهم — أى باعوها — هم الإنس الذين لا يعلمون . قال الزجاج وقال علىّ بن سليمان : الأجود عندى أن يكون « وَلَقَدْ عَلِمُوا » للملكين؛ لأنهما أولى بأن يعلموا . وقال: «علموا» كما يقال : الزيدان قاموا . وقال الزجاج : الذين علموا علماء اليهود؛ ولكن قيل : «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى فدخلوا فى محل من يقال له : لست بعالم؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عملوا بالسحر .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ أى اتقوا السحر . ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ المثوبة الثواب؛ وهى جواب « وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا » عند قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس لـ « لَوْ » هنا جواب فى اللفظ ولكن فى المعنى؛ والمعنى لأثيبوا . وموضع «أنّ» من قوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ » موضع رفع ؛ أى لو وقع إيمانهم ؛ لأن « لو » لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا ؛ لأنها بمنزلة حروف الشرط إذ كان لا بدّ له من جواب؛ و « أنّ » يليه فعل . قال محمد بن يزيد :

(1) راجع جـ ١٦ ص ٢١٧

Marfat.com

وإنما لم يجاز بـ «لو» لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب الماضي إلى معنى المستقبل؛ فلما لم يكن هذا في «لو» لم يجز أن يجازى بها .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ذكر شيئا آخر من جهالات اليهود، والمقصود نهي المسلمين عن مثل ذلك . وحقيقة « رَاعِنَا » في اللغة أرْعِنا ولْنَرْعك ؛ لأن المفاعلة من آثنين ؛ فتكون من رعاك الله ، أي آحفظنا ولنحفظك ، وآرْقُبنا ولنرقبك . ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك ؛ أي فرّغ سمعك لكلامنا . وفي المخاطبة بهذا جفاء ؛ فأمر المؤمنين أن يتخيّروا من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أرقّها . قال آبن عباس : كان المسلمون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : راعنا . على جهة الطلب والرغبة — من المراعاة — أي آلتفت إلينا ؛ وكان هذا بلسان اليهود سبًّا ، أي آسمع لا سمعتَ ؛ فآغتنموها وقالوا : كنا نَسُبّه سرًّا فالآن نَسُبّه جهرًا ؛ فكانوا يخاطبون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم ؛ فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأضربنّ عنقه ؛ فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ، ونُهُوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه .

الثانيــة — في هذه الآية دليلان : أحدهما — على تجنّب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغضّ ، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض ، وذلك يوجب الحدّ عندنا خلافا لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحدّ مما يسقط بالشبهة . وسيأتي في « النور »(١) بيان هذا ، إن شاء الله تعالى .

الدليل الثاني : التمسك بسدّ الذرائع(٢) وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد ابن حنبل في رواية عنه ؛ وقد دلّ على هذا الأصل الكتاب والسنة . والذريعة عبارةٌ عن أمر

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٧٥   (٢) الذرائع (جمع الذريعة) وهي لغة : الوسيلة والسبب إلى الشيء .

Marfat.com

غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع . أما الكتاب فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهى سب بلغتهم؛ فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسب، وقوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »[1] فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى : « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ »[1] الآية؛ فحرم عليهم تبارك وتعالى الصيد فى يوم السبت، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرَّعًا، أى ظاهرة، فسدّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السدّ ذريعة للاصطياد؛ فمسخهم الله قردة وخنازير؛ وذكر الله لنا ذلك فى معنى التحذير عن ذلك؛ وقوله تعالى لآدم وحواء : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » وقد تقدّم[2] . وأما السّنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير [فذكرتا ذلك][3] لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصّوَر أولئك شرار الخلق عند الله". أخرجه البخارى ومسلم . قال علماؤنا : ففعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصّوَر ويتذكّروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم . فمضت لهم بذلك أزمان، ثم أنهم خَلَف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها؛ فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك، وشدّد النكير والوعيد على من فعل ذلك، وسدّ الذرائع المؤدّية إلى ذلك فقال : "اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" وقال : " اللّهمّ لا تجعل قبرى وثنا يُعبد" . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه"[4] الحديث . فمنع من الإقدام

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٦١ وص ٣٠٤ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٤

(٣) زيادة عن صحيح البخارى . (٤) ورد هذا فى صحيح مسلم — كتاب البيوع — ببعض اختلاف فى ألفاظه .

Marfat.com

على الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات ؛ وذلك سَدًّا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذرًا ممـا به البأس " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من الكبائر شتم الرجل والديه " قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : " نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيَسُبُّ أباه و يسبُّ أُمَّه فيسبُّ أمه " . فجعل التعرّض لسبِّ الآباء كسبِّ الآباء . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم ". وقال أبو عبيد الهَرَوى : العِينَة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسَمًّى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . قال : فإن آشترى بحضرة طالب العِينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما آشتراه إلى أجل مسمًّى ثم باعها المشـترى من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضـا عِينة ، وهى أهون من الأولى ، وهو جائز عند بعضهم . وسُمِّيت عِينة لحصول النقد لصاحب العِينة ؛ وذلك لأن العَيْن هو المـال الحاضر والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعَيْن حاضر يصل إليه من فوره . وروى آبن وهب عن مالك أن أم ولد لزيد بن الأرْقَم ذكرت لعائشة رضى الله عنها أنها باعت من زيد عبدًا بثمانمائة إلى العطاء ثم آبتاعته منه بستمائة نقدًا ؛ فقالت عائشة : بئس ما شَرَيتِ ، و بئس ما آشتريت ! أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يَتُب . ومثل هـذا لا يقال بالرأى ؛ لأن إبطال الأعمال لا يتوصّل إلى معرفتها إلا بالوَحْى ؛ فثبت أنه مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دَعُوا الربا والرِّيبة . ونهى ابن عباس رضى الله عنهما عن دراهم بدراهم بينهما حريرة[1] .

قلت : فهذه هى الأدلة التى لنـا على سدّ الذرائع ، وعليه بنى المـالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل فى البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال ؛ لأن ذلك عندهم

(١) كذا فى ا . وفى ب . « جريرة » . وفى جـ « حريرة » . وفى ح « جريزة » . ولم نوفق إلى وجه الصواب فيها .

Marfat.com

عقود مختلفة مستقلة ، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون. والمالكية جعلوا السِّلعة محلّلة ليُتَوصّل بها إلى دراهم بأكثر منها ، وهذا هو الربا بعينه ؛ فاعلمه .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ نهيٌ يقتضى التحريم ، على ما تقدّم. وقرأ الحسن «راعنًا» منوّنة . وقال : أى هُجْرًا من القول ، وهو مصدر ونصبه بالقول ؛ أى لا تقولوا رُعُونة . وقرأ زِرّ بن حُبَيْش والأعمش «راعونا» ؛ يقال لما نَتَأ من الجبل : رَعْن ؛ والجبل أَرْعَن . وجَيْش أَرْعَن ؛ أى متفرّق . وكذا رجل أرْعَن ؛ أى متفرّق الحجج وليس عقله مجتمعا ؛ عن النحاس . وقال ٱبن فارس : رَعُن الرجل يَرْعُن رَعْنًا فهو أرْعَن ؛ أى أهْوَج . والمرأة رَعْناء . وسُمِّيت البصرة رَعْناء لأنها تُشَبّه بِرَعْن الجبل ؛ قال ٱبن دُرَيْد ذلك ، وأنشد للفَرَزْدَق :

لولا ٱبن عتبة عمـرو والرجاء له * ما كانت البصرة الرَّعناء لى وطنا

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا﴾ أُمِروا أن يخاطبوه صلى الله عليه وسلم بالإجلال ؛ والمعنى : أَقبل علينا وٱنظر إلينا ؛ فحذف حرف التعدية ؛ كما قال :

ظاهرات الجمال والحسن ينظر * ن كما ينظر الأراكَ الظِّباءُ (١)

أى إلى الأراك . وقال مجاهد : المعنى فَهِّمنا وبَيِّن لنا . وقيل : المعنى ٱنتظرنا وتأنّ بنا ؛ قال :

فإنكما إن تنظـرانىَ ساعةً * من الدهر ينفعنى لَدَى أُمِّ جُنْدَب

والظاهر ٱستدعاء نظر العين المقترن بتدبّر الحال ؛ وهذا هو معنى راعنا . فبدّلت اللفظة للمؤمنين وزال تعلق اليهود . وقرأ الأعمش وغيره « أَنْظِرنا » بقطع الألف وكسر الظاء ، بمعنى أخِّرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقّى منك ؛ قال الشاعر (٢) :

أبا هنـدٍ فـلا تعجل علينا * وأَنْظِـرنا نخـبّرك اليقينا

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ لما نهى وأمر جل وعز ، حضّ على السمع الذى فى ضمنه الطاعة . وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليما .

---

(١) القائل هو ٱمرؤ القيس ؛ كما فى ديوانه .   (٢) هو عمرو بن كلثوم .

Marfat.com

قوله تعـالى : مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ ﴾ أى ما يتمنى ، وقد تقدم[1] . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ معطوف على « أهل » . ويجوز : ولا المشركون ، تعطفه على الذين ؛ قاله النحاس . ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ « من » زائدة ، « خير » اسم ما لم يُسمَّ فاعله . و « أن » فى موضع نصب ؛ أى بأن ينزل . ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « يختص برحمته » أى بنبوته ، خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : الرحمة القرآن . وقيل : الرحمة فى هذه الآية عامة لجميع أنواعها التى قد منحها الله عباده قديما وحديثًا ؛ يقال : رَحِم يَرْحَم إذا رقّ . والرُّحْمُ والمَرْحَمَة والرَّحمة بمعنًى ؛ قاله ابن فارس . ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه لهم . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ « ذو » بمعنى صاحب .

قوله تعـالى : مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ « نُنْسِهـا » عطف على « ننسخ » ، وحذفت اليـاء للجزم . ومن قرأ « نَنْسَأْها » حذف الضمة من الهمزة للجزم ؛ وسيأتى معناه . ﴿ نَأْتِ ﴾ جواب الشرط ، وهذه آية عظمى فى الأحكام . وسببها أن اليهود لمـا حسدوا المسلمين فى التوجّه إلى الكعبة وطعنوا فى الإســلام بذلك ، وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه ؛ فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا ؛ فأنزل الله : « وَإِذَا بَدَّلْنَـا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ »[2] وأنزل « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » .

---

(١) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء.		(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٧٦

Marfat.com

الثانيـــة — معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغنى عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه من النوازل فى الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام. روى أبو البَخْتَرِىّ قال: دخل علىّ رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوّف الناس؛ فقال: ماهذا؟ قالوا: رجل يُذكّر الناس؛ فقال: ليس برجل يذكّر الناس! لكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفونى، فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟! فقال: لا؛ قال: فاخرج من مسجدنا ولا تُذكّر فيـه. وفى رواية أُخرى: أعلمتَ الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا؛ قال: هلكتَ وأهلكتَ!. ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الثالثـــة — النسخ فى كلام العرب على وجهين:

أحدهمـا — النقل؛ كنقل كتاب من آخر. وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا؛ أعنى من اللوح المحفوظ و إنزاله إلى بيت العِزّة فى السماء الدنيا؛ وهذا لا مدخل له فى هذه الآية؛ ومنه قوله تعالى: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[(1)]» أى نأمر بنسخه و إثباته.

الثـانى: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا؛ وهو منقسم فى اللغة على ضربين: أحدهما: إبطال الشىء وزواله و إقامة آخر مقامه؛ ومنه نسخت الشمسُ الظلَّ إذا أذهبته وحلّت محله؛ وهو معنى قوله تعالى: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا». وفى صحيح مسـلم: "لم تكن نبوّة قطّ إلا تناسخت" أى تحوّلت من حال إلى حال؛ يعنى أمر الأمّة. قال ابن فارس: النّسخ نسـخ الكتاب، والنّسخ أن تزيل أمرًا كان من قبل يُعمل به ثم تنسخه بحادث غيره؛ كالآية تنزل بأمر ثم ينسـخ بأخرى. وكلّ شىء خلف شيئا فقـد انتسخه؛ يقال: انتسخت الشمسُ الظلَّ، والشيبُ الشبابَ. وتناسُخ الورثة: أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم؛ وكذلك تناسُخ الأزمنة والقرون.

الثـانى: إزالة الشىء دون أن يقوم آخر مقامه؛ كقولهم: نسخت الريح الأثر؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى: «فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ[(2)]» أى يزيله فلا يتلى ولا يثبت فى المصحف بدله.

(١) راجع ج ١٦ ص ١٧٥ (٢) راجع ج ١٢ ص ٧٩

Marfat.com

وزعم أبو عبيد أن هذا النسخ الثاني قد كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم السورة فتُرفع فلا تُتلى ولا تُكتب .

قلت ومنه ما روى عن أُبَيّ بن كعب وعائشة رضي الله عنهما أن سورة « الأحزاب » كانت تعدل سورة البقرة في الطول؛ على ما يأتي مبيّنًا هناك(١) إن شاء الله تعالى . ومما يدل على هذا ما ذكره أبو بكر الأنباري حدّثنا أبي حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا عبد الله ابن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن آبن شهاب قال : حدّثني أبو أمامة بن سهل ابن حُنيف في مجلس سعيد بن المسيّب أن رجلا قام من الليل ليقرأ سورة من القرآن فلم يقدر على شيء منها، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ؛ فغدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهم: قمتُ الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شيء منها؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها مما نَسخ الله البارحة". وفي إحدى الروايات : وسعيد بن المسيّب يسمع ما يحدّث به أبو أمامة فلا ينكره .

الرابعـة — أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه ؛ وهم محجوجون بإجماع السّلف السابق على وقوعه في الشريعة . وأنكرته أيضا طوائف من اليهود ؛ وهم محجوجون بما جاء في توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: إني قد جعلت كل دابة مأكَلًا لك ولذريّتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العُشب، ما خلا الدم فلا تأكلوه . ثم قد حرّم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوان؛ وبما كان آدم عليه السلام يزوّج الأخ من الأخت ؛وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره، وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح آبنه ثم قال له : لا تذبحه؛وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عَبَد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم؛ وبأن نبوّته غير متعبَّد بها قبل بعثه؛ ثم تُعبِّد بها بعد ذلك، إلى غير ذلك . وليس هذا من باب البداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحُكم إلى حكم؛ لضربٍ من المصلحة ، إظهارا لحكمته وكمال مملكته . ولا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١٣ .

Marfat.com

خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصد بها مصالح الخلق الدّينية والدنيويّة ؛ و إنمـا كان يلزم البداء لو لم يكن عالمـا بمآل الأمور ؛ وأما العالم بذلك فإنما تتبدّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح ؛ كالطبيب المراعى أحوال العليل ؛ فراعى ذلك فى خليقته بمشيئته و إرادته ، لا إله إلا هو ؛ لخطابه يتبدّل، وعلمه و إرادته لا تتغيّر، فإن ذلك محال فى جهة الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبـداء شيئا واحدا ؛ ولذلك لم يجوّزوه فضَلُّوا . قال النحاس : والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالا فيحرّم، أو كان حراما فيُحلَّل . وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه ؛ كقولك : امض إلى فلان اليوم؛ ثم تقول لا تمض إليه؛ فيبدو لك العدول عن القول الأوّل؛ وهـذا يلحق البشر لنقصانهم . وكذلك إن قلت : ازرع كذا فى هذه السنة؛ ثم قلت : لا تفعل؛ فهو البداء

الخامســة — اعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى، ويسمّى الخطاب الشرعى ناسخًا تجوّزًا، إذ به يقع النسخ، كما قد يتجوّز فيسمّى المحكوم فيه ناسخًا، فيقال : صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء؛ فالمنسوخ هو المزال، والمنسوخ عنه هو المتعبَّد بالعبادة المزالة، وهو المكلَّف.

السادســة — اختلفت عبارات أئمتنا فى حدّ النـاسخ ؛ فالذى عليه الحُذّاق من أهل السُّنة أنه إزالة ما قد استقرّ من الحكم الشرعى بخطاب وارد متراخيًا ؛ هكذا حدّه القـاضى عبد الوهاب والقـاضى أبو بكر ، وزادا : لولاه لكان السابق ثابتا؛ لحافظا على معنى النسخ اللغوى ، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة ، وتحرّزًا من الحكم العقلى ، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص والظاهر والمفهوم وغيره ؛ وليخرج القياس والاجماع ، إذ لا يتصوّر النسخ فيهما ولا بهما . وقيّدًا بالتراخى؛ لأنه لو اتصل به لكان بيانا لغاية الحكم لا ناسخًا ، أو يكون آخر الكلام يرفع أوّله ؛ كقولك : قم لا تقم .

السابعــة — المنسوخ عند أئمتنا أهل السُّنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله ؛ كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدّم زائل . والذى

Marfat.com

قادهم إلى ذلك مذهبهم فى أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفسيّة للحسن ، ومراد الله حَسَن؛ وهذا قد أبطله علماؤنا فى كتبهم .

الثامنــة — آختلف علماؤنا فى الأخبار هل يدخلها النسخ؛ فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهى ، والخبر لا يدخله النسـخ لاستحالة الكذب على الله تعـالى . وقيل : إن الخبر إذا تضمّن حكمًا شرعيًا جاز نسخه؛ كقوله تعالى : « ومِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا » (١) . وهناك يأتى القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاسـعة — التخصيص من العموم يُوهِم أنه نسخ وليس به؛ لأن المخصّص لم يتناوله العموم قطّ، ولو ثبت تنـاول العموم لشىء مّا ثم أخرج ذلك الشىء عن العموم لكان نسخًا لا تخصيصا، والمتقدّمون يطلقون على التخصيص نسخًا تَوَسُّعًا ومجازًا .

العـاشرة — اعلم أنه قد يرد فى الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والآستغراق، ويرد تقييدها فى موضع آخر فيرتفع ذلك الإطلاق ؛ كقوله تعالى : « وإذَا سَأَلَكَ عِبادِى عَنِّى فإنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِى إذا دَعَانِ » (٢) . فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال؛ لكن قد جاء ما قيّـده فى موضع آخر، كقوله « فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » (٣) . فقد يظنّ من لا بصيرة عنده أن هـذا من باب النسخ فى الأخبار وليس كذلك ، بل هو من باب الإطلاق والتقييد . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — قال علماؤنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لآثنين (٤) . ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان، على ما يأتى بيانه فى آية الصيام (٥) . ويُنْسَخ المثل بمثله ثقلًا وخفة، كالقِبلة . ويُنسخ الشىء لا إلى بدل كصدقة النَّجْوَى . ويُنسخ القرآن بالقرآن . والسُّنَّةُ بالعبارة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعى . ويُنْسَخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحُذّاق الأئمـة على أن القرآن يُنسخ بالسُّنة، وذلك موجود فى قوله عليه السلام : "لا وصيّةَ لوارث" . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبَى ذلك الشافعى وأبو الفرج المالكى؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٢٧　　(٢) ص ٣٠٨ من هذا الجزء .　　(٣) جـ ٦ ص ٤٢٣

(٤) وهو أن الله تعالى نسخ وقوف الواحد للعشرة فى الجهاد بثبوته لاثنين .　　(٥) ص ٢١٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

والأوّل أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن آختلفت فى الأسماء. وأيضا فإن الجلد ساقط فى حدّ الزنى عن الثيّب الذى يُرجم، ولا مسقط لذلك إلا السُّـنة فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذا بيّن.

والحذّاق أيضا على أن السُّنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود فى القِبْلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن فى كتاب الله تعالى. وفى قوله تعالى: «فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ»(١) فإن رجوعهن إنمـا كان بصلح النبيّ صلى الله عليه وسلم لقريش.

والحذّاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا، وآختلفوا هل وقع شرعًا؛ فذهب أبو المعالى وغيره إلى وقوعه فى نازلة مسجد قُبَاء(٢)، على ما يأتى بيانه؛ وأبى ذلك قوم. ولا يصح نسخ نصّ بقياس؛ إذ من شروط القياس ألا يخالِف نصًّا.

وهذا كله فى مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأما بعـد موته وآستقرار الشريعة فأجمعت الأمّة أنه لا نسخ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا يُنسخ به إذ آنعقاده بعد آنقطاع الوحى؛ فإذا وجدنا إجماعًا يخالف نصًّا فيُعلم أن الإجماع آستند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النصّ المخالف متروك العمل به، وأن مقتضاه نُسخ وبقى سـنة يُقرأ ويُروى؛ كما آية عدّة السَّنة فى القرآن تُتلَى(٣)؛ فتأمّل هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة؛ ومثله صدقة النَّجْوَى. وقد تُنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم. وقد تُنسخ التلاوة والحكم معا؛ ومنه قول الصدّيق رضى الله عنه: كنا نقرأ «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر» ومثله كثير.

والذى عليه الحُذّاق أنـ من لم يبلغه الناسخ فهو متعبّد بالحكم الأوّل؛ كما يأتى بيـانه فى تحويل القبلة.

والحُذّاق على جواز نسخ الحُكم قبل فعله، وهو موجود فى قصة الذبيح، وفى فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس؛ على ما يأتى بيانه فى «الإسراء»(٤) و«الصافات»(٥)، إن شاء الله تعالى.

الثانيـة عشرة — لمعرفة الناسخ طُرُق؛ منها — أن يكون فى اللفظ ما يدل عليه؛ كقوله عليه السلام: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن الأشربة إلا فى ظروف

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٦٣ (٢) جـ ٨ ص ٢٥٩ (٣) يريد قوله تعالى: «متاعا إلى الحول...» فإنه قد نسخ حكمها وبقيت تلاوتها. راجع جـ ٣ ص ٢٢٦ (٤) جـ ١٠ ص ٢١٠ (٥) جـ ١٥ ص ١٠٧

Marfat.com

الأدم فٱشربوا فى كل وعاء غير ألّا تشربوا مُسْكِرًا " ونحوه. ومنها ــ أن يذكر الراوى التاريخ؛ مثل أن يقول: سمعت عامَ الخَنْدَق، وكان المنسوخ معلومًا قبله. أو يقول: نُسخ حكم كذا بكذا. ومنهـا ــ أن تجمع الأمة على حُكم أنه منسوخ وأن ناسخه متقدّم. وهذا الباب مبسوط فى أصول الفقه، نبّهنا منه على ما فيه لمن ٱقتصر كفاية، والله الموفّق للهداية.

الثالثة عشرة ــ قرأ الجمهور «مَا نَنْسَخ» بفتح النون، من نَسَخ، وهو الظاهر المستعمل على معنى: ما نرفع من حكم آية ونُبقِ تلاوتها؛ كما تقدّم. ويحتمل أن يكون المعنى: ما نرفع من حكم آية وتلاوتها؛ على ما ذكرناه. وقرأ ٱبن عامر «نُنسخ» بضم النون، لمن أنسخت الكتاب؛ على معنى وجدته منسوخا. قال أبو حاتم: هو غلط. وقال الفارسى أبو علىّ: ليست لغة؛ لأنه لا يقال: نَسَخ وأنسخ بمعنًى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا؛ كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محمودا و بخيلا. قال أبو علىّ: وليس نجـده منسوخا إلا بأن ننسخه، فتتفق القراءتان فى المعنى وإن ٱختلفتا فى اللفظ. وقيل: «ما ننسخ» ما نجعل لك نسخه؛ يقـال: نسخت الكتاب إذا كتبته، وٱنتسخته غيرى إذا جعلت نسـخه له. قال مكّىّ: ولا يجوز أن تكون الهمزة للتعدى؛ لأن المعنى يتغيّر، و يصير المعنى ما ننسخك من آية يا محمد؛ وإنساخه إياها إنزالها عليه، فيصير المعنى ما ننزل عليك من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها؛ فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتى بخير منها؛ فيصير القرآن كله منسوخا وهذا لا يمكن؛ لأنه لم يُنسخ إلا اليسير من القرآن. فلمـا ٱمتنع أن يكون أفعل وفعَـل بمعنًى إذ لم يسمع، وٱمتنع أن تكون الهمزة للتعـدّى لفساد المعنى، لم يبق ممكن إلا أن يكون من باب أحمـدته وأبخلته إذا وجدته محمودا أو بخيلا.

الرابعة عشرة ــ قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ قرأ أبو عمرو وٱبن كَثير بفتح النون والسين والهمز، و به قرأ عمر وٱبن عباس وعطاء ومجاهد وأُبَىّ بن كعب وعبيد بن عُمير والنَّخَعِىّ وٱبن مُحيصِن، من التأخير؛ أى نؤخّر نسخ لفظها، أى نتركه فى آخر[1] أم الكتاب فـلا يكون[2]. وهـذا قول عطاء. وقال غير عطاء: معنى أو ننسأها: نؤخرها عن النسخ إلى وقت معلوم؛ من قولهم:

(١) كذا فى نسخة ا والذى فى ب، جـ، ح، ز: «فى أم الكتاب».　(٢) فى ح: «فلا تكن نسخا».

Marfat.com

نسأت هذا الأمر إذا أخرته ؛ ومن ذلك قولهم : بعته نَسْأً إذا أخرته . قال آبن فارس: ويقولون : نسأ الله فى أجلك ، وأنسأ الله أجلك . وقد آنتسأ القوم إذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأتهم أنا أخرتهم . فالمعنى نؤخر نزولها أو نسخها على ما ذكرنا . وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقون «ننسها» بضم النون ، من النسيان الذى بمعنى الترك ، أى نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها ؛ قاله آبن عباس والسُّدى ؛ ومنه قوله تعالى : « نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ »(١) أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . وآختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، قال أبو عبيد : سمعت أبا نُعيم القارئ يقول : قرأت على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى المنام بقراءة أبى عمرو فلم يغيّر علىّ إلا حرفين ؛ قال : قرأت عليه «وأَرِنَا»(٢) فقال : أَرِنا ؛ فقال أبو عبيد : وأحسب الحرف الآخر «أو ننسأها» فقال : « أو ننسها » . وحكى الأزهرى «ننسها» نأمر بتركها ؛ يقال : أنسيته الشىء أى أمرت بتركه ؛ ونسيته تركته ؛ قال الشاعر :

إن علىّ عُقبة أقضيها * لستُ بناسيها ولا مُنْسِيها(٣)

أى ولا آمر بتركها . وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجّه فيها معنى الترك ؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك ، وما روى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس « أو ننسها » قال : نتركها لا نبدلها ؛ فلا يصح . ولعل آبن عباس قال : نتركها ؛ فلم يضبط . والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى «أو ننسها» نبح لكم تركها ؛ من نسى إذا ترك ، ثم تعدّيه . وقال أبو علىّ وغيره : ذلك متّجه ؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها . وقيل : من النسيان على بابه الذى هو عدم الذكر ، على معنى أو ننسكها يا محمد فلا تذكرها ؛ نقل بالهمز فتعدّى الفعل إلى مفعولين : وهما النبيّ والهاء ، لكن آسم النبيّ محذوف .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ لفظة «بخير» هنا صفة تفضيل ؛ والمعنى بأنفع لكم أيها الناس فى عاجلٍ إن كانت الناسخة أخف ، وفى آجلٍ إن كانت أثقل ، وبمثلها

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٢) سيأتى الكلام عليها فى ص ١٢٧ من هذا الجزء .

(٣) العقبة (بضم فسكون) من معانيها : الإبل يرعاها الرجل ويسقيها ؛ أى أنا أسوق عقبتى وأحسن رعيها .

Marfat.com

إن كانت مستوية . وقال مالك : مُحْكَمَة مكان منسوخة . وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل ؛ لأن كلام الله لا يتفاضل ، و إنما هو مثـل قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا[(1)] » أى فله منهـا خير ، أى نفع وأجر ، لا الخير الذى هو بمعنى الأفضل ، و يدلّ على القول الأوّل قوله : « أَوْ مِثْلِهَا » .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ جزم بلم ، وحروف الاستفهام لا تغيّر عمل العامل ؛ وفُتحت « أنّ » لأنهـا فى موضع نصب . ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى بالإيجاد والاختراع ، والمُلك والسلطان ، ونفوذ الأمر والإرادة . وآرتفع « مُلْكُ » بالابتداء ، والخبر « له » والجملة خبر « أن » . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمتـه ؛ لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وقيـل : المعنى أى قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سـلطان السموات والأرض وما لكم من دون الله من وَلِيّ ؛ من وَلِيت أمر فلان ، أى قمت به ؛ ومنه وليّ العهد ، أى القيّم بمـا عُهد إليه من أمر المسلمين . ومعنى ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ سـوى الله وبَعدَ الله ؛ كما قال أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

يا نفسُ ما لكِ دونَ الله من واقِ * وما على حَدَثان الدهر من باقِ

وقراءة الجماعة « وَلَا نَصِيرٍ » بالخفض عطفا على « وَلِيّ » ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع عطفًا على الموضع ؛ لأن المعنى ما لكم من دون الله ولى ولا نصير .

قوله تعـالى : أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ هذه « أم » المنقطعة التى بمعنى بل ؛ أى بل تريدون ، ومعنى الكلام التوبيخ . ﴿ أَنْ تَسْأَلُوا ﴾ فى موضع نصب بـ « تريدون » . ﴿ كَمَا سُئِلَ ﴾ الكاف فى موضع

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٤

Marfat.com

نصب نعت لمصدر؛ أى سؤالا كما. و«موسى» فى موضع رفع على مالم يسم فاعله. «من قبل»: سـؤالهم إياه أن يريهم الله جهرة، وسألوا محمدا أن يأتى بالله والملائكة قبيلا. عن ابن عباس ومجاهد: سألوا أن يجعل لهم الصَّفَا ذهبًا. وقرأ الحسن «كما سِيل»، وهذا على لغة من قال: سِلْتُ أسالُ؛ ويجوز أن يكون على بدل الهمـزة ياء ساكنة على غير قياس فانكسرت السـين قبلها. قال النحاس: بدل الهمزة بعيـد. والسَّواء من كل شىء: الوسط. قاله أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى؛ ومنـه قوله: «فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ». وحكى عيسى بن عمر قال: ما زلت أكتب حتى انقطع سوائى؛ وأنشد قول حسان يرثى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِهِ * بعـدَ المُغَيَّبِ فى سـواءِ المُلْحَدِ

وقيل: السـواء القصد؛ عن الفَرّاء، أى ذهب عن قصد الطريق وسَمْته، أى طريق طاعة الله عز وجل. وعن ابن عباس أيضا أن سبب نزول هذه الآية أن رافع بن حُرَيْمِلَة ووهب ابن زيد قالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه، وفجِّر لنا أنهارا نتّبعك.

قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. فيه مسألتان:

الأولى — ﴿وَدَّ﴾ تمنّى، وقد تقدّم(١). ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثان بـ«يَرُدُّونَكُمْ». ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: هو متعلق بـ«وَدَّ». وقيل: بـ«حَسَدًا»؛ فالوقف على قوله: «كُفَّارًا». و«حسدا» مفعول له؛ أى وَدُّوا ذلك للحسد، أو مصدر دلّ ماقبله على الفعل. ومعنى «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» أى من

(١) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء.

Marfat.com

تلقائهم من غير أن يجدوه فى كتاب ولا أمروا به؛ ولفظة الحسد تُعطى هذا . فجاء « مِن عند أَنْفُسِهِم » تأكيدًا و إلزامًا، كما قال تعالى : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ »(١)، « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ »، « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »(٢) . والآية فى اليهود .

الثانيـــة — الحسـد نوعان : مذموم ومحمود ؛ فالمذموم أن تتمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ، وسواء تمنّيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا ،وهذا النوع الذى ذمه الله تعالى فى كتابه بقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ »(٣) و إنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق . وأما المحمود فهو ما جاء فى صحيح الحديث من قوله عليه السلام : " لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار". وهذا الحسد معناه الغبطة . وكذلك ترجم عليه البخارى « باب الاغتباط فى العلم والحكمة». وحقيقتها : أن تمنّى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره ؛ وقد يجوز أن يسمّى هذا منافسة ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »(٤) . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أى من بعد ما تبيّن الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الذى جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا ﴾ والأصل اعفُوُوا حُذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين . والعفوُ : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس . صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه . وقـد ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنـه وتركته؛ ومنه قوله تعالى : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا »(٥) .

الثانيـــة — هذه الآية منسوخة بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « صَاغِرُونَ »(٦) عن ابن عباس . وقيل : الناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »(٧) . قال أبو عبيدة :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ .　(٢) جـ ٦ ص ٤١٩ .　(٣) جـ ٥ ص ٢٥١ .
(٤) جـ ١٩ ص ٢٦٤ .　(٥) جـ ١٦ ص ٦٢ .　(٦) جـ ٨ ص ١٠٩　(٧) جـ ٨ ص ٧٢ .

Marfat.com

كل آية فيها تركٌ للقتال فهى مكّيّة منسوخة بالقتال . قال ابن عطية : وحُكمه بأن هذه الآية مكّيّة ضعيف ؛ لأن معاندات اليهود إنمـا كانت بالمدينة .

قلت : وهو الصحيح، روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قَطيفة فَدَكِيّة (١) وأسامة وراءه، يعود سعد بن عُبادة في بني الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بَدْر؛ فسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد الله بن أُبَيّ آبن سَلُول (٢) — وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبَيّ — فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدة الأوثان واليهود؛ وفي المسلمين عبد الله بن رَوَاحة؛ فلما غَشِيت المجلس عَجَاجةُ (٣) الدابة خَمَّـر (٤) آبن أُبَيّ أنفـه بردائه وقال : لا تُغَبِّروا علينـا ! فسلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله تعـالى وقرأ عليهم القرآن ؛ فقال له عبد الله بن أُبَيّ آبن سَلُول : أيها المرء، لا أحسن ممـا تقول إن كان حقًّا ! فلا تؤذنا به في مجالسنا، [ارجع إلى رَحْلك] (٥) فمن جاءك فاقصص عليه . قال عبد الله بن رَوَاحة : بلى يا رســول الله. فآغْشَنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك . فآستبّ المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وســلم يُخفّضهم حتى سكنوا ؛ ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وســلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” [يا سعدُ] (٥) ألم تسمع إلى ما قال أبو حُبَاب — يريد عبد الله بن أُبَيّ — قال كذا وكذا “ فقال : أيْ رسول الله، بأبي أنت وأمي ! آعف عنه وآصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك؛ ولقد آصطلح أهل هذه البُحيرة (٦) على أن يُتَوِّجوه ويُعَصِّبوه بالعِصابة. فلمّا ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِق بذلك، فذلك فعل ما رأيت؛ فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وســلم وأصحابه يَعْفُون عن المشركين وأهل الكتاب كما

---

(١) فدكية : منسوبة إلى فدك (بالتحريك) قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . (٢) سلول : أم عبد الله بن أبي . (٣) العجاج : الغبار . (٤) خمر أنفه : غطاه . (٥) زيادة عن صحيحي البخاري ومسلم يقتضيها السياق . والرحل : المنزل . (٦) البحيرة (تصغير البحرة) : مدينة الرسول عليه السلام؛ وقد جاء في رواية مكبرا .

Marfat.com

أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى ؛ قال الله عز وجل : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا »[1] ، وقال : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا فقتل الله به مَن قتل من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين ، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ قال عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ومَن معه من المشركين وعَبَدة الأوثان : هذا أمرٌ قد توجه[2] ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ يعني قَتْل قُريظة وجلاء بني النَّضير . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[3] تقدّم . والحمد لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ جاء في الحديث "أن العبد إذا مات قال الناس ما خلّف وقالت الملائكة ما قدّم" . وخرّج البخاريّ والنّسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله". قالوا : يا رسول الله، ما منّا من أحد إلا مالُه أحبُّ إليه من مال وارثه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منكم من أحد إلا مالُ وارثه أحبّ إليه من ماله . مالُك ما قدّمت ومالُ وارثك ما أخّرت" ؛ لفظ النسائي . ولفظ البخاري : قال عبد الله قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أيكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله" قالوا : يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه ؛ قال : "فإن مالَه ما قدّم ومال وارثه ما أخّر" . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مرّ ببَقِيع الغَرْقَد[4] فقال : السلام عليكم أهلَ القبور، أخبارُ ما عندنا أن نساءكم قد تزوجن . ودُوركم قد سُكنت ، وأموالكم قد قُسمت . فأجابه هاتف : يابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدّمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلّفناه فقد خسرناه . ولقد أحسن القائل :

قـدّم لنفسك قبل موتك صالحًا * واعمـل فليس إلى الخلود سبيل

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠٣ (٢) أي ظهر وجهه . (٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها ، ٣٤٣ ، ٣٤٣ وما بعدها ، طبعة ثانية . (٤) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة .

Marfat.com

وقال آخر :

قــدّم لنفســك تَوْبةً مرجُـوّة * قبل الممات وقبـل حبس الألسن

وقال آخر :

وَلدتْك إذ وَلدتْـك أمُّك باكيًا * والقومُ حَوْلك يضحكون ســرورَا

فاعمل ليومٍ تكون فيـه إذا بَكَوْا * فى يوم موتـك ضاحكًا مسرورَا

وقال آخر :

سابق إلى الخير وبادِرْ به * فإنمـا خَلْفَـك ما تعــلمُ

وقـدّم الخير فكلّ آمرئ * عــلى الذى قـدّمه يقــدمُ

وأحسن من هذا كله قول أبى العتاهية :

إســعَدْ بمـالك فى حياتـك إنمـا * يبـقى وراءك مصلحٌ أو مفسـدُ

وإذا تركت لمفسـدٍ لم يبقـــه * وأخـو الصـلاح قليـله يتزيّـد

وإن آستطعت فكن لنفسك وارثًا * إنّ المـورّث نفســه لمســدّد

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تقدّم[(١)] .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ المعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً . وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً . وأجاز الفراء أن يكون «هُودًا» بمعنى يهودياً، حُذف منه الزائد، وأن يكون

---

(١) يراجع ص ٣٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

جمع هائد . وقال الأخفش سعيد : « إلا من كان » جعل « كان » واحدا على لفظ « من » ، ثم قال هـودا بجمع ؛ لأن معنى « من » جمع . ويجوز « تلك أمانيهـم » ، وتقدم الكلام (١) في هذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أصـل « هاتوا » هاتيوا ، حذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين ؛ يقال في الواحد المذكر : هات ، مثل رام ، وفي المؤنث : هاتي ، مثل رامي . والبرهان : الدليل الذي يوقع اليقين ، وجمعه براهين ؛ مثل قربان وقرابين ، وسلطان وسلاطين . قال الطبري : طلب الدليل هنا يقضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعني في إيمانكم أو في قولكم تدخلون الجنة ؛ أي بينوا ما قلتم ببرهان ، ثم قال تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم ؛ أي ليس كما تقولون . وقيـل : إن « بلى » محمولة على المعنى ؛ كأنه قيل أما يدخل الجنـة أحد ؟ فقيل : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ومعنى « أسلم » استسلم وخضع . وقيل : أخلص عمله . وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان ؛ ولأنه موضع الحواس ، وفيه يظهر العز والذل . والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء . ويصح أن يكون الوجه في هـذه الآية المقصد . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ جملة في موضع الحال ، وعاد الضمير في « وجهه » و « له » على لفظ « من » وكذلك « أجره » وعاد في « عليهم » على المعنى ، وكذلك في « يحزنون » وقد تقدم (٢) .

قوله تعالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) راجع المسألة الثانية ص ٥ من هذا الجزء .	(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

معناه آدّعى كل فريق منهـــم أن صاحبه ليس على شيء ، وأنه أحق برحمة الله منــه .
﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوارة والإنجيل ، والجملة فى موضع الحال . والمراد بـ « الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » فى قول الجمهور : كفار العــرب ؛ لأنهم لا كتاب لهم . وقال عطاء : المراد أممٌ كانت قبل اليهود والنصارى . الربيع بن أنس : المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى .
آبن عباس : قَدِم أهل نَجْران على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأتتهم أحبار يهود؛ فتنازعوا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقالت كل فرقة منهم للأخرى : لستم على شيء ؛ فنزلت الآية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ «مَن» رفع بالابتداء ، و « أَظْلَمُ » خبره، والمعنى لا أحدَ أظلم. و «أنْ» فى موضع نصب على البدل من « مساجد » ، ويجوز أن يكون التقدير : كراهية أن يُذكر، ثم حذف . ويجوز أن يكون التقدير : من أن يذكر فيها، وحرف الخفض يُحذف مع «أنْ» لطول الكلام . وأراد بالمساجد هنا بيت المَقْدِس ومحاريبه . وقيل الكعبة، وجمعت لأنها قبلة المساجد أو للتعظيم . وقيل: المراد سائر المساجد؛ والواحد مَسْجِد (بكسر الجيم) ، ومن العرب من يقــول : مَسْجَد ، (بفتحها) . قال الفراء : « كل ما كان على فَعَل يَفْعُل، مثل دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح آسما كان أو مصدرا. ولا يقع فيه الفرق، مثل دخل يَدْخُل مَدْخَلًا، وهذا مَدْخَلُه ؛ إلا أحرفًا من الأسماء ألزموها كسر العين، من ذلك: المَسْجِد والمَطْلِع والمغرِب والمشرِق والمَسْقِط والمَفْرِق والمَجْزِر والمَسْكِن والمَرْفِق (من رَفَق يَرْفُق) والمَنْبِت والمَنْسِك (من نَسَك يَنْسُك)؛ فجعلوا

Marfat.com

الكسر علامة للاسم، وربما فتحه بعض العرب فى الاسم » . والمَسْجَد (بالفتح) : جبهة الرجل حيث يصيبه نَدَبُ السجود . والآراب [1] : السبعة مساجد؛ قاله الجوهرى .

الثانيـــة — وٱختلف الناس فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت؛ فذكر المفسرون أنها نزلت فى بُخْتَ نَصّر؛ لأنه كان أخرب بيت المقدس . وقال ٱبن عباس وغيره : نزلت فى النصارى؛ والمعنى كيف تدعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة ! وقد خرّبتم بيت المقدس ومنعتم المصلين من الصلاة فيه . ومعنى الآية على هذا : التعجّب من فعل النصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنما فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود . روى سعيد عن قتادة قال : أولئك أعداء الله النصارى، حملهم إبغاض اليهود على أن أعانوا بُخْتَ نَصّر البابلىّ المجوسىّ على تخريب بيت المقدس . وروى أن هذا التخريب بقى إلى زمن عمر رضى الله عنه . وقيل : نزلت فى المشركين إذ منعوا المصلين والنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وصدّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة . وقيل : المراد مَن منع مِن كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف؛ والله تعالى أعلم .

الثالثـــة — خراب المساجد قد يكون حقيقيًّا كتخريب بُخْتَ نَصّر والنصارى بيت المقدس على ما ذُكر أنهم غَزَوْا بنى إسرائيل مع بعض ملوكهم — قيل : ٱسمه نطوس [2] بن اسبيسانوس الرومى فيما ذكر الغزنوىّ — فقتلوا وسبَوْا، وحرقوا التوراة، وقذفوا فى بيت المقدس العَذِرة وخربوه .

ويكون مجازًا كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها .

(١) الآراب (جمع إرب بكسر فسكون) : الأعضاء؛ والمراد بالسبعة : الجبهة واليدان والركبتان والقدمان .

(٢) ٱضطربت الأصول فى رسم هذا الاسم؛ ففى ا ، ح ، ز «بطوس» بالباء الموحدة التحتية . وفى ب : «تطوس» بالتاء المثناة من فوق . وفى جـ : «نطوس» بالنون .

Marfat.com

الرابعـــة — قال علماؤنا: ولهذا قلنا لايجوز منع المرأة من الحج إذا كانت صَرُورة[1]، سواء كان لها مَحْرَم أو لم يكن؛ ولا تمنع أيضا من الصلاة فى المساجد مالم يخف عليها الفتنة؛ وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لاتمنعوا إماء الله مساجد الله" ولذلك قلنا: لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وإن خربت المحلة، ولا يمنع بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف، بأن يبنوا مسجدا إلى جنب مسجد أو قُربه؛ يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأوّل وخرابه وآختلاف الكلمة، فإن المسجد الثانى ينقض ويمنع من بنيانه؛ ولذلك قلنا: لا يجوز أن يكون فى المصر جامعان، ولا لمسجد واحد إمامان، ولا يصلى فى مسجد جماعتان. وسيأتى لهذا كله مزيد بيان فى سورة «براءة»[2] إن شاء الله تعالى، وفى «النور»[3] حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى. ودلّت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة، وأنها لمّا كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرًا كان منعها أعظم إثمـا.

الخامســـة — كل موضع يمكن أن يُعبد الله فيه ويُسجد له يسمّى مسجدًا؛ قال صلى الله عليه وسلم: "جُعلت لِيَ الأرض مسجدا وطهورا"، أخرجه الأئمة. وأجمعت الأمة على أن البُقعة إذا عُيّنت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربّهـا وصارت عامة لجميع المسلمين؛ فلو بنى رجل فى داره مسـجدا وحجزه على الناس وآختص به لنفسه لبقى على ملكه ولم يخرج إلى حدّ المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن آختصاص الأملاك.

السادســـة — قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ «أولئك» مبتدأ وما بعده خبره. «خائفين» حال؛ يعنى إذا آستولى عليهـا المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها. فإن دخلوها، فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم، وتأديبهم على دخولها. وفى هـذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال، على ما يأتى فى «براءة» إن شاء الله تعالى. ومن جعـل الآية فى النصارى روى أنه مرّ زمان

(١) الصرورة: التى لم تحج قط. (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥٤ وص ١٠٤ (٣) جـ ١٢ ص ٢٦٥

Marfat.com

بعد بناء عمر بيت المقدس فى الإسلام لا يدخله نصرانىّ إلّا أُوجع ضربًا بعد أن كان متعبّدهم.
ومن جعلها فى قريش قال: كذلك نودى بأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم: "أَلَا لا يَحُجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبَيْت عُرْيان". وقيل: هو خبر ومقصوده الأمر؛ أى جاهدوهم وٱستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفا؛ كقوله: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ» فإنه نَهى ورَدَ بلفظ الخبر.(١)

السابعة — قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ قيل القتل للحربىّ، والجزية للذمىّ؛ عن قتادة. السُّدىّ: الخزىُ لهم فى الدنيا قيامُ المهدىّ، وفتحُ عَمُّورِيَة ورُومِيَة وقُسْطَنْطِينِيَة، وغير ذلك من مُدُنهم؛ على ما ذكرناه فى كتاب التذكرة. ومن جعلها فى قريش جعل الخزى عليهم فى الفتح، والعذاب فى الآخرة لمن مات منهم كافرا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ «المشرق» موضع الشروق. «والمغرب» موضع الغروب؛ أى هُما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والٱختراع؛ كما تقدّم. وخصّهما بالذكر والإضافة إليه تشريفًا؛ نحو بيت الله، وناقة الله، ولأن سبب الآية ٱقتضى ذلك؛ على ما يأتى.

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ شَرْطٌ، ولذلك حذفت النون، و «أين» العاملة، و «ما» زائدة، والجواب «فَثَمَّ وجهُ الله». وقرأ الحسن «تَوَلَّوْا» بفتح التاء واللام، والأصل تتولّوا. و«ثَمَّ» فى موضع نصب على الظرف، ومعناها البعد؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير مُعْرَبة لأنها مبهمة، تكون بمنزلة هناك للبُعْد، فإن أردت القُرب قلت هنا.

الثالثــة — ٱختلف العلماء فى المعنى الذى نزلت فيه «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا» على خمسة أقوال:
فقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة فى ليلة مظلمة؛ أخرجه

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٢٨.

Marfat.com

الترمذي عنه عن أبيه قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفرٍ في ليلة مظلمة فلم تَدْرِ أين القبلة ، فصلّى كل رجل منّا على حياله ؛ فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذاك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السّمان ، وأشعث بن سعيد أبو الربيع يُضعَّف في الحديث . وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا ؛ قالوا : إذا صلّى في الغيم لغير القبلة ثم آستبان له بعد ذلك أنه صلّى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ وبه يقول سفيان وآبن المبارك وأحمد وإسحاق.

قلت : وهو قول أبي حنيفة ومالك ، غير أن مالكا قال : تُستحب له الإعادة في الوقت ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمِر ، والكمال يُستدرك في الوقت ؛ آستدلالا بالسنة فيمن صلّى وحده ثم أدرك تلك الصلاة في وقتها في جماعة أنه يعيد معهم ؛ ولا يعيد في الوقت آستحبابا إلا من آستدبر القبلة أو شرّق أو غرّب جدًّا مجتهدًا ، وأمّا من تيامن أو تياسر قليلا مجتهدا فلا إعادة عليه في وقت ولا غيره . وقال المُغيرة والشافعي : لا يجزيه ؛ لأن القبلة شَرْط من شروط الصلاة . وما قاله مالك أصح ؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها في المُسايفة ، وتبيحها أيضا الرُّخصة حالة السفر . وقال آبن عمر : نزلت في المسافر يتنفّل حيثما توجّهت به راحلته . أخرجه مسلم عنه ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي وهو مُقبِل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . ولا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث وما كان مثله . ولا يجوز لأحد أن يَدَع القبلة عامدًا بوجهٍ من الوجوه إلا في شدّة الخوف ؛ على ما يأتي .

وآختلف قول مالك في المريض يصلّي على مَحْمَله ؛ فمرّةً قال : لا يصلّي على ظهر البعير فريضة وإن آشتدّ مرضه . قال سُحْنُون : فإن فعل أعاد ؛ حكاه الباجي . ومَرّةً قال : إن كان ممن لا يصلي بالأرض إلا إيماءً فليُصلّ على البعير بعد أن يوقف له ويستقبل القبلة .

Marfat.com

وأجمعوا على أنه لايجوز لأحد صحيح أن يصلّى فريضة إلا بالأرض إلا فى الخوف الشديد خاصة، على ما يأتى بيانه .

وآختلف الفقهاء فى المسافر سفرًا لا تقصر فى مثله الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه والثّوري: لا يتطوع على الراحلة إلا فى سفر تقصر فى مثله الصلاة؛ قالوا : لأن الأسفار التى حُكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتطوع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة . وقال الشافعي وأبوحنيفة وأصحابهما والحسن بن حَيّ والليث بن سعد وداود بن علي : يجوز التطوع على الراحلة خارج المصر فى كل سفر، وسواء كان مما تقصر فيه الصلاة أولا ؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفرٍ من سفر ، فكلّ سفرٍ جائز ذلك فيه ، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له . وقال أبو يوسف : يصلّى فى المصر على الدابة بالإيماء؛ لحديث يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلّى على حمار فى أزقّة المدينة يومئ إيماء . وقال الطبري : يجوز لكل راكب وماش حاضرًا كان أو مسافرًا أن يتنفل على دابته وراحلته وعلى رجليه [بالإيماء] . وحكى عن بعض أصحاب الشافعي أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة فى الحَضَر والسّفر . وقال الأثرم: قيل لأحمد بن حنبل الصلاة على الدابة فى الحضر، فقال: أما فى السفر فقد سمعتُ ، وما سمعتُ فى الحضر . قال آبن القاسم : من تنفّل فى محمله تنفّل جالسًا، قيامُه تربّع ، يركع واضعا يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه . وقال قتادة : نزلت فى النّجاشى ، وذلك أنه لما مات دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصلّى على رجل مات ؟ وهو يصلى لغير قبلتنا ، وكان النّجاشى ملك الحَبَشة ــ وآسمه أَصْحَمَة وهو بالعربية عطية ــ يصلّى إلى بيت المقدس حتى مات ، وقد صُرفت القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية ، ونزل فيه : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ »(1) فكان هذا عُذْرًا للنجاشى ؛ وكانت صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه سنة تسع من الهجرة . وقد آستدلّ بهذا من أجاز الصلاة على الغائب، وهو الشافعي . قال آبن العربي : ومن أغرب مسائل الصلاة على الميت ما قال الشافعي : يصلى على الغائب ؛ وقد كنت ببغداد

(1) راجع جـ ٤ ص ٣١٢

Marfat.com

فى مجلس الإمام فخر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات ، فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم يقول لنا : قوموا فلأصلّ لكم ، فيقوم فيصلّى عليه بنا ، وذلك بعد ستة أشهر من المدّة ، وبينه وبين بلده ستة أشهر .

والأصل عندهم فى ذلك صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم على النجاشى . وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك مخصوص لثلاثة أوجه :

أحدها — أن الأرض دُحيتْ له جنوباً وشمالاً حتى رأى نعش النجاشى ، كما دُحيت له شمالا وجنوبا حتى رأى المسجد الأقصى . وقال المخالف : وأىّ فائدة فى رؤيته ، وإنما الفائدة فى لحوق بركته .

الثانى — أن النجاشى لم يكن له هناك ولىّ من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه . قال المخالف : هذا محال عادة ! مَلِك على دين لا يكون له أتباع ، والتأويل بالمحال محال .

الثالث — أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما أراد بالصلاة على النجاشى إدخال الرحمة عليه واستئلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حيًّا وميتًا . قال المخالف : بركة الدعاء من النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن سواه تلحق الميت باتفاق . قال ابن العربىّ : والذى عندى فى صلاة النبى صلى الله عليه وسلم على النجاشى أنه علم أن النجاشى ومَن آمن معه ليس عندهم من سُنة الصلاة على الميت أَثَر ، فعلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر إلى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول أحسن ، لأنه إذا رآه فما صلّى على غائب وإنما صلّى على مَرْئِىّ حاضر ، والغائب ما لا يُرَى . والله تعالى أعلم .

القول الرابع — قال ابن زيد : كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وقالوا : ما اهتدى إلا بنا ، فلما حُوّل إلى الكعبة قالت اليهود : ما ولّاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، فنزلت : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » فوجه النظم على هذا القول : أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبّد عباده بما شاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى بيت المقدس ، وإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى الكعبة ، فعل لا حجة عليه [1] ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون .

(١) فى ب ، ج : « لا حجر » .

القول الخامس — أن الآية منسوخة بقوله : « وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »[1] ذكره ابن عباس ؛ فكأنه كان يجوز فى الابتداء أن يصلّى المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك . وقال قتادة : الناسخ قوله تعالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى تلقاءه ؛ حكاه أبو عيسى الترمذى .

وقول سادس — رُوِىَ عن مجاهد والضحاك أنها مُحْكَمة ، المعنى : أينما كنتم من شرق وغرب فثَمّ وجهُ الله الذى أمرنا باستقباله وهو الكعبة . وعن مجاهد أيضا وابن جُبير لما نزلت : « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » . وعن ابن عمر والنَّخَعِىّ : أينما تولُّوا فى أسفاركم ومنصرفاتكم فثَمّ وجه الله . وقيل : هى متصلة بقوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » الآية ؛ فالمعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تَسَعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرّب مساجد الله أن تولُّوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه . وقيل : نزلت حين صُدّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عن البيت عامَ الحُدَيْبِيَة فاغتم المسلمون لذلك . فهذه عشرة أقوال .

ومن جعلها منسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خبرًا ؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر . يحتمل أن يكون معنى « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » : وَلُّوا وجوهكم نحو وجه الله ؛ وهذه الآية هى التى تلا سعيد بن جُبير رحمه الله لما أمر الحجاجُ بذبحه إلى الأرض .

الرابعـة — اختلف الناس فى تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسُّنة ؛ فقال الحُذَّاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام ، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء فى الشاهد وأجلّها قدرًا . وقال ابن فُورك : قد تُذكر صفة الشىء والمراد بها الموصوف توسُّعا ؛ كما يقول القائل : رأيت عِلم فلان اليوم ، ونظرت إلى علمه ؛ وإنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم ؛ كذلك إذا ذُكر الوجه هنا ، والمراد من له الوجه ، أى الوجود . وعلى هذا يتأول قوله تعالى : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ »[2] لأن المراد به : لله الذى له الوجه ؛ وكذلك قوله : « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى »[3] أى الذى له الوجه . قال ابن عباس :

(١) راجع ص ١٥٩ ، ١٦٨ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٢٨ (٣) راجع ج ٢٠ ص ٨٨

Marfat.com

الوجه عبارة عنــه عزّ وجلّ ؛ كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[1] . وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدةٌ على ماتوجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال آبن عطية : وضعّف أبو المعالى هذا القول، وهو كذلك ضعيف؛ و إنما المراد وجوده . وقيل: المراد بالوجه هنا الجهة التى وُجِّهنا إليها أى القبلة . وقيل : الوجه القصد؛ كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنبًا لستُ مُحصيه ✽ رَبَّ العباد إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وقيل : المعنى فثَمّ رضا الله وثوابه؛ كما قال : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أى لرضائه وطلب ثوابه ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة " . وقوله : " يُجاء يوم القيامة بصحف مُختمة فتنصب بين يدى الله تعالى فيقول عز وجل للملائكته ألقوا هـذا وآقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزّتك يا ربّنا ما رأينا إلا خيرا وهو أعلم فيقول إن هـذا كان لغير وجهى ولا أقبل من العمل إلا ما آبتغى به وجهى " أى خالصًا لى ؛ خرّجه الدارقطنىّ . وقيل : المراد فثَمّ الله ؛ والوجه صلة ؛ وهو كقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ » . قاله الكلبى والقتبىّ ، ونحوه قول المعتزلة .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى يوسّع على عباده فى دينهم، ولا يكلفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : « واسع » بمعنى أنه يَسَع علمه كل شىء ؛ كما قال : « وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا »[2] . وقال الفرّاء : الواسع هو الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء؛ دليله قوله تعالى : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »[3] . وقيل : واسع المغفرة أى لا يتعاظمه ذنب . وقيل : متفضّل على العباد وغنىٌّ عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يُسئل ، أى لا يبخل؛ قال الله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ »[4] أى لينفق الغنى مما أعطاه الله . وقد أتينا عليه فى الكتاب « الأسنى » والحمد لله .

قوله تعـالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٥ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٣ (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٧٠ .

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ هذا إخبار عن النصارى في قولهم : المسيح ابن الله . وقيل عن اليهود في قولهم : عُزَيْرٌ ٱبْنُ الله . وقيل عن كفرة العرب في قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار في « مريم »(١) و « الأنبياء »(١) .

الثانية — قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ ﴾ الآية . خرّج البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأمّا تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان وأمّا شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا " .

الثالثة — « سُبْحَانَ » منصوب على المصدر ، ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة ، من قولهم : اتخذ الله ولدا ؛ بل هو الله تعالى واحد في ذاته ، أحدٌ في صفاته ، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة ، « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » ولم يولد فيكون مسبوقا ، جلّ وتعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوّا كبيرا ! ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ « ما » رفع بالابتداء والخبر في المجرور ؛ أي كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع . والقائل بأنه اتخذ ولدا داخل في جملة السموات والأرض . وقد تقدّم أن معنى سبحان الله : براءة الله من السوء(٢) .

الرابعة — لا يكون الولد إلا من جنس الوالد ، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء ، وقد قال : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا »(١) ، كما قال هنا : « بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث ، والقدم يقتضي الوحدانية والثبوت ؛ فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ثم إن البنوّة تنافي الرق والعبودية — على ما يأتي بيانه في سورة « مريم »(١) إن شاء الله تعالى — فكيف يكون ولد عبدا ! هذا محال ، وما أدّى إلى المحال محال .

(١) راجع ج ١١ ص ١٥٨ فما بعدها وص ٢٨١ (٢) راجع ج ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ٱبتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم . « قَانِتُونَ » أى مطيعون وخاضعون ؛ فالمخلوقات كلها تَقْنُت لله ، أى تخضع وتطيع . والجمادات قُنُوتهم فى ظهور الصنعة عليهم وفيهم . فالقنوت الطاعة ، والقنوت السكوت ؛ ومنه قول زيد بن أرقم : كنا نتكلّم فى الصلاة، يُكلّم الرجل صاحبه إلى جنبه حتى نزلت : « وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ » فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام . والقنوت : الصلاة ؛ قال الشاعر :

قانتًا لله يتلو كُتُبَه * وعلى عمد من الناس ٱعتزل

وقال السُّدّى وغيره فى قوله : « كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » أى يوم القيامة . الحسن : كل قائم بالشهادة أنه عبده . والقنوت فى اللغة أصله القيام؛ ومنه الحديث : "أفضل الصلاة طول القنوت" قاله الزجاج . فالخلق قانتون ؛ أى قائمون بالعبودية إمّا إقرارا و إمّا أن يكونوا على خلاف ذلك؛ فأثر الصنعة بيّن عليهم . وقيل : أصله الطاعة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ » . وسيأتى لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ »(1) .

قوله تعالى : بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فعيل للمبالغة ، وٱرتفع على خبر ٱبتداء محذوف ، وٱسم الفاعل مُبْدِع ؛ كبصير من مُبْصِر . أبدعتُ الشىء لا عن مثال ؛ فالله عز وجل بديع السموات والأرض ، أى منشئها ومُوجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال . وكل من أنشأ ما لم يُسبق إليه قيل له مبدع ؛ ومنه أصحاب البِدَع . وسُمّيت البِدْعة بِدعة لأن قائلها ٱبتدعها من غير فعل أو مقال إمام؛ وفى البخارى "ونِعْمَتِ البِدْعة هذه" يعنى قيام رمضان .

(1) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ .

الثانيــة — كل بدعة صدرتْ من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولا؛ فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه؛ فهي في حيّز المدح. وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف؛ فهذا فعله من الأفعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سُبق إليه. ويَعْضُد هذا قول عمر رضي الله عنه: نِعْمتِ البدعة هـذه(١)؛ لمّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حيّز المدح، وهي وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس عليها؛ فمحافظة عمر رضي الله عنه عليها، وجمعُ الناس لها، وندبهم إليها، بدعةٌ لكنها بدعة محمودة ممدوحة. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهي في حيّز الذم والإنكار؛ قال معناه الخطّابي وغيره.

قلت: وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته: "وشرّ الأمور مُحدثاتها وكل بدعة ضلالة" يريد ما لم يوافق كتابا أو سُنّة، أو عمل الصحابة رضي الله عنهم؛ وقد بيّن هذا بقوله: "مَن سنّ في الإسلام سُنّةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومَن سنّ في الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء". وهذا إشارة إلى ما ٱبتدع من قبيح وحسن، وهو أصل هذا الباب، وبالله العصمة والتوفيق، لا ربّ غيره.

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد إحكامه وإتقانه — كما سبق في علمه — قال له كن. قال ٱبن عرفة: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه؛ ومنه سُمّيَ القاضي؛ لأنه إذا حكم فقد فرغ ممّا بين الخصمين. وقال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه، مرجعها إلى ٱنقطاع الشيء وتمامه؛ قال أبو ذُؤَيْب:

وعليهما مَسْرُودتان قضاهما ＊ داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ(٢)

وقال الشّماخ في عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قضيتَ أمورا ثم غادرت بعدها ＊ بوائق في أكمامها لم تُفتّق

---

(١) يريد: قيام رمضان.　(٢) مسرودتان: درعان مخروزتان. والصنع: الحاذق بالعمل.

Marfat.com

قال علماؤنا: «قَضَى» لفظ مشترك، يكون بمعنى الخلق؛ قال الله تعالى: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ»[1] أي خلقهن. ويكون بمعنى الإعلام؛ قال الله تعـالى: «وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْكِتَابِ»[2] أي أعلمنا. ويكون بمعنى الأمر، كقوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»[2]. ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام؛ ومنه سُمّى الحاكم قاضياً. ويكون بمعنى تَوْفِيَة الحق؛ قال الله تعـالى: «فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ»[3]. ويكون بمعنى الإرادة، كقوله تعـالى: «فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» أي إذا أراد خلق شيء. قال ٱبن عطية: «قَضَى» معناه قدّر؛ وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتّجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السُّنة قدّر في الأزل وأمضى فيه. وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ الأمر واحد الأمور، وليس بمصدر أمر يأمر.

قال علماؤنا: والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً:

الأول — الدِّين؛ قال الله تعالى: «حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ»[4] يعني دين الله الإسلام.

الثـاني — القول؛ ومنـه قوله تعـالى: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا» يعني قولنا، وقوله: «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بينهم» يعني قولهم.

الثالث — العذاب؛ ومنه قوله تعالى: «لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ»[5] يعني لما وجب العذاب بأهل النـار.

الرابـــع — عيسى عليـه السـلام؛ قال الله تعـالى: «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا»[6] يعني عيسى، وكان في علمه أن يكون من غير أب.

الخـامس — القتل ببَدْر؛ قال الله تعـالى: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ»[7] يعني القتل ببدر، وقوله تعالى: «لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا»[8] يعني قتل كفار مكة.

السـادس — فتح مكة؛ قال الله تعـالى: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ»[9] يعني فتح مكة.

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٥. (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١٤، ٢٣٦. (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٠. (٤) راجع جـ ٨ ص ١٥٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٦) راجع جـ ٤ ص ٩٣. (٧) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٤. (٨) راجع جـ ٨ ص ٢٢. (٩) راجع جـ ٨ ص ٩٥

Marfat.com

السابــع — قتــل قُرَيظة وجلاء بنى النَّضير ، قال الله تعــالى : « فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ » (١) .

الثــامن — القيامة ، قال الله تعالى : « أَتَى أَمْرُ ٱللَّهِ » (٢) .

التاســع — القضاء ، قال الله تعالى : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » (٣) يعنى القضاء .

العــاشر — الوَحْى ، قال الله تعــالى : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » (٤) يقــول : ينزّل الوحى من السماء إلى الأرض ، وقوله : « يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » (٥) يعنى الوحى .

الحادى عشر — أمر الخلق ، قال الله تعالى : « أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (٦) يعنى أمور الخــلائق .

الثــانى عشر — النَّصْرُ ، قال الله تعالى : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ » (٧) . يعنون النصر ، « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » يعنى النصر .

الثالث عشر — الذّنب ، قال الله تعــالى : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا » (٨) يعنى جزاء ذنبها .

الرابع عشر — الشأن والفعل ، قال الله تعــالى : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » (٩) أى فعله وشأنه ، وقال : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » (١٠) أى فعله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ قيــل : الكاف من كَيْنُونه ، والنون من نُوره ؛ وهى المراد بقوله عليه السلام : " أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق " . و يُروى : " بكلمة الله التامة " على الإفراد . فالجمع لمــا كانت هــذه الكلمة فى الأمور كلها ، فإذا قال لكل أمر كن ، ولكل شىء كن ، فهنّ كلمــات . يدلّ على هــذا ما رُوى عن أبى ذرّ عن النبيّ صلى الله عليه وســلم فيما يُحكى عن الله تعالى : " عطائى كلام وعذابى كلام " . خرّجه الترمذى فى حديث فيه طول . والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضا ، لكن لمــا تفرّقت الكلمة الواحدة فى الأمور فى الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة . و إنمــا قيل « تامة » لأن أقل الكلام عنــد أهل اللغة على ثلاثة أحرف : حرف مبتــدأ ، وحرف تُحشَى به الكلمة ، وحرف يُسكت عليــه . و إذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص ، كيَد

Marfat.com

ودَمٍ وفَمٍ؛ و إنما نقص لعلة . فهى من الآدميّين من المنقوصات لأنها على حرفين؛ ولأنها كاملة ملفوظة بالأدوات . ومن ربّنا تبارك وتعالى تامة؛ لأنها بغير الأدوات ، تعالى عن شبه المخلوقين .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ قُرِئَ برفع النون على الاستئناف . قال سيبويه : فهو يكون، أو فإنه يكون . وقال غيره : هو معطوف على « يقول » ؛ فعلى الأول كائنا بعد الأمر ، و إن كان معدوما فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم ؛ على ما يأتى بيانه . وعلى الثانى كائنا مع الأمر ؛ واختاره الطبرى وقال : أمره للشيء بـ « كن » لا يتقـدم الوجود ولا يتأخر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجودا إلا وهو مأمور بالوجود ، على ما يأتى بيـانه . قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقـدّم دعاء الله ولا يتأخر عنـه ؛ كما قال « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ »[1] . وضعّف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى[2] ؛ لأنه يقتضى أن القول مع التكوين والوجود .

وتلخيص المعتقد فى هذه الآية : أن الله عزّ وجلّ لم يزل آمرًا للمعدومات بشرط وجودها، قادرًا مع تأخر المقدورات ، عالمًـا مع تأخر المعلومات . فكلُّ ما فى الآية يقتضى الاستقبال فهو بحسب المأمورات ؛ إذ المحدَثات تجيء بعد أن لم تكن . وكل ما يُسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل . والمعنى الذى تقتضيه عبارة « كن » : هو قديم قائم بالذات .

وقال أبو الحسن المــاوَرْدِى: فإن قيل : ففى أى حال يقول له كن فيكون ؟ أفى حال عدمه ، أم فى حال وجوده؟ فإن كان فى حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورًا، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر ؛ و إن كان فى حال وجوده فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيهـا بالوجود والحدوث ؛ لأنه موجود حادث ؟ قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها — أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره فى خلقه الموجود ؛ كما أمر فى بنى إسرائيل أن يكونوا قِرَدَةً خاسئين ؛ ولا يكون هذا واردًا فى إيجاد المعدومات .

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩ . (٢) فى ا : « من جهة التكوين » .

Marfat.com

الثانى — أن الله عزّ وجلّ عالم بما هو كائن قبل كونه؛ فكانت الأشياء التى لم تكن وهى كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتى هى موجودة؛ فجاز أن يقول لها : كونى، و يأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود؛ لتصوّر جميعها له ولعلمه بها فى حال العدم .

الثالث — أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يُحدثه و يكوّنه إذا أراد خلقه و إنشاءه كان، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، و إنما هو قضاء يريده، فعبر عنه بالقول و إن لم يكن قولًا ؛ كقول أبى النَّجْم :

* قد قالتِ الأنساع للبَطْنِ الحَقِ *

ولا قول هناك، و إنما أراد أن الظَّهر قد لَحِق بالبطن، وكقول عمرو بن حممة الدَّوسِىّ :

فأصبحتُ مثلَ النَّسْر طارت فِراخُه * إذا رامَ تَطْيارًا يقال له قَعِ

وكما قال الآخر :

قالت جناحاه لساقيه الحقا * ونجّيا لحمكما أن يُمزَّقا

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨)

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود. مجاهد : النصارى؛ ورجّحه الطبرى ؛ لأنهم المذكورون فى الآية أوّلا . وقال الربيع والسُّدِّى وقتادة : مشركو العرب . و « لولا » بمعنى « هلّا » تحضيض؛ كما قال الأشهب بن رُمَيْلة[(١)] :

تَعُدّون عقر النِّيب أفضل مجدكم * بنى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىَّ المُقنَّعا

(١) كذا فى الأصول . وقال البغدادى صاحب خزانة الأدب : «ونسبه ابن الشجرى فى أماليه للأشهب، والصحيح أنه من قصيدة لجرير، لا خلاف بين الرواة أنها له، وهى جواب عن قصيدة تقدمت للفرزدق على قافيتها» . وقضية عقر الإبل مشهورة فى التواريخ . والنيب (بكسر النون وسكون الياء جمع ناب) : الناقة المسنة . وضوطرى : قيل : الرجل الضخم اللئيم الذى لاغناء عنده . وقيل : الحمق . والكمى : الشجاع . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر . راجع خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والستين بعد المائة . وكتاب المغنى فى «لولا» والقاموس ص ٨٣٢ طبع أوربا، بذيل أمالى القالى .

Marfat.com

وليست هذه « لولا » التى تعطى منع الشىء لوجود غيره ؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن « لـولا » بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مُظهرًا أو مقـدرا ، والتى للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر . ومعنى الكلام هَلّا يكلّمنا الله بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فنعلم أنه نبىّ فنؤمن به ، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوّته . والآية : الدلالة والعلامة ؛ وقد تقدّم[1] . و ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ اليهود والنصارى فى قول من جعل « ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » كفار العرب ، أو الأمم السالفـة فى قول من جعل « ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » اليهود والنصارى ، أو اليهود فى قول من جعل « الذين لا يعلمون » النصارى . ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قيل : فى التعنيت والاقتراح وترك الإيمـان . وقال الفرّاء : « تَشَابَهَتْ قُلُوبُهـم » فى اتفاقهم على الكفر . ﴿ قَدْ بَيَّنَّـا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ تقدّم[2] .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّـآ أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ « بشيرا » نصب على الحال ، « ونذيرًا » عطف عليه ؛ وقد تقدّم معناهما[3] . ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال مقاتل : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا" ؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ » برفع تسأل ، وهى قراءة الجمهور ، ويكون فى موضع الحال بعطفه على «بَشيرًا ونذيرًا». والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول . وقال سعيد الأخفش : ولا تَسألُ (بفتح التاء وضم اللام) ؛ ويكون فى موضع الحال عطفًا على « بشـيرا ونذيرا » . والمعنى : إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم . هذا معنى غير سائل . ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : "ليت شعرى ما فعل أبواى" . فنزلت هـذه الآية ؛ وهذا على قراءة من قرأ « ولا تسألْ » جزمًا على النّهى ، وهي قراءة نافع وحده ؛ وفيه وجهان :

(١) راجع جـ ١ ص ٦٦ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٠ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية .

Marfat.com

أحدهما — أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء ؛ لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المعصية إلى الطاعة .

والثاني — وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته ، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ! أى قد بلغ فوق ما تحسب . وقرأ ابن مسعود « ولن تسأل » . وقرأ أبيّ « وما تسأل » ؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور ، نفى أن يكون مسئولا عنهم . وقيل : إنما سأل أى أبويه أحدث موتا ؛ فنزلت . وقد ذكرنا فى كتاب « التذكرة » أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به ، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل : " إن أبى وأباك فى النار " وبينا ذلك ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ المعنى : ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك . و إنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم . يقال : رضِيَ يَرْضَى رِضًا ورُضًا ورِضوانًا ورُضوانًا ومَرْضاة ؛ وهو من ذوات الواو ؛ ويقال فى التثنية : رِضَوان ، وحكى الكسائى : رِضَيان . وحُكى رضاء ممدود ، وكأنه مصدر راضى يراضى مُراضاة ورِضاء . و « تَتَّبِعَ » منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى ؛ قاله الخليل . وذلك أن حتى خافضة للاسم ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » وما يعمل فى الاسم لا يعمل فى الفعل ألبتة ، وما يخفض اسما لا ينصب شيئا . وقال النحاس : « تَتَّبِعَ » منصوب بحتى ، و «حتى» بدل من أن . والملة : اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه وعلى ألسنة رسله .

Marfat.com

فكانت المِلّة والشريعــة سواء ؛ فأمّا الدِّين فقــد فرّق بينه وبين المِلّة والشريعــة ؛ فإن المِلّة والشريعة ما دعا اللهُ عبادَه إلى فعله ، والدِّين ما فعله العباد عن أمره .

الثانيـــة — تمسّك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة ؛ لقــوله تعالى : « مِلّتَهُمْ » فوحّد المِلّة ، وبقــوله تعالى : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[1] ، وبقوله عليه السلام : " لا يتوارث أهل مِلّتين " على أن المراد به الإسلام والكفر ، بدليل قوله عليه السلام : " لا يرث المسلم الكافر ". وذهب مالك وأحمد فى الرواية الأخرى إلى أن الكفر مِلَلٌ ، فلا يرث اليهوديّ النصرانيّ ، ولا يرثان المجوسيّ ؛ أخذا بظاهر قوله عليه السلام : " لا يتوارث أهل مِلّتين " ؛ وأما قوله تعالى : « مِلّتهم » فالمراد به الكثرة و إن كانت موحدة فى اللفظ بدليــل إضافتها إلى ضمير الكثرة ؛ كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة — مثلا — عِلْمَهم ، وسمعت عليهم حديثهم ؛ يعنى علومهم وأحاديثهم .

قوله تعــالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهُدَى الحقيق ، لا ما يدّعيه هؤلاء .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ الأهواء جمع هَوًى ؛ كما تقول : جمل وأجمال ، ولمّــا كانت مختلفة جمعت ؛ ولو حُمل على أفراد المِلّة لقال هواهم . وفى هذا الخطاب وجهان : أحدهمــا — أنه للرسول ، لتوجّه الخطاب إليه . والثانى — أنه للرسول والمراد به أمّته ؛ وعلى الأول يكون فيه تأديب لأمّته ، إذ منزلتهم دون منزلته . وسبب الآية أنهم كانوا يسألون المسالمة والهُدنة ، و يَعِدُون النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإسلام ؛ فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع مِلّتهم ، وأمره بجهادهم .

قوله تعــالى : ﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ سُئل أحمد بن حنبل عمن يقول : القرآن مخلوق ؛ فقال : كافر ؛ فقيــل : بِمَ كفّرته ؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : « وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ »[2] والقرآنُ من علم الله . فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٢١) يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ قال قتادة : هم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والكتاب على هذا التأويل القرآن . وقال آبن زيد : هم مَن أسلم من بني إسرائيل . والكتاب على هذا التأويل : التوراة ؛ والآية تعمّ . و « الذين » رفع بالابتداء، « آتيناهم » صلته ، « يَتْلُونَهُ » خبر الابتداء ، و إن شئت كان الخبر « أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

وآختلف في معنى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ فقيل : يتّبعونه حق آتباعه، بآتباع الأمر والنهي ؛ فيحلّلون حلاله ، و يحرّمون حرامه ، و يعملون بما تضمّنه ؛ قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعالى : « وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » أي أتبعها ؛ وهو معنى قول آبن عباس وآبن مسعود رضي الله عنهما . وقال الشاعر :

* قد جعلت دَلْوِى تَستَتْلِينِي (١) *

وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن آبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ » قال : " يتّبعونه حق آتباعه " . في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكر الخطيب أبو بكر أحمد ، إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى الأشعرى : من يتّبع القرآن يهبط به على رياض الجنة . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هم الذين إذا مرّوا بآية رحمة سألوها من الله ، و إذا مرّوا بآية عذاب آستعاذوا منها . وقد روى هذا المعنى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : كان إذا مرّ بآية رحمة سأل ، و إذا مرّ بآية عذاب

(١) تمامه : * ولا أريد تبع القرين *

Marfat.com

تعوّذ . وقال الحسن : هم الذين يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويَكِلُون ما أشكل عليهم إلى عالمه . وقيل : يقرءونه حق قراءته .

قلت : وهذا فيه بُعْدٌ ، إلا أن يكون المعنى يرتّلون ألفاظه ، ويفهمون معانيه؛ فإن بفهم المعانى يكون الاتّباع لمن وُفّق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١٢٤)

فيه عشرون مسألة :

الأولى — لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذى بنى البيت ؛ فكان من حق اليهود — وهم من نسل إبراهيم — ألّا يرغبوا عن دينه . والابتلاء : الامتحان والاختبار ؛ ومعناه أَمْرٌ وتعبُّدٌ . وإبراهيم تفسيره بالسُّريانية فيما ذكر الماوردى، وبالعربية فيما ذكر ابن عطية : أبٌ رحيم . قال السُّهيلى : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السُّريانى والعربى أو يقاربه فى اللفظ ؛ ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ؛ لرحمته بالأطفال ؛ ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة .

قلت : ومما يدلّ على هذا ما خرّجه البخارى من حديث الرؤيا الطويل عن سَمُرة، وفيه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس . وقد أتينا عليه فى كتاب التذكرة، والحمد لله .

وإبراهيم هذا هو ابن تارخ بن ناخور فى قول بعض المؤرّخين . وفى التنزيل : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ »[1] وكذلك فى صحيح البخارى ؛ ولا تناقض فى ذلك ، على ما يأتى فى « الأنعام » بيانه إن شاء الله تعالى . وكان له أربع بنين : إسماعيل وإسحاق ومَدْيَن ومدائن ؛ على ما ذكره السُّهيلى . وقدّم على الفاعل للاهتمام ؛ إذ كون الربّ تبارك وتعالى

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢

Marfat.com

مبتلياً معـلوم ، وكون الضمير المفعول فى العربيـة متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول ؛ فإنما بُنى الكلام على هذا الاهتمام ، فاعلمه . وقراءة العامة « إبراهـيمَ » بالنصب ، « رَبُّه » بالرفع على ما ذكرنا . وروى عن جابر بن زيد أنه قـرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك . والمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل، وفيه بُعْدٌ؛ لأجل الباء فى قوله : «بِكَلِماتٍ» .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ الكلمات جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام البارى تعالى، لكنه عبّر عنها عن الوظائف التى كُلّفها إبراهيم عليه السلام؛ ولمـا كان تكاليفها بالكلام سُمّيت به ، كما سُمّىَ عيسى كلمة ؛ لأنه صدر عن كلمة وهى « كُن » . وتسمية الشيء بمقدّمته أحد قسمى المجاز ؛ قاله ابن العربى .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى المراد بالكلمات على أقوال : أحدها — شرائع الإسلام، وهى ثلاثون سهما، عشرة منها فى سـورة براءة : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ »(١) إلى آخرها، وعشرة فى الأحزاب : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ »(٢) إلى آخرها ، وعشرة فى المؤمنون : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »(٣) إلى قوله : «على صَلَوَاتِهِمْ يحافظون» وقوله فى «سأل سائل»(٤) : «إِلَّا الْمُصَلِّينَ» إلى قوله : «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما ابتلى الله أحدًا بهن فقام بها كلّها إلا إبراهيم عليه السلام ، ابْتُلِيَ بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة فقال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى »(٥) . وقال بعضهم : بالأمر والنهى . وقال بعضهم : بذبح ابنه، وقال بعضهم : بأداء الرسالة؛ والمعنى متقارب . وقال مجاهد : هى قوله تعالى : إنى مبتليك بأمر، قال : تجعلنى للنـاس إماما ؟ قال نعم . قال : ومن ذرّيتى ؟ قال : لا ينال عهـدى الظالمين ؛ قال : تجعـل البيت مَثابةً للنـاس ؟ قال نعم . قال : وأَمْنًا ؟ قال نعم . قال : وتُرِينا مناسكنا وتتوب علينا ؟ قال نعم . قال : وترزق أهـله من الثمرات ؟ قال نعم . وعلى هذا القول فالله تعالى هو الذى أتم . وأصح من هـذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن

(١) راجع ج ٨ ص ٢٦٩ (٢) راجع ج ١٤ ص ١٨٥ (٣) راجع ج ١٢ ص ١٠٢
(٤) راجع ج ١٨ ص ٢٩١ (٥) راجع ج ١٧ ص ١١٣

Marfat.com

ابن طاوس عن ابن عباس فى قوله : « وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » قال : ابتلاه الله بالطهارة، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد: قصّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسّواك، وفَرْق الشعر . وفى الجسد : تقليم الأظفار، وحلق العانة، والاختتان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء ؛ وعلى هذا القول فالذى أتمّ هو إبراهيم وهو ظاهر القرآن . وروى مطر[1] عن أبى الجلد أنها عشر أيضا ، إلا أنه جعل موضع الفَرْق غسل البراجم[2]، وموضع الاستنجاء الاستحداد[3] . وقال قتادة : هى مناسك الحج خاصة . الحسن : هى الخلال الست : الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان . قال أبو إسحاق الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم عليه السلام .

قلت : وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول : إبراهيم عليه السلام أول من اختتن ، وأول من أضاف الضيف ، وأول من استحدّ ، وأول من قلّم الأظفار، وأول من قصّ الشارب، وأول من شاب؛ فلما رأى الشيب قال : ما هذا ؟ قال : وقار؛ قال : يا رب زدنى وقارا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله . قال غيره: وأول من ثرّد الثّريد، وأول من ضرب بالسيف ، وأول من استاك، وأول من استنجى بالماء ، وأول من لبس السراويل . وروى معاذ بن جبل قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنْ أتّخِذ المنبر فقد اتخذه أبى إبراهيم وإنْ أتّخِذ العصا فقد اتخذها أبى إبراهيم " .

قلت : وهذه أحكامٌ يجب بيانها والوقوف عليها والكلام فيها ؛ فأول ذلك « الختان » وما جاء فيه ، وهى المسألة :

الرابعــة — أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أول من اختتن . واختُلِف فى السن التى اختتن فيها؛ ففى الموطأ عن أبى هريرة موقوفا : " وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش

(١) فى جـ : « مطرف » .
(٢) سيأتى الكلام على البراجم فى المسألة العاشرة .
(٣) سيذكر المؤلف معنى الاستحداد عند المسألة التاسعة .

Marfat.com

بعد ذلك ثمـانين سنة " . ومثل هذا لا يكون رأيًا، وقـد رواه الأوزاعى مرفوعا عن يحيى آبن سعيد عن سـعيد بن المسيّب عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "آختتن إبراهيم عليه السلام وهو آبن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمـانين سنة " . ذكره أبو عمر[1] . وروى مسـندا مرفوعا من غير رواية يحـيى من وجوه : " أنه آختتن حين بلغ ثمـانين سنة وآختتن بالقـدوم[2] " . كذا فى صحيح مسلم وغيره «آبن ثمـانين سنة»؛ وهو المحفوظ فى حديث آبن عجلان وحديث الأعرج عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم. قال عكرمة : آختتن إبراهيم وهو آبن ثمانين سنة . قال : ولم يَطُف بالبيت بعدُ على مِلّة إبراهيم إلا مَخْتُون؛ هكذا قال عكرمة وقاله المسيّب بن رافع ؛ ذكره المَرْوَزِىّ . و « القدوم » يروى مشدّدا ومخفّفا . قال أبو الزناد : القَدُّوم (مشددا) : موضع .

الخامســة — وآختلف العلمـاء فى الختان؛ فجمهورهم على أن ذلك من مؤكّدات السُّنن ومن فطرة الإسـلام التى لا يسع تركها فى الرجال . وقالت طائفـة : ذلك فرض ؛ لقوله تعالى : « أَنِ آتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » . قال قتادة : هو الآختتان؛ وإليه مال بعض المـالكيّين، وهو قول الشافعى . وآسـتدل آبن سريج[3] على وجوبه بالإجماع على تحريم النظر إلى العَـوْرة ، وقال : لولا أن الختان فرض لمـا أبيح النظر إليها من المختون . وأجيب عن هذا بأن مثل هـذا يباح لمصلحة الجسم كنظر الطبيب ، والطبّ ليس بواجب إجمـاعًا؛ على ما يأتى فى « النحل » بيانه إن شاء الله تعالى . وقد آحتج بعض أصحابنا بمـا رواه الحجاج بن أرطاة عن أبى المليح عن أبيــه عن شدّاد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " الختان سُنّة الرجال مَكْرُمَةٌ للنساء " . والحجاج ليس ممن يحتجّ به .

---

(١) فى ج : « ذكره عبد الرزاق » .

(٢) قال النووى : « رواة مسلم متفقون على تخفيف (القدوم)، ووقع فى روايات البخارى الخلاف فى تشديده وتخفيفه، قالوا : وآلة النجار يقال لها : قدوم بالتخفيف لا غير، وأما القدوم مكان بالشام ففيه التخفيف والتشديد، فمن رواه بالتشديد أراد القرية، ورواية التخفيف تحتمل القرية والآلة؛ والأكثرون على التخفيف وعلى إرادة الآلة » .

(٣) فى ا، ح : « ابن شريح » .

Marfat.com

قلت : أعلى ما يحتجّ به فى هذا الباب حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الفطرة خمس الاختتان ..." الحديث، وسيأتى . وروى أبو داود عن أم عطية أن امرأة كانت تختن النساء بالمدينة، فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تَنْهَكِي (١) فإن ذلك أَحْظَى للمرأة وأحبّ للبعل" . قال أبو داود : وهذا الحديث ضعيف راويه مجهول . وفى رواية ذكرها رزين : "ولا تَنْهَكِي فإنه أَنْوَرُ للوجه وأَحْظَى عند الرجل" .

السادسة — فإن وُلد الصبيّ مختونًا فقد كفى مؤنة الختان . قال الميمونى قال لى أحمد : إن ها هنا رجلا ولد له ولد مختون، فاغتمّ لذلك غمًّا شديدا؛ فقلت له : إذا كان الله قد كفاك المؤنة فما غمّك بهذا !

السابعة — قال أبو الفرج الجوزيّ حدّثت عن كعب الأحبار قال : خلق من الأنبياء ثلاثة عشر مختونين : آدم وشيث و إدريس ونوح وسام ولوط و يوسف وموسى وشعيب وسليمان ويحيى وعيسى والنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن حبيب الهاشميّ : هم أربعة عشر : آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب و يوسف وموسى وسليمان وزكريا وعيسى وحنظلة بن صفوان (نبيّ أصحاب الرّسّ (٢)) ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

قلت : اختلفت الروايات فى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فذكر أبو نعيم الحافظ فى «كتاب الحلية» بإسناده أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولد مختونا . وأسند أبو عمر فى التمهيد حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد حدّثنا محمد بن عيسى حدّثنا يحيى بن أيوب بن بادى (٣) العلاف حدّثنا محمد ابن أبى السريّ العسقلانى حدّثنا الوليد بن مسلم عن شعيب عن عطاء الخراسانيّ عن عكرمة عن ابن عباس : أن عبد المطلب خَتَن النّبي صلى الله عليه وسلم يوم سابعه، وجعل له مأدبة وسمّاه «محمدا» . قال أبو عمر : هذا حديث مسند غريب . قال يحيى بن أيوب : طلبت

---

(١) «لا تنهكى» أى لا تبالغى فى استقصاء الختان .

(٢) فى اللسان : «قال الزجاج : يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، قال و يروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج، و يروى أنهم كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر، أى دسوه فيها حتى مات، و يروى أن الرس بئر، وكل بئر عند العرب رس» .

(٣) فى الأصول : «زياد» والتصويب عن تهذيب التهذيب .

هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند آبن أبي السَّرِيّ . قال أبو عمر : وقد قيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلد مختونا .

الثامنــة — وآختلفوا متى يُختن الصبيّ ؛ فثبت في الأخبار عن جماعة من العلماء أنهم قالوا : ختن إبراهيمُ إسماعيلَ لثلاث عشرة سنة . وختن آبنــه إسحاق لسبعة أيام . وروى عن فاطمة أنها كانت تختن ولدها يوم السابع ؛ وأنكر ذلك مالك وقال ذلك من عمل اليهود . ذكره عنه آبن وهب . وقال اللّيث بن سعد : يُختن الصبيّ ما بين سـبع سنين إلى عشر . ونحوه روى آبن وهب عن مالك . وقال أحمد : لم أسمع في ذلك شيئا . وفي البخاريّ عن سعيد بن جُبير قال : سئل آبن عباس : مِثْلُ مَن أنت حين قبض رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؟ قال : أنا يومئذ مختون . قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يُدرك أو يقارب الآحتـلام .

وآستحب العلماء في الرجل الكبير يُسلم أن يختتن ؛ وكان عطاء يقول : لا يتم إسـلامه حتى يختتن وإن بلغ ثمـانين سنة . وروى عن الحسن أنه كان يرخّص للشيخ الذي يُسلم ألّا يختتن ، ولا يرى به بأسًا ولا بشهادته وذبيحته وحجّه وصلاته ؛ قال آبن عبد البر : وعامةُ أهل العلم على هذا . وحديث بُرَيْدة في حج الأغلف لا يثبت . وروى عن آبن عباس وجابر ابن زيد وعكرمة : أن الأغلف لا تؤكل ذبيحته ولا تجوز شهادته .

التاسـعة — قوله : «وأول من آستحدّ» فالآستحداد آستعمال الحديد في حلق العانة . وروت أم سلمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا آطّلى(1) وَلِيَ عانته بيده . وروى آبن عباس أن رجلا طَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ إلى عانته قال له : آخرج عني ، ثم طَلَى عانته بيده . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يتنَـوّر ، وكان إذا كثر الشعر على عانته حلقه . قال آبن خُوَيْزِمَنداد : وهذا يدلّ على أن الأكثر من فعله كان الحلق وإنما تنوّر نادرا ، ليصح الجمع بين الحديثين .

(1) اطلى : يعني بالنورة وهي حجر يتخذ منه طلاء لإزالة الشعر من مواطن الجسد .

Marfat.com

العـاشرة — فى تقليم الأظفار . وتقليم الأظفار : قصّها ؛ والقُلامة مايزال منها . وقال مالك : أُحبّ للنساء من قص الأظفار وحلق العانة مثل ما هو على الرجال . ذكره الحارث ابن مسكين وسُحْنُون عن ابن القاسم . وذكر الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصـول » له (الأصل التاسع والعشرون) : حدّثنا عمر بن أبى عمر قال حدّثنا إبراهيم بن العـلاء الزبيدى عن عمر بن بلال الفَزَارىّ قال سمعت عبد الله بن بشر المـازنىّ يقول قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : ” قُصّـوا أظافيركم وآدفِنوا قُلاماتكم وَنَقُّوا بَراجمكم وَنَظّفُوا لِثاتكم من الطعام وتَسَنّنُوا ولا تدخلوا علىّ تُحُرًّا بُخْرًا[(١)] “ ثم تكلّم عليه فأحسن . قال الترمذىّ : فأما قصّ الأظفار فمن أجل أنه يَخْدِش ويَخْمِش و يضرّ ، وهـو مجتمع الوسخ ، فربّمـا أجنب ولا يصل المـاء إلى البشرة من أجل الوسخ فـلا يزال جُنبًا . ومن أجنب فبقى موضـع إبرة من جسده بعـد الغسل غير مغسول فهو جُنُب على حاله حتى يعمّ الغسل جسده كله ؛ فلذلك ندبهم إلى قص الأظفار . والأظافير جمـع الأظفـور ، والأظفار جمـع الظفر . وفى حديث رسـول الله صلى الله عليه وسـلم حيث سَها فى صـلاته فقال : ” ومالى لا أُوهِم ورُفْغُ[(٢)] أحدكم بين ظفره وأنملتـه و يسألنى أحدكم عن خبر السماء وفى أظافيره الجنـابة والتَّفَث “ . وذكر هـذا الخبر أبو الحسن علىّ بن محمـد الطبرى المعروف بالكِيَا فى « أحكام القرآن » له ، عن سـليمان بن فرج أبى واصـل قال : أتيت أبا أيوب رضى الله عنـه فصافحته ، فرأى فى أظفارى طولا فقال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسـلم يسأله عن خبر السماء فقال : ” يجىء أحدكم يسأل عن خبر السماء وأظفاره كأظفار الطير حتى يجتمع فيها الوسخ والتَّفَث “ .

وأما قوله : ” آدفِنُوا قلاماتكم “ فإن جسد المؤمن ذو حُرمة ، فما سـقط منه وزال عنه فحفظه من الحرمة قائم ، فيحقّ عليه أن يدفنه ، كما أنه لو مات دُفن ، فإذا مات بعضه فكذلك أيضا تقام حرمته بدفنه ؛ كى لا يتفرّق ولا يقع فى النار أو فى مزابل قذرة . وقد أمر رسول الله

---

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ، والتصـويب عن « نوادر الأصول » وسينقل المؤلف رحمه الله كلام الترمذى من هذا الحديث . (٢) الرفغ : الوسخ الذى بين الأنملة والظفر .

Marfat.com

صلى الله عليه وسـلم بدفن دمه حيث احتجم كى لا تبحث عنـه الكلاب . حدثنا بذلك أبى رحمه الله تعـالى قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا الهنيد بن القاسم بن عبدالرحمن بن ماعز قال سمعت عامر بن عبدالله بن الزبير يقول إن أباه حدثه أنه أتى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم، فلما فرغ قال : "يا عبد الله آذهب بهذا الدم فأهْرِقه حيث لا يراك أحد" . فلما برز عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم عمد إلى الدم فشربه؛ فلما رجع قال : "يا عبد الله ما صنعت به ؟" . قال : جعلته فى أخفى مكان ظننت أنه خافيًا عن الناس . قال : "لعلك شربته؟" قال نعم . قال : "لم شربتَ الدم [وَيْلٌ للناس منك و[1]] وَيْلٌ لك من الناس" . حدثنى أبى قال حدثنا مالك بن سليمان الهَرَوِى قال حدثنا داود بن عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر، والظفر، والدم، والحَيْضة، والسن، والقَلَفة، والبَشِيمة .

وأما قـوله : "نَقُّوا بَرَاجِمَكم" فالبَراجم تلك الغضون من المفاصل، وهى مجتمع الدَّرَن (واحدها بُرْجُمة) وهو ظهر عقدة كلّ مفصل؛ فظهر العقدة يسمى بُرْجُمة، وما بين العقدتين تسمى راجبة، و جمعها رواجب؛ وذلك ممـا يلى ظهرها، وهى قصبة الأصبع؛ فلكل أصبع بُرْجمتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فإن لهـا بُرْجُمة وراجبتين؛ فأمر بتنقيته لئلا يَدْرَن فتبقى فيه الجنابة، ويحول الدّرن بين المـاء والبشرة .

وأما قوله : "نَظِّفُوا لِثاتكم" فاللِّثة واحدة، واللِّثات جماعة، وهى اللَّحمة فوق الأسنان ودون الأسنان، وهى منابتها . والعُمُور : اللحمة القليلة بيـن السنَّين، واحدها عُمْر . فأمر بتنظيفها لئلا يبقى فيها وضَر الطعام فتتغيّر عليه النَّكْهة وتتنكّر الرائحة، و يتأذّى الملكان؛ لأنه طريق القرآن، ومقعد الملكين عند نابيه . و رُوِىَ فى الخبر فى قوله تعـالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[2] » قال : عند نابيه . حدثنا بذلك محمد بن علىّ الشَّقيقى قال سمعت أبى يذكر ذلك عن سفيان بن عُيينة، وجاد ما قال؛ وذلك أن اللفظ هو عمل الشفتين يلفظ

(١) زيادة عن كتاب « نوادر الأصول » . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١

Marfat.com

الكلام عن لسانه إلى البراز . وقـوله : «لَدَيه» أى عنده، واللَّدى والعِنْد فى لغتهم السائرة بمعنًى واحد؛ وكذلك قولهم «لَدُن» فالنـون زائدة . فكأنّ الآية تنبئ أن الرقيب عَتيد عند مغلظ الكلام وهو النابُ .

وأما قوله : "تَسَنَّنُوا" وهو السواك مأخوذ من السّن، أى نَظِّفُوا السّن .

وقـوله : "لا تدخلوا علىّ ثُخْـرًا بُخْرًا" فالمحفوظ عنـدى "قُـلًا وقُلْحًا" . وسمعت الجـارود يذكر عن النّضر قال : الأقلح الذى قد اصفرّت أسنانه حتى بَخِـرت من باطنها، ولا أعرف القَحَر . والبَخَر : الذى تجد له رائحة منكرة لبشرته؛ يقال : رجل أبخر، ورجال بُخْر . حدّثنا الجارود قال حدّثنا جرير عن منصور عن أبى علىّ عن أبى جعفر بن تمـام بن العباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"اسْتَاكُوا مالكم تدخلون علىّ قُلْحًا".

الحـادية عشرة — فى قص الشارب . وهو الأخذ منـه حتى يبدوَ طَرَف الشَّـفَة وهو الإطار، ولا يجزّه فيمثّل نفسه؛ قاله مالك . وذكر ابن عبدالحكم عنه قال: وأرى أن يؤدّب من حلق شاربه . وذكر أشهب عنه أنه قال فى حلق الشارب : هذه بدع، وأرى أن يُوجع ضربًا مَن فعله . وقال ابن خُوَيْزِ منداد قال مالك : أرى أن يُوجع مَن حلقه ضربًا . كأنه يراه ممثّلا بنفسه، وكذلك بنتفـه الشعر، وتقصيره عنده أولى من حلقه . وكذلك روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان ذا لِمّة؛ وكان أصحابه من بين وافر الشَّعَر أو مُقَصِّر؛ وإنمـا حَلَق وحَلَقوا فى النُّسُك . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصّ أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعـة . وقال الطحاوى : لم نجد عن الشافعى فى هـذا شيئا منصوصًا، وأصحابه الذين رأيناهم : المُزَنِىّ والربيع كانا يُحْفِيان شواربهما، ويدلّ ذلك أنهما أخذا ذلك عن الشافعى رحمه الله تعالى . قال : وأما أبو حنيفة وزُفَر وأبو يوسف ومحمد فكان مذهبهم فى شعر الرأس والشارب أن الإحفاء أفضل من التقصير. وذكر ابن خُوَيْزِ منداد عن الشافعى أن مذهبه فى حلق الشارب كمذهب أبى حنيفة سواء. وقال أبو بكر الأثرم : رأيت أحمد بن حنبل يُحفى شاربه شديدًا، وسمعته سـئل عن السنة فى إحفاء الشارب فقال : يُحْفَى كما قال النبىّ صلى الله عليـه وسلم: " احْفُوا الشـوارب " . قال أبو عمر : إنمـا فى هـذا الباب

Marfat.com

أصلان : أحدهما — أَحْفُوا ، وهو لفـظ محتمل التأويل . والثـانى — قصّ الشارب ، وهو مفسّر ، والمفسّر يقضى على المجمل ، وهو عمــل أهل المدينة ، وهو أولى ما قيـل به فى هــذا الباب . روى الترمذىّ عن آبن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقصّ من شاربه ويقــول : " إن إبراهيم خليل الرحمن كان يفعله " . قال : هــذا حديث حسن غريب . وخرّج مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " الفطرة خمسٌ الاختتان والاستحداد وقصّ الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط " . وفيــه عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " خالفوا المشركين أَحْفُوا الشـوارب وأَوْفُوا اللّحَى[1] " . والأعاجم يقصّون لحاهم ، ويوفّرون شواربهــم أو يوفرونهما معاً ، وذلك عكس الجمال والنظافة . ذكر رَزين عن نافع أن آبن عمــر كان يُحْفِي شاربه حتى ينظر إلى الجلد ، ويأخذ هذين ، يعنى ما بين الشارب واللحية . وفى البخارى : وكان آبن عمر يأخذ من طول لحيته مازاد على القَبْضة إذا حجّ أو آعتمر . وروى الترمذىّ عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من لحيتــه من عرضها وطولها . قال : هذا حديث غريب .

الثانية عشرة — وأما الإبط فسُنّته النّتف ، كما أن سُنّة العانة الحَـلْق ، فلو عكس جاز لحصول النظافة ، والأوّل أَوْلى ؛ لأنه المتيسّر المعتاد .

الثالثة عشرة — وفَرْق الشعر : تفريقه فى المَفْرِق[2] ، وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إن آنفرقتْ عَقِيصتُه[3] فَرَق ؛ يقال : فرقت الشعر أَفْرُقــه فَرْقًا ؛ يقول : إن آنفــرق شعر رأسه فرقه فى مَفْرِقه ، فإن لم ينفرق تركه وَفْرة[4] واحدة . خرّج النسائى عن آبن عباس أن رســول الله صلى الله عليه وسـلم كان يُسدل شعره ، وكان المشركون يفـرقون شعورهم ، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء ، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ؛ أخرجه البخارى ومسلم عن أنس . قال القاضى عِياض : سَدْل الشعر إرساله ، والمراد به هاهنا عند العلماء إرساله على الجبين ، وآتخاذه كالقُصّة ؛ والفرقُ فى الشعر سُنّة ؛ لأنه الذى رجع إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا آنصرف من الجمعة

(١) إحفاء الشوارب : قص ما طال منها . وإعفاء اللحى : توفيرها . (٢) المفرق : وسط الرأس .
(٣) العقيصة : الشعر المعقوص ، وهو نحو من المضفور . (٤) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

Marfat.com

أقام على باب المسجد حرسًا يجزّون ناصية كلّ من لم يفرق شعره . وقد قيل : إن الفرق كان من سُنّة إبراهيم عليه السلام ؛ فالله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما الشَّيْب فنُــورٌ ويُكره نَتْفــه ؛ ففى النسائى وأبى داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شَيْبَةً فى الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة وكتب الله له حسنة وحطّ عنه خطيئة " .

قلت : وكما يُكره نتفه كذلك يُكره تغييره بالسواد، فأما تغييره بغير السواد فجائز؛ لقــوله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى قُحَافة — وقــد جىء به ولحيته كالثَّغامة (١) بياضا — : " غيّروا هذا بشىء وآجتنبوا السواد " . ولقد أحسن من قال :

يســـوّد أعلاها ويبيّض أصـلها * ولا خير فى الأعلى إذا فسد الأصل

وقال آخر :

يا خاضبَ الشيبِ بالحناء تســتره * سَــلِ المليك له ســترًا من النار

الخامسة عشرة — وأما الثريد فهــو أزكى الطعام وأكثره بركة ، وهو طعام العــرب ، وقد شهد له النبىّ صلى الله عليه وســلم بالفضل على سائر الطعام فقال : " فضل عائشــة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام". وفى صحيح البُسْتِىّ عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت إذا ثَرَدت غطّته شيئا حتى يذهب فَوْره وتقــول : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه أعظم للبركة " .

السادسة عشرة — قلت : وهــذا كله فى معنى ما ذكره عبد الرزاق عن آبن عبــاس ، وما قاله ســعيد بن المسيّب وغيره . ويأتى ذكر المضمضة والآستنشاق والســواك فى سورة « النساء (٢) » وحكم الآســتنجاء فى « براءة (٣) » وحكم الضيافة فى « هــود (٤) » إن شاء الله تعالى .

وخرّج مســلم عن أنس قال : وُقِّت لنــا فى قصّ الشارب وتقليم الأظفار ونتــف الإبط وحلْق العــانة ألّا نَــتْرُك أكثر من أربعين ليلة . قال علماؤنا : هذا تحديد فى أكثر المدّة ،

(١) الثغامة : نبت أبيض الثمر والزهر ؛ يشبّه بياض الشيب به . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢١٢ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢ (٤) راجع جـ ٩ ص ٦٤

Marfat.com

والمستحبّ تفقّد ذلك من الجمعة إلى الجمعـة ؛ وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي : في حديثـه نظر . وقال أبو عمـر فيه : ليس بحجة ؛ لسـوء حفظه وكثرة غلطه . وهذا الحديث ليس بالقوى من جهة النقل، ولكنه قد قال به قوم، وأكثرهم على ألّا توقيت في ذلك ، وبالله التوفيق .

السابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الإمام : القُدْوة ؛ ومنه قيل لخيط البناء : إمام ، وللطريق : إمام؛ لأنه يؤم فيـه للسالك ، أى يقصد . فالمعنى : جعلناك للناس إمامًا يأتمون بك في هذه الخصال ، ويقتدى بك الصالحون . فجعله الله تعالى إمامًا لأهل طاعته ؛ فلذلك أجتمعت الأمم على الدعوى فيه — والله أعلم — أنه كان حنيفًا .

الثامنة عشرة — قوله تعـالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ دعاء على جهة الرّغباء إلى الله تعالى ؛ أى من ذُرّيتى يا ربّ فاْجعل . وقيل : هذا منه على جهة الأستفهام عنهم؛ أى ومن ذريتى يا ربّ ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعـالى أن فيهم عاصيًا وظالمـا لا يستحق الإمامة . قال ابن عباس : سأل إبراهيم عليه السـلام أن يجعل من ذُرّيته إمام؛ فأعلمه الله أن في ذُرّيتـه من يعصى فقال : «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» .

التاسعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أصل ذُرّية ، فُعْليـة من الذّر؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صُلب آدم عليه السلام كالذّر حين أشهدهم على أنفسهم . وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا خلقهم ؛ ومنه الذّرّية وهى نَسل الثّقلين ؛ إلا أن العـرب تركت همزها ، والجمـع الذّرارى . وقرأ زيد بن ثابت « ذِرّية » بكسر الذال و«ذَرّية» بفتحها . قال ابن جِنّى أبو الفتح عثمان : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها — ذرأ ، والثانى — ذَرَر ، والثالث — ذرو ، والرابع ذرى ؛ فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق ، وأما ذَرَر فمن لفظ الذّر ومعناه ، وذلك لمـا ورد في الخبر " أن الخلق كان كالذّر " وأما الواو والياء ، فمن ذَرَوت الحَبّ وذَرَيْتُه يقالان جميعا ، وذلك قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(١) » وهـذا للطفه وخفته ، وتلك حال الذّر أيضـا . قال الجـوهرى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٣

Marfat.com

ذَرَت الريح التراب وغيره تَذْرُوه وتَذْرِيه ذَرْواً وذَرْياً أى نسفته ؛ ومنه قولهم : ذرى الناس الحنطة ، وأذريت الشيء إذا ألقيتــه ، كإلقائك الحبّ للزرع . وطَعَنه فأذراه عن ظهــر دابتــه ، أى ألقاه . وقال الخليل : إنمــا سُمُّوا ذُرِّية ؛ لأن الله تعــالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر . وقيل : أصل ذُرِّية ، ذُرُّورة ، لكن لمــا كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء ، فصارت ذُرُّويَة ، ثم أدغمت الواو فى الياء فصارت ذُرِّية . والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصّةً ، وقــد تُطلق على الآباء والأبناء ؛ ومنه قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم »(١) يعنى آباءهم .

الموفيــة عشرين — قوله تعــالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْــدِى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ اختلف فى المراد بالعَهْــد ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوّة ؛ وقاله السُّــدِّىّ . مجاهد : الإمامة . قتادة : الإيمان . عطاء : الرحمة . الضحاك : دين الله تعالى . وقيل : عهده أمره . ويطلق العهد على الأمر ، قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا »(٢) أى أمرنا . وقال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ » يعنى ألم أقدم إليكم الأمر به ؛ و إذا كان عهد الله هو أوامره فقوله : « لَا يَنَالُ عَهْــدِى ٱلظَّالِمِينَ » أى لا يجــوز أن يكونوا بمحل مــن يقبل منهم أوامر الله ولا يقيمون عليها(٣) ؛ على ما يأتى بيانه بعد هذا آنفا(٤) إن شاء الله تعالى . وروى مَعْمَر عن قتادة فى قوله تعالى : « لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ » قال : لا ينال عهد الله فى الآخرة الظالمين ؛ فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به ، وأكل وعاش وأبصر . قال الزجاج : وهذا قول حسن ، أى لا ينــال أمانى الظالمين ، أى لا أؤمنهم من عذابى . وقال ســعيد بن جبير : الظالم هنا المشرك . وقرأ ابن مسعود وطَلْحة بن مُصَرِّف « لا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظالِمُون » برفع الظالمون . الباقون بالنصب . وأسكن حمزة وحفص وابن مُحَيْصِن الياء فى « عهدى » ، وفتحها الباقون .

الحادية والعشرون — اســتدلّ جماعة من العلماء بهــذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوّة على القيام بذلك ، وهو الذى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا ينازعوا الأمر أهله ؛ على ما تقدّم(٥) من القول فيه . فأما أهل الفسوق والجور والظلم

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥ (٣) فى ب ، جـ : «ولا يفتنون عليها» .
(٤) آنفا : الآن . وفعلت الشيء آنفا : أى فى أول وقت يقرب منى . (٥) راجع جـ ١ ص ٢٦٤ طبعة ثانية .

Marfat.com

فليسوا له بأهل؛ لقوله تعالى: « لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ » ولهذا خرج ابن الزبير والحسين[1] ابن عليّ رضى الله عنهم . وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بنى أمية وقاموا عليهم ، فكانت الحرّة التى أوقعها بهم مسلم بن عقبة[2] .

والذى عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن فى منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدى السفهاء ، وشنّ الغارات على المسلمين ، والفساد فى الأرض . والأول مذهب طائفة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج ، فاعلمه .

الثانية والعشرون — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : وكل من كان ظالما لم يكن نبياً ولا خليفةً ولا حاكمًا ولا مُفتيًا ، ولا إمامَ صلاة ، ولا يُقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تُقبل شهادته فى الأحكام ، غير أنه لا يُعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحَلّ والعَقْد . وما تقدّم من أحكامه موافقًا للصواب ماضٍ غير منقوض . وقد نصّ مالك على هذا فى الخوارج والبُغاة أن أحكامهم لا تُنقض إذا أصابوا بها وجهًا من الاجتهاد، ولم يخرقوا الإجماع، أو يخالفوا النصوص . وإنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة ، وذلك أن الخوارج قد خرجوا فى أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبّعوا أحكامهم، ولا نقضوا شيئا منها، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التى أخذوا وأقاموا؛ فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرّض لأحكامهم .

الثالثة والعشرون — قال ابن خُوَيْزِمنداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما فى أيديهم مأخوذا على موجب الشريعة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطا حلالا وظلما كما فى أيدى

---

(١) فى ب، جـ : « والحسن » .	(٢) الذى فى الأصول : « عقبة بن مسلم » وهو تحريف . ويوم الحرة ذكره ابن الأثير فى النهاية فقال : « وهو يوم مشهور فى الإسلام أيام يزيد بن معاوية لما انتهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين ، وأمّر عليهم مسلم بن عقبة المرى فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين ، وعقيبها هلك يزيد . والحرة هذه : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة وكانت الوقعة بها » . ويراجع تاريخ الطبرى وابن الأثير والنجوم الزاهرة فى حوادث سنة ثلاث وستين .

Marfat.com

الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج أخذه ، وهـو كلص فى يده مال مسروق، ومال جيّد حلال قد وكله فيه رجل بجاء اللص يتصدّق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة، وإن كان قـد يجوز أن يكون اللص يتصـدّق ببعض ما سَرَق ، إذا لم يكن شيء معـروف بنهب، وكذلك لو باع أو اشترى كان العقد صحيحا لازما — وإن كان الورع التنزّه عنه — وذلك أن الأموال لا تُحرَم بأعيانها وإنما تُحرم لجهاتها . وإن كان ما فى أيديهم ظُلْمًا صُراحًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم . ولو كان ما فى أيديهم من المـال مغصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب ؛ فهـو كما لو وجد فى أيدى اللصوص وقُطّاع الطريق ، ويجعـل فى بيت المـال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد، فإذا لم يُعرف صَرَفه الإمام فى مصالح المسلمين .

قوله تعـالى : وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥)

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيّرنا لتعديه إلى مفعولين، وقد تقدّم . ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ يعنى الكعبة ﴿ مَثَابَةً ﴾ أى مرجعًا، يقال : ثاب يثوب مَثابًا ومَثابةً وثُؤوبًا وثَوَبانًا . فالمثابة مصدر وُصف به ويراد به الموضع الذى يُثاب إليه، أى يرجع إليه . قال ورَقة بن نَوْفل فى الكعبة:(١)

مَثَابًا لِأفنـاءِ القـبائل كلِّهـا * تَخُبُّ إليها اليَعْمَلاتُ الذَّوامِلُ

وقرأ الأعمش « مَثاباتٍ » على الجمع . ويحتمل أن يكون من الثواب ؛ أى يثابون هناك . وقال مجاهد : لا يقضى أحد منه وَطَرًا ؛ قال الشاعر :

جُعِـــل البيتُ مَثـابًا لهـــمُ * ليس منه الدّهرَ يقضون الوَطَرْ

والأصل مثوبة، قُلبت حركة الواو على الثاء فقلبت الواو ألفا اتباعا لثاب يثوب، وانتصب على المفعول الثانى، ودخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب أى يرجع؛ لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطرًا؛ فهى كنسّابة وعلّامة؛ قاله الأخفش . وقال غيره : هى هاء تأنيث المصدر وليست للمبالغة .

(١) الذى فى اللسان وشرح القاموس مادة « ثوب » أن البيت لأبى طالب .

Marfat.com

فإن قيل : ليس كل من جاءه يعود إليه ؛ قيل : ليس يختص بمن ورد عليـه ، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة ، ولا يعدم قاصدا من الناس ؛ والله تعالى أعلم .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ استدلّ به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحدّ في الحَرَم على المُحْصن والسارق إذا لجأ إليه؛ وعَضَدُوا ذلك بقوله تعالى : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » كأنه قال : آمنوا من دخل البيت . والصحيح إقامة الحـدود في الحَرَم ، وأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصـل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت . وإنما الخلاف هل يقتـل في الحَرَم أم لا ؟ والحَرَمُ لا يقع عليـه اسم البيت حقيقة . وقد أجمعوا أنه لو قَتل في الحَرَم قُتل به ، ولو أتى حَدًّا أُقيد منه فيه . ولو حارب فيه حُورب وقُتـل مكانه . وقال أبو حنيفة : من لجـأ إلى الحرم لا يُقتـل فيه ولا يُتابع ، ولا يزال يُضيَّق عليـه حتى يموت أو يخـرج . فنحن نقتـله بالسيف ، وهو يقتـله بالجوع والصّدّ ؛ فأيّ قتل أشدّ من هذا . وفي قوله : « وَأَمْنًا » تأكيد للأمر باستقبال الكعبة ؛ أي ليس في بيت المَقْدس هذه الفضيلة ، ولا يحج إليه الناس ، ومن استعاذ بالحَـرَم أَمِن من أن يُغار عليه . وسيأتي بيان هذا في « المـائدة »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « وَٱتَّخَذُوا » قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متّبعي إبراهيم . وهو معطوف على « جعلنا » أي جعلنا البيت مَثابةً واتخذوه مُصَلًّى . وقيل هو معطوف على تقدير إذ ، كأنه قال : وإذ جعلنا البيت مَثابةً وإذ اتخذوا ؛ فعلى الأوّل الكلام جملة واحدة ، وعلى الثاني جملتان . وقرأ جمهور القراء « وَٱتَّخِذُوا » بكسر الخاء على جهة الأمر ، قطعوه من الأوّل وجعلوه معطوفًا جملة على جملة . قال المهدويّ : يجوز أن يكون معطوفا على « اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » كأنه قال ذلك لليهود ، أو على معنى إذ جعلنا البيت ؛ لأن معناه اذكروا إذ جعلنا . أو على معنى قوله : « مَثابةً » لأن معناه ثُوبُوا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥

Marfat.com

الثانيـة — روى ابن عمر قال قال عمر : وافقتُ ربّى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر . خرّجه مسلم وغيره . وخرّجه البخارى عن أنس قال قال عمر : وافقت الله فى ثلاث ، أو وافقنى ربى فى ثلاث ... الحديث ، وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده فقال : حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا علىّ بن زيد عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربى فى أربع ؛ قلت يا رسول الله : لو صلّيت خلفَ المقام ؟ فنزلت هذه الآية : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت : يا رسول الله ، لو ضَربتَ على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليهن البَرّ والفاجر؟ فأنزل الله : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »(١) ، ونزلت هذه الآية : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(٢) ؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(٢) ، ودخلتُ على أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : لتنتهنّ أو ليبدلنّه الله بأزواج خير منكن؛ فنزلت الآية : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ »(٣) .

قلت : ليس فى هذه الرواية ذكر للأسارى، فتكون موافقة عمر فى خمس .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿مِنْ مَقَامِ﴾ المقام فى اللغة : موضع القدمين . قال النحاس : « مَقَام » مِن قام يقوم، يكون مصدرًا واسمًا للوضع . ومُقام مِن أقام ؛ فأما قول زُهَير :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهم(٤) * وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعلُ

فمعناه : فيهم أهل مقامات . واختلف فى تعيين المقام على أقوال؛ أصحها — أنه الحجر الذى تعرفه الناس اليوم الذى يصلّون عنده ركعتى طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة وغيرهم . وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما رأى البيت استلم الركن فرَمَل(٥) ثلاثا ، ومشى أربعا ؛ ثم تقدّم إلى مقام إبراهيم فقرأ : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » فصلى ركعتين قرأ فيهما بـ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » و « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » . وهذا يدل على أن ركعتى الطواف وغيرهما من الصلوات

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٣
(٤) فى نسخ الأصل : « وجوهها » . والتصويب عن الديوان . (٥) فى ب ، جـ ، ز : « نقذ » .

Marfat.com

[لأهل مكة[1] أفضل و] يدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل ، على ما يأتي .

وفي البخاري : أنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت ، وغرقت قدماه فيه . قال أنس : رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه ، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم ؛ حكاه القشيري . وقال السدي : المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه . وعن ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة[2] وعطاء : الحج كله . وعن عطاء : عرفة ومزدلفة والجمار ؛ وقاله الشعبي . النخعي : الحرم كله مقام إبراهيم ؛ وقاله مجاهد .

قلت : والصحيح في المقام القول الأول ، حسب ما ثبت في الصحيح . وخرج أبو نعيم من حديث محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل بين الركن والمقام ، أو الباب والمقام وهو يدعو و يقول : اللهم اغفر لفلان ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ما هذا " ؟ فقال : رجل استودعني أن أدعو له في هذا المقام ؛ فقال : " ارجع فقد غفر لصاحبك " . قال أبو نعيم : حدثناه أحمد بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم القاضي قال حدثنا محمد بن عاصم بن يحيى الكاتب قال حدثنا عبد الرحمن بن القاسم القطان الكوفي قال حدثنا الحارث بن عمران الجعفري عن محمد بن سوقة ؛ فذكره . قال أبو نعيم : كذا رواه عبدالرحمن عن الحارث عن محمد عن جابر ، وإنما يعرف من حديث الحارث عن محمد عن عكرمة عن ابن عباس . ومعنى «مصلى» : مدعى يدعى فيه ؛ قاله مجاهد . وقيل : موضع صلاة يصلى عنده ؛ قاله قتادة . وقيل : قبلة يقف الإمام عندها ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَعَهِدْنَا﴾ قيل : معناه أمرنا . وقيل : أوحينا . ﴿أَنْ طَهِّرَا﴾ « أن » في موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبويه : إنها بمعنى أي

(١) زيادة يقتضيها السياق ، وقد اعتمدنا في زيادتها على ما ورد في المسألة السادسة ص ١١٦ من هذا الجزء .

(٢) هذا الاسم ساقط من ب ، جـ ، ز .

Marfat.com

مفسّرة، فلا موضع لها من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . و « طَهِّرَا » قيل معناه : من الأوثان؛ عن مجاهد والزهرى . وقال عُبيد بن عُمير وسعيد بن جبير : من الآفات والرِّيَب . وقيل : من الكفار . وقال السُّدّى : ابنياه وأسّساه على طهارة ونية طهارة؛ فيجيء مثل قوله : « أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى »(١) . وقال يمان : بخّراه وخلّقاه . ﴿ بَيْتِيَ ﴾ أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهى إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك . وقرأ الحسن وآبن أبى إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : « بَيْتِيَ » بفتح الياء، والآخرون بإسكانها .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ظاهره الذين يطوفون به؛ وهو قول عطاء . وقال سعيد بن جبير : معناه للغرباء الطارئين على مكة؛ وفيه بُعْد . ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ المقيمين من بلدىّ وغريب؛ عن عطاء . وكذلك قوله : « لِلطَّائِفِينَ » . والعكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشيء؛ كما قال الشاعر(٢) :

* عَكْفَ النَّبِيط يلعبون الفَنْزَجَا(٣) *

وقال مجاهد : العاكفون المجاورون . آبن عباس : المصلّون . وقيل : الجالسون بغير طواف؛ والمعنى متقارب . ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أى المصلّين عند الكعبة . وخصّ الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما أقرب أحوال المصلّى إلى الله تعالى . وقد تقدّم(٤) معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله .

الثالثــة ــ لما قال الله تعالى « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى؛ فيكون حكمها حكمه فى التطهير والنظافة . وإنما خصّ الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حُرْمة . والأوّل أظهر، والله أعلم . وفى التنزيل « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ »(٥) وهناك يأتى حكم المساجد إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٩ (٢) هو العجاج، يصف ثورا . وصدر البيت : * فهن يعكفن به إذا حجا *

(٣) الفنزجة والفنزج (بفتح فسكون) : رقص العجم إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٩١ ، ٣٤٤ طبعة ثانية . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٢٦٤

Marfat.com

سمع صوت رجل في المسجد فقال : ما هذا ! أتدري أين أنت ! ؟ وقال حذيفة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إليّ يا أخا المنذرين يا أخا المرسلين أنْذر قومك ألا يدخلوا بيتًا من بيوتي إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نَقِيّة وفروج طاهرة وألّا يدخلوا بيتًا من بيوتي ما دام لأحد عندهم مظلمة فإني ألعنه ما دام قائمًا بين يديّ حتى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يَسمع به و بصره الذي يبصر به و يكون من أوليائي وأصفيائي و يكون جاري مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين " .

الرابعـــة — استدلّ الشافعي وأبو حنيفة والثوريّ و جماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلّى في جوفها مستقبلا حائطا من حيطانها فصلاته جائزة، و إن صلّى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة ، وكذلك من صلّى على ظهرها ؛ لأنه لم يستقبل منها شيئا . وقال مالك : لا يصلّى فيه الفرض ولا السُّنن ، و يصلّى فيه التطوع ؛ غير أنه إن صلّى فيه الفرض أعاد في الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبدا .

قلت : وهو الصحيح ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصلّ فيه حتى خرج منه؛ فلما خرج ركع في قُبُل الكعبة ركعتين وقال : " هذه القِبلة " وهذا نص .

فإن قيل : فقد روى البخاريّ عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد و بلال وعثمان بن طلحة الحَجَبِيّ البيت فأغلقوا عليهم الباب . فلما فتحوا كنت أوّل من وَلج فلقيت بلالًا فسألته : هل صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال ، نعم بين العمودين اليمانيين . وأخرجه مسلم ، وفيه قال : جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه ؛ وكان البيتَ يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلّى بمعنى دعا ، كما قال أسامة ؛ ويحتمل أن يكون صلّى الصلاة العُرْفيّة ، وإذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به .

Marfat.com

فإن قيل : فقد روى آبن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم صُوَرا فى الكعبة فكنت آتيه بماء فى الدّلو يضرب به تلك الصور . وخرّجه أبو داود الطيالسى قال : حدّثنا آبن أبى ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدّثنا عمير مولى آبن عباس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكعبة ورأى صورا قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : "قاتل الله قوما يصوّرون ما لا يخلقون" . فيحتمل أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى فى حالة مُضِيّ أسامة فى طلب الماء فشاهد بلال ما لم يشاهده أسامة ، فكان من أثبت أولى ممن نفى ؛ وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى . وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صَفْوان قال قلت لعمر بن الخطاب : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة؟ قال: صلى ركعتين.

قلنا : هذا محمول على النافلة ، ولا نعلم خلافا بين العلماء فى صحة النافلة فى الكعبة ، وأمّا الفرض فلا ؛ لأن الله تعالى عيّن الجهة بقوله تعالى : « فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » على ما يأتى بيانه[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم لما خرج : "هذه القِبلة" فعينها كما عينها الله تعالى . ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : "هذه القبلة" . وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث ، وهو أولى من إسقاط بعضها ؛ فلا تعارض ، والحمد لله .

الخامســـة — وآختلفوا أيضا فى الصلاة على ظهرها ؛ فقال الشافعى ما ذكرناه . وقال مالك : من صلّى على ظهر الكعبة أعاد فى الوقت . وقد رُوِىَ عن بعض أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة : من صلّى على ظهر الكعبة فلا شىء عليه .

السادســـة — وآختلفوا أيضا أيّما أفضل الصلاة عند البيت أو الطّواف به ؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل . وذُكِر عن آبن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور على أن الصلاة أفضل . وفى الخبر : " لولا رجال خُشّع وشيوخ رُكّع وأطفال رُضّع وبهائم رُتّع لصببنا عليكم العذاب صبّا " . ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب فى كتاب (السابق واللاحق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

عليه وسلم : "لولا فيكم رجال خُشَّع وبهائم رُتَّع وصبيان رُضَّع لصُبَّ العذاب على المذنبين صبًّا" . لم يذكر فيه «وشيوخ ركع» . وفي حديث أبي ذر "الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل" . خرّجه الآجري . والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

وفيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ يعني مكة؛ فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش . فروى أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا ، فسُمِّيت الطائف لذلك، ثم أنزلها تهامة ؛ وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرًا لا ماء ولا نبات ، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها ، وأنبت فيها أنواع الثمرات، على ما يأتي بيانه في سورة «إبراهيم»(١) إن شاء الله تعالى .

الثانية — اختلف العلماء في مكة هل صارت حرمًا آمناً بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين :

أحدهما — أنها لم تزل حرمًا من الجبابرة المسلّطين، ومن الخسوف والزلازل ، وسائر المَثُلات التي تحل بالبلاد، وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميّزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى . ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها ؛ فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يَهيج الكلبُ الصيدَ ولا ينفر منه ، حتى إذا خرجا من الحَرَم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب .

وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمناً من القحط والجدب والغارات ، وأن يرزق أهله من الثمرات؛ لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ فما بعدها .

Marfat.com

فإن ذلك يبعد كونه مقصودا لإبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى يقال : طلب من الله أن يكون فى شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحَرَم، هذا بعيد جدا .

الثانى — أن مكة كانت حلالًا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد ، وأن بدعوته صارت حَرَمًا آمنًا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنًا بعد أن كانت حلالا .

احتجّ أهل المقالة الأولى بحديث آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : " إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحُرْمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يَحِلّ القتالُ فيه لأحد قبلي ولم يَحِلّ لى إلا ساعةً من نهار فهو حرام بحُرْمة الله إلى يوم القيامة لا يُعْضَد(١) شَوْكُه ولا يُنَفَّر صيدُه ولا تُلتقط لُقَطته إلا من عَرّفها ولا يُخْتَلَى خلاها(٢)" فقال العباس : يا رسول الله إلا الإِذْخِر(٣) فإنه لقَيْنهم ولبيوتهم؛ فقال : " إلا الإذخر" . ونحوه حديث أبى شُرَيح، أخرجهما مسلم وغيره .

وفى صحيح مسلم أيضا عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها و إنى حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة و إنى دَعوت فى صاعها ومُدّها بمثْلَىْ ما دعا به إبراهيم لأهل مكة" . قال آبن عطية : «ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه ،وكون الحُرْمة مدّة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان . والثانى إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها و إظهاره ذلك بعد الدُّثور، وكان القول الأول من النبيّ صلى الله عليه وسلم ثانى يوم الفتح إخبارا بتعظيم حُرمة مكة على المؤمنين بإسناد التحريم إلى الله تعالى ، وذكر إبراهيم عند تحريم المدينة مثالاً لنفسه ، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه» . وقال الطبرى : كانت مكة حرامًا فلم يتعبّد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرّمها .

---

(١) لا يعضد : لا يقطع. (٢) الخلى (مقصور) : النبات الرطب الرقيق ما دام رطبا ؛ وآختلاؤه : قطعه .
(٣) الإذخر (بكسر الهمزة والخاء) : حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب ، ويحرّق بدل الخشب والفحم . والقين : الحدّاد .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْـلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ ﴾ تقدّم معنى الرزق(١). والثمرات جمع ثمرة ، وقد تقدّم(٢) . « مَنْ آمَنَ » بدل من أهـل ، بدل البعض من الكل . والإيمـان : التصديق ، وقد تقـدّم(٣) . ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ « مَن » فى قـوله « وَمَنْ كَفَرَ » فى موضع نصب ؛ والتقدير وأرزق من كفر ، و يجوز أن يكون فى موضع رفع بالأبتـداء ، وهى شرط والخبر « فَأُمَتِّعُهُ » وهو الجواب .

وٱختلف هل هذا القول من الله تعالى أو من إبراهيم عليه السلام؟ فقال أُبَيّ بن كعب وٱبن إسحاق وغيرهما : هو من الله تعالى، وقرءوا « فَأُمَتِّعُهُ » بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التاء. ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ بقطـع الألف وضم الراء ، وكذلك القـرّاء السبعة خلا ٱبن عامر فإنه سكّن الميم وخفّف التاء . وحكى أبو إسحاق الزجاج أن فى قراءة أُبَيّ « فنمتّعه قليـلاً ثم نضطرّه » بالنون . وقال ٱبن عباس ومجاهـد وقتادة : هذا القول من إبراهيم عليه السـلام . وقرءوا « فأمْتعه » بفتح الهمزة وسكون الميم ، « ثم ٱضطرّه » بوصل الألف وفتح الراء ؛ فكأن إبراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين ، وعليه فيكون الضمير فى « قال » لإبراهيم ، وأعيد « قال » لطول الكلام، أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل فى « قال » على قراءة الجماعة ٱسم الله تعالى ، وٱختاره النحاس ، وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة ، قال : ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلّان على غيرها ؛ أمّا نسق الكلام فإن الله تعالى خبّر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : « رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا » ثم جاء بقـوله عز وجلّ : « وَٱرْزُقْ أَهْـلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَـوْمِ ٱلْآخِرِ » ولم يفصل بينه بقال ، ثم قال بعدُ : « قَالَ وَمَنْ كَفَرَ » فكان هذا جوابا من الله، ولم يقل بعدُ : قال إبراهيم . وأمّا التفسـير فقد صح عن ٱبن عباس وسعيد بن جبير ومحمـد بن كعب . وهذا لفظ ٱبن عباس : دعا إبراهيم عليه السـلام لمن آمن دون الناس خاصّة، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن ، وأنه يمتّعه قليـلا ثم يضطّره إلى عذاب

(١) راجع المسألة الثانية والعشرين جـ ١ ص ١٧٧　　(٢) راجع المسألة الرابعة جـ ١ ص ٢٢٩

(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ١٦٢ طبعة ثانية .

Marfat.com

النـار . قال أبو جعفر : وقال الله عز وجل : « كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ »(١) وقال جل ثناؤه : « وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ »(٢) . قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن فى ذريته كفارا فخصّ المؤمنين ؛ لأن الله تعالى قال : « لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

قوله تعـالى : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ القواعد : أساسه ؛ فى قـول أبى عبيدة والفـرّاء . وقال الكسائى : هى الجُـدُر . والمعروف أنهـا الأساس . وفى الحديث : " إن البيت لمـا هُـدم أخرجت منه حجارة عظام " فقال ابن الزبير : هـذه القواعد التى رفعها إبراهيم عليه السلام . وقيل : إن القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها . ابن عباس : وضـع البيت على أركان رآها قبـل أن تُخلق الدنيا بألفى عام ثم دُحيت الأرض من تحته . والقواعد واحدتها قاعدة . والقواعد من النساء واحدها قاعد .

واختلف الناس فيمن بنى البيت أوّلا وأسّسه ؛ فقيل : الملائكة . رُوى عن جعفر بن محمد قال : سـئل أبى وأنا حاضر عن بَدْء خلق البيت فقال : إن الله عز وجل لمـا قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَـةً » قالت الملائكة : « أَتَجْعَـلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ » فغضب عليهم ؛ فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضى الله عنهم ، وقال لهم : ابنوا لى بيتًا فى الأرض يتعوّذ به من سخطت عليه من بنى آدم ، و يطوف حوله كما طفتم حول عرشى ، فأرضى عنـه كما رضيت عنكم ؛ فبنوا هذا البيت .

وذكر عبد الرزاق عن ابن جُريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهمـا أن الله عز وجل أوحى إلى آدم : إذا هبطت ابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٦ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٨

Marfat.com

فى السماء . قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حِرَاء، ومن طُور سينا ، ومن لُبنان، ومن الجُودِىّ، ومن طُورزيتا؛ وكان رُبْضه[1] من حِراء . قال الخليل : والرُّبْض هاهنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر؛ ومنه يقال لما حول المدينة : رَبَض . وذكر الماوردىّ عن عطاء عن ابن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم ، اذهب فابن لى بيتا وطُف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطّى وطُوِيَت له الأرض ، وقُبضت له المفازة؛ فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عُمرانا حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام ، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أسّ ثابت على الأرض السابعة السُّفلى ، وقذفت إليه الملائكة بالصَّخر، فما يُطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا . وقد رُوِىَ فى بعض الأخبار : أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، فضُربت فى موضع الكعبة ليسكن إليها و يطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله عز وجل آدم ثم رُفعت . وهذا من طريق وَهْب بن مُنَبِّه . وفى رواية : أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده كذلك إلى زمان الغرق ، ثم رفعه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يُدعى البيت المعمور . رُوِىَ هذا عن قتادة ذكره الحَلِيمى فى كتاب « منهاج الدين » له ، وقال : يجوز أن يكون معنى ما قال قتادة من أنه أهبط مع آدم بيت ، أى أهبط معه مقدار البيت المعمور طُولا وعَرْضا وسُمْكا، ثم قيل له : ابن بقدره، وتحرّى[2] أن يكون بحياله ، فكان حياله موضع الكعبة، فبناها فيه . وأما الخيمة فقد يجوز أن تكون أنزلت وضُربت فى موضع الكعبة ، فلما أمر ببنائها فبناها كانت حول الكعبة طمأنينة لقلب آدم صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم رفعت ؛ فتتفق هذه الأخبار . فهذا بناء آدم عليه السلام ، ثم بناه إبراهيم عليه السلام . قال ابن جريج وقال ناس : أرسل الله سحابة فيها رأس ؛ فقال الرأس : يا إبراهيم ، إن ربّك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ؛ فجعل ينظر إليها ويخط قدرها ؛ ثم قال الرأس : إنه قد فعلتَ ؛ فحفر فأبرز عن أساس ثابت فى الأرض . ورُوِىَ عن علىّ بن

(١) الربض (بضم الراء ، وبسكون الباء وضمها) : الأساس . وبفتحهما : ما حول المدينة .
(٢) فى ا ، جـ ، ز : « ويجوز أن يكون » .

Marfat.com

أبى طالب رضى الله عنه : أن الله تعالى لمـا أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنـه إسماعيل وأمّه هاجر ، وبعث معه السّكينة[(١)] لهـا لسان تتكلّم به يَغـدُو معها إبراهيم إذا غَدت ، ويروح معها إذا راحت ، حتى انتهت به إلى مكة ؛ فقالت لإبراهيم : ابْن على موضعى[(٢)] الأساس ؛ فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى إلى موضع الرُّكن ؛ فقال لابنـه : يا بُنَىّ ، ابغنى حجرا أجعله عَلمًا للناس ؛ فجاءه بحجر فلم يرضه ، وقال : ابغنى غيره ؛ فذهب يلتمس فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه ؛ فقال : يا أبة ، مَن جاءك بهذا الحجر ؟ فقال : من لم يَكلنى إليـك . ابن عباس : صاح أبو قُبيس[(٢)] : يا إبراهيم ، يا خليل الرحمن ، إن لك عندى وديعة فخذها ؛ فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنـة كان آدم قد نزل به من الجنة ؛ فلمـا رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربَّعـة فيها رأس فنادت : أن ارفعا على تربيعى . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام . ورُوِىَ أن إبراهيم وإسماعيل لمـا فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت . روى الترمذى الحكيم حدّثنا عمر بن أبى عمر حدّثنى نعيم بن حماد حدّثنا عبد الوهاب بن همام أخو عبد الرزاق عن ابن جُريج عن ابن أبى مُليكة عن ابن عبـاس قال : كانت الخيـل وَحْشًا كسائر الوحش ، فلمـا أذن الله لإبراهيم وإسمـاعيل برفع القواعد قال الله تبارك اسمـه : "إنى معطيكما كنزا ادّخرته لكما" ثم أوحى إلى إسماعيل أنِ اخرج إلى أَجْياد فادع يأتك الكنز . فخرج إلى أجياد — وكانت وطنا — ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز ، فألهمه ؛ فلم يبـق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها وذلّلها له ، فاركبوها واعلفوها فإنهـا ميامين ، وهى ميراث أبيكم إسماعيل ؛ فإنمـا سُمِّىَ[(٣)] الفرس عربيًّا لأنّ إسماعيل أمر بالدعاء وإياه أتى . وروى عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن مُنَبِّه ، قال : أوّل من بنى البيت بالطين والحجارة شِيث عليه السـلام . وأما بنيان قريش له فمشهور ، وخبر الحيّـة فى ذلك مذكور ، وكانت تمنعهم من هَدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فعجُّوا إلى الله تعالى وقالوا : ربّنا ، لم تُرَعْ ! أردنا تشريف بيتك وتزيينـه ، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فمـا بدا لك فافعل ، فسمعوا

---

(١) السكينة (بفتح فكسر) : ريح خجوج ، أى سريعة الممر .
(٢) فى جـ : «ابن علىّ موضع الأساس» . وأبو قبيس : اسم الجبل المـ

Marfat.com

خَوَاتًا من السماء — والحَوَات : حفيف جناح الطير الضخم — فإذا هو بطائر أعظم من النّسر ، أسود الظهر أبيض البطن والرجلين ؛ فغرز مخاليبه فى قفا الحيّة ، ثم انطلق بها تجر ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحو أجياد ؛ فهدمتها قريش وجعلوا يبنونها بحجارة الوادى تحملها قريش على رقابها ، فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا ، فبينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يحمل حجارة من أجياد وعليه نَمِرة(١) فضاقت عليه النَّمِرة فذهب يرفع النَّمِرة على عاتقه ، فتُرَى عورته من صغر النمرة ؛ فنودى : يا محمد ، خَمِّر عَوْرَتك ؛ فلم يُرَ عُرْيانًا بعدُ . وكان بين بنيان الكعبة و بين ما أنزل عليه خمس سنين ، وبين مخرجه و بنائها خمس عشرة سنة . ذكره عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن عثمان عن أبى الطفيل . وذكر عن معمر عن الزهرى : حتى إذا بنوها و بلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أىّ القبائل تلى رفعه ؟ حتى شَجَر بينهم ؛ فقالوا : تعالَوْا نحكّم أول من يطلع علينا من هذه السكّة ؛ فاصطلحوا على ذلك ؛ فاطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وِشاح نَمِرة ، فحكّموه فأمر بالركن فوُضع فى ثوب ، ثم أمر سيّد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ؛ فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت أن قريشا وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية فلم يُدْرَ ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا فيه : « أنا الله ذو بَكّة خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض وصوّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها(٢)، مباركٌ لأهلها فى الماء واللبن » . وعن أبى جعفر محمد بن علىّ قال : كان باب الكعبة على عهد العماليق وجُرْهُم و إبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بنته قريش . خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجَدْر(٣) أمن البيت هو ؟ قال : "نعم" قلت : فلم لم يدخلوه [فى البيت](٤) ؟ قال : "إنّ قومك قَصّرتْ بهم النفقة". قلت :

(١) النمرة : كل شملة مخططة من مآزر العرب . (٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس ، والأحمر . (٣) الجدر : (بفتح الجيم وإسكان الدال) : حِجر الكعبة (بكسر الحاء) .
(٤) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : " فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديثٌ عهدُهم فى الجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم لنظرتُ أن أُدخلَ الجـدْر فى البيت وأن أُلزِق بابه بالأرض " . وخرج عن عبـد الله بن الزبير رضى الله عنـه قال : حدّثتنى خالتى (يعنى عائشة) رضى الله عنها قالت قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لولا أن قومك حديثُو عَهْدٍ بشِرْك لهدمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلتُ لها بابين بابا شرقيًا وبابًا غربيًا وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْـر فإن قريشا آقتصرتها حيث بنت الكعبة " . وعن عروة عن [أبيه عن](١) عائشة قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا حداثة [عهد](١) قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهـيم فإن قريشًا حين بنت الكعبة آستقصرتْ ولجعلتُ لهـا خَلْفًا " . وفى البخارى قال هشام بن عروة : يعنى بابًا . وفى البخارى أيضا : " لجعلت لها خَلْفين " يعنى بابين؛ فهذا بناء قريش . ثم لمـا غزا أهل الشام عبدَ الله بن الزبير ووَهَت الكعبة من حريقهم، هدمها آبن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحِجْر ، حتى أبدى أُسًّا نظر الناس إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا ، فلما زاد فيه آستقصره ، فزاد فى طوله عشرة أذرع ، وجعل لها بابين أحدهما يُدخل منه ، والآخر يُخرج منه؛ كذا فى صحيح مسلم ، وألفاظ الحديث تختلف . وذكر سـفيان عن داود بن شابور عن مجاهـد قال : لمـا أراد آبن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيه(٢) قال للناس : آهدموا ؛ قال : فأبَوْا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب . قال مجاهد : فخرجنا إلى مِنًى فأقمنا بها ثلاثًا ننتظر العذاب . قال : وآرتقى آبن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه ؛ فلما رأوا أنه لم يصبه شىء آجترءوا على ذلك ؛ قال : فهدموا . فلما بناها جعل لهـا بابين : بابًا يدخلون منه ، وبابًا يخرجون منه ، وزاد فيه ممـا يلى الحِجر ستة أذرع ، وزاد فى طولها تسعة أذرع . قال مسلم فى حديثه : فلما قُتل آبن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك آبن مروان يخبره بذلك ، ويخبره أن آبن الزبير قد وضع البناء على أُسٍّ نظر إليه العدول من أهل

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) كذا فى نسخ الأصل . ولعل تذكير الضمير على معنى البيت .

مكة ؛ فكتب إليه عبد الملك : إنّا لسنا من تلطيخ ٱبن الزبير في شيء[١] ؛ أما ما زاد في طوله فأقِرّه ، وأما ما زاد فيه من الحِجر فردّه إلى بنائه ، وسُدّ الباب الذي فتحه ؛ فنقضه وأعاده إلى بنائه . في رواية : قال عبد الملك : ما كنت أظن أبا خُبيب (يعني ٱبن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها ؛ قال الحارث بن عبد الله : بلى ، أنا سمعته منها ؛ قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن قومك ٱستقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدتُ ما تركوا منه[٢] فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلُمّي لأرِيَكِ ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع " . في أخرى : قال عبد الملك : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ٱبن الزبير . فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار .

ورُوِى أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة ، وأن يردّه على بناء ٱبن الزبير لما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وٱمتثله ٱبن الزبير ؛ فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ، ألّا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه ؛ فتذهب هيبته من صدور الناس . وذكر الواقدى : حدّثنا معمر عن همام بن منبه سمع أبا هريرة يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ أسعد الحِميرى ، وهو تُبّع ، وهو أوّل من كسا البيت ، وهو تُبّع الآخر . قال ٱبن إسحاق : كانت تُكْسَى القباطيّ[٣] ثم كسيت البُرُد ، وأوّل من كساها الديباج الحجاج .

قال العلماء : ولا ينبغى أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء ، فإنه مهدًى إليها ، ولا ينقص منها شيء . روى عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طِيب الكعبة يستشفى به ؛ وكان إذا رأى الخادم يأخذ منه قَفَدها قَفْدة[٤] لا يألو أن يوجعها . وقال عطاء : كان أحدنا إذا أراد أن يستشفى به جاء بطِيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

---

(١) قوله : إنا لسنا ... الخ ، قال النووي : « يريد بذلك سبه وعيب فعله ؛ يقال : لطخته أى رميته بأمر قبيح » .
(٢) كان في صحيح مسلم . وفي نسخ الأصل : « تمامه » .
(٣) القباطيّ (جمع القبطية بضم القاف) : ثياب كان بيض رقاق تعمل بمصر ، وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس .
(٤) القفد (بفتح فسكون) : صفع الرأس ببسط الكف من قبل القفا .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ المعنى : ويقولان « رَبَّنَا » ؛ فحذف . وكذلك هى فى قراءة أُبَىّ وعبد الله بن مسعود : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ويقولان رَبَّنَا تقبّل مِنَّا » .

وتفسير إسماعيل : اسمع يا الله؛ لأن « إيل » بالسُّريانية هو الله، وقد تقدّم(١) . فقيل : إن إبراهيم لما دعا ربّه قال : اسمع يا إيل؛ فلما أجابه ربّه ورزقه الولد سمّاه بما دعاه . ذكره الماوَرْدِىّ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى قد أتينا عليهما فى الكتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أى صيّرنا، و« مسلمين » مفعول ثان؛ سألا التثبيت والدوام . والإسلام فى هذا الموضع : الإيمان والأعمال جميعا؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ(٢) » ففى هذا دليل لمن قال : إن الإيمان والإسلام شىء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى فى الآية الأخرى : « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(٣) » . وقرأ ٱبن عباس وعوف الأعرابى « مسلمين » على الجمع .

قوله تعالى : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أى ومن ذريّتنا فاجعل؛ فيقال : إنه لم يدع نبىّ إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته ولهذه الأمة . و« من » فى قوله : « ومن ذُرِّيَّتِنَا » للتبعيض؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . وحكى الطبرى(٤) : أنه أراد بقوله « ومن ذُرِّيَّتِنَا » العرب خاصة . قال السهيلى : وذريتهما

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ٤٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٤٨
(٤) اضطربت الأصول فى ذكر كلام السهيلى؛ وقد ذكر الطبرى فى تاريخه خبر أولاد إسماعيل (ص ٣٥١ قسم أول)، وابن الأثير (جـ ١ ص ٨٨) وابن هشام فى سيرته (ص ٤) طبع أوربا؛ فيراجع .

Marfat.com

العرب؛ لأنهم بنو نَبْت بن إسماعيل، أو بنـو تيمن بن إسماعيل. ويقال: قَيْذَر بن نبت بن إسماعيل. أما العدنانية فمن نبت، وأما القحطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل، أو تيمن على أحد القولين. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم. والأمّة: الجماعة هنـا، وتكون واحدا إذا كان يُقتدى به في الخير؛ ومنه قوله تعالى: «إنّ إبراهيمَ كانَ أُمّةً قانِتًا لِلّهِ»[1]، وقال صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نُفَيل: "يُبعث أمّةً وحده" لأنه لم يشرك في دينه غيره، والله أعلم. وقد يطلق لفظ الأمّة على غير هذا المعنى؛ ومنه قوله تعـالى: «إنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمّـةٍ»[2] أي على دين وملة؛ ومنـه قوله تعالى: «إنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً»[3]. وقد تكون بمعنى الحين والزمان؛ ومنه قوله تعالى: «وَٱدّكَرَ بَعْدَ أُمّـةٍ»[4] أي بعد حين وزمان. ويقال: هذه أَمَة زيد؛ أي أُمّ زيد. والأمّة أيضا: القامة؛ يقال: فلان حسن الأمّة؛ أي حسن القامة؛ قال[5]:

وإنّ معاويةَ الأكرمِيـ * ـنَ حسانُ الوجوه طِوالُ الأُمَمْ

وقيل: الأمّة الشجة التي تبلغ أمّ الدماغ؛ يقال: رجل مأموم وأميم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ «أرنا» من رؤية البصر، فتتعدّى إلى مفعولين؛ وقيل: من رؤية القلب؛ ويلزم قائله أن يتعدّى الفعل منـه إلى ثلاثة مفاعيل. قال ابن عطيـة: وينفصل[6] بأنه يوجد معـدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين [كغير المعـدّى][7]؛ قال حُطائط بن يعفُر أخو الأسود بن يعفُر:

أَرِيني جـواداً مات هزْلًا لأنني[8] أرى ما ترَيْنَ أو بخيلاً مُخَـلَّدَا

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير وابن مُحَيْصن والسُّدّى وروْح عن يعقوب ورُوَيْس والسُّوسى «أرْنا» بسكون الراء في القرآن؛ واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو عمرو باختلاس كسرة

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٨
(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٠١ (٥) القائل هو الأعشى؛ كما في اللسان. (٦) قال أبو حيان في البحر: «وقوله: ينفصل ... الخ. يعني أنه قد استعمل في اللسان العربي متعدّيا إلى اثنين ومعه همزة النقل كما استعمل متعدّيا إلى اثنين بغير الهمزة». (٧) زيادة عن ابن عطية. (٨) ويروى «لعلى»، ولأن بمعنى لعل.

Marfat.com

الراء ، والباقون بكسرها ؛ وآختاره أبو عبيد . وأصله أَرْئِنَا بالهمز ؛ فمن قرأ بالسكون قال : ذهبت الهمزة وذهبت حركتها وبقيت الراء ساكنة على حالها ؛ وآستدلّ بقول الشاعر :

أَرْنا إداوة عبــد الله نملــؤها * من ماء زمزم إن القوم قد ظَمِئوا

ومن كسر فإنه نقــل حركة الهمزة المحذوفة إلى الراء ؛ وأبو عمرو طلب الخفّــة . وعن شُجاع ابن أبى نصر[1] وكان أمينا صادقا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فذاكره أشياء من حروف أبى عمرو فلم يرد عليه إلا حرفين : هذا ، والآخر « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا » مهمــوزا .

قوله تعــالى : ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ يقال : إن أصل النُّسك فى اللغة الغسل ؛ يقال منه : نسك ثوبه إذا غسله . وهو فى الشرع آسم للعبادة ؛ يقال : رجل ناسك إذا كان عابدا .

وآختلف العلماء فى المراد بالمناسك هنا ؛ فقيل : مناسك الحج ومعالمه ؛ قاله قتادة والسُّدى . وقال مجاهد وعطاء وآبن جُريج : المناسك المذابح ؛ أى مواضع الذبح . وقيل : جميع المتعبَّدات . وكل ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له مَنْسَك ومَنْسِك . والناسك : العابد . قال النحاس : يقال نَسَك يَنْسُك ، فكان يجب أن يقال على هذا : مَنْسُك ، إلا أنه ليس فى كلام العرب مَفْعُل . وعن زهير بن محمد قال : لمــا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أىْ رَبّ ، قــد فرغتُ فأرنا مناسكنا ؛ فبعث الله تعــالى إليه جبريل فحجّ به ، حتى إذا رجع من عَرَفة وجاء يوم النّحر عَرَض له إبليس ، فقال له : أحصبه ، فحَصَبه بسبع حَصَيات ، ثم الغــد ثم اليوم الثالث ، ثم علا ثَبيرًا[2] فقال : يا عباد الله ، أجيبوا ؛ فسمع دعوته مَنْ بين الأبحر ممن فى قلبه مثقال ذَرّة من إيمان ، فقال : لَبَّيْكَ ، اللَّهُمّ لَبَّيْك ؛ قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا ، لولا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليها . وأول من أجابه أهــل اليمن . وعن أبى مِجْلَز قال : لمــا فرغ إبراهيم مــن البيت جاءه جبريل عليه السلام فأراه الطواف

(١) فى ا ، ب ، ز : « أبى نصرة » . وفى جـ ، ح : « أبى بصرة » . والتصويب عن طبقات القرّاء وتهذيب التهذيب .
(٢) ثبير : جبل بين مكة ومنى وهو على يمين الذاهب الى مكة .

Marfat.com

بالبيت — قال : وأحسبه قال : والصَّفَا والمَرْوَة — ثم آنطلقا إلى العَقَبة فعَرَض لهما الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حَصَيات ، فرَمى وكَبَّر ، وقال لإبراهيم : اِرم وكَبِّر ، فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم آنطلقا إلى الجَمْرة الوسطى ، فعرَض لهما الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حَصَيات ، وقال : اِرم وكَبِّر ، فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم أتيا الجمرة القُصْوَى فعَرَض لهما الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات وقال : اِرم وكَبِّر ، فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم أتى به جَمْعًا[(١)] فقال : هاهنا يجمع الناس الصلوات . ثم أتى به عَرَفات فقال : عَرَفْتَ ؟ فقال نعم ؛ فمن ثَمَّ سُمِّيَ عرفات . وروى أنه قال له : عَرَفْتَ ، عرفتَ ، عرفتَ ؟ أى مِنًى والجَمْع وهذا ؛ فقال نعم ؛ فسُمِّيَ ذلك المكان عرفات . وعن خُصَيْف بن عبد الرحمن أن مجاهدا حدّثه قال : لما قال إبراهيم عليه السلام : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا » أى الصَّفَا والمَرْوَة ، وهما من شعائر الله بنصّ القرآن ؛ ثم خرج به جبريل ، فلما مَرّ بجَمْرة العَقَبة إذا إبليس عليها ، فقال له جبريل : كَبِّر وآرْمِه ، فارتفع إبليس إلى الوسطى ، فقال جبريل : كَبِّر وآرْمِه ، ثم فى الجمرة القُصْوَى كذلك . ثم آنطلق به إلى المَشْعر الحرام ، ثم أتى به عَرَفة فقال له : هل عَرَفتَ ما أريتك ؟ قال نعم ؛ فسُمِّيَتْ عرفات لذلك فيما قيل ؛ قال : فأذِّنْ فى الناس بالحج ؛ قال : كيف أقول ؟ قال قل : يأيها الناس ، أجيبوا رَبَّكم ، ثلاث مرار ، ففعل ؛ فقالوا : لَبَّيْكَ ، اللَّهُمّ لَبَّيْكَ . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاج . وفى رواية أخرى : أنه حين نادى آستدار فدعا فى كل وجه ، فلَبَّى الناس من كل مشرق ومغرب ، وتطأطأت الجبال حتى بَعُدَ صوته . وقال محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه من بناء البيت الحرام جاءه جبريل عليه السلام فقال له : طُفْ به سبعًا ؛ فطاف به سبعًا هو وإسماعيل عليهما السلام ، يستلمان الأركان كلها فى كل طواف ؛ فلما أكملا سبعًا صليا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها : الصَّفَا والمَرْوَة ومِنًى والمُزْدَلِفة . قال :

(١) جمع (بفتح فسكون) : المزدلفة .

فلمـا دخل مِنًى وهبط من العَقَبة تمثّل له إبليس ... ؛ فذكر نحو ماتقدم . قال آبن إسحاق : وبلغنى أن آدم عليـه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليه السلام . وقال : حجّ إسحاق وسارة من الشام، وكان إبراهيم عليه السلام يحجّه كل ســنة على البراق، وحجّته بعد ذلك الأنبياء والأمم . وروى محمـد بن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أمّته لحق مكة فتعبّد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا فمات بها نوح وهود وصالح وقبورهم بين زمزم والحِجـر" . وذكر آبن وهب أن شُعَيْبًا مات بمكة هو ومن معـه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربى مكة بين دار النَّدْوَة و بين بنى سَهْم . وقال آبن عباس : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السـلام؛ فقبر إسماعيل فى الحِجْر، وقبر شعيب مقابل الحَجَر الأسود . وقال عبد الله بن ضمرة السَّلولى : مابين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًّا جاءوا حجاجًا فقُبِروا هنالك، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعـالى : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ آختلف فى معنى قول إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام : « وَتُبْ عَلَيْنَا » وهم أنبياء معصومون؛ فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام، لا أنهما كان لهما ذنب .

قلت : وهذا حسن ، وأحسن منه أنهما لمـا عرفا المناسك و بنيا البيت أرادا أن يبيّنا للناس ويعرّفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصّل من الذنوب وطلب التوبة . وقيل : المعنى وَتُبْ على الظلمة منّا . وقد مضى الكلام فى عصمة الأنبياء عليهم السلام (١) فى قصة آدم عليه السلام، وتقدّم القول فى معنى قوله : « إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٢) فأغنى عن إعادته .

قوله تعـالى : رَبَّنَـا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

(١) يراجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية . (٢) يراجع جـ ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة أُبَيّ « وَابْعَثْ فِي آخِرِهِمْ رَسُولًا مِنهم » . وقد روى خالد بن مَعْدَان : أن نفرا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ؛ قال : " نعم أنا دعوة أبى إبراهيم وبُشْرَى عيسى " . و « رسولًا » أى مرسَلًا ؛ وهو فعـيل من الرسالة . قال ابن الأنبارى : يشبه أن يكون أصله من قولهم : ناقةٌ مِرْسالٌ ورَسْلَة ؛ إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النُّوق . ويقال للجماعة المهملة المرسَلة : رَسَلٌ ، وجمعه أرسال . ويقال : جاء القوم أرسالا ، أى بعضهم فى أثر بعض ؛ ومنه يقال للبن رِسْلٌ ؛ لأنه يرسل من الضرع .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ « الكتاب » : القرآن . و « الحكمة » : المعرفة بالدِّين ، والفقه فى التأويل ، والفهم الذى هو سجيّة ونور من الله تعالى ؛ قاله مالك ، ورواه عنه ابن وهب ، وقاله ابن زيد . وقال قتـادة : « الحكمة » السُّنة وبيان الشرائع . وقيـل : الحُكْم والقضاء خاصّـةً ؛ والمعنى متقارب . ونُسب التعليم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطى الأمور التى ينظر فيها ، ويعلم طريق النظر بمـا يلقيه الله إليه من وَحْيه . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى يطهّرهم من وَضَر[1] الشرك ؛ عن ابن جُريج وغيره . والزكاة : التطهير ، وقد تقدّم[2] . وقيل : إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ . والكتاب معانى الألفاظ . والحكمة الحُكْم ؛ وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيّد ، ومفسّر ومُجْمَـل ، وعموم وخصوص ، وهو معنى ما تقدّم ، والله تعالى أعلم . ﴿ وَالْعَزِيزُ ﴾ معناه المنيع الذى لا ينال ولا يغالب . وقال ابن كَيْسان : معناه الذى لا يُعجزه شيء ؛ دليله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ[3] » . الكسائى : « العزيز » الغالب ؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ[4] » . وفى المَثَل : « مَن عَزّ بَزّ » أى من غلب سَلَب . وقيل : « العزيز » الذى لا مِثل له ؛ بيانه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[5] » . وقد زدنا هذا المعنى بياناً فى اسمه العزيز فى كتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وقد تقدّم معنى « الحكيم[6] » والحمد لله .

(١) الوضر : الوسخ .	(٢) يراجع ج ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية .	(٣) راجع ج ١٤ ص ٣٦١
(٤) راجع ج ١٥ ص ١٧٤	(٥) راجع ج ١٦ ص ٨	(٦) راجع المسألة الثالثة ج ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ « مَن » آستفهام فى موضع رفع بالابتداء ، و « يَرْغَبُ » صلة « مَن » . « إلا مَنْ سَفِه نَفْسَه » فى موضع الخبر . وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ؛ أى وما يرغب ، قاله النحاس . والمعنى : يزهد فيها وينأى بنفسه عنها ؛ أى عن الملّة وهى الدّين والشّرع . « إلا مَن سَفِه نَفْسَه » قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، رَغِبُوا عن مِلّة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانيـة بِدْعةً ليست من الله تعالى . قال الزجاج : « سَفِه » بمعنى جهل ؛ أى جَهِل أمر نفسه فلم يفكر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن « سفِه » بكسر الفاء يتعدّى كسَفَّه بفتح الفاء وشدّها . وحكى عن أبى الخطاب و يونس أنها لغة . وقال الأخفش : « سَفِه نَفْسَه » أى فعل بها من السَّفه ما صار به سفيهاً . وعنه أيضا هى لغـة بمعنى سفّه ؛ حكاه المهدوِىّ ، والأول ذكره الماوَرْدِىّ . فأمّا سَفُه بضم الفاء فلا يتعدّى ؛ قاله المبرد وثعلب . وحكى الكسائى عن الأخفش أن المعنى جَهِل فى نفسه ، فحذفت « فى » فآنتصب . قال الأخفش : ومثله « عُقْـدَة النِّكاح »(١) ، أى على عقدة النكاح . وهذا يجرى على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم : ضَرب فلانٌ الظّهرَ والبطنَ ؛ أى فى الظهر والبطن . الفرّاء : هو تمييـز . قال آبن بحر : معناه جهل نفسـه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء ؛ فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قلت : وهذا هو معنى قول الزجاج ؛ فيفكر فى نفسه مِن يَدَيْن يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعين يبصر بها ، وأذن يسمع بها ، ولسان ينطق به ، وأضراس تنبت له عند غناه عن الرضاع وحاجته إلى الغذاء ليطحن بها الطعام ، ومعدة أعدّت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد إليها صَفْوه ، وعروق ومعابر ينفذ فيها إلى الأطراف ، وأمعاء يَرْسُب إليها ثُفل الغذاء ويبرز من أسفل البدن ؛ فيستدلّ بهذا على أن له خالقا قادرا عليما حكيما ؛ وهذا معنى قوله تعالى :

(١) أى فى قوله تعالى : « ولا تعزموا عقدة النكاح » راجع جـ ٣ ص ١٩٢

Marfat.com

«وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» . أشار إلى هذا الخطّابيّ رحمه الله تعالى . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة «والذّاريات»(١) إن شاء الله تعالى .

وقد آستدلّ بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعةٌ لنا إلا ما نُسخ منها؛ وهذا كقوله : «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ»(٢) ، «أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ»(٣) . وسيأتى بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ أى آخترناه للرسالة فجعلناه صافيًا من الأدناس . والأصل فى «ٱصْطَفَيْنَاهُ» آصتفيناه ، أبدلت التاء طاء لتناسبها(٤) مع الصاد فى الإطباق . واللفظ مشتق من الصَّفْوة ؛ ومعناه تخيّر الأصفى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ الصالح فى الآخرة هو الفائز . ثم قيل : كيف جاز تقديم «فِي ٱلْآخِرَةِ» وهو داخل فى الصّلة؛ قال النحاس : فالجواب أنه ليس التقدير إنه لمن الصالحين فى الآخرة ، فتكون الصلة قد تقدّمت ؛ ولأهل العربية فيه ثلاثة أقوال: منها أن يكون المعنى وإنه صالح فى الآخرة، ثم حذف . وقيل: «فى الآخرة» متعلّق بمصدر محذوف ؛ أى صلاحه فى الآخرة . والقول الثالث : أن «الصالحين» ليس بمعنى الذين صلحوا ، ولكنه آسم قائم بنفسه؛ كما يقال الرجل والغلام .

قلت : وقول رابع أن المعنى وإنه فى عمل الآخرة لمن الصالحين؛ فالكلام على حذف مضاف . وقال الحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير، مجازه ولقد آصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين . وروى حجّاج بن حجّاج — وهو حجاج الأسود ، وهو أيضا حجاج الأحول المعروف بزِقّ العَسَل — قال: سمعت معاوية بن قُرّة يقول: اللّهمّ إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم ، اللّهمّ كما أصلحتهم فأصلحنا ، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فآرزقنا أن نعمل بطاعتك ، وآرض عنا .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٤٠		(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠١
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨		(٤) فى ا : «لتشابهها ... » .

Marfat.com

قوله تعـالى : إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

العامل فى « إذ » قوله : « ٱصْطَفَيْنَاهُ » أى ٱصطفيناه إذ قال له ربُّه أسلم . وكان هذا القول من الله تعـالى حين ٱبتلاه بالكوكب والقمر والشمس . قال ٱبن كَيْسان والكلبي : أى أخلص دينك لله بالتَّوحيد . وقيل : ٱخضع وٱخشع . وقال ٱبن عباس : إنمـا قال له ذلك حين خرج من السَّرَب[1]، على ما يأتى ذكره فى « الأنعـام[2] » . والإسلام هنا على أتم وجوهه . والإسلام فى كلام العرب : الخضوع والآنقياد للستسلم . وليس كل إسلام إيماناً؛ وكل إيمان إسلام؛ لأن من آمن بالله فقد ٱستسلم وٱنقاد لله . وليس كل من أسلم آمن بالله؛ لأنه قـد يتكلم فَزَعًا[3] من السيف ، ولا يكون ذلك إيمـانا ؛ خلافا للقدرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمـان؛ فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن؛ لقوله : « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ[4] » فدلّ على أن الإسلام هو الدّين، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن. ودليلنا قوله تعـالى : « قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا[5] » الآية . فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمنا ؛ فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمنًا ؛ وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وَقّاص لمـّا قال له : أعْطِ فلانا فإنه مؤمن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” أوَ مسلم “ الحديث ، خرّجه مسلم ؛ فدل على أن الإيمـان ليس الإسلام، فإن الإيمـان باطن، والإسلام ظاهر، وهذا بَيِّن . وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام، والإسلام ويراد به الإيمـان ؛ للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه ؛ كالإسـلام الذى هو ثمرة الإيمـان ودلالة على صحته، فٱعلمه . وبالله التوفيق .

قوله تعـالى : وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيـهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

(١) السرب (بالتحريك) : الحفير، وبيت تحت الأرض .
(٢) راجع ٧ ص ٢٤ (٣) فى ج : « فرقا » .
(٤) راجع ج ٤ ص ٤٣ (٥) راجع ج ١٦ ص ٣٤٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى بالملة؛ وقيــل : بالكلمة التى هى قــوله : « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وهو أصوب ؛ لأنه أقرب مذكور ، أى قولوا أسلمنا . ووَصّى وأَوْصى لغتان لقريش وغيرهم بمعنًى ؛ مثــل كَرّمنا وأكرمنا ؛ وقرئ بهما . وفى مصحف عبد الله « ووَصّى » . وفى مصحف عثمان « وأَوْصى » وهى قراءة أهل المدينــة والشام . الباقون « ووَصّى » وفيه معنى التكثير . « وإبراهيمُ » رفع بفعله ، « ويعقوبُ » عطف عليه؛ وقيل : هو مقطوع مستأنف، والمعنى : وأوصى يعقوب وقال يا بَنِيّ إن الله ٱصطفى لكم الدين ؛ فيكون إبراهيم قد وَصّى بنيه ، ثم وَصّى بعده يعقوبُ بنيه .

وبنو إبراهيم : إسماعيل ، وأمّه هاجَر القبطية ، وهو أكبر ولده؛ نقله إبراهيم إلى مكّة وهو رضيع . وقيل : كان له سنتان ؛ وقيل : كان له أربع عشرة ســنة؛ والأول أصح؛ على ما يأتى فى سورة «إبراهيم» [1] بيانه إن شاء الله تعالى . ووُلد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة . وقيــل : مائة وثلاثون . وكان ســنّه لمــا مات أبوه إبراهيم عليهما الســلام تسعا وثمانين ســنة ؛ وهو الذّبيح فى قول . وإسحاق أمّه سارة ، وهو الذّبيح فى قول آخر، وهو الأصح، على ما يأتى بيانه فى سورة « والصافات» [2] إن شاء الله . ومن ولده الروم واليونان والأرمن ومن يجرى مجراهم وبنو إسرائيل . وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة، ومات بالأرض المقدّسة ودُفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام . ثم لمــا تُوفِّيت سارة تزوّج إبراهيم عليه الســلام قنطورا بنت يقطن الكنعانيّــة ، فولدت له مدين ومداين ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ [3] ؛ ثم توفّى عليه الســلام . وكان بين وفاته وبين مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم نحو من ألفى ســنة وستمائة سنة ؛ واليهــود ينقصون من ذلك نحوا من أربعمائة سنة . وسيأتى ذكر أولاد يعقوب فى سورة « يوسف » [4] إن شاء الله تعــالى . وقرأ عمرو بن فائد الأسوارى وإسماعيل بن عبــد الله المكى : « ويعقوبَ » بالنصب عطفًا على

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (٣) كذا وردت هذه الأسماء فى نسخ الأصل . والذى فى كتاب الرسل والملوك لابن جرير الطبرى قسم أول ص ٣٤٥ طبع أوربا : « يقسان ، وزمران ، ومديان ، ويسبق ، وسوح ، وبسر » . وفى تاريخ ابن الأثير جـ ١ ص ٨٧ طبع أوربا : « نفشان ، ومران ، ومديان ، ومدن ، ونشق ، وسرح » . (٤) راجع جـ ٩ ص ١٣٠

« بنيه » ؛ فيكون يعقوب داخلا فيمن أوصى . قال القُشَيْرِىّ : وقُرئ «يعقوبَ» بالنصب عطفًا على « بنيــه » وهو بعيد ؛ لأن يعقــوب لم يكن فيما بين أولاد إبراهيم لـمّـا وصّاهم ، ولم ينقل أن يعقوب أدرك جدّه إبراهيم ، و إنما وُلد بعد موت إبراهيم، وأن[(١)] يعقوب أوصى بنيه أيضًا كما فعل إبراهيم . وسيأتى تسمية أولاد يعقوب إن شاء الله تعالى .

قال الكلبي : لمـا دخل يعقوب إلى مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران والبقر ، فجمع ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدى ؟

و يقال : إنمـا سُمّى يعقوب لأنه كان هو والعِيص تَوْأَمَين ، فخرج من بطن أمه آخذًا بعقب أخيه العِيص . وفى ذلك نظر ؛ لأن هــذا آشتقاق عربىّ ، و يعقوب آسم أعجمى ، و إن كان قد وافق العربيــة فى التسمية به كذَكَر الحَجَــل[(٢)] . عاش عليه الســلام مائة وسبعًا وأربعين سنة ومات بمصر، وأوصى أن يُحمل إلى الأرض المقدّسة، ويُدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف ودفنه عنده .

قوله تعــالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ معناه أنْ يا بنىّ ؛ وكذلك هو فى قراءة أُبَىّ وآبن مسعود والضّحاك . قال الفَرّاء : أُلغيتْ أنْ لأنّ التوصــية كالقول، وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول أنْ وجاز فيــه إلغاؤها . قال : وقــول النحويين إنما أراد « أن » فألغيت ليس بشىء . النحاس : « يا بَنِىّ » نداء مضاف ، وهذه ياء النفْس لا يجوز هنا إلا فتحها ؛ لأنها لو سكنتْ لآلتقى ساكنان ، ومثــله « بِمُصْرِخِىّ[(٣)] » . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ كُسرت « إنّ » لأن أوصى وقال واحد . وقيل : على إضمار القول . ﴿ ٱصْطَفَى ﴾ آختار . قال الراجز :

يابن ملوك ورّثوا الأملاكا * خلافــة الله التى أعطاكا
* لك آصطفاها ولهــا آصطفاكا *

﴿ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى الإسلام ؛ والألف واللام فى «الدِّين» للعهد؛ لأنهم قد كانوا عرفوه . ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلام ودُوموا عليه ولا تفارقوه

(١) فى ا ، ب ، ز : «بل إن» . (٢) الحجل (بالتحريك) : طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ، و يسمى دجاج البر ، و يسمى الذكر منه يعقوب و جمعه يعاقب و يعاقيب . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٥٧

Marfat.com

حتى تموتوا . فأتى بلفظ موجز يتضمّن المقصود، ويتضمّن وعظًا وتذكيرًا بالموت ؛ وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدرى متى ؛ فإذا أُمِر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجّه الخطاب من وقت الأمر دائبًا لازمًا . و «لا» نَهْى «تَمُوتُنّ» فى موضع جزم بالنهى، أُكّد بالنون الثقيلة ، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين . «إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ابتداء وخبر فى موضع الحال ؛ أى محسنون بربكم الظنّ ، وقيل مخلصون، وقيل مفوّضون، وقيل مؤمنون.

قوله تعالى : أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ «شهداء» خبر كان، ولم يُصرف لأن فيه ألف التأنيث ؛ ودخلت لتأنيث الجماعة كما تدخل الهاء . والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ما لم يُوصِ به بنيه ، وأنهم على اليهودية والنصرانية ؛ فردّ الله عليهم قولهم وكذبهم ، وقال لهم على جهة التوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدّعون عن علم ؛ أى لم تشهدوا، بل أنتم تفترون ! . و « أم » بمعنى بل ؛ أى بل أشهد أسلافكم يعقوب . والعامل فى « إذ » الأولى معنى الشهادة ، و « إذ » الثانية بدل من الأولى . و « شهداء » جمع شاهد أى حاضر . ومعنى « حَضَرَ يعقوبَ الموتُ » أى مقدّماته وأسبابه ؛ وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئا . وعبّر عن المعبود بـ « ما » ولم يقل مَن ؛ لأنه أراد أن يختبرهم ؛ ولو قال « من » لكان مقصوده أن ينظر مَن لهم الاهتداء منهم ؛ وإنما أراد تجربتهم فقال «ما» . وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة ؛ فاستفهم عما يعبدون من هذه . ومعنى « مِنْ بَعْدِى » أى من بعد موتى . وحُكى أن يعقوب حين خُيّر كما تُخيَّر الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلونى حتى أوصى بنىّ وأهلى ؛ فجمعهم وقال لهم هذا ؛ فاهتدوا وقالوا : « نَعْبُدُ إِلٰهَكَ » الآية . فأروه ثبوتهم على الدِّين ومعرفتهم بالله تعالى .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ « إبراهيم وإسماعيل وإسحاق » فى موضع خفض على البدل ، ولم تنصرف لأنها أعجمية . قال الكسائى : وإن شئت صرفت « إسحاق » وجعلته من السُّحْق ، وصرفت « يعقوب » وجعلته من الطير . وسمّى الله كلّ واحد من العمّ والجدّ أبًا ، وبدأ بذكر الجدّ ثم إسماعيل العمّ لأنه أكبر من إسحاق . و « إلٰهًا » بدل من « إلٰهك » بدل النكرة من المعرفة ؛ وكرره لفائدة الصّفة بالوحدانية . وقيل : « إلٰهًا » حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن ؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانيــة . وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمُر والجَحْدَرِىّ وأبو رجاء العُطارِدىّ « وإلٰهَ أبيك » وفيه وجهان :

أحدهما — أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده ، وكره أن يجعل إسماعيل أبًا لأنه عمّ . قال النحاس : وهذا لا يجب ؛ لأن العرب تسمّى العمّ أبًا .

الثـانى — على مذهب سيبويه أن يكون « أبيـك » جمع سلامة ؛ حكى سيبويه أبٌ وأَبُونَ وأَبِين ؛ كما قال الشاعر :

* فقلنا أسلموا إنّا أخوكم *(1)

وقال آخر :

فلمـا تَبيَّنّ أصواتنـا * بكَيْنَ وفـدّيننا بالأبينا(2)

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ابتـداء وخبر ؛ ويحتمل أن يكون فى موضع الحال ، والعامل « نعبد » .

قوله تعـالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

---

(١) الشاهد فيـه « أخوكم » فإنه جمع بالواو والنون وحذفت النون للإضافة ليصح الإخبار به عن ضمير الجمع . وتمـام البيت : * فقد سلمت من الإحن الصدور * وصف نساء سبين فوفد عليهن من قومهن من يفاديهن فبكين إليهم وفديتهم بآبائهن سرورا بوفودهم عليهن . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والعشرين بعد الثلثمائة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ « تلك » مبتدأ ، و « أُمَّةٌ » خبر ، « قَدْ خَلَتْ » نعت لأمة ، وإن شئت كانت خبر المبتدأ ، وتكون « أُمَّةٌ » بدلا من « تلك » . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ « ما » في موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين . ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ مثله ، يريد من خير وشر . وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب ؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك ، إن كان خيرا فبفضله وإن كان شرا فبعدله ؛ وهذا مذهب أهل السُّنة ؛ والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة . فالعبد مكتسب لأفعاله ، على معنى أنه خُلقت له قدرة مقارنة للفعل ، يُدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا ؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف . وقالت الجَبْرية بنفي اكتساب العبد ، وإنه كالنبات الذي تصرّفه الرياح . وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين ، وإن العبد يخلق أفعاله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ؛ مثل قوله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى ؛ وسيأتي[(١)] .

قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ دعت كل فرقة إلى ما هي عليه ؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم فقال : ﴿ بَلْ مِلَّةَ ﴾ أي قل يا محمد : بل نتبع مِلّة ؛ فلهذا نصب المِلّة . وقيل : المعنى بل نهتدي بملّة إبراهيم ؛ فلما حذف حرف الجرّ صار منصوبا . وقرأ الأعرج وابن أبي عَبْلة : « بَلْ مِلَّةُ » بالرفع ؛ والتقدير بل الهدى مِلّةُ ، أو مِلّتنا دين إبراهيم . و « حَنِيفًا » مائلا عن الأديان المكروهة إلى الحق دين إبراهيم ؛ وهو في موضع نصب على الحال ؛ قاله الزجاج . أي بل نتبع ملّة إبراهيم في هذه الحالة . وقال علي بن سليمان : هو منصوب على أعني ، والحال خطأ ، لا يجوز جاءني غلام هند مسرعة . وسُمّي إبراهيم حنيفاً لأنه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧

Marfat.com

حَنِف إلى دين الله وهو الإسلام . والحَنَف : المَيْل ؛ ومنه رِجْلٌ حَنْفاء، ورَجُل أَحنَف، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أم الأَحْنَف :

والله لولا حَنَفٌ برِجْــلِه * ما كان فى فتيانكم من مِثْــلِه

وقال الشاعر :

إذا حوّل الظّل العشىّ رأيتَه * حَنيفًا وفى قَرْن الضحى يتنصّر

أى الحِرْباء تستقبل القِبْــلة بالعشىّ، والمَشْرِق بالغداة، وهو قِبــلة النصارى . وقال قوم : الحَنَف الاستقامة؛ فسُمّىَ دينِ إبراهيم حنيفًا لاستقامته . وسُمّىَ المعوجّ الرِّجلين أحنف تفاؤلًا بالاستقامة؛ كما قيل للّديغ سليم، وللمهلكة مفازة؛ فى قول أكثرهم .

قوله تعــالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

قوله تعــالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ خرّج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنّا بالله وما أنزل" الآية . وقال محمد بن سيرين : إذا قيل لك أنت مؤمن ؟ فقل : « آمنّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » الآية . وكره أكثر السلف أن يقــول الرجل : أنا مؤمن حقًّا؛ وسيأتى بيــانه فى « الأنفال » (1) إن شاء الله تعــالى . وسُئل بعض المتقدّمين عن رجل قيــل له : أتؤمن بفلان النبىّ؛ فسمّاه باسم لم يعرفه؛ فلو قال نعم؛ فلعــلّه لم يكن نبيًّا، فقد شهد بالنبوّة لغير نبىّ، ولو قال لا، فلعلّه نبىّ ، فقد جحد نبيًّا من الأنبياء؛ فكيف يصنع ؟ فقال : ينبغى أن يقول : إن كان نبيًّا فقد آمنتُ به . والخطاب فى هذه الآية لهذه الأمة، علّمهم الإيمــان . قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٦٧

Marfat.com

فسألوه عمن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية . فلما جاء ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا من آمن به .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ جمع إبراهيم براهيم، وإسماعيل سماعيل؛ قاله الخليل وسيبويه، وقاله الكوفيون، وحكَوْا براهمة وسماعلة. وحكَوْا براهم وسماعل . قال محمد بن يزيد : هذا غلط؛ لأن الهمزة ليس هذا موضع زيادتها، ولكن أقول : أباره وأسامع ، ويجوز أباريه وأساميع . وأجاز أحمد بن يحيى براه، كما يقال فى التصغير بُرَيْه . وجمع إسحاق أساحيق، وحكى الكوفيون أساحقة وأساحق؛ وكذا يعقوب ويعاقيب، ويعاقبة ويعاقب . قال النحاس : فأما إسرائيل فلا نعلم أحدا يجيز حذف الهمزة من أوله ، وإنما يقال أساريل، وحكى الكوفيون أسارلة وأسارل . والباب فى هذا كله أن يُجمع مسلما فيقال : إبراهيمون وإسحاقون ويعقوبون ، والمسلم لا عمل فيه .

والأسباط : وَلَدُ يعقوب عليه السلام، وهم آثنا عشر ولدا، وُلِد لكل واحد منهم أُمّة من الناس؛ واحدهم سِبْط . والسِّبْط فى بنى إسرائيل بمنزلة القَبِيلة فى ولد إسماعيل. وسُمُّوا الأسباط من السَّبط وهو التتابع؛ فهم جماعة متتابعون . وقيل : أصله من السَّبَط (بالتحريك) وهو الشجر؛ أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبَطة . قال أبو إسحاق الزجاج : ويُبيّن لك هذا ما حدّثنا به محمد بن جعفر الأنبارى قال حدّثنا أبو نُجَيد[1] الدقاق قال حدّثنا الأسود بن عامر قال حدّثنا إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن آبن عباس قال : كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة : نوحًا وشعيبًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ وإسماعيلَ ومحمدًا صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له آسمان إلا عيسى ويعقوب . والسِّبْط : الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وشَعر سَبْط وسَبِط : غير جَعْد . ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ قال الفرّاء : أى لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى .

---

(١) كذا فى جـ وتفسير آبن كثير فى هذا الموضع . وفى سائر الأصول : «أبو نجيد» بالميم .

Marfat.com

قوله تعالى : فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ آهْتَدَوْا ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته . المعنى : فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدّقوا مثل تصديقكم فقد آهتدوْا ؛ فالمماثلة وقعت بين الإيمانيْن، وقيل[1] : إن الباء زائدة مؤكّدة . وكان آبن عباس يقرأ فيما حكى الطبرى : « فإن آمنوا بالذى آمنتم بِهِ فقدِ آهتدوْا » وهذا هو معنى القراءة و إن خالف المصحف ؛ فـ « مِثْل » زائدة كما هى فى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[2] أى ليس كهو شىء . وقال الشاعر[3] :

* فصُيِّروا مثل كَعَصْف ما كُول *

وروى بَقِيّة حدّثنا شُعبة عن أبى حمزة عن آبن عباس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فإن الله ليس له مثل، ولكن قولوا : بالذى آمنتم به . تابعه علىّ بن نصر الجَهْضَمِىّ عن شعبة؛ ذكره البيهقى . والمعنى : أى فإن آمنوا بنبيّكم و بعامة الأنبياء ولم يفرّقوا بينهم كما لم تُفرّقوا فقد آهتدوْا ، و إن أَبَوْا إلا التفريق فهم الناكبون عن الدين[4] إلى الشقاق « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » . وحكى عن جماعة من أهل النظر قالوا : ويحتمل أن تكون الكاف فى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » زائدة . قال : والذى روى عن آبن عباس من نَهْيه عن القراءة العامّة شىء ذهب إليه للمبالغة فى نفى التشبيه عن الله عز وجل . وقال آبن عطية : هذا من آبن عباس على جهة التفسير؛ أى هكذا فليتأوّل . وقد قيل : إن الباء بمعنى على، والمعنى : فإن آمنوا على مثل إيمانكم . وقيل : « مثل » على بابها أى بمثل المنزّل؛ دليله قوله : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ »[5]، وقوله : « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ »[6] .

(١) هذه الجملة من تمام القول الأوّل وليست قولا آخر كما يتبادر من السياق . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨

(٣) هو حميد الأرقط ؛ وصف قوما آستؤصلوا فشبههم بالعصف الذى أ كل حبه . والعصف التبن . (عن شرح الشواهد) . (٤) فى جـ : « عن النبيين » . وفى ب ، ز : « عن التدين » .

(٥) راجع جـ ١٦ ص ١٣ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : الشقاق المنازعة . وقيل : الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادى . وأصله من الشق وهو الجانب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه . قال الشاعر :

إلى كم تقتل العلماء قسرا * وتفجر بالشقاق وبالنفاق (١)

وقال آخر :

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم * بغاةٌ ما بقينا فى شقاق

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يَشُقّ ويصعُب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرِص على ما يشقّ على صاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى فسيكفى اللهُ رسولَه عدوَّه . فكان هذا وعدًا من الله تعالى لنبيّه عليه السلام أنه سيكفيه مَن عانده ومَن خالفه من المتولّين بمن يَهديه من المؤمنين ؛ فأنجز له الوعد ؛ وكان ذلك فى قتل بنى قَيْنُقاع وبنى قُرَيظة وإجلاء بنى النَّضير . والكاف والهاء والميم فى موضع نصب مفعولان . ويجوز فى غير القرآن : فسيكفيك [إياهم] (٢) . وهذا الحرف « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » هو الذى وقع عليه دَمُ عثمان حين قُتل بإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاه بذلك . و﴿ السَّمِيعُ ﴾ لقول كل قائل ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يُنفذه فى عباده ويُجريه عليهم . وحكى أن أبا دُلامة دخل على المنصور وعليه قَلَنْسُوة طويلة ، ودُرّاعة (٣) مكتوب بين كتفيها « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ، وسيف معلّق فى وسطه ؛ وكان المنصور قد أمر الجند بهذا الزى ، فقال له : كيف حالك يا أبا دُلامة؟ قال : بشرٍّ يا أمير المؤمنين ! قال : وكيف ذاك؟ قال : ما ظنّك برجل وجهه فى وسطه ، وسيفه فى آسته ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فضحك المنصور منه ، وأمر بتغيير ذلك الزىّ من وقته .

---

(١) فى ا : « ... يقتل ... ويفجر ... » بالياء .

(٢) زيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٣) الدُّرّاعة والمدرع : جبة مشقوقة المقدم .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ قال الأخفش وغيره: دين الله؛ وهو بدل من «ملّة». وقال الكسائى : وهى منصوبة على تقدير آتبعوا . أو على الإغراء أى آلزموا . ولو قُرئت بالرفع لجـاز؛ أى هى صبغة الله . وروى شَيبان عن قتادة قال : إن اليهود تصبغ أبنـاءهم يهودا، و إن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى؛ و إن صبغة الله الإسلامُ. قال الزجاج: و يدلُّك على هذا أن «صِبْغَةَ» بدل من «مِلّة». وقال مجاهد: أى فطرة الله التى فطر الناس عليها. قال أبو إسحاق الزجاج : وقول مجاهد هذا يرجع إلى الإسلام ؛ لأن الفطرة آبتداء الخلق، وآبتداء ما خُلقوا عليه الإسلام . وروى عن مجاهد والحسن وأبى العالية وقتادة : الصّبغةُ الدِّين . وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى المـاء، وهو الذى يسمُّونه المعمودِيّة ، و يقولون : هذا تطهير لهم . وقال آبن عباس : هو أن النصارى كانوا إذا وُلد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم يقال له ماء المعمودِيّة، فصبغوه بذلك ليطهّروه به مكانــ الختان ؛ لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيًّا حقًّا؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : «صِبْغَةَ اللهِ» أى صبغة الله أحسن صِبغة وهى الإسلام ؛ فسُمّى الدِّين صبغة آستعارة ومجازًا من حيث تظهر أعماله وسِمَته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب . وقال بعض شعراء ملوك هَمْدان :

وكلُّ أناسٍ لهم صِـــبْغَةٌ * وصبغةُ هَمْــدان خير الصِّبَغ
صَـبَغنا على ذاك أبنـاءَنا * فأكْرِم بِصبغتنا فى الصِّــبَغ

وقيـل : إن الصّبغة الآغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام ، بدلًا من معمودية النصارى؛ ذكره المـاوردى .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجبًا تعبُّدًا، وهى المسألة :

Marfat.com

الثانيـــة — لأن معنى « صبغةَ الله » غُسل الله ؛ أى ٱغتسلوا عنـد إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السُّنة الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمَـامة بن أثال حين أسلما . روى أبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ثُمَـامة الحنفى[1] أُسِر فمرّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم يومًا فأسلم؛ فبعث به إلى حائط[2] أبى طَلْحة فأمره أن يغتسل فٱغتسل وصلّى ركعتين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حَسُنَ إسلامُ صاحبكم". وخرّج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بمـاء وسِدْر . ذكره النسائى وصحّحه أبو محمد عبد الحق . وقيل : إن القُرْبة إلى الله تعالى يقال لها صِبْغة ؛ حكاه ٱبن فارس فى المُجْمَل . وقال الجوهرى : « صبغة الله » دينه . وقيل : إن الصِّبغة الختان ، ٱختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان لصبغهم الغلمان فى الماء ؛ قاله الفرّاء . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قال الحسن : كانت المحاجة أن قالوا : نحن أَوْلى بالله منكم ؛ لأنّا أبنـاء الله وأحباؤه . وقيـل : لتقدّم آبائنا وكتبنا ، ولأنا لم نعبـد الأوثان . فمعنى الآية : قل لهم يا محمد، أى قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وٱدّعوْا أنهم أَوْلى بالله منكم لِقدم آبائهم وكتبهم : « أتحاجُّوننا » أى أتجاذبوننا الحجة على دعواكم والربُّ واحد ، وكلٌّ مجازى بعمـله ؛ فأى تأثير لِقدم الدِّين . ومعنى « فى الله » أى فى دينه والقُرْب منه والحظوة له[3] . وقراءة الجماعة : « أتحاجُّوننا » . وجاز ٱجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحركين ؛ لأن الثانى كالمنفصل . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن «أتحاجُّونّا» بالإدغام لاجتماع المثلين . قال النحاس : وهذا

(١) ثمامة الحنفى هو ثمامة بن أثال المتقدم . (٢) الحائط : البستان من النخل إذا كان عليه جدار .
(٣) كذا فى الأصول ، ولعل صوابه : « والحظوة عنده » .

Marfat.com

جائز إلا أنه مخالف للسواد . ويجوز « أتحاجُّونِ » بحذف النون الثانية ، كما قرأ نافع « فَبِمَ تُبَشِّرُونِ » [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أى مخلصون العبادة ، وفيه معنى التوبيخ ؛ أى ولم تُخلصوا أنتم فكيف تدّعون ما نحن أولى به منكم ! . والإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكًا فهو لشريكى يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرَّحِم فإنها للرَّحِم وليس لله منها شىء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شىء " . رواه الضحاك بن قيس الفِهْرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره ؛ خرّجه الدَّارَقُطْنِىّ . وقال رُوَيْم : الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عِوَضًا فى الدارين ولا حظًّا من المَلَكين . وقال الجُنَيْد : الإخلاص سِرٌّ بين العبد وبين الله، لا يعلمه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوًى فيميله . وذكر أبو القاسم القشيرى وغيره عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رَبَّ العِزّة عن الإخلاص ما هو قال سِرٌّ من سِرّى آستودعته قلب من أحببته من عبادى " .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ [2] بمعنى قالوا . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص « تقولون » بالتاء وهى قراءة حسنة ؛ لأن الكلام متّسق ، كأنّ المعنى : أتحاجوننا فى الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ؛ فهى أم المتصلة ، وهى على قراءة من قرأ بالياء منقطعة ؛ فيكون

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٢) هذا القول بأن « أم » منقطعة .

Marfat.com

كلامين وتكون « أم » بمعنى بل . ﴿ هُودًا ﴾ خبر كان ، وخبر « إنّ » فى الجملة . ويجوز فى غير القرآن رفع « هودا » على خبر « إنّ » ، وتكون كان ملغاة ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ تقرير وتوبيخ فى ادّعائهم بأنهم كانوا هودا أو نصارى . فردّ الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم ؛ أى لم يكونوا هودًا ولا نصارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لفظه الاستفهام ، والمعنى : لا أحد أظلم . ﴿ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً ﴾ يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام . وقيل : ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله قتادة ، والأوّل أشبه بسياق الآية . ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سُدًى وأنه يجازيهم على أعمالهم . والغافل : الذى لا يفطن للأمور إهمالًا منه ؛ مأخوذ من الأرض الغُفْل وهى التى لا عَلَم بها ولا أثر عمارة . وناقةٌ غُفْل : لا سِمَة بها . ورجل غُفْل : لم يجرّب الأمور . وقال الكسائى : أرض غُفْل لم تُمطر . غَفَلت عن الشىء غَفْلة وغُفولا ، وأغفلت الشىء : تركته على ذُكر منك .

قوله تعالى : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كرّرها لأنها تضمّنت معنى التهديد والتخويف ؛ أى إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ؛ فوجب التأكيد ، فلذلك كرّرها .

قوله تعالى : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون فى تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة : ما ولّاهم . و«سيقول» بمعنى قال؛ جعل المستقبل

Marfat.com

موضع المـاضى، دلالة على آستدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخصّ بقوله : « مِنَ ٱلنَّاسِ » لأن السَّفَه يكون فى جمادات وحيوانات . والمراد من « السُّفهاء » جميع من قال « ما وَلّاهم » . والسُّفهاء جمع ، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل؛ من قولهم : ثوبٌ سَفيه إذا كان خفيف النَّسْج، وقد تقدّم[1] . والنساء سفائه . وقال المؤرِّج : السَّفيه البهّات الكذاب المتعمِّد خلاف ما يعـلم . قُطْرُب : الظلوم الجهول . والمـراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة؛ قاله مجاهد . السُّدِّى : المنافقون . الزّجاج : كفار قريش لمـّا أنكروا تحويل القِبْلة قالوا : قد آشـتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم . وقالت اليهـود : قد آلتبس عليـه أمره وتحـيّر . وقال المنافقون : ما وَلّاهم عن قبلتهم ! وآستهزءوا بالمسلمين . و « وَلّاهم » يعنى عَدَلهم وصَرَفهم .

الثانيـــة — روى الأئمة واللفظ لمـالك عن آبن عمر قال : بينما الناس بقُباء[2] فى صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة فآستقبلوها ؛ وكانت وجوههم إلى الشام فآستداروا إلى الكعبة . وخرّج البُخارىّ عن البَراء أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى إلى بيت المَقدِس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا[3] ، وكان يعجبه أن تكون قِبلته قِبَل البيت ، و إنه صلّى أوّل صلاة صـلّاها العصر وصلّى معه قوم ؛ فخرج رجل ممن كان صلّى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله، لقد صلّيت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة؛ فداروا كما هم قِبَل البيت . وكان الذى مات على القِبْلة قبـل أن تُحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؛ فأنزل الله عزّ وجل : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ » ؛ ففى هـذه الرواية صلاة العصر، وفى رواية مالك صلاة الصبح . وقيل : نزل ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَـلِمَة وهو فى صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحوّل فى الصـلاة؛ فسُمّى ذلك

---

(١) يراجع ج ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية .

(٢) قباء (بالضم) : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير ، وهناك مسجد التقوى . (عن معجم ياقوت) .

(٣) رواية البخارى كما فى صحيحه : « وإنه صلى — أو صلاها — صلاة العصر... » .

Marfat.com

المسجد مسجد القِبلتَين . وذكر أبو الفرج أنّ عَبّاد بن نَهِيك كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الصلاة . وذكر أبو عمر فى التمهيد عن نُوَيْلَة[١] بنت أسلم وكانت من المُبَايِعات ، قالت : كنا فى صلاة الظهر فأقبل عَبّاد بن بشر بن قَيْظِيّ فقال : إن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قد ٱستقبل القبلة — أو قال : البيت الحرام — فتحوّل الرجال مكان النساء ، وتحوّل النساء مكان الرجال . وقيـل : إنّ الآية نزلت فى غير صلاة ؛ وهو الأكثر . وكان أوّل صلاة إلى الكعبة العصر ؛ والله أعلم . وروى أنّ أوّل مَن صلّى إلى الكعبة حين صُرِفت القِبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المُعَلَّى ؛ وذلك أنه كان مجتازًا على المسجد فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هـذه الآية : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » حتى فرغ من الآية ؛ فقلت لصاحبي : تعالَ نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أوّلَ من صـلّى فتوارَيْنا نَعَمًا[٢] فصلّيناهما ؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بالنـاس الظهر يومئذ . قال أبو عمر : ليس لأبي سعيد بن المُعَلَّى غير هـذا الحديث ، وحديث : « كنت أصلّى » فى فضل الفاتحة ؛ خرّجه البخارى ، وقد تقدّم[٣] .

الثالثـــة — وٱختلف فى وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة ؛ فقيل : حُوّلت بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ؛ كما فى البخارى . وخرّجه الدّارَقُطْنِيّ عن البَراء أيضا ، قال : صلّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المَقْدِس ، ثم علم الله هوَى نبيّه فنزلت : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » الآية . ففى هذه الرواية ستة عشر شهرا من غير شك . وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أن تحويلها كان قبل غَزْوة بَدْرٍ بشهرين . قال إبراهيم بن إسحاق : وذلك فى رجب من سنة

(١) فى كتاب الاستيعاب والقاموس : « نولة » بالنون ، وقال صاحب القاموس : « أو هى بكهينة » . وقد ذكرت فى كتاب الإصابة مصغرة فى حرف التاء والنون ، وهى بالنون رواية إسحاق بن إدريس عن جعفر بن محمود ، وبالتاء رواية إبراهيم بن حمزة ؛ قال صاحب الإصابة : « وهى أرنق » .

(٢) هـذه الكلمة ساقطة من أ — والنعم — بفتحتين — : واحد الأنعام ، الإبل والشاء أو الإبل خاصة ؛ يذكر ويؤنث .

(٣) يراجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية .

Marfat.com

وولاة النبيّ صلى الله عليه وسلم فمحمول على قرائن إفادة العلم إمّا نقلًا وتحقيقا، و إمّا آحتمالا وتقديرًا . وتميم هذا سؤالا وجوابًا فى أصول الفقه .

التاسـعة — وفيها دليل على أنّ من لم يبلغه الناسخ إنه متعبّد بالحكم الأوّل؛ خلافاً لمن قال : إن الحكم الأوّل يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به، والأوّل أصح؛ لأن أهل قُباء لم يزالوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتى فأخبرهم بالناسخ فـمالوا نحو الكعبة . فالناسخ إذا حصل فى الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العـلم به ؛ لأن الناسخ خطاب ، ولا يكون خطابًا فى حق من لم يبلغه . وفائدة هذا الخلاف فى عبادات فُعلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل تعاد أم لا ؛ وعليه تنبنى مسألة الوكيل فى تصرّفه بعـد عزل مُوكِّله أو موته وقبل علمـه بذلك على قولين . وكذلك المُقارِض(١) ، والحـاكم إذا مات من وَلّاه أو عُزِل . والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء يَنفذ فعـله ولا يردّ حكمه . قال القاضى عِياض : ولم يختلف المذهب فى أحكام من أعتق ولم يعـلم بعتقه أنها أحكام حُرّة فيما بينه وبين الناس، وأمّا بينـه وبين الله تعالى فجائزة . ولم يختلفـوا فى المُعْتَقة أنها لا تعيـد ما صلّت بعد عتقها وقبل علمها بغير ستر، و إنما آختلفوا فيمن يطرأ عليه مُوجِب يغيّر حكم عبادته وهو فيها، قياسًا على مسألة قباء؛ فمن صـلّى على حال ثم تغـيّرت به حاله تلك قبل أن يتمّ صـلاته إنه يُتمّها ولا يقطعها ويُجزيه ما مضى . وكذلك كمن صلّى عُريانًا ثم وجد ثوبا فى الصلاة، أو آبتدأ صلاته صحيحا فمرِض ، أو مريضًا فصحّ ، أو قاعدًا ثم قَدَر على القيام، أو أَمَة عتقت وهى فى الصلاة إنها تأخذ قناعها وتَبْنى .

قلت : وكمن دخل فى الصلاة بالتيمّم فطرأ عليه المـاء إنه لا يقطع، كما يقوله مالك والشافعى — رحمهما الله — وغيرهما . وقيل : يقطع؛ وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى، وسيأتى .

العـاشرة — وفيها دليل على قبول خبر الواحد، وهو مُجمَع عليه من السّلف معلوم بالتواتر من عادة النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى توجيهه وُلاته ورسـله آحادًا للآفاق؛ ليعـلّموا الناس دينهم فيبلّغوهم سُنّة رسولهم صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى .

(١) القراض (بكسر القاف) عند المـالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية ؛ وهـو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المـال) المقارض (بفتح الراء وهو العامل) مالا ليتجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

Marfat.com

الحادية عشرة — وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا بعد شيء وفى حال بعد حال ، على حسب الحاجة إليه ، حتى أكمل الله دينه ؛ كما قال : «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»(١) .

قوله تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أقامه حجة ، أى له ملك المشارق والمغارب وما بينهما ؛ فله أن يأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء ، وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة إبراهيم ؛ والله تعالى أعلم . والصراط : الطريق . والمستقيم : الذى لا اعوجاج فيه ؛ وقد تقدم(٢) .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا ، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم . والوسط : العدل ؛ وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها . وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» قال : "عدلا" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى التنزيل : «قَالَ أَوْسَطُهُمْ»(٣) أى أعدلهم وخيرهم . وقال زهير :

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الأنامُ بحكمهم * إذا نزلت إحدى الليالى بِمُعْظَمِ

(١) راجع جـ ٦ ص ٦١ (٢) جـ ١ ص ١٤٧ (٣) جـ ١٨ ص ٢٤٤

Marfat.com

عليه السلام : "نحن الآخرون الأولون". وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلًا . وسيأتى بيان العدالة وحكمها فى آخر السورة إن شاء الله تعالى.(١)

الرابعـة — وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحُكم به؛ لأنهـم إذا كانوا عدولا شهدوا على الناس . فكلُّ عصرٍ شهيدٌ على مَن بعده؛ فقولُ الصحابة حجّةٌ وشاهدٌ على التابعين، وقولُ التابعين على مَن بعدهم . وإذ جُعلت الأمة شهداء فقد وَجبَ قبول قولهم . ولا معنى لقول من قال : أريد به جميـع الأمة ؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليـه إلى قيام الساعة . وبيان هذا فى كتب أصول الفقه .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيـدًا ﴾ قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة . وقيل : «عليكم» بمعنى لكم؛ أى يشهد لكم بالإيمان . وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ قيل: المراد بالقِبْلة هنا القِبلةُ الأولى؛ لقوله «كنت عليها» . وقيل : الثانيـة ؛ فتكون الكاف زائدة ، أى أنت الآن عليها ، كما تقدّم ، وكما قال : «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»(٢) أى أنتم ، فى قول بعضهم ، وسيأتى .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِـعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : معنى « لنعلم » لنرى . والعرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ »(٣) بمعنى ألم تعلم . وقيل : المعنى إلّا لتعلموا أننا نعلم؛ فإن المنافقين كانوا فى شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كَوْنها . وقيل : المعنى لنمـيِّز أهل اليقين من أهل الشك؛ حكاه ابن فُورَك، وذكره الطبرى عن ابن عباس . وقيل : المعنى إلا ليعلم النبىّ وأتباعه ، وأخبر تعالى بذلك عن نفسـه ؛ كما يقال : فعـل الأمير كذا ، وإنما فعلـه أتباعه؛ ذكره المَهدوِىّ وهو جيّد . وقيل : معناه ليعلم محمد ؛ فأضاف علمه إلى نفسه تعالى تخصيصًا وتفضيلًا ؛ كما كنّى عن نفسه سبحانه فى قوله : "يا ابن آدم مَرِضتُ فلم تَعُـدْنى"(٤)

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٣ (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٤٤
(٤) أضاف المرض إليـه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا له . وفى الحـديث : " قال يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعـده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ... " . راجع صحيح مسلم « فضل عيادة المريض » .

Marfat.com

الحديث . والأول أظهر، وأن معناه علم المعاينة الذى يوجب الجزاء، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة ، علم ما يكون قبل أن يكون ، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلق بالكل تعلقًا واحدًا . وهكذا كل ما ورد فى الكتاب من هـذا المعنى من قوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ »(١) ، « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ »(٢) وما أشبه . والآية جواب لقريش فى قولهم : « مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا »وكانت قريش تألف الكعبة،فأراد الله عزوجل أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه . وقرأ الزهرى « إلا ليُعلم » فـ« مَن » فى موضع رفع على هذه القراءة؛ لأنها آسم ما لم يُسَمّ فاعله . وعلى قراءة الجماعة فى موضع نصب على المفعول . ﴿ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ يعنى فيما أمر به من آستقبال الكعبة . ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ يعنى ممن يرتد عن دينه ؛ لأن القبلة لمـا حُولت آرتد من المسلمين قوم ونافق قوم؛ ولهذا قال : « وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً» أى تحويلها ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة . والتقدير فى العربية : وإن كانت التحويلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ ذهب الفـراء إلى أن « إنْ » واللام بمعنى ما وإلا ؛ والبصريون يقولون : هى إنّ الثقيلة خُففت . وقال الأخفش : أى وإن كانت القِبلة أو التحويلة أو التَّولية لكبيرة . ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أى خلق الهُدى الذى هو الإيمـان فى قلوبهم ؛ كما قال تعالى : « أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـانَ »(٣) .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـانَكُمْ ﴾ اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلّى إلى بيت المَقدس؛ كما ثبت فى البخارى من حديث البَراء بن عازب(٤) ، على ما تقدّم. وخرج الترمذى عن آبن عباس قال : لمـا وُجه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يُصلّون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـانَكُمْ » الآية، قال : هـذا حديث حسن صحيح . فسمّى الصلاة إيمـانًا لآشتمالها على نيّة وقول وعمل . وقال مالك : إنى لأذكر بهذه الآية قولَ المُرجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان . وقال محمد بن إسحاق : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » أى

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٨ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٥٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٨
(٤) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

بالتوجّه إلى القبلة وتصديقكم لنبيّكم؛ وعلى هذا معظم المسلمين والأصوليين . وروى ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب عن مالك «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» قال : صلاتكم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أشدّ من الرحمة . وقال أبو عمرو بن العَلاء : الرأفة أكثر من الرحمة ؛ والمعنى متقارب . وقد أتينا على لغته وأشعاره ومعانيه فى الكتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » فلْيُنظر هناك. وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « لَرَؤُف » على وزن فَعُل ؛ وهى لغة بنى أسد؛ ومنه قول الوليد بن عُقبة :

وشَرُّ الطالبين فلا تكنه * يقاتل عمه الرَّؤُف الرحيم

وحكى الكسائى أن لغة بنى أسد «لَرَأْف» ، على فَعْل . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع « لَرُوف » مثقلًا بغير همز ؛ وكذلك سَهّل كل همزة فى كتاب الله تعالى ، ساكنةً كانت أو متحركة .

قوله تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قال العلماء : هذه الآية مقدّمة فى النزول على قوله تعالى : «سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ» . ومعنى « تَقَلُّبَ وَجْهِكَ» : تحوّل وجهك إلى السماء؛ قاله الطبرى . الزّجاج : تقلّب عينيك فى النظر إلى السماء؛ والمعنى متقارب . وخصّ السماء بالذّكر إذ هى مختصة بتعظيم ما أضيف إليها و يعود منها كالمطر والرحمة والوَحْى . ومعنى « تَرْضَاهَا » تحبّها . قال السُّدّى : كان إذا صلّى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يُؤمر به ، وكان يحبّ أن يصلّى إلى قِبَل الكعبة فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ » . وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ أن يُوجّه نحو الكعبة؛ فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ » . وقد تقدّم هذا المعنى والقول فيه، والحمد لله .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ ﴾ أمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أى ناحية ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعنى الكعبة ، ولا خلاف فى هذا . قيـل : حيال البيت كله ؛ عن ٱبن عباس . وقال ٱبن عمر : حيال المِيزاب من الكعبة ؛ قاله ٱبن عطية . والمِيزاب : هو قِبلة المدينة وأهل الشام ، وهناك قبلة أهل الأندلس .

قلت : قـد روى ٱبن جُريج عن عطاء عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " البيتُ قِبْلَةٌ لأهل المسجد والمسجدُ قِبلةٌ لأهل الحَرَم والحَرَمُ قِبْلَةٌ لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى " .

الثانيـــة — : قوله تعالى : ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الشَّطْر له محامل : يكون الناحية والجهة ، كما فى هذه الآية ، وهو ظرف مكان ؛ كما تقول : تلقاءه وجهته . وٱنتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به][1] ، وأيضا فإن الفعـل واقع فيه . وقال داود بن أبى هنـد : إن فى حرف ٱبن مسعود « فَوَلِّ وَجْهَك تِلقاءَ المسجدِ الحرام » . وقال الشاعر[2] :

أقـول لأمّ زِنْبـاعٍ أقِيمى ٭ صُدورَ العِيسِ شَطْرَ بنى تَمِيم

وقال آخـــر :

وقد أظَلَّكُمُ من شَطْرِ ثَغرِكُمُ ٭ هَوْلٌ له ظُـلَمٌ يغشاكُمُ قِطَعا

وقال آخـــر :

ألاَ مَنْ مُبلِـغٌ عمرًا رسولًا ٭ وما تُغنِى الرسالةُ شَطْرَ عمرو

وشَطْرُ الشيء : نِصفُه ؛ ومنه الحديث : " الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان " . و يكون من الأضداد ، يقال : شَطَر إلى كذا إذا أقبل نحوه ، وشَطَر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنـه . فأما الشاطر من الرجال فلأنه قـد أخذ فى نحوٍ غير الاستواء ، وهو الذى أعيا أهلَه خُبْثًا ؛ وقد شَطَر وشَطُر (بالضم) شَطارةً فيهما . وسئل بعضهم عن الشاطر ، فقال : هـو من أخذ فى البعد عما نهى الله عنه .

(١) التكملة عن إعراب القرآن للنحاس .

(٢) هو أبو زنباع الجذامى . (عن اللسان) .

Marfat.com

الثـالثـــة — لا خلاف بين العلماء أنّ الكعبة قِبْلَةٌ فى كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فُرِض عليـه آستقبالها ، وأنه إن ترك آستقبالها وهـو معاينٌ لها وعالمٌ بجهتها فلا صـلاة له ، وعليه إعادة كلّ ما صلّى ؛ ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ؛ فإن خَفِيتْ عليه فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يسـتدلّ به على ناحيتها . ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهـه إلى الكعبة وينظر إليها إيمانًا وآحتسابًا ؛ فإنه يروَى أنّ النظر إلى الكعبة عبادة ؛ قاله عطاء ومجاهد .

الرابعـــة — وآختلفـوا هل فَرْض الغائب آسـتقبال العين أو الجهة ؛ فمنهـم من قال بالأوّل . قال آبن العربى : وهو ضعيف ؛ لأنه تكليف لمـا لا يصلُ[(1)] إليه . ومنهم من قال بالجهة ؛ وهـو الصحيح لثلاثة أوجه : الأوّل — أنه الممكن الذى يرتبـط به التكليف . الثـانى — أنه المأمور به فى القرآن ؛ لقوله تعـالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ » يعنى من الأرض من شرق أو غرب « فَـوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ » . الثالث — أن العلماء آحتجّوا بالصفّ الطويل الذى يُعلم قطعًا أنه أضعاف عرض البيت .

الخامســـة — فى هذه الآية حجة واضحة لمـا ذهب إليه مالك ومن وافقه فى أن المصلّى حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثورى وأبو حنيفة والشافعىّ والحسن بن حَىّ : يستحب أن يكون نظره إلى موضـع سجوده . وقال شريك القاضى : ينظر فى القيام إلى موضع السجود، وفى الركوع إلى موضع قدميه، وفى السجود إلى موضع أنفه، وفى القعود إلى حِجره . قال آبن العربى : إنما ينظر أمامه فإنه إن حَنَى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليـه فى الرأس وهو أشرف الأعضاء ، و إن أقام رأسـه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقّة عظيمة وحَرَج ، وما جعل علينا فى الدِّين من حَرَج ؛ أما إنّ ذلك أفضل لمن قدر عليـه .

(1) كذا فى كتاب الأحكام لابن العربى . وفى الأصول : « ما لا يوصل إليه » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعـني تحويل القِبلة من بيت المَقْدِس . فإن قيل : كيف يعلمـون ذلك وليس من دينهم ولا فى كتابهم ؟ قيل عنه جوابان : أحدهما — أنهم لمـا علموا من كتابهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيّ علموا أنه لا يقول إلا الحقّ ولا يأمر إلا به . الثانى — أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم ؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ تقـدّم معـ(١)ـناه . وقـرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « تعملون » بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الوجهين فهـو إعلام بأن الله تعالى لا يُهمل(٢) أعمال العباد ولا يغفل عنها ، وضمنه الوعيـد . وقرأ الباقون بالياء من تحت .

قوله تعـالى : وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ لأنهم كفروا وقـد تبيّن لهم الحق ، وليس تنفعهم الآيات ؛ أى العـلامات . وجمع قِبـلة فى التكسير : قِبَلٌ . وفى التسليم : قِبِلَاتٌ . ويجوز أن تبدل من الكسرة فتحة ، فتقول قِبَلات . ويجوز أن تحذف الكسرة وتسكن الباء فتقول قِبْلات . وأجيبت «لئن» بجواب « لو » وهى ضدّها فى أنّ « لو » تطلب فى جوابها المضيّ والوقوع ، و « لئن » تطلب الاستقبال ؛ فقال الفراء والأخفش : أجيبت بجواب « لو » لأن المعنى : ولو أتيت . وكذلك تُجاب « لو » بجواب « لئن » ، تقول : لو أحسنت أحسن إليك ؛ ومثله قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا(٣) » أى ولو أرسلنا ريحا . وخالفهما سيبويه فقال : إن معـنى « لئن » مخالف

(١) راجع جـ ١ ص ٤٦٦ ؛　(٢) فى ب : « بأن الله تعالى يعلم أعمال ... » .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥

Marfat.com

لمعـنى « لو » فلا يدخل واحد منهما على الآخر ؛ فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلتك . قال سيبويه : ومعنى « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا » ليظلّن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ لفـظ خبر و يتضمّن الأمر؛أى فلا تركن إلى شيء من ذلك . ثم أخبر تعالى أنّ اليهود ليست متّبعة قبلة النصارى ولا النصارى متّبعة قبلة اليهود ؛ عن السُّدّى وآبن زيد . فهذا إعلام بآختلافهم وتدابرهم وضـلالهم . وقال قوم : المعنى وما من آتبعك ممن أسلم منهم بمتّبع قبلة من لم يُسلم ، ولا من لم يُسلم قبلة من أسلم . والأوّل أظهر ، والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمراد أمّته ممن يجوز أن يتّبع هواه فيصير بآتباعه ظالمـًا ، وليس يجوز أن يفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالمـًا ؛ فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبيّ صلى الله عليه وسـلم وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه ، وخُوطب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم تعظيمًا للأمر ولأنه المنزل عليه . والأهـواء : جمع هوًى ، وقد تقـدّم (1) ؛ وكذا « مِنَ الْعِلْمِ » تقدّم أيضا (2) ، فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع بالأبتداء والخبر « يعرفونه » . و يصح أن يكون فى موضع خفض على الصفة لـ « لظالمين »، و « يَعْرِفُونَ » فى موضع الحال؛ أى يعرفون نبوّته وصدق رسالته؛ والضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقيل: « يعرفون » تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق؛ قاله آبن عباس وآبن جريج والربيع وقتادة أيضا .

(1) راجع ص ٩٤ من هذا الجزء .
(2) راجع ص ٩٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

وخص الأبناء فى المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمرّ عليــه من زمنه بُرهة لا يعرف فيها نفســه ، ولا يمرّ عليــه وقت لا يعرف فيه آبنه . ورُوِىَ أن عمــر قال لعبد الله بن سَلَام : أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف آبنك؟ فقال : نعم وأكثر، بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته فعرفتُه ، وآبنى لا أدرى ما كان من أُمّه .

قوله تعالى : ﴿ وإنَّ فَرِيقًا مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد وقتادة وخُصيف . وقيل : استقبال الكعبة ، على ما ذكرنا آنفا .

قوله تعــالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ظاهر فى صحة الكفر عنادًا ؛ ومثله : « وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ »[1] وقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

قوله تعــالى : ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى آستقبال الكعبة ، لا ما أخبرك به اليهــود من قِبلتهم . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قرأ « الحقّ » منصوبًا بـ«يعلمون » أى يعلمون الحق . ويصح نصبه على تقدير آلزم الحق . والرفع على الابتداء أو على إضمار مبتدأ، والتقدير هو الحق ، أو على إضمار فعل ، أى جاءك الحق . قال النحاس : فأمّا الذى فى « الأنبياء » « الحقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ »[2] فلا نعلم أحدًا قرأه إلا منصوبًا ؛ والفرق بينهما أن الذى فى سورة « البقرة » مبتدأ آية[3]، والذى فى الأنبياء ليس كذلك .

قوله تعــالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكين . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد أُمّته . يقال : آمترى فلان [فى] كذا إذا آعترضه اليقين مَرّةً والشكُّ أخرى فدافع إحداهما بالأخرى ؛ ومنه المِراء لأن كل واحد منهما يشكّ فى قول صاحبه . والآمتراء فى الشىء الشك فيه ، وكذا التمــارى . وأنشد الطبرىّ شاهدًا على أن الممترين الشاكون قول الأعشى :

تَــدُرّ على أَسْــؤُق المــمترِيـ ... ـن رَكْضًا إذا ما السَّرابُ آرْجَحَنّ

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٠ (٣) فى ا : « به » .

Marfat.com

قال آبن عطيــة : ووَهِمَ فى هــذا ؛ لأن أبا عبيــدة وغيره قال : الممترون فى البيت هم الذين يَمْرُون الخيل بأرجلهم هَمْزًا لتجْرِى كأنهم يحتلبون الجَرْىَ منها، وليس فى البيت معنى الشك كما قال الطبرى .

قلت : معنى الشك فيــه موجود ؛ لأنه يحتمل أن يختبر الفرسَ صاحبُه هــل هو على ما عهد منه من الجرى أمْ لا ؛ لئلا يكون أصابه شىء، أو يكون هذا عند أوّل شرائه فيُجريه ليعلم مقدار جَرْيِه . قال الجوهرى : ومَرَيْتُ الفرس إذا آستخرجت ما عنــده من الجرى بسوط أو غيره . والاسم المِرْيَةُ (بالكسر) وقــد تضم . ومَرَيْت الناقة مَرْيًا : إذا مسحْت ضَرعها لتدِرّ . وأَمْرَتْ هى إذا دَرّ لَبَنُها؛ والاسم المِرْيَةُ (بالكسر)، والضم غلط . والمِرْيَةُ : الشك ، وقد تضم ، وقرئ بهما .

قوله تعـالى : وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ الوِجْهة و زنها فِعْلة من المواجهة . والوجهة والجهة والوجه بمعنًى واحد، والمراد القِبْلة ؛ أى إنهم لا يتّبعون قِبلتك وأنت لا تتّبع قبلتهم ؛ ولكلٍّ وجهةٌ إمّا بحقٍّ و إمّا بهوًى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ «هو» عائد على لفظ كلّ لا على معناه؛ لأنه لو كان على المعنى لقال : هم مُوَلّوها وجوههم؛ فالهاء والألف مفعول أوّل والمفعول الثانى محذوف؛ أى هو موليها وجهه ونفســه . والمعنى : ولكلّ صاحب مِلّةٍ قِبلةٌ ، صاحب القبــلة مُوَلّيها وجهه، على لفظ كل؛ وهو قول الربيع وعطاء وآبن عباس . وقال علىّ بن سليمان : «مُوَلِّيها» أى متولّيها . وقرأ آبن عباس وآبن عامر « مُوَلّاها » على ما لم يسمّ فاعله . والضمير على هذه القراءة لواحد؛ أى ولكل واحد من الناس قبلة، الواحدُ مُوَلّاها أى مصروف إليها؛ قاله الزجاج . و يحتمل أن يكون على قراءة الجماعة « هو » ضمير آسم الله عن وجل و إن لم يجرله ذكر؛ إذ

Marfat.com

معلوم أنّ الله عز وجل فاعل ذلك ، والمعنى : لكل صاحب ملةٍ قبلةٌ اللهُ مُوَلِّيها إياه . وحكى الطبرى : أن قوما قرءوا « ولكلّ وجهةٍ » بإضافة كل إلى وجهة . قال ابن عطية : وخطّأها الطبرى ، وهى متّجهة ؛ أى فاستبقوا الخيرات لكل وجهــة ولّا كُمُوها ، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه ؛ أى إنمـا عليكم الطاعة فى الجميع . وقــدم قوله « ولِكُلٍّ وِجهة » على الأمر فى قوله : « فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ » للاهتمام بالوجهة كما يُقدّم المفعول ؛ وذكر أبو عمرو الدّانىّ هذه القراءة عن ابن عباس رضى الله عنهما . وسلِمت الواو فى « وجهة » للفرق بين عِدَة وزِنَة ؛ لأن جهــةً ظرف ، وتلك مصادر . وقال أبو علىّ : ذهب قوم إلى أنه مصدر شذّ عن القياس فسَلِم . وذهب قوم إلى أنه اسم وليس بمصدر . وقال غير أبى علىّ : وإذا أردت المصدر قلت جهة ، وقد يقال الجهة فى الظرف .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ ﴾ أى إلى الخيرات ، فحذف الحرف ؛ أى بادروا ما أمركم الله عز وجل من استقبال البيت الحـرام ؛ وإن كان يتضمّن الحثّ على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم ، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآى . والمعنى المراد المبادرة بالصــلاة أوّل وقتها ، والله تعـالى أعلم . روى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنمـا مَثَلُ المُهَجِّر إلى الصلاة كمَثَل الذى يُهْدِى البَدَنَة ثم الذى على أثَره كالذى يُهْدِى البقرة ثم الذى على أثره كالذى يُهدِى الكبش ثم الذى على أثره كالذى يُهْــدِى الدّجاجة ثم الذى على أثره كالذى يُهْدِى البيضــة " . وروى الدّارَقُطْنىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أحدكم ليصلّى الصلاة لوقتها وقــد ترك من الوقت الأوّل ما هو خير له من أهله وماله " . وأخرجه مالك عن يحيى بن سعيد قوله . وروى الدّارَقُطْنِى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الأعمال الصلاةُ فى أوّل وقتها" . وفى حديث ابن مسعود «أوّل وقتها» بإسقاط « فى » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبد الملك عن أبى مَحْذُورَة عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّلُ الوقت رضوانُ الله ووَسَطُ الوقت رحمةُ الله

Marfat.com

وآخرُ الوقت عفوُ الله" . زاد آبن العربى : فقال أبو بكر : رضوانُ الله أحبّ إلينا من عفوه؛ فإن رضوانه عن المحسنين وعفوه عن المُقَصِّرين؛ وهذا آختيار الشافعى . وقال أبو حنيفة : آخر الوقت أفضل؛ لأنه وقت الوجوب . وأمّا مالك ففصّل القول؛ فأما الصبح والمغرب فأوّل الوقت فيهما أفضل؛ أما الصبح فلحديث عائشة رضى الله عنها قالت: "إنْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى الصبح فينصرف النسـاء مُتَلَفِّعاتٍ بمُرُوطِهِنّ ما يُعرفن من الغَلَس" — فى رواية — "متلفِّفات" . وأما المغرب فلحديث سلمة بن الأكْوَع أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان يصلى المغرب إذا غَرَبت الشمس وتوارت بالحجاب؛ أخرجهما مسلم . وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قَـدَر عليه . روى آبن عمر قال : مكثنا [ذات](١) ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة؛ فخرج إلينا حين ذهب ثُلُث الليل أو بعـده، فلا ندرى أشىء شغله فى أهله أو غيرُ ذلك؛ فقال حين خرج : "إنكم لتنتظرون صلاةً ماينتظرها أهلُ دين غيرُكم ولولا أن يَثْقُل على أمّتى لصلّيتُ بهم هذه الساعة". وفى البخارىّ عن أنس قال : أخّر النبىّ صـلى الله عليه وسـلم صـلاة العشاء إلى نصف الليل ثم صلّى ...؛ وذكر الحديث . وقال أبو بَرْزَة : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستحبّ تأخيرها . وأمّا الظهر فإنها تأتى الناس [على](٢) غفـلة فيستحبّ تأخيرها قليـلًا حتى يتأهّبوا ويجتمعوا . قال أبو الفرج قال مالك : أوّل الوقت أفضلُ فى كل صلاة إلا للظهر فى شـدّة الحرّ . وقال آبن أبى أُوَيْس : وكان مالك يكره أن يصلى الظهر عند الزوال ولكن بعد ذلك، ويقـول : تلك صلاة الخوارج . وفى صحيح البخارى وصحيح الترمذىّ عن أبى ذرّ الغِفارىّ قال : كنا مع النـبىّ صلى الله عليه وسـلم فى سَفَر فأراد المؤذّن أن يؤذّن للظهر؛ فقال النـبىّ صلى الله عليه وسلم: "أَبْرِد" ثم أراد أن يؤذّن فقال له : "أَبْرِد" حتى رأينا فَىْء التُّلول؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إن شدّة الحرّ من فَيْح(٣) جهنم فإذا آشتدّ الحرّ فأبرِدُوا بالصلاة". وفى صحيح مسلم عن أنس أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى الظهر إذا زالت الشمس . والذى يجمع بين الحديثين مارواه أنس أنه إذا كان الحرّ أبرد بالصلاة، وإذا كان البرد عجّل .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم وسنن النسائى . (٢) الزيادة عن أحكام القرآن لابن العربى .
(٣) الفيح : سطوع الحرّ وفورانه .

Marfat.com

قال أبو عيسى الترمذي : « وقد اختار قوم [من أهل العلم][1] تأخير صـلاة الظهر فى شـدة الحر ، وهو قول ابن المبارك وأحمد و إسحاق . قال الشافعي : إنما الإبراد بصلاة الظهر إذا كان [مسجدا][1] ينتاب[2] أهله من البعد ، فأما المصلى وحده والذى يصلى فى مسـجد قومه فالذى أحب له ألا يؤخر الصلاة فى شدة الحر . قال أبو عيسى : ومعنى من ذهب إلى تأخير الظهر فى شـدة الحر هو أولى وأشبه بالاتباع[3] ، وأما ما ذهب إليـه الشافعي رحمه الله أن الرخصة لمن ينتاب من البعد وللمشقة على الناس ، فإن فى حديث أبى ذر رضى الله عنه مايدل على خلاف ما قال الشافعي . قال أبو ذر : كنا مع النبي صلى الله عليه وسـلم فى سفر فأذن بلال بصلاة الظهر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " [يا بلال][1] أبرد ثم أبرد ". فلو كان الأمر على ما ذهب إليه الشافعي لم يكن للإبراد فى ذلك الوقت معنى ؛ لاجتماعهـم فى السفر وكانوا لا يحتاجون أن ينتابوا من البعد » . وأما العصر فتقديمها أفضـل . ولا خلاف فى مذهبنا أن تأخير الصـلاة رجاء الجماعة أفضل من تقديمها ؛ فإن فضل الجماعة معـلوم ، وفضل أول الوقت مجهول وتحصيل المعلوم أولى ؛ قاله ابن العربي .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ شرط ، وجوابه : ﴿ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يعنى يوم القيامة . ثم وصف نفسه تعـالى بالقدرة على كل شيء لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبلى .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .　　(٢) انتاب : قصد .
(٣) كذا فى صحيح الترمذي . وفى الأصول : « تأخير الصلاة » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : هـذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها ؛ لأن موقع التحويل كان صعباً(١) فى نفوسهم جداً ؛ فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخف عليهـم وتسكن نفوسهـم إليه . وقيـل : أراد بالأول : ولّ وجهك شطر الكعبـة ؛ أى عاينها إذا صلّيت تلقـاءها . ثم قال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾ معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾. ثم قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار ؛ فكان هذا أمراً بالتوجّه إلى الكعبة فى جميع المواضع من نواحى الأرض .

قلت : هذا القول أحسن من الأوّل ؛ لأن فيه حملَ كلّ آية على فائدة . وقـد روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أنس بن مالك قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا كان فى سفر فأراد أن يصلّى على راحلته استقبل القبلة وكبّر ثم صلّى حيث توجّهت به . أخرجه أبو داود أيضا ، و به قال الشافعيّ وأحمد وأبو ثور . وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الاستقبال ؛ لحديث ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مُقْبِل من مكة إلى المدينة على راحلته ، قال : وفيه نزل « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » وقد تقدّم .

قلت : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن هذا من باب المطلق والمقيّد ؛ فقول الشافعيّ أَوْلَى ، وحديث أنس فى ذلك حديث صحيح . ويروى أن جعفر بن محمد سُئل ما معنى تكرير القَصَص فى القرآن ؟ فقال : عَلِم الله أن كلّ الناس لا يحفظ القرآن ، فلو لم تكن القصة مكرّرة لجاز أن تكون عند بعض الناس ولا تكون عند بعض ؛ فكُرِّرت لتكون عند من حفظ البعض .

قوله تعـالى : ﴿ لِئَـلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ قال مجاهـد : هم مشركو العرب . وحجّتهم قولهم : راجعتَ قبلتنا ، وقد أجيبوا عن هذا بقوله : « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » . وقيـل : معنى « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » لئلا يقـولوا لكم : قد أُمِرتم باستقبال الكعبة ولستم تَرَوْنها ؛ فلمـا قال عز وجل : « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا

(١) فى نسخ الأصل : « كان معنى » . والتصويب عن تفسير ابن عطية .

Marfat.com

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » زال هـذا . وقال أبو عبيدة : إنّ « إلّا » هاهنا بمعنى الواو ، أى والذين ظلموا ؛ فهو آستثناء بمعنى الواو ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

ما بالمدينــة دارٌ غيرُ واحــدة ＊ دار الخليفــة إلّا دارُ مَرْوانَا

كأنه قال : إلّا دار الخليفة ودارُ مَرْوان ؛ وكذا قيل فى قوله تعـالى : « إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[2] » أى الذين آمنوا . وأبطل الزجاج هذا القول وقال: هذا خطأ عنـد الحُذّاق من النحويين ، وفيـه بُطلان المعـانى ، وتكون « إلّا » وما بعدها مستغنًى عن ذكرها . والقول عندهم أن هذا آستثناء ليس مـن الأوّل ؛ أى لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجّون . قال أبو إسحاق الزجّاج : أى عرّفكم الله أمر الآحتجاج فى القبلة فى قـوله : « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا » ، « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّـاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّـةٌ » إلّا مَن ظلم بآحتجاجه فيما قد وضح له ؛ كما تقول : مالك علىّ حُجّةٌ إلا الظلم أو إلّا أن تظلمنى ؛ أى مالك حجةٌ ألبتّة ولكنك تظلمنى ، فسمّى ظلمه حُجّـة لأن المحتجّ به سمّاه حجة و إن كانت داحضة . وقال قُطْرُب : يجـوز أن يكون المعنى لئلا يكون للنـاس عليكم حجة إلّا على الذين ظلموا ؛ فالذين بدل من الكاف والميم فى « عليكم » . وقالت فرقة : « إِلَّا الَّذِينَ » آستثناء متّصل ؛ روى معناه عن آبن عباس وغيره ، وآختاره الطبرى وقال : نَفَى الله أن يكون لأحد حُجّة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى آستقبالهم الكعبة . والمعنى : لا حُجّةَ لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة . حيث قالوا : ما ولّاهم ، وتحيّر محمد فى دينه . وما توجّه إلى قبلتنا إلّا أنّا كنا أهدى منه ؛ وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلّا من عابد وَثَنٍ أو يهودى أو منافق . والحُجّـةُ بمعنى المحاجّة التى هى المخاصمة والمجادلة . وسمّاها الله حُجّة وحكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمة . وقال آبن عطية : وقيل إن الآستثناء منقطع ؛ وهـذا على أن يكون المراد بالنـاس اليهود ، ثم آستثنى كُفّار العـرب ، كأنه قال : لكن الذين ظلموا يحاجُّونكم ؛ وقوله « مِنهم » يردّ هذا التأويل . والمعنى لكن الذيـن ظلموا ، يعنى كفار قريش فى قولهم : رجع محمد إلى قبلتنا

(١) هو الفرزدق ؛ وأراد مروان بن الحكم . (عن شرح الشواهد) .
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١١٦

Marfat.com

وسيرجع إلى ديننـا كله . و يدخل فى ذلك كلّ من تكلّم فى النازلة من غير اليهود . وقرأ آبن عباس و زيد بن علىّ وآبن زيد « ألَا الذين ظَلَمُـوا » بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى آستفتاح الكلام ، فيكون « الذين ظلموا » آبتداء ، أو على معنى الإغراء، فيكون « الذين » منصوبًا بفعل مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ يريد الناس ﴿ وَٱخْشَوْنِى ﴾ الخَشْيَةُ أصلها طمأنينة فى القلب تبعث على التَّوقّى . والخوف : فزع القلب تخِف له الأعضاء، ولِخفّة الأعضاء به سُمّى خَوْفًا . ومعنى الآية التّحقير لكل مَن سوى الله تعالى، والأمر بآطّراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ معطوف على « لِئَـلَّا يَكُونَ » أى ولأن أُتِمّ ؛ قاله الأخفش . وقيـل : مقطوع فى موضع رفع بالآبتداء والخبر مضمر ، التقـدير : ولأُتِمّ نعمتى عليكم عرّفتكم قِبلتى؛ قاله الزجاج . و إتمـام النعمة الهداية إلى القِبْلة ، وقيل : دخول الجنة . قال سعيد بن جُبير : ولم تتم نعمة الله على عبـد حتى يُدخله الجنـة . و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تقـدّم .
(١) (٢)

قوله تعـالى : كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف؛ المعنى : ولأُتِمّ نعمتى عليكم إتمامًا مثل ما أرسلنا؛ قاله الفرّاء . قال آبن عطية : وهذا أحسن الأقوال؛ أى ولأتم نعمتى عليكم فى بيان سُنّة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا . وقيل : المعنى ولعلكم تهتدون آهتداء مثل ما أرسلنا . وقيل: هى فى موضع نصب على الحال، والمعنى: ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال . والتشبيه واقع على أن النعمة فى القِبلة كالنّعمة فى الرسالة ، وأن الذّكر المأمور به فى عظمه كعظم النعمة . وقيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير؛ أى فاذكرونى

(١) نص العبارة فى البحر المحيط لأبى حيان : « وقيل : تتعلق اللام بفعل مؤخر ، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى » .
(٢) يراجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

كما أرسلنا . روى عن علىّ رضى الله عنه وآختاره الزجاج . أى كما أرسلنا فيكم رسولا تعرفونه بالصدق فآذكرونى بالتوحيد والتصديق به . والوقف على « تَهْتَدُونَ » على هذا القول جائز .

قلت : وهذا آختيار الترمذىّ الحكيم فى كتابه ؛ أى كما فعلتُ بكم هذا من المنن التى عددتها عليكم فاذكرونى بالشكر أذكركم بالمزيد ؛ لأن فى ذكركم ذلك شكرًا لى ، وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر ، وهو قوله : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »[1] ؛ فالكاف فى قوله « كما » هنا ، وفى الأنفال « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ »[2] وفى آخر الحجر « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ »[3] متعلقة بما بعده ؛ على ما يأتى بيانه .

قوله تعـالى : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابُه ، وفيـه معنى المجازاة فلذلك جُزم . وأصـل الذِّكر التّنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له . وسُمى الذِّكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى ؛ غير أنه لمـا كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم .

ومعنى الآية : آذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال أيضا : الذكر طاعة الله ؛ فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن ، وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير ومن عصى الله فقد نسى الله وإن كثر صـلاته وصومه وصنيعه للخير" ؛ ذكره أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِ مَنْداد فى «أحكام القرآن» له . وقال أبو عثمان النَّهْدى : إنى لأعلم الساعة التى يذكرنا الله فيها ، قيل له : ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عز وجل : «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» . وقال السُّدِّى : ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله عز وجل ، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته ، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب . وسُئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ؟ فقال : آحمدوا الله تعالى على أن زَيّن جارحة من جوارحكم بطاعته . وقال ذو النُّون المصرى رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذِكْرًا على الحقيقة نَسِىَ فى جنب ذكره

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٦٠　　(٣) راجع جـ ١٠ ص ٥٧

Marfat.com

كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء. وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ما عمـل آبن آدم من عمـل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله . والأحاديث فى فضل الذكر وثوابه كثيرة خرّجها الأئمة . روى آبن ماجه عن عبد الله بن بُسر أن أعرابيًّا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قـد كثرت علىّ فأنبئنى منهـا بشيء أتشبّث به؛ قال : " لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله عز وجل " . وخرّج عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن الله عز وجل يقول أنا مع عبـدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه ". وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان عند قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا »(١) وأن المراد ذكر القلب الذى يجب آستدامته فى عموم الحالات .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ قال الفرّاء يقال : شكرتك وشكرت لك ، ونصـحتك ونصحت لك؛ والفصيح الأول(٢). والشكر معرفة الإحسان والتحدّث به ؛ وأصله فى اللغة الظهور؛ وقد تقدّم(٣) . فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له ؛ إلا أن شكر العبد نطقٌ باللسان و إقرارٌ بالقلب بإنعام الربّ مع الطاعات .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ نَهْىٌ؛ ولذلك حُذفت منه نون الجماعة ، وهذه نون المتكلم . وحذفت الياء لأنها رأس آية ، و إثباتها أحسن فى غير القرآن؛ أى لا تكفروا نعمتى وأيادى . فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد مضى القول فى الكفر لغة(٤) ، ومضى القول فى معنى الاستعانة(٥) بالصبر والصلاة ، فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٧ (٢) الذى فى معاجم اللغة أن الفصيح الثانى . (٣) تراجع المسألة الثالثة وما بعدها جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية . (٤) يراجع جـ ١ ص ١٨٣ . (٥) يراجع جـ ١ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

Marfat.com

هذا مِثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » ، وهناك يأتى (١) الكلام فى الشهداء وأحكامهم ، إن شاء الله تعالى .

وإذا كان الله تعـالى يحييهم بعـد الموت ليرزقهم — على ما يأتى — فيجوز أن يحـيى الكفار ليعذبهم ، ويكون فيه دليل على عذاب القبر . والشهداء أحياء كما قال الله تعالى ، وليس معناه أنهم سيحيون ؛ إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء و بين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون . وآرتفع «أموات» على إضمار مبتدأ ، وكذلك «بل أحياء» أى هم أموات وهم أحياء ، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب ؛ كما يصح فى قولك : قلت كلاما وحجة .

قوله تعـالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ هذه الواو مفتوحة عند سيبويه لآلتقاء الساكنين . وقال غيره : لمـا ضُمّت إلى النون الثقيلة بُنِى الفعل فصار بمنزلة خمسةَ عشر . والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا . وأصله المحنة ، وقد تقدّم (٢) . والمعنى لنمتحننّكم لنعلم المجاهـد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء ، كما تقدّم . وقيل : إنما ابتُلُوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صـبروا على هذا حين وضح لهم الحق . وقيـل : أعلمهم بهـذا ليكونوا على يقين منه أنه يصيبهم ، فيوطّنوا أنفسهم عليه فيكونوا أبعد لهم من الجزع ، وفيـه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس .

قوله تعالى : ﴿ بِشَىْءٍ ﴾ لفظ مفرد ومعناه الجمع . وقرأ الضحاك « بأشياء » على الجمع . وقرأ الجمهور بالتوحيد ، أى بشيء من هـذا وشيء من هذا ، فآكتفى بالأول إيجازا ﴿ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾ أى خوف العدو والفزع فى القتال ، قاله آبن عباس . وقال الشافعى : هو خوف

(١) راجع ج ٤ ص ٢٦٨ (٢) راجع المسألة الثالثة عشرة ج ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

الله عز وجل . ﴿ والجُــوع ﴾ يعنى المجاعة بالجدب والقحط ؛ فى قــول ابن عباس . وقال الشافعى : هو الجوع فى شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾ بسبب الاشتغال بقتال الكفار. وقيل : بالجوائح المتلفة . وقال الشافعى : بالزكاة المفروضة . ﴿ والأَنْفُس ﴾ قال ابن عباس : بالقتل والموت فى الجهاد . وقال الشافعى : يعنى بالأمراض . ﴿ والثَّمَرَاتِ ﴾ قال الشافعى : المــراد موت الأولاد ، وولد الرجل ثمرة قلبــه ؛ كما جاء فى الخـبر ، على ما يأتى . وقال ابن عباس : المراد قلة النبات وانقطاع البركات .

قوله تعـالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ أى بالثواب على الصــبر . والصبر أصله الحبس ، وثوابه غير مقدر ؛ وقد تقدم.[1] لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ؛ كما روى البخارى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . وأخرجه مسلم أتم منه ؛ أى إنما الصبر الشاق على النفس الذى يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتهـا ؛ فإنه يدل على قوة القلب وتثبته فى مقام الصــبر ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك ؛ ولذلك قيــل : يجب على كل عاقل أن يلتزم عنـد المصيبة ما لا بد للأحمق منه بعد ثلاث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى : لمـا قال تعالى : « وبَشِّرِ الصَّابرين » صار الصبر عيشاً[2] . والصبر صبران : صبر عن معصية الله ، فهذا مجاهد ، وصبر على طاعة الله ، فهــذا عابد . فإذا صبر عن معصية الله وصــبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ؛ وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات . وقال الخواص : الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة . وقال رُوَيم : الصبر ترك الشكوى . وقال ذو النون المصرى : الصــبر هو الاستعانة بالله تعـالى . وقال الأسـتاذ أبو على : الصــبر حده ألا تعترض على التقدير ؛ فأما إظهار البــلوى على غير وجه الشكوى فــلا ينافى الصبر ؛ قال الله تعالى فى قصــة أيوب : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ ٱلْعَبْدُ »[3] مع ما أخبر عنه أنه قال : « مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ » .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ (٢) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢١٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ المصيبة : كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه ؛ يقال : أصابه إصابة ومُصابة ومُصابا . والمصيبة واحدة المصائب . والمَصُوبة (بضم الصاد) مثل المصيبة . وأجمعت العرب على همز المصائب ، وأصله الواو ؛ كأنهم شبّهوا الأصلي بالزائد ، ويجمع على مصاوب ، وهو الأصل . والمصابُ الإصابةُ ؛ قال الشاعر :

أسُليم إن مُصابكم رجلًا　＊　أهدى السلام تحيةً ظُلْمُ

وصاب السَّهمُ القرطاسَ يَصيب صَيْبًا ؛ لغة في أصابه . والمصيبة : النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت ؛ وتستعمل في الشر ؛ روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم آنطفأ ذات ليلة فقال : « إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فقيل : أمصيبة هي يا رسول الله ؟ قال : " نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة " .

قلت : هذا ثابت معناه في الصحيح ، خرّج مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضى الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن حتى الهَمّ يُهَمُّه (١) إلا كُفِّر به من سيئاته " .

الثانيـة — خرّج آبن ماجه في سننه حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث آسترجاعًا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب " .

---

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم : « قال القاضي : هو بضم الياء وفتح الهاء على ما لم يسم فاعله ، وضبطه غيره بفتح الياء وضم الهاء ، أي يغمه ، وكلاهما صحيح » .

Marfat.com

الثالثـــة — من أعظم المصائب المصيبة فى الدّين؛ ذكر أبو عمر عن الفِرْيَابِىّ قال حدّثنا فِطْر بن خليفــة حدّثنا عطاء بن أبى رَبَاح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فإنها من أعظم المصائب". أخرجه السَّمرقندى أبو محمــد فى مسنده ، أخبرنا أبو نعيم قال : أنبأنا فطر... ؛ فذكر مثله سواء . وأسند مثله عن مكحول مرسلا . قال أبو عمر : وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ؛ انقطع الوَحْى وماتت النبوّة . وكان أوّل ظهور الشر بآرتداد العرب وغير ذلك ، وكان أوّل آنقطاع الخير وأوّل نقصانه . قال أبو سعيد : ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا . ولقد أحسن أبو العناهية فى نظمه معنى هذا الحديث حيث يقول :

اصــبِرْ لكل مصيبة وتَجَــلَّدِ * وآعــلم بأن المرءَ غيرُ مُخَــلَّدِ
أو مَا ترى أن المصائب جَمَّـــةٌ * وترى المنيّــةَ للعبــاد بمَرْصَــدِ
مَن لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة؟ * هــذا سبيلٌ لستَ فيــه بأوحد
فإذا ذكـرتَ محمدا ومصــابه * فآذكــر مصابك بالنبىّ محمد

الرابعـــة — قوله تعــالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوى المصائب ، وعصمة للممتحَنين؛ لمــا جمعت من المعــانى المباركة ؛ فإن قوله : « إنّا لله » توحيد و إقرار بالعبودية والملك . وقوله : « وإنا إليــه راجعون » إقرار بالهُلْك على أنفسنا والبعث من قبورنا؛ واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له .قال سعيد آبن جبير رحمــه الله تعالى : لم تعط هذه الكلمات نبيًّــا قبل نبيّنا ، ولو عرفها يعقوب لمــا قال : يا أَسَفَى على يوسف .

الخامســـة — قال أبو سنان : دفنت آبنى سنانا ، وأبو طلحة الخَوْلانى على شفير القبر؛ فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأنشطنى وقال : ألا أبشّرك يا أبا ســنان ، حدّثنى الضحاك عن أبى موسى أن النبىّ صلى الله عليه وســلم قال : " إذا مات ولد العبــد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فماذا قال عبدى

Marfat.com

فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمــد" .

وروى مسلم عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل إنا لله وإنا إليه راجعون اللّهمّ أجُرْنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها" . فهذا تنبيه على قوله تعـالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » إمّا بالخلف كما أخلف الله لأمّ سلمة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه تزوّجها لمـا مات أبو سلمــة زوجها . وإمّا بالثواب الجــزيل ؛ كما فى حديث أبى موسى ، وقد يكون بهما .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ هـذه نِعَمٌ من الله عز وجل على الصابرين المسترجعين . وصلاة الله على عبده : عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه فى الدنيـا والآخرة . وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن . ومن هــذا الصلاةُ على الميت إنمـا هو الثناء عليــه والدعاء له ؛ وكرر الرحمة لمـا اختلف اللفظ تأكيدًا وإشباعًا للمعنى ؛ كما قال : « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُـدَى » ، وقوله « أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » . وقال الشاعر :

صلّى على يحيى وأشيـاعه * ربٌّ كريمٌ وشفيعٌ مطاعْ

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة . وفى البخارى وقال عمر رضى الله عنه : نِعم العِدلان ونعم العِـلاوة : « الذين إذا أصابَتْهم مُصيبةٌ قالُوا إنّا لله وإنّا إليه راجعُونَ . أولئك عليهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم ورَحْمَةٌ وأولئكَ هُمُ المُهْتَدُونَ» . أراد بالعِدلين الصلاة والرحمة، وبالعِلاوة الاهتـداء . قيل : إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر ، وقيــل : إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

Marfat.com

فيه تسع مسائل :

الأولى ـ روى البخارىّ عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصّفا والمَرْوَة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما ؛ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » . وخرّج الترمذىّ عن عروة قال : « قلت لعائشة ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا ، وما أبالى ألّا أطوف بينهما . فقالت : بئس ماقلت يابن أختى! طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون ، و إنما كان من أَهَلَّ لِمَنَاة[(١)] الطاغية التى بِالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة ؛ فأنزل الله تعالى : « فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » ولو كانت كما تقول لكانت : « فلا جناح عليه ألّا يَطَّوَّف بهما » . قال الزُّهْرِىّ : فذكرت ذلك لأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال : إن هـذا لَعِلْمٌ ، ولقد سمعت رجالا من أهـل العلم يقولون : إنمـا كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهليـة . وقال آخرون من الأنصار : إنمـا أُمِرنا بالطواف [بالبيت][(٢)] ولم نؤمر به بين الصفا والمَرْوَة ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ » قال أبو بكر بن عبـد الرحمن : فأراها قد نزلت فى هؤلاء وهؤلاء . قال : « هذا حديث حسن صحيح » . أخرجه البخارى بمعناه ، وفيه بَعْدَ قوله فأنزل الله تعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله » : « قالت عائشة وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » ؛ ثم أخبرت أبا بكر بن عبـد الرحمن فقال : إن هـذا لَعِلْمٌ ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس ـ إلا مَن ذكرتْ عائشةُ ـ ممن كان يُهِلّ بمناة كانوا يطوفون كلهم بالصّفا والمروة ؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن قالوا : يارسول الله ، كنا نطوف بالصفا والمروة ، و إن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا ، فهل علينا من حَرَج أن

(١) مناة : اسم صنم فى جهة البحر مما يلى قديدا بالمشلل (وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر) على سبعة أميال من المدينة . وكانت الأزد وغسان يُهلون له و يحجون إليه ، وكان أول من نصبه عمرو بن لحيّ الخزاعى . (راجع معجم ياقوت فى اسم مناة) .

(٢) زيادة عن الترمذى .

Marfat.com

نطوف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » الآية .
قال أبو بكر : فأسمع هــذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما . فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا فى الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام؛ من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعــد ما ذكر الطواف بالبيت » . وروى الترمذى عن عاصم بن سليمان الأحول قال : « سألت أنس بن مالك[1] عن الصفا والمروة فقــال : كانا من شعائر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » قال : هما تطوع ، « ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » . قال : هذا حديث حسن صحيح » . خرجه البخارى أيضا . وعن ابن عباس قال : كان فى الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يارسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك ؛ فنزلت . وقال الشعبى : كان على الصفا فى الجاهلية صنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صنم يسمى « نائلة » فكانوا يمسحونهما إذا طافوا ؛ امتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثانيـــة — أصل الصفا فى اللغة الحجر الأملس ؛ وهو هنا جبل بمكة معروف، وكذلك المروة جبل أيضا ؛ ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف . وذكر الصفا لأن آدم المصطفى صــلى الله عليه وسلم وقف عليه فسمى به ، ووقفت حواء على المروة فسميت باسم المــرأة ، فأنث لذلك ؛ والله أعلم . وقال الشعبى : كان على الصفا صــنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صــنم يدعى « نائلة » فاطرد ذلك فى التذكير والتأنيث وقدم المذكر ، وهذا حسن ؛ لأن الأحاديث المذكورة تدل على هذا المعنى . وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ؛ حتى رفع الله الحرج فى ذلك . وزعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين

(١) كذا فى الأصول وصحيح البخارى وتفسير الطبرى . والذى فى صحيح الترمذى : « أنس بن سيرين ... » وهو مولى أنس بن مالك وممن روى عنه .

Marfat.com

فوضعهما على الصفا والمروة ليُعتبر بهما؛فلما طالت المدّة عُبِدا من دون الله؛ والله تعالى أعلم .

والصفا (مقصور) : جمع صَفاة ، وهى الحجارة الملس . وقيل : الصفا آسم مفرد، و جمعه صُفِىّ (بضم الصاد) وأصفاء على مثل أرحاء . قال الراجز:(١)

كأنّ مَتْنَيْه(٢) من النَّفِىّ * مواقعُ الطير على الصُّفِىّ

وقيل : من شروط الصفا البياض والصلابة ؛ وآشتقاقه من صفا يصفو ، أى خَلَص من التراب والطين . والمروة (واحدة المَرْو) وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقد قيل إنها الصلاب . والصحيح أن المرو الحجارة صليبها و رخوها الذى يتشظّى وترقّ حاشيته؛ وفى هذا يقال : المرو أكثر و يقال فى الصليب . قال الشاعر :

وتولّى الأرض خفًّا ذابلًا * فإذا ماصادف المرو رضخ

وقال أبو ذؤيب :

حتى كأنى للحوادث مَرْوة * بصَفَا المُشَقَّر(٣) كل يوم تُقْرَعُ

وقد قيل : إنها الحجارة السود . وقيل : حجارة بيض برّاقة تكون فيها النار .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أى من معالمه ومواضع عباداته ؛ وهى جمع شعيرة . والشعائر : المتعبّدات التى أشعرها الله تعالى ؛ أى جعلها أعلاما للناس ، من الموقف والسّعْى والنّحر . والشِّعار : العلامة ؛ يقال : أشعر الهَدْىَ أعلَمَه بغرز حديدة فى سَنَامه ؛ من قولك : أشعرت أى أعلمت ، وقال الكُميت :

نُقتّلهم جِيلًا فجِيلًا تَراهُمُ * شعائرَ قُرْبَانٍ بهم يُتقرّبُ

(١) هو الأخيل؛ كما فى اللسان . (٢) فى اللسان : « قال آبن سيده : كذا أنشده أبو على، وأنشده آبن دريد فى الجمهرة : « كأن متنى » قال : وهو الصحيح ، لقوله بعده : من طول إشرافى على الطَّوِىّ . والنَّفِىّ : تطاير الماء عن الرشاء عند الآستقاء . ونفى المطر : ما تنفيه وترشه . قال صاحب اللسان : « وفسره ثعلب فقال : شبه المتن، وقد وقع على متن المستقى بذرق الطائر على الصفى » . (٣) المشقر: حصن بالبحرين عظيم لعبد القيس يلى حصنا لهم آخر يقال له الصفا قبل مدينة هجر . ويروى « بصفا المشرق » قال أبو عبيدة . المشرق سوق الطائف . وقال الأصمعى : المشرق المصلّى . (عن شرح الديوان ومعجم ياقوت) .

Marfat.com

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ أى قصد . وأصل الحج القصد ، قال الشاعر (١) :

فأشهدُ مِن عَوْفٍ حُلولًا (٢) كثيرةً * يَحُجّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرا

السِّب : لفظ مشترك . قال أبو عبيدة : السِّبّ (بالكسر) الكثير السِّباب . وسِبُّك أيضا الذى يُسابّك ؛ قال الشاعر (٣) :

لا تَسُبَّنَّنِي فلست بِسِبِّي * إنّ سِبِّي من الرّجال الكريمُ

والسِّبّ أيضا الخمار ، وكذلك العمامة ؛ قال المُخَبَّل السّعدى :

* يَحُجّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرَا *

والسِّبّ أيضا الحبل فى لغة هذيل ؛ قال أبو ذؤيب :

تَـدَلّى عليهـا بين سِبٍّ وخَيْطَـةٍ * بجَرْداءَ مثلِ الوكفِ يكبُو غُرابُها

والسُّبوب : الحبال . والسِّبّ : شُقّة كتّان رقيقة ، والسّبيبة مثله ؛ والجمع السُّبوب والسبائب ؛ قاله الجوهرى . وحجّ الطبيب الشّجّة إذا سبرها بالمِيل ؛ قال الشاعر (٤) :

* يحج مأمُومةً (٥) فى قعرها لَجَفُ *

اللَّجَف : الخَسْف . تلجّفت البئر : انخسف أسفلها . ثم اختص هـذا الاسم بالقصد إلى البيت الحرام لأفعال مخصوصة .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ أى زار . والعُمْرة : الزيارة ؛ قال الشاعر (٦) :

لقد سمـا ٱبن مَعْمَرٍ حين ٱعْتَمَرْ * مَغْزًى بعيـدا من بعيـد وضَبَرْ (٧)

---

(١) هو المخبل السعدى كما سيجىء . (٢) الحلول : الأحياء المجتمعة ، وهو جمع حال . والمزعفر : الملون بالزعفران ، وسادات العرب تصبغ عمائمها بالزعفران . (٣) هو عبد الرحمن بن حسان يهجو مسكينا الدارمى . (عن اللسان) . (٤) هو عذار بن درّة الطائى ؛ كما فى اللسان . وتمام البيت :

* فآست الطبيب قـذاها كالمغاريد *

(٥) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس ، وهى الجلدة التى تجمع الدماغ . وفى اللسان : « وفسر ابن دريد هذا الشعر فقال : وصف هـذا الشاعر طبيبا يداوى شجة بعيدة القعر فهو يجزع من هولها ؛ فالقذى يتساقط من آسته كالمغاريد » . والمغاريد : جمع مغرود وهو صمغ معروف .

(٦) هو العجاج يمدح عمر بن عبيد الله القرشى . عن اللسان . (٧) ضبر : جمع قوائمه ليثب .

Marfat.com

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـهِ ﴾ أى لا إثم . وأصـله من الجنوح وهو الميل ؛ ومنه الجوانح للأعضاء لأعوجاجها . وقد تقدّم تأويل عائشة لهذه الآية . قال آبن العربى : «وتحقيق القول فيه أن قول القائل : لا جناح عليك أن تفعل؛ إباحة الفعل . وقوله : لا جناح عليك ألّا تفعـل ؛ إباحة لترك الفعل ؛ فلما سمع عروة قول الله تعـالى : « فلا جناح عليـهِ أنْ يطّوف بهما » قال : هذا دليـل على أن ترك الطواف جائز؛ ثم رأى الشريعـة مطبقة على أن الطواف لا رخصـة فى تركه فطلب الجمع بين هـذين المتعارضين . فقالت له عائشة : ليس قوله : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » دليلا على ترك الطواف، إنما كان يكون دليلا على تركه لو كان « فلا جناح عليه ألّا يطوّف بهما » فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف ، ولا فيه دليل عليه ؛ و إنما جاء لإفادة إباحة الطـواف لمن كان يتحرّج منه فى الجاهلية ، أو لمن كان يطوف به فى الجاهلية قصدا للأصنام التى كانت فيه ؛ فأعلمهم الله سبحانه أن الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصدا باطلا » .

فإن قيل : فقد روى عطاء عن آبن عباس أنه قرأ « فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما » وهى قراءة آبن مسعود، ويروى أنها فى مصحف أبَيّ كذلك، ويروى عن أنس مثل هذا . والجـواب أن ذلك خلاف ما فى المصحف، ولا يترك ما قد ثبت فى المصحف إلى قـراءة لا يدرى أصحّت أم لا ؛ وكان عطاء يكثر الإرسال عن آبن عباس من غير سمـاع . والرواية فى هذا عن أنس قد قيل إنها ليست بالمضبوطة؛ أو تكون « لا » زائدة للتوكيد؛ كما قال :

وما ألوم البِيض ألا تسـخرا * لمـا رأينَ الشـمطَ القَفَنْدَرا [(١)]

السابعـــة ــ روى الترمذى عن جابر أنـــ النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قـدم مكة فطاف بالبيت سبعا فقرأ : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فآستلمه ثم قال : "نبدأ بمـا بدأ الله به" فبدأ بالصفا وقال [(٢)] : « إن الصفا والمروة من

---

(١) القفندر : القبيح المنظر . (٢) الذى فى صحيح الترمذى : « وقرأ » .

Marfat.com

شعائر الله » قال : هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة ؛ فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه و يبدأ بالصفا .

الثامنــــة ـــ واختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة ؛ فقال الشافعي وابن حنبل : هو ركن ؛ وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لقوله عليـه السلام : " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي ". خرّجه الدارقطني . وكتب بمعنى أوجب ؛ لقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » ، وقوله عليـه السلام : " خمس صلوات كتبهن الله على العبـاد " . وخرّج ابن ماجه عن أم ولد لشَيْبة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول : " لا يُقطع الأبطح إلا شَدًّا[1] " فمن تركه أو شوطا منه ناسيًا أو عامدًا رجع من بلده أو من حيث ذكر إلى مكة ، فيطوف و يسعى ؛ لأن السعي لا يكون إلا متصلا بالطواف . وسواء عند مالك كان ذلك في حج أو عُمْرة و إن لم يكن في العمرة فرضًا ، فإن كان قد أصاب النساء فعليه عُمرة وهَدْيٌ عند مالك مع تمام مناسكه . وقال الشافعي : عليه هَدْيٌ ، ولا معنى للعمرة إذا رجع وطاف وسعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشعبي : ليس بواجب ، فإن تركه أحدٌ من الحاج حتى يرجع إلى بلاده جبره بالدّم ؛ لأنه سُنّة من سنن الحج . وهو قول مالك في العتبية[2] . وروى عن ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنه تطوّع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي «يطوّعْ» مضارع مجزوم ، وكذلك « فمن تطوّع خيرا فهو خير له » الباقون « تطوّع » ماضٍ ؛ وهو ما يأتيه المؤمن من قِبل نفسه فمن أتى بشيء من النوافل فإن الله يشكره . وشكر الله للعبد إثابتـه على الطاعة . والصحيح ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى لما ذكرنا ، وقوله عليه السلام : " خذوا عنّي مناسككم " فصار بيانًا لمجمل الحج ؛ فالواجب أن يكون فرضًا ؛ كبيانه لعدد الركعات ، وما كان مثل ذلك إذا لم يتفق على أنه سُنّة أو تطوع . وقال طُليب : رأى ابن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أُمّكم أم إسماعيل .

(١) شدًّا : أي عدوًا .

(٢) العتبية : كتاب في مذهب الإمام مالك ، نسبت إلى مؤلفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة ٢٥٤ هـ .

Marfat.com

قلت : وهذا ثابت فى صحيح البخارى ، على ما يأتى بيانه فى سورة « إبراهيم »[1] .

التاســعة — ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبًا إلا من عذر ؛ فإن طاف معذورا فعليه دم ، وإن طاف غير معذور أعاد إن كان بحضرة البيت ، وإن غاب عنه أَهْدَى . إنمـا قلنا ذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بنفسه وقال : " خذوا عنى مناسككم " . وإنما جوزنا ذلك من العذر؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم طاف على بعيره وٱستلم الركن بمِحْجَنِه[2] ، وقال لعائشة وقد قالت له : إنى أشتكى ؛ فقال : " طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة " . وفرّق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان؛ فإن طاف على ظهر إنسان لم يجزه؛ لأنه حينئـذ لا يكون طائفا ، وإنما الطائف الحامل . وإذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهذه تفرقة ٱختيار،وأما الإجزاء فيجزئ؛ ألا ترى أنه لو أغمى عليه فَطِيف به محمولا ، أو وقف به بعرفات محمولًا كان مجزئا عنه .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (١٥٩)

فيه سبع مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى أن الذى يكتم ما أنزل من البيّنات والهُدَى ملعون . وٱختلفوا مَن المراد بذلك؛ فقيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كتم اليهودُ أمرَ الرجم . وقيل : المراد كل من كتم الحق ؛ فهى عامة فى كل من كتم علمًا من دين الله يحتاج إلى بثّه ؛ وذلك مفسّر فى قوله صلى الله عليه وسلم : "من سئل عن علم [يعلمه][3] فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص ، أخرجه ٱبن ماجه . ويعارضه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال عليه السلام : " حدّث الناس بمـا يفهمون أتحبون أن

(١) راجع ج ٩ ص ٣٦٨ (٢) المحجن : عصا معوجة الرأس يتناول بها الراكب ماسقط له .

(٣) الزيادة عن سنن ٱبن ماجه .

Marfat.com

يكذب الله ورسوله ". وهذا محمول على بعض العلوم ، كعلم الكلام أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العوام؛ فحكم العالم أن يحدّث بما يُفهم عنه، و ينزل كل إنسان منزلته؛ والله تعالى أعلم .

الثانيـــة — هـذه الآية هى التى أراد أبو هريرة رضى الله عنـه فى قوله : لولا آية[(١)] فى كتاب الله تعالى ما حدّثتكم حديثا . وبها آستدلّ العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة، دون أخذ الأجرة عليه؛ إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله ، كما لا يستحق الأجرة على الإسلام . وقد مضى القول[(٢)] فى هذا .

وتحقيق الآية هو : أن العالم إذا قصـد كتمان العلم عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره . وأمّا من سُئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث . أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يُسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق ، ولا يُعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله ، ولا السلطان تأويلا يتطرق به إلى مكاره الرعية، ولا ينشر الرُّخص فى السفهاء فيجعلوا ذلك طريقا إلى آرتكاب المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك . يُرْوَى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها فتظلموها ". وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تعلّقوا الدُّرّ فى أعناق الخنازير " ؛ يريد تعليم الفقه من ليس من أهله . وقد قال سُحْنون : إن حديث أبى هريرة وعمرو بن العاص إنما جاء فى الشهادة . قال آبن العربى : والصحيح خلافه؛ لأن فى الحديث " مَن سُئل عن علم " ولم يقل عن شهادة ، والبقاء على الظاهر حتى يرد عليه ما يزيله ، والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾ يعمّ المنصوص عليـه والمستنبط، لشمول آسم الهدى للجميع . وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله ، وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا » فحكم بوقوع البيان بخبرهم .

(١) الذى فى صحيح البخارى وسنن ابن ماجه : « لولا آيتان » .
(٢) تراجع المسألة الثانيـة جـ ١ ص ٣٣٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

فإن قيـل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهياً عن الكتمان ومأموراً بالبيان ليكثر المخبرون ويتواتر بهـم الخبر . قلنا : هذا غلط ؛ لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليـه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجباً للعلم ؛ والله تعـالى أعلم .

الرابعــة — لمـا قال : « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » دلّ على أن ما كان من غير ذلك جائز كَتْمه ، لا سيما إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك آكد فى الكتمان . وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وِعاءَيْن ؛ فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلْعوم . أخرجه البخارى . قال أبو عبد الله[1] : البلعوم مجرى الطعام . قال علماؤنا : وهذا الذى لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل إنما هو ممـا يتعـلق بأمر الفتن والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ، ونحو هذا ممـا لا يتعلق بالبينات والهدى ؛ والله تعالى أعلم .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ ﴾ الكناية فى « بيناه » ترجع إلى ما أنزل من البينات والهدى . والكتاب : اسم جنس ؛ فالمراد جميع الكتب المنزلة .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ أى يتبرأ منهم ويبعـدهم من ثوابه ويقول لهم : عليكم لعنتى ؛ كما قال للّعين : « وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى » . وأصـل اللعن فى اللغة الإبعاد والطرد ؛ وقد تقدم[2] .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ قال قتادة والربيع : المراد بـ« اللاعنون » الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطية : وهـذا واضح جارٍ على مقتضى الكلام . وقال مجاهـد وعكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علمـاء السوء الكاتمين فيلعنونهـم . قال الزجاج : والصواب قول من قال : « اللاعنون » الملائكة والمؤمنون ؛ فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذينك شيئا .

(١) أبو عبد الله : كنية البخارى رضى الله عنه.
(٢) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » قال : " دواب الأرض " . أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح أنبأنا عمار بن محمد عن ليث عن أبى المنهال عن زاذان عن البراء ؛ إسناد حسن .

فإن قيل : كيف جمع من لا يعقل جمع من يعقل؟ . قيل : لأنه أسند إليهم فعل من يعقل ؛ كما قال « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ »(١) ولم يقل ساجدات ، وقد قال : « لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا »(٢) ، وقال : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ »(٣) ، ومثله كثير ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

وقال البراء بن عازب وابن عباس : «اللاعنون» كل المخلوقات ما عدا الثقلين : الجن والإنس ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الكافر إذا ضُرب فى قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع " وقال ابن مسعود والسُّدى : هو الرجل يلعن صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذى قيلت فيه أهلًا لذلك ، فترجع إلى الذى تكلم بها فلا تجده أهلًا فتنطلق فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعالى ؛ فهو قوله : « وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه فكانت فيمن بقى من اليهود .

قوله تعالى : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثنى تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم . ولا يكفى فى التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تبت ، حتى يظهر منه فى الثانى خلاف الأول ؛ فإن كان مرتدًّا رجع إلى الإسلام مظهرا شرائعه ؛ وإن كان من أهل المعاصى ظهر منه العمل الصالح ، وجانب أهل الفساد والأحوال التى كان عليها . وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام . وهكذا يظهر عكس ما كان عليه . وسيأتى بيان التوبة وأحكامها فى « النساء »(٤) إن شاء الله تعالى . وقال بعض العلماء فى قوله :

(١) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٠ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤
(٤) راجع جـ ٥ ص ٩٠

Marfat.com

﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ أى بكسر الخمر وإراقتها . وقيل : « بَيَّنُوا » يعنى ما فى التوراة من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب آتباعه . والعموم أَوْلى على ما بيّناه؛ أى بيّنوا خلاف ما كانوا عليه؛ والله تعالى أعلم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تقدّم[1] والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الواو واو الحال . قال آبن العربى : قال لى كثير من أشياخى إن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه ؛ لأن حاله عند الموافاة لا تُعلم ، وقد شرط الله تعالى فى هـذه الآية فى إطلاق اللعنة : الموافاة على الكفر ؛ وأما ما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لعن أقواما بأعيانهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بمآلهم . قال آبن العربى : والصحيح عندى جواز لعنه لظاهر حاله ولجواز قتله وقتاله ؛ وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اللّهُمّ إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر فالعنه وآهجه عدد ما هجانى" . فلعنه ، وإن كان الإيمان والدّين والإسلام مآله . وآنتصف بقوله : "عدد ما هجانى" ولم يزد ليعلم العدل والإنصاف ، وأضاف الهَجْوَ إلى الله تعالى فى باب الجزاء دون الآبتداء بالوصف بذلك ؛ كما يضاف إليه المكر والآستهزاء والخديعة . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا .

قلت : أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف فى ذلك ؛ لما رواه مالك عن داود ابن الحُصَين أنه سمع الأعرج يقول : ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة فى رمضان . قال علماؤنا : وسواء كانت لهم ذمّة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ، ولكنه مباح لمن

(١) تراجع المسألة الخامسة وما بعدها ج ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

فعـله ؛ بجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهـله . وكذلك كل مَن جاهر بالمعاصى كشُرّاب الخمر وأكلة الرِّبَا ، ومَن تشبّه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء ، إلى غير ذلك ممـا ورد فى الأحاديث لعنه .

الثانيـــة — ليس لعن الكافر بطريق الزّجْر له عن الكفر ، بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره ، كان الكافر ميتًا أو مجنونًا . وقال قوم من السلف : إنه لا فائدة فى لعن مَن جُنّ أو مات منهم ، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر ، فإنه لا يتأثّر به .

والمراد بالآية على هـذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة ليتأثّر بذلك ويتضرّر ويتألّم قلبه ، فيكون ذلك جزاء على كفره ، كما قال تعالى : « ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »[1] ، ويدل على هـذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله تعـالى بلعنهم ، لا على الأمر . وذكر ابن العـربى أن لعن العاصى المعيّن لا يجوز اتفاقًا ، لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُتِىَ بشارب خمر مرارًا ، فقال بعض من حضره : لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤْتَى به ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تكونوا عَوْن الشيطان على أخيكم" فجعل له حُرمة الأخوّة ، وهذا يوجب الشفقة ، وهذا حديث صحيح .

قلت : خرّجه البخارى ومسلم . وقـد ذكر بعض العلماء خلافًا فى لعن العاصى المعيّن ، قال : وإنمـا قال عليه السلام : "لا تكونوا عَوْن الشيطان على أخيكم" فى حق نُعَيْمان[2] بعد إقامة الحدّ عليـه ، ومن أقيم عليه حدّ الله تعالى فلا ينبغى لعنه ، ومَن لم يُقَم عليه الحدّ فلعنته جائزة ســواء سُمِّىَ أو عُيِّن أم لا ، لأن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لا يلعن إلا من تجب عليـه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للّعن ، فإذا تاب منها وأقلع وطهّره الحدّ فلا لعنة تتوجّه عليه . وبيّن هذا قولُه صلى الله عليه وسلم : "إذا زنت أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب"[3] .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٩ (٢) نعيمان : هو ابن عمرو بن رفاعة ، شهد العقبة وبدرا والمشاهد بعدها ، وكان كثير المزاح ، يضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم من مزاحه . (عن أسد الغابة) .

(٣) قال ابن الأثير فى النهاية : أى لا يوبخها ولا يقرعها بالزنى بعد الضرب ، وقيل : أراد لا يقنع فى عقوبتها بالتثريب بل يضربها الحدّ .

فدلّ هذا الحديث مع صحته على أن التثريب واللعن إنما يكون قبل أخذ الحدّ وقبل التوبة ؛ والله تعالى أعلم .

قال ابن العربى : وأما لعن العاصى مطلقًا فيجوز إجماعًا ؛ لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده" .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أى إبعادهم من رحمته . وأصل اللعن : الطرد والإبعاد؛ وقد تقدّم[1] . فاللعنة من العباد الطرد، ومن الله العذاب . وقرأ الحسن البصرى «والملائكةُ والناسُ أجمعون» بالرفع . وتأويلها : أولئك جزاؤهم أن يلعنهم الله ويلعنهم الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون؛ كما تقول : كرهت قيام زيدٍ وعمرٌو وخالدٌ؛ لأن المعنى : كرهت أن قام زيد . وقراءة الحسن هذه مخالفة للمصاحف .

فإن قيل : ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم؛ قيل عن هذا ثلاثة أجوبة؛

أحدها — أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس تغليباً لحكم الأكثر على الأقل .

الثانى — قال السدّى : كل أحد يلعن الظالم ، وإذا لعن الكافرُ الظالمَ فقد لعن نفسه .

الثالث — قال أبو العالية : المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا »[2] . ثم قال جل وعز : ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يعنى فى اللعنة ؛ أى فى جزائها . وقيل : خلودهم فى اللعنة أنها مؤبدة عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يؤخّرون عن العذاب وقتاً من الأوقات . و « خالدين » نصب على الحال من الهاء والميم فى « عليهم » ؛ والعامل فيه الظرف من قوله : « عليهم » لأن فيها معنى استقرار اللعنة .

قوله تعالى : وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لما حذّر تعالى من كتمان الحق بيّن أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلّم طريق

(١) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٣٩

Marfat.com

النظر ، وهو الفكر فى عجائب الصنع ؛ ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قالت كفار قريش : يا محمد انسب لنا ربك ؛ فأنزل الله تعالى سورة « الإخلاص » وهذه الآية . وكان للمشركين ثلثمائة وستون صنما ؛ فبين الله أنه واحد .

الثانيـة ــ قوله تعالى : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفى وإثبات . أولها كفر وآخرها إيمان ، ومعناه لا معبود إلا الله . وحكى عن الشبلى رحمه الله أنه كان يقول : الله ؛ ولا يقول : لا إله ؛ فسئل عن ذلك فقال أخشى أن آخذ فى كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار .

قلت : وهذا من علومهم الدقيقة ، التى ليست لها حقيقة ؛ فإن الله جل اسمه ذكر هذا المعنى فى كتابه نفيا وإثباتا وكرره ، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ خرجه الموطأ والبخارى ومسلم وغيرهم . وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " . خرجه مسلم والمقصود القلب لا اللسان ؛ فلو قال : لا إله ومات ومعتقده وضميره الوحدانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة . وقد أتينا على معنى اسمه الواحد ، ولا إله إلا هو والرحمن الرحيم فى « الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى » . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى ــ قال عطاء : لما نزلت « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ! فنزلت « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ورواه سفيان عن أبيه

Marfat.com

عن أبي الضُّحى قال : لمـا نزلت « والهكم إله واحد » قالوا هـل من دليـل على ذلك ؟ فأنزل الله تعالى «إن فى خلقِ السمواتِ والأرضِ» فكأنهم طلبوا آية فبيّن لهم دليل التوحيد، وأن هذا العالم والبناء العجيب لابدّ له من بانٍ وصانع . وجَمَعَ السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى . وَوَحّدَ الأرض لأنها كلها تراب؛ والله تعالى أعلم.

فآية السموات : آرتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ودلّ ذلك على القدرة وخرق العادة . ولو جاء نبيّ فتُحدِّى بوقوف جبل فى الهواء دون علاقة كان معجزًا . ثم ما فيها من الشمس والقمـر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نـيّرة وممحوّة آية ثانيــة .

وآية الأرض : بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما و إدبار الآخر من حيث لايعلم . وقيل : اختلافهما فى الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر . والليل جمع ليلة؛ مثل تَمْرة وتَمْر ونخلة ونخل . ويجمع أيضا ليالى وليال بمعنًى، وهو ممـا شذّ عن قياس الجمـوع؛ كشَبه ومشابه وحاجة وحوائج وذكر ومذاكر ؛ وكأن ليـالى فى القياس جمع ليلاة . وقد آستعملوا ذلك فى الشعر قال :

* فى كلّ يوم وكل ليـلاة *

وقال آخر :

فى كلّ يومٍ ما وكُلِّ لَيْـلاه * حتى يقولَ كلُّ راءٍ إذ رآه

* يا وَيحَهُ مِن جَمَلٍ ما أشقاه *

قال آبن فارس فى المُجْمل : و يقال إن بعض الطير يسمى ليلا ؛ ولا أعرفه . والنهار يجمع (١) نُهُر وأنْهِرَة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : نَهَر جمع نُهُر وهو جمع [الجمع] (٢) للنهار، وقيل النهار آسم

---

(١) قال الجوهرى فى الصحاح : « وذكر قوم أن الليل ولد الكروان ، وأن النهار ولد الحبارى ؛ وقد جاء ذلك فى بعض الأشعار » . (٢) زيادة عن اللسان .

Marfat.com

مفرد لم يجمع لأنه بمعنى المصدر، كقولك الضياء، يقع على القليل والكثير . والأول أكثر؛
قال الشاعر :

لولا الثَّرِيدانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ ✱ ثريدُ لَيْـــلٍ وَثَرِيدٌ بالنُّهُـــرْ

قال ابن فارس : النهار معروف ، والجمع نهر وأنهار . ويقال : إن النهار يجمع على النهر .
والنهار: ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . ورَجُل نَهِرٌ: صاحب نهار . ويقال:
إن النّهار فَرْخ الحُبَارى . قال النَّضر بن شُمَيْل : أوّل النهار طلوع الشمس ، ولا يُعَدّ ما قبل
ذلك من النهار . وقال ثعلب : أوّله عند العرب طلوع الشمس ؛ واستشهد بقول أُمَيّة بن
أبى الصَّلْت .

والشمس تطلع كلَّ آخر ليلةٍ ✱ حمراء يُصبح لونُها يتورّد

وأنشد قول عَدِىّ بن زيد :

وجاعلُ الشمسِ مِصْرًا (١) لاخفاءَ به ✱ بين النهار و بين الليل قد فَصَلا

وأنشد الكسائى :

إذا طلعت شمس النهار فإنها ✱ أمارة تسليمى عليك فسلِّمى

قال الزجاج فى كتاب الأنواء : أوّل النهار ذرور الشمس . وقسّم ابن الأنبارى الزمن ثلاثة
أقسام : قسمًا جعله ليلًا محضًا ؛ وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقسمًا جعله
نهارًا محضًا ؛ وهو من طلوع الشمس إلى غروبها . وقسمًا جعله مشتركًا بين النهار والليل ؛
وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار .

قلت : والصحيح أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ كما رواه ابن فارس
فى المُجْمَل ؛ يدلّ عليه ما ثبت فى صحيح مسلم عن عَدِىّ بن حاتم قال : لما نزلت «حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» قال له عَدِىّ : يا رسول الله ، إنى
أجعل تحت وسادتى عِقالين : عقالًا أبيض وعقالًا أسود، أعرف بهما الليل من النهار. فقال

(١) المصر : الحاجز بين الشيئين .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن وِسادك لعريض إنمـا هو سواد الليل و بياض النهار" .
فهـذا الحديث يقضى أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ وهو مقتضى الفقـه
فى الأيمـان ، و به ترتبط الأحكام . فمن حلف ألّا يُكلّم فلانًا نهارا فكلّمه قبل طلوع الشمس
حَنِث ؛ وعلى الأوّل لا يحنَث . وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الفَيْصل فى ذلك والحكَم .
وأمّا على ظاهر اللغة وأخذه من السُّنّة فهو من وقت الإسفار إذا ٱتسع وقت النهار؛ كما قال:(١)

مَلَكتُ بهـا كفّى فأنهرتُ فتقها * يَرى قائمٌ من دونها ما وراءها

وقد جاء عن حذيفة ما يدلّ على هذا القول ؛ خرّجه النسائى(٢) . وسيأتى فى آى الصيام إن شاء
الله تعـالى .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ الفلك : السفن ، و إفراده
وجمعـه بلفظ واحد ، ويذكّر ويؤنّث . وليست الحركات فى المفرد تلك بأعيانها فى الجمع ،
بل كأنه بَنَى الجمع بناء آخر؛ يدلّ على ذلك توسّط التثنية فى قولهم : فُلْكان . والفلك المفرد
مذكّر؛ قال تعالى : « فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ »(٣) فجاء به مذكّرا ، وقال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِى
فى ٱلْبَحْرِ » فأنّث . ويحتمل واحدًا وجمعًا؛ وقال : « حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم
بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ »(٤) فجمع؛ فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المَرْكب فيذكّر، و إلى السفينة
فيؤنّث . وقيل : واحده فلك ؛ مثل أَسد وأُسْد، وخَشَب وخُشْب، وأصله من الدَّوران،
ومنه : فلك السماء التى تدور عليه النجوم . وفَلَّكَت الجاريةُ ٱستدار ثديها؛ ومنه فَلْكة المِغْزَل .
وسُمّيت السفينة فُلْكًا لأنها تدور بالمـاء أسهل دور .

ووجه الآية فى الفلك : تسخيرالله إيّاها حتى تجرى على وجه المـاء ووقوفها فوقه مع ثقلها .
وأول من عملها نوح عليه السلام كما أخبر تعالى ؛ وقال له جبريل : اصنعها على جُؤجُؤ(٥) الطائر؛
فعملها نوح عليه السـلام وراثة فى العالمين بمـا أراه جبريل . فالسفينة طائر مقلوب والمـاء
فى أسفلها نظير الهواء فى أعلاها ؛ قاله ٱبن العربى .

(١) هو قيس بن الخطيم ، يصف طعنة . (٢) راجع ص ٢٧٣ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤ . (٤) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ . (٥) الجؤجؤ : الصدر . وقيل : عظامه .

Marfat.com

الرابعـــة — هذه الآية وما كان مثلها دليـل على جواز ركوب البحر مطلقًا لتجارة كان أو عبـادة ، كالحج والجهاد . ومن السُّنة حديث أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليـل من المـاء . الحديث . وحديث أنس بن مالك فى قصة أم حرام ؛ أخرجهما الأئمة : مالك وغيره . روى حديث أنس عنـه جماعةٌ عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسحاق عن أنس عن أم حرام ؛ جعله من مسند أم حرام لا من مسند أنس . هكذا حدّث عنه به بُنْدار محمد بن بشار ؛ ففيه دليل واضح على ركوب البحر فى الجهاد للرجال والنساء ؛ وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفـترض أولى وأوجب . وروى عن عمـر آبن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما المنع من ركوبه . والقرآن والسُّنة يرد هـذا القول ؛ ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبيّ صلى الله عليه وسـلم الذين قالوا له : إنا نركب البحر . وهـذه الآية وما كان مثلها نَصٌّ فى الغـرض وإليها المفزع . وقـد تُؤوّل ما روى عن العُمَرين فى ذلك بأن ذلك محـول على الاحتياط وترك التغـرير بالمهج فى طلب الدنيا والاستكثار منها ؛ وأما فى أداء الفـرائض فلا . ومما يدلّ على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق فى العُدْوَتين[1] ، وقسّم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشقّ البحر لها ؛ فسهّل الله سبيله بالفُلْك ؛ قاله آبن العربى . قال أبو عمر : وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج فى البحر ، وهـو للجهاد لذلك أكره . والقرآن والسُّنة يردّ قوله . إلا أن بعض أصحابنا من أهـل البصرة قال : إنما كره ذلك مالك لأن السفن بالحجاز صـغار ، وأن النساء لا يقـدرن على الاسـتتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها ؛ وكان الطريق من المدينـة إلى مكة على البرّ ممكنا ؛ فـلذلك كره مالك ذلك . وأمّا السفن الكبار نحو سفن أهـل البصرة فليس بذلك بأس . قال : والأصل أن الحج على كل من آستطاع إليه سـبيلا من الأحرار البالغين ، نساء كانوا أو رجالا ، إذا كان الأغلب من الطريق الأمن ، ولم يخصّ بحرًا من برّ .

(١) العدوة : شاطئ الوادى .

Marfat.com

قلت : فدل الكتاب والسّنة والمعنى على إباحة ركوبه للمعنيين جميعا : العبادة والتجارة ؛ فهى الحجة وفيها الأُسْوَة . إلا أن الناس فى ركوب البحر تختلف أحوالهم ؛ فرُبّ راكبٍ يسهل عليه ذلك ولا يشقّ ، وآخر يشق عليه و يضعف به ؛ كالمائد[1] المفرط المَيْد ، ومن لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض ؛ فالأول ذلك له جائز ، والثانى يحرم عليه و يمنع منه . ولا خلاف بين أهل العلم وهى :

الخامسة — إن البحر إذا أُرْتِجَ[2] لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه فى حين إرتجاجه ولا فى الزمن الذى الأغلب فيه عدم السلامة ؛ و إنما يجوز عندهم ركوبه فى زمن تكون السلامة فيه الأغلب ؛ فإن الذين يركبونه حال السلامة وينجون لا حاصر لهم ، والذين يهلكون فيه محصورون .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أى بالذى ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التى تصلح بها أحوالهم . وبركوب البحر تكتسب الأرباح ، وينتفع من يحمل إليه المتاع أيضا . وقد قال بعض من طعن فى الدِّين : إن الله تعالى يقول فى كتابكم « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »[3] فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من المِلح والفُلْفُل وغير ذلك ؟ فقيل له فى قوله : « بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾ يعنى بها الأمطار التى بها إنعاش العالم و إخراج النبات والأرزاق ، وجعل منه المخزون عُدّة للانتفاع فى غير وقت نزوله ؛ كما قال تعالى : « فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ »[4] .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى فرق ونشر؛ ومنه « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ »[5] . ودابة تجمع الحيوان كله ؛ وقد أخرج بعض الناس الطير ، وهو مردود ؛

---

(١) المائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه حتى يدار به و يكاد يغشى عليه . (٢) ارتج البحر : إذا هاج . وقيل : إذا كثر ماؤه فعم كل شىء . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٠ (٤) راجع جـ ١٢ ص ١١٢

(٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٥

Marfat.com

قال الله تعـالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا »(١) فإن الطير يدبّ على رجليه في بعض حالاته؛ قال الأعشى :

* دبِيبُ قَطا البَطْحاء في كلِّ مَنْهَل *

وقال علقمة بن عَبَدة :

* صــواعِقُهـا لطــيرهِنّ دَبِيبُ *

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ﴾ تصريفها : إرسالها عقيماً ومُلْقِحة، وصِرّا ونَصْرًا وهلاكًا، وحارّة وباردةً، ولينة وعاصفةً . وقيــل : تصريفها إرسالها جنوباً وشمالاً، ودَبورًا وصَبًا، ونَكْباء، وهي التي تأتي بين مَهَبَّيْ ريحين . وقيل : تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك؛ ويصرف عنهما ما يضرّ بهما، ولا ٱعتبار بكبر القلاع ولا صغرها؛ فإن الريح لو جاءت جسدًا واحداً لصدمت القلاع وأغرقت . والرياح جمع ريح سُمِّيت به لأنها تأتي بالروح غالبًا . روى أبو داود عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الرِّيح من رَوْح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تَسُبُّوها وٱسألوا الله خيرها وٱستعيذوا بالله من شرها"(٢) . وأخرجه أيضا ٱبن ماجه في سُنَنه حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا يحيى بن سعيد عن الأوزاعي عن الزُّهري حدّثنا ثابت الزُّرَقي عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَسُبُّوا الريح فإنها من رَوح الله تأتي بالرحمة والعذاب ولكن سَلُوا الله من خيرها وتعوّذوا بالله من شرها" . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تسبُّوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن" . المعنى : أن الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح؛ والإضافةُ من طريق الفعل . والمعنى : أن الله تعالى جعلها كذلك . وفي صحيح مسلم عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نُصِرْتُ بالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور"(٣) . وهذا معنى ما جاء في الخبر أن الله سبحانه وتعالى

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦ (٢) كذا ورد في سنن أبي داود . والذي في الأصول : « الريح من روح الله . قال سلمة : فروح الله عز وجل تأتي ... » الخ وسلمة هذا أحد من روى عنهم أبو داود هذا الحديث .

(٣) أي يوم الأحزاب . وسيأتي معنى « الصبا والدبور » .

Marfat.com

فرّج عن نبيّه صلى الله عليه وسلم بالريح يوم الأحزاب؛ فقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا »(١) . ويقال : نفّس الله عن فلان كُرْبة من كرب الدنيـا ؛ أى فرّج عنه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : "مَن نفّس عن مسلم كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة" أى فرّج عنه . وقال الشاعر :

كَأَنَّ الصَّبا ريح إذا ما تنسّمت * على كَبِـد مهموم تجلّت همومُها

قال آبن الأعرابى : النسيم أوّل هبوب الريح . وأصل الريح روح ؛ ولهذا قيل فى جمع القلة أرواح ، ولا يقال : أرياح ؛ لأنها من ذوات الواو ، وإنمـا قيل : رياح من جهة الكثرة وطلب تناسب الياء معها . وفى مصحف حفصة « وتصريف الأرواح » .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ﴾ قرأ حمزة والكسائى « الريح » على الإفراد ، وكذا فى الأعراف والكهف و إبراهيم والنمل والرُّوم وفاطر والشُّورى والجاثيـة ؛ لا خلاف بينهما فى ذلك . ووافقهما آبن كثير فى الأعراف والنمل والرُّوم وفاطر والشُّورى . وأفرد حمزة « الرِّيحَ لواقحَ »(٢) . وأفرد آبن كثير « وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ »(٣) فى الفُرقان . وقرأ الباقون بالجمع فى جميعها سـوى الذى فى إبراهيم والشورى فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع ؛ ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع . والذى ذكرناه فى الرُّوم هو الثانى « اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ »(٤) . ولا خلاف بينهم فى « الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ » . وكان أبو جعفر يزيد بن القَعْقَاع يجمع الرياح إذا كان فيها ألف ولام فى جميع القرآن ؛ سوى « تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ » و «الرِّيحَ العقيم» . فإن لم يكن فيه ألف ولام أفرد . فمن وحّد الريح فلأنه آسم للجنس يدل على القليل والكثير. ومن جمع فلاختلاف الجهات التى تهبّ منها الرياح . ومن جمع مع الرحمة ووحّد مع العذاب فإنه فعـل ذلك آعتبارا بالأغلب فى القرآن ؛ نحو : « الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ » و « الرِّيحَ العَقِـيمَ » فجاءت فى القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب؛ إلا فى يونس فى قوله : « وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبّت الرّيح : "اللهم آجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا" . وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٤٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ (٤) راجع جـ ١٤ ص ٤٤

Marfat.com

واحد ، وريح الرحمــة لينة متقطّعة فلذلك هى رياح . فأفــردت مع الفُلْك فى « يونس » ؛ لأن ريح إجراء السفن إنما هى ريح واحدة متّصــلة ثم وُصفت بالطّيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب .

الحــادية عشرة — قال العلماء : الرّيح تحرّك الهواء ؛ وقد يشتدّ و يضعف . فإذا بَدَت حركة الهواء من تجاه القبلة ذاهبةً إلى سَمْت القِبلة قيل لتلك الريح : « الصَّبا » . وإذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة وكانت ذاهبة إلى تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الدَّبُور » . وإذا بَدَت حركة الهواء عن يمين القِبلة ذاهبةً إلى يسارها قيل لها : « ريح الجنوب » . وإذا بَدَت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبةً إلى يمينها قيــل لها : « ريح الشَّمال » . ولكل واحدة من هذه الرياح طبع . فتكون منفعتها بحسب طبعها ؛ فالصَّبا حارّةٌ يابسة ، والدَّبورُ باردةٌ رطبة ، والجنوب حارّةٌ رطبةٌ ، والشّمال باردةٌ يابسة . وآختــلاف طباعها كاختلاف طبائع فصول السنة . وذلك أن الله تعالى وضــع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغيير أحوال الهواء ؛ فجعل الربيع الذى هو أوّل الفصول حارًّا رَطْبًا ، ورتّب فيه النَّشْء والنُّمُوّ فتنزل فيه المياه ، وتُخرج الأرض زهرتها وتظهر نباتها ، و يأخذ الناس فى غرس الأشجار وكثير من الزرع ، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان . فإذا آنقضى الرّبيــع تلاه الصيف الذى هو مشاكل للربيــع فى إحدى طبيعتيه وهى الحــرارة ، ومباين له فى الأخرى وهى الرطوبة ؛ لأن الهواء فى الصيف حارّ يابس . فتنضَج فيه الثمار وتيبس فيه الحبوب المزروعة فى الربيع . فإذا آنقضى الصيف تبعه الخريف الذى هو مشاكل للصيف فى إحدى طبيعتيه وهى اليبس ، ومباين له فى الأخرى وهى الحرارة ؛ لأن الهواء فى الخريف بارد يابس ، فيتناهى فيه صلاح الثمار وتيبس وتجفّ فتصير إلى حال الادّخار ، فتُقطف الثمار وتُحصد الأعناب وتَفرغ من جمعها الأشجار . فإذا آنقضى الخــريف تلاه الشتاء وهــو ملائم للخريف فى إحدى طبيعتيــه وهى البرودة ، ومباين له فى الأخرى وهو اليبس ؛ لأن الهواء فى الشتاء بارد رطب ، فتكثر الأمطار والثلوج وتَهْمُد الأرض كالجسد المســتريح ؛ فلا تتحرك إلّا أن يعيــد الله تبارك وتعــالى إليها حرارة

Marfat.com

الربيع ، فإذا آجتمعت مع الرطوبة كان عند ذلك النَّشْء والنُّمُوّ بإذن الله سبحانه وتعالى .
وقد تَهُبّ رياح كثيرة سوى ما ذكرناه ، إلّا أن الأصول هذه الأربع . فكل ريح تَهُبّ بين ريحين فحكمها حكم الريح التى تكون فى هبوبها أقرب إلى مكانها وتسمى « النَّكْبَاء » .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ﴾ سُمّى السحاب سحابًا لآنسحابه فى الهواء . وسحبت ذَيْلى سَحْبًا . وتَسحّب فلان على فلان : اجترأ . والسَّحْب : شدّة الأكل والشرب . والمسخَّر : المذلّل ؛ وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر . وقيل : تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق ؛ والأوّل أظهر . وقد يكون بماء وبعذاب ؛ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "بينما رجلٌ بفلاة من الأرض فسمع صوتًا فى سحابة آسْقِ حديقة فلان فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرَّة فإذا شَرْجَة[(١)] من تلك الشِّراج قد آستوعبت ذلك الماء كله فتتبّع الماء فإذا رجل قائم فى حديقته يحوّل الماء بِمِسحاته فقال له يا عبد الله ما آسمك قال فلان للاسم الذى سَمِع فى السحابة فقال له يا عبد الله لم تسألنى عن آسمى فقال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول آسق حديقة فلان لآسمك فما تصنع [فيها][(٢)] قال أمّا إذ قلتَ هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدّق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأردّ فيها ثلثه" . وفى رواية "وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وآبن السبيل" . وفى التنزيل : « واللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ[(٣)] » ، وقال : « حَتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ[(٤)] » وهو فى التنزيل كثير . وخرّج آبن ماجه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى سحابا مقبلًا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان فى صلاة حتى يستقبله فيقول : "اللّهُمّ إنا نعوذ بك من شرّ ما أُرسل به" فإن أمطر قال : "اللّهُمّ سَيْبًا نافعًا" مرتين أو ثلاثة ، وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك . أخرجه مسلم بمعناه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الرّيح والغيم عُرِف ذلك فى وجهه

(١) الحرة : أرض ذات أحجار سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٦ (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٢٩

Marfat.com

وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّ به وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته فقال: "إني خشيت أن يكون عذابًا سُلّط على أمتي". ويقول إذا رأى المطر: "رحمة". في رواية فقال: "لعله ياعائشة كما قال قوم عاد «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»[1]". فهذه الأحاديث والآي تدل على صحة القول الأول وأن تسخيرها ليس ثبوتها؛ والله تعالى أعلم. فإن الثبوت يدل على عدم الانتقال؛ فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح؛ لقوله «بين» وهي مع ذلك مسخرة محمولة، وذلك أعظم في القدرة، كالطير في الهواء؛ قال الله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»[2]، وقال: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ»[3].

الثالثــة عشرة — قال كعب الأحبار: السحاب غِربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المــاء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض؛ رواه عنه ابن عباس. ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن علي عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب الجُهَني قال: رأيت ابن عباس مرّ على بغلة وأنا في بني سلمة، فمرّ به تُبَيع ابن امرأة كعب فسلّم على ابن عباس فسأله ابن عباس: هــل سمعت كعب الأحبار يقــول في السحاب شيئا؟ قال: نعم؛ قال: السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المــاء من السماء لأفسد ما يقع عليــه من الأرض. قال: سمعتَ كعبًا يقول في الأرض تنبت العــام نباتا، وتنبت عاما قابلًا غيره؟ قال نعم، سمعتــه يقول: إن البذر ينزل من السماء. قال ابن عباس: وقد سمعت ذلك من كعب.

الرابعة عشرة — قوله تعــالى: ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات تدل على وحدانيته وقدرته؛ ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ» ليدل بهــا على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وَيْلٌ لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها" أي لم يتفكر فيها ولم يعتبرها.

فإن قيل: فــا أنكرت أنها أحدثت أنفسها. قيل له: هــذا محال؛ لأنها لو أحدثت أنفسها لم تخل من أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو هي معــدومة؛ فإن أحدثتها وهي

(١) راجع ١٦ ص ٢٠٥ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥٢ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢١٧

Marfat.com

معدومة كان محالا ؛ لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حيّ عالم قادر مريد ، وما ليس بموجود لا يصح وصفــه بذلك . و إن كانت موجودة فوجودها يغنى عن إحداث أنفسها . وأيضا فلو جاز ما قالوه لجاز أن يحدث البناء نفسه ، وكذلك النجارة والنسج ، وذلك محال ، وما أدّى إلى المحال محال . ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها فى وحدانيته على مجرّد الأخبار حتى قرن ذلك بالنظـر والاعتبار فى آى من القرآن ؛ فقال لنبيه صلى الله عليه وسـلم : « قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(١) والخطاب للكفار ؛ لقوله تعالى : « وما تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ » ، وقال : « أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٢) يعنى بالملكوت الآيات . وقال : « وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(٣) . يقول : أو لم ينظروا فى ذلك نظر تفكر وتدبّر حتى يستدلّوا بكونها محالًّا للحوادث والتغييرات على أنها محدَثات ، وأن المحدَث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير مريد سميع بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه وذلك محال . وقال تعـالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(٤) يعنى آدم عليه السلام ، « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ » أى جعلنا نسله وذرّيته « نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » إلى قوله : « تُبْعَثُونَ » . فالإنسان إذا تفكّر بهذا التنبيه بمـا جُعل له من العقل فى نفسه رآها مدبّرة وعلى أحوال شتّى مصرّفة . كان نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضْغة ثم لحمًا وعظما ؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يُحدِث لنفسه فى الحال الأفضل التى هى كمال عقله و بلوغ أَشُدّه عضوًا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد فى جوارحه جارحة ؛ فيـدلّه ذلك على أنه فى حال نقصه وأوان ضعفه عن فعـل ذلك أعجز . وقـد يرى نفسه شابًا ثم كهلًا ثم شيخًا وهو لم ينقل نفســه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره لنفسه ولا فى وسعه أن يزايل حال المَشيب ويراجع قوة الشباب ؛ فيعلم بذلك أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعًا صنعه وناقلًا نقله من حال إلى حال ؛ ولولا ذلك لم تتبدّل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر . وقال بعض الحكماء : إن كل شىء فى العـالم الكبير له نظير فى العالم الصغير ، الذى هـو بدن الإنسان ؛ ولذلك قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » وقال : « وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٦ (٢) جـ ٧ ص ٣٣٠ (٣) جـ ١٧ ص ٤٠ (٤) جـ ١٢ ص ١٠٩

Marfat.com

تُبْصِرُونَ » . فحواس الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع والبصر منهما بمنزلة الشمس والقمر في إدراك المدركات بها، وأعضاؤه تصير عند البِلَى تراباً من جنس الأرض؛ وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن، ومن جنس الهواء فيه الروح والنَّفَس، ومن جنس النار فيه المِرّة الصفراء. وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض، وكبده بمنزلة العيون التي تستمد منها الأنهار؛ لأن العروق تستمد من الكبد. ومثانته بمنزلة البحر؛ لانصباب ما في أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار إلى البحر. وعظامه بمنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض. وأعضاؤه كالأشجار؛ فكما أن لكل شجر ورقًا أو ثمرًا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر. والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض. ثم إن الإنسان يحكي بلسانه كل صوت حيوان، ويحاكي بأعضائه صنيع كل حيوان؛ فهو العالَم الصغير مع العالَم الكبير مخلوق محدَث لصانع واحد؛ لا إله إلا هو.

قوله تعالى: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

لمّا أخبر الله سبحانه وتعالى في الآية قبلُ ما دلّ على وحدانيّته وقدرته وعِظَم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لذوي العقول من يتخذ معه أندادًا؛ وواحدها نِدّ؛ وقد تقدّم[1]. والمراد الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها كعبادة الله مع عجزها؛ قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ أي يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق؛ قاله المبرّد، وقال معناه الزجاج. أي أنهم مع عجز الأصنام يحبّونهم كحب المؤمنين لله مع قدرته. وقال ابن عباس والسُّدّي: المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون؛ يطيعونهم في معاصي الله. وجاء الضمير في «يُحِبُّونَهُمْ» على هذا على الأصل، وعلى الأول جاء ضمير الأصنام

(١) تراجع المسألة السادسة جـ ١ ص ٢٣٠ طبعة ثانية.

Marfat.com

ضمير مَن يعقل على غير الأصل . وقال ابن كَيْسان والزّجاج أيضا : معنى «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ» أى يسوّون بين الأصنام و بين الله تعالى فى المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القول الصحيح ؛ والدليل على صحته : « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » . وقرأ أبو رجاء «يَحِبونهم» بفتح الياء . وكذلك ما كان منه فى القرآن ، وهى لغة ؛ يقال : حببت الرجل فهو محبوب . قال الفرّاء : أنشدنى أبو تراب :

أحبّ لحبّها السُّودان حتى * حببت لحبّها سُودَ الكلاب

و« مَن » فى قوله «مَنْ يَتَّخِذُ» فى موضع رفع بالابتداء ، و «يتخذ» على اللفظ ، ويجوز فى غير القرآن «يتخذون» على المعنى ، و «يحبّونهم» على المعنى ، و «يحبهم» على اللفظ ، وهو فى موضع نصب على الحال من الضمير الذى فى «يتخذ» أى محبين ، وإن شئت كان نعتا للأنداد ، أى محبوبة . والكاف من «كحب» نعت لمصدر محذوف ؛ أى يحبونهم حبًّا كحب الله . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أى أشدّ من حب أهل الأوثان لأوثانهم والتابعين لمتبوعهم . وقيل : إنما قال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن الله تعالى أحبّهم أوّلا ثم أحبّوه . ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتمّ ؛ قال الله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وسيأتى بيان حب المؤمنين لله تعالى وحبه لهم فى سورة « آل عمران »(1) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ قراءة أهل المدينة وأهل الشام بالتاء ، وأهل مكة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء ؛ وهو اختيار أبى عبيد . وفى الآية إشكال وحذف ؛ فقال أبو عبيد : المعنى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القُوّة لله جميعا . و « يرى » على هذا من رؤية البصر . قال النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقال فى كتاب «إعراب القرآن» له : وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد ، وليست عبارته فيه بالجيدة ؛ لأنه يقدّر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب ؛ فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه الله تعالى ؛ ولكن التقدير وهو قول الأخفش :

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٥٩

Marfat.com

ولو يرى الذين ظلموا أن القوّة لله . و « يرى » بمعنى يعلم؛ أى لو يعلمون حقيقة قوة الله عزّ وجلّ وشدّة عذابه؛ فـ «يرى» واقعة على أن القوّة لله، وسدّت مسدّ المفعولين . و « الذين » فاعل « يرى » ،وجواب « لو » محذوف؛ أى ليتبيّنوا ضرر اتخاذهم الآلهة؛ كما قال عزّ وجلّ . « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ »[1] ، « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ »[1] ولم يأت لـ « لو » جواب . قال الزهرى وقتادة : الإضمار أشدّ للوعيد؛ ومثله قول القائل : لو رأيتَ فلاناً والسياط تأخذه ! ومن قرأ بالتاء فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه وٱستعظامهم له لأقرّوا أن القوّة لله ؛ فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى وهو العامل فى « أنّ » . وتقدير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوّة لله جميعاً . وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمّته ؛ فإن فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا . ويجوز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . وقيل : « أنّ » فى موضع نصب مفعول من أجله ؛ أى لأنّ القوّة لله جميعاً . وأنشد سيبويه :

وأغفرُ عوراءَ الكريم ٱدّخارَه　*　وأُعرِضُ عن شتم اللئيم تكرّما

أى لٱدّخاره ، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم للعذاب لأنّ القوّة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولٱستعظمت ما حلّ بهم . ودخلت « إذ » وهى لما مضى فى إثبات هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه . وقرأ ٱبن عامر وحده « يرون » بضم الياء، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وشيبة وسلّام وأبو جعفر « إن القوّة، و إن الله » بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف أو على تقدير القول ؛ أى ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوّة لله . وثبت بنصّ هذه الآية القوّة لله، بخلاف قول المعتزلة فى نفيهم معانى الصفات القديمة؛ تعالى الله عن قولهم .

قوله تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١١ ، ٤٠٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إذ تبرَّأ الَّذينَ اتُّبِعُوا ﴾ يعنى السادة والرؤساء تبرءوا ممن اتبعهم على الكفر؛ عن قتادة وعطاء والربيع . وقال قتادة أيضا والسُّدّى : هم الشياطين المضلّون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام فى كل متبوع . ﴿ ورَأَوُا العذابَ ﴾ يعنى التابعين والمتبوعين؛ قيل : بتيقُّنهم له عند المعاينة فى الدنيا . وقيل : عند العرض والمُساءلة فى الآخرة .

قلت : كلاهما حاصل، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفى الآخرة يذوقون أليم العذاب والنَّكال .

قوله تعـالى : ﴿ وتقطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ ﴾ أى الوُصُلات التى كانوا يتواصلون بهـا فى الدنيا من رَحِم وغيره؛ عن مجاهد وغيره . الواحد سَبَب ووُصْلة . وأصل السَّبب الحبل يشدّ بالشيء فيجذبه؛ ثم جعـل كل ماجرّ شيئا سببًا . وقال السُّدّى وٱبن زيد : إن الأسـباب أعمالهم . والسبب الناحية؛ ومنه قول زُهير :

ومن هاب أسباب المنـايا ينلنه * ولو رام أسـبابَ السماء بسُـلَّمِ

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَـا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُـمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّـا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّـارِ ﴿١٦٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ « أنّ » فى موضع رفع؛ أى لو ثبت أن لنا رَجْعة ﴿ فنتبرّأَ منهم ﴾ جواب التمنّى . والكَرّة : الرجعة والعودة إلى حال قد كانت؛ أى قال الأتباع : لو رُدِدنا إلى الدنيـا حتى نعمل صالحا ونتبرّأ منهم ﴿ كما تبرّءُوا منّـا ﴾ أى تبرّأً كما؛ فالكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نصبًا على الحال، تقديرها متبرّئين؛ والتبرّؤ الأنفصال .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أعمالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ الكاف فى موضـع رفع ؛ أى الأمر كذلك . أى كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم . و« يُرِيهِمُ اللهُ » قيل :

Marfat.com

هى من رؤية البَصَر، فيكون متعدّياً لمفعولين : الأوّل الهاء والميم فى « يُرِيهم » ، والثانى « أعمالَهم » ، وتكون « حَسَراتٍ » حال . ويحتمل أن يكون من رؤية القلب ، فتكون « حسراتٍ » المفعول الثالث . « أعمالَهم » قال الربيع : أى الأعمال الفاسدة التى آرتكبوها فوجبت لهم بها النار . وقال آبن مسعود والسُّدّى : الأعمال الصالحة التى تركوها ففاتتهم الجنة، ورُوِيت فى هذا القول أحاديث . قال السدّى : تُرفع لهم الجنة فينظرون إليها و إلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون . وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها ، وأما إضافة الأعمال الفاسدة إليهم فمن حيث عملوها . والحسْرة واحدة الحسرات، كتمرة وتمرات، وجَفْنة وجَفَنات، وشَهْوة وشَهَوات . هذا إذا كان آسماً، فإن نعتّه سكّنت، كقولك : ضَخْمة وضَخْمات، وعَبْلة وعَبْلات . والحسْرة أعلا درجات الندامة على شيء فائت . والتحسّر : التلهّف، يقال : حَسِرت عليه (بالكسر) أحْسَر حَسَراً وحَسْرة . وهى مشتقّة من الشيء الحسير الذى قد آنقطع وذهبت قوته، كالبعير إذا عيِيَ . وقيل : هى مشتقّة من حَسَر إذا كشف، ومنه الحاسر فى الحرب : الذى لا دِرْعَ معه . والانحسار : الانكشاف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ دليل على خلود الكفار فيها وأنهم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السُّنّة، لهذه الآية، ولقوله تعالى : « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ »[(1)] . وسيأتى .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الآية . قيل : إنها نزلت فى ثقيف وخزاعة وبنى مُدْلِج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام، واللفظ عام . والطيِّب هنا الحلال، فهو تأكيد لاختلاف اللفظ، وهذا قول مالك فى الطّيب . وقال الشافعىّ : الطّيب المستلَذّ، فهو

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٦ .

Marfat.com

تنويع، ولذلك يمنع أكل الحيوان القَذِر . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام »(1) و « الأعراف »(1) إن شاء الله تعـالى .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ « حلالًا » حال، وقيـل مفعول . وسُمِّى الحلال حلالًا لانحلال عقدة الحَظْر عنـه . قال سهـل بن عبد الله : النّجاة فى ثلاثة : أكل الحلال ، وأداء الفرائض ، والاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عبـد الله الساجى واسمه سعيد بن يزيد: خمس خصال بها تمام العلم، وهى: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق و إخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة ، وأكل الحلال؛ فإن فُقِدت واحدة لم يُرْفع العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يَصِير المـال حلالا حتى يصفُوَ من ستّ خصال : الربا والحرام والسُّحْت — وهو آسم مجمل — والغلول والمكروه والشُّبهة .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نَهْىٌ ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ « خُطُوات » جمع خَطْوة وخُطْوة بمعنًى واحد . قال الفـرّاء : الخطوات جمع خَطْوة ؛ بالفتح . وخُطْوة (بالضم) : ما بين القدمين . وقال الجَوْهرى : وجمع القِلّة خَطْوات وخُطُوات وخَطَوات، والكثير خُطًا . والخَطْوة (بالفتح) : المرّة الواحدة، والجمع خَطَوات (بالتحريك) وخِطاء؛ مثل رَكْوة ورِكاء؛ قال آمرؤ القيس :

لهـا وَثَبَاتٌ كوَثْب الظِّباءْ * فَـوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطَـــر(2)

وقرأ أبو السَّمّال العَدَوى وعُبيد بن عُمير « خَطَوات » بفتح الخـاء والطاء . وروى عن علىّ بن أبى طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن مَيْمون والأعمش «خُطُؤات» بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو. قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة، من الخطأ لا من الخَطْو . والمعنى على قراءة الجمهور : ولا تَقْفُوا أثَرَ الشيطان وعمله ؛ وما لم يَرِد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان . قال آبن عباس : « خُطُوات الشَّيْطان » أعماله . مجاهد : خطاياه . السُّدّى : طاعته . أبو مِجْلَز : هى النذور فى المعاصى .

(1) راجع جـ ٧ ص ١١٥ ، ٣٠٠ .
(2) يقـول : مرة تخطو فتكف عن العدو ، ومرة تعدو عَدْوًا يشبه المطر . عن شرح الديوان .

Marfat.com

قلت — والصحيح أن اللفظ عامّ فى كل ما عدا السُّنن والشرائع من البِدَع والمعاصى . وتقدّم القول فى « الشيطان » مستوفًى[1] .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أخبر تعالى بأن الشيطان عدوّ، وخبره حق وصدق . فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدوّ الذى قد أبان عداوته من زمن آدم، و بذل نفسه وعمره فى إفساد أحوال بنى آدم؛ وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جلّ من قائل : « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » . « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » وقال : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »[2] وقال : « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » وقال : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »[3] وقال : « إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ »[4] وقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »[5] . وهذا غاية فى التحذير، ومثله فى القرآن كثير . وقال عبد الله ابن عمر : إن إبليس مُوثَق فى الأرض السُّفلى، فإذا تحرّك فإن كل شرّ فى الأرض بين اثنين فصاعدا من تحرّكه . وخرّج الترمذى من حديث أبى مالك الأشعرى وفيـه : "وآمركم أن تذكروا الله فإن مَثَل ذلك كمَثَل رجل خرج العدوّ فى أثره سِراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفســه من الشيطان إلا بذكر الله" الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ سُمّى السُّوء سوءًا لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساءه يسوءه سُوءًا ومَساءةً إذا أحزنه . وسُؤته فسِىء إذا أحزنته فحزِن، قال الله تعالى : « سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »[6] . وقال الشاعر :

---

(١) راجع المسألة العاشرة جـ ١ ص ٩٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٢٨ . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٩٢ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٦١ . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٣ . (٦) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٠ .

Marfat.com

إن يك هذا الدهر قد ساءنى * فطالما قــد سرّنى الدهر
الأمر عنــدى فيهما واحد * لذاك شكرٌ ولذاك صبر

والفحشاء أصله قبح المنظر ؛ كما قال :

وجيدٍ كجيد الرِّيم[1] ليس بفاحشٍ *

ثم ٱستعملت اللفظة فيما يقبح من المعانى . والشرع هو الذى يحسّن و يقبّح ؛ فكل مانهت عنـه الشريعة فهو من الفحشاء . وقال مُقاتل : إن كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنى ؛ إلا قوله : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » فإنه منع الزكاة .

قلت : فعلى هذا قيل : السوء ما لا حدّ فيـه ، والفحشاء ما فيـه حدّ . وحكى عن ٱبن عباس وغيره ؛ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبرى : يريد ما حرّموا من البحيرة[2] والسائبة[3] ونحوها مما جعلوه شرعًا . « وَأَنْ تَقُولُوا » فى موضع خفض عطفًا على قوله تعالى : « بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ » .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ ﴾ يعنى كفّار العرب . ٱبن عبـاس : نزلت فى اليهود. الطبرى : الضمير فى « لهم » عائد على الناس من قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا » .

(١) الريم : الظبي الأبيض الخالص البياض . (٢) قال أبو إسحاق النحوى : « أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرًا بحروا أذنها أى شقّوه ، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تُحلأ (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، و إذا لقيها المُعْيى المنقطع به لم يركبها » .

(٣) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برئ من علة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة ؛ أى تسيب فلا ينتفع بظهرها ولا تحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ولا تركب . (عن اللسان) .

Marfat.com

وقيل : هو عائد على «من» فى قوله تعالى : « ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ » الآية .

وقوله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ أى بالقبول والعمل . ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا ﴾ ألفينا : وجدنا . وقال الشاعر :

فألفيتــه غير مُسْتَعْتِبٍ ٭ ولا ذاكرِ اللهَ إلّا قليــلا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ ﴾ الألف للاستفهام، وفُتحت الواو لأنها واو عطف، عطفتْ جملةَ كلام على جملة؛ لأن غاية الفساد فى الالتزام أن يقولوا : نَتّبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون؛ فقُرِّروا على التزامهم هذا، إذ هى حال آبائهم .

مسألة — قال علماؤنا : وقُـوّة ألفاظ هـذه الآية تعطى إبطال التقليد ؛ ونظيرها : «وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا» الآية . وهذه الآية والتى قبلها مرتبطة بما قبلهما ؛ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكّمت فيه بآرائها السَّفيهة فى البَحيرة والسائبة والوصيلة(١)؛ فآحتجّوا بأنه أمرٌ وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم فى ذلك، وتركوا ما أنزل الله على رسـوله وأمر به فى دينه؛ فالضمير فى «لهم» عائد عليهم فى الآيتين جميعا .

الثالثــة — تعلّق قوم بهذه الآية فى ذمّ التقليد لذمّ الله تعالى الكفارَ بآتباعهم لآبائهم فى الباطل، وآقتدائهم بهم فى الكفر والمعصية . وهذا فى الباطل صحيح، أما التقليد فى الحق فأصل من أصول الدِّين، وعِصْمةٌ من عِصم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصِّر عن دَرْك النظر .

وآختلف العلماء فى جوازه فى مسائل الأصول على ما يأتى؛ وأما جوازه فى مسائل الفروع فصـــحيح .

الرابعــة — التقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة؛ وعلى هذا فمَن قَبِل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير نظر فى معجزته يكون مُقلِّدا؛ وأمّا من نظر فيها فلا يكون مُقلِّدا .

---

(١) قال المفسرون : الوصيلة كانت فى الشاء خاصــة ؛ كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتــم ، فإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصـلت أخاها ؛ فلم يذبحوا الذكر لآلهتـم . وفيها معان أخر . (يراجع اللسان مادة « وصل ») . وتقدم معنى « البحيرة والسائبة » ص ٢١٠

وقيـــل : هو آعتقاد صحة فُتْيَا مَن لا يعلم صحة قوله . وهو فى اللغة مأخوذ من قِلادة البعير؛ فإن العرب تقول: قلّدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلًا يُقاد به؛ فكأن المقلِّد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء؛ وكذلك قال شاعرهم :

وقـــلِّدوا أمركم لله درّكُم * ثَبْتَ الجَنان بأمر الحرب مضطلعا

الخامســـة — التقليد ليس طريقًا للعلم ولا مُوصِّلا له ، لا فى الأصول ولا فى الفروع؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء؛ خلافًا لما يحكى عن جُهّال الحشوية والثّعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق ، وأن ذلك هو الواجب ، وأن النظر والبحث حرام؛ والآحتجاج عليهم فى كتب الأصول .

السادســـة — فرض العامى الذى لا يشتغل بآستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته فيما لا يعلمه من أمر دينــه ويحتاج إليه أن يقصد أعلم مَن فى زمانه وبلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه؛ لقوله تعالى : «فاسْئلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»[1] ، وعليه الآجتهاد فى أعلم أهل وقته بالبحث عنه ، حتى يقع عليه الآتفاق من الأكثر من الناس . وعلى العالم أيضا فرض أن يقلد عالمـا مثله فى نازلة خفى عليــه فيها وجه الدليل والنظر ، وأراد أن يجدّد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب ، فضاق الوقت عن ذلك ، وخاف على العبادة أن تفوت ، أو على الحكم أن يذهب ، سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابيًّا أو غيره؛ وإليه ذهب القاضى أبو بكر وجماعة من المحققين .

السابعـــة — قال آبن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد فى العقائد . وذكر فيه غيره خلافًا كالقـاضى أبى بكر بن العـربى وأبى عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الشافعى . قال آبن درباس فى كتاب « الآنتصار » له : وقال بعض النـاس يجوز التقليد فى أمر التوحيد؛ وهو خطأ لقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ »[2] . فذمّهم بتقليدهم آباءهم وتركهم آتباع الرسل؛ كصنيع أهل الأهواء فى تقليدهم كبراءهم وتركهم آتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى دينه؛ ولأنه فرض على كل مكلّف تعلّم أمر التوحيد والقطع به؛ وذلك لا يحصل إلا من جهة الكتاب والسنة ، كما بيّناه فى آية التوحيد[3] ، والله يهدى من يريد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ ، وجـ ١١ ص ٢٧٢ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ (٣) ص ١٩٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قال ٱبن درباس : وقـد أكثر أهل الزيغ القولَ على مَن تمسّك بالكتاب والسُّنة أنهـم مقلِّدون . وهذا خطأ منهـم ، بل هو بهم أليق وبمذاهبهم أخلق ؛ إذ قبلوا قول ساداتهـم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسُـنّة رسوله وإجماع الصحابة رضى الله عنهـم ؛ فكانوا داخلين فيمن ذمّهم الله بقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا » إلى قـوله : « كَبِيراً »(١) وقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ »(٢) . ثم قال لنبيّه : « قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »(٢) ثم قال لنبيّه عليه السلام « فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ »(٢) الآية . فبيّن تعالى أن الهُـدَى فيما جاءت به رسله عليهم السـلام . وليس قول أهـل الأثر فى عقائدهم : إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسُّـنة وإجمـاع السلف الصالح من الأمة ، من قـولهم : إنا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل ؛ لأن هؤلاء نَسبوا ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول ؛ وأولئـك نَسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل ، فٱزدادوا بذلك فى التضليل ؛ ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام فى القرآن حيث قال : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ »(٣) . فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياء متّبِعين للوحى وهو الدين الخالص الذى ٱرتضاه الله ، كان ٱتباعه آباءه من صفات المدح . ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلّقها بالجواهر وٱنقلابها فيها ؛ فدلّ على أن لا هُدَى فيها ولا رشد فى واضعيها .

قال ٱبن الحصّار : وإنمـا ظهر التلفّـظ بها فى زمن المأمون بعد المـائتين لمـا تُرجمت كتب الأوائل وظهر فيها ٱختلافهم فى قدم العالَم وحدوثه ، وٱختلافهم فى الجوهر وثبوته ، والعَرَض وماهيّتـه ؛ فسارع المبتـدعون ومَن فى قلبه زَيغ إلى حفظ تلك الأصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السُّنة ، وإدخال الشُّبه على الضعفاء من أهل المِلّة . فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البِدْعة ، وصارت للبتدعة شيعة ، وٱلتبس الأمر على السلطان ؛ حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ فما بعدها . (٣) راجع جـ ٩ ص ١٩١

Marfat.com

فانتدب رجال من أهـل السُّنة كالشيخ أبى الحسن الأشْعَرِى وعبد الله بن كُلّاب[1] وآبن مجاهد والمحاسبى وأضرابهم ؛ نخاضوا مع المبتـدعة فى إصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتـلوهم بسلاحهم . وكان مَن دَرَج من المسلمين من هذه الأمة متمسّكين بالكتاب والسُّنة، معرضين عن شُبَه الملحدين ، لم ينظروا فى الجوهر والعَرَض ؛ على ذلك كان السَّلف .

قلت : ومن نظر الآن فى آصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدِّين فمنزلته قريبة من النبيّين . فأمّا مَن يهجن من غلاة المتكلمين طريق مَن أخذ بالأثر من المؤمنين ، ويحض على درس كتب الكلام ، وأنه لا يعرف الحـق إلا من جهتها بتلك الأصطلاحات فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدمين من الأئمة المـاضين ؛ والله أعلم . وأما المخاصمة والجدال بالدليل والبرهان فذلك بيّن فى القرآن ؛ وسيأتى بيانه[2] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَثَـلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَـا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم بالراعى الذى يَنْعِق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقـول ؛ هكذا فسّره آبن عباس ومجاهـد وعكرمة والسّدّى والزجاج والفَـرّاء وسيبويه ؛ وهذه نهاية الإيجاز . قال سـيبويه : لم يُشبَّهوا بالناعق إنما شُبِّهوا بالمنعـوق به . والمعنى : ومثَـلك يا محمد ومَثَل الذين كفروا كمثَـل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال آبن زيد : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جَوْف الليل فيجيبه الصَّدَى ؛ فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه مالا حقيقة فيه ولا منتفع . وقال قُطْرب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم، يعنى الأصنام، كمثل الراعى إذا نَعَق بغنمه وهو لا يدرى أين هى . قال الطبرى : المراد مثـل الكافرين فى دعائهم آلهتهم كمثل الذى ينعق بشىء بعيـد فهو لا يسمع من أجل

---

(١) فى الأصول : «وأبى عبد الله» والتصويب عن القاموس وشرحه ، وهو عبد الله بن سعيد بن كلاب التميمى البصرى ، وهو رأس الطائفة الكلابية من أهل السنة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ٩٤ ، جـ ١٣ ص ٣٥٠

Marfat.com

البعـد ؛ فليس للناعق من ذلك إلا النـداء الذى يُتعبه ويُنصبه . ففى هـذه التأويلات الثلاثة يشبّه الكفار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به. والنَّعيق: زجر الغنم والصياح بها؛ يقال : نَعَق الراعى بغنمه يَنْعِق نَعِيقا ونُعاقًا ونَعَقانًا؛ أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل:

انعِـق بضأنك يا جرير فإنمـا * منّتك نفسك فى الخلاء ضلالا

قال القُتَبِىّ : لم يكن جرير راعى ضأن ، وإنمـا أراد أن بنى كُلَيب يُعَـيَّرون برعى الضأن ، وجرير منهم ؛ فهو فى جهلهم . والعـرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهـل ويقولون : « أجهل من راعى ضأن » . قال القتبىّ : ومن ذهب إلى هـذا فى معنى الآية كان مذهبًا، غير أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء فيما نعلم .

والنداء للبعيد، والدعاء للقريب ؛ ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأباعد . وقد تضمّ النون فى النـداء والأصل الكسر . ثم شبّه تعـالى الكافرين بأنهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ . وقد تقدم فى أوّل السورة[1] .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

هذا تأكيد للأمر الأوّل، وخصّ المؤمنين هنا بالذكر تفضيلًا . والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيـل : هو الأكل المعتاد . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيّبًا وإن الله أمر المؤمنين بمـا أمر به المرسلين فقال «يَأَيُّهَـا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» وقال «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» ثم ذَكَرَ[2] الرَّجُلَ يُطِيل السَّفَرَ أشعثَ أغبرَ يمـدّ يديه إلى السماء ياربّ يا ربّ ومَطْعَمُه حرام [ومشربه حرام] ومَلْبَسُه حرام [وغُذِىَ بالحـرام][3] فأنّى يُستجاب لذلك " . ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ ﴾[4] تقدم معنى الشكر فلا معنى للإعادة .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية . (٢) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير للنبى صلى الله عليه وسلم . و«الرجل» بالرفع مبتدأ ، مذكور على الحكاية من لفظ الرسول عليه السلام . ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » . (٣) الزيادة عن صحيح مسلم . (٤) راجع المسألة الثالثة وما بعدها جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسألة[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ « إنما » كلمة موضوعة للحصر، تتضمّن النفى والإثبات ؛ فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه ، وقد حصرت ها هنا التحريم ، لا سيّما وقد جاءت عقيب التحليل فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » فأفادت الإباحة على الإطلاق، ثم عقبها بذكر المحرّم بكلمة « إنما » الحاصرة ، فٱقتضى ذلك الإيعاب للقسمين ؛ فلا محرّم يخرج عن هذه الآية ، وهى مدنيّة ، وأكدها بالآية الأخرى التى رُوِىَ أنها نزلت بعرفة : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ » إلى آخرها ، فٱستوفى البيان أوّلا وآخرا ؛ قاله ٱبن العربى . وسيأتى الكلام فى تلك فى « الأنعام »[2] إن شاء الله تعالى .

الثانيـة — «الْمَيْتَةَ» نصب بـ«حَرَّم» ، و«ما» كافة . ويجوز أن تجعلها بمعنى الذى ، منفصلة فى الخط ، وترفع «الميتة والدّم ولحم الخنزير» على خبر«إنّ» وهى قراءة ٱبن أبى عبلة . وفى « حرّم » ضمير يعود على الذى ؛ ونظيره قوله تعالى : « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ »[3] . وقرأ أبو جعفر « حُرِم » بضم الحاء وكسر الراء ورفع الأسماء بعدها ؛ إمّا على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وإمّا على خبر إن . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضا « الميّتة » بالتشديد . الطبرى : وقال جماعة من اللغويين : التشديد والتخفيف فى مَيْت ومَيِّت لغتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يمُت بعدُ فلا يقال فيه «مَيْت» بالتخفيف ؛ دليله قوله تعالى: « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »[4] . وقال الشاعر :

ليس من مات فٱستراح بمَيْت * إنما المَيْت ميّت الأحياء

(١) اضطربت جميع نسخ الأصل فى ذكر هذه المسائل ، فبعضها أسقط الثانية ، وأخرى « الحادية والعشرين » ، وأخرى « الرابعة والعشرين » . (٢) راجع جـ٧ ص ١١٥ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٣ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤

Marfat.com

ولم يقـرأ أحد بتخفيف ما لم يمت ؛ إلا ما رَوى البَزِّى عن آبن كَثير « وَمَا هُـوَ بِمَيْتٍ »[1] والمشهور عنه التثقيل ؛ وأما قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم * فسرّكَ أن يعيش فجئْ بزاد

فلا أبلغ في الهجاء من أنه أراد الميت حقيقة ؛ وقد ذهب بعض النـاس إلى أنه أراد من شارف الموت ؛ والأول أشهر .

الثالثـــة — المَيْتة : ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يُذبح ، وما ليس بمأكول فذكاته كموته ؛ كالسباع وغيرها ، على ما يأتي بيانه هنا وفي « الأنعام »[2] إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة — هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : " أُحِلّت لنا مَيْتَتَان الحُوتُ والجراد ودَمانِ الكَبِدُ والطِّحال " . أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ ، وكذلك حديث جابر في العَنْبَر[3] يخصص عموم القرآن بصحة سنده . خرّجه البخاريّ ومسلم مع قوله تعالى : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ »[4] ، على ما يأتي بيانه هناك ، إن شاء الله تعالى .

وأكثر أهل العلم على جواز أكل جميع دواب البحر حَيّها ومَيّتها ؛ وهو مذهب مالك . وتوقّف أن يجيب في خنزير المـاء وقال : أنتم تقولون خنزيرا ! . قال آبن القاسم : وأنا أتّقيه ولا أراه حراما .

الخامســـة — وقد آختلف الناس في تخصيص كتاب الله تعالى بالسُّنة ، ومع آختلافهم في ذلك آتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف ، قاله آبن العربي . وقد يستدلّ على تخصيص هذه الآية أيضا بما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أَوْفَى قال : غَزَوْنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . وظاهره أكله كيف ما مات بعلاج أو حَتْف أنفه ؛ وبهذا قال آبن نافع وآبن عبد الحكم وأكثر العلماء ، وهو مذهب الشافعيّ وأبي حنيفة وغيرهما . ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حَتْفَ أنفه ؛ لأنه من صيد البر ، ألَا ترى أن المُحْرِم يجزئه إذا قتله ، فأشبه الغزال . وقال

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ١١٦ . (٣) العنبر : سمكة كبيرة بحرية تتخذ من جلدها الأتراس ، ويقال للترس : عنبر ، وسمى هذا الحوت بالعنبر لوجوده في جوفه . (عن القسطلاني واللسان) .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٣١٨ .

Marfat.com

أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها و ينسل. وسيأتى لحكم الجراد مزيد بيان فى « الأعراف » (١) عند ذكره، إن شاء الله تعالى .

السادســة — وآختلف العلماء هل يجــوز أن ينتفع بالميتـة أو بشىء من النجاسات، وآختلف عن مالك فى ذلك أيضا؛ فقال مرّة : يجوز الانتفاع بها ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميمونة فقال : ”هلّا أخذتم إهابها“ الحديث . وقال مرّة : جملتها محرّم، فلا يجوز الانتفاع بشىء منها ، ولا بشىء من النجاسات على وجه من وجوه الآنتفاع ؛ حتى لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان المـاء النجس ، ولا تُعلف البهائم النجاسات ، ولا تُطعم الميتة الكلاب والسباع ، و إن أكلتها لم تمنع . ووجه هذا القول ظاهر قوله تعالى : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ» ولم يخصّ وجهًا من وجه ، ولا يجوز أن يقال : هذا الخطاب مُجْمَل؛ لأن المجمل ما لا يُفهم المراد من ظاهره ، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعـالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » ، وأيضا فإن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : ” لا تنتفعوا من الميتة بشىء“ . وفى حديث عبد الله بن عُكَيم ”لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب“ . وهذا آخر ما ورد به كتابه قبـل موته بشهر؛ وسيأتى بيان هذه الأخبـار والكلام عليهـا فى « النحـل » (٢) إن شاء الله تعـالى .

السابعــة — فأما الناقة إذا نُحرت ، أو البقرة أو الشـاة إذا ذُبحت، وكان فى بطنهـا جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له فى نفسه، إلّا أن يخرج حيًّا فيُذَكّى، و يكون له حكم نفسه؛ وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتًا جرى مجرى العضو من أعضائها . وممـا يبيّن ذلك أنه لو باع الشاة وآستثنى ما فى بطنها لم يجز ، كما لو آستثنى عضوًا منها ، وكان ما فى بطنها تابعا لها كسائر أعضائها . وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما فى بطنها عتقًا مبتدأ؛ ولو كان منفصلا عنها لم يتبعها فى بيع ولا عتق . وقد روى جابر رضى الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون فى بطنها جنين ميت؛ فقال : ” إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمه “ . خرّجه أبو داود بمعناه من حديث

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٦٨ . (٢) وقوله تعالى : «إنما حرم عليكم الميتة ...» آية ١١٥ ولم يذكر المؤلف فيها شيئا ؛ بل أحال على ما هنا ؛ راجع جـ ١٠ ص ١٩٥ .

Marfat.com

أبى ســعيد الخُدْرِى وهو نصّ لا يحتمل . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى سورة « المـائدة »[1] إن شاء الله تعالى .

الثامنـــة ـــ وآختلفت الرواية عن مالك فى جلد الميتة هل يطهـر بالدباغ أولا ؛ فرُوِى عنه أنه لا يطهر ، وهو ظاهر مذهبه . ورُوِىَ عنه أنه يطهر ؛ لقوله عليه السلام "أيُّمـا إهابٍ دُبِغ فقد طَهُر" . ووجه قوله : لا يطهر ؛ بأنه جزء من الميتة لو أخذ منهـا فى حال الحياة كان نجسًا ، فوجب ألا يطهره الدِّباغ قياسًا على اللحم . وتُحمل الأخبار بالطهارة على أن الدباغ يُزيل الأوساخ عن الجلد حتى يُنتفع به فى الأشياء اليابسة وفى الجلوس عليـه ، ويجوز أيضا أن يُنتفع به فى المـاء بأن يجعل سقاء ؛ لأن المـاء على أصل الطهارة مالم يتغيّر له وصف على ما يأتى من حكمه فى ســورة « الفرقان »[2] . والطهارة فى اللغة متوجّهة نحو إزالة الأوساخ كما تتوجّه إلى الطهارة الشرعية ، والله تعالى أعلم .

التاســـعة ـــ وأما شعر الميتة وصوفُها فطاهر ؛ لمـا رُوِىَ عن أم سَلَمة رضى الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا بأس بمَسْك الميتة إذا دُبِـغ وصوفها وشـعرها إذا غُسل" . ولأنه كان طاهرًا لو أُخذ منها فى حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت ، إلا أن اللحم لمـا كان نجسًا فى حال الحياة كان كذلك بعد الموت ؛ فيجب أن يكون الصوف خلافه فى حال الموت كما كان خلافه فى حال الحياة آستدلالا بالعكس . ولا يلزم على هذا اللبن والبيضة من الدجاجة الميتة ؛ لأن اللبن عندنا طاهر بعد الموت . وكذلك البيضة ؛ ولكنهما حصلا فى وعاء نجس فتنجّسا بمجاورة الوعاء لا أنهما نُجِّسَا بالموت . وسيأتى مزيد بيان لهذه المسأله والتى قبلها وما للعلماء فيهما من الخلاف فى سورة « النحل »[3] إن شاء الله تعالى .

العـاشرة ـــ وأما ما وقعت فيه الفارة فله حالتان : حالة تكون إن أُخرجت الفارة حيّة فهو طاهر . وإن ماتت فيه فله حالتان : حالة يكون مائعًا فإنه ينجس جميعه . وحالة يكون جامدًا فإنه ينجس ماجاورها ، فتُطرح وما حولها ، ويُنتفع بما بقى وهو على طهارته ؛ لمـا روى أن النبي صلّى الله عليه وسلم سُـئل عن الفارة تقع فى السمن فتموت ؛ فقال عليه السلام :

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٠	(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعدها .	(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٥

Marfat.com

" إن كان جامدًا فاطرحوها وما حَوْلها و إن كان مائعًا فأرِيقُوه ". وآختلف العلمـاء فيه إذا غُسل؛ فقيل : لايطهر بالغسل؛ لأنه مائع نجس فأشبه الدّم والخمر والبول وسائر النجاسات . وقال آبن القاسم : يطهر بالغسل ؛ لأنه جسم تنجّس بمجاورة النّجاسة فأشبه الثوب ؛ ولا يلزم على هذا الدم؛ لأنه نجس بعينه، ولا الخمر والبول لأنّ الغسل يستهلكهما ولا يتأتّى فيه .

الحادية عشرة — فإذا حكمنا بطهارته بالغسل رجع إلى حالته الأولى فى الطهارة وسائر وجوه الآنتفاع ؛ لكن لا يبيعه حتى يبيّن؛ لأن ذلك عَيْب عند الناس تأباه نفوسهم . ومنهم من يعتقد تحريمه ونجاسته ؛ فلا يجوز بيعه حتى يبيّن العيب كسائر الأشياء المَعِيبة . وأما قبل الغسل فلا يجوز بيعـه بحال ؛ لأن النجاسات عنده لايجوز بيعها ، ولأنه مائع نجس فأشبه الخمر، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن ثمن الخمر فقال: " لعن الله اليهود حرّمت عليهم الشُّحوم فجَمَلُوها[1] فباعوها وأكلوا أثمانها " . وأن الله إذا حرّم شيئا حرّم ثمنه . وهذا المـائع محرّم لنجاسته فوجب أن يحرم ثمنه بحكم الظاهر .

الثانية عشرة — وآختلف إذا وقع فى القدر حيوان ، طائر أو غيره [فمات] فروى آبن وهب عن مالك أنه قال : لا يؤكل مافى القِدْر ، وقد تنجّس بمخالطة الميتة إياه . وروى آبن القاسم عنه أنه قال : يُغسل اللحم ويُراق المرق . وقد سئل آبن عباس عن هـذه المسألة فقال : يغسل اللحم ويؤكل. ولا مخالف له فى المرق[2] من أصحابه ؛ ذكره آبن خُوَيْزِمَنْدَاد .

الثالثة عشرة — فأما أنفحة الميتـة ولبن الميتة فقال الشافعيّ : ذلك نجس لعموم قوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » . وقال أبو حنيفة بطهارتهما؛ ولم يجعل لموضع الخِلقة أثرًا فى تنجّس ما جاوره ممـا حدث فيه خلقة، قال: ولذلك يؤكل اللحم بمـا فيه من العروق، مع القطع بمجاورة الدم لدواخلها من غير تطهير ولا غسل إجماعًا. وقال مالك نحو قول أبى حنيفة إن ذلك لاينجس بالموت ، ولكن ينجس بمجاورة الوعاء النجس وهو مما لا يتأتّى فيه الغسل .

---

(١) جمل الشحم وأجمله : أذابه واستخرج دهنـه .

(٢) فى بعض الأصـول والنسخة الأزهرية : « ولا مخالف له فى الصحابة » .

Marfat.com

وكذلك الدجاجة تخرج منها البيضة بعد موتها؛ لأن البيضة ليّنة فى حكم المائع قبل خروجها، وإنما تجمد وتصلب بالهواء.

قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد فإن قيل: فقولكم يؤدّى إلى خلاف الإجماع؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده كانوا يأكلون الجبن وكان مجلوبًا إليهم من أرض العجم، ومعلوم أن ذبائح العجم وهم مجوس مَيْتَة، ولم يعتدّوا بأن يكون مجمّدا بأنفحةِ مَيْتَة أو ذُكِّى. قيل له: قدر مايقع من الأنفحة فى اللبن المجبّن يسير؛ واليسير من النجاسة معفو عنه إذا خالط الكثير من المائع. هذا جواب على إحدى الروايتين. وعلى الرواية الأخرى إنما كان ذلك فى أوّل الإسلام، ولا يمكن أحد أن ينقل أن الصحابة أكلت الجبن المحمول من أرض العجم، بل الجبن ليس من طعام العرب؛ فلما انتشر المسلمون فى أرض العجم بالفتوح صارت الذبائح لهم؛ فمن أين لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلت جبنًا فضلًا عن أن يكون محمولًا من أرض العجم ومعمولًا من أنفحة ذبائحهم.

وقال أبو عمر: ولا بأس بأكل طعام عَبَدة الأوثان والمجوس وسائر من لا كتاب له من الكفار ما لم يكن من ذبائحهم ولم يحتج إلى ذكاة إلا الجبن لما فيه من أنفحة الميتة. وفى سنن ابن ماجه «الجبن والسمن» حدّثنا إسماعيل بن موسى السدّى حدّثنا سيف بن هارون عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النَّهدى عن سلمان الفارسى قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفِراء. فقال: "الحلال ما أحلّ الله فى كتابه والحرام ما حرّم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه".

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَالدَّمَ﴾ اتفق العلماء على أن الدّم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به. قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: وأما الدم فمحرّم ما لم تعمّ به البلوى، ومعفوّ عما تعمّ به البلوى. والذى تعمّ به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه، ويسيره فى البدن والثوب يُصلَّى فيه. وإنما قلنا ذلك لأن الله تعالى قال: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ». وقال فى موضع آخر: «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا»[1]

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥

Marfat.com

محـرم المسفوح من الدم . وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت : كنا نطبخ البُرْمة على عهد رســول الله صلى الله عليه وســلم تعلوها الصُّفرة من الدم فنأكل ولا ننكره ؛ لأن التحفظ من هذا إصْرٌ وفيه مشقة ، والإصْر والمشقة فى الدِّين موضوع . وهذا أصل فى الشرع ، أن كلما حَرِجت الأمة فى أداء العبادة فيــه وثَقُل عليها سقطت العبادة عنها فيه ؛ ألا ترى أن المضطر يأكل الميتة ، وأن المريض يُفطر ويَتيَمم فى نحو ذلك .

قلت : ذكر الله سبحانه وتعالى الدم هاهنا مطلقا ، وقيّده فى الأنعام بقوله « مَسْفُوحًا »[1] وحمل العلمــاء هاهنا المطلق على المقيّد إجماعا . فالدم هنــا يراد به المسفوح ؛ لأن ما خالط اللحم فغير محرّم بإجماع ، وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه . وفى دم الحوت المزايل له آختلاف ؛ ورُوى عن القابسى أنه طاهر ، ويلزم على طهارته أنه غير محرّم . وهو آختيار آبن العربى ، قال : لأنه لو كان دم السمك نجسًا لشُرعت ذكاته .

قلت : وهو مذهب أبى حنيفة فى دم الحوت ؛ سمعت بعض الحنفيّة يقول : الدليل على أنه طاهر أنه إذا يبس آبيضّ بخلاف سائر الدماء فإنه يسودّ . وهذه النكتة لهم فى الآحتجاج على الشافعية .

الخامسة عشرة — قوله تعــالى : ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خصّ الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذُكِّىَ أو لم يُذَكَّ ، وليعمّ الشحم وما هنالك من الغضاريف[2] وغيرها .

السادسة عشرة — أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير . وقد آستدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألّا يأكل شحمًا فأكل لحمًا لم يحنَث بأكل اللحم . فإن حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا حَنِث ؛ لأن اللحم مع الشحم يقع عليــه آسم اللحم ؛ فقد دخل الشحم فى آسم اللحم ولا يدخل اللحم فى آسم الشحم . وقد حرّم الله تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه ؛ لأنه دخل تحت آسم اللحم . وحرّم الله تعالى على بنى إسرائيل الشُّحوم بقوله : « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا » فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل فى آسم الشحم ؛ فلهذا فرق مالك بين الحالف

(١) راجع ج ٧ ص ١٢٣ . (٢) الغضروف والغرضوف : كل عظم لين رخص فى أى موضع كان .

Marfat.com

فى الشحم والحالف فى اللحم ؛ إلا أن يكون للحالف نية فى اللحم دون الشحم فلا يحنث ؛ والله تعالى أعلم . ولا يحنث فى قول الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا . وقال أحمد : إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل الشحم لا بأس به إلا أن يكون أراد آجتناب الدسم .

السابعة عشرة — لا خلاف أن جملة الخنزير محرّمة إلا الشعر فإنه يجوز الخرازة به . وقد رُوى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشعر الخنزير ، فقال : "لا بأس بذلك" ذكره آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد ، قال : ولأن الخرازة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ، وبعده موجودة ظاهرة ، لا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده . وما أجازه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كابتداء الشرع منه .

الثامنة عشرة — لا خلاف فى تحريم خنزير البر كما ذكرنا ، وفى خنزير الماء خلاف . وأبى مالك أن يجيب فيه بشىء ، وقال : أنتم تقولون خنزيرا ! وقد تقدم ؛ وسيأتى بيانه فى «المائدة»[1] إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — ذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية . وحكى آبن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خَزَرِ العَيْن ؛ لأنه كذلك ينظر ، واللفظة على هذا ثلاثية . وفى الصحاح : وتخازر الرَّجُل إذا ضيّق جَفْنه ليحدّد النظر . والخَزَر : ضِيق العين وصغرها . رجل أَخْزَر بيّن الخزر . ويقال : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمُؤْخِرِها . وجمعُ الخنزير خنازير . والخنازير أيضا علّة معروفة ، وهى قروح صُلْبة تحدث فى الرقبة .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أى ذكر عليه غير آسم الله تعالى ، وهى ذبيحة المجوسىّ والوثنىّ والمُعَطِّل . فالوثنىّ يذبح للوثن ، والمجوسىّ للنار ، والمُعَطِّل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه . ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسىّ لناره والوثنى لوثنه لا يؤكل ، ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعى وغيرهما وإن لم يذبحا لناره ووثنه ؛ وأجازهما آبن المسيّب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره . وسيأتى لهذا مزيد بيان

(١) راجع ج ٦ ص ٢٢٠ .

Marfat.com

إن شاء الله تعالى فى سـورة « المـائدة »[1] . والإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أَهَلَّ بكذا ؛ أى رفع صوته . قال آبن أحمر يصف فلاة :

يُهِـلّ بالفَرْقَـد رُكبانُها * كما يُهِلّ الراكب المُعْتَمِر

وقال النـابغة :

أو دُرَّةٍ صَـدَفيَّةٍ غَوّاصُهـا * بَهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويَسجُدُ

ومنـه إهلال الصبيّ وآستهلاله ، وهو صياحه عند ولادته . وقال آبن عباس وغيره : المراد ما ذُبح للأنصاب والأوثان ، لا ما ذُكر عليه آسم المسيح ، على ما يأتى بيانه فى سورة «المـائدة»[1] إن شاء الله تعـالى . وجرت عادة العـرب بالصياح باسم المقصـود بالذبيحة ، وغلب ذلك فى آستعمالهم حتى عبّر به عن النية التى هى علة التحريم ، ألا ترى أن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه راعى النية فى الإبل التى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها ممـا أُهِلّ لغير الله به ؛ فتركها النـاس . قال آبن عطية : ورأيت فى أخبـار الحسن بن أبى الحسن أنه سـئل عن آمرأة مترفة صنعت للُعَبِها عرسا فنحرت جَزُورا ؛ فقال الحسن : لا يحـل أكلها فإنها إنمـا نُحرت لصنم .

قلت : ومن هـذا المعنى ما رويناه عن يحيى بن يحيى التميمى شيخ مسـلم قال : أخبرنا جرير عن قابوس قال : أرسل أبى آمرأة إلى عائشة رضى الله عنها وأمرها أن تقرأ عليها السلام منه ، وتسألهـا أيّة صـلاة كانت أعجبَ إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يدوم عليها . قالت : كان يصـلّى قبل الظهر أربع ركعات يطيل فيهن القيام ويحسن الركوع والسجود ، فأمّا ما لم يَدَع قطّ ، صحيحا ولا مريضا ولا شاهدا ، ركعتين قبل صلاة الغداة . قالت آمرأة عند ذلك من النـاس : يا أمّ المؤمنين ، إن لنا أظآرًا من العجم لا يزال يكون لهم عيد فيهدون لنا منه ، أفنأكل منه شيئا؟ قالت : أمّا ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا ولكن كلوا من أشجارهم .

الحـادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنِ آضْطُرَّ ﴾ قرئ بضم النون للاتباع وبالكسر وهو الأصل لآلتقاء السـاكنين ، وفيه إضمـار ؛ أى فمن آضطر إلى شىء من هذه

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ .

Marfat.com

المحرمات أى أحوج إليها ؛ فهو افتعل من الضرورة . وقرأ ابن محيصن « فمن اطُّر » بإدغام الضاد فى الطاء . وأبو السمال « فمن اضطِر » بكسر الطاء . وأصله اضطرر فلما أدغمت نقلت حركة الراء إلى الطاء .

الثانية والعشرون — الاضطرار لايخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع فى مخمصة . والذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء فى معنى الآية هو من صيره العُدْم والغَرَث وهو الجوع إلى ذلك ، وهو الصحيح . وقيل : معناه أُكره وغُلب على أكل هذه المحرمات . قال مجاهد: يعنى أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعالى ؛ إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .

وأما المَخْمَصة فلا يخلو أن تكون دائمة أولا ؛ فإن كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشبع من الميتة ؛ إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيه قطْعًا ؛ كالتمر المعلق وحَرِيسة(١) الجبل ، ونحو ذلك مما لا قَطْع فيه ولا أذًى . وهذا مما لا اختلاف فيه ؛ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر إذ رأينا إبلًا مصرورة(٢) بعضاه الشجر فثُبْنا إليها فنادانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا إليه فقال: " إن هذه الإبل لأهل بيت من المسلمين هو قوتهم ويُمْنُهم(٣) بعد الله أيسركم لو رجعتم إلى مَزَاودكم فوجدتم مافيها قد ذُهب به أترون ذلك عدلا " قالوا لا ؛ فقال : " إن هذه كذلك " . قلنا : أفرأيت إن احتجنا إلى الطعام والشراب ؟ فقال: " كل ولا تحمل واشرب ولا تحمل". خرّجه ابن ماجه رحمه الله؛ وقال : هذا الأصل عندى . وذكره ابن المنذر قال : قلنا يارسول الله ، ما يحلّ لأحدنا من مال أخيه إذا اضطر إليه ؟ قال : " يأكل ولا يحمل ويشرب ولا يحمل" . قال ابن المنذر : وكل مختلف فيه بعد ذلك فمردود إلى تحريم الله الأموال . قال أبو عمر : وجملة القول فى ذلك أن المسلم إذا تعيّن عليه ردّ رَمَق مُهجة المسلم ، وتوجّه

(١) الحريسة : الشاة تسرق ليلا . وفى الحديث " لاقطع فى حريسة الجبل " أى ليس فى يحرس بالجبل قطع ؛ لأنه ليس بحرز . (٢) مصرورة : مربوطة الضروع ؛ وكان عادة العرب أنهم إذا أرسلوا الحلوبات إلى المراعى صروا ضروعها . (٣) كذا فى سنن ابن ماجه ؛ أى بركتهم وخيرهم . وفى الأصول «قيمهم» .

Marfat.com

الفرض فى ذلك بألا يكون هناك غيره قضى عليه بترميق تلك المهجة الآدمية . وكان للممنوع منه ماله من ذلك محاربة مَن منعه ومقاتلته ، و إن أتى ذلك على نفسه ؛ وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ؛ فحينئذ يتعيّن عليه الفرض . فإن كانوا كثيرًا أو جماعةً وعددًا كان ذلك عليهم فرضًا على الكفاية . والمــاء فى ذلك وغيره ممــا يردّ نفس المســلم و يمسكها ســواء . إلا أنهم آختلفوا فى وجوب قيمة ذلك الشيء على الذى ردّت به مهجتــه ورمق به نفسه ؛ فأوجبها موجبون ، وأباها آخرون ؛ وفى مذهبنا القولان جميعًا . ولا خلاف بين أهل العــلم متأخريهم ومتقدّميهم فى وجوب رَدّ مُهجة المسلم عند خوف الذهاب والتّلف بالشيء اليسير الذى لا مضرّة فيه على صاحبه وفيه البُلْغة .

الثالثة والعشرون — خرج آبن ماجه أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبة أنبأنا شَبابة (ح)[1] وحدّثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الوليد قالا حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس قال : سمعت عبّاد بن شرحبيل — رجلا من بنى غُبَر — قال : أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا[2] من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلتــه وجعلته فى كسائى ؛ فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى ؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ؛ فقال للرجل : "ما أطعمتَه إذ كان جائعًا أو ساغبًا ولا علّمته إذ كان جاهلا" فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم فردّ إليه ثوبه ، وأمر له بوَسْق من طعام أو نصف وَسق .

قلت : هــذا حديث صحيح آتفق على رجاله البخاريّ ومســلم ؛ إلا آبن أبى شيبة فإنه لمسلم وحده . وعبّاد بن شرحبيل الغُبَرى اليشكُرى لم يُخرج له البخارى ومسلم شيئا ، وليس له عن النبيّ صلى الله عليه وســلم غير هذه القصة فيما ذكر أبو عمر رحمــه الله ، وهو ينفى القطع والأدب فى المخمصة . وقد روى أبو داود عن الحسن عن سَمُرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أتى أحدكم على ماشية فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه فإن أذن له فليحتلب وليشرب و إن لم يكن فيهــا فليُصَوّت ثلاثا فإن أجاب فليستأذنه فإن أذن له و إلا فليحتلب وليشرب

(١) إذا كان لحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عنــد الانتقال من إسناد إلى إسناد : « ح » وهى مأخوذة من التحول ... الخ . راجع كتب المصطلح .

(٢) الحائط : البستان من النخيل وغيره إذا كان عليه جدار .

Marfat.com

ولا يحمـل " . وذكر الترمذى عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " من دخل حائطا فليأكل ولا يتخذ خُبْنة " . قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم . وذكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق ؛ فقال : "من أصاب منه من ذى حاجة غير متّخذ خُبْنة فلا شىء عليه " . قال فيه : حديث حسن . وفى حديث عمر رضى الله عنه : " إذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل ولا يتخذ ثِبَـانًا " . قال أبو عبيد قال أبو عمرو : وهو الوعاء الذى يُحمل فيـه الشىء ، فإن حملته بين يديك فهو ثِبَان ؛ يقال : قـد تَثَبَّنت ثِبانا ؛ فإن حملته على ظهرك فهو الحال ؛ يقال منه : قد تَحَوّلت كسائى إذا جعلت فيه شيئا ثم حملته على ظهرك . فإن جعلته فى حضنك فهو خُبْنة ؛ ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع "ولا يتخذ خُبْنة". يقال منه : خَبَنْت أخْبِن خَبْنًا . قال أبو عبيد : وإنما يوجّه هذا الحديث أنه رُخّص فيه للجائع المضطر الذى لا شىء معه يشترى به ألّا يحمل إلا ما كان فى بطنه قدر قوته .

قلت : لأن الأصل المتفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه ؛ فإن كانت هناك عادة بعمل ذلك كما كان فى أول الإسـلام ، أو كما هو الآن فى بعض البلدان ، فذلك جائز . ويُحمل ذلك على أوقات المجاعة والضرورة ، كما تقدّم والله أعلم .

و إن كان الثـانى[1] وهو النادر فى وقت من الأوقات ، فاختلف العلمـاء فيها على قولين : أحدهما — أنه يأكل حتى يشبع و يتضلّع[2] ، و يتزوّد إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر ، و إذا وجد عنها غِنًى طرحها . قال معناه مالك فى مُوطّئـه ، و به قال الشافعىّ وكثير من العلماء . والحجة فى ذلك أن الضرورة ترفع التحريم فيعود مباحًا . ومقدار الضرورة إنما هو فى حالة عدم القوت إلى حالة وجوده . وحديث العَنْبر نصٌّ فى ذلك ؛ فإن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لمـا رجعوا من سـفرهم وقد ذهب عنهم الزاد ، آنطلقوا إلى ساحل البحر فرُفع

(١) يريد بالثانى أحد قسمى المخمصة الذى تقدم فى المسألة « الثانية والعشرين » وهو غير الدائمة .
(٢) تضلّع : أمتلأ شبعا أو ريّا .

لهم على ساحله كهيئة الكثيب الضخم؛ فلما أتوه إذا هى دابة تدعى العنبر؛ فقال أبو عبيـدة أميرهم : مَيْتة . ثم قال : لا ، بل نحن رسـل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى سبيل الله، وقـد آضطررتم فكلوا . قال : فأقمنا عليها شهرا ونحن ثلثمائة حتى سَمِنّا ، الحـديث . فأكلوا وشبعوا — رضوان الله عليهم — مما آعتقدوا أنه ميتة وتزوّدوا منها إلى المدينة، وذكروا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حلال وقال : "هل معكم من لحمه شىء فتطعمونا " فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم منه فأكله . وقالت طائفة . يأكل بقدر سدّ الرمق . وبه قال آبن المـاجشون وآبن حبيب وفرّق أصحاب الشافعى بين حالة المقيم والمسافر فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسـدّ رمقه ، والمسافر يتضلّع ويتزوّد : فإذا وجد غِنًى عنها طرحهـا ، وإن وجد مضطرا أعطاه إياها ولا يأخذ منـه عِوضًـا ؛ فإن المَيْتـة لا يجوز بيعها .

الرابعة والعشرون — فإن آضطر إلى خمر فإن كان بإكراه شرب بلا خلاف ، وإن كان بجـوع أو عطش فلا يشرب؛ وبه قال مالك فى العتبيّة قال : ولا يزيده الخمر إلا عطشًا . وهو قول الشافعى؛ فإن الله تعالى حرّم الخمر تحريمًا مطلقًا، وحرّم الميتة بشرط عدم الضرورة. وقال الأبهرى : إن ردّت الخمر عنه جوعًا أو عطشًا شربها ؛ لأن الله تعـالى قال فى الخنزير «فإنّهُ رِجْسٌ» ثم أباحه للضرورة. وقال تعالى فى الخمر إنها «رجس» فتدخل فى إباحة الخنزير للضرورة بالمعنى الجلىّ الذى هو أقوى من القياس، ولا بدّ أن تروى ولو ساعة، وتردّ الجوع ولو مدّة .

الخامسة والعشرون — روى أصبغ عن آبن القاسم أنه قال : يشرب المضطرُّ الدّمَ ولا يشرب الخمر، ويأكل الميتة ولا يقرب ضَوَالّ الإبل — وقاله آبن وهب — ويشرب البول ولا يشرب الخمر؛ لأن الخمر يلزم فيها الحدّ فهى أغلظ . نص عليه أصحاب الشافعى .

السادسة والعشرون — فإن غصّ بلقمة فهل يسيغها بخمر أولا ؛ فقيل . لا ؛ مخافة أن يدّعى ذلك . وأجاز ذلك آبن حبيب؛ لأنها حالة ضرورة . آبن العربى : «أما الغاصّ بلقمة

Marfat.com

فإنه يجوز له فيما بينه وبين الله تعالى ، وأما فيما بيننا فإن شاهدناه فلا تخفى علينا بقرائن الحال صـورة الغُصّة من غيرها؛ فيصدق إذا ظهر ذلك ؛ وإن لم يظهر حَدَدناه ظاهرًا وسَـلِم من العقوبة عند الله تعـالى باطنًا . ثم إذا وجد المضطرُّ ميتةً وخنزيرا ولحمَ ٱبنِ آدم أكل الميتة؛ لأنها حلال فى حال . والخنزيرُ وٱبنُ آدم لا يحلّ بحال. والتحريم المخفَّف أَوْلى أن يقتحم من التحريم المثقل؛ كما لو أكره أن يطأ أخته أو أجنبية،وطئ الأجنبية لأنها تحل له بحال. وهذا هو الضابط لهذه الأحكام.ولا يأكل ٱبنَ آدم ولو مات؛ قاله علماؤنا،وبه قال أحمد وداود. احتجّ أحمد بقوله عليه السلام : "كَسْرُ عظمِ الميت ككسره حيًّا" . وقال الشافعيّ : يأكل لحم ٱبن آدم.ولا يجوز له أن يقتل ذِمِّيًّا لأنه محترم الدم، ولا مسلماً ولا أسيراً لأنه مال الغير . فإن كان حربيًّا أو زانيًا مُحْصنًا جاز قتله والأكل منه . وشنّع داود على المُزَنى بأن قال : قد أبحت أكل لحوم الأنبياء ! فغلب عليه ٱبن شريح بأن قال : فأنت قد تعرّضت لقتل الأنبياء إذ منعتهم من أكل الكافر . قال ٱبن العربى : الصحيح عنـدى ألا يأكل الآدمى إلا إذا تحقق أن ذلك ينجيه ويحييه، والله أعلم .

السابعة والعشرون — سـئل مالك عن المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغير تمرًا أو زرعًا أو غنمًا؛ فقال: إن أمن الضرر على بدنه بحيث لا يُعدّ سارقًا ويصدّق فى قوله ، أكل من أيّ ذلك وجد ما يردّ جوعه ولا يحمل منه شيئا ، وذلك أحبّ إلىّ من أن يأكل الميتة ؛ وقد تقدم هذا المعنى مستوفًى. وإن هو خَشِىَ ألا يصدّقوه وأن يعدّوه سارقًا فإن أكل الميتة أَجْوز عندى، وله فى أكل الميتة على هذه المنزلة سَعة .

الثامنة والعشرون — روى أبو داود قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا حماد عن سِماك بن حرب عن جابر بن سَمُرة أن رجلا نزل الحَرّة[1] ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقة لى ضلّت فإن وجدتهـا فأمسكها ؛ فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت، فقالت ٱمرأته : ٱنحرها، فأبى فنَفَقَت . فقالت : اسلخها حتى نُقَدّد لحمها وشحمها ونأكله؛ فقال: حتى أسأل

(١) الحرّة (بفتح الحاء والراء المشددة) : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فسأله ، فقال : " هل عندك غِنًى يغنيك " قال لا ، قال : "فكلوها" قال : فجـاء صاحبها فأخبره الخبر؛ فقال : هلّا كنت نحرتَها ! فقال : آستحييت منك . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد : فى هذا الحديث دليلان : أحدهما — أن المضطر يأكل من الميتة و إن لم يخف التلف ؛ لأنه سأله عن الغنى ولم يسأله عن خوفه على نفسه . والثانى — يأكل و يشبع و يدخر و يتزود؛ لأنه أباحه الآدّخار ولم يشترط عليه ألّا يشبع . قال أبو داود : وحدثنا هارون بن عبد الله قال حدثنا الفضـل بن دُكين قال أنبانا عقبـة بن وهب بن عقبة العامرى قال : سمعت أبى يحدّث عن الفُجَيع العامرىّ أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يحل لنـا الميتة ؟ قال : " ما طعامكم " قلنا : نَغْتَبِق ونصطبِح . قال أبو نعيم[1] : فسّره لى عقبة : قَدَحٌ غُدْوَةً وقدحٌ عشِيّة . قال : "ذاك وأبِى الجوع". قال : فأحلّ لهم الميتة على هـذه الحال . قال أبو داود : الغبوق من آخر النهـار والصبوح من أوّل النهـار . وقال الخطابى : الغبوق العَشاء، والصبوح الغداء، والقَدَح من اللبن بالغداة، والقدح بالعشىّ يمسك الرَّمق ويُقيم النفس، و إن كان لا يُغذّى البدن ولا يُشبع الشبع التام ؛ وقد أباح لهم مع ذلك تناول الميتة ؛ فكان دلالته أنّ تناول الميتة مباح إلى أن تأخذ النفس حاجتها من القـوت . و إلى هذا ذهب مالك وهو أحد قولى الشافعى . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد : إذا جاز أن يصطبحوا و يغتبقوا جاز أن يشبعوا و يتزودوا . وقال أبو حنيفة والشافعى فى القول الآخر : لا يجوز له أن يتناول من الميتة إلا قدر ما يمسك رمقه ؛ و إليه ذهب المزنىّ . قالوا : لأنه لو كان فى الآبتداء بهـذه الحال لم يجز له أن يأكل منها شيئا ؛ فكذلك إذا بلغها بعـد تناولها . وروى نحوه عن الحسن . وقال قتـادة : لا يتضلّع منها بشىء . وقال مقاتل بن حيّان : لا يزداد على ثلاث لُقَم . والصحيح خلاف هذا ، كما تقدم .

التاسعة والعشرون — وأما التداوى بها فلا يخلو أن يحتاج إلى آستعمالها قائمة العين أو محرقة ؛ فإن تغيّرت بالإحراق فقال آبن حبيب : يجوز التداوى بها والصلاة . وخفّفه آبن المـاجشون

---

(١) أبو نعيم : كنية الفضل بن دكين .

Marfat.com

بناء على أن الحرق تطهير لتغيّر الصفات . وفى العُتْبِيّة من رواية مالك فى المَرْتَك[1] يُصنع من عظام المَيْتة إذا وضعه فى جرحه لا يصلى به حتى يغسله . وإن كانت الميتة قائمة بعينها فقد قال سُحْنُون : لا يُتداوى بها بحال ولا بالخنزير ؛ لأن منها عوضًا حلالًا بخلاف المجاعة . ولو وُجِد منها عوض فى المجاعة لم تؤكل . وكذلك الخمر لا يتداوى بها ، قاله مالك ، وهو ظاهر مذهب الشافعي ، وهو آختيار آبن أبى هريرة من أصحابه . وقال أبو حنيفة : يجوز شربها للتداوى دون العطش ؛ وهو آختيار القاضى الطبرى من أصحاب الشافعي ، وهو قول الثورى . وقال بعض البغداديين من الشافعية : يجوز شربها للعطش دون التداوى ؛ لأن ضرر العطش عاجل بخلاف التداوى . وقيل : يجوز شربها للأمرين جميعا . ومنع بعض أصحاب الشافعي التداوى بكل محرّم إلا بأبوال الإبل خاصة ، لحديث العُرَنِيِّين . ومنع بعضهم التداوى بكل محرّم ؛ لقوله عليه السلام : "إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حَرّم عليهم" ، ولقوله عليه السلام لطارق بن سويد وقد سأله عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال : إنما أصنعها للدواء ؛ فقال : "إنه ليس بدواء ولكنه داء" . رواه مسلم فى الصحيح . وهذا يحتمل أن يقيّد بحالة الآضطرار ؛ فإنه يجوز التداوى بالسم ولا يجوز شربه ؛ والله أعلم .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ « غير » نصب على الحال ، وقيل : على الآستثناء . وإذا رأيت « غير » يصلح فى موضعها « فى » فهى حال . وإذا صلح موضعها « إلا » فهى آستثناء ، فقس عليه . و« باغ » أصله باغى ، نقلت الضمة على الياء فسكنت والتنوين ساكن ، فحذفت الياء والكسرة تدل عليها . والمعنى فيما قال قتادة والحسن والربيع وآبن زيد وعكرمة « غير باغ » فى أكله فوق حاجته . « ولا عادٍ » بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحة ويأكلها . وقال السدى : « غير باغٍ » فى أكلها شهوة وتلذذًا ، « ولا عادٍ » بآستيفاء الأكل إلى حدّ الشبع . وقال مجاهد وآبن جبير وغيرهما : المعنى « غير باغٍ » على المسلمين « ولا عادٍ » عليهم ؛ فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان والمسافر فى قطع الرحم والغارة على

(١) المرتك (كمقعد) : ضرب من الأدوية .

Marfat.com

المسلمين وماشاكله . وهذا صحيح؛ فإن أصل البغى فى اللغة قصد الفساد؛ يقال : بَغَت المرأة تبغى بِغاء إذا فَجَرت؛ قال الله تعـالى : « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ »(١) . وربمـا آستعمل البغى فى طلب غير الفساد . والعرب تقول : خرج الرجل فى بُغاء إبلٍ له ، أى فى طلبها؛ ومنه قول الشاعر :

لا يمنعنّـك من بُغـا * ء الخـير تَعْقادُ الرَّتائم
إن الأشـائم كالأيَا * مِن والأيامن كالأشائم

الحادية والثلاثون ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أصل «عاد» عائد؛ فهو من المقلوب، كشاكى السـلاح وهارٍ ولاثٍ . والأصل شائك وهائر ولائث ؛ من لُثْت العِمامة . فأباح الله فى حالة الآضطرار أكل جميـع المحرمات لعجزه عن جميع المباحات كما بينا ؛ فصار عدم المباح شرطًا فى آستباحة المحرم .

الثانية والثلاثون ــ وآختلف العلماء إذا آقترن بضرورته معصية، بقطع طريق و إخافة سبيل ؛ فحظرها عليه مالك والشافعىّ فى أحد قوليـه لأجل معصيته ؛ لأن الله سبحانه أباح ذلك عونًا ، والعاصى لا يحـلّ أن يُعان ؛ فإن أراد الأكل فليتُب وليأكل . وأباحها له أبو حنيفـة والشافعىّ فى القول الآخر له ، وسوّيا فى آستباحته بين طاعتـه ومعصيته . قال آبن العربى : وعَجَبًا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية، وما أظن أحدًا يقوله ، فإن قاله فهو مخطئ قطعًا .

قلت : الصحيح خلاف هذا؛ فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشدّ معصية مما هو فيه ، قال الله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) وهذا عامّ، ولعله يتوب فى ثانى حال فتمحو التوبة عنه ما كان . وقد قال مسروق : من آضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار ، إلا أن يعفو الله عنه . قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكِيَا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رُخصة بل هو عزيمة واجبة ، ولو آمتنع من أكل الميتة كان عاصيًا ،

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٥٦

Marfat.com

وليس [تناول] (١) الميتة من رخص السفر أو متعلقا بالسفر بل هو من نتائج الضرورة سفرًا كان أو حَضَرًا ، وهو كالإفطار للعاصي المقيم إذا كان مريضًا ، وكالتيمّم للعاصي المسافر عند عدم المـاء . قال : وهو الصحيح عندنا .

قلت : وآختلفت الروايات عن مالك فى ذلك ؛ فالمشهور من مذهبه فيما ذكره البـاجى فى المنتقى : أنه يجوز له الأكل فى سـفر المعصية ولا يجوز له القصر والفطر . وقال آبن خُوَيْزِمَنْداد : فأما الأكل عند الاضطرار فالطائع والعاصى فيه سواء ؛ لأن الميتة يجوز تناولها فى السفر والحضر ، وليس بخروج الخارج إلى المعاصى يسقط عنه حكم المقيم بل أسـوأ حالة من أن يكون مقيمًا ؛ وليس كذلك الفطر والقصر ؛ لأنهما رخصتان متعلّقتان بالسفر . فمتى كان السفر سفرَ معصية لم يجز أن يقصر فيه ؛ لأن هذه الرخصة تختص بالسفر ، ولذلك قلنا : إنه يتيمّم إذا عدم المـاء فى سفر المعصية ؛ لأن التيمم فى الحضر والسفر سواء . وكيف يجوز منعه من أكل الميتـة والتيمم لأجل معصية آرتكبها ، وفى تركه الأكل تلف نفسـه ، وتلك أكبر المعاصى ، وفى تركه التيمم إضاعة للصـلاة . أيجوز أن يقـال له : آرتكبت معصية فارتكب أخرى ! أيجوز أن يقال لشارب الخمر : ازن ، وللزانى : اكفر ! أو يقال لهما : ضيّعا الصلاة ؟ ذكر هـذا كله فى أحكام القرآن له ، ولم يذكر خلافًا عن مالك ولا عن أحد من أصحـابه . وقال الباجى : « وروى زياد بن عبـد الرحمن الأندلسى أن العاصى بسفره يقصر الصـلاة ، ويُفطر فى رمضان . فسوّى بين ذلك كله ، وهو قول أبى حنيفة . ولا خلاف أنه لا يجوز له قتل نفسـه بالإمساك عن الأكل ، وأنه مأمور بالأكل على وجه الوجوب ؛ ومن كان فى سفر معصية لا تسقط عنـه الفروض والواجبات من الصيام والصـلاة ، بل يلزمه الإتيان بهـا ؛ فكذلك ما ذكرناه . وجه القول الأوّل أن هذه المعانى إنمـا أبيحت فى الأسفار لحاجة الناس إليها ؛ فلا يباح له أن يستعين بها على المعاصى وله سبيل إلى ألّا يقتل نفسه . قال آبن حبيب : وذلك بأن يتوب ثم يتناول لحم الميتة بعـد توبته . وتعلّق آبن حبيب فى ذلك بقوله تعالى : « فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » فآشترط فى إباحة الميتـة للضرورة ألّا يكون باغيًا . والمسافر

(١) الزيادة عن كتاب « أحكام القرآن » للكيا الهراسى .

Marfat.com

على وجه الحرابة أو القطع، أو فى قطع رَحِم أو طالب إثم — باغٍ ومعتـد ؛ فلم توجد فيـه شروط الإباحة، والله أعلم » .

قلت : هذا آستدلال بمفهوم الخطاب، وهو مختلف فيه بين الأصوليين . ومنظوم الآية أن المضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه، وغيره مسكوت عنه؛ والأصل عموم الخطاب؛ فمن آدعى زواله لأمر مّا فعليه الدليل .

الرابعـة والثلاثون[1] — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى يغفر المعاصى ؛ فأولى ألا يؤاخذ بمـا رخّص فيه ، ومن رحمته أنه رخّص .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى علمـاء اليهود، كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته . ومعنى «أنزل» : أظهر؛ كما قال تعـالى : « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْـلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ »[2] أى سأظهر . وقيل : هو على بابه من النزول؛ أى ما أنزل به ملائكته على رسله . ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ﴾ أى بالمكتوم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى أخذ الرشاء . وسمّاه قليلًا لانقطاع مدّته وسوء عاقبته . وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا .

قلت : وهذه الآية و إن كانت فى الأخبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختارًا لذلك بسبب دنيا يصيبها، وقد تقدّم[3] هذا المعنى .

قوله تعـالى : ﴿ فِى بُطُونِهِـمْ ﴾ ذكر البطون دلالةً وتأكيدًا على حقيقة الأكل؛ إذ قد يستعمل مجازا فى مثـل أكل فلان أرضى ونحوه . وفى ذكر البطون أيضًا تنبيه على جشعهم

(١) يلاحظ أن نسخ الأصل اضطربت فى عد هذه المسائل . (٢) راجع ج ٧ ص ٤٠ .
(٣) راجع ج ١ ص ٣٣٤ ، ص ٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وأنهم باعوا آخرتهم بحظّهم من المطعم الذى لا خطر له . ومعنى « إلّا النّـــارَ » أى إنه حرام يعذّبهم الله عليــه بالنار ؛ فسُمّى ما أكلوه من الرّشاء نارًا لأنه يؤدّيهـم إلى النار ؛ هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : أى إنه يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقةً . فأخبر عن المآل بالحال؛ كما قال تعالى : « إنّ الّذينَ يأكُلُونَ أموالَ اليتَامَى ظُلمًا إنّمَا يأكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نارًا » (١) أى أن عاقبته تؤول إلى ذلك ؛ ومنه قولهم :

* لِدُوا للموت وٱبْنُوا للخراب (٢) *

قال :

* فللموت ما تلد الوالده *

آخــــر :

* ودُورُنا لخراب الدّهر نبنيها *

وهو فى القرآن والشعر كثير . .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ ﴾ عبارة عن الغضب عليهم و إزالة الرضا عنهم ؛ يقال : فــلان لا يكلّم فلانًا إذا غضب عليه . وقال الطــبرى : المعنى « ولا يكلمهم » بما يحبونه . وفى التنزيل : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » (٣) . وقيل : المعنى ولا يرسل إليهم الملائكة بالتحية . ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِـمْ ﴾ أى لا يصلح أعمالهم الخبيثــة فيطهّرهم . وقال الزجاج : لا يثنى عليهم خيرًا ولا يسمّيهم أزكياء . و﴿ أَلِيمٌ ﴾ بمعنى مؤلم ؛ وقد تقـدّم (٤) . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة رضى الله عنــه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهـم ولهم عذاب أليم شـيخٌ زانٍ وملِكٌ كذاب وعائلٌ مستكبر " . وإنما خصّ هؤلاء بأليم العذاب وشــدّة العقوبة لمحض المعاندة والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصى ؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة، ولا دعتهم إليه ضرورة كما تدعو مَن لم يكن مثلهم . ومعنى « لا ينظر إليهم » لا يرحمهم ولا يعطف عليهم . وسيأتى فى « آل عمران » (٥) إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٣ (٢) اختلف فى أنه حديث أو غير حديث . راجع كشف الخفاء جـ ٢ ص ١٤٠
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٤) راجع جـ ١ ص ١٩٨ (٥) راجع جـ ٤ ص ١١٩

Marfat.com

قوله تعـالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ [1] تقـدّم القول فيه . ولمـا كان العـذاب تابعًا للضـلالة وكانت المغفرة تابعـةً للهدى الذى آطّرحوه دخلا فى تجوّز الشراء .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ مذهب الجمهور — منهم الحسن ومجاهد — أن « ما » معناه التعجب ؛ وهو مردود إلى المخلوقين ، كأنه قال : آعجبوا من صبرهم على النار ومُكثهم فيها . وفى التنزيل : « قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » [2] و « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ » [3] . وبهذا المعنى صدر أبو علىّ . قال الحسن وقتادة وآبن جبير والرّبيع : ما لهم والله عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النار ! وهى لغـة يَمَنِيّة معروفة . قال الفرّاء : أخبرنى الكسائى قال : أخبرنى قاضى اليمن أن خصمين آختصما إليـه فوجبت اليمين على أحدهما فحلف ؛ فقـال له صاحبه : ما أصبرك على الله ؟ أى ما أجراك عليه . والمعنى : ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملًا يؤدّى إليها . وحكى الزجاج أن المعـنى ما أبقاهم على النار ؛ من قولهم : ما أصـبر فلانًا على الحبس ! أى ما أبقاه فيه . وقيـل : المعنى فما أقلّ جزعهم من النار ؛ فجعل قلة الجزع صبرًا . وقال الكسائى وقُطْرُب : أى ما أدْوَمهم على عمل أهل النار . وقيل: «ما» آستفهام معناه التوبيخ ؛ قاله آبن عباس والسدّى وعطاء وأبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنّى ؛ ومعناه : أىْ أىّ شىء صبرهم على عمل أهل النار ؟ ! وقيـل : هذا على وجه الآستهانة بهم والآستخفاف بأمرهــم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١) يراجع ج ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية . (٢) راجع ج ١٩ ص ٢١٥ (٣) راجع ج ١١ ص ١٠٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع ، وهو إشارة إلى الحُكم ؛ كأنه قال : ذلك الحكم بالنار . وقال الزجاج : تقديره الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر ، أو ذلك العذاب لهم . قال الأخفش : وخبر « ذلك » مضمر ، معناه ذلك معلوم لهم . وقيل : محلّه نصب ، معناه فعلنا ذلك بهـم . ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ يعنى القرآن فى هـذا الموضع ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل بالحجـة . ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يعنى التوراة ؛ فآدّعى النصارى أن فيها صفة عيسى ، وأنكر اليهود صفته . وقيل : خالفوا آباءهم وسلفهم فى التمسك بها . وقيل : خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسـلم وآختلفوا فيها . وقيل : المراد القرآن ، والذين آختلفوا كفار قريش ؛ يقول بعضهم : هو سحر ، و بعضهم يقول : أساطير الأولين . و بعضهم : مفترًى ؛ إلى غير ذلك . وقد تقدّم القول فى معنى الشقاق[1] ، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ آختلف من المراد بهذا الخطاب ؛ فقال قتادة : ذُكر لنـا أن رجلًا سأل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم عن البرّ ؛ فأنزل الله هـذه الآية . قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال الربيع وقتادة أيضا : الخطاب لليهود

(١) راجع ص ١٤٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

والنصارى لأنهـم آختلفوا فى التوجّه والتّـولّى ؛ فاليهود إلى المغرب قِبَـل بيت المقدس ، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس ؛ وتكلّموا فى تحويل القبلة وفضّلت كل فرقة توليتها ؛ فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله .

الثانيـــة — قرأ حمزة وحفص « البِرَّ » بالنصب ؛ لأن ليس من أخوات كان، يقـع بعدها المعرفتان فتجعل أيهما شئت الآسم أو الخبر ؛ فلما وقع بعد « ليس » : « البِرّ » نصبه ؛ وجعل « أن تُوَلُّوا » الآسم ، وكان المصدر أولى بأن يكون آسمًا لأنه لا يتنكّر، والبرّ قد يتنكّر والفعل أقوى فى التعريف . وقرأ الباقون « البِرُّ » بالرفع على أنه آسم ليس ، وخبره « أن تُوَلُّوا » ، تقـديره : ليس البرّ توليتكم وجوهكم ؛ وعلى الأوّل ليس توليتكم وجوهكم البرّ ، كقوله : « مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا » [١] ، « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا ٱلسُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا » [٢] « فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ » [٣] وما كان مثله . ويقـوّى قراءة الرفع أن الثانى معه البـاء إجماعًا فى قوله : « وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » ولا يجوز فيه إلا الرفع ؛ فحملُ الأوّل على الثانى أولى من مخالفته له . وكذلك هو فى مصحف أُبَيّ بالبـاء « ليس البر بأن تُوَلُّوا » وكذلك فى مصحف آبن مسعود أيضا ، وعليه أكثر القراء، والقراءتان حسنتان .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ ﴾ البر ها هنا آسم جامع للخير ، والتقدير : ولكن البرّ برُّ من آمن ؛ فحذف المضاف ، كقوله تعـالى : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » [٤] ، « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ » [٥] قاله الفرّاء وقُطْرُب والزجاج . وقال الشاعر :

* فإنمـا هى إقبـالٌ وإدبار *

أى ذات إقبال وذات إدبار . وقال النابغة :

وكيف تُواصل من أصبحتْ * خِلَالَتُـه كأبى مَـرْحَب [٦]

---

(١) راجع ج ١٦ ص ١٧٣ (٢) راجع ج ١٤ ص ١٠ (٣) راجع ج ١٨ ص ٤٢

(٤) راجع ج ٩ ص ٢٤٦ (٥) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٦) الخلالة : (بفتح الخاء وكسرها وضمها ، جمع الخُلّة) : الصداقة . وأبو مرحب : كنية الظل ، ويقال : هو كنية عرقوب . يقول : خلة هـذه المرأة ووصالها لا يثبت كما لا تثبت خلة أبى مرحب ؛ فلا ينبغى أن نستأنس بها ونعتد بها . (عن اللسان وشرح الشواهد) .

Marfat.com

أي كجلالة أبي مَرْحب؛ فحذف . وقيل : المعنى ولكنّ ذا البر؛ كقوله تعالى : « هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ »[1] أي ذوو درجات . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وفُرضت الفرائض وصُرفت القبلة إلى الكعبة وحُدّت الحدود أنزل الله هذه الآية فقال : ليس البر كله أن تصلّوا ولا تعملوا غير ذلك ، ولكن البر — أي ذا البر — من آمن بالله ، إلى آخرها ؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والضحاك وعطاء وسفيان والزجاج أيضا . ويجوز أن يكون « البر » بمعنى البارّ والبَرّ ، والفاعل قد يُسمّى بمعنى المصدر ؛ كما يقال : رجل عَدْل ، وصَوْم وفِطْر . وفي التنزيل : « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »[2] أي غائرا ؛ وهذا ٱختيار أبي عبيدة . وقال المبرد : لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت « ولكنّ البَرّ » بفتح الباء .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ﴾ فقيل : يكون « الموفون » عطفا على « مَن » لأن من في موضع جمع ومحل رفع ؛ كأنه قال : ولكن البرّ المؤمنون والموفون ؛ قاله الفراء والأخفش . « والصابرين » نصب على المدح ، أو بإضمار فعل . والعرب تنصب على المدح وعلى الذم كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أول الكلام ، وينصبونه . فأما المدح فقوله : « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ »[3] . وأنشد الكسائي :

وكلّ قوم أطاعوا أمرَ مُرْشِدهم * إلا نُمَيرًا أطاعت أمرَ غاوِيها

الظاعنين ولما يُظْعِنوا أحدا * والقائلون لِمَنْ دارٌ نُخَلّيها

وأنشد أبو عبيدة :

لا يَبْعَدن قومي الذين هُمُ * سَمُّ العُدَاةِ وآفةُ الجُزُرِ[4]

النازلين بكل مُعْتَرَك * والطيبون مَعَاقِدَ الأُزُرِ

وقال آخر :

* نحن بني ضَبّةَ أصحاب الجَمَل *

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٣ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢ (٣) راجع جـ ٦ ص ١٣

(٤) راجع كتاب سيبويه وتوجيه الإعراب فيه (جـ ١ ص ١٠٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩) طبع بولاق .

Marfat.com

فنصب على المدح . وأمّا الذم فقوله تعـالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَـا ثُقِفُوا »[١] الآية . وقال عُرْوَة ابن الوَرْد :

سَقَوْنى الخمـر ثم تَكَنَّفُونى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِب وزورِ

وهذا مَهْيَع[٢] فى النعوت ، لا مطعن فيه من جهة الإعراب ، موجود فى كلام العرب كما بيّنا . وقال بعض من تعسّف فى كلامه : إن هذا غلط من الكتّاب حين كتبوا مصحف الإمام ؛ قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال : أرى فيه لَحْنًا[٣] وستقيمه العرب بألسنتها . وهكذا قال فى ســورة النساء « والمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ، وفى سورة المـائدة « وَالصَّابِئُونَ »[٤] . والجواب ما ذكرناه . وقيل : «الموفون» رفع على الابتداء والخبر محذوف ، تقديره وهم الموفون . وقال الكسائى : « والصابرين » عطف على « ذوى القربى » كأنه قال : وآتى الصابرين . قال النحاس : «وهذا القول خطأ وغلط بيّن ؛ لأنك إذا نصبت «والصابرين» ونسقته على «ذوى القربى» دخل فى صلة «من» و إذا رفعت «والموفون» على أنه نسق على «مَن» فقد نسقت على «من» من قبل أن تتم الصلة ، وفرقت بين الصلة والموصول بالمعطوف» . وقال الكسائى : وفى قراءة عبدالله «والموفين ، والصابرين» . وقال النحاس : «يكونان منسوقين على « ذوى القربى » أو على المدح . قال الفرّاء : وفى قراءة عبـد الله فى النساء « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة »[٥] . وقرأ يعقوب والأعمش «والموفون والصابرون» بالرفع فيهما . وقرأ

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ . (٢) المهيع : الطريق الواسع البيّن . (٣) هـذا القول من أخبث ما وضع الوضاعون على عثمان رضى الله عنـه ، وقد أنكر العلماء صحة نسبته إليه . على أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف بل شاركه كبار الصحابة فى جمعـه وكتابته ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنـه ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التى عرض فيها النبي صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل عليه السـلام . وهل يظن ظان أنـ عثمان رضى الله عنه وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى فى المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله و يتركه و يقول : ستقيمه العرب بألسنتها ! وكيف يعقل أن يقول ذلك فى حضرة الصحابة ولا يقفون فى وجهه و يردون عليه قوله وهم أنصار الدين وحماته . وممن أنكر نسبة هـذا القول إلى عثمان المصنف والزمخشرى وأبو حيان والآلوسى فى ســورة « النساء » عند قوله تعـالى : « والمقيمين الصلاة » آية ١٦٢ ، راجع جـ ٦ ص ١٣ . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢٤٦ .

(٥) كذا فى كتاب «إعراب القرآن» للنحاس ، وما يدل عليه سياق الكلام فى البحر المحيط لأبى حيان فى سورة « النساء » . وفى الأصول : « والمقيمين ... والمؤتين » .

Marfat.com

الجحدري « بعهودهم » . وقد قيل : إن « والموفون » عطف على الضمير الذى فى « آمن » . وأنكره أبو على وقال : ليس المعنى عليه؛ إذ ليس المراد أن البر بر من آمن بالله هو والموفون؛ أى آمنا جميعا . كما تقول : الشجاع مَن أقدم هو وعمرو؛ وإنما الذى بعد قوله « من آمن » تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم .

الخامســـة ــ قال علماؤنا : هـذه آية عظيمة من أمهات الأحكام ؛ لأنها تضمّنت ست عشرة قاعدة : الإيمان بالله و بأسمائه وصفاته ــ وقد أتينا عليها فى « الكتاب الأسنى » ــ والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشـفاعة والجنة والنار ــ وقـد أتينـا عليها فى كتاب « التذكرة » ــ والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله ــ كما تقدّم ــ والنبيين و إنفاق المـال فيما يعنّ من الواجب والمندوب و إيصال القرابة وترك قطعهم وتفقّد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ، ومراعاة ابن السبيل ــ قيل المنقطع به ، وقيـل : الضيف ــ والسؤال وفك الرقاب ، وسيأتى بيان هذا فى آية الصدقات[1]، والمحافظة على الصلاة و إيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر فى الشدائد . وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب . وتقدّم التنبيه على أكثرها ، ويأتى بيان باقيها بما فيها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

واختلف هل يعطَى اليتيم من صدقة التطوع بمجرد اليُتْم على وجه الصلة و إن كان غنيًّا ، أو لا يعطى حتى يكون فقيرا ؛ قولان للعلماء . وهـذا على أن يكون إيتاء المـال غير الزكاة الواجبة ، على ما نبيّنه آنفا[2] .

السادسـة ــ قوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ استدلّ به من قال : إن فى المـال حقًّا سوى الزكاة وبها كمال البر . وقيل : المراد الزكاة المفروضة، والأول أصح؛ لمـا خرّجه الدارقطني عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فى المـال حقا سوى الزكاة" ثم تلا هذه الآية « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ » إلى آخر الآية . وأخرجه ابن ماجه فى سننه والترمذى فى جامعه وقال : « هذا حديث ليس إسناده بذاك . وأبو حمزة

(١) [illegible] (٢) [illegible] الآن .

Marfat.com

ميمون الأعور يُضعَّف . وروى بيـان و إسماعيل بن سالم عن الشعبى هـذا الحديث قوله وهو أصح » .

قلت : والحديث و إن كان فيه مقال فقد دلّ على صحته معنى ما فى الآية نفسها من قوله تعـالى : « وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ » فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله : « وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ » ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك كان يكون تكرارا، والله أعلم . وآتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المـال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم و إن آستغرق ذلك أموالهم . وهذا إجماع أيضا، وهو يقوى ما آخترناه، والموفق الإله .

السابعـة – قوله تعالى : ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ الضمير فى « حُبِّه » آختلف فى عوده؛ فقيل : يعود على المعطى للمـال، وحذف المفعول وهو المـال . و يجوز نصب « ذَوِى القُرْبَى » بالحُبّ، فيكون التقـدير على حبّ المعطى ذوى القربى . وقيـل : يعود على المـال، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال آبن عطية : ويجىء قوله « على حُبِّهِ » آعتراضًا بليغًا أثناء القول .

قلت : ونظيره قوله الحق : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا »(١) فإنه جمع المعنيين، الآعتراض و إضافة المصدر إلى المفعول؛ أى على حب الطعام . ومن الآعتراض قوله الحق : « وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ »(٢) وهـذا عندهم يسمى التتميم، وهو نوع من البلاغة، ويُسمّى أيضا الآحتراس والآحتياط، فتمّم بقوله « على حبه » وقوله : « وهو مؤمن »؛ ومنه قول زهير :

مَن يَلْقَ يومًا على عِلَاته هَرِمًا * يَلْقَ السَّماحةَ منـه والنَّـدَى خُلُقَا

وقال امرؤ القيس :

على هَيـكَل يُعطيك قبل سـؤاله * أفانينَ جَرْيٍ غـير كَزٍّ ولا وَانِ

فقوله : « على علاته » و « قبل سؤاله » تتميم حسن؛ ومنه قول عنترة :

أثنى علـىّ بمـا علمتِ فإننى * سهـلٌ مخالقـتى إذا لم أُظْـلَمِ

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٢٦ (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٩

Marfat.com

فقوله : « إذا لم أُظلم » تتميم حَسَن . وقال طَرَفة :

فسَــقى ديارَك غيرَ مفسِدِها * صوبُ الربيع ودِيمةٌ تَهْمِى

وقال الربيع بن ضَبع الفزارىّ :

فنيت وما يفنى صنيعى ومنطق * وكل آمرئ إلا أحاديثه فانِ

فقو له : « غير مفسدها » ، و « إلا أحاديثه » تتميم وآحتراس . وقال أبو هفّان :

فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم * وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله : « غير ظالم » ، و « غير عائب » تتميم وآحتياط ، وهو فى الشعر كثير . وقيل : يعود على الإيتاء ؛ لأن الفعل يدل على مصــدره ، وهو كقوله تعالى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُم[١] » أى البخل خيرًا لهم ، فإذا أصابت الناس حاجة أو فاقة فإيتاء المـال حبيب إليهـم . وقيل : يعود على آسم الله تعالى فى قوله : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ » . والمعنى المقصــود أن يتصدق المرء فى هــذه الوجوه وهو صحيح شحيح يخشى الفقر و يأمن البقاء .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ أى فيما بينهم و بين الله تعالى وفيما بينهم و بين الناس . ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البأساء : الشدّة والفقر . والضّراء : المرض والزمانة ؛ قاله آبن مسعود . وقال عليه السلام : " يقول الله تعالى أيّما عبدٍ من عبادى آبتليته ببلاء فى فراشه فلم يَشْك إلى عوّاده أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه فإن قبضته فإلى رحمتى و إن عافيته عافيته وليس له ذنب " قيــل : يارسول الله ، ما لحمٌ خيرٌ من لحمــه ؟ قال : " لحم لم يُذنب " قيل : فما دمٌ خير من دمه ؟ قال : " دم لم يذنب " . والبأساء والضراء آسمــان بُنيا على فعلاء ، ولا فعــل لهما ؛ لأنهما آسمــان وليسا بنعت . ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أى وقت الحرب[٢] .

قوله تعــالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بها ، وأنهم كانوا جادّين فى الدين ؛ وهذا غاية الثناء . والصدق : خلاف

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩　　　(٢) فى ب : « وقت الجدب » .

Marfat.com

الكذب . و يقال: صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق: الملازم للصدق؛ وفى الحديث: "عليكم بالصدق فإن الصدق يَهْدى إلى البِرّ و إن البِرّ يَهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يَصْدق و يتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا" .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — روى البخارى والنسائى والدَّارقُطْنى عن ابن عباس قال: «كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدِّية ؛ فقال الله لهذه الأمة : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ والعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ » فالعَفْو أن يقبل الدية فى العمد «فَٱتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ » يَتَّبع بالمعروف ويؤدى بإحسان « ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ » مما كتب على من كان قبلكم « فَمَنِ ٱعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قتل بعد قبول الدية » . هـذا لفظ البخارى : حدّثنا الحميدى حدّثنا سفيان حدّثنا عمرو [قال][1] سمعت مجاهدا [قال][1] سمعت ابن عباس [يقول][1] . وقال الشعبى فى قوله تعالى: « الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى » قال : أنزلت فى قبيلتين من قبائل العرب ٱقتتلتا فقالوا : نقتل بعبدنا فلان بن فلان ، و بأَمَتنا فلانة بنت فلان ؛ ونحوه عن قتادة .

الثانيـــة — قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ » « كُتب » معناه فُرض وأُثبت ؛ ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

كُتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جَرُّ الذيول

(١) زيادة عن صحيح البخارى .

Marfat.com

وقد قيل : إن « كُتب » هنا إخبار عما كُتب فى اللوح المحفوظ وسبق به القضاء . والقصاص مأخوذ من قَصّ الأثر وهو آتباعه ؛ ومنه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبار . وقصّ الشعر آتباع أثره ؛ فكأن القاتل سلك طريقًا من القتل فقُصّ أثره فيها ومشى على سبيله فى ذلك ؛ ومنه « فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا » . وقيل : القَصّ القطع ؛ يقال : قصصت ما بينهما . ومنه أخذ القِصاص ؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به ؛ يقال : أقصّ الحاكمُ فلانا من فلان وأباءه به فأمثله فآمتثل منه ؛ أى آقتص منه .

الثالثــة — صورة القِصاص هو أن القاتل فُرض عليه إذا أراد الولىّ القتل الآستسلامُ لأمر الله والآنقيادُ لقصاصه المشروع ، وأن الولىّ فُرض عليه الوقوف عند قاتل وليّه وترك التعدّى على غيره ، كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : "إنّ مِن أعتَى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة رجلٌ قتل غير قاتله ورجل قتل فى الحَرَم ورجل أخذ بذُحول الجاهلية"[1] . قال الشعبي وقتادة وغيرهما : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغى وطاعة للشيطان ؛ فكان الحىّ إذا كان فيه عزّ ومنَعَة فقُتل لهم عبد ، قتله عبد قوم آخرين قالوا : لا نقتل به إلا حُرًّا ، وإذا قُتلت منهم آمرأة قالوا : لا نقتل بها إلا رجلا ، وإذا قُتل لهم وضيع قالوا : لا نقتل به إلا شريفًا ؛ ويقولون : « القتل أَوْقَى للقتل » بالواو والقاف ، ويروى « أبقى » بالباء والقاف ، ويروى « أنفى » بالنون والفاء ؛ فنهاهم الله عن البغى فقال : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ » الآية ، وقال « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » . وبين الكلامين فى الفصاحة والجَزْل بَوْنٌ عظيم .

الرابعــة — لا خلاف أن القصاص فى القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك ؛ لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص ؛ فأقاموا السلطان مقام أنفسهم

(١) الذحل (بفتح فسكون) : قيل هو العداوة والحقد ، وقيل : الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ، ونحو ذلك .

Marfat.com

فى إقامة القصاص وغيره من الحدود. وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألّا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتـداء ؛ فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دِيَة أو عَفْو فذلك مباح ، على ما يأتى بيانه .

فإن قيل: فإن قوله تعالى «كُتِبَ عَلَيْكُمْ» معناه فُرِض وأُلزم ؛ فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه إذا أردتم ؛ فأعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاحّ. والقتلى جمع قتيل ، لفظ مؤنث تأنيث الجمـاعة ، وهو مما يدخل على الناس كرها ؛ فلذلك جاء على هذا البناء كجرحى وزمنى وحمقى وصرعى وغرقى ؛ وشبههن .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ الآية . آختلف فى تأويلها ؛ فقالت طائفة : جاءت الآية مبيّنة لحكم النوع إذا قتل نوعه ؛ فبينت حكم الحرّ إذا قَتـل حُرًّا، والعبد إذا قتل عبدًا، والأنثى إذا قَتلت أنثى ، ولم تتعرّض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ؛ فالآية مُحْكَمة وفيها إجمال يبيّنه قوله تعالى : «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» ، وبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم بسُنّته لمـا قتل اليهوديّ بالمرأة ؛ قاله مجاهد، وذكره أبو عبيد عن آبن عباس . وروى عن آبن عباس أيضا أنها منسوخة بآية « المـائدة »[1] وهو قول أهل العراق .

السادســـة — قال الكوفيون والثورى : يُقتل الحر بالعبد ، والمسلمُ بالذمى ؛ وآحتجّوا بقوله تعـالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى» فعمّ، وقوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » ، قالوا : والذّمّى مع المسـلم[2] متساويان فى الحُرمة التى تكفى فى القصـاص وهى حُرمة الدّم الثابتة على التأبيد؛ فإن الذّمى محْقُون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام؛ والذى يحقق ذلك أن المسلم يُقطع بسرقة مال الذمىّ ، وهذا يدلّ على أن مال الذمىّ قد ساوى مال المسـلم؛ فدل على مساواته لدمه إذ المـال إنما يحرم بحرمة مالكه . وآتفق أبو حنيفـة وأصحابه والثورىّ وآبن أبى ليـلى على أن الحر يُقتل بالعبـد كما يُقتل العبد به ؛ وهو قول داود ، وروى ذلك عن علىّ وآبن مســعود

(١) راجع جـ ٦ ص ١٩١ . (٢) فى ب، جـ، ز : «مع الحر» .

Marfat.com

رضي الله عنهما ، و به قال سعيد بن المسيّب وقتادة و إبراهيم النَّخعي والحكم بن عُيينة . والجمهور من العلماء لا يقتلون الحرّ بالعبد ؛ للتنويع والتقسيم في الآية . وقال أبو ثور : لما آتفق جميعهم على أنه لا قصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفوس كانت النفوس أحْرَى بذلك ، ومَن فرّق منهم بين ذلك فقد ناقض . وأيضا فالإجماع فيمن قتل عبدا خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة ، فكما لم يشبه الحرّ في الخطأ لم يشبهه في العمد . وأيضا فإن العبد سلعة من السلع يباع و يشترى ، و يتصرّف فيه الحرّ كيف شاء ، فلا مساواة بينه و بين الحرّ ولا مقاومة .

قلت : هذا الإجماع صحيح ، وأما قوله أوّلا : « ولما آتفق جميعهم — إلى قوله — فقد ناقض » فقد قال آبن أبي ليلى وداود بالقصاص بين الأحرار والعبيد في النفس وفي جميع الأعضاء ، وآستدل داود بقوله عليه السلام : " المسلمون تتكافأ دماؤهم " فلم يفرّق بين حُرّ وعبد . وسيأتي بيانه في « النساء »(1) إن شاء الله تعالى .

السابعــة — والجمهور أيضا على أنه لا يُقتل مسلم بكافر ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يُقتل مسلم بكافر " أخرجه البخاريّ عن عليّ بن أبي طالب . ولا يصحّ لهم ما رووْه من حديث ربيعة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل يوم خَيْبَر مسلما بكافر ؛ لأنه منقطع ، ومن حديث آبن البَيْلَمانيّ وهو ضعيف عن آبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرفوعا . قال الدّارقطني : « لم يسنده غير إبراهيم بن أبي يحيى وهو متروك الحديث . والصواب عن ربيعة عن آبن البَيْلَمانيّ مرسَل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وآبن البَيْلَمانيّ ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث ، فكيف بما يرسله » .

قلت : فلا يصح في الباب إلا حديث البخاريّ ، وهو يخصص عموم قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » الآية ، وعموم قوله : « النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » .

الثامنــة — رُوي عن عليّ بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن البصريّ أن الآية نزلت مبيّنة حكم المذكورين ، ليدلّ ذلك على الفرق بينهم و بين أن يقتل حرّ عبدًا أو عبدٌ حرًّا ، أو ذكر أنثى أو أنثى ذكرًا ، وقالا : إذا قتل رجل آمرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفّوا

(1) راجع ج ٥ ص ٣١٤

Marfat.com

أولياءه نصف الدّية، وإن أرادوا آستحيَوْه وأخذوا منه دِيَة المرأة . وإذا قتلت آمرأةٌ رجلا فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدّية ، وإلا أخذوا دِية صاحبهم وآستحيَوْها . روى هذا الشعبي عن علىّ ، ولا يصح؛ لأن الشعبىّ لم يلق عليًّا . وقد روى الحَكَم عن علىّ وعبد الله قالا : إذا قتل الرجلُ المرأةَ متعمّدا فهو بها قَوَدٌ ، وهذا يعارض رواية الشعبىّ عن علىّ . وأجمع العلمـاء على أن الأعور والأَشَـلّ إذا قتل رجلا سالمَ الأعضاء أنه ليس لوليّـه أن يقتـل الأعور ، ويأخذ منـه نصف الدّية من أجل أنه قتـل ذا عينين وهو أعور، وقتـل ذا يدَيْن وهو أشلّ ؛ فهـذا يدلّ على أن النفس مكافئة للنفس، ويكافئ الطفل فيهـا الكبير .

ويقال لقائل ذلك : إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم" فلِمَ قتلت الرجل بها وهى لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدّية ، والعلمـاء قد أجمعوا أن الدّية لا تجتمع مع القصاص، وأن الدّية إذا قُبلت حَرُم الدم وآرتفع القصاص؛ فليس قولك هذا بأصل ولا قياس، قاله أبو عمر رضى الله عنه . وإذا قتل الحرُّ العبدَ، فإن أراد سيّد العبد قَتل وأعطى دِية الحرّ إلا قيمة العبد، وإن شاء آستحيا وأخذ قيمة العبد؛ هذا مذكور عن علىّ والحسن؛ وقد أنكر ذلك عنهم أيضا .

التاسـعة — وأجمع العلمـاء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ؛ والجمهور لا يرَوْن الرجوع بشيء . وفرقة ترى الآتباع بفضل الدّيات . قال مالك والشافعى وأحمـد وإسحاق والثورىّ وأبو ثور : وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس . وقال حمـاد بن أبى سليمان وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما فيما دون النفس بالنفس وإنمـا هو فى النفس بالنفس ؛ وهما محجوجان بإلحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأحرى والأَوْلى، على ما تقدّم .

العاشـرة — قال آبن العربى : « ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : يُقتل الحرّ بعبد نفسـه ، ورووْا فى ذلك حديثًا عن الحسن عن سَمُرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "مَن قتل عبـده قتلناه" وهو حديث ضعيف . ودليلنا قوله تعـالى : « وَمَنْ قُتِل

Marfat.com

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ(١) » والولىّ ها هنا السّـيد ؛ فكيف يجعل له سلطان على نفسه » . وقد آتفق الجميع على أن السّيد لو قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المـال؛ وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلاً قتل عبده متعمّدًا فجلده النبيّ صلى الله عليه وسلم ونفاه سَنَةً ومَحَا سهمه من المسلمين ولم يُقِده به .

فإن قيل : فإذا قتل الرجل زوجته لِمَ لَمْ تقولوا : ينصب النكاح شبهة فى درء القصاص عن الزوج، إذ النكاح ضرب من الرّق ، وقـد قال ذلك اللّيث بن سـعد . قلنـا : النكاح ينعقد لهـا عليه، كما ينعقد له عليها ؛ بدليل أنه لا يتزوج أختها ولا أربعًا سـواها، وتطالبـه فى حق الوطء بمـا يطالبها ، ولكن له عليها فضل القَوَامة التى جعل الله له عليها بما أنفق من ماله ؛ أى بمـا وجب عليه من صداق ونفقة؛ فلو أورث شبهة لأورثها فى الجانبين .

قلت : هذا الحديث الذى ضعّفه آبن العربى وهو صحيح ،أخرجه النسائى وأبو داود ،وتتميم متنه :"ومَن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه". وقال البخارى عن علىّ بن المدينى : سماع الحسن من سَمُرة صحيح ، وأخذ بهذا الحديث . وقال البخارى : وأنا أذهب إليه ؛ فلو لم يصح الحديث لمـا ذهب إليه هذان الإمامان ، وحَسْبُك بهما ! . ويُقتل الحرّ بعبد نفسـه . قال النَّخَعىّ والثّورىّ فى أحد قوليه وقد قيل : إن الحسن لم يسمع من سَمُرة إلا حديث العَقيقة ؛ والله أعلم . [وآختلفوا(٢) فى القصاص بين العبيد فيما دون النفس ؛ هذا قول عمر بن عبد العزيز وسـالم بن عبـد الله والزّهرى وقُرّان(٣) ومالك والشـافعى وأبو ثور . وقال الشعبىّ والنَّخَعىّ والثّورىّ وأبو حنيفة : لا قصاص بينهم إلا فى النفس . قال آبن المنذر : الأول أصح] .

الحادية عشرة — روى الدّارَقُطْنِىّ وأبو عيسى الترمذى عن سُرَاقة بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقيد الأب من آبنه، ولا يُقيد الآبن من أبيه . قال أبو عيسى : « هذا حديث لا نعرفه من حديث سُراقة إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح ، رواه إسماعيل بن عيّاش عن المُثَنّى بن الصباح، والمُثَنّى يُضعَّف فى الحديث، وقد روى هـذا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٤ (٢) ما بين المربعين ساقط من ب، جـ، ز .
(٣) قران (بضم القاف وتشديد الراء) بن تمـام الأسدى ، توفى سنة إحدى وثمـانين ومائة .

Marfat.com

الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد رُوِىَ هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلًا ، وهذا الحديث فيه اضطراب ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ٱبنه لا يُقتل به ، و إذا قذفه لا يُحدّ » . وقال ٱبن المنذر : ٱختلف أهل العلم فى الرجل يقتل ٱبنه عمدا ؛ فقالت طائفة : لا قَوَد عليه وعليه دِيَتُه ؛ وهذا قول الشافعى وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى ، ورُوِى ذلك عن عطاء ومجاهد . وقال مالك وٱبن نافع وٱبن عبد الحكم : يُقتل به . وقال ٱبن المنذر : وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسُّنة ؛ فأمّا ظاهر الكتاب فقوله تعـالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ » ، والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” المؤمنون تتكافأ دماؤهم “ ولا نعلم خبرًا ثابتًا يجب به ٱستثناء الأب من جـملة الآية ، وقد رَوَيْنا فيـه أخبارًا غير ثابتـة . وحكى الكِيَا الطبرى عن عثمان البَتّى أنه يُقتـل الوالد بولده ؛ للعمومات فى القصاص . ورُوِى مثل ذلك عن مالك ، ولعلهما لا يقبلان أخبـار الآحاد فى مقابلة عمومات القرآن .

قلت : لا خلاف فى مذهب مالك أنه إذا قتـل الرجل ٱبنه متعمِّدًا مثـل أن يُضْجِعَه و يذبحه أو يَصْبِره[(١)] مما لا عذر له فيه ولا شبهة فى ٱدّعاء الخطأ ، أنه يُقتل به قولًا واحدًا . فأما إن رماه بالسلاح أدبًا أو حَنَقًا فقتله ، ففيه فى المذهب قولانِ : يُقتل به ، ولا يُقتل به وتُغَلَّظ الدِّية ؛ و به قال جماعة العلماء . و يُقتل الأجنبيّ بمثـل هذا . ٱبن العربى[(٢)] : « سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشى يقول فى النّظر : لا يُقتل الأب بٱبنه ؛ لأن الأب كان سبب وجوده ، فكيف يكون هو سبب عدمه ؟ وهذا يبطل بما إذا زنى بٱبنته فإنه يُرجم ، وكان سبب وجودها وتكون هى سبب عدمه ؛ [ثم أيّ فقـه تحت هذا ، ولِمَ لا يكون سبب عدمه إذا عصى الله تعـالى فى ذلك][(٣)] . وقد أثَرُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : ” لا يقاد الوالد

(١) صبر الإنسان وغيره على القتل : أن يحبس و يرمى حتى يموت . وفى ا ، ج : « أو يضربه » .

(٢) أثبتنا كلام ٱبن العربى هنا كما ورد فى كتابه « أحكام القرآن » ، وقـد ورد فى الأصول بنقص وتحريف من النساخ .

(٣) الزيادة عن ابن العربى .

بولده " وهــو حديث باطل ، ومتعلّقهم أن عمر رضى الله عنــه قضى بالدّية مغلّظة فى قاتل ابنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليــه ؛ فأخذ سائر الفقهاء رضى الله عنهــم المسألة مُسجلة (١) ، [وقالوا : لا يُقتل الوالد بولده] (٢) ؛ وأخذها مالك محكمة مفصّلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه ، وشفقة الأبوة شُبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد إلى القتل تُسقط القَوَد ، فإذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله » . قال ابن المنذر : وكان مالك والشافعى وأحمد و إسحاق يقولون : إذا قتل الابنُ الأب قُتل به .

الثانية عشرة — وقد استدلّ الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لاتُقتل الجماعة بالواحد . قال : لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقــد قال تعالى : «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ» . والجواب أن المراد بالقصاص فى الآية قتل مَنْ قتل كائنًا من كان ؛ ردًّا على العرب التى كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يَقتل ، وتقتل فى مقابلة الواحد مائة ؛ افتخارًا واستظهارًا بالجاه والمقدرة ، فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة ، وذلك بأن يُقتل مَن قَتل . وقد قَتل عمر رضى الله عنه سبعةً برجل بصنعاء وقال : لو تمــالأ عليه أهــلُ صنعاء لقتلتهم به جميعا . وقتــل علىّ رضى الله عنه الحرورية (٣) بعبد الله بن خبّاب ؛ فإنه توقّف عن قتالهم حتى يُحدِثوا ، فلما ذبحوا عبــد الله بن خبّاب كما تُذبح الشاة ، وأُخبر علىّ بذلك قال : الله أكبر ! نادوهم أن أخرجــوا إلينا قاتلَ عبد الله بن خبّاب ؛ فقالوا : كلنا قتله ، ثلاث مرات ، فقال علىٌّ لأصحابه : دونكم القوم ، فمــا لبث أن قتلهم علىّ وأصحابه . خرّج الحديثين الدّارَقُطْنِىّ فى سُننه . وفى الترمذىّ عن أبى سعيد وأبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبّهم الله فى النار " . وقال فيــه : حديث غريب . وأيضا فلو علم الجماعة أنهــم إذا قتلوا الواحد لم يُقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك فى قتلهم و بلغوا الأمل من التشفّى ،

(١) أى مرسلة مطلقة .　　(٢) زيادة عن ابن العربى .　　(٣) الحرورية : طائفة من الخوارج نسبوا إلى حروراء (موضع قريب من الكوفة) لأن أوّل مجتمعهم وتحكيمهم فيها .

Marfat.com

ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، والله أعلم . [وقال آبن المنذر: وقال الزهرى(١) وحبيب بن أبى ثابت وآبن سيرين : لا يُقتل آثنان بواحد . روينا ذلك عن معاذ بن جبل وآبن الزبير وعبد الملك ، قال آبن المنذر : وهـذا أصح، ولا حجة مع من أباح قتـل جماعة بواحد . وقد ثبت عن آبن الزبير ما ذكرناه(١)] .

الثالثة عشرة — روى الأئمة عن أبى شريح الكعبى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إنكم معشرَ خزاعة قتلتم هذا القتيل من هُذيل و إنى عاقله فمن قُتل له بعد مقالتى هذه قتيل فأهله بين خِيرتين أن يأخذوا العقل أو يقتلوا "، لفظ أبى داود . وقال الترمذى: حديث حسن صحيح . وروى عن أبى شريح الخـزاعى(٢) عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : " من قُتل له قَتيل فله أن يقتـل أو يعفو أو يأخذ الدّية " . وذهب إلى هـذا بعض أهل العلم ، وهو قول أحمد و إسحاق .

الرابعة عشرة — آختلف أهل العلم فى أخذ الدّية من قاتل العمد، فقالت طائفة : ولىّ المقتول بالخيار إن شاء آقتص و إن شاء أخذ الدّية و إن لم يرض القاتل. يُروى هذا عن سعيد ابن المسيّب وعطاء والحسن، ورواه أشهب عن مالك، و به قال الليث والأوزاعى والشافعى وأحمد و إسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبى شريح وما كان فى معناه، وهو نص فى موضع الخلاف؛ وأيضا من طريق النظر فإنما لزمته الدّية بغير رضاه؛ لأن فرضًا عليه إحياء نفسه ، وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ(٣)» . وقوله : «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» أى ترك له دمه، فى أحد التأويلات، ورضى منه بالدّية «فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ» أى فعلى صاحب الدم آتباع بالمعروف فى المطالبة بالدّية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أى من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أى أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضّل الله على هذه الأمة بالدّية إذا رضى بها ولىّ الدم؛ على ما يأتى بيانه . وقال

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ب، جـ، ز . (٢) أبو شريح الخزاعى : هو أبو شريح الكعبى؛ واختلف فى اسمه ، والمشهور أنه خو يلد بن عمرو بن صخر، أسلم يوم الفتح . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٦

Marfat.com

آخرون : ليس لولىّ المقتول إلا القصاص، ولا يأخذ الدّية إلا إذا رضى القاتل؛ رواه آبن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه . وبه قال الثورىّ والكوفيون . وآحتجوا بحديث أنَس فى قصة الرُّبَيِّع(١) حين كَسرت ثَنِيّة المرأة؛ رواه الأئمة قالوا : فلما حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص وقال : "القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله" ولم يخيِّر المجنى عليه بين القصاص والدّية ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وسُنّة رسوله فى العمد هو القصاص، والأوّل أصح؛ لحديث أبى شريح المذكور . وروى الرّبيع عن الشافعى قال : أخبرنى أبو حنيفة آبن سِمَاك بن الفضل الشهابى قال : وحدّثنى آبن أبى ذئب عن المَقْبُرِىّ عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامَ الفتح : "مَن قُتل له قتيل فهو بخير النّظرَيْن إن أحبّ أخذ العقل و إن أحبّ فله القَوَد" . فقال أبو حنيفة : فقلت لآبن أبى ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث! فضرب صدرى وصاح علىّ صياحًا كثيرًا ونال منّى وقال : أحدّثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : تأخذ به ! نعم آخذ به، وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه . إن الله عز وجل ثناؤه آختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه . وآختار لهم ما آختاره له وعلى لسانه ؛ فعلى الخلق أن يتّبعوه طائعين أو داخرين ، لا مخرج لمسلم من ذلك ؛ قال : وما سكت عنّى حتى تمنّيت أن يسكت .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ آختلف العلماء فى تأويل « مَنْ » و « عُفِيَ » على تأويلات خمس :

أحدها — أن « مَن » يراد بها القاتل، و « عُفِيَ » تتضمّن عافيًا هو ولىّ الدم، والأخ هو المقتول، و « شَيْءٌ » هو الدّم الذى يُعفَى عنه ويرجع إلى أخذ الدّية؛ هذا قول آبن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة من العلماء . والعَفْوُ فى هذا القول على بابه الذى هو الترك . والمعنى : أن القاتل إذا عفا عنه ولىّ المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدّية ويتبع بالمعروف، ويؤدّى إليه القاتل بإحسان .

(١) الربيع (بضم الراء وفتح الباء وتشديد الياء المثناة المكسورة بعدها عين مهملة) وهى عمة أنس بن مالك .

Marfat.com

الثـانى — وهو قول مالك أن « مَنْ » يراد به الولىّ « وعُفِىَ » يُسّر، لا على بابها فى العفـو، والأخ يراد به القاتل، و « شىء » هو الدية، أى أن الولىّ إذا جنح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فإن القاتل مخيّر بين أن يعطيها أو يسلم نفسه ؛ فمرة تُيَسّر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضى الأولياء بالدّية فلا خيار للقاتل بل تلزمه. وقد رُوى عن مالك هذا القول، ورجّحه كثير من أصحابه. وقال أبو حنيفة: إن معنى «عُفِىَ» بُذِل؛ والعفو فى اللغة: البذل؛ ولهذا قال الله تعالى: « خُذِ الْعَفْوَ »(١) أى ما سهل. وقال أبو الأسود الدؤلى:

* خُذِى العفو منّى تستديمى مودّتى *

[وقال(٢) صلى الله عليه وسلم: "أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله" يعنى شهد الله على عباده. فكأنه قال: مَن بُذِل له شىء من الدّية فليقبل وليتبع بالمعروف. وقال قوم: وليُؤدِّ إليـه القاتل بإحسـان ؛ فندبه تعـالى إلى أخذ المـال إذا سهل ذلك من جهـة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة؛ كما قال ذلك عقب ذكر القصاص فى سورة «المـائدة» « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُـوَ كَفَّارَةٌ لَهُ »(٣) فندب إلى رحمة العفو والصدقة، وكذلك ندب فيما ذكر فى هذه الآية إلى قبول الدّية إذا بذلها الجانى بإعطاء الدّية، ثم أمر الولىّ باتباع وأمر الجانى بالأداء بالإحسان].

وقـد قال قوم: إن هـذه الألفاظ فى المعيّنين الذين نزلت فيهم الآية كلهـا وتساقطوا الدّيات فيما بينهم مقاصّـة. ومعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شىء من تلك الدّيات؛ ويكون « عُفِىَ » بمعنى فُضل.

[روى(٢) سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبىّ قال: كان بين حيّين من العرب قتال؛ فقُتل من هؤلاء وهؤلاء. وقال أحد الحيّين: لا نرضى حتى يُقتل بالمرأة الرجلُ وبالرجل المرأةُ؛ فارتفعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه السلام: "القتل سواء" فاصطلحوا على الدّيات، ففُضّل أحد الحيّين على الآخر؛ فهو قوله: « كُتِبَ » إلى قوله: « فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيـهِ شَىْءٌ » يعنى فمن فُضل له على أخيه فضل فليؤدّه بالمعـروف؛ فأخبر الشعبى عن السبب فى نزول الآية، وذكر سفيان العفو هنا الفضل؛ وهو معنًى يحتمله اللفظ].

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ (٢) ما بين المربعين فى ح، وساقط من سائر النسخ. (٣) جـ ٦ ص ٢٠٨

Marfat.com

وتأويل خامس – وهو قول عليّ رضي الله عنه والحسن في الفضل بين دية الرجل[1] والمرأة والحرّ والعبد ، أي من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف ؛ و « عُفِي » في هذا الموضع أيضا بمعنى فُضِل .

السادسة عشرة – هذه الآية حضٌّ من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب ، وحسن القضاء من المؤدّي ؛ وهل ذلك على الوجوب أو الندب . فقراءة الرفع تدل على الوجوب ؛ لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف . قال النحاس : « فَمَنْ عُفِيَ لَهُ » شرطٌ والجواب « فاتباعٌ » وهو رفع بالابتداء ، والتقدير فعليه اتباع بالمعروف . ويجوز في غير القرآن « فاتباعاً ، وأداءً » بجعلهما مصدرين . قال ابن عطية : وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة « فاتباعا » بالنصب . والرفع سبيل للواجبات ؛ كقوله تعالى : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ »[2] . وأما المندوب إليه فيأتي منصوبا ؛ كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ »[3] .

السابعة عشرة – قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك ، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَدٌ ولا دِيَة ؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفًا لهذه الأمة ؛ فمن شاء قَتَل ، ومن شاء أخذ الدية ، ومن شاء عفا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ ﴾ شرط وجوابه ؛ أي قتل بعد أخذ الدية وسقوط [الدم][4] قاتلَ وليّه . ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال الحسن : كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلا فرّ إلى قومه فيجيء قومه فيصالحون بالدية فيقول وليّ المقتول : إني أقبل الدية ؛ حتى يأمن القاتل ويخرج ، فيقتله ثم يرمي إليهم بالدية .

واختلف العلماء فيمن قَتل بعد أخذ الدية ؛ فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي : هو كمن قتل ابتداء ، إن شاء الوليّ قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة . وقال قتادة وعكرمة والسُّدّي وغيرهم : عذابه أن يُقتل البتّة ، ولا يمكّن الحاكمُ الوليَّ من العفو . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا أُعْفِي[5] من قتل بعد أخذ

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله لم يذكر التأويل الثالث والرابع . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٢٧

(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٢٥ (٤) زيادة يقتضيها السياق . (٥) أعفى : من عفا الشيء إذا كثر وزاد ؛ وهذا دعاء عليه ؛ أي لا كثر ماله ولا استغنى .

Marfat.com

الدية " . وقال الحسن : عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمـه إلى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره إلى الإمام يصنع فيه ما يرى . وفى سُنن الدارَقُطْنِيّ عن أبى شريح الخزاعىّ قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " من أصيب بدم أو خَبْل ـــ والخَبل عَرَج ـــ فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص أو يعفو أو يأخذ العقل فإن قَبِل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خالدا فيها مخلّداً " .

قوله تعـالى : وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

فيـــه أربع مســائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ هـذا من الكلام البليغ الوجيز كما تقدّم . ومعناه : لا يقتل بعضكم بعضًا ؛ رواه سفيان عن السُّدّىّ عن أبى مالك . والمعنى : أن القصاص إذا أقيم وتحقّق الحكم فيه آزدجر من يريد قتل آخر، مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معًا . وكانت العرب إذا قتـل الرجل الآخر حَمِىَ قبيلاهما وتقاتلوا، وكان ذلك داعيـا إلى قتـل العدد الكثير ؛ فلمـا شرع الله القصاص قَنِـع الكل به وتركوا الآقتتال ؛ فلهم فى ذلك حياة .

الثـانيـــة ـــ آتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان ، وليس للنـاس أن يقتص بعضهم من بعض ؛ وإنمـا ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك ؛ ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

الثـالثـــة ـــ وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدّى على أحد من رعيّته، إذ هو واحد منهم ؛ وإنما له مزيّة النظر لهم كالوصىّ والوكيل، وذلك لا يمنع القصاص، وليس بينهم وبين العامّة فرق فى أحكام الله عز وجل ؛ لقوله جل ذكره : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى » ، وثبت عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال لرجل شكا إليه أن عاملًا قطع يده : لئن كنت صادقًا لأُقيدنّك منـه . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ

Marfat.com

قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئا إذ أكبّ عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه ، فصاح الرجل ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "[تعال] فاستقد" . قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود الطيالسي عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ألا مَن ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىّ أقيده منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، لئن أدّب رجل منا رجلا من أهل رعيّته لتقصنّه منه ؟ قال : كيف لا أقصّه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصّ من نفسه ! . ولفظ أبي داود السِّجستانيّ عنه قال : خطبنا عمر بن الخطاب فقال : إني لم أبعث عُمّالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ؛ فمن فعل ذلك به فليرفعه إلىّ أقصّه منه . وذكر الحديث بمعناه .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [(1)] تقدم معناه . والمراد هنا « تتقون » القتل فتسلمون من القصاص ، ثم يكون ذلك داعيةً لأنواع التقوى في غير ذلك ؛ فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة . وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبَعِيّ «ولكم في القَصَص حياة» . قال النحاس : قراءة أبي الجوزاء شاذّة . قال غيره : يحتمل أن يكون مصدراً كالقصاص . وقيل : أراد بالقَصَص القرآن ؛ أي لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة ؛ أي نجاة .

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ هـذه آية الوصيـة ، وليس في القرآن ذكر للوصيـة إلا في هـذه الآية ، [(2)] [وفي « النساء » : «مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ» [(3)] وفي «المائدة» : «حِينَ الْوَصِيَّةِ» [(4)] . والتي في البقرة أتمها وأكملها] ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث ؛ على ما يأتي

---

(1) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ وما بعدها ، طبعة ثانية .　(2) ما بين المربعين ساقط في ب ، حـ ، ز .
(3) راجع جـ ٥ ص ٧٣ .　(4) راجع جـ ٦ ص ٣٤٨ .

Marfat.com

بيانه . وفى الكلام تقدير واو العطف ؛ أى وكتب عليكم ، فلما طال الكلام أسقطت الواو. ومثله فى بعض الأقوال : «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى»[1] أى والذى ، فحذف. وقيل : لمـا ذكر أن لولىّ الدم أن يقتصّ ، فهذا الذى أشرف على أن يقتصّ منه وهو سبب الموت فكأنما حضره الموت ، فهذا أوان الوصية ؛ فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها فلذلك سقطت واو العطف . و «كُتِب» معناه فُرِض وأُثبت ؛ كما تقدّم[2] . وحضور الموت : أسبابه ، ومتى حضر السبب كَنّت به العرب عن المسبّب ؛ قال شاعرهم :

يأيهـا الراكبُ المُزْجِى مَطِيّتَـه * سائلْ بنى أَسَد ما هذه الصَّوْتُ[3]

وقل لهم بادروا بالعُـذْر والتمسوا * قولًا يبرّئكـم إنى أنا المـوت

وقال عنـــترة :

وإن المـوت طوعُ يدى إذا ما * وصلت بنانهـا بالهندوان

وقال جرير فى مهاجاة الفرزدق :

أنا المــوت الذى حدّثت عنه * فليس لهـاربٍ مِـنّى نجـاء

الثانيـــة — إن قيل : لم قال «كُتِب» ولم يقل «كُتِبَتْ» ، والوصيةُ مؤنّثة؟ قيل له : إنمـا ذلك لأنه أراد بالوصية الإيصاء . وقيل : لأنه تخلّل فاصل ؛ فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ؛ تقول العرب : حضر القاضى اليوم آمرأة . وقد حكى سيبويه : قام آمرأة . ولكن حُسْن ذلك إنما هو مع طول الحائل .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ «إن» شَرْط ، وفى جوابه لأبى الحسن الأخفش قولان ؛ قال الأخفش : التقدير فالوصـية ، ثم حذفت الفاء ؛ كما قال الشاعر :

مَن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها * والشّرُّ بالشّر عنـــد الله مِثْـلان

والجواب الآخر : أن المـاضى يجوز أن يكون جوابه قبـله وبعده ؛ فيكون التقدير الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا . فإن قدّرت الفاء فالوصية رفع بالابتداء ، وإن لم تقـدّر

(١) راجع ٢٠ ص ٨٦ . (٢) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء .

(٣) الصوت مذكر ، وإنما أنثه ها هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة ، على معنى الصيحة . (عن اللسان) .

Marfat.com

الفاء جاز أن ترفعها بالابتداء، وأن ترفعها على ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ أى كتب عليكم الوصـية . ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل « الوصية » فى « إذا » لأنهـا فى حكم الصلة للصدر الذى هو الوصـية وقد تقدّمت، فلا يجوز أن تعمل فيها متقدّمة . ويجـوز أن يكون العامل فى « إذا » : « كُتِب » والمعنى : توجّه إيجاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا حضر ؛ فعبّر عن توجّه الإيجاب بكُتب لينتظم إلى هـذا المعنى أنه مكتوب فى الأزل . ويجوز أن يكون العامل فى « إذا » الإيصاء يكون مقدّرا دلّ على الوصية، المعنى : كُتب عليكم الإيصاء إذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ الخير هنا المـال من غير خلاف ، واختلفوا فى مقـداره ؛ فقيل : المـال الكثير ؛ روى ذلك عن علىّ وعائشة وابن عباس وقالوا فى سبعمائة دينار إنه قليل . قتادة عن الحسن : الخير ألف دينار فما فوقها . الشعبىّ : ما بين خمسمائة دينار إلى ألف . والوصية عبارة عن كل شىء يؤمر بفعله و يعهد به فى الحياة و بعد الموت . وخصّصها العرف بمـا يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت، والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية . والوصىّ يكون المُوصِى والموصى إليه ؛ وأصـله من وَصَى مخفّفًا . وتواصى النّبت تواصيًا إذا اتصل . وأرض واصية : متّصلة النبات . وأوصيت له بشىء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيّك . والاسم الوِصاية والوَصاية (بالكسر والفتح) . وأوصيته ووصّيته أيضا توصية بمعنًى ؛ والاسم الوصاة . وتواصى القوم أوصى بعضهم بعضا . وفى الحديث : "استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوانٍ[1] عندكم" . ووصّيت الشىء بكذا إذا وصلته به .

الخامســـة — اختلف العلماء فى وجوب الوصية على من خلّف مالًا، بعـد إجماعهم على أنها واجبة على من قِبله ودائع وعليه ديون . وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قِبَله شىء من ذلك ، وهو قول مالك والشافعى والثورىّ، موسرًا كان الموصى أو فقيرا . وقالت طائفة : الوصية واجبة على ظاهر القرآن؛ قاله الزهرى وأبو مِجْلَز، قليلا كان المـال أو كثيرا . وقال أبو ثور : ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال

(١) عوان (جمع عانية) : وهى الأسيرة . يقول : إنما هنّ عندكم بمنزلة الأسرى .

Marfat.com

لقوم ؛ فواجب عليـه أن يكتب وصيته و يخبر بما عليه . فأما مَن لا دَين عليه ولا وديعـة عنـده فليست بواجبة عليه إلا أن يشاء . قال آبن المنذر : وهـذا حسن ؛ لأن الله فرض أداء الأمانات إلى أهلها؛ ومن لا حق عليه ولا أمانة قِبَـله فليس واجب عليـه أن يوصى . احتج الأوّلون بما رواه الأئمة عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حق آمرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا و وصيّته مكتوبة عنده " وفى رواية " يبيت ثلاث ليال " وفيها قال عبد الله بن عمر : ما مرّت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال ذلك إلا وعنـدى وصيتى . احتج من لم يوجبها بأن قال : لو كانت واجبة لم يجعلها إلى إرادة الموصى ، ولكان ذلك لازمًا على كل حال ، ثم لو سُلِّم أن ظاهره الوجوب فالقول بالموجب يردّه؛ وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم؛ كما قال أبو ثور . وكذلك إن كانت له حقوق عنـد الناس يخاف تلفها على الورثة ؛ فهـذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » وكُتِب بمعنى فُرض؛ فدلّ على وجوب الوصية . قيل لهم : قد تقدّم الجواب عنه فى الآية قبلُ ، والمعنى : إذا أردتم الوصيّة؛ والله أعلم . وقال النَّخَعىّ : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُوص ، وقد أوصى أبو بكر ، فإن أوصى فَحَسَن ، و إن لم يوص فلا شيء عليه .

السادســة — لم يبيّن الله تعالى فى كتابه مقدار ما يوصى به من المـال ، و إنما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » والخير المـال؛ كقوله : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ »[1] ، « و إنه لِحُبِّ الخير »[2] . فآختلف العلماء فى مقدار ذلك ؛ فرُوِىَ عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه أوصى بالخمس . وقال علىّ رضى الله عنه من غنائم المسلمين بالخمس . وقال مَعْمَر عن قتادة : أوصى عمر بالربع . وذكره البخارى عن آبن عباس . و روى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحبّ إلىّ من أن أوصى بالربع، ولأن أوصى بالربع أحبّ إلىّ من أوصى بالثلث .

وآختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة تَرْك الوصـية ؛ روى ذلك عن علىّ وآبن عباس وعائشة رضوان الله عليهـم أجمعين . روى آبن أبى شـيبة من حديث آبن أبى مليـكة عن

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٩ (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٦٢

Marfat.com

عائشة قال لها : إنى أريد أن أوصى؛ قالت : وكم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : فكم عيالك ؟ قال أربعة . قالت : إن الله تعالى يقول : « إِنْ تَرَكَ خَيْراً » وهذا شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل لك .

السابعــة — ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصى بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا : إن لم يترك الموصى ورثة جاز له أن يوصى بماله كله . وقالوا : إن الاقتصار على الثلث فى الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء؛ لقوله عليه السلام : " إنك أنْ تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " الحديث ، رواه الأئمة . ومن لا وارث له فليس ممن عُنى بالحديث ؛ روى هـذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق. وإليه ذهب إسحاق ومالك فى أحد قوليه . وروى عن علىّ . وسبب الخلاف مـع ما ذكرنا، الخلافُ فى بيت المال هل هو وارث أو حافظ لما يُجعل فيه ؟ قولان .

الثامنــة — أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصى بجميع ماله . وروى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنـه عبد الله : إنى قد أردت أن أوصى ؛ فقال له : أوص ومالك فى مالى ؛ فدعا كاتباً فأملى ؛ فقال عبد الله : فقلت له ما أراك إلا وقد أتيت على مالى ومالك، ولو دعوت إخوتى فاستحللتهم .

التاســعة — وأجمعوا أن للإنسان أن يغيّر وصيته ويرجع فيما شاء منها ؛ إلا أنهـم اختلفوا من ذلك فى المُدَبَّر ؛ فقال مالك رحمه الله : الأمر المجمع عليه عندنا أن الموصى إذا أوصى فى صحته أو مرضه بوصية فيها عتاقة رقيق من رقيقـه أو غير ذلك فإنه يغيّر من ذلك ما بدا له ويصنع من ذلك ما شاء حتى يموت ، وإن أحبّ أن يطرح تلك الوصية ويسقطها فعل ، إلا أن يُدَبِّر فإن دبّر مملوكا فلا سبيل له إلى تغيير ما دبّر ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيـه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنـده " . قال أبو الفرج المالكى : المُدَبَّر فى القيـاس كالمعتق الى شهر ؛ لأنه أجل آت

Marfat.com

لا محالة . وأجمعوا ألّا يرجع فى اليمين بالعتق والعتق إلى أجل فكذلك المـدبَّر؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعىّ وأحمـد و إسحاق : هو وصـية ؛ لإجماعهم أنه فى الثلث كسائر الوصايا . وفى إجازتهم وطء المُدَبَّرة ما ينقض قياسهم المدبَّر على العتق إلى أجل، وقد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم باع مدبَّرا، وأن عائشة دبّرت جارية لها ثم باعتها؛ وهو قول جماعة من التابعين . وقالت طائفة : يغيّر الرجل من وصيته ما شاء إلا العتاقة . وكذلك قال الشعبىّ وآبن سيرين وآبن شُبْرُمة والنَّخعىّ، وهو قول سفيان الثورىّ .

العـاشرة — وآختلفوا فى الرجل يقول لعبده : أنت حُرّ بعـد موتى ، وأراد الوصية ؛ فله الرجوع عند مالك فى ذلك . و إن قال : فلان مُدَبَّر بعد موتى؛ لم يكن له الرجوع فيه . و إن أراد التّدبير بقوله الأوّل لم يرجع أيضا عند أكثر أصحاب مالك . وأما الشافعىّ وأحمد و إسحـاق وأبو ثور فكل هـذا عندهم وصية ؛ لأنه فى الثلث ، وكل ما كان فى الثلث فهـو وصية ؛ إلا أن الشافعىّ قال : لا يكون الرجوع فى المدبَّر إلا بأن يخرجه عن ملكه ببيع أو هبة . وليس قوله : « قد رجعت » رجوعا ؛ و إن لم يخرج المدبَّر عن ملكه حتى يموت فإنه يعتق بموته . وقال فى القـديم : يرجع فى المدبَّر كما يرجع فى الوصـية . وآختاره المُزَنىّ قياسًا على إجماعهم على الرجوع فيمن أوصى بعتقــه . وقال أبو ثور : إذا قال قـد رجعت فى مدبَّرى فقد بطل التدبير ، فإن مات لم يعتق . وآختلف آبن القاسم وأشهب فيمن قال : عبدى حُرّ بعـد موتى ؛ ولم يرد الوصـية ولا التدبير ؛ فقال آبن القاسم : هـو وصية . وقال أشهب : هو مُدَبَّر و إن لم يُرِد الوصية .

الحادية عشرة — آختلف العلماء فى هـذه الآية هل هى منسوخة أو مُحْكَمَة ؛ فقيل : هى محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص فى الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين وفى القرابة غير الورثة؛ قاله الضحاك وطاوس والحسن، وآختاره الطبرى . وعن الزهرى أن الوصية واجبة فيما قلّ أو كثر . وقال آبن المنذر : أجمع كلّ من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذَيْن لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال آبن عباس والحسن أيضا وقتادة: الآية عامة، وتقرّر الحكم بها بُرهة من الدهر، ونسخ منها كل من كان يرث بآية

Marfat.com

الفرائض . وقد قيل: إن آية الفرائض لم تستقل بنسخها بل بضميمة أخرى، وهي قوله عليه السلام: "إن الله قد أعطى لكلّ ذى حقٍّ حقَّه فلا وصيّة لوارث" . رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح . فنسْخُ الآية إنمـا كان بالسُّنة الثابتة لا بالإرث، على الصحيح من أقوال العلماء . ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المـال عن المورّث بالوصية، و بالميراث إن لم يوص، أو ما بقى بعد الوصية؛ لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع . والشافعي وأبو الفرج و إن كانا منعا من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازه بدليل أن الكل حُكم الله تبارك وتعالى ومن عنده و إن اختلفت فى الأسماء، وقد تقدم هذا المعنى[1] . ونحن و إن كان هذا الخبر بلغنا آحادًا لكن قد انضم إليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث . فقــد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين الوارثين منسوخ بالسُّنة وأنها مستند المجمعين . والله أعلم .

وقال ابن عباس والحسن: نُسخت الوصية للوالدين بالفرض فى سورة «النساء» وثبتت للأقربين الذين لا يرثون؛ وهو مذهب الشافعي وأكثر المـالكيين و جماعة من أهل العـلم . وفى البخارى عن ابن عباس قال: كان المـال للولد وكانت الوصية للوالدين، فنسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشّطر والربع .

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد: الآية كلها منسوخة، و بقيت الوصية ندبًا؛ ونحو هــذا قول مالك رحمه الله، وذكره النحاس عن الشّعْبيّ والنَّخَعِيّ . وقال الربيـع بن خُثَيْم[2]: لا وصيّة . قال عروة بن ثابت : قلت للربيع بن خُثَيم أوص لى بمصحفك؛ فنظر إلى ولده وقرأ «وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»[3] . ونحو هــذا صنع ابن عمر رضى الله عنــــه .

---

(١) يراجع ٦٥ من هذا الجزء .
(٢) خثيم : بضم أوله وفتح المثلثة ، كذا فى التقريب ، وفى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٥٨

Marfat.com

الثانيـة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقربون جمع أقرب . قال قـوم : الوصية للأقربين أولى من الأجانب ؛ لنص الله تعالى عليهم ؛ حتى قال الضحاك : إن أوصى لغير قرابته فقـد ختم عمله بمعصـية . وروى عن ابن عمر[(١)] أنه أوصى لأمهات أولاده لكل واحدة بأربعة آلاف . وروى أن عائشة وصّت لمولاة لهـا بأثاث البيت . وروى عن سالم ابن عبد الله بمثل ذلك . وقال الحسن : إن أوصى لغير الأقربين ردّت الوصية للأقربين ؛ فإن كانت لأجنبي فمعهم ، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم . وقال النـاس حين مات أبو العالية : عجبا له ! أعتقته آمرأة من رياح[(٢)] وأوصى بماله لبنى هاشم . وقال الشعبيّ : لم يكن له ذلك ولا كرامة . وقال طاوس : إذا أوصى لغير قرابته ردّت الوصية إلى قرابته ونقض فعله ؛ وقاله جابر بن زيد ، وقد روى مثل هـذا عن الحسن أيضا ، وبه قال إسحاق بن رَاهَوَيْه . وقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعى وأحمد بن حنبل : من أوصى لغير قرابتـه وترك قرابتـه محتاجين فبئسما صنع ! وفعله مع ذلك جائز ماضٍ لكل من أوصى له من غنىّ وفقير ، قريب وبعيـد ، مسلم وكافر . وهو معنى ما روى عن ابن عمـر وعائشة ، وهو قول ابن عمر وابن عباس .

قلت : القول الأول أحسن ، وأما أبو العالية رضى الله عنه فلعله نظر إلى أن بنى هاشم أولى من معتقته لصحبته ابن عباس وتعليمه إياه وإلحاقه بدرجة العلماء فى الدنيا والأخرى . وهذه الأبوة وإن كانت معنوية فهى الحقيقية ، ومعتقته غايتها أن ألحقته بالأحرار فى الدنيا ؛ فحسبها ثواب عتقها ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — ذهب الجمهور من العلمـاء إلى أن المريض يُحجر عليه فى ماله ؛ وشذّ أهل الظاهر فقالوا : لا يُحجر عليـه وهو كالصحيح ؛ والحديث والمعنى يردّ عليهـم . قال سعد : عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع من وجع أشفيتُ[(٣)] منه على الموت فقلت يا رسـول الله ، بلغ بى ما ترى من الوجع ، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا بنت واحدة ،

---

(١) فى ب ، جـ : « عن عمر » . والمعروف أن سيدنا عمر مات مدينا .

(٢) رياح (ككتاب) : قبيلة . (٣) أشفى على الشيء : أشرف .

Marfat.com

أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : " لا "، قلت : أفأتصدق بشطره؟ قال : " لا ، الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " الحديث .

ومنع أهل الظاهر أيضا الوصية بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة . وأجاز ذلك الكافة إذا أجازها الورثة، وهو الصحيح؛ لأن المريض إنما مُنع من الوصية بزيادة على الثلث لحق الوارث؛ فإذا أسقط الورثة حقهم كان ذلك جائزا صحيحا، وكان كالهبة من عندهم . وروى الدارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة " . وروى عن عمرو بن خارجة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاوصية لوارث إلا أن تُجيز الورثة " .

الرابعة عشرة — واختلفوا فى رجوع المجيزين للوصية للوارث فى حياة الموصى بعد وفاته؛ فقالت طائفة : ذلك جائز عليهم وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول عطاء بن أبى رَبَاح وطاوس والحسن وابن سيرين وابن أبى ليلى والزهرى وربيعة والأوزاعى . وقالت طائفة : لهم الرجوع فى ذلك إن أحبّوا . هذا قول ابن مسعود وشُرَيح والحكم وطاوس والثّورى والحسن بن صالح وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وأبى ثور، واختاره ابن المنذر . وفرّق مالك فقال : إذا أذنوا فى صحته فلهم أن يرجعوا، وإن أذنوا له فى مرضه حين يُحجب عن ماله فذلك جائز عليهم؛ وهو قول إسحاق . احتجّ أهل المقالة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة؛ فإذا أجازوه جاز . وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثه لأجنبى جاز بإجازتهم؛ فكذلك ها هنا . واحتجّ أهل القول الثانى بأنهم أجازوا شيئا لم يملكوه فى ذلك الوقت، وإنما يُملك المال بعد وفاته، وقد يموت الوارث المستأذن قبله ولا يكون وارثا وقد يرثه غيره . فقد أجاز من لا حق له فيه فلا يلزمه شىء . واحتج مالك بأن قال : إن الرجل إذا كان صحيحا فهو أحق بماله كله يصنع فيه ما شاء، فإذا أذنوا له فى صحته فقد تركوا شيئا لم يجب لهم، وإذا أذنوا له فى مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق؛ فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان قد أنفذه لأنه قد فات .

الخامسة عشرة — فإن لم يُنفذ المريض ذلك كان للوارث الرجوع فيه لأنه لم يفت بالتنفيذ؛ قاله الأبهرى . وذكر ابن المنذر عن إسحاق بن راهَوَيْه أن قول مالك فى هذه المسألة

Marfat.com

أشبه بالسُّنة من غيره . قال ٱبن المنـذر : وٱتفق قول مالك والثورىّ والكوفيين والشافعىّ وأبى ثور أنهم إذا أجازوا ذلك بعد وفاته لزمهم .

السادسة عشرة — وٱختلفوا فى الرجل يوصى لبعض ورثته بمال ، ويقول فى وصيّته : إن أجازها الورثة فهى له ، و إن لم يجيزوه فهو فى سبيل الله؛ فلم يجيزوه . فقال مالك : إن لم تُجز الورثة ذلك رجع إليهم . وفى قول الشافعى وأبى حنيفة ومَعْمَر صاحب عبد الرزاق يمضى فى سبيل الله .

السابعة عشرة — لا خلاف فى وصيّة البالغ العاقل غير المحجور عليه، وٱختلف فى غيره؛ فقال مالك : الأمر المجمع عليه عنـدنا أن الضعيف فى عقله والسّفيه والمصاب الذى يُفيق أحياناً تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم مايعرفون مايوصون به . وكذلك الصبىّ الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول فوصيّته جائزة ماضـية . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تجوز وصـيّة الصبىّ . وقال المُزَنىّ : وهو قيـاس قول الشافعىّ ، ولم أجد للشافعىّ فى ذلك شيئا ذكره ونصّ عليـه . وٱختلف أصحابه على قولين : أحدهمـا كقول مالك ، والثـانى كقول أبى حنيفة . وحجتهـم أنه لا يجوز طلاقه ولا عتاقه ولا يقتصّ منه فى جناية ولا يحدّ فى قذف ؛ فليس كالبالغ المحجور عليه ، فكذلك وصيته . قال أبو عمر : قد ٱتفق هؤلاء على أن وصية البالغ المحجور عليه جائزة . ومعلوم أن من يعقل من الصبيان ما يوصى به فحاله حال المحجور عليه فى ماله ؛ وعلّة الحجر تبذير المـال و إتلافه ، وتلك علّة مرتفعة عنـه بالموت، وهو بالمحجور عليه فى ماله أشبه منه بالمجنون الذى لا يعقل ؛ فوجب أن تجوز وصيته مع الأمر الذى جاء فيـه عن عمر رضى الله عنه . وقال مالك : إنه الأمر المجمع عليـه عندهم بالمدينة؛ و بالله التوفيق . وقال محمـد بن شريح : من أوصى من صغير أو كبير فأصاب الحق فالله قضاه على لسانه ليس للحق مدفع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعنى بالعدل، لا وَكْس فيه ولا شَطَط ؛ وكان هذا موكولًا إلى ٱجتهاد الميت ونظر الموصِى، ثم تولّى الله سبحانه تقدير ذلك على لسان

Marfat.com

نبيّه عليه السلام، فقال عليه السلام: "الثلث والثلث كثير"؛ وقد تقدّم ما للعلماء في هذا. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تصدّق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة لكم في حسناتكم ليجعلها لكم زكاة". أخرجه الدّارَقُطْنِي عن أبي أمامة عن معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقال الحسن: لا تجوز وصيّة إلا في الثلث؛ وإليه ذهب البخاري واحتج بقوله تعالى: « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ »[1] وحكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن الثلث كثير هو الحكم بما أنزل الله. فمن تجاوز ما حدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد على الثلث فقد أتى ما نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عنه؛ وكان بفعله ذلك عاصيًا إذا كان بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عالمًا. وقال الشافعي: وقوله "الثلث كثير" يريد أنه غير قليل.

التاسعة عشرة — قوله تعالى: ﴿ حَقًّا ﴾ يعني ثابتًا ثبوت نظر وتحصين، لا ثبوت فرض ووجوب؛ بدليل قوله: « عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ » وهذا يدلّ على كونه ندبًا؛ لأنه لو كان فرضًا لكان على جميع المسلمين، فلما خصّ الله من يتّقي، أي يخاف تقصيرا، دلّ على أنه غير لازم إلا فيما يتوقّع تلفه إن مات، فيلزمه فرضًا المبادرة بكَتْبه والوصية به؛ لأنه إن سكت عنه كان تضييعًا له وتقصيرًا منه. وقد تقدّم هذا المعنى. وانتصب «حقًّا» على المصدر المؤكّد، ويجوز في غير القرآن « حقّ » بمعنى ذلك حق.

الموفّية عشرين — قال العلماء: المبادرة بكَتْب الوصية ليست مأخوذة من هذه الآية وإنما هي من حديث ابن عمر. وفائدتها: المبالغة في زيادة الاستيثاق وكونها مكتوبة مشهودا بها وهي الوصية المتفق على العمل بها؛ فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظًا لعُمل بها وإن لم تكتب خطًّا؛ فلو كتبها بيده ولم يُشهد فلم يختلف قول مالك أنه لا يُعمل بها إلا فيما يكون فيها من إقرار بحق لمن لا يتّهم عليه فيلزمه تنفيذه.

الحادية والعشرون — روى الدّارَقُطْنِيّ عن أنس بن مالك قال: كانوا يكتبون في صدور وصاياهم « هذا ما أوصى به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٢ .

Marfat.com

وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور. وأوصى من ترك بعده من أهله بتقوى الله حق تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم، و يطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما وصّى به إبراهيم بنيه و يعقوب: يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

قوله تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ و«ما» كافة لـ«إنّ» عن العمل. و«إثْمُهُ» رفع بالابتداء، «عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ» موضع الخبر. والضمير فى «بدّله» يرجع إلى الإيصاء؛ لأن الوصية فى معنى الإيصاء، وكذلك الضمير فى «سمعه»، وهو كقوله: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ»[1] أى وعظ، وقوله: «إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ»[2] أى المال، بدليل قوله «منه». ومثله قول الشاعر:

* ما هذه الصوتُ *

أى الصيحة. وقال امرؤ القيس:

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ * كخرعوبة البانة المُنْفَطِرْ[3]

والمنفطر المنفتخ بالورق، وهو أنعم ما يكون؛ ذهب إلى القضيب وترك لفظ الخرعوبة. و«سمعه» يحتمل أن يكون سمعه من الوصيّ نفسه، ويحتمل أن يكون سمعه ممن يثبت به ذلك عنده، وذلك عدلان. والضمير فى «إثمه» عائد على التبديل، أى إثم التبديل عائد على المبدل لا على الميت، فإن الموصى خرج بالوصية عن اللوم وتوجّهت على الوارث أو الولىّ. وقيل: إن هذا الموصى إذا غيّر فترك الوصية أو لم يجزها على ما رُسم له فى الشرع فعليه الإثم.

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩. (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٨.

(٣) البرهرهة: الرقيقة الجلد، أو هى الملساء المترجرجة. الرؤدة والرءودة: الشابة الحسنة، السريعة الشباب مع حسن غذاء. والرخصة: اللينة الخلق. والخرعوبة: القضيب الغض اللدن. والبانة: يريد شجر البان.

Marfat.com

الثانيــة – فى هذه الآية دليــل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج به عن ذمته وحصل الولىّ مطلوبا به ، له الأجر فى قضائه ، وعليه الوِزْر فى تأخيره . وقال القاضى أبو بكر ابن العربى : « وهذا إنمــا يصح إذا كان الميت لم يفرّط فى أدائه ، وأمّا إذا قدر عليه وتركه ثم وصّى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الولىّ فيه » .

الثالثــة – ولا خلاف أنه إذا أوصى بمــا لا يجوز ؛ مثل أن يوصى بخمــر أو خنزير أو شيء من المعاصى أنه يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه ، كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث ؛ قاله أبو عمــر .

الرابعــة – قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جَنَف المُوصِين وتبديل المعتدين .

قوله تعــالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

فيــه ست مســائل :

الأولى – قوله تعــالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ « مَنْ » شَرْط ، و « خاف » بمعنى خَشِىَ . وقيل : علم . والأصل خَوِف ، قُلبت الواو ألفًــا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها . وأهل الكوفة يميلون «خاف» ليدلوا على الكسرة من فَعِلت . «مِنْ مُوَصٍّ» بالتشديد قراءة أبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائى ، وخفّف الباقون ، والتخفيف أبين ؛ لأن أكثر النحويين يقولون « مُوَصّ » للتكثير . وقد يجــوز أن يكون مثل كَرّم وأكرم . « جَنَفًا » من جَنِف يَجْنَف إذا جار ، والأسم منه جَنِفٌ وجانف ؛ عن النحاس . وقيل : الجَنَف الميل . قال الأعشى :

تجانَفُ عن حجــر اليمــامة ناقتى (١) * وما قَصدَتْ من أهلها لسَوائكا

وفى الصّحاح : «الجَنَف» الميل . وقد جَنِف بالكسر يَجْنَف جَنَفًا إذا مال ؛ ومنه قوله تعالى : « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا » . قال الشاعر (٢) :

هُمُ المَــوْلَى وإنْ جَنَفُوا علينــا * وإنّا مِــن لِقائهـــمُ لَزُورُ

(١) فى المصباح المنير واللسان : « جو » . (٢) هو عامر الخصفى .

Marfat.com

قال أبو عبيدة : المَوْلَى هاهنا فى موضع الموالِى ، أى بنى العـمّ ؛ كقوله تعالى « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا »(١) . وقال لَبِيد :

إنى آمرؤٌ مَنعتْ أُرومةُ عامرٍ ✱ ضَيْمِى وقد جَنِفتْ علىّ خصومى

قال أبو عبيدة : وكذلك الجانِئ (بالهمز) وهو المـائل أيضا . ويقال : أجنف الرجل ؛ أى جاء بالجَنَف . كما يقال : أَلَامَ ؛ أى أتى بمـا يلام عليه . وأخَسّ ؛ أى أتى بخسيس . وتجانَفَ لإثم ؛ أى مال . ورجلٌ أجنَف ؛ أى منحنى الظهر . وجُنَفَى (على فُعَلَى بضم الفاء وفتح العين) : آسم موضع ؛ عن آبن السكّيت . ورُوى عن علىّ أنه قـرأ « حَيْفًا » بالحاء والياء ؛ أى ظلمًا . وقال مجاهد : « فمن خاف » أى من خشى أن يجنف الموصِى ويقطع ميراث طائفة ويتعمّد الأذيّة(٢) ، أو يأتيها دون تعمّد ، وذلك هو الجَنَف دون إثم ، فإن تعمّد فهو الجنف فى إثم . فالمعنى من وعظ فى ذلك وردّ عنه فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته وبين الورثة فى ذاتهـم فلا إثم عليه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ عن الموصى إذا عملت فيه الموعظة ورجع عما أراد من الأذية . وقال آبن عباس وقتادة والرّبيع وغيرهم : معنى الآية من خاف أى علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصى أن الموصى جنف وتعمّد أذية بعض ورثته فأصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » ؛ أى لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل . وإن كان فى فعله تبديلٌ مّا ولا بدّ، ولكنه تبديل لمصلحة . والتبديل الذى فيه الإثم إنمـا هو تبديل الهوى .

الثانيـــة ـــ الخطاب بقوله : ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ لجميع المسلمين . قيل لهم : إن خفتم من مُوصٍ مَيْلًا فى الوصيّة وعدولًا عن الحـق ووقوعًا فى إثم ولم يخرجها بالمعروف ، وذلك بأن يوصى بالمـال إلى زوج آبنته أو لولد آبنته لينصرف المـال إلى آبنته ، أو إلى آبن آبنه والغرض أن ينصرف المـال إلى آبنه ، أو أوصى لبعيد وترك القريب ؛ فبادروا إلى السعى فى الإصلاح بينهم ؛ فإذا وقع الصلح سـقط الإثم عن المصلح . والإصلاح فرض على الكفاية ، فإذا قام أحدهم به سقط عن الباقين ، وإن لم يفعلوا أثم الكل .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٠ (٢) فى الأصول هنا وفيما سيأتى « الأذاية » .

الثالثـــة ــ فى هذه الآية دليل على الحكم بالظن ؛ لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعى فى الصلاح ، و إذا تحقق الفساد لم يكن صلحا إنما يكون حكما بالدفع و إبطالا للفساد وحَسْمًا له .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ عطف على « خاف » ، والكناية عن الورثة ، ولم يجر لهم ذكر لأنه قد عرف المعنى . وجواب الشرط « فلا إثم عليه » .

الرابعـــة ــ لا خلاف أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عنـد الموت ؛ لقوله عليه السلام وقـد سئل : أىّ الصدقة أفضل ؟ فقال : " أن تَصَـدَّقَ وأنت صحيح شحيح " الحديث ، أخرجه أهـل الصحيح . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبى سعيد الخـدرىّ أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لأن يتصدق المرء فى حياته بدرهم خير له من أن يتصدق عند موته بمـائة " . وروى النسائى عن أبى الدرداء عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " مَثَل الذى ينفق أو يتصدق عند موته مَثَل الذى يهدى بعد ما يَشبع " .

الخامســـة ــ من لم يضرّ فى وصيته كانت كفارة لمـا ترك من زكاته . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن معاوية بن قُرّة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حضرته الوفاة فأوصى فكانت وصيته على كتاب الله كانت كفارة لمـا ترك من زكاته " . فإن ضَرّ فى الوصية وهى :

السادســـة ــ فقد روى الدَّارَقُطْنِيّ أيضا عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الإضرار فى الوصية من الكبائر " . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيُضارّان فى الوصية فتجب لهما النار " . وترجم النسائى « الصلاة على من جَنَف فى وصيته » (١) أخبرنا علىّ بن حجر أنبأنا هشيم عن منصور وهو ابن زاذان عن الحسن (٢) عن عمران بن حُصين رضى الله عنه أن رجلا أعتق ستةً مملوكين له عند موته ولم يكن له مال

(١) فى سنن النسائى : « حيف » بالحاء والياء .

(٢) كذا فى النسائى . وفى الأصول : « عن الحسن عن سمرة بن عمران » .

Marfat.com

غيرهم؛ فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فغضب من ذلك وقال : " لقد هممت ألّا أصلّى عليـه " [ثم دعا مملوكيه] (١) فجزأهم ثلاثة أجزاء ثم أقرع بينهـم فأعتق آثنين وأرقّ أربعـة . وأخرجه مسلم بمعناه إلا أنه قال فى آخره : وقال له قولا شديدا؛ بدل قوله : " لقد هممت ألا أصلّى عليه " .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ لمـا ذكر ما كتب على المكلَّفين من القصاص والوصية ذكر أيضا أنه كتب عليهم الصيام وألزمهم إياه وأوجبه عليهم، ولا خلاف فيه؛ قال صلى الله عليه وسلم : "بُنِي الإسلام على خمسٍ شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة وصومِ رمضان والحج" رواه آبن عمر . ومعناه فى اللغة : الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال . ويقال للصَّمت صوم؛ لأنه إمساك عن الكلام؛ قال الله تعـالى مخبرًا عن مريم : « إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا » (٢) أى سكوتًا عن الكلام . والصوم : ركود الريح؛ وهو إمساكها عن الهبوب . وصامت الدابة على آرِيِّهـا (٣) : قامت وثبتت فلم تَعْتَلِف . وصام النهار : اعتـدل . ومَصَامُ الشمس حيث تستوى فى منتصف النهار؛ ومنه قول النابغة :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمـة * تحت العَجاج وخيلٌ تَعلُكُ اللُّجُما

(١) الزيادة عن سنن النسائى . (٢) راجع جـ ١١ ص ٩٧

(٣) الآرى : حبل تشدّ به الدابة فى محبسها، ويسمى الأخيَّة .

Marfat.com

أى خيل ثابتة ممسكة عن الجرى والحركة ؛ كما قال[1] :

* كأن الثريا عُلِّقت فى مَصامِها *

أى هى ثابتة فى مواضعها فلا تنتقل ؛ وقوله :

* والبَكَرات شرّهن الصائمة[2] *

يعنى التى لاتدور .

وقال آمرؤ القيس :

فَدَعْها[3] وسَلِّ الهمَّ عنك بجَسْرة * ذَمولٍ إذا صام النهارُ وهَجَّرا

أى أبطأت الشمس عن الآنتقال والسير فصارت بالإبطاء كالممسكة .

وقال آخر :

حتى إذا صام النهار وآعتدل * وسال للشمس لعابٌ فنزل

وقال آخر :

نَعامًا بوَجْرة صفر الخدو * د ما تَطعَم النوم إلا صِيامًا[4]

أى قائمة . والشعر فى هذا المعنى كثير .

والصوم فى الشرع : الإمساك عن المفطرات مع آقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله بآجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرمات؛ لقوله عليه السلام : " من لم يَدَعْ قول الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ فى أن يَدَع طعامَه وشرابَه " .

الثانيــة — فضل الصــوم عظيم، وثوابه جسيم، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة فى مسانيدهم، وسيأتى بعضها، ويكفيك الآن منها فى فضل الصوم أنْ خصّه الله بالإضافة إليه، كما ثبت فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرا عن ربّه :

---

(١) هو آمرئ القيس ؛ كما فى اللسان والمعلقات ، وتمام البيت : * بأمراس كتان إلى صم جندل *

(٢) قبله : * شر الدلاء الولغة الملازمة *

(٣) فى الأصول : « فدع ذا » والتصويب عن الديوان واللسان .

(٤) تقدم الكلام فى هذا البيت جـ ١ ص ٢٣ ؛ طبعة ثانية ، فليراجع .

Marfat.com

" يقول الله تبارك وتعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به " الحديث .
وإنما خصّ الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات .

أحدهما — أن الصوم يمنع من ملاذّ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات .

الثانى — أن الصوم سرّ بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له ؛ فلذلك صار مختصًا به .
وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنّعا ورياء؛ فلهذا صار أخص بالصوم من غيره.
وقيل غير هذا .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت؛ التقدير كتابا كما ، أو صوما كما . أو على الحال من الصيام؛ أى كتب عليكم الصيام مشبها كما كتب على الذين من قبلكم . وقال بعض النحاة: الكاف فى موضع رفع نعتا للصيام؛ إذ ليس تعريفه بمحض، لمكان الإجمال الذى فيه بما فسّرته الشريعة؛ فلذلك جاز نعته بـ«كما» إذ لا ينعت بها إلا النكرات ، فهو بمنزلة كُتب عليكم صيام؛ وقد ضعّف هـذا القول . و « ما » فى موضع خفض ، وصلتها : « كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » . والضمير فى « كُتب » يعود على «ما» .
وآختلف أهل التأويل فى موضع التشبيه وهى :

الرابعـــة — فقال الشعبى وقتادة وغيرهما : التشبيه يرجع إلى وقت الصوم وقدر الصوم؛ فإن الله تعالى كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيّروا، وزاد أحبارهم عليهم عشرة أيام ثم مرض بعض أحبارهم فنذر إن شفاه الله أن يزيد فى صومهم عشرة أيام ففعل . فصار صوم النصارى خمسين يومًا، فصعُب عليهم فى الحر فنقلوه إلى الربيع . وآختار هـذا القول النحاس وقال : وهو الأشبه بما فى الآية . وفيه حديث يدل على صحته أسنده عن دَغْفَل آبن حنظلة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كان على النصارى صوم شهر فمرض رجل منهم فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن عشرة ثم كان آخر فأكل لحمًا فأوجع فاه فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن سبعة ثم كان ملك آخر فقالوا لنتمنّ هذه السبعة الأيام ونجعل صومنا فى الربيع قال فصار خمسين " . وقال مجاهد : كتب الله عز وجل صوم شهر رمضان على كل أمة . وقيل:

Marfat.com

أخذوا بالوثيقة (١) فصاموا قبل الثلاثين يومًا و بعدها يومًا ، قرنًا بعد قرن ؛ حتى بلغ صومهم خمسين يومًا ؛ فصعب عليهم فى الحر فنقلوه إلى الفصل الشمسى . قال النقاش : وفى ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة والحسن البصرى والسدّى .

قلت : ولهذا — والله أعلم — كُره الآن صوم يوم الشك والستة من شوال بإثر يوم الفطر متصلًا به . قال الشعبى : لو صمت السنة كلها لأفطرت يوم الشك ؛ وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا ، فحوّلوه إلى الفصل الشمسى ؛ لأنه قد كان يوافق القيظ فعدّوا ثلاثين يومًا . ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يومًا و بعدها يومًا ؛ ثم لم يزل الآخر يستنّ بسنة من كان قبله حتى صاروا إلى خمسين يومًا فذلك قوله تعالى : « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » . وقيل : التشبيه راجع إلى أصل وجوبه على من تقدّم ، لا فى الوقت والكيفية . وقيل : التشبيه واقع على صفة الصوم الذى كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح ، فاذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام . وكذلك كان فى النصارى أولًا وكان فى أوّل الإسلام ، ثم نسخه الله تعالى بقوله : « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » على ما يأتى بيانه (٢) ؛ قاله السدّى وأبو العالية والربيع . وقال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدّة وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان . المعنى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » أى فى أوّل الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر و يوم عاشوراء ، « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » وهم اليهود — فى قول ابن عباس — ثلاثة أيام و يوم عاشوراء . ثم نُسخ هذا فى هذه الأمة بشهر رمضان . وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك « بِأَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ » ثم نُسخت الأيام برمضان .

الخامســـة — قوله تعالى : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » « لعلّ » ترجّ فى حقهم ، كما تقدّم (٣) . و« تتقون » قيل : معناه هنا تضعفون ؛ فإنه كلما قلّ الأكل ضعفت الشهوة ، وكلما ضعفت

(١) الوثيقة فى الأمر : إحكامه والأخذ بالثقة . (٢) راجع ص ٣١٤ من هذا الجزء .
(٣) [illegible]

Marfat.com

الشهوة قلّت المعاصى. وهذا وجه مجازىّ حسن. وقيل: لتتقوا المعاصى. وقيل: هو على العموم؛ لأن الصيام كما قال عليه السلام: "الصيام جُنّة وَوِجاء"(١) وسبب تقوى؛ لأنه يميت الشهوات.

السادســة — قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ «أياما» مفعول ثان بـ «كُتب»؛ قاله الفراء. وقيل: نصب على الظـرف لـ «كُتب»؛ أى كتب عليكم الصـيام فى أيام. والأيام المعدودات: شهر رمضان؛ وهذا يدل على خلاف ماروى عن معاذ، والله أعلم.

قوله تعـالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه ست عشرة مســألة:

الأولى — قوله تعـالى: ﴿مَرِيضًا﴾ للمريض حالتان: إحداهما — ألّا يطيق الصوم بحال؛ فعليه الفطر واجبًا. الثانية — أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة؛ فهذا يُستحبّ له الفطر ولا يصوم إلا جاهل. قال ٱبن سيرين: متى حصل الإنسان فى حالٍ يستحق بها ٱسم المرض صحّ الفطر، قياسًا على المسافر لعلّة السفر، و إن لم تدع إلى الفطر ضرورة. قال طريف ٱبن تمام العُطاردى: دخلت على محمد بن سيرين فى رمضان وهو يأكل؛ فلما فرغ قال: إنه وجعتْ أصبعى هـذه. وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤلمه و يؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزيّده صحّ له الفطر. قال ٱبن عطية: وهذا مذهب حذّاق أصحاب مالك وبه يناظرون. وأما لفظ مالك فهو المرض الذى يشقّ على المرء و يبلغ به. وقال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد: وٱختلفت الرواية عن مالك فى المرض المبيح للفطر؛ فقال مرّة: هو خوف التلف من الصيام. وقال مرّة: شدّة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة. وهذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر؛ لأنه لم يخصّ مرضًا من مرض فهو مباح فى كل مرض، إلا ماخصّه الدليل من الصّـداع والحمّى والمرض اليسير الذى لا كُلْفة معه فى الصيام. وقال الحسن: إذا لم يقـدر من المرض على الصلاة قائمـا أفطر؛ وقاله النّخَعِىّ. وقالت فرقة: لا يُفطر بالمرض إلا من

(١) الوجاء: أن تُرَضّ أنثيا الفحل رَضًّا شديدا يذهب شهوة الجماع، و يتنزّل فى قطعه منزلة الخصى. أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

Marfat.com

دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر ، ومتى آحتمل الضرورة معــه لم يفطر . وهــذا قول الشافعيّ رحمه الله تعالى .

قلت : قول آبن سيرين أعدل شيء في هــذا الباب إن شاء الله تعالى . قال البخاري : آعتللتُ بنَيْسابور عِلّةً خفيفة وذلك في شهر رمضــان ، فعادني إسحاق بن رَاهْوَيْه في نفر من أصحــابه فقال لي : أفطرت يا أبا عبــد الله ؟ فقلت نعم . فقال : خشيتَ أن تضعف عن قبول الرّخصة . قلت: حدّثنا عبدان عن آبن المبارك عن آبن جُريج قال قلت لعطاء: من أيّ المرض أفطر ؟ قال : من أيّ مرض كان ؛ كما قال الله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً » قال البخاري: وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق. وقال أبو حنيفة: إذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم إن لم يُفطر أن تزداد عينه وجعًا أو حُمّاه شدّةً أفطر .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ آختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد، ويتّصل بهذين سَفَرُ صِلة الرّحم وطلب المعاش الضروري . أما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع والإجازة، والقول بالجواز أرجح . وأمّا سفر العاصي فيختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح، قاله آبن عطية . ومسافة الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة. وآختلف العلماء في قدر ذلك ؛ فقال مالك : يوم وليــلة ؛ ثم رجع فقال : ثمــانية وأربعون ميــلا . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وهو ظاهر مذهبه ؛ وقال مرّة : آثنان وأربعون ميلًا ؛ وقال مرّة ستة وثلاثون ميلًا ؛ وقال مرّة : مسيرة يوم وليلة ؛ وروى عنــه يومان ؛ وهو قول الشافعي . وفصّل مرّة بين البرّ والبحر ؛ فقال في البحر مسيرة يوم وليلة ، وفي البر ثمانية وأربعون ميلًا، وفي المذهب ثلاثون ميلًا ؛ وفي غير المذهب ثلاثة أميال . وقال آبن عمر وآبن عباس والثوريّ : الفطر في سـفر ثلاثة أيام ؛ حكاه آبن عطية .

قلت : والذي في البخاري : وكان آبن عمر وآبن عباس يفطران و يقصران في أربعة بُرُد ، وهي ستة عشر فرسخًا .

Marfat.com

الثالثـــة — اتفق العلمـاء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيّت الفطر؛ لأن المسافر لا يكون مسافرا بالنّية بخلاف المقيم، وإنمـا يكون مسافراً بالعمل والنهوض؛ والمقيم لا يفتقر إلى عمل؛ لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيمًا فى الحين، لأن الإقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا. ولا خلاف بينهم أيضا فى الذى يؤمّل السفر أنه لا يجوز له أن يفطر قبل أن يخرج؛ فإن أفطر فقال ابن حبيب: إن كان قد تأهّب لسفره وأخذ فى أسباب الحركة فلا شيء عليه؛ وحكى ذلك عن أَصْبَغ وابن المـاجشُون؛ فإن عاقه عن السفر عائق كان عليـه الكفارة، وحَسْبه أن ينجو إن سافر. وروى عيسى عن ابن القاسم أنه ليس عليه إلا قضاء يوم؛ لأنه متأول فى فطره. وقال أشهب: ليس عليه شيء من الكفارة سافر أو لم يسافر. وقال سُحْنون: عليه الكفارة سافر أو لم يسافر، وهو بمنزلة المرأة تقول: غدًا تأتينى حَيْضتى، فتُفْطر لذلك. ثم رجع إلى قول عبد الملك وأَصْبَغ وقال: ليس مثل المرأة؛ لأن الرجل يُحدث السفر إذا شاء، والمرأة لا تُحدث الحيضة.

قلت: قول ابن القاسم وأشهب فى نفى الكفّارة حسن؛ لأنه فعل ما يجوز له فعله، والذّمة بريئة، فلا يثبت فيها شيء إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف، ثم إنه مقتضى قوله تعالى: «أَوْ عَلَى سَفَرٍ». وقال أبو عمر: هذا أصح أقاويلهم فى هذه المسألة؛ لأنه غير منتهك لحرمة الصوم بقصد إلى ذلك وإنمـا هو متأول، ولو كان الأكل مع نيّة السفر يوجب عليه الكفارة لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه؛ فتأمل ذلك تجده كذلك، إن شاء الله تعالى. وقد روى الدَّارَقُطنى: حدّثنا أبو بكر النيسابورى حدّثنا إسماعيل بن إسحاق بن سهل بمصر قال حدّثنا ابن أبى مريم حدّثنا محمد بن جعفر أخبرنى زيد بن أسلم قال: أخبرنى محمد بن المُنْكَدِر عن محمد ابن كعب أنه قال: أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد السفر وقد رُحّلت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس، فدعا بطعام فأكل منـه ثم ركب. فقلت له: سُـنّة؟ قال نعم. وروى عن أنس أيضـا قال قال لى أبو موسى: ألم أنبئْك إذا خرجت خرجت صائمًا، وإذا دخلت دخلت صائمًا؛ فإذا خرجت فاخرج مفطرًا وإذا دخلت فادخل

Marfat.com

يفطرْ . وقال الحسن البصرى : يُفطر إن شاء فى بيتـه يوم يريد أن يخرج . وقال أحمد : يفطر إذا برز عن البيوت . وقال إسحاق : لا ، بل حين يضع رجله فى الرَّحْل . قال ابن المنذر : قول أحمد صحيح ؛ لأنهم يقولون لمن أصبح صحيحًا ثم اعتلّ : إنه يُفطر بقيـة يومه ، وكذلك إذا أصبح فى الحضر ثم خرج إلى السفر فله كذلك أن يفطر . وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك وإن نهض فى سـفره ؛ كذلك قال الزهرى ومكحول ويحيى الأنصـارى ومالك والأوزاعى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى . واختلفوا إن فعل ؛ فكلهم قال يقضى ولا يكفّر . قال مالك : لأن السفر عذر طارئ ؛ فكان كالمرض يطرأ عليه . وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضى ويكفّر ؛ وهو قول ابن كنانة والمخزومى ، وحكاه البـاجى عن الشافعى ، واختـاره ابن العربى وقال به ؛ قال : لأن السفر عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض ؛ لأن المرض يبيح له الفطر ، والحيض يُحَرِّم عليها الصوم ، والسفرُ لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حرمته . قال أبو عمر : وليس هذا بشيء ؛ لأن الله سبحانه قد أباح له الفطر فى الكتاب والسّنة . وأما قولهم «لا يفطر» فإنما ذلك استحباب لمـا عقده فإن أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لهـا ، ومن أوجبها فقد أوجب ما لم يوجبه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسـلم . وقد روى عن ابن عمـر فى هذه المسألة : يفطر إن شـاء فى يومه ذلك إذا خرج مسافرًا ؛ وهو قول الشعبى وأحمد وإسحاق .

قلت : وقد ترجم البخارى رحمـه الله على هـذه المسألة « باب من أفطر فى السفر ليراه الناس » وساق الحديث عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفان[(١)] ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليُريه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك فى رمضان . وأخرجه مسلم أيضًا عن ابن عباس وقال فيـه : ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهارًا ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة . وهذا نصّ فى الباب فسقط ما خالفه ، وبالله التوفيق . وفيه أيضا حجة على من يقول : إن الصوم لا ينعقد فى السفر . روى عن عمر وابن عباس

(١) عسفان (بضم العين وسكون السين المهملتين) : قرية جامعة بين مكة والمدينة ، بينها وبين مكة ثمانية وأربعون ميلا .

Marfat.com

وأبى هريرة وآبن عمر . قال آبن عمر : من صام فى السفر قضى فى الحضر . وعن عبد الرحمن ابن عوف : الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر . وقال به قوم من أهل الظاهر؛ وآحتجوا بقوله تعالى : «فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» على ما يأتى بيانه ، وبما روى كعب بن عاصم قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس من البِرّ الصيامُ فى السّفر" . وفيه أيضا حجةٌ على من يقول : إن مَن بيّت الصوم فى السفر فله أن يُفطر وإن لم يكن له عذر؛ وإليه ذهب مُطَرِّف، وهو أحد قولى الشافعى وعليه جماعة من أهل الحديث . وكان مالك يوجب عليه القضاء والكفارة لأنه كان مخيّراً فى الصوم والفطر، فلما آختار الصوم وبيّته لزمه ولم يكن له الفطر؛ فإن أفطر عامدًا من غير عذر كان عليه القضاء والكفارة . وقد روى عنه أنه لا كفّارة عليه؛ وهو قول أكثر أصحابه إلا عبد الملك فإنه قال : إن أفطر بجماع كفّر؛ لأنه لا يقوى بذلك على سفره ولا عذر له؛ لأن المسافر إنمـا أبيح له الفطـر ليقوَى بذلك على سـفره . وقال سائر الفقهاء بالعراق والحجـاز : إنه لا كفارة عليـه؛ منهم الثورى والأوزاعى والشافعى وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفة؛ قاله أبو عمر .

الرابعـــة — وآختلف العلمـاء فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر؛ فقال مالك والشافعى فى بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قَوِىَ عليه . وجُلّ مذهب مالك التخيير وكذلك مذهب الشافعى . قال الشافعى ومن آتبعه : هو مخيَّر، ولم يفصِّل، وكذلك آبن عُلَيّة؛ لحديث أنس قال : سافرنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطـر على الصائم؛ خرّجه مالك والبخارىّ ومسلم . وروى عن عثمان بن أبى العـاص الثَّقَفِىّ وأنس بن مالك صاحبى رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : الصوم فى السفر أفضل لمن قدر عليـه ؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحـابه . وروى عن آبن عمر وآبن عباس : الرخصة أفضل ، وقال به سـعيد بن المسيّب والشعبى وعمـر بن عبد العزيز ومجاهـد وقتادة والأوزاعى وأحمد وإسحاق . كلّ هؤلاء يقولون الفطر أفضل؛ لقول الله تعالى : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

Marfat.com

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ ﴾ في الكلام حذف ؛ أي من يكن منكم مريضًا أو مسافرًا فأفطر فليقض. والجمهور من العلماء على أن أهل البلد إذا صاموا تسعة وعشرين يومًا وفي البلد رجل مريض لم يصح فإنه يقضي تسعة وعشرين يومًا. وقال قوم منهم الحسن بن صالح بن حيّ : إنه يقضي شهرا بشهر من غير مراعاة عدد الأيام . قال الكيا الطبري : وهذا بعيد ؛ لقوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر » ولم يقل فشهر من أيام أخر. وقوله : « فَعِدَّةٌ » يقتضي استيفاء عدد ما أفطر فيه ، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضان وجب قضاء ما أفطر بعده بعدده ، كذلك يجب أن يكون حكم إفطاره جميعه في اعتبار عدده.

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ ارتفع « عدّة » على خبر الابتداء ، تقديره فالحكم أو فالواجب عدّة ، ويصح فعليه عدّة. وقال الكسائي : ويجوز فعدّةً ؛ أي فليصم عدّة من أيام. وقيل : المعنى فعليه صيام عدّة ، فحذف المضاف وأقيمت العدّة مقامه. والعدّة فِعلة من العدّ ، وهي بمعنى المعدود ؛ كالطِّحن بمعنى المطحون ، تقول : أسمعُ جَعجعةً ولا أرى طِحنًا [(١)] . ومنه عدّة المرأة. ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ لم ينصرف « أُخَرَ » عند سيبويه ؛ لأنها معدولة عن الألف واللام ، لأن سبيل فُعَل من هذا الباب أن يأتي بالألف واللام ؛ نحو الكُبَر والفُضَل. وقال الكسائي : هي معدولة عن آخر ، كما تقول : حمراء وحمر ، فلذلك لم تنصرف . وقيل : منعت من الصرف لأنها على وزن جُمَع وهي صفة لأيام ، ولم تجئ أخرى لئلا يشكل بأنها صفة للعدّة . وقيل : إن « أخر » جمع أخرى كأنه أيام أخرى ثم كثرت فقيل : أيام أخر . وقيل : إن نعت الأيام يكون مؤنثًا فلذلك نعتت بأُخَر .

السابعـة — اختلف الناس في وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدَّارَقُطْني في « سننه » ؛ فروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : نزلت « فعدّة من أيام أُخر متتابعات » فسقطت « متتابعات » [(٢)] قال هـذا إسناد صحيح . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله

---

(١) مثل يضرب للرجل الذي يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذي يعد ولا يفعل .

(٢) قال الزرقاني في شرح الموطأ : معنى « سقطت » نسخت ، قال : وليس بين اللوحين « متتابعات » أي ليس في المصحف كلمة « متتابعات » . وقال الدارقطني : إن كلمة « سقطت » انفرد بها عروة .

Marfat.com

عليه وسـلم : " من كان عليه صومٌ من رمضان فليسرده ولا يقطعه "(١) فى إسناده عبد الرحمن ابن إبراهيم ضعيف الحديث . وأسنده عن آبن عباس فى قضاء رمضان «صمه كيف شئت» . وقال آبن عمر : « صُمْه كما أفطرته » . وأسند عن أبى عبيدة بن الجراح وآبن عباس وأبى هريرة ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص . وعن محمد بن المنكدر قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن تقطيع صيام رمضان فقال : " ذلك إليك أرأيت لو كان على أحدكم دَين فقضى الدرهم والدرهمين ألم يكن قضاه فالله أحق أن يعفُوَ و يغفر" . إسناده حسن إلا أنه مرسل ولا يثبت متصلًا . وفى مُوَطّأ مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : يصوم رمضان متتابعًا من أفطره متتابعًا(٢) من مرض أو فى سفر . قال الباجى فى « المنتقى » : « يحتمل أن يريد الإخبار عن الوجوب، و يحتمل أن يريد الإخبار عن الآستحباب ؛ وعلى الآستحباب جمهـور الفقهاء . و إن فـرّقه أجزأه ؛ و بذلك قال مالك والشافعى . والدليـل على صحة هـذا قوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » ولم يخصّ متفرقة من متابعة، و إذا أتى بها متفرّقة فقد صام عدّة من أيام أخر، فوجب أن يجزيه » . آبن العربى : إنما وجب التتابع فى الشهر لكونه معيّنا ، وقد عدم التعيين فى القضاء فجاز التفريق .

الثامنـــة ـــ لمـا قال تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ دلّ ذلك على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان ؛ لأن اللفظ مسترسل على الأزمان لا يختصّ ببعضها دون بعض . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : يكون علىّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيَه إلا فى شعبان، الشُّغْلُ(٣) من رسول الله، أو برسول الله صلى الله عليه وسلم . فى رواية : وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نص وزيادة بيان للآية . وذلك يردّ على داود قوله : إنه يجب عليه قضاؤه ثانى شوّال . ومن لم يصمه ثم مات فهو آثم عنده ؛ وبنى عليـه أنه لو وجب عليه عتق رقبة فوجد رقبة تباع بثمن فليس له أن يتعدّاها و يشترى غيرها ؛ لأن الفرض عليه أن يعتق أوّل رقبة يجدها فلا يجزيه غيرها . ولو كانت عنده رقبة فلا يجوز له أن يشترى

(١) أى يتابعه . (٢) عبارة الموطأ : « يصوم قضاء رمضان متتابعا من أفطره من مرض أو سفر » .

(٣) قال النووى : هو مرفوع على أنه فاعل لفعل مقدر؛ أى يمنعنى الشغل .

Marfat.com

غيرها، ولو مات الذى عنده فلا يبطل العتق، كما يبطل فيمن نذر أن يعتق رقبة بعينها فماتت يبطل نذره، وذلك يفسد قوله . وقال بعض الأصوليين: إذا مات بعد مضى اليوم الثانى من شوّال لا يعصى على شرط العزم . والصحيح أنه غير آثم ولا مفرّط . وهو قول الجمهور، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلا تدركه المنيّة فيبقى عليه الفرض .

التاســـعة — من كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليـه عدّتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخّر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء إلى رمضان آخر فلا إطعام عليه؛ لأنه ليس بمفرّط حين فعل ما يجوز له من التأخير. هذا قول البغداديين من المـالكيين . ويَرَوْنه قول ٱبن القاسم فى المدوّنة .

العاشـــرة — فإن أخّر قضاءه عن شعبان الذى هو غاية الزمان الذى يقضى فيه رمضان فهل يلزمه لذلك كفارة أوْ لا، فقال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق : نعم . وقال أبو حنيفة والحسن والنَّخَعِىّ وداود : لا .

قلت : وإلى هــذا ذهب البخارىّ لقوله، ويذكر عن أبى هريرة مرسلًا وٱبن عباس أنه يُطعِم، ولم يذكر الله الإطعام، إنما قال : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » .

قلت : قد جاء عن أبى هريرة مُسْنَدًا فيمن فرّط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر قال : يصوم هذا مع الناس، ويصوم الذى فرّط فيه ويطعم لكل يوم مسكينًا . خرّجه الدّارَقُطْنِىّ وقال : إسناد صحيح . وروى عنه مرفوعًا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى رجل أفطر فى شهر رمضان من مرض ثم صحّ ولم يصم حتى أدركه رمضان آخر قال: "يصوم الذى أدركه ثم يصوم الشهر الذى أفطر فيه ويطعم لكل يوم مسكينًا" . فى إسناده ٱبن نافع وٱبن وجيه ضعيفان .

الحادية عشرة — فإن تمادَى به المرض فلم يَصِحّ حتى جاء رمضان آخر، فروى الدّارَقُطْنِىّ عن ٱبن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكينًا مُدًّا من حنطة، ثم ليس عليـه قضاء . وروى أيضا عن أبى هريرة أنه قال : إذا لم يَصِحّ بين الرمضانين صام عن هــذا وأطعم عن الثانى

Marfat.com

ولا قضاء عليه، و إذا صح فلم يَصُم حتى إذا أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضى؛ فإذا أفطر قضاه؛ إسناد صحيح . قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها . ورُوى عن ابن عباس أن رجلا جاء إليـه فقال : مرضت رمضانين ؟ فقـال له ابن عباس : استمر بك مرضك، أو صححت بينهما ؟ فقال : بل صححت؛ قال : صُم رمضانين وأطعم ستين مسكينا . وهذا بدل من قوله : إنه لو تمـادى به مرضه لا قضاء عليه . وهذا يشبه مذهبهم فى الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما ؛ على ما يأتى[1] .

الثانية عشرة — واختلف من أوجب عليـه الإطعام فى قدر ما يجب أن يطعم ؛ فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعى يقولون : يُطعِم عن كل يوم مُدًّا. وقال الثورى : يُطعِم نصف صاع عن كل يوم .

الثالثة عشرة — واختلفوا فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه؛ فقال مالك : من أفطر يومًا من قضـاء رمضان ناسيًا لم يكن عليه شىء غير قضائه ، و يستحبّ له أن يتمادى فيه للاختلاف ثم يقضيه ، ولو أفطره عامدًا أثم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى ؛ لأنه لا معنى لكفّه عما يكفّ الصائم هاهنا إذ هو غير صائم عند جماعة العلماء لإفطاره عامدًا . وأما الكفارة فلا خلاف عنـد مالك وأصحابه أنها لا تجب فى ذلك ، وهو قول جمهـور العلماء . قال مالك : ليس على من أفطـر يومًا من قضاء رمضان بإصابة أهله أو غير ذلك كفارة، و إنما عليه قضاء ذلك اليوم. وقال قتادة : على مَن جامع فى قضاء رمضان القضاء والكفارة . وروى ابن القاسم عن مالك أن من أفطر فى قضاء رمضان فعليه يومان؛ وكان ابن القاسم يُفتى به ثم رجع عنه ثم قال: إن أفطر عمدًا فى قضاء القضاء كان عليه مكانه صيام يومين ؛ كمن أفسد حجّه بإصابة أهله ، وحجّ قابلًا فأفسد حجّه أيضا بإصابة أهله كان عليه حجتان. قال أبو عمر : قد خالفه فى الحج ابن وهب وعبد الملك، وليس يجب القياس على أصل مختلَف فيه . والصواب عندى — والله أعلم — أنه ليس عليه فى الوجهين إلا قضاء يوم واحد ؛ لأنه يوم واحد أفسده مرتين .

(١) راجع ص ٢٨٨ من هذا الجزء.

Marfat.com

قلت : وهو مقتضى قوله تعـالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فمتى أتى بيـوم تام بدلًا عما أفطره فى قضاء رمضان فقد أتى بالواجب عليه، ولا يجب عليه غير ذلك، والله أعلم .

الرابعة عشرة — والجمهور على أن من أفطر فى رمضان لعلة فمات من علته تلك، أو سافر فمـات فى سفره ذلك أنه لا شيء عليـه . وقال طاوس وقتادة فى المريض يموت قبـل أن يصح : يُطعم عنه .

الخامسة عشرة — واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ؛ فقال مالك والشافعيّ والثوري : لا يصوم أحد عن أحد . وقال أحمـد وإسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر: يُصام عنه؛ إلا أنهم خصصوه بالنذر؛ وروى مثله عن الشافعي . وقال أحمـد وإسحاق فى قضاء رمضان : يُطعَم عنه . آحتج من قال بالصوم بمـا رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من مات وعليه صيام صام عنه وليّه". إلا أن هذا عامّ فى الصوم، يخصصه ما رواه مسلم أيضا عن آبن عباس قال : جاءت آمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله، إن أمى قد ماتت وعليها صوم نذر — وفى رواية صـوم شهر — أفأصوم عنها ؟ قال : " أرأيت لو كان على أمك دَيْنٌ فقضيتيه أكان يؤدّى ذلك عنها" قالت : نعم؛ قال : " فصومى عن أمك" . آحتج مالك ومن وافقـه بقوله سبحانه : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » (١) وقـوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » (٢) وقوله : « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا » (١) وبما خرّجه النسائى عن آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يصلِّ أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يُطعم عنه مكان كل يوم مُدًّا من حنطة" .

قلت : وهـذا الحديث عام ، ويحتمل أن يكون المراد بقـوله : " لا يصوم أحد عن أحد" صوم رمضان . فأما صوم النذر فيجوز؛ بدليل حديث آبن عباس وغيره ، فقد جاء فى صحيح مسلم أيضا من حديث بُريدة نحو حديث آبن عبـاس ، وفى بعض طرقه : صـوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال : " صومى عنها" قالت : إنهـا لم تَحُجّ قط أفأحُجُّ عنها ؟ قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٦، ١٥٧ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١٤

"تُجَلَّى عنها". فقولها: شهرين، يبعد أن يكون رمضان، والله أعلم. وأقوى ما يحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة، ويعضُده القياس الجلى، وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة. ولا ينقض هذا بالحج لأن للمال فيه مدخلا.

السادسة عشرة — آستدلّ بهذه الآية من قال: إن الصوم لا ينعقد فى السفر وعليه القضاء أبدا؛ فإن الله تعالى يقول: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» أى فعليه عدة، ولا حذف فى الكلام ولا إضمار. [(١) وبقوله عليه الصلاة والسلام: "ليس من البرّ الصيام فى السفر" قال: ما لم يكن من البرّ فهو من الإثم، فيدل ذلك على أن صوم رمضان لا يجوز فى السفر]. والجمهور يقولون: فيه محذوف فأفطر؛ كما تقدّم. وهو الصحيح. لحديث أنس قال: سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم؛ رواه مالك عن حُميد الطويل عن أنس. وأخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لِستّ عشرة مضت من رمضان فمنّا من صام ومنا من أفطر، فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قرأ الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء، وأصله يُطْوِقونه نُقلت الكسرة إلى الطاء وآنقلبت الواو ياء لآنكسار ما قبلها. وقرأ حُميد على الأصل من غير آعتلال، والقياس الآعتلال. ومشهور قراءة آبن عباس «يُطَوَّقونه» بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو بمعنى يكلّفونه. وقد روى مجاهد «يَطّيقونه» بالياء بعد الطاء على لفظ «يكيلونه» وهى باطلة ومحال؛ لأن الفعل مأخوذ من الطوق، فالواو لازمة واجبة فيه ولا مدخل للياء فى هذا المثال. قال أبو بكر الأنبارى: وأنشدنا أحمد بن يحيى النحوى لأبى ذؤيب:

فقيل تَحَمَّلْ فوق طَوْقك إنها ... مُطَبَّعَةٌ (٢) من يأتها لا يَضيرها

(١) ما بين المربعين فى ج، وساقط من سائر نسخ الأصل.

(٢) مطبعة: مملوءة.

Marfat.com

فأظهر الواو في الطوق، وصح بذلك أن واضع الياء مكانها يفارق الصواب. وروى آبن الأنباري عن آبن عباس «يَطَّيَّقُونه» بفتح الياء وتشديد الطاء والياء مفتوحتين بمعنى يطيقونه؛ يقال: طاق وأطاق وأطيق بمعنًى. وعن آبن عباس أيضا وعائشة وطاوس وعمرو بن دينار «يَطَّوَّقونه» بفتح الياء وشد الطاء مفتوحة، وهي صواب في اللغة؛ لأن الأصل يتطوقونه فأسكنت التاء وأدغمت في الطاء فصارت طاء مشددة. وليست من القرآن، خلافا لمن أثبتها قرآنًا، وإنما هي قراءة على التفسير. وقرأ أهل المدينة والشام «فديةُ طعامِ» مضافا، «مساكينَ» جمعًا. وقرأ آبن عباس «طعامُ مسكين» بالإفراد فيما ذكر البخاري وأبو داود والنسائي عن عطاء عنه. وهي قراءة حسنة؛ لأنها بيّنت الحكم في اليوم؛ وآختارها أبو عبيد، وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي. قال أبو عبيـد: فبيّنت أن لكل يوم إطعام واحد؛ فالواحد مترجم عن الجميع، وليس الجميع بمترجم عن واحد. وجمع المساكين لا يدرى كم منهم في اليوم إلا من الآية. وتخرج قراءة الجمع في «مساكين» لما كان الذين يطيقونه جمع وكل واحد منهم يلزمه مسكين فجمع لفظه؛ كما قال تعالى: «والذين يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً»[1] أي آجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة؛ فليست الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمانون؛ قال معناه أبو علي. وآختار قراءة الجمع النحاس قال: وما آختاره أبو عبيد مردود؛ لأن هذا إنما يعرف بالدلالة؛ فقد علم أن معنى «وعلى الذين يُطيقونه فديةُ طعامِ مساكينَ» أن لكل يوم مسكينا، فآختيار هذه القراءة لترد جمعًا على جمع. قال النحاس: وآختار أبو عبيد أن يقرأ «فديةٌ طعامُ» قال: لأن الطعام هو الفدية، ولا يجوز أن يكون الطعام نعتًا لأنه جوهر ولكنه يجوز على البدل؛ وأبين منه أن يقرأ «فديةُ طعامِ» بالإضافة؛ لأن «فدية» مبهمة تقع للطعام وغيره، فصار مثل قولك: هذا ثوبُ خزٍّ.

الثانيـــة — وآختلف العلماء في المراد بالآية؛ فقيل: هي منسوخة. روى البخاري: «وقال آبن نُمير حدّثنا [الأعمش حدّثنا] عمرو بن مُرّة حدّثنا آبن أبي ليلى حدّثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: نزل رمضان فشق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن

(١) آية ٤ سورة النور. راجع جـ ١٢ ص ١٧١

Marfat.com

يطيقه ورخص لهم فى ذلك فنسختها «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ» . وعلى هـذا قراءة الجمهور «يطيقونه» أى يقدرون عليه؛ لأن فرض الصيام هكذا: من أراد صام ومن أراد أطعم مسكيناً. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية رُخصة للشيوخ والعجزة خاصّةً إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم، ثم نُسخت بقوله «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» فزالت الرُّخصة إلا لمن عجز منهم. قال الفَرّاء: الضمير فى «يطيقونه» يجوز أن يعود على الصيام؛ أى وعلى الذين يطيقون الصيام أن يطعموا إذا أفطروا، ثم نسخ بقوله: «وَأَنْ تَصُومُوا». ويجوز أن يعود على الفداء؛ أى وعلى الذين يطيقون الفداء فدية. وأما قراءة «يُطَوَّقونه» على معنى يكلّفونه مع المشقة اللاحقة لهم؛ كالمريض والحامل فإنهما يقدران عليه لكن بمشقة تلحقهم فى أنفسهم، فإن صاموا أجزأهم وإن افتدوا فلهم ذلك. ففسّر ابن عباس — إن كان الإسناد عنه صحيحاً — «يطيقونه» يُطَوَّقونه ويتكلفونه فأدخله بعض النقَلة فى القرآن. روى أبو داود عن ابن عباس «وعلى الذين يطيقونه» قال: أُثبتت للحبلى والمرضع. وروى عنه أيضا «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» قال: كانت رُخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصوم أن يُفطرا ويُطعما مكان كل يوم مسكيناً، والحُبْلَى والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا. وخرّج الدّارَقُطْنِي عنه أيضا قال: رُخّص للشيخ الكبير أن يُفطر ويُطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه؛ هذا إسناد صحيح. وروى عنه أيضا أنه قال: «وعلى الذين يُطيقونه فدية طعام» ليست بمنسوخة؛ هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعما مكان كل يوم مسكيناً؛ وهـذا صحيح. وروى عنه أيضا أنه قال لأم ولد له حُبْلَى أو مُرْضِع: أنت من الذين لا يطيقون الصيام، عليك الجزاء ولا عليك القضاء؛ وهـذا إسناد صحيح. وفى رواية: كانت له أم ولد ترضع — من غير شك — فأُجهدت فأمرها أن تُفطر ولا تقضى؛ هذا صحيح.

قلت: وقـد ثبت بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس أن الآية ليست بمنسوخة وأنها مُحْكَمَة فى حق من ذُكر. والقول الأوّل صحيح أيضا، إلا أنه يحتمـل أن يكون النسخ هناك

Marfat.com

بمعنى التخصيص، فكثيرا ما يُطلق المتقدّمون النسخ بمعناه، والله أعلم. وقال الحسن البصرى وعطاء بن أبى رَباح والضحاك والنَّخَعى والزُّهرى وربيعة والأوزاعى وأصحاب الرأى: الحامل والمرضع يُفطران ولا إطعام عليهما؛ بمنزلة المريض يُفطر ويَقضى؛ وبه قال ابو عبيد وأبو ثور. وحكى ذلك أبو عبيد عن أبى ثور، وآختاره آبن المنذر؛ وهو قول مالك فى الحبلى إن أفطرت، فأمّا المرضع إن أفطرت فعليها القضاء والإطعام. وقال الشافعى وأحمد: يُفطران ويُطعمان ويَقضيان، وأجمعوا على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة أن يفطروا. وآختلفوا فيما عليهم؛ فقال ربيعة ومالك: لا شيء عليهم، غير أن مالكا قال: لو أطعموا عن كل يوم مسكينًا كان أحبّ إلىّ. وقال أنس وآبن عباس وقيس بن السائب وأبو هريرة: عليهم الفِدْية. وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق؛ آتباعًا لقول الصحابة رضى الله عن جميعهم، وقوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ثم قال: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» وهؤلاء ليسوا بمرضى ولا مسافرين، فوجبت عليهم الفدية. والدليل لقول مالك: أن هذا مفطر لعذر موجود فيه وهو الشيخوخة والكبر فلم يلزمه إطعام كالمسافر والمريض. ورُوى هذا عن الثورى ومكحول. وآختاره آبن المنذر.

الثالثــة — وآختلف مَن أوجب الفدية على مَن ذُكر فى مقدارها؛ فقال مالك: مُدٌّ بمُدّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عن كل يوم أفطره؛ وبه قال الشافعى. وقال أبو حنيفة: كفّارة كل يوم صاع تمر أو نصف صاع بُرّ. وروى عن آبن عباس نصف صاع من حنطة؛ ذكره الدّارَقُطْنىّ. ورُوى عن أبى هريرة قال: من أدركه الكِبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مُدّ من قمح. وروى عن أنس بن مالك أنه ضَعُف عن الصوم عامًا فصنع جَفْنة من طعام ثم دعا ثلاثين مسكينًا فأشبعهم.

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ قال آبن شهاب: من أراد الإطعام مع الصوم. وقال مجاهد: من زاد فى الإطعام على المُدّ. آبن عباس: «فمن تطوع

Marfat.com

خيرا » قال : مسكينًا آخر فهو خير له . ذكره الدَّارَقُطْنِيّ وقال : إسناد صحيح ثابت . و «خَيْرٌ» الثاني صفة تفضيل، وكذلك الثالث و « خير » الأوّل . وقرأ عيسى بن عمرو ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائى « يَطَّوَّعْ خيرا » مشدّدًا و جزم العين على معنى يتطوّع . الباقون « تَطَوَّعَ » بالتاء وتخفيف الطاء وفتح العين على الماضى .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى والصيام خير لكم . وكذا قرأ أُبَيّ؛ أى من الإفطار مع الفدية وكان هـذا قبل النسخ . وقيـل : « وأن تصوموا » فى السـفر والمرض غير الشاق ، والله أعلم . وعلى الجملة فإنه يقتضى الحضّ على الصوم ؛ أى فاعلموا ذلك وصوموا .

قوله تعـالى : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ قال أهل التاريخ : أوّل من صام رمضان نوح عليه السلام لمـا خرج من السفينة . وقد تقدّم قول مجاهد : كتب الله رمضان على كل أمة[1]، ومعلوم أنه كان قبل نوح أمم ؛ والله أعلم . والشهر مشـتق من الإشهار لأنه مشتهر لا يتعذر علمه على أحد يريده ؛ ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته . ورمضانُ مأخوذ من رَمِضَ الصائمُ يَرْمَضُ إذا حَرّ جوفُه من شدّة العطش . والرَّمْضاء (ممدودة) : شدّة الحرّ ؛ ومنه الحديث: "صلاة الأوّابين إذا رَمِضت الفِصَال"[2]. خرّجه مسلم . ورَمَضُ الفِصالِ أن تَحرِق الرَّمْضاءُ أخفافَها فتبرُك من شدّة حَرّها . فرمضانُ — فيما ذكروا — وافق شدّة الحرّ؛ فهو مأخوذ من الرَّمْضاء . قال

(١) راجع ص ٢٧٤ من هذا الجزء . (٢) هى الصلاة التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الضحى .

Marfat.com

الجوهري : وشهر رمضان يجمع على رَمَضانات وأرمضاء؛ يقال إنهم لمـا نقلوا أسماء الشهور عن اللغـة القديمة سَمَّوْها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رَمَض الحرّ فسُمِّيَ بذلك . وقيل : إنمـا سُمِّيَ رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة ، من الإرماض وهو الإحراق؛ ومنه رَمِضَت قَدَمُه من الرَّمْضاء أي آحترقت . وأرْمَضَتْني الرمضاء أي أحرقتني؛ ومنه قيل : أرْمَضَني الأمر . وقيل: لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والفكرة في أمر الآخرة كما يأخذ الرمل والحجارة من حرّ الشمس . والرمضاء : الحجارة المُحْماة . وقيـل : هو من رَمَضْتُ النَّصل أرمِضُه وأَرْمُضُه رَمْضًا إذا دَقَقْته بين حجرين ليَرِقّ . ومنه نَصْـل رميض ومرموض — عن آبن السِّكِّيت — ؛ وسُمِّيَ الشهر به لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم في رمضان ليحاربوا بها في شوّال قبل دخول الأشهر الحُرُم. وحكى المـاوردي أن آسمه في الجاهلية « ناتق » وأنشد للمفضّل :

وفي ناتقٍ أجْلَتْ لدى حَوْمَةِ الوَغَى * وولَّتْ على الأدبار فُرسانُ خَثْعَمَا

و « شَهْرُ » بالرفع قراءة الجماعة على الآبتداء؛ والخبرُ « الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ » . أو يرتفع على إضمار مبتدأ، المعنى : المفروض عليكم صومه شهر رمضان، أو فيما كتب عليكم شهر رمضان. ويجـوز أن يكون « شهر » مبتدأ، و « الَّذِي أُنْزِلَ فِيـهِ القُرْآنُ » صفة، والخبر « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ » . وأعيد ذكر الشهر تعظيما ، كقوله تعالى : « الحَاقَّةُ . مَا الحَاقَّةُ». وجاز أن يدخله معنى الجزاء، لأن شهر رمضان وإن كان معرفة فليس معرفة بعينها لأنه شائع في جميع القابل؛ قاله أبو علي. وروى عن مجاهد وشَهْر بن حَوْشَب نصب «شهر» ، ورواها هارون الأعور عن أبي عمرو ، ومعناه: الزموا شهر رمضان أو صوموا . و «الذي أنزل فيه القرآن» نعت له ، ولا يجوز أن ينتصب بتصوموا؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول بخبر أن وهو « خير لكم » . الرماني : يجوز نصبه على البدل من قوله « أيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » .

الثانيــة — وآختلف هل يقال « رمضان » دون أن يضاف إلى شهر؛ فكره ذلك مجاهد وقال: يقال كما قال الله تعالى . وفي الخبر : " لا تقولوا رمضان بل آنسبوه كما نسبه الله في القرآن

Marfat.com

فقال شَهْرُ رَمَضَانَ " . وكان يقول : بلغنى أنه آسم من أسماء الله . وكان يكره أن يجمع لفظه لهذا المعنى . ويحتجّ بما روى : رمضان آسم من أسماء الله تعالى، وهذا ليس بصحيح فإنه من حديث أبى معشر نجيح وهو ضعيف . والصحيح جواز إطلاق رمضان من غير إضافة كما ثبت فى الصحاح وغيرها . روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جاء رمضان فُتّحت أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب النار وصُفّدت الشياطين ". وفى صحيح البُسْتِيّ عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان رمضان فُتحت له أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب جهنم وسُلْسِلت الشياطين " . وروى عن آبن شهاب عن أنس بن أبى أنس أن أباه حدّثه أنه سمع أبا هريرة يقول ...، فذكره . قال البُسْتِيّ : أنس بن أبى أنس هذا هو والد مالك بن أنس، وآسم أبى أنس مالك بن أبى عامر من ثقات أهل المدينة، وهو مالك آبن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان(1) بن جثيل بن عمرو من ذى أصبح من أقيال اليمن . وروى النسائى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاكم رمضان شهرٌ مبارك فرض الله عز وجل عليكم صيامه تُفتح فيه أبواب السماء وتُغلق فيه أبواب الجحيم وتُغَلّ فيه مَرَدة الشياطين لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر مَن حُرِم خيرها فقد حُرِم " . وأخرجه أبو حاتم البُسْتِيّ أيضا وقال : فقوله " مَرَدة الشياطين " تقييد لقوله : " صُفّدت الشياطين وسُلْسِلت " . وروى النسائى أيضًا عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمرأة من الأنصار : " إذا كان رمضان فآعتمرى فإن عُمْرة فيه تَعدِل حَجّة " . وروى النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عَوف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى فرض صيام رمضان [عليكم] وسَنَنْتُ لكم قيامه فمن صامه وقامه إيمانا وآحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . والآثار فى هذا كثيرة، كلها بإسقاط شهر . وربما أسقطت العرب ذكر الشهر من رمضان .

(1) الذى فى آبن خلكان : « غيمان — بغين معجمة وياء تحتها نقطتان — ويقال عثمان — بعين مهملة وثاء مثلثة — . ابن جثيل — بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان . وقال آبن سعد : هو خثيل بخاء معجمة » . وقد ورد هذا النسب فى الأصول محرفا .

Marfat.com

قال الشاعر :

جاريةٌ فى دِرعها الفَضْفاضِ * أبيضُ مِن أخت بنى إبَاضِ
جاريةٌ فى رمضانَ المـاضِى * تُقَطِّـعُ الحـديثَ بالإيماضِ

وفضلُ رمضان عظيم، وثوابُه جسيم؛ يدلّ على ذلك معنى الاشتقاق من كونه محرقاً للذنوب، وما كتبناه من الأحاديث .

الثالثـــة — فرض الله صيام شهر رمضان أى مدّة هلاله ، وبه سُمِّىَ الشهر ؛ كما جاء فى الحديث : " فإن غُمِّىَ عليكم الشهر " أى الهلال ، وسيأتى ؛ وقال الشاعر :

أخوانِ مِن نَجْـدٍ على ثِقَة * والشّهرُ مثلُ قُلامة الظُّفر
حتى تكامل فى آستدارته * فى أربع زادت على عَشر

وفُرض علينا عند غُمّة الهلال إكمال عدّة شعبان ثلاثين يوماً، و إكمال عدة رمضان ثلاثين يوماً، حتى ندخل فى العبادة بيقين ونخرج عنها بيقين ؛ فقال فى كتابه « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (1) » . وروى الأئمة الأثبات عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمّ عليكم فأكملوا العــدد " فى رواية " فإن غُمِّىَ عليكم الشهر فعُدُّوا ثلاثين " . وقد ذهب مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وهو من كبار التابعين وآبن قتيبة من اللغويين فقالا : يُعَوَّل على الحساب عند الغيم بتقدير المنازل وآعتبار حسابها فى صوم رمضان، حتى إنه لو كان صحوا لرؤى؛ لقوله عليه السلام : "فإن أُغمى عليكم فآقدروا له" أى آستدِلّوا عليه بمنازله ، وقدّروا إتمـام الشهر بحسابه . وقال الجمهور : معنى " فآقــدروا له " فأكملوا المقدار ؛ يفسّره حديث أبى هريرة " فأكملوا العدة ". وذكر الدّاوُدى أنه قيل فى معنى قوله " فآقدروا له " : أى قدّروا المنازل . وهذا لا نعلم أحدا قال به إلا بعض أصحاب الشافعى أنه يُعتبر فى ذلك بقول المنجّمين، والإجماعُ حجة عليهم . وقد روى آبن نافع عن مالك فى الإمام لا يصوم لرؤية الهلال ولا يُفطر لرؤيته، و إنما يصوم ويُفطر على الحساب : إنه لا يُقتدى به

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ .

Marfat.com

ولا يُتَّبَع . قال ٱبن العربي: وقـد زَلّ بعض أصحابنا فحكى عن الشافعي أنه قال : يعوّل على الحساب ، وهى عَثرة « لا لَعًا لها » (١) .

الرابعـــة — وٱختلف مالك والشافعي هل يثبت هلال رمضان بشهادة واحد أو شاهدين؛ فقال مالك : لا يُقبل فيه شهادة الواحد لأنها شهادة على هلالٍ فلا يُقبل فيها أقل من ٱثنين؛ أصله الشهادة على هلال شوّال وذى الحجة. وقال الشافعي وأبو حنيفة : يُقبل الواحد ؛ لما رواه أبو داود عن ٱبن عمر قال: تراءى الناس الهلال فأخبرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى رأيته ؛ فصام وأمر الناس بصيامه . وأخرجه الدّارَقُطْني وقال: تفرّد به مروان بن محمد عن ٱبن وهب وهو ثقة . روى الدّارقطني « أن رجلًا شهد عند عليّ بن أبى طالب على رؤية هلال رمضان فصام ؛ أحسبه قال: وأمر الناس أن يصوموا، وقال: أصوم يومًا من شعبان أحبّ إلى من أن أفطر يومًا من رمضان. قال الشافعي : فإن لم تر العامّة هلال شهر رمضان ورآه رجل عَدْل رأيت أن أقبله للأثر والاحتياط . وقال الشافعي بعدُ : لا يجوز على رمضان إلا شاهدان . قال الشافعي وقال بعض أصحابنا : لا أقبل عليـه إلا شاهدين ؛ وهو القياس على كل مغيّب » .

الخامســـة — وٱختلفوا فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوّال؛ فروى الربيع عن الشافعي : من رأى هلال رمضان وحده فليصمه، ومن رأى هلال شوّال وحده فليفطر، ولْيُخْفِ ذلك . وروى ٱبن وهب عن مالك فى الذى يرى هلال رمضان وحده أنه يصوم ؛ لأنه لا ينبغى له أن يفطر وهو يعلم أنّ ذلك اليوم من شهر رمضان . ومن رأى هلال شوّال وحده فلا يفطر؛ لأن الناس يتّهمون على أن يفطر منهم من ليس مأمونًا، ثم يقول أولئك إذا ظهر عليهم : قد رأينا الهلال. قال ٱبن المنذر : وبهذا قال الليث بن سعد وأحمد بن حنبل. وقال عطاء و إسحاق : لا يصوم ولا يفطر . قال ٱبن المنذر : يصوم و يفطر .

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ، ز ، و « لعا » بالتنوين : كلمة يدعى بها للعاثر، معناها الارتفاع والإقالة من العثرة، فإذا أريد الدعاء عليه قيل : لا لعًا . وفى ح : « لا يقال بها » . وفى أحكام القرآن لابن العربى : « لا يقالها » .

Marfat.com

السادســــة – واختلفوا إذا أخبر مخبر عن رؤية بلد، فلا يخلو أن يَقْرُب أو يبعد، فإن قرب فالحكم واحد، وإن بَعُدَ فلأهل كل بلد رؤيتهم، روى هذا عن عكرمة والقاسم وسالم، وروى عن ابن عباس، وبه قال إسحاق، وإليه أشار البخاري حيث بوب: «لأهل كل بلد رؤيتهم». وقال آخرون. إذا ثبت عند الناس أن أهل بلد قد رأَوْه فعليهم قضاء ما أفطروا، هكذا قال الليث بن سعد والشافعي. قال ابن المنذر: ولا أعلمه إلا قول المُزَنِي والكوفي.

قلت: ذكر الكِيَا الطبري في كتاب «أحكام القرآن» له: وأجمع أصحاب أبي حنيفة على أنه إذا صام أهل بلد ثلاثين يومًا للرؤية، وأهل بلد تسعةً وعشرين يومًا أن على الذين صاموا تسعة وعشرين يوما قضاء يوم. وأصحاب الشافعي لا يرون ذلك، إذ كانت المطالع في البلدان يجوز أن تختلف. وحجة أصحاب أبي حنيفة قوله تعالى: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» وثبت برؤية أهل بلد أن العدة ثلاثون فوجب على هؤلاء إكمالها. ومخالفهم يحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" الحديث، وذلك يوجب اعتبار عادة كل قوم في بلدهم. وحكى أبو عمر الإجماع على أنه لا تراعى الرؤية فيما بَعُد من البلدان كالأندلس من خراسان، قال: ولكل بلد رؤيتهم، إلا ما كان كالمصر الكبير وما تقاربت أقطاره من بلدان المسلمين. روى مسلم عن كُرَيب أن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام قال: فقدمت الشام فقضيت حاجتها واستُهِل علي رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة. فقال: أنت رأيتَــه؟ فقلت نعم، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية. فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نُكمل ثلاثين أو نراه. فقلت: أو لا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال لا، هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال علماؤنا: قول ابن عباس «هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم» كلمة تصريح برفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبأمره. فهو حجة على أن البلاد إذا تباعدت كتباعد الشام من الحجاز فالواجب على أهل كل بلد أن تعمل على رؤيته دون رؤية غيره، وإن ثبت ذلك

Marfat.com

عند الإمام الأعظم، ما لم يحمل الناس على ذلك، فإن حمل فلا تجوز مخالفته . وقال الكيا الطبرى : قوله « هكذا أمرنا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم » يحتمل أن يكون تأول فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" . وقال ابن العربى : «واختلف فى تأويل [قول](١) ابن عباس [هذا](١)؛ فقيل : ردّه لأنه خبر واحد، وقيل : ردّه لأن الأقطار مختلفة فى المطالع؛ وهو الصحيح ، لأن كُرَيبًا لم يشهد وإنما أخبر عن حكم ثبت بالشهادة، ولا خلاف فى الحكم الثابت أنه يجزى فيه خبر الواحد.ونظيره ما لو ثبت أنه أهلّ ليلة الجمعة بأغمات(٢) وأهلّ بإشبيلية(٣) ليلة السبت فيكون لأهل كل بلد رؤيتهم؛ لأن سُهيلا(٤) يُكشف من أغمات ولا يُكشف من أشبيلية؛ وهذا يدل على اختلاف المطالع» .

قلت : وأما مذهب مالك رحمه الله فى هذه المسألة فروى ابن وهب وابن القاسم عنـه فى المجموعة أن أهل البصرة إذا رأوا هلال رمضان ثم بلغ ذلك إلى أهل الكوفة والمدينة واليمن أنه يلزمهم الصيام أو القضاء إن فات الأداء . وروى القاضى أبو إسحاق عن ابن المـاجشون أنه إن كان ثبت بالبصرة بأمر شائع ذائع يستغنى عن الشهادة والتعديل له فإنه يلزم غيرهم من أهل البلاد القضاء، وإن كان إنمـا ثبت عند حاكمهم بشهادة شاهدين لم يلزم ذلك من البلاد إلا من كان يلزمه حكم ذلك الحاكم ممن هو فى ولايته، أو يكون ثبت ذلك عند أمير المؤمنين فيلزم القضاء جماعة المسلمين . قال : وهذا قول مالك .

السابعـــة — قرأ جمهور الناس « شَهْرُ » بالرفع على أنه خبر ابتداء مضمر ؛ أى ذلكم شهر، أو المفترض عليكم صيامه شهر رمضان، أو الصوم أو الأيام . وقيل : ارتفع على أنه مفعول لم يُسَمّ فاعله بـ «كُتِب» أى كُتب عليكم شهر رمضان. و «رمضان» لا ينصرف لأن النون فيه زائدة . ويجوز أن يكون مرفوعًا على الابتداء، وخبره «الذى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» . وقيل : خبره «فَمَنْ شَهِدَ»، و « الذى أُنزِل» نعت له . وقيل : ارتفع على البدل من الصيام . فمن قال : إن الصيام فى قوله « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » هى ثلاثة أيام وعاشوراء قال هنا

(١) الزيادة عن « أحكام القرآن » لابن العربى . (٢) أغمات : ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش . (٣) أشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس . (٤) سهيل : كوكب .

Marfat.com

بالابتداء . ومن قال : إن الصيام هناك رمضان قال هنا بالابتـداء أو بالبدل من الصيام ، أى كُتِب عليكم شهر رمضان . وقرأ مجاهـد وشَهْرُ بن حَوْشَب « شَهْـرَ » بالنصب . قال الكسائى : المعنى كُتب عليكم الصيام، وأن تصوموا شهر رمضان . وقال الفرّاء : أى كُتب عليكم الصيام أى أن تصوموا شهر رمضان . قال النحاس : « لا يجوز أن ينتصب « شهر رمضان » بتصوموا؛ لأنه يدخل فى الصلة ثم يفرّق بين الصلة والموصول ، وكذلك إن نصبته بالصيام؛ ولكن يجوز أن تنصبه على الإغراء؛ أى آلزموا شهر رمضان، وصوموا شهر رمضان، وهذا بعيد أيضا لأنه لم يتقدّم ذكر الشهر فيغرَى به » .

قلت : قوله « كُتِبَ عليكم الصّـيامُ » يدل على الشهر فجـاز الإغراء ؛ وهـو آختيار أبى عبيـد . وقال الأخفش : آنتصب على الظرف . وحكى عن الحسن وأبى عمرو إدغام الراء فى الراء، وهذا لا يجوز لئلا يجتمع ساكنان؛ و يجوز أن تُقلب حركة الراء على الهـاء فتُضم الهـاء ثم تُدغم ، وهو قول الكوفيين .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيـهِ ٱلْقُرْآنُ﴾ نصّ فى أن القرآن نزل فى شهر رمضان ، وهو يبيّن قوله عز جل : « حٰمٓ . وَٱلْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ »(١) يعنى ليلة القدر ، ولقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ »(٢) . وفى هـذا دليل على أن ليلة القدر إنمـا تكون فى رمضان لا فى غيره . ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر ــ على ما بيناه(٣) ــ جملةً واحدة، فوُضع فى بيت العِزّة فى سماء الدنيا، ثم كان جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل به نَجْمًا نَجْمًا فى الأوامر والنواهى والأسباب، وذلك فى عشرين سنة . وقال آبن عباس : أُنزل القرآن من اللّوح المحفوظ جملةً واحدة إلى الكَتَبة فى سمـاء الدنيا ، ثم نزل به جبريل عليـه السلام نجومًا ــ يعنى الآية والآيتين ــ فى أوقات مختلفة فى إحدى وعشرين سنة . وقال مقاتل فى قوله تعـالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيـهِ الْقُرْآنُ » قال أنزل من اللّوح المحفوظ كلّ عام فى ليـلة القدر إلى سمـاء الدنيا ، ثم نزل إلى السَّفَرة(٤) من اللوح المحفوظ فى عشرين شهرًا، ونزل به جبريل فى عشرين سنة .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٢٥ (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٢٩
(٣) يراجع ج ١ ص ٦٠ (٤) السفرة : الملائكة .

Marfat.com

قلت : وقول مُقاتل هـذا خلاف ما نُقل من الإجماع « أن القرآن أنزل جملةً واحدةً » والله أعلم . وروى وَاثِلة بن الأَسْقع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان والتوراةُ لِستّ مضيْن منـه والإنجيلُ لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين" .

قلت : وفى هـذا الحديث دلالة على ما يقـوله الحسن أن ليلة القدر تكون ليـلة أربع وعشرين . وسيأتى إن شاء الله تعالى بيانُ هذا (١) .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ الْقُرْآنُ ﴾ « القرآن » : اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب يُسمَّى شرابا ، والمكتوب يُسمَّى كتابا ؛ وعلى هذا قيل : هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا بمعنًى . قال الشاعر :

ضحّـوا بأشمطَ عُنوانُ السّجود بِهِ * يُقطّـع اللّيـــلَ تسبيحًا وقـرآنا

أى قراءة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن فى البحر شياطين مسجونة أَوْثقها سليمان عليه السـلام يوشك أن تخرج فتقرأ على النـاس قرآنا، أى قراءة . وفى التنزيل : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٢) » أى قراءة الفجـر . ويُسمَّى المقروء قرآنًا على عادة العرب فى تسميتها المفعول بآسم المصدر ؛ كتسميتهم للعلوم علماً وللمضروب ضرباً وللمشروب شربًا ، كما ذكرنا ؛ ثم آشتهر الآستعمال فى هـذا وآقترن به العُرف الشرعى ، فصار القرآن آسماً لكلام الله ، حتى إذا قيل : القرآن غير مخلوق، يراد به المقروء لا القراءة لذلك . وقد يُسمَّى المصحف الذى يُكتب فيه كلام الله قرآناً توسّعاً ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو" أراد به المصحف . وهو مشتق من قرأت الشيء جمعته . وقيل : هو آسمُ علم لكتاب الله ، غير مشتقّ كالتوراة والإنجيل؛ وهذا يُحكى عن الشافعى . والصحيح الآشتقاق فى الجميع ، وسيأتى .

العـاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ « هُدًى » فى موضع نصب على الحال من القرآن، أى هاديًا لهم . ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ عطف عليه . و﴿ الْهُدَى ﴾ الإرشاد والبيان، كما تقدّم (٣) ؛

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٣٤ (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٠٥ (٣) راجع ج ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

أى بيانًا لهم وإرشادًا. والمراد القرآن بجملته من مُحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ؛ ثم شرف بالذكر والتخصيص البينات منه، يعنى الحلال والحرام والمواعظ والأحكام . «وبيّناتٍ» جمع بيّنة، من بان الشيء يبين إذا وضح. ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ مافرق بين الحق والباطل، أى فصل؛ وقد تقدّم.[1]

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قراءة العامة بجزم اللام . وقرأ الحسن والأعرج بكسر اللام، وهى لام الأمر وحقّها الكسر إذا أُفردت ؛ فإذا وُصلت بشيء ففيها وجهان : الجزم والكسر . وإنما تُوصل بثلاثة أحرف : بالفاء كقوله «فَلْيَصُمْهُ» «فَلْيَعْبُدُوا» . والواو كقوله : «وَلْيُوفُوا» . وثُمّ كقوله : «ثُمّ لْيَقْضُوا» . و«شَهِد» بمعنى حَضَر، وفيه إضمار؛ أى من شهد منكم المصر فى الشهر عاقلاً بالغًا صحيحًا مقيمًا فليصمه، وهو يقال عامّ فيخصّص بقوله : «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ» الآية . وليس الشهر بمفعول وإنما هو ظرف زمان . وقد ٱختلف العلماء فى تأويل هذا ؛ فقال علىّ ٱبن أبى طالب وابن عباس وسُوَيد بن غَفَلَة وعائشة — أربعة من الصحابة — وأبو مِجْلَز لاحق بن حُميد وعَبيدة السَّلْمانىّ : من شهد أى من حضر دخول الشهر وكان مقيما فى أوله فى بلده وأهله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام ، وإنما يُفطر فى السفر من دخل عليه رمضان وهو فى سفر . والمعنى عندهم : من أدركه رمضان مسافرًا أفطر وعليه عدّة من أيام أخر، ومن أدركه حاضرًا فليصمه . وقال جمهور الأمة : من شهد أوّل الشهر وآخره فليصم مادام مقيمًا ، فإن سافر أفطر ؛ وهذا هو الصحيح وعليه تدل الأخبار الثابتة . وقد ترجم البخارى رحمه الله ردًّا على القول الأول « باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر » حدّثنا عبد الله بن يوسف قال أنبأنا مالك عن ٱبن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ٱبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ الكَدِيد[2] أفطر فأفطر الناس . قال أبو عبد الله : والكَدِيد ما بين عُسفان[3] وقُدَيد .

---

(١) يراجع ج ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية . (٢) الكديد (بفتح الكاف وكسر الدال) : موضع بينه وبين المدينة سبع مراحل أونحوها ، وبينه وبين مكة نحو مرحلتين . (٣) عسفان : قرية بها مزارع ونخيل على مرحلتين من مكة . وقديد (بضم القاف) : اسم موضع قرب مكة .

Marfat.com

قلت : قد يحتمل أن يحمل قول علىّ رضى الله عنه ومن وافقه على السفر المندوب كزيارة الإخوان من الفضلاء والصالحين ، أو المباح فى طلب الرزق الزائد على الكفاية . وأما السفر الواجب فى طلب القوت الضرورى ، أو فتح بلد إذا تحقّق ذلك ، أو دفع عدو ، فالمرء فيه مخيّر ولا يجب عليه الإمساك؛ بل الفطر فيـه أفضل للتقوى ، وإن كان شهد الشهر فى بلده وصام بعضه فيه؛ لحديث آبن عباس وغيره ، ولا يكون فى هذا خلاف إن شاء الله ، والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولامغمى عليه فليصمه ، ومن دخل عليـه رمضان وهو مجنون وتمـادى به طول الشهر فلا قضاء عليه ؛ لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام . ومن جُنّ أوّل الشهر وآخره فإنه يقضى أيام جنونه . ونَصْب الشهر على هذا التأويل هو على المفعول الصريح بـ « شهد » .

الثـانية عشرة — قـد تقرر أن فرض الصوم مستحق بالإسلام والبلوغ والعلم بالشهر؛ فإذا أسلم الكافر أو بلغ الصـبى قبل الفجر لزمهما الصوم صبيحة اليوم ، وإن كان بعد الفجر آستحب لها الإمساك ، وليس عليهما قضاء المـاضى من الشهر ولا اليوم الذى بلغ فيه أو أسلم . وقد آختلف العلماء فى الكافر يُسلم فى آخر يوم من رمضان ، هل يجب عليه قضاء رمضان كله أولا ؟ وهل يجب عليـه قضاء اليوم الذى أسـلم فيه ؟ فقال الإمام مالك والجمهور : ليس عليه قضاء مامضى ؛ لأنه إنمـا شهد الشهر من حين إسلامه . قال مالك : وأحبّ إلىّ أن يقضى اليوم الذى أسـلم فيه . وقال عطاء والحسن : يصوم مابقى ويقضى مامضى . وقال عبد الملك بن المـاجشون : يكفّ عن الأكل فى ذلك اليوم ويقضيه . وقال أحمد وإسحاق مثله . وقال آبن المنذر : ليس عليـه أن يقضى ما مضى من الشهر ولا ذلك اليـوم . وقال الباجى : من قال من أصحابنا أن الكفار مخاطبون بشرائع الإسلام — وهو مقتضى قول مالك وأكثر أصحابه — أوجب عليه الإمساك فى بقية يومه . ورواه فى المدونة آبن نافع عن مالك ، وقاله الشيخ أبو القاسم . ومن قال من أصحابنا ليسوا مخاطبين قال : لا يلزمه الإمساك فى بقية يومه ؛ وهو مقتضى قول أشهب وعبد الملك بن المـاجشون ، وقاله آبن القاسم .

Marfat.com

قلت : وهو الصحيح لقوله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فخاطب المؤمنين دون غيرهم؛ وهذا واضح، فلا يجب عليه الإمساك فى بقية اليوم ولا قضاء ما مضى . وتقدّم الكلام فى معنى قوله : « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »(١) والحمد لله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ قراءة جماعة « اليُسُر » بضم السين لغتان، وكذلك « العُسُر » . قال مجاهد والضحاك : « اليسر » الفطر فى السفر، و « العسر » الصوم فى السفر . والوجه عموم اللفظ فى جميع أمور الدين ؛ كما قال تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٢)، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " دين الله يُسر "، وقال صلى الله عليه وسلم : " يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا " . واليسر من السهولة، ومنه اليسار للغنى . وسُمّيت اليد اليسرى تفاؤلًا، أو لأنه يسهل له الأمر بمعاونتها لليمنى ؛ قولان . وقوله : ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ هو بمعنى قوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ فكرر تأكيدا .

الرابعة عشرة — دلّت الآية على أن الله سبحانه مريد بإرادة قديمة أزلية زائدة على الذات . هذا مذهب أهل السنة ؛ كما أنه عالم بعلم، قادرٌ بقدرة، حيٌّ بحياة، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر؛ متكلمٌ بكلام . وهذه كلها معانٍ وجودية أزلية زائدة على الذات . وذهب الفلاسفة والشِّيعة إلى نفيها ؛ تعالى الله عن قول الزائغين و إبطال المبطلين . والذى يقطع دابر أهل التعطيل أن يقال : لو لم يَصْدُق كونه ذا إرادة لصدق أنه ليس بذى إرادة، ولو صح ذلك لكان كل ما ليس بذى إرادة ناقصا بالنسبة إلى من له إرادة؛ فإنّ من كانت له الصفات الإرادية فله أن يخصص الشيء وله ألا يخصّصه ؛ فالعقل السليم يقضى بأن ذلك كمال له وليس بنقصان ، حتى أنه لو قُدّر بالوهم سلب ذلك الأمر عنه لقد كان حاله أولا أكمل بالنسبة إلى حاله ثانيا، فلم يبق إلا أن يكون ما لم يتّصف أنقص مما هو متّصف به ؛ ولا يخفى ما فيه من المحال؛ فإنه كيف يتصوّر أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والخالق أنقص منه ، والبديهة تقضى بردّه و إبطاله . وقد وصف نفسه جلّ جلاله وتقدست أسماؤه بأنه مريد فقال تعالى :

(١) تراجع المسألة الأولى وما بعدها ص ٢٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٠ .

Marfat.com

« فعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ »[1] وقال سبحانه : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »وقال : «يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »[2] ، إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. ثم إن هذا العالَم على غاية من الحكمة والإتقان والانتظام والإحكام ، وهو مع ذلك جائز وجوده وجائز عدمه ، فالذى خصّصه بالوجود يجب أن يكون مريدًا له قادرًا عليـه عالمًا به ؛ فإن لم يكن عالمًا قادرًا لا يصح منه صـدور شىء ؛ ومن لم يكن عالمـا و إن كان قادرًا لم يكن ما صدر منه على نظام الحكمة والإتقان ، ومن لم يكن مريدًا لم يكن تخصيص بعض الجائزات بأحوال وأوقات دون البعض بأولى من العكس؛ إذ نسبتها إليه نسبة واحدة . قالوا : وإذ ثبت كونه قادرًا مريدًا وجب أن يكون حيًّا؛ إذ الحياة شرط هذه الصفات؛ ويلزم من كونه حيًّا أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا ؛ فإن لم تثبت له هـذه الصفات فإنه لا محالة متّصف بأضـدادها كالعمى والطرش والخرس على ما عرف فى الشاهـد ؛ والبارئ سبحانه وتعـالى يتقدّس عن أن يتّصف بمـا يوجب فى ذاته نقصًا .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ فيـه تأويلان : أحدهما — إكمال عدّة الأداء لمن أفطر فى سفره أو مرضه . الثانى — عدّة الهلال سواء كانت تسعًا وعشرين أو ثلاثين . قال جابر بن عبـد الله قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الشهر يكون تسعًا وعشرين" . وفى هذا ردّ لتأويل من تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : "شهرا عيدٍ لا ينقصان رمضان وذوالحجة" أنهما لا ينقصان عن ثلاثين يومًا ، أخرجه أبوداود . وتأوّله جمهور العلماء على معنى أنهما لا ينقصان فى الأجر وتكفير الخطايا ، سواء كانا من تسع وعشرين أو ثلاثين .

السادسة عشرة — ولا ٱعتبار برؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهاراً بل هو لليلة التى تأتى ، هـذا هو الصحيح . وقـد ٱختلف الرواة عن عمر فى هـذه المسألة فروى الدّارَقُطْنى عن شقيق قال : جاءنا كتاب عمـر ونحن بخانقين قال فى كتابه : إن الأهلّة بعضها أكبر من بعض ، فإذا رأيتم الهلال نهارا فلا تفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٨

Marfat.com

وذكره أبو عمر من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي وائل[(١)] قال : كتب إلينا عمر ...؛ فذكره . قال أبو عمر : ورُوى عن عليّ بن أبي طالب مثل ماذكره عبد الرزاق أيضا ، وهو قول ٱبن مسعود وٱبن عمر وأنس بن مالك ، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة ومحمد ٱبن الحسن واللّيث والأوزاعي ، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال سفيان الثّوريّ وأبو يوسف : إن رُؤى بعد الزوال فهو لليلة التي تأتي ، وإن رُؤى قبل الزوال فهو للّيلة المـاضية . ورُوى مثـل ذلك عن عمر ، ذكره عبد الرزاق عن الثورى عن مغيرة عن شِـبَاكٍ عن إبراهيم قال : كتب عمر إلى عتبة بن فَرْقَد « إذا رأيتم الهلال نهـارًا قبل أن تزول الشمس لتمـام ثلاثين فأفطروا ، وإذا رأيتموه بعد ماتزول الشمس فلا تُفطروا حتى تمسوا » ؛ وروى عن عليّ مثله . ولا يصحّ في هذه المسألة شيء من جهة الإسناد عن عليّ . ورُوى عن سليمانـ بن ربيعة مثل قول الثوريّ ، وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب ، وبه كان يُفتى بقُرْطبة . وٱختلف عن عمر بن عبد العزيز في هذه المسألة ؛ قال أبو عمر : والحديث عن عمر بمعنى ماذهب إليه مالك والشافعيّ وأبو حنيفة متّصل ، والحديث الذي روى عنه بمذهب الثّوري منقطع ، والمصير إلى المتّصل أوْلَى . وقـد ٱحتج من ذهب مذهب الثوريّ بأن قال : حديث الأعمش مُجْمَل لم يخصّ فيه قبل الزوال ولا بعده ، وحديث إبراهيم مفسّر ، فهو أوْلى أن يقال به .

قلت : قد روى مرفوعًا معنى ماروى عن عمر متصلًا موقوفًا روته عائشـة زوج النبيّ صلى الله عليه وسـلم قالت : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صائمًـا صُبح ثلاثين يومًا ، فرأى هلال شوّال نهارًا فلم يُفطر حتى أمسى . أخرجه الدّارَقُطْني من حديث الواقدى وقال : قال الواقدى حدّثنا معاذ بن محمد الأنصارى قال : سألت الزهريّ عن هلال شوّال إذا رؤى باكرًا ؛ قال سمعت سعيد بن المسيّب يقول : إن رؤى هلال شوّال بعد أن طلع الفجر إلى العصر أو إلى أن تغرب الشمس فهو من الليلة التي تجيء ؛ قال أبو عبـد الله : وهـذا مُجمع عليه .

---

(١) أبو وائل : كنية شقيق السابق ذكره .

Marfat.com

السابعــة عشرة — روى الدَّارَقُطْنِيّ عن رِبْعِيّ بن حِراش عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: آختلف الناس فى آخر يوم من رمضان فقدم أعرابيّان فشهدا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بالله لأَهَلَّا(1) الهلالَ أمس عَشِيّة؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [الناس](2) أن يُفطروا وأن يغدوا إلى مُصلّاهم. قال الدَّارَقُطْنِيّ: هذا إسناد حسن ثابت. قال أبو عمر: لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تُصلّى صلاة العيد فى غير يوم العيد ولا فى يوم العيد بعد الزوال؛ وحكى عن أبى حنيفة. وآختلف قول الشافعى فى هذه المسألة؛ فمرّة قال بقول مالك. وآختاره المزنِيّ وقال: إذا لم يجز أن تُصلَّى فى يوم العيد بعد الزوال فاليوم الثانى أبعد من وقتها وأحْرَى ألا تُصلَّى فيه. وعن الشافعى رواية أخرى أنها تصلَّى فى اليوم الثانى ضُحًى. وقال البُوَيطى: لا تصلّى إلا أن يثبت فى ذلك حديث. قال أبو عمر: لو قُضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا فى سائر السنن أنها لا تُقضى؛ فهذه مثلها. وقال الثورى والأوزاعى وأحمد بن حنبل: يخرجون من الغد، وقاله أبو يوسف فى الإملاء. وقال الحسن بن صالح بن حَيّ: لا يخرجون فى الفطر ويخرجون فى الأضحى. قال أبو يوسف: وأما فى الأضحى فيصليها بهم فى اليوم الثالث. قال أبو عمر: لأن الأضحى أيام عيد وهى صلاة عيد، وليس الفطر يوم عيد إلا يوم واحد، فإذا لم تصلّ فيه لم تُقْضَ فى غيره؛ لأنها ليست بفريضة فتُقضَى. وقال الليث بن سعد: يخرجون فى الفطر والأضحى من الغد.

قلت: والقول بالخروج إن شاء الله أصح؛ للسنة الثابتة فى ذلك، ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ماشاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته. وقد روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن لم يُصَلّ ركعتى الفجر فليصلهما بعد ماتطلع الشمس". صحّحه أبو محمد. قال الترمذى: والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وبه يقول سفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق وآبن المبارك. وروى عن عمر أنه فعله.

---

(1) أهل الرجل الهلال: رآه. (2) زيادة عن سنن الدارقطنى.

Marfat.com

قلت : وقد قال علماؤنا : من ضاق عليه الوقت وصلى الصبح وترك ركعتى الفجر فإنه يصلّيهما بعد طلوع الشمس إن شاء . وقيل : لا يصلّيهما حينئذ . ثم إذا قلنا : يصلّيهما فهل ما يفعله قضاء ، أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر . قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب ، وذِكْر القضاء تجوّز .

قلت : ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل ، لا سيّما مع كونها مرّة واحدة فى السَّنَة مع ما ثبت من السُّنَّة . روى النسائى قال : أخبرنى عمرو بن علىّ قال حدّثنا يحيى قال حدّثنا شعبة قال حدّثنى أبو بشر عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له : أن قومًا رأوُا الهلال فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يُفطِروا بعدما ارتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من الغد . فى رواية : ويخرجوا لمصلّاهم من الغد .

الثامنة عشرة — قرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو — فى بعض ما روى عنه — والحسن وقتادة والأعرج « ولِتُكَمِّلوا العِدّة » بالتشديد . والباقون بالتخفيف . واختار الكسائى التخفيف ؛ كقوله عز وجل : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[1] . قال النحاس : وهما لغتان بمعنًى واحد ؛ كما قال عز وجل : « فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »[2] . ولا يجوز « ولْتُكمِلوا » بإسكان اللام ، والفرق بين هذا وبين ما تقدّم أن التقدير : ويريد لأن تكملوا ، ولا يجوز حذف أن والكسرة ؛ هذا قول البصريين ، ونحوه قول كُثَيِّر أبو صخر :

* أريد لأنسى ذكرها *

أى لأن أنسى ، وهذه اللام هى الداخلة على المفعول ؛ كالتى فى قولك : ضربت لزيد ؛ المعنى ويريد إكمال العدّة . وقيل : هى متعلقة بفعل مضمر بعدُ ، تقديره : ولأن تكملوا العدّة رخّص لكم هذه الرخصة . وهذا قول الكوفيين وحكاه النحاس عن الفرّاء . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ ومثله : « وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ »[3] أى وليكون من الموقنين فعلنا ذلك . وقيل : الواو مُقْحَمة . وقيل : يحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام . وقال أبو إسحاق إبراهيم

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٠		(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٢		(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٣

آبن السّرى : هو محمول على المعنى ، والتقدير : فعـل الله ذلك ليسهّل عليكم ولتكملوا العدّة ، قال : ومثله ما أنشده سيبويه .

بادتْ وغيّر آيهنّ مع البِـلَى * إلا رواكِدَ جَمْــرُهنّ هباء
ومُشَجَّجٌ أمّا سـواءُ قَذاله * فبَـدَا وغيّب سارَه[1] المَعْزاءُ[2]

شَاده يَشيده شَيْدًا جَصّصه؛ لأنّ معناه بادت إلا رواكد بها رواكد، فكأنه قال : وبها مشجج أو ثَمّ مشجّج .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه، ومعناه الحضّ على التكبير فى آخر رمضان فى قول جمهور أهل التأويل . وآختلف النـاس فى حدّه ؛ فقال الشافعى : رُوى عن سعيد بن المسيّب وعُرْوة وأبى سلمة أنهم كانوا يكبّرون ليلة الفطر ويحمّدون، قال: وتشبه ليلة النحر بها . وقال آبن عباس : حَقٌّ على المسلمين إذا رأوا هلال شوّال أن يكبّروا. ورُوى عنه : يكبّر المرء من رؤية الهلال إلى آنقضاء الخطبة ، ويمسك وقت خروج الإمام ويكبّر بتكبيره. وقال قوم : يكبّر من رؤية الهلال إلى خروج الإمام للصلاة . وقال سفيان: هو التكبير يوم الفطر . زيد بن أسلم : يكبّرون إذا خرجوا إلى المُصَلَّى فإذا آنقضت الصلاة آنقضى العيد . وهذا مذهب مالك ، قال مالك : هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام . وروى آبن القاسم وعلىّ بن زياد : أنه إن خرج قبل طلوع الشمس فلا يكبّر فى طريقه

(١) فى نسخ الأصـل وكتاب سيبويه و إعراب القرآن للنحاس : « غير » بالراء . والتصويب عن اللسان مادة « شجج » .

(٢) كذا فى كتاب سيبويه و إعراب القرآن للنحاس واللسان . وساره يريد « سائره » نخفف بحذف الهمزة ، ومثله هار وأصله هائر، وشاك وأصله شائك . وفى الأصول « شاده » بالشين المعجمة والدال وهو تصحيف . وبهذا يعلم أن تفسير المؤلف وقع لكلمة مصحفة .

والآى (جمع آية) وهى علامات الديار . والرواكد : الأثافى . والهباء هنـا : الغبار . وأراد بالمشجج وتدا من أوتاد الخيام؛ وتشجيجه ضرب رأسه ليثبت . وسواء قذاله : وسطه . ويروى : سواد قذاله ، وسواد كل شىء شخصه . وأراد بالقذال أعلاه ، وهو أيضا جماع مؤخر الرأس من الإنسان . والمعزاء : أرض صلبة ذات حصى . (راجع شرح الشواهد للشنتمرى) .

Marfat.com

ولا جلوسه حتى تطلع الشمس ، وإن غدا بعد الطلوع فليكبّر في طريقه إلى المُصلَّى وإذا جلس حتى يخرج الإمام. والفطر والأضحى في ذلك سواء عند مالك، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة : يُكبِّر في الأضحى ولا يُكبّر في الفطر، والدليل عليه قوله تعالى : « وَلِتُكَبِّرُوا اللّهَ » ولأن هذا يوم عيد لا يتكرّر في العام فسُنّ التكبير في الخروج إليه كالأضحى . وروى الدَّارَقُطْنيّ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ قال : كانوا في التكبير في الفطر أشدّ منهم في الأضحى . ورُوِيَ عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبّر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتي المُصلَّى . وروى عن ابن عمر : أنه كان إذا غدا يوم الأضحى ويوم الفطر يجهر بالتكبير حتى يأتي المصلَّى ثم يكبّر حتى يأتي الإمام . وأكثر أهل العلم على التكبير في عيد الفطر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم فيما ذكر ابن المنذر قال : وحكى ذلك الأوزاعي عن إلياس . وكان الشافعيّ يقول إذا رأى هلال شوّال : أحببت أن يكبّر الناس جماعةً وفرادى، ولا يزالون يكبّرون ويُظهرون التكبير حتى يغدوا إلى المصلّى وحين يخرج الإمام إلى الصلاة، وكذلك أحبّ ليلة الأضحى لمن لم يحج . وسيأتي حكم صلاة العيدَيْن والتكبير فيهما في « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى » و « الكوثر »[1] إن شاء الله تعالى .

الموفيــة عشرين — ولفظ التكبير عند مالك وجماعة من العلماء : الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ثلاثًا؛ وروى عن جابر بن عبد الله . ومن العلماء من يكبّر ويُهلّل ويُسبّح أثناء التكبير . ومنهم من يقول : الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بُكرةً وأصيلا . وكان ابن المبارك يقول إذا خرج من يوم الفطر : الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا . قال ابن المنذر : وكان مالك لا يَحُدّ فيه حدّا . وقال أحمد : هو واسع . قال ابن العربي : «واختار علماؤنا التكبير المطلق، وهو ظاهر القرآن وإليه أميل» .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ قيل : لما ضلّ فيه النصارى[2] من تبديل صيامهم . وقيل : بدلًا عمّا كانت الجاهلية تفعله من التفاخر بالآباء والتظاهر

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢ وص ٢١٨ (٢) في بعض الأصول : « كآبهم » .

Marfat.com

بالأحساب وتعديد المناقب . وقيل : لتعظموه على ما أرشدكم إليه من الشرائع؛ فهو عام .
وتقدّم معنى « ولعلكم تشكرون »(١) .

قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ المعنى وإذا سألوك عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعة ويجيب الداعى، ويعلم ما يفعله العبد من صوم وصلاة وغير ذلك . واختلف فى سبب نزولها ؛ فقال مقاتل : إن عمر رضى الله عنه واقع امرأته بعدما صلّى العشاء فندم على ذلك و بكى ؛ وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتمّا ؛ وكان ذلك قبل نزول الرخصة؛ فنزلت هذه الآية : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ » . وقيل : لما وجب عليهم فى الابتداء ترك الأكل بعد النوم فأكل بعضهم ثم ندم ؛ فنزلت هذه الآية فى قبول التوبة ونسخ ذلك الحكم؛ على ما يأتى بيانه(٢) . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربّنا دعاءنا ، وأنت تزعم أن بيننا و بين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية . وقال الحسن : سببها أن قومًا قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أقريب ربّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت . وقال عطاء وقتادة : لما نزلت : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(٣) قال قوم : فى أىّ ساعة ندعوه ؟ فنزلت .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ أى بالإجابة . وقيل بالعلم . وقيل : قريب من أوليائى بالإفضال والإنعام .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أى أقبل عبادة من عبدنى؛ فالدعاء بمعنى العبادة، والإجابة بمعنى القبول . دليله ما رواه أبو داود عن النّعمان بن بَشير عن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٧، ٣٩٧ طبعة ثانية . (٢) راجع ص ٣١٤ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الدعاء هو العبادة قال ربكم ٱدعونى أستجب لكم" فسُمّى الدعاء عبادة؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»(١) أى دعائى . فأمر تعالى بالدعاء وحض عليه وسمّاه عبادة، ووعد بأن يستجيب لهم . روى لَيث عن شَهر بن حَوْشَب عن عُبادة بن الصّامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أُعطِيَتْ أمتى ثلاثًا لم تُعط إلا الأنبياءَ كان الله إذا بعث نبيًّا قال آدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة آدعونى أستجب لكم وكان الله إذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك فى الدِّين من حَرج وقال لهذه الأمة ما جعل عليكم فى الدِّين من حرج وكان الله إذا بعث النبيّ جعله شهيدًا على قومه وجعل هذه الأمة شُهداءَ على الناس" . وكان خالد الرَّبَعيّ يقول : عجبت لهذه الأمة فى «ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شَرْط . قال له قائل مثل ماذا ؟ قال مثل قوله : «وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ»(٢) فها هنا شَرْط، وقوله : «وبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ»(٣) فليس فيه شَرْط العمل، ومثل قوله : «فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ»(٤) فها هنا شرط، وقوله : «ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» ليس فيه شرط . وكانت الأمم تفزع إلى أنبيائها فى حوائجهم حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك .

فإن قيل : فما للداعى قد يدعو فلا يُجاب ؟ فالجواب أن يُعلم أن قوله الحق فى الآيتين «أُجيب» «أَسْتَجِبْ» لا يقتضى الاستجابة مطلقًا لكل داعٍ على التفصيل، ولا بكلّ مطلوب على التفصيل، فقد قال ربّنا تبارك وتعالى فى آية أخرى : «ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ»(٥) وكلّ مُصِرّ على كبيرة عالمًا بها أو جاهلًا فهو مُعْتَد، وقد أخبر أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب له . وأنواع الاعتداء كثيرة، يأتى بيانها هنا وفى «الأعراف» إن شاء الله تعالى . وقال بعض العلماء : أجيب إن شئتُ، كما قال : «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ»(٦) فيكون هذا من باب المطلق والمقيد . وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ثلاث فأُعطى ٱثنتين ومُنع واحدة، على ما يأتى بيانه فى «الأنعام» إن شاء الله تعالى . وقيل : إنما مقصود هذا الإخبار

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٦
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٣

Marfat.com

تعريف جميع المؤمنين أن هذا وصف ربهم سبحانه أنه يجيب دعاء الداعين فى الجملة ، وأنه قريب من العبد يسمع دعاءه ويعلم آضطراره فيجيبه بمـا شاء وكيف شاء « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ »[1] الآية . وقـد يجيب السيّدُ عبدَه والوالدُ ولدَه ثم لا يعطيه سُؤْله . فالإجابة كانت حاصلة لا محالة عند وجود الدعوة ؛ لأن أجيب وأستجيب خبر لا يُنسخ فيصير المخبر كذابا . يدلّ على هذا التأويل ما روى آبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من فُتح له فى الدعاء فُتحت له أبواب الإجابة " . وأوحى الله تعالى إلى داود : أنْ قل للظلمة من عبادى لا يدعونى فإنى أوْجبت على نفسى أن أجيب من دعانى وإنى إذا أجبت الظلمة لعنتهم . وقال قوم : إن الله يجيب كلّ الدعاء؛ فإمّا أن تظهر الإجابة فى الدنيا، وإمّا أن يكفّر عنه ، وإمّا أن يدّخر له فى الآخرة؛ لمـا رواه أبو سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رَحِم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إمّا أن يُعجّل له دعوته وإمّا أن يدّخر له وإمّا أن يكفّ عنه من السوء مثلها " . قالوا : إذن نُكثر؟ قال : " الله أكثر " . خرّجه أبو عمر بن عبـد البر، وصححه أبو محمـد عبد الحق ، وهو فى الموطّأ منقطع السّـند . قال أبو عمر : وهـذا الحديث يخرج فى التفسير المسند لقول الله تعالى « آدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » فهذا كله من الإجابة . وقال آبن عباس : كل عبد دعا أستجيب له ؛ فإن كان الذى يدعو به رزقًا له فى الدنيا أعطيَه ، وإن لم يكن رزقًا له فى الدنيا ذُخِر له .

قلت : وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ وإن كان إذنًا بالإجابة فى إحدى ثلاث فقد دلّك على صحة ما تقدم من آجتناب الاعتداء المـانع من الإجابة حيث قال فيه : " ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم" وزاد مسلم : "مالم يَستعجل". رواه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يزال يُستجاب للعبـد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم ما لم يَستعجل — قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال — يقول قـد دَعوتُ وقد دَعوتُ فـلم أر يستجيب لى فيستحسر[2] عند ذلك ويَدَعُ الدعاء". وروى البخارىّ ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة أن رسول

(١) راجع ج ١٦ ص ١٨٣ . (٢) يستحسر : ينقطع عن الدعاء ويمله .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل يقول دَعوتُ فلم يُستجب لى".
قال علماؤنا رحمة الله عليهم: يحتمل قوله "يُستجاب لأحدكم" الإخبار عن [وجوب](1) وقوع الإجابة، والإخبار عن جواز وقوعها؛ فإذا كان بمعنى الإخبار عن الوجوب والوقوع فإن الإجابة تكون بمعنى الثلاثة الأشياء المتقدمة. فإذا قال: قد دعوت فلم يُستجب لى، بطل وقوع أحد هذه الثلاثة الأشياء وعَرِىَ الدعاء من جميعها. وإن كان بمعنى جواز الإجابة فإن الإجابة حينئذ تكون بفعل ما دعا به خاصّة، ويمنع من ذلك قول الداعى: قد دعوتُ فلم يُستجب لى؛ لأن ذلك من باب القنوط وضعف اليقين والسّخط.

قلت: ويمنع من إجابة الدعاء أيضا أكل الحرام وما كان فى معناه؛ قال صلى الله عليه وسلم: "الرجل يُطيل السّفرَ أشعثَ أغبَر يمد يديه إلى السماء يا رَبّ يا رَبّ ومَطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك" وهذا آستفهام على جهة الآستبعاد من قبول دعاء مَن هذه صفته، فإن إجابة الدعاء لا بدّ لها من شروط فى الداعى وفى الدعاء وفى الشيء المدعو به. فمن شَرْط الداعى أن يكون عالما بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته ومسخّرة بتسخيره، وأن يدعو بنيّة صادقة وحضور قلب، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام، وألا يمل من الدعاء. ومن شَرط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا؛ كما قال: "ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم" فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل فى الرَّحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ: شروط الدعاء سبعة: أولها التضرّع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال. وقال آبن عطاء: إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا؛ فإن وافق أركانه قَوِىَ، وإن وافق أجنحته طار فى السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح. فأركانه حضور القلب والرأفة والآستكانة والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه

(1) زيادة عن الموطأ يقتضيها السياق.

Marfat.com

وسلم . وقيل : شرائطه أربع — أولها حفظ القلب عند الوحدة، وحفظ اللسان مع الخلق، وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يَحِلّ ، وحفظ البطن من الحرام . وقد قيل : إنّ مِن شَرْط الدعاء أن يكون سليمًا من اللّحن ؛ كما أنشد بعضهم :

ينـادى ربَّه باللّحن لَيْثٌ ✻ كذاك إذا دعاه لا يجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنـا ؟ قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرســول فلم تتّبعوا سُـنّته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نِعم الله فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له ،ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم وآشتغلتم بعيوب الناس . قال عليّ رضى الله عنه لنَوْف البِكَالِيّ : يا نَوْف ، إن الله أوحى إلى داود أن مُرْ بنى إسرائيل ألّا يدخلوا بيتًا من بيوتى إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيدٍ نقيّة؛ فإنى لا أستجيب لأحد منهـم ، ما دام لأحد من خلق مظلمة . يا نوف ، لا تكونن شاعرًا ولا عَرِيفًا ولا شرطيًا ولا جابيًا ولا عَشّارًا [1] ، فإن داود قام فى ساعة من الليل فقال : إنها ساعة لا يدعو عبـد إلّا آستجيب له فيها ، إلا أن يكون عَرِيفًا أو شرطيًا أو جابيًا أو عَشّارًا، أو صاحب عَرْطَبَة ، وهى الطُّنبور، أو صاحب كُوبة، وهى الطبل . قال علماؤنا : ولا يَقُل الداعى : اللّهُمّ أعطنى إن شئتَ، اللّهُمّ آغفرلى إن شئتَ، اللّهمّ آرحمنى إن شئتَ؛ بل يَعرى سؤاله ودعاءه من لفظ المشيئة، ويسأل سؤال من يعلم أنه لا يفعل إلا أن يشاء . وأيضا فإن فى قوله : « إن شئت » نوع من الآستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته؛ كقول القائل : إن شئت أن تعطينى كذا فآفعل؛ لا يستعمل هذا إلا مع الغنيّ عنه، وأما المضطر إليه فإنه يعزم فى مسألته ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله . روى الأئمة واللفظ للبخاريّ عن أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليه وسـلم : ” إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولنّ

(١) العريف : الذى يلى أمور طائفة من الناس ويتعرف أمورهم ويبلغها للأمير. والشرطى (كتركى وجهنى) : هم أعوان الحاكم . والعشار : من يتولى أخذ أعشار الأموال .

Marfat.com

اللهم إن شئت فأعطني فإنه لا مستكره له ". وفي الموطأ : " اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت". قال علماؤنا : قوله "فليعزم المسألة" دليل على أنه ينبغي للؤمن أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله؛ لأنه يدعو كريما. قال سفيان ابن عيينة : لا يمنعن أحدا من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس؛ قال : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون؛ قال فإنك من المنظرين. وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك كالسحر ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء، وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض، وعند نزول المطر والصف في سبيل الله. كل هذا جاءت به الآثار، ويأتي بيانها في مواضعها. وروى شهر بن حوشب أن أم الدرداء قالت له : يا شهر، ألا تجد القشعريرة؟ قلت نعم. قالت : فادع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك. وقال جابر بن عبد الله : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد الفتح ثلاثا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور في وجهه. قال جابر : ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة.

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ قال أبو رجاء الخراساني : فليدعوا لي. وقال ابن عطية : المعنى فليطلبوا أن أجيبهم. وهذا هو باب « استفعل » أي طلب الشيء إلا ما شذ، مثل استغنى الله. وقال مجاهد وغيره : المعنى فليجيبوا إلي فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي الطاعة والعمل. ويقال : أجاب واستجاب بمعنى؛ ومنه قول الشاعر :

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب *

أي لم يجبه. والسين زائدة واللام لام الأمر. وكذا « وَلْيُؤْمِنُوا » وجزمت لام الأمر لأنها تجعل الفعل مستقبلا لا غير، فأشبهت إن التي للشرط. وقيل : لأنها لا تقع إلا على الفعل. والرشاد خلاف الغي. وقد رشد يرشد رشدا، ورشد (بالكسر) يرشد رشدا، لغة فيه. وأرشده الله. والمراشد : مقاصد الطرق. والطريق الأرشد : نحو الأقصد. وتقول :

Marfat.com

هو لرِشْدةٍ(١) . خلاف قولك : لزِنْيَة . وأمُّ راشد : كُنية للفأرة . وبنو رَشْـدان : بطن من العرب؛ عن الجوهرى . وقال الهَرَوى : الرُّشْد والرَّشَد والرشاد : الهدى والاستقامة؛ ومنه قوله : « لعلّهم يرشُدون » .

قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

فيه ست وثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ لفظ « أُحِلَّ » يقتضى أنه كان محرّماً قبل ذلك ثم نُسخ . روى أبو داود عن ابن أبى لَيْلَى قال وحدّثنا أصحابنا قال : وكان الرجل إذا أفطر(٢) فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح، قال : فجاء عمر فأراد امرأته فقالت : إنى قد نمت؛ فظن أنها تعتلّ فأتاها . فجاء رجل من الأنصار فأراد طعاماً فقالوا : حتى نسخّن له شيئا فنام؛ فلما أصبحوا أُنزلت هذه الآية، وفيها « أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » . وروى البخارىّ عن البراء قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يُفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمسى ، وأن قيس بن صِرْمة الأنصارى كان صائماً — وفى رواية : كان يعمل فى النخيل بالنهار وكان صائماً — فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت لا، ولكن أنطلقُ فأطلب لك؛ وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته قالت : خَيْبَةً لك ! فلما

(١) بكسر الراء وقد تفتح؛ ومعناه : إذا كان لنكاح صحيح .
(٢) الذى فى سنن أبى داود : « إذا صام فنام ... » .

Marfat.com

انتصف النهار غُشيَ عليه، فذُكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» ففرحوا فرحا شديدا، ونزلت: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ». وفي البخاري أيضا عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله تعالى: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ». يقال: خان واختان بمعنًى من الخيانة، أي تخونون أنفسكم بالمباشرة في ليالي الصوم. ومن عصى الله فقد خان نفسه إذ جلب إليها العقاب. وقال القُتَبيّ: أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدّي الأمانة فيه. وذكر الطبري: أن عمر رضي الله تعالى عنه رجع من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سَمَر عنده ليلةً فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت له: قد نمت؛ فقال لها: ما نمتِ، فوقع بها. وصنع كعب بن مالك مثله؛ فغدا عمر على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: أعتذر إلى الله وإليك؛ فإن نفسي زيّنت لي فواقعت أهلي؛ فهل تجد لي من رخصة؟ فقال لي: "لم تكن حقيقًا بذلك يا عمر" فلما بلغ بيته أرسل إليه فأنبأه بعذره في آية من القرآن. وذكره النحاس ومكيّ، وأن عمر نام ثم وقع بامرأته، وأنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فنزلت: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ» الآية.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ «ليلةَ» نصب على الظرف، وهي اسم جنس فلذلك أُفردت. والرَّفث: كناية عن الجماع لأن الله عز وجل كريم يَكْني؛ قاله ابن عباس والسُّدّي. وقال الزجاج: الرَّفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته؛ وقاله الأزهري أيضا. وقال ابن عرفة: الرَّفث هاهنا الجماع. والرفث: التصريح بذكر الجماع والإعراب به. قال الشاعر:

وَيُرَيْنَ من أُنْس الحديث زوانيا　*　وبهنّ عن رَفَث الرجال نِفارُ

وقيل: الرفث أصله قول الفُحش؛ يقال: رَفَث وأرفث إذا تكلم بالقبيح؛ ومنه قول الشاعر:

ورُبَّ أسرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ　*　عن اللَّغا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

Marfat.com

وتعدّى « الرَّفث » بإلى فى قوله تعالى جدّه : « الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » . وأنت لا تقول : رفثت إلى النساء ، ولكنه جىء به محمولًا على الإفضاء الذى يراد به الملابسة فى مثل قوله : « وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » (١) . ومن هذا المعنى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » (٢) كما تقدّم . وقوله : « يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا » (٣) أى يوقد ، لأنك تقول : أحميت الحديدة فى النار ، وسيأتى ، ومنه قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » (٤) حُمل على معنى يخرفون عن أمره أو يروغون عن أمره ؛ لأنك تقول : خالفت زيدًا . ومثله قوله تعالى : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » (٥) ، حُمل على معنى رءوف فى نحو « بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (٦) ؛ ألا ترى أنك تقول : رؤفت به ، ولا تقول رحمت به ؛ ولكنه لما وافقه فى المعنى نزل منزلته فى التعدية . ومن هذا الضرب قول أبى كَبير الهُذَلِىّ :

حَمَلتْ به فى ليلة مَزْءُودة (٧) * كَرْهًا وعَقد نِطاقها لم يُحلل

عدّى « حملتْ » بالباء ، وحقّه أن يصل إلى المفعول بنفسه ؛ كما جاء فى التنزيل : « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » (٨) ولكنه قال : حملت به ؛ لأنه فى معنى حَبِلت به .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، وشُدّدت النون من « هنّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر . ﴿ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ أصل اللباس فى الثياب ، ثم سُمّى امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسًا ، لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهًا بالثوب . وقال النابغة الجَعْدىّ :

إذا ما الضَّجيعُ ثَنَى جِيدَها * تَداعتْ فكانت عليه لِبَاسًا

وقال أيضا :

لَبِستُ أُناسًا فأفنيتُهم * وأفنيتُ بعد أُناسٍ أناسًا

وقال بعضهم : يقال لما ستر الشىء وداراه : لباس . فجائز أن يكون كل واحد منهما سترًا لصاحبه عما لا يحلّ ، كما ورد فى الخبر . وقيل : لأن كل واحد منهما سِتْرٌ لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع من أبصار الناس . وقال أبو عبيد وغيره : يقال للمرأة هى لباسك وفراشك وإزارك . قال رجل لعمر بن الخطاب :

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٢ (٢) جـ ١ ص ٢٠٦ (٣) جـ ٨ ص ١٢٩ (٤) جـ ١٢ ص ٣٢٢
(٥) جـ ١٤ ص ١٩٨ (٦) جـ ٨ ص ٣٠٢ (٧) مزءودة : فزعة . (٨) جـ ١٦ ص ١٩٣

Marfat.com

ألا أبلــغ أبا حَفصٍ رســولاً * فدًى لك من أخى ثقةٍ إزارى

قال أبو عبيــد : أى نسائى . وقيل نفسى . وقال الربيع : هن فراش لــكم ، وأنتم لحاف لهن . مجاهد : أى سكن لكم ؛ أى يسكن بعضكم إلى بعض .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يستأمر بعضكم بعضًا في مواقعة المحظور من الجماع والأكل بعد النوم في ليالى الصوم؛ كقوله تعالى : « تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ » يعنى يقتل بعضكم بعضًا . ويحتمل أن يريد به كل واحد منهم في نفسه بأنه يخونها ؛ وسمّاه خائنًا لنفسه من حيث كان ضرره عائدًا عليه ، كما تقدم . وقوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما — قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم . والآخر — التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة ؛ كقوله تعالى : « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ »[1] يعنى خفّف عنكم . وقوله عقيب القتل الخطأ : « فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ »[2] يعنى تخفيفًا ؛ لأن القاتل خطأ لم يفعل شيئًا تلزمه التوبة منه ، وقال تعالى : « لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ »[3] وإن لم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم ما يوجب التوبة منه . وقوله : ﴿ فَعَفَا عَنكُمْ ﴾ يحتمل العفو من الذنب ، ويحتمل التوسعة والتسهيل ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم : "أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله" يعنى تسهيله وتوسعته . فمعنى « عَلِمَ اللَّهُ » أى علم وقوع هذا منكم مشاهدة « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » بعد ما وقع ، أى خفّف عنكم « وَعَفَا » أى سهل . و « تَخْتَانُونَ » من الخيانة ، كما تقدم . قال ابن العربى : « وقال علماء الزهد : وكذا فلتكن العناية وشرف المنزلة ، خان نفسه عمر رضى الله عنه فجعلها الله تعالى شريعة ، وخفّف من أجله عن الأمة فرضى الله عنه وأرضاه » .

قوله تعالى : ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ كناية عن الجماع ؛ أى قد أحلّ لكم ما حرم عليكم . وسمّى الوقاع مباشرة لتلاصق البشرتين فيــه . قال ابن العربى : « وهذا يدلّ على أن سبب الآية جماع عمر رضى الله عنه لا جوع قيس ؛ لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال : فالآن كلوا ؛ ابتدأ به لأنه المهم الذى نزلت الآية لأجله .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٥١   (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٢٧   (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧

Marfat.com

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال آبن عباس ومجاهد والحكم آبن عُيَينة وعكرمة والحسن والسُّدىّ والربيع والضحاك : معناه وآبتغوا الولد ؛ يدلّ عليه أنه عقيب قوله : « فَٱلْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » . وقال آبن عباس : ما كتب الله لنا هو القرآن . الزجاج : أى آبتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه وأمرتم به . وروى عن آبن عباس ومعاذ بن جبل أن المعنى وآبتغوا ليلة القدر . وقيل : المعنى آطلبوا الرخصة والتوسعة ؛ قاله قتادة . قال آبن عطية : وهو قول حسن . وقيل : « ٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ » من الإماء والزَّوْجات . وقرأ الحسن البصرى والحسن بن قرة « وآتبعوا » من الاتبـاع ، وجوّزها آبن عباس ، ورجّح « آبتغوا » من الابتغـاء .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ هذا جواب نازلة قَيْس ، والأوّل جواب عمر ، وقد آبتدأ بنازلة عمر لأنه المهمّ فهو المقدّم .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ « حتّى » غاية للتبيين ، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر . وآختُلف فى الحدّ الذى بتبيّنه يجب الإمسـاك ؛ فقال الجمهور : ذلك الفجر المعترض فى الأفق يَمْنَةً ويَسْرة ؛ وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار . روى مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لا يغرّنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير[1] هكذا " . وحكاه حمّاد[2] بيديه قال : يعنى معترضًا . وفى حديث آبن مسعود : " إن الفجر ليس الذى يقول[3] هكذا — وجمع أصابعه ثم نكسها إلى الأرض — ولكن الذى يقول هكذا — ووَضع المُسَبِّحَة على المُسَبِّحَة ومدّ يديه " . وروى الدَّارَقُطْنى عن عبد الرحمن بن عباس أنه بلغه أن رسول الله

---

(١) يستطير : أى ينتشر ضوءه و يعترض فى الأفق بخلاف المستطيل ، والاستطارة هـذه تكون بعد غيبوبة ذلك المستطيل . (٢) حماد هذا هو حماد بن زيد أحد رجال سند هـذا الحديث . (٣) قال ابن الأثير فى النهاية : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى مشى . وقال بثوبه ، أى رفعه ؛ وكل ذلك على المجاز والاتساع » فمعنى يقول هنا : يظهر .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم قال : " هما فجران فأما الذى كأنه ذَنَبُ السِّرحان(١) فإنه لا يُحِلّ شيئاً ولا يحرّمه وأما المستطيل الذى عارض الأفق ففيه تَحِلّ الصلاة ويَحرم الطعام " هذا مرسل .
وقالت طائفة : ذلك بعد طلوع الفجر وتبيّنه فى الطُّرق والبيوت ؛ روى ذلك عن عمر(٢) وحذيفة وآبن عباس وطَلْق بن عليّ وعطاء بن أبى رَباح والأعمش سليمان وغيرهم أن الإمساك يجب بتبيين الفجر فى الطُّرق وعلى رءوس الجبال . وقال مسروق : لم يكن يعدّون الفجر فجركم إنما كانوا يعدّون الفجر الذى يملأ البيوت . وروى النسائى عن عاصم عن زِرّ قال قلنا لحذيفة : أى ساعة تسحّرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن طَلْق بن عليّ أن نبيّ الله قال : " كلوا وآشربوا ولا يَغُرّنكم الساطع المصعد وكلوا وآشربوا حتى يعرض لكم الأحمر " . قال الدّارقطنيّ : [قيس بن طلق](٣) ليس بالقويّ . وقال أبو داود : هذا مما تفرّد به أهل اليمامة . قال الطبرى : والذى قادهم إلى هذا أن الصوم إنما هو فى النهار ، والنهار عندهم من طلوع الشمس ، وآخره غروبها ؛ وقد مضى(٤) الخلاف فى هذا بين اللغويين . وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " إنما هو سواد الليل وبياض النهار " الفيصل فى ذلك ، وقوله « أيّاماً مَعْدُودَاتٍ » .
وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عائشة رضى الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يبيّت الصيام قبل طلوع الفجر فلا صيام له " . تفرّد به عبد الله بن عباد عن المفضّل بن فضالة بهذا الإسناد ؛ وكلهم ثقات . وروى عن حفصة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له " . رفعه عبد الله بن أبى بكر وهو من الثقات الرفعاء ، وروى عن حفصة مرفوعاً من قولها . ففى هذين الحديثين دليل على ما قاله الجمهور فى الفجر . ومنع من الصيام دون نيّة قبل الفجر ، خلافاً لقول أبى حنيفة ، وهى :

الثامنة — وذلك أن الصيام من جملة العبادات فلا يصح إلا بنيّة ، وقد وقّتها الشارع قبل الفجر ، فكيف يقال : إن الأكل والشرب بعد الفجر جائز . وروى البخاريّ ومسلم عن

(١) السرحان (بكسر فسكون) : الذئب ، وقيل : الأسد ؛ وجمعه سراح وسراحين .
(٢) فى بعض النسخ : « عثمان » .　　(٣) التكلة عن سنن الدارقطنى يقتضيها السياق .
(٤) تراجع المسألة الثانية ص ١٩٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

سهل بن سعد قال : نزلت «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» ولم ينزل « من الفجر » وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيّن له رؤيتهما ؛ فأنزل الله بعدُ « مِنَ الْفَجْرِ » فعلموا أنه إنما يعنى بذلك بياض النهار . وعن عَدِىّ بن حاتم قال قلت : يارسول الله ، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: " إنك لعريض القفا[1] إن أبصرتَ الخيطين — ثم قال — لا بل هو سواد الليل وبياض النهار " . أخرجه البخارىّ . وسُمِّىَ الفجر خيطًا لأن مايبدو من البياض يُرى ممتدًا كالخيط . قال الشاعر :

الخيط الأبيضُ ضوءُ الصبح مُنْفَلِقٌ * والخيطُ الأسودُ جنحُ الليل مكتومُ

والخيط فى كلامهم عبارة عن اللون . والفجر مصدر فجرت الماء أفجره فجرًا إذا جرى وانبعث ، وأصله الشق ؛ فلذلك قيل للطالع من تباشير ضياء الشمس من مطلعها : فجرا لانبعاث ضوئه ، وهو أوّل بياض النهار الظاهر المستطير فى الأفق المنتشر، تسمّيه العرب الخيط الأبيض، كما بيّنا . قال أبو دُواد الإيادىّ :

فلما أضاءتْ لنا سُدْفَةٌ[2] * ولاح من الصّبح خَيْطٌ أنارا

وقال آخر :

قد كاد يبدو وبدت تباشره * وسَدَفُ الليل البهيم ساتره

وقد تسمّيه أيضا الصّديع ؛ ومنه قولهم : انصدع الفجر . قال بشر بن أبى خازم أو عمرو ابن معديكرب :

ترى السِّرحانَ مفترشًا يديه * كأن بياضَ لَبَّتِهِ صَدِيعُ

وشبهه الشّماخ بمفرق الرأس فقال :

إذا ما الليل كان الصبح فيه * أشق كمفرق الرأس الدهين

---

(١) القفا العريض يستدل به على قلة فطنة الرجل . (٢) السدفة (بضم السين وفتحها وسكون الدال) : فى لغة نجد ظلمة الليل ، وفى لغة غيرهم الضوء ، وهو من الأضداد .

Marfat.com

و يقولون فى الأمر الواضح : هـذا كفَلَق الصـبح ، وكانبلاج الفجر ، وتباشير الصـبح . قال الشاعر :

فوردتْ قبل آنبلاج الفجرِ * وآبنُ ذكاءَ كامنٌ فى كَفْرِ(1)

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ جعل الله جلّ ذكره الليل ظرفًا للأكل والشرب والجماع، والنهارَ ظرفا للصيام؛ فبيّن أحكام الزمانين وغاير بينهما . فلا يجوز فى اليوم شىء ممـا أباحه بالليل إلا لمسافر أو مريض، كما تقدّم بيانه . فمن أفطر فى رمضان من غير مَن ذُكر فلا يخلو إمّا أن يكون عامدًا أو ناسيًا؛ فإن كان الأوّل فقال مالك : من أفطر فى رمضان عامدًا بأكل أو شرب أو جماع فعليه القضاء والكفارة؛ لمـا رواه مالك فى مُوَطَّئه، ومسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رجلا أفطر فى رمضان فأمره رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أن يكفّر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا، الحديث . و بهذا قال الشعبىّ . وقال الشافعى وغيره : إن هذه الكفارة إنما تختصّ بمن أفطر بالجماع؛ لحديث أبى هريرة أيضا قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ يا رسول الله ! قال : "وما أهلكك" قال : وقعتُ على آمرأتى فى رمضان، الحديث . وفيـه ذكر الكفارة على الترتيب؛ أخرجه مسـلم . وحملوا هـذه القضية على القضية الأولى فقالوا : هى واحدة؛ وهذا غير مسلَّم به بل هما قضيّتان مختلفتان؛ لأن مساقهما مختلف، وقد علّق الكفارة على من أفطر مجرّدًا عن القيود فلزم مطلقًا . و بهـذا قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ و إسحاق وأبو ثور والطبرى وآبن المنذر ، وروى ذلك عن عطاء فى رواية ، وعن الحسن والزهرىّ . و يلزم الشافعىّ القول به فإنه يقول : ترك الاستفصال مع تعـارض الأحوال يدل على عموم الحكم . وأوجب الشافعىّ عليه مع القضاء العقوبةَ لآنتهاك حرمة الشهر .

العاشــرة — وآختلفوا أيضا فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى شهر رمضان؛ فقال مالك وأبو يوسف وأصحاب الرأى : عليها مثـل ما على الزوج . وقال الشافعى : ليس عليها

(1) قائل هـذا البيت هو حميد الأرقط؛ كما فى الصحاح . وذكاء (بالضم) : اسم الشمس ، و يقال للصبح : آبن ذكاء لأنه من ضوئها . والكفر (بالفتح) : ظلمة الليل وسواده .

Marfat.com

إلا كفارة واحدة ، وسواء طاوعته أو أكرهها ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أجاب السائل بكفارة واحدة ولم يفصّل. وروى عن أبي حنيفة : إن طاوعته فعلى كل واحد منهما كفارة، وإن أكرهها فعليه كفارة واحدة لا غير . وهو قول سُحْنون بن سعيد المـالكي. وقال مالك : عليه كفارتان، وهو تحصيل مذهبه عند جماعة أصحابه .

الحادية عشرة — وآختلفوا أيضا فيمن جامع نـاسـيًا لصومه أو أكل ؛ فقال الشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابه و إسحاق : ليس عليه في الوجهين شيء، لا قضاء ولا كفارة . وقال مالك والليث والأوزاعيّ : عليــه القضاء ولا كفارة ؛ ورُوِيَ مثل ذلك عن عطاء . وقــد روى عن عطاء أن عليه الكفارة إن جامع، وقال: مثل هذا لا يُنسى. وقال قوم من أهل الظاهر: سـواء وَطِئ ناسيا أو عامدًا فعليــه القضاء والكفارة ؛ وهو قول آبن المـاجشون عبد الملك، و إليه ذهب أحمد بن حنبل؛ لأن الحديث الموجب للكفارة لم يفرّق فيه بين الناسي والعامد. قال آبن المنذر : لا شيء عليه .

الثـانية عشرة — قال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأى : إذا أكل ناسيًا فظنّ أن ذلك قد فطّره فجامع عامدًا أن عليه القضاء ولا كفارة عليه . قال آبن المنذر: و به نقول . وقيل في المذهب : عليه القضاء والكفارة إن كان قاصدًا لهتك حُرمة صومه جُرْأةً وتهاوُنًا . قال أبو عمر : وقد كان يجب على أصــل مالك ألّا يكفّر ، لأن من أكل ناسـيًا فهو عنده مفطر يقضي يومه ذلك، فأيّ حرمة هتك وهو مفطر . وعند غير مالك : ليس بمفطر كلُّ من أكل ناسيًا لصومه .

قلت : وهو الصحيح، و به قال الجمهور : إنّ مَن أكل أو شرب نـاسـيًا فلا قضاء عليه و إن صومه تام؛ لحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أكل الصائم ناسيًا أو شرب ناسـيًا فإنما هو رزق ساقه الله تعـالى [إليـه] ولا قضاء عليــه — في رواية — وليتمّ صومه فإن الله أطعمه وسقاه". أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . وقال : إسناد صحيح وكلهم ثقات . قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبـد الله يُسئل عمن أكل ناسيًا في رمضان ؛

Marfat.com

قال : ليس عليه شيء على حديث أبي هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالكًا يقول عليـه القضاء ! وضحك . وقال آبن المنـذر : لا شيء عليه ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن أكل أو شرب ناسيًا : "يتمّ صومه" و إذا قال "يتمّ صومه" فأتمه فهو صومٌ تامّ كامل .

قلت : و إذا كان من أفطر ناسيًا لا قضاء عليه وصومه صومٌ تامٌّ فعليه إذا جامع عامدًا القضاء والكفارة — والله أعلم — كمن لم يفطر ناسيًا . وقد آحتجّ علماؤنا على إيجاب القضاء بأن قالوا : المطلوب منه صيام يوم تام لا يقع فيه خرم؛ لقوله تعالى : «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» وهـذا لم يأت به على التمام فهو باقٍ عليـه؛ ولعل الحديث في صوم التطوع لخفّته . وقد جاء في صحيحي البخاريّ ومسلم : "من نَسِيَ وهو صائم فأكل أو شرب فليتمّ صومه" فلم يذكر قضاء ولا تعرّض له ، بل الذي تعرّض له سقوط المؤاخذة والأمر بمضيّه على صومه و إتمامه؛ هذا إن كان واجبًا فدلّ على ما ذكرناه من القضاء . وأمّا صوم التطوّع فلا قضاء فيـه لمن أكل ناسيًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا قضاء عليه " .

قلت : هذا ما آحتج به علماؤنا وهو صحيح، لولا ما صحّ عن الشارع ما ذكرناه، وقد جاء بالنص الصريح الصحيح وهو ما رواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " من أفطر في شهر رمضان ناسـيًا فلا قضاء عليه ولا كفارة " أخرجه الدّارَقُطْنِيّ وقال : تفرّد به آبن مرزوق وهو ثقة عن الأنصاري؛ فزال الآحتمال وآرتفع الإشكال . والحمد لله ذي الجلال والكمال .

الثـالثة عشرة — لـمـا بيّن سبحانه محظورات الصيام وهي الأكل والشرب والجماع، ولم يذكر المباشرة التي هي آتصال البَشَرة بالبَشَرة كالقُبلة والجَسّة وغيرها ، دلّ ذلك على صحة صوم مَن قَبّل و باشر؛ لأن فحْوَى الكلام إنمـا يدلّ على تحريم ما أباحه الليل وهو الأشياء الثلاثة، ولا دلالة فيه على غيرها بل هو موقوف على الدليل؛ ولذلك شاع الاختلاف فيـه ، وآختلف علماء السلف فيه؛ فمن ذلك المباشرة . قال علماؤنا : يُكره لمن لا يأمن على نفسه ولا يملكها؛ لئلا يكون سببًا إلى ما يفسد الصوم . روى مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان

Marfat.com

ينهى عن القُبلة والمباشرة للصائم؛ وهذا — والله أعلم — خوف ما يحدث عنهما ، فإن قبل وسلم فلا جناح عليـه ، وكذلك إن باشر . وروى البخارى عن عائشة قالت : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُقبِّل ويُباشر وهو صائم . وممن كرِه القُبلة للصائم عبـد الله بن مسعود وعُروة ابن الزبير . وقد رُوى عن ابن مسعود أنه يقضى يومًا مكانه ، والحـديث حجة عليهم . قال أبو عمر : ولا أعلم أحدًا رخّص فيها لمن يعلم أنه يتولّد عليـه منها ما يُفسد صومه ؛ فإن قبّل فأمْنَى فعليه القضاء ولا كفارة ؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن والشافعىّ ، واختاره ابن المنذر وقال : ليس لمن أوجب عليه الكفارة حجة . قال أبو عمر : ولو قبّل فأمْذَى لم يكن عليه شيء عندهم . وقال أحمد : مَن قَبّل فأمْذَى أو أمْنَى فعليه القضـاء ولا كفارة عليه؛ إلا على من جامع فأَوْلج عامدًا أو ناسيًا . وروى ابن القاسم عن مالك فيمن قبّل أو باشر فأنعظ ولم يخرج منه ماء جملةً عليه القضاء . وروى ابن وهب عنه لا قضاء عليه حتى يُمْذِى . قال القاضى أبو محمد : واتفق أصحابنا على أنه لا كفارة عليه . و إن كان مَنِيًّا فهل تلزمه الكفارة مع القضاء؛ فلا يخلو أن يكون قبّل قُبلةً واحدةً فأنزل ، أو قبّل فالتذّ فعاود فأنزل ؛ فإن كان قبّل قُبلة واحدةً أو باشر أو لمس مرّةً فقال أشهب وسُحنون : لا كفارة عليه حتى يكرر . وقال ابن القاسم : يكفّر فى ذلك كله، إلا فى النظر فلا كفارة عليه حتى يكرر . وممن قال بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو باشر أو لاعب امرأته أو جامع دون الفرج فأمْنَى : الحسن البصرى وعطاء وابن المبارك وأبو ثور و إسحاق ، وهو قول مالك فى المدونة . وحجة قول أشهب : أن اللّمس والقُبلة والمباشرة ليست تُفطر فى نفسها، و إنما يبقى أن تؤول إلى الأمر الذى يقع به الفطر، فإذا فعل مرةً واحدةً لم يقصد الإنزال و إفساد الصوم فلا كفارة عليه كالنظر إليها، و إذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليه الكفارة كما لو تكرر النظر . قال اللّخمىّ : واتفق جميعهم فى الإنزال عن النّظر أن لا كفارة عليه إلا أن يتابع . والأصل أنه لا تجب الكفارة إلا على من قصد الفطر وانتهاك حُرمة الصوم، فإذا كان ذلك وجب أن يُنظر إلى عادة من نزل به ذلك، فإذا كان ذلك شأنه أن يُنزل عن قُبـلة أو مباشرة مرةً، أو كانت عادته مختلفةً : مرّةً يُنزل،

Marfat.com

ومرّة لا يُنزل، رأيت عليه الكفارة ؛ لأن فاعل ذلك قاصد لانتهاك صومه أو متعرّض له . وإن كانت عادته السلامة فقُــدّر أن كان منه خلاف العادة لم يكن عليه كفارة، وقد يحتمل قول مالك فى وجوب الكفارة، لأن ذلك لا يجرى إلا ممن يكون ذلك طبعه وآكتفى بما ظهر منه . وحمل أشهب الأمر على الغالب من الناس أنهم يسلمون من ذلك، وقولهم فى النظر دليل على ذلك .

قلت : ما حكاه من الآتفاق فى النّظر وجعله أصلًا ليس كذلك؛ فقد حكى الباجى فى المنتقَى « فإن نظر نظرةً واحدةً يقصد بها اللذة [فأنزل][1] فقد قال الشيخ أبو الحسن : عليه القضاء والكفارة . قال الباجى : وهو الصحيح عندى؛ لأنه إذا قصد بها الآستمتاع كانت كالقُبلة وغير ذلك من أنواع الآستمتاع؛ والله أعلم » . وقال جابر بن زيد والثورىّ والشافعىّ وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن ردّد النظر إلى المرأة حتى أمْنَى : فلا قضاء عليه ولا كفارة؛ قاله آبن المنذر . قال الباجى : وروى فى المدنيّة آبن نافع عن مالك أنه إن نظر إلى آمرأة متجرّدة فآلتذ فأنزل عليه القضاء دون الكفارة .

الرابعة عشرة — والجمهور من العلماء على صحة صوم مَن طلع عليه الفجر وهو جُنب . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : «وذلك جائز إجماعًا، وقد كان وقع فيه بين الصحابة كلام ثم آستقرّ الأمر على أن من أصبح جُنُبًا فإن صومه صحيح » .

قلت : أمّا ما ذُكر من وقوع الكلام فصحيح مشهور، وذلك قول أبى هريرة : من أصبح جُنبًا فلا صوم له؛ أخرجه الموطأ وغيره . وفى كتاب النسائى أنه قال لما روجع : والله ما أنا قلته ، محمد صلى الله عليه وسلم والله قاله . وقد آختلف فى رجوعه عنها ؛ وأشهر قوليه عند أهل العلم أنه لا صوم له ؛ حكاه آبن المنذر، ورُوِىَ عن الحسن بن صالح . وعن أبى هريرة أيضا قول ثالث قال : إذا علم بجنابته ثم نام حتى يصبح فهو مفطر، وإن لم يعلم حتى أصبح

(١) زيادة عن كتاب « المنتقى » يقتضيها السياق .

Marfat.com

فهو صائم؛ رُوِىَ ذلك عن عطاء وطاوس وعُروة بن الزبير . وروى عن الحسن والنخعىّ أن ذلك يجزى فى التطوّع و يقضى فى الفرض .

قلت : فهذه أربعة أقوال للعلماء فيمن أصبح جُنُبًا، والصحيح منها مذهب الجمهور؛ لحديث عائشة رضى الله عنها وأم سَلَمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصبح جُنُبًا من جماع غير آحتلام ثم يصوم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركه الفجر فى رمضان وهو جُنب من غير آحتلام فيغتسل و يصوم؛ أخرجهما البخارىّ ومسلم . وهو الذى يفهم من ضرورة قوله تعالى : « فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » الآية؛ فإنه لما مدّ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر فبالضرورة يعلم أن الفجر يطلع عليه وهو جُنب، و إنما يتأتّى الغسل بعد الفجر . وقد قال الشافعى : ولو كان الذكر داخل المرأة فنزعه مع طلوع الفجر أنه لا قضاء عليه . وقال المُزَنىّ : عليه القضاء لأنه من تمام الجماع؛ والأوّل أصح لما ذكرنا، وهو قول علمائنا .

الخامسة عشرة — وآختلفوا فى الحائض تطهر قبل الفجر وتترك التطهّر حتى تُصبح؛ فجمهورهم على وجوب الصوم عليها و إجزائه، سواء تركته عمدًا أو سهوًا كالجنب؛ وهو قول مالك وآبن القاسم . وقال عبد الملك : إذا طَهُرت الحائض قبل الفجر فأخّرت غسلها حتى طلع الفجر فيومها يوم فطر؛ لأنها فى بعضه غير طاهرة، وليست كالجنب لأن الآحتلام لا ينقض الصوم، والحَيْضة تنقضه . هكذا ذكره أبو الفرج فى كتابه عن عبد الملك . وقال الأوزاعىّ : تقضى لأنها فرّطت فى الآغتسال . وذكر آبن الجلاب عن عبد الملك أنها إن طهرت قبل الفجر فى وقت يمكنها فيه الغسل ففرّطت ولم تغتسل حتى أصبحت لم يضرها كالجنب، و إن كان الوقت ضيّقًا لا تدرك فيه الغسل لم يجز صومها و يومها يوم فطر؛ وقاله مالك، وهى كمن طلع عليها الفجر وهى حائض . وقال محمد بن مسلمة فى هذه : تصوم وتقضى؛ مثل قول الأوزاعى . وروى عنه أنه شذّ فأوجب على من طهرت قبل الفجر ففرّطت وتوانت وتأخّرت حتى تُصبح — الكفارةَ مع القضاء .

Marfat.com

السادسة عشرة — وإذا طهرت المرأة ليـلًا في رمضان فلم تَدْرِ أكان ذلك قبل الفجر أو بعده، صامت وقضت ذلك اليوم آحتياطًا، ولا كفارة عليها.

السابعة عشرة — رُوِىَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفطر الحاجم والمحجوم". من حديث ثَوْبان وحديث شدّاد بن أوس وحديث رافع بن خَدِيج؛ وبه قال أحمد وإسحاق، وصحّح أحمد حديث شدّاد بن أوس، وصحّح علي بن المديني حديث رافع بن خَدِيج. وقال مالك والشافعي والثوري: لا قضاء عليه، إلا أنه يكره له ذلك من أجل التغرير. وفي صحيح مسلم من حديث أنس أنه قيل له: أكنتم تكرهون الحجامة للصائم؟ قال لا، إلا من أجل الضعف. وقال أبو عمر: حديث شدّاد ورافع وثوبان عندنا منسوخ بحديث آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آحتجم صائمًـا مُحرِمًا؛ لأن في حديث شدّاد بن أوس وغيره أنه صلى الله عليه وسلم مرّ عام الفتح على رجل يحتجم لثمـان عشرة ليلة خلت من رمضان فقال: "أفطر الحاجم والمحجوم". وآحتجم هو صلى الله عليه وسلم عامَ حجة الوداع وهو مُحرِم صائم؛ فإذا كانت حجته صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع فهي ناسخة لا محالة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يُدرك بعد ذلك رمضان؛ لأنه تُوُفِّيَ في ربيع الأوّل، صلى الله عليه وسلم.

الثامنـة عشرة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أمْرٌ يقتضي الوجوب من غير خلاف. و «إلى» غاية، فإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلهـا فهو داخل في حكمه؛ كقولك: آشتريت الفدان إلى حاشيته، أو آشتريت منك من هذه الشجرة إلى هذه الشجرة — والمبيع شجر؛ فإن الشجرة داخلة في المبيع. بخلاف قولك: آشتريت الفدان إلى الدار؛ فإن الدار لا تدخل في المحدود إذ ليست من جنسه. فشَرَط تعالى تمـام الصوم حتى يتبيّن الليل، كما جوّز الأكل حتى يتبيّن النهار.

التاسعة عشرة — ومن تمام الصوم آستصحاب النّية دون رفعها، فإنْ رفعها في بعض النهار ونوى الفطر إلا أنه لم يأكل ولم يشرب فجعـله في المدوّنة مفطرًا وعليـه القضاء. وفي كتاب آبن حبيب أنه على صومه؛ قال: ولا يخرجه من الصوم إلا الإفطار بالفعـل وليس بالنية.

Marfat.com

وقيل : عليه القضاء والكفارة . وقال سُحنون : إنمـا يكفّر من بيّت الفطر ، فأمّا من نواه فى نهاره فلا يضره، وإنما يقضى آستحساناً .

قلت : هذا حسن .

الموفّيـة عشرين — قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ إذا تبيّن الليل سنّ الفطر شرعاً، أكل أو لم يأكل . قال آبن العـربى : وقد سـئل الإمام أبو إسحاق الشـيرازى عن رجل حلف بالطلاق ثلاثاً أنه لا يُفطر على حار ولا بارد؛ فأجاب أنه بغروب الشمس مفطرٌ لا شىء عليه؛ وآحتجّ بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاء الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم" . وسئل عنها الإمام أبو نصر بن الصباغ صاحب الشامل فقال : لابدّ أن يفطر على حار أو بارد . وما أجاب به الإمام أبو إسحاق أَوْلى؛ لأنه مقتضى الكتاب والسُّنة .

الحادية والعشرون — فإن ظن أن الشمس قد غَرَبت لغَيْم أو غيره فأفطر ثم ظهرت الشمس فعليـه القضاء فى قول أكثر العلماء . وفى البخارى عن أسمـاء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أفطرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ غَيْم ثم طلعت الشمس، قيل لهشام[1] : فأُمِروا بالقضاء؛ قال : لا بدّ من قضاء ؟ . قال عمر فى الموطأ فى هذا : الخطب يسير، وقد آجتهدنا [فى الوقت][2] يريد القضاء . وروى عن عمر أنه قال: لا قضاء عليه؛ و به قال الحسن البصرى : لا قضاء عليـه كالناسى ؛ وهو قول إسحـاق وأهل الظاهر . وقول الله تعـالى : « إِلَى اللَّيْلِ » يردّ هذا القول، والله أعلم .

الثـانية والعشرون — فإن أفطر وهو شاكٌّ فى غروبهـا كفّر مع القضاء؛ قاله مالك ، إلا أن يكون الأغلب عليه غروبها . ومن شكّ عنده فى طلوع الفجر لزمه الكف عن الأكل؛ فإن أكل مع شكّه فعليه القضاء كالناسى ، لم يختلف فى ذلك قوله . ومن أهل العلم بالمدينـة وغيرها من لا يرى عليـه شيئاً حتى يتبيّن له طلوع الفجر؛ و به قال آبن المنـذر . وقال الكِيَا الطبرى : « وقد ظن قوم أنه إذا أبيح له الفطر إلى أول الفجر فإذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقد أكل بإذن الشرع فى وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه؛ كذلك قال مجاهد وجابر

(١) هو آبن عروة، أحد رجال سند هذا الحديث . (٢) زيادة عن الموطأ .

Marfat.com

ابن زيد . ولا خلاف فى وجوب القضاء إذا غُمّ عليــه الهلال فى أول ليلة من رمضان فأكل ثم بان أنه من رمضان، والذى نحن فيه مثله . وكذلك الأسـير فى دار الحرب إذا أكل ظنًّا أنه من شعبان ثم بان خلافه » .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فيــه ما يقتضى النهى عن الوصال ؛ إذ الليل غاية الصيام؛ وقالته عائشة . وهذا موضعٌ ٱختلف فيه ؛ فمن واصل عبد الله بن الزبير وإبراهيم التَّيمى وأبو الجوزاء وأبو الحسن الدِّينَوَرِىّ وغيرهم . كان ابن الزبير يواصل سبعًا، فإذا أفطر شرب السمن والصبر حتى يفتق أمعاءه، قال: وكانت تيبس أمعاؤه . وكان أبو الجوزاء يواصل سبعة أيام وسبع ليال ولو قَبض على ذراع الرجل الشـديد لحطمها . وظاهر القرآن والسُّنة يقتضى المنع؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من هاهنا فقد أفطر الصائم" . خرّجه مسلم من حديث عبد الله بن أبى أوْفَى . ونهى عن الوصال، فلمــا أبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصــل بهم يومًا ثم يومًا ثم رأوا الهلال فقــال : "لو تأخر الهلال لزدتكم" كالمُنَكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا . أخرجه مسلم عن أبى هريرة . وفى حديث أنس: "لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالاً يَدَعُ المتعمِّقون تعمُّقَهم". خرّجه مسلم أيضا . وقال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والوصال إياكم والوصال" تأكيدًا فى المنع لهم منه، وأخرجه البخارى . وعلى كراهية الوصال — لمــا ذكرنا ولمــا فيه من ضعف القُوَى وإنهاك الأبدان — جمهور العلماء . وقد حرّمه بعضهم لمــا فيه من مخالفة الظاهر والتشبه بأهل الكتاب، قال صلى الله عليه وسلم : "إن فَصْلَ[1] ما بين صيامنا وصيــام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَر" . خرّجه مسـلم وأبو داود . وفى البخارى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تواصلوا فأيُّكم أراد أن يواصل فليواصــل حتى السَّحَر" قالوا : فإنك تواصل يارسـول الله ؟ قال : "لست كهيئتكم إنى أَبِيتُ لِى مُطْعِمٌ يُطعمُنى وساقٍ يَسقينى" . قالوا : وهــذا إباحة لتأخير الفطر إلى السحر، وهو الغاية فى الوصال لمن أراده، ومنعٌ من ٱتصال يوم بيوم؛ وبه قال أحمد

(١) كذا فى صحيح مسلم بالصاد المهملة ، بمعنى الفاصل . وفى سنن أبى داود بالضاد المعجمة .

Marfat.com

و إسحاق وآبن وهب صاحب مالك . واحتجّ من أجاز الوصال بأن قال : إنما كان النهى عن الوصال لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام ، فخشِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلّفوا الوصال وأعلى المقامات فيفتُرُوا أو يضعفوا عما كان أنفع منه من الجهاد والقوّة على العدوّ، ومع حاجتهم فى ذلك الوقت . وكان هو يلتزم فى خاصّة نفسه الوصال وأعلى مقامات الطاعات؛ فلما سألوه عن وصالهم أبدى لهم فارقًا بينه و بينهم، وأعلمهم أن حالته فى ذلك غير حالاتهم فقال : " لستُ مِثلَكم إنّى أَبِيتُ يُطعمنى ربّى ويَسقينى " . فلما كمل الإيمان فى قلوبهم واستحكم فى صدورهم ورسخ، وكثر المسلمون وظهروا على عدوّهم، واصل أولياء الله وألزموا أنفسهم أعلى المقامات ، والله أعلم .

قلت : ترك الوصال مع ظهور الإسلام وقهر الأعداء أوْلى ، وذلك أرفع الدرجات وأعلى المنازل والمقامات ، والدليل على ذلك ما ذكرناه . وأن الليل ليس بزمان صوم شرعى ، حتى لو شرع إنسان فيه الصوم بنيّة ما أثيب عليه ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ما أخبر عن نفسه أنه واصل ، و إنما الصحابة ظنّوا ذلك فقالوا : إنك تواصل؛ فأخبر أنه يُطْعَم ويُسْقَى . وظاهر هذه الحقيقة : أنه صلى الله عليه وسلم يُؤتى بطعام الجنة وشرابها . وقيل : إن ذلك محمول على ما يرد على قلبه من المعانى واللطائف ، و إذا احتمل اللفظ الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يَرِد دليل يزيلها . ثم لما أبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم وهو على عادته كما أخبر عن نفسه ، وهم على عادتهم حتى يضعفوا و يقلّ صبرهم فلا يواصلوا . وهذه حقيقة التنكيل حتى يدعوا تعمّقهم وما أرادوه من التشديد على أنفسهم . وأيضا لو تنزّلنا على أن المراد بقوله : "أطعَم وأُسقَى" المعنى لكان مفطرًا حُكمًا؛ كما أن من آغتاب فى صومه أو شهد بزور مفطرٌ حُكمًا، ولا فرق بينهما ، قال صلى الله عليه وسلم : "مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به فليس لله حاجة فى أنْ يَدَع طعامَه وشرابَه " . وعلى هذا الحدّ ما واصل النبى صلى الله عليه وسلم ولا أمر به ، فكان تَركُه أولى . و بالله التوفيق .

الرابعة والعشرون — و يستحبّ للصائم إذا أفطر أن يُفطر على رُطَبات أو تمرات أو حَسوات من الماء؛ لما رواه أبو داود عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

يُفطر على رُطبات قبل أن يصلّي، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن تمرات حَسَا حَسوات من ماء . وأخرجه الدّارَقُطْنِيّ وقال فيـه : إسناد صحيح . وروى الدّارقطني عن آبن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال : "لك صُمْنا وعلى رِزْقك أفطرنا فتقبّل منّا إنك أنت السميع العليم" . وعن آبن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول إذا أفطر : "ذهب الظمأ وآبتلّت العـروق و ثبت الأجر إن شاء الله" . خرّجه أبو داود أيضا . وقال الدّارقطني : تفرّد به الحسين بن واقد إسـناده حسن . وروى آبن ماجه عن عبد الله بن الزبير قال : أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سعد بن معاذ فقال : "أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة" . وروى أيضا عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فطّر صائمـا كان له مثل أجرهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا" . وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُرَدّ" . قال آبن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللّهُمّ إني أسألك برحمتك التي وَسِعتْ كلّ شيء أن تغفر لي . وفي صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "للصائم فرْحتان يفرحهما إذا أفطر فَرِح بفطره وإذا لَقِيَ ربّه فَرِح بصومه" .

الخامسة والعشرون — ويستحب له أن يصوم من شوّال سـتة أيام؛ لمـا رواه مسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائيّ وآبن ماجه عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "مَن صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شـوّال كان له كصيام الدهر" هـذا حديث حسن صحيح من حديث سـعد بن سعيد الأنصاري المدني، وهو ممن لم يُخرّج له البخاري شيئا ، وقد جاء بإسناد جيّد مفسَّرًا من حديث أبي أسمـاء الرَّحَبِيّ عن ثَوْبان مولَى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "جعل الله الحسنة بعشر أمثالها فشهر رمضان بعشرة أشهر وستة أيام بعد الفطر تمـام السنة" . رواه النسائي . واختلف في صيام هذه الايام؛ فكرهها مالك في مُوَطّئه خوفًا أن يُلحق أهلُ الجهالة برمضان

Marfat.com

ما ليس منه ؛ وقد وقع ما خافه حتى أنه كان فى بعض بلاد خراسان يقومون لسحورها على عادتهم فى رمضان . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه كان يصومها فى خاصّة نفسه . وآستحب صيامها الشافعى، وكرهه أبو يوسف .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ بيّن جلّ تعالى أن الجماع يُفسد الآعتكاف . وأجمع أهل العلم على أن مَن جامع آمرأته وهو معتكف عامدا لذلك فى فرجها أنه مفسد لآعتكافه؛ وآختلفوا فيما عليه إذا فعل ذلك، فقال الحسن البصرىّ والزهرىّ : عليه ما على المواقع أهله فى رمضان . فأما المباشرة من غير جماع فإن قصد بها التلذّذ فهى مكروهة، وإن لم يقصد لم يكره؛ لأن عائشة كانت تُرَجِّل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتكف، وكانت لامحالة تمسّ بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها؛ فدلّ بذلك على أن المباشرة بغير شهوة غير محظورة؛ هذا قول عطاء والشافعى وآبن المنذر . قال أبو عمر : وأجمعوا على أن المعتكف لا يباشر ولا يُقَبِّل . وآختلفوا فيما عليه إن فعل؛ فقال مالك والشافعى : إن فعل شيئًا من ذلك فسد آعتكافه؛ قاله المُزَنىّ . وقال فى موضع آخر من مسائل الآعتكاف : لا يفسد الآعتكاف من الوطء إلا ما يوجب الحدّ؛ وآختاره المُزَنىّ قياسًا على أصله فى الحج والصوم .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . والآعتكاف فى اللغة : الملازمة؛ يقال عَكَف على الشيء إذا لازمه مقبلا عليه . قال الراجز :

* عَكْفَ النَّبِيطِ يلعبون الفَنْزَجَا[(1)] *

وقال الشاعر :

فظلّ بنات الليل حولىَ عكّفا * عكوف البواكى بينهنّ صريع

ولما كان المعتكف ملازمًا للعمل بطاعة الله مدّة آعتكافه لزمه هذا الآسم . وهو فى عرف الشرع : ملازمةُ طاعة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع

(1) تقدّم صدر هذا البيت وقائله ومعناه فى هامش ص ١١٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

مخصوص . وأجمع العلمـاء على أنه ليس بواجب، وهو قُرْبَة من القُرَب ونافلة من النوافل عمل بهـا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه وأزواجه، ويلزمه إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه .

الثامنة والعشرون — أجمـع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد ؛ لقول الله تعـالى « فِي الْمَسَاجِدِ » . واختلفوا في المراد بالمساجد؛ فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد، وهو ما بنـاه نبيٌّ كالمسجد الحرام ومسجد النبيّ صلى الله عليه وسـلم ومسجد إيليـاء[1]؛ رُوى هذا عن حُذيفة بن اليمـان وسعيد بن المسيّب، فلا يجوز الاعتكاف عندهم في غيرها . وقال آخرون : لا اعتكاف إلا في مسجد تُجمع فيـه الجمعة ؛ لأن الإشارة في الآية عندهم إلى ذلك الجنس من المساجد؛ رُوى هذا عن عليّ بن أبي طالب وابن مسعود، وهو قول عُروة والحكم وحمّاد والزُّهرى وأبي جعفر محمد بن عليّ ، وهو أحد قولى مالك . وقال آخرون : الاعتكاف في كل مسجد جائز؛ يُروى هذا القول عن سعيد بن جبير وأبي قِلَابة وغيرهم، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما . وحجتهم حمل الآية على عمومها في كل مسجد له إمام ومؤذّن، وهو أحد قولى مالك، وبه يقول ابن عُلَيّة وداود بن عليّ والطبرى وابن المنذر. وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن الضحاك عن حُذيفـة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : "كلُّ مسجد له مؤذّن وإمام فالاعتكاف فيه يصلح" . قال الدَّارَقُطْنِيّ : والضحاك لم يسمع من حذيفة .

التاسعة والعشرون — وأقلّ الاعتكاف عنـد مالك وأبي حنيفة يوم وليلة ، فإن قال : لله عليّ اعتكاف ليلة لزمه اعتكاف ليلة ويوم . وكذلك إن نذر اعتكاف يوم لزمه يوم وليلة . وقال سُحْنون : من نذر اعتكاف ليلة فلا شيء عليه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن نذر يوما فعليه يوم بغير ليلة، وإن نذر ليلة فلا شيء عليه؛ كما قال سحنون . قال الشافعي: عليه ما نذر، إن نذر ليلةً فليلةٌ، وإن نذر يوما فيومًا . قال الشافعي : أقلّه لحظة ولا حدّ لأكثره . وقال بعض

(١) إيلياء (بكسر أوله واللام) : اسم مدينة بيت المقدس .

Marfat.com

أصحاب أبى حنيفة : يصحّ الآعتكاف ساعة . وعلى هذا القولفليس من شرطه صوم؛ورُوى عن أحمد بن حنبل فى أحد قوليه، وهو قول داود بن علىّ وآبن عُلَيَّـة ، وآختاره آبن المنذر وآبن العربى . وآحتجوا بأن آعتكاف رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى رمضان، ومحال أن يكون صوم رمضان لرمضان ولغيره . ولو نوى المعتكف فى رمضان بصومه التطوّع والفرض فسد صومه عنـد مالك وأصحابه . ومعلوم أن ليل المعتكف يلزمه فيـه من آجتناب مباشرة النساء ما يلزمه فى نهاره، وأن ليله داخل فى آعتكافه، وأن الليل ليس بموضع صوم، فكذلك نهاره ليس بمفتقر إلى الصوم، و إن صام فحسن . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى القول الآخر : لا يصح إلا بصوم . وروى عن آبن عمر وآبن عباس وعائشة رضى الله عنهـم . وفى الموطأ عن القاسم بن محمد ونافع مولى عبد الله بن عمر : لا آعتكاف إلا بصيام؛ لقول الله تعالى فى كتابه : « وَكُلُوا وَآشْرَبُوا » إلى قوله : « فِى المساجِدِ » وقالا : فإنمـا ذكر الله الآعتكاف مع الصيام . قال يحيى قال مالك : وعلى ذلك الأمر عندنا . وآحتجوا بمـا رواه عبد الله بن بُدَيْل عن عمرو بن دينار عن آبن عمر أن عمر جعل عليه [أن يعتكف][1] فى الجاهليـة ليلة أو يوما [عند الكعبة][1] فسأل النبىّ صلى الله عليه وسـلم فقال : "آعتكف وصُمْ" . أخرجه أبو داود . وقال الدَّارَقُطْنِىّ : تفـرّد به آبن بُدَيل عن عمرو وهـو ضعيف . وعن عائشـة أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "لا آعتكاف إلا بصيام" . قال الدَّارَقُطْنِى : تفرّد به سُوَيد بن عبد العزيز عن سفيان بن حسين عن الزهرى عن عروة عن عائشة . وقالوا : ليس من شرط الصوم عنـدنا أن يكون للاعتكاف، بل يصح أن يكون الصوم له ولرمضان ولنذر ولغيره؛ فإذا نذره الناذر فإنمـا ينصرف نذره إلى مقتضاه فى أصل الشرع، وهذا كمن نذر صلاة فإنها تلزمه، ولم يكن عليه أن يتطهّر لها خاصّةً بل يجزئه أن يؤدّيها بطهارة لغيرها .

الموفية ثلاثين ــ وليس للمعتكف أن يخرج من معتكفه إلا لمـا لابدّ له منه، لمـا روى الأئمة عن عائشـة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آعتكف يُدْنِى إلىّ رأسه

(١) الزيادة عن سنن أبى داود .

Marfat.com

فارجّله، وكان لايدخل البيت إلا لحاجة الإنسان؛ تريد الغائط والبول . ولا خلاف فى هذا بين الأمة ولا بين الأئمة ؛ فإذا خرج المعتكف لضرورة وما لا بدّ له منه ورجع فى فوره بعد زوال الضرورة بنى على ما مضى من آعتكافه ولا شيء عليه . ومن الضرورة المرضُ البيّن والحيض . وآختلفوا فى خروجه لما سوى ذلك ؛ فمذهب مالك ما ذكرنا، وكذلك مذهب الشافعي وأبي حنيفة . وقال سعيد بن جُبير والحسن والنخعيّ : يعود المريض ويشهد الجنائز ؛ وروى عن عليّ وليس بثابت عنه . وفرّق إسحاق بين الآعتكاف الواجب والتطوع، فقال فى الآعتكاف الواجب : لا يعود المريض ولا يشهد الجنائز، وقال فى التطوع : يشترط حين يبتدئ حضورَ الجنائز وعيادة المرضى والجمعة . وقال الشافعي : يصح آشتراط الخروج من معتكفه لعيادة مريض وشهود الجنائز وغير ذلك من حوائجه . وآختلف فيه عن أحمد ، فمنع منه مرّة، وقال مرّة : أرجو ألا يكون به بأس . وقال الأوزاعى كما قال مالك : لا يكون فى الآعتكاف شرط . قال آبن المنذر : لا يخرج المعتكف من آعتكافه إلا لما لا بدّ له منه، وهو الذى كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرج له .

الحادية والثلاثون — وآختلفوا فى خروجه للجمعة؛ فقالت طائفة : يخرج للجمعة ويرجع إذا سلّم؛ لأنه خرج إلى فرض ولا ينتقض آعتكافه . ورواه آبن الجهم عن مالك ، وبه قال أبو حنيفة، وآختاره آبن العربى وآبن المنذر . ومشهور مذهب مالك أن من أراد أن يعتكف عشرة أيام أو نذر ذلك لم يعتكف إلا فى المسجد الجامع، و إذا آعتكف فى غيره لزمه الخروج إلى الجمعة و بطل آعتكافه . وقال عبد الملك : يخرج إلى الجمعة فيشهدها و يرجع مكانه و يصح آعتكافه .

قلت : وهو صحيح لقوله تعالى : « وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ » فعمّ . وأجمع العلماء على أن الآعتكاف ليس بواجب وأنه سُنّة، وأجمع الجمهور من الأئمة على أن الجمعة فرض على الأعيان، ومتى آجتمع واجبان أحدهما آكد من الآخر قُدّم الآكد ، فكيف إذا آجتمع مندوب وواجب، ولم يقل أحد بترك الخروج إليها، فكان الخروج إليها فى معنى حاجة الإنسان.

Marfat.com

الثانية والثلاثون — المعتكف إذا أتى كبيرة فسد آعتكافه؛ لأن الكبيرة ضد العبادة؛ كما أن الحَدَث ضد الطهارة والصلاة، وتَرْكُ ما حرّم الله تعالى عليه أعلى منازل الآعتكاف فى العبادة . قاله آبن خُوَيْزِ مَنْداد عن مالك .

الثالثة والثلاثون — روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعتكف صلّى الفجر ثم دخل معتكفه...؛ الحديث . وآختلف العلماء فى وقت دخول المعتكف فى آعتكافه؛ فقال الأوزاعى بظاهر هـذا الحديث ، ورُوى عن الثورى والليث ابن سعد فى أحد قوليه، و به قال آبن المنذر وطائفة من التابعين . وقال أبو ثور : إنما يفعل هـذا من نذر عشرة أيام ، فإن زاد عليها فقبل غروب الشمس . وقال مالك والشافعى وأبو حنيفـة وأصحابهم : إذا أوجب على نفسه آعتكاف شهر، دخل المسجد قبـل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم . قال مالك : وكذلك كل من أراد أن يعتكف يومًا أو أكثر . و به قال أبو حنيفة وآبن الماجشون عبد الملك؛ لأن أول ليلة أيام الآعتكاف داخلة فيها، وأنه زمن للآعتكاف فلم يتبعّض كاليوم . وقال الشافعى : إذا قال لله علىّ يوم دخل قبـل طلوع الفجر وخرج بعد غروب الشمس؛ خلاف قوله فى الشهر . وقال الليث فى أحد قوليه وزُفَر: يدخل قبل طلوع الفجر، والشهر واليوم عندهم سواء . و روى مثل ذلك عن أبى يوسف، وبه قال القاضى عبد الوهاب، وأن الليلة إنما تدخل فى الآعتكاف على سبيل التَّبَع؛ بدليل أن الآعتكاف لا يكون إلا بصوم وليس الليل بزمن للصوم . فثبت أن المقصود بالآعتكاف هو النهار دون الليل .

قلت : وحديث عائشة يردّ هـذه الأقوال وهو الحجة عنـد التنازع ، وهو حديث ثابت لا خلاف فى صحته .

الرابعة والثلاثون — آستحب مالك لمن آعتكف العشر الأواخر أن يبيت ليـلة الفطر فى المسجد حتى يغدو منه إلى المُصلّى، و به قال أحمد . وقال الشافعى والأوزاعى : يخرج إذا غابت الشمس؛ ورواه سُحْنون عن آبن القاسم؛ لأن العشر يزول بزوال الشهر، والشهر ينقضى

Marfat.com

بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . وقال سُحْنون : إن ذلك على الوجوب؛ فإن خرج ليـلة الفطر بطل اعتكافه . وقال ابن المـاجشون : وهذا يرده ما ذكرنا من انقضاء الشهر ، ولو كان المقام ليلة الفطر من شرط صحة الاعتكاف لمـا صح اعتكافٌ لا يتصل بليلة الفطر؛ وفى الإجماع على جواز ذلك دليل على أن مقام ليلة الفطر للمعتكف ليس شرطًا فى صحة الاعتكاف . فهذه جمل كافية من أحكام الصيام والاعتكاف اللائقة بالآيات ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفّق للهداية .

الخامسة والثلاثون — قوله تعـالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى هذه الأحكام حدود الله فلا تخالفوها؛ فـ « تلك » إشارة إلى هذه الأوامر والنواهى . والحدود : الحواجز . والحدّ : المنع ؛ ومنـه سُمّىَ الحديد حديدا؛ لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البـدن . وسُمّىَ البوّاب والسجّان حدّادا؛ لأنه يمنع من فى الدار من الخروج منها ، ويمنع الخارجَ من الدخول فيها . وسُمّيت حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها ، وأن يخرج منها ما هو منها؛ ومنها سُمّيت الحـدود فى المعاصى ؛ لأنها تمنع أصحابها من العَوْد إلى أمثالهـا . ومنـه سُمّيت الحادّ فى العِدّة ؛ لأنها تمتنع من الزينة .

السادسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أى كما بيّن هـذه الحدود يُبيّن جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها . والآيات : العـلامات الهادية إلى الحق . و ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ ترجٍّ فى حقهم ؛ فظاهر ذلك عموم ومعناه خصوص فيمن يسّره الله للهدى ؛ بدلالة الآيات التى تتضمّن أن الله يُضلّ من يشاء .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم ﴾ قيـل : إنه نزل فى عبدان ابن أَشْوَع الحضرمى ، ادّعى مالًا على امرئ القيس الكندى واختصما إلى النبيّ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم؛ فأنكر آمرؤ القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية؛ فكفّ عن اليمين وحكّم عبدان فى أرضه ولم يخاصمه .

الثانيـــة — الخطاب بهذه الآية يتضمّن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق . فيدخل فى هـذا : القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، ومالا تطيب به نفس مالكه، أو حرّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه؛ كمهر البغيّ وحُلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك . ولا يدخل فيه الغَبْن فى البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما باع لأن الغبن كأنه هبة، على ما يأتى بيانه فى سورة « النساء »(١) . وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهىّ لما كان كل واحد منهما منهيًّا ومنهيًّا عنه؛ كما قال : « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ »(٢) . وقال قوم : المراد بالآية « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ »(٣) أى فى الملاهى والقيان والشرب والبطالة؛ فيجيء على هذا إضافة المال إلى ضمير المالكين .

الثالثـــة — من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل؛ فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضى؛ لأنه إنما يقضى بالظاهر . وهذا إجماع فى الأموال، وإن كان عند أبى حنيفة قضاؤه ينفذ فى الفروج باطنًا، وإذا كان قضاء القاضى لا يغيّر حكم الباطن فى الأموال فهو فى الفروج أولى . وروى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنكم تختصمون إلىّ ولعلّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض فأقضى له على نحوٍ مما أسمع فمن قطعتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار — فى رواية — فليحملها أو يذرها" . وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . وهو نصّ فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يُغيّر حكم الباطن، وسواء كان ذلك فى الأموال والدّماء والفروج؛ إلا ما حُكى عن أبى حنيفة فى الفروج، وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده فإن فرجها يحلّ لمتزوجها — ممن يعلم أن القضية باطل — بعد العدّة . وكذلك لو تزوجها أحد الشاهدين جاز عنده؛ لأنه لما حلّت للأزواج فى الظاهر كان الشاهد وغيره

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٢ (٢) راجع ص ١٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٠

Marfat.com

ســواء؛ لأن قضاء القاضى قطع عصمتها ، وأحدث فى ذلك التحليـل والتحريم فى الظاهر والباطن جميعا، ولولا ذلك ما حلّت للأزواج. وآحتجّ بحكم اللّعان وقال : معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللّعان الكاذب ، الذى لو علم الحاكم كذبها فيه لحدّها وما فرّق بينهما ؛ فلم يدخل هذا فى عموم قوله عليه السلام : "فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه" الحـديث .

الرابعــة — وهذه الآية متمسَّك كل مؤالف ومخالف فى كل حكم يدعونه لأنفسهم بأنه لا يجوز ؛ فيسـتدلّ عليه بقوله تعـالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » . فجوابه أن يقال له : لا نسلّم أنه باطل حتى تبيّنه بالدليل. وحينئذ يدخل فى هـذا العموم؛ فهى دليل على أن الباطل فى المعاملات لا يجوز. وليس فيها تعيين الباطل .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الباطل فى اللغة : الذاهب الزائل ؛ يقال : بطَل يَبْطُل بُطولا وبُطلانا ، وجمع الباطل بواطل . والأباطيـل جمع البطولة . وتبطّل أى آتبع اللهو . وأبطل فلان إذا جاء بالباطل . وقوله تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ »[1] قال قتادة : هو إبليس ، لا يزيد فى القرآن ولا ينقص . وقوله : « وَيَمْحُ اللهُ الْبَـاطِلَ »[2] يعنى الشرك . والبطلة : السَّحرة .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ الآية . قيل : يعنى الوديعة وما لا تقوم فيه بيّنة؛ عن آبن عباس والحسن . وقيـل : هو مال اليتيم الذى فى أيدى الأوصياء، يرفعه إلى الحكام إذا طولب به ليقتطع بعضه وتقوم له فى الظاهر حجة . وقال الزجاج : تعملون ما يوجبه ظاهر الأحكام وتتركون ما علمتم أنه الحق . يقال : أدْلى الرجل بحجّته أو بالأمر الذى يرجو النجاح به؛ تشبيها بالذى يرسل الدّلو فى البئر؛ يقال: أدْلى دَلْوَه : أرسلها . ودَلّاها: أخرجها . وجمع الدّلو والدّلاء : أدْلٍ ودِلاءٌ ودُلِيٌّ . والمعنى فى الآية : لا تجمعـوا بين أكل المـال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة ؛ وهو كقوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ »[3] . وهو من قبيل قولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقيل :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٦٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٥ (٣) راجع جـ ١ ص ٣٤٠

Marfat.com

المعنى لا تصانعوا بأموالكم الحكامَ وتَرْشوهم ليقضوا لكم على أكثر منهـا ؛ فالباء إلزاق مجرّد . قال ابن عطية : وهذا القول يترجّح ؛ لأن الحكامَ مظِنّةُ الرّشاء إلا من عصم وهو الأقل . وأيضا فإن اللفظين متناسبان : تدلوا من إرسال الدّلو ، والرشوة من الرّشاء ؛ كأنه يمدّ بهـا ليقضى الحـاجة .

قلت : ويقوى هـذا قوله : « وَتُدْلُوا بِهَا » تدلوا فى موضـع جزم عطفًا على تأكلوا كما ذكرنا . وفى مصحف أُبَىّ «ولاتدلوا» بتكرار حرف النهى ، وهذه القراءة تؤيّد جزم «تُدْلُوا» فى قراءة الجماعة . وقيل : «تدلوا» فى موضع نصب على الظرف ، والذى ينصب فى مثل هذا عند سيبويه « أنْ » مضمرة . والهاء فى قوله « بها » ترجع إلى الأموال ، وعلى القول الأوّل إلى الحجـة ولم يجر لهـا ذكر ؛ فقوى القول الثـانى لذكر الأموال ، والله أعلم . فى الصحاح : « والرَّشــوة معروفة ، والرُّشوة بالضم مثله ، والجمع رُشًى ورِشًى ، وقد رشاه يرشوه . وآرتشى : أخذ الرّشوة . وآسترشى فى حكمه : طلب الرشوة عليه » .

قلت ــ فالحكام اليوم عين الرّشا لا مَظِنّته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

السابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِتَأْكُلُوا ﴾ نصب بلام كى . ﴿ فَرِيقًا ﴾ أى قطعة وجزءا ، فعبّر عن الفريق بالقطعة والبعض . والفريق : القطعة من الغنم تشِذّ عن معظمها . وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ، التقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس . ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ معناه بالظلم والتعدّى ؛ وسمى ذلك إثمـا لمـا كان الإثم يتعلق بفاعله . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى بطلان ذلك وإثمه ، وهذه مبالغة فى الجرأة والمعصية .

الثامنـــة ــ اتفق أهل السُّنة على أن من أخذ ما وقع عليه آسم مالٍ قلّ أو كثُر أنه يُفَسّق بذلك ، وأنه محرّم عليـه أخذه . خلافًا لبشر بن المعتمر ومن تابعه من المعتزلة حيث قالوا : إن المكلّف لا يُفَسّق إلا بأخذ مائتى درهم ولا يُفَسّق بدون ذلك . وخلافًا لآبن الجُبّائى حيث قال : إنه يفسّق بأخذ عشرة دراهم ولا يفسّق بدونهـا . وخلافًا لآبن الهذيل حيث قال : يفسّق بأخذ خمسة دراهم . وخلافًا لبعض قدرية البصرة حيث قال : يفسّق بأخذ درهم فـا

Marfat.com

فوق، ولا يفسّق بمـا دون ذلك . وهذا كله مردود بالقرآن والسنّة وبآتفاق علمـاء الأمة،
قال صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " الحديث، متفق
على صحته .

قوله تعـالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ
وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا
ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

فيه آثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ هذا مما سأل عنه اليهود وآعترضوا به على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال معاذ : يا رسول الله، إن اليهود تغشانا و يكثرون مسألتنا عن الأهلّة . فـما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يستوى و يستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن سبب نزولها سؤالُ قوم من المسلمين النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن الهلال وما سبب مُحَـاقه[1] وكماله ومخالفته لحال الشمس ؛ قاله آبن عباس وقتادة والربيع وغيرهم .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ الأهلة جمع الهلال، وجُمـع وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالًا واحدًا في شهر، غير كونه هلالًا في آخر؛ فإنما جمع أحواله من الأهلة . و يريد بالأهلة شهورها، وقد يعبّر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه؛ كما قال :

أَخوان من نَجْد على ثقة * والشهرُ مثل قُلامة الظُّفْر

وقيـل : سُمّى شهرًا لأن الأيدى تشهر بالإشارة إلى موضـع الرؤية و يدلّون عليـه . و يطلق لفظ الهلال لليلتين من آخر الشهر، وليلتين من أوّله . وقيل : لثلاث من أوّله . وقال الأصمعي : هو هلال حتى يحجّر و يستـدير له كالخيط الرقيق . وقيـل : بل هو هلال حتى يَبْهَر بضوئه

(١) المحاق (بتثليث الميم) : أن يستسرّ القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية .

Marfat.com

السماء، وذلك ليلة سبع . قال أبو العباس : وإنمـا قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه . ومنه آستَهَلّ الصبيّ إذا ظهرت حياته بصراخه . وآستهلّ وجهه فرحًا وتهلّل إذا ظهر فيه السرور . قال أبو كَبِير :

و إذا نظرت إلى أَسِرّة وجهه * برقت كبرق العـارض المتهلّل

و يقال : أهللنا الهلال إذا دخلنا فيه . قال الجوهرى : « وأُهِلّ الهـلال وآستُهِل على ما لم يُسَم فاعله . و يقال أيضا : استَهَلّ بمعنى تبيّن، ولا يقال : أَهَلّ . و يقال : أهللنا عن ليـلة كذا، ولا يقال : أهللناه فهَـلّ، كما يقال : أدخلناه فدخل، وهو قياسـه » : قال أبو نصر عبد الرحيم القُشيرى فى تفسيره : و يقال : أهل الهلال وآستهلّ وأهللنا الهلال وآستهللنا .

الثالثـــة — قال علماؤنا : من حلف ليقضِيَنّ غريمه أو ليفعلنّ كذا فى الهلال أو رأس الهلال أو عند الهلال، ففعل ذلك بعد رؤية الهلال بيوم أو يومين لم يحنَث . وجميع الشهور تصلح لجميع العبادات والمعاملات على ما يأتى .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ تبيين اوجه الحكمة فى زيادة القمر ونقصانه، وهو زوال الإشكال فى الآجال والمعاملات والأيمان والحج والعدد والصوم والفطر ومدّة الحمل والإجارات والأكرية، إلى غير ذلك من مصالح العباد . ونظيره قوله الحق : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » (١) على ما يأتى . وقوله : « هُوَ الَّذِى جَعَـلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » (٢) . و إحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام .

الرابعـــة — وبهذا الذى قررناه يردّ على أهـل الظاهر ومن قال بقولهم : إن المساقاة تجوز إلى الأجل المجهول سنين غير معلومة، وآحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل اليهود على شطر الزرع والنخل ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسـلم من غير توقيت . وهذا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٩

Marfat.com

لا دليل فيه، لأنه عليه السلام قال لليهود : " أقركم [فيها][1] ما أقركم الله ". وهذا أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن ذلك خصوص له ؛ فكان ينتظر فى ذلك القضاء من ربّه ، وليس كذلك غيره . وقد أحكمت الشريعة معانى الإجارات وسائر المعاملات ؛ فلا يجوز شىء منها إلا على ما أحكمه الكتاب والسّنّة، وقال به علماء الأمة .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ مَوَاقِيتُ ﴾ المواقيت : جمع الميقات وهو الوقت . وقيل : الميقات منتهى الوقت . و « مواقيت » لا تنصرف ، لأنه جمع لا نظير له فى الآحاد، فهو جمع ونهايةُ جمع ، إذ ليس يجمع فصار كأن الجمع تكرر فيها . وصُرفت « قوارير » فى قوله : « قواريرًا »[2] لأنهــا وقعت فى رأس آية فنُوّنت كما تنوّن القـوافى؛ فليس هو تنوين الصرف الذى يدل على تمكّن الاسم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْحَجِّ ﴾ بفتح الحاء قراءة الجمهور . وقرأ ابن أبى إسحاق بالكسر فى جميع القـرآن ، وفى قوله : « حِجُّ الْبَيْتِ »[3] فى « آل عمران » . سيبويه : الحَجّ كالرّدّ والشدّ . والحِجّ كالذّكر؛ فهما مصدران بمعنًى . وقيل : الفتح مصدر، والكسر الاسم .

السابعــة — أفرد سبحانه الحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، وأنه لا يجوز النسىء فيه عن وقته ، بخلاف ما رأته العرب ؛ فإنها كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور ، فأبطل الله قولهم وفعلهم ، على ما يأتى بيانه فى « براءة »[4] إن شاء الله تعالى .

الثامنــة — استدل مالك رحمه الله وأبو حنيفة وأصحابهما فى أن الإحرام بالحج يصح فى غير أشهر الحج بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى جعل الأهلّة كلها ظرفًا لذلك ، فصح أن يُحرم فى جميعها بالحج ؛ وخالف فى ذلك الشافعى ؛ لقوله تعالى : « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » على ما يأتى . وأن معنى هذه الآية أن بعضها مواقيت للناس . و بعضها مواقيت للحج ؛ وهـذا كما تقول : الجارية لزيد وعمرو ؛ وذلك يقتضى أن يكون بعضها لزيد و بعضها لعمرو ؛ ولا يجوز أن يقال : جميعها لزيد وجميعها لعمرو . والجواب أن يقال : إن ظاهر قـوله « هِىَ مواقيت للناس

(١) الزيادة عن الموطأ .	(٢) راجع ج ١٩ ص ١٣٩ .	(٣) راجع ج ٤ ص ١٤٢ .
(٤) راجع ج ٨ ص ١٣٦ .

Marfat.com

والحج» يقتضى كون جميعها مواقيت للناس وجميعها مواقيت للحج، ولو أراد التبعيض لقال: بعضها مواقيت للناس و بعضها مواقيت للحج . وهـذا كما تقول : إن شهر رمضان ميقات لصوم زيد وعمرو . ولا خلاف أن المراد بذلك أن جميعه ميقات لصوم كل واحد منهما . وما ذكروه من الجارية فصحيح ؛ لأن كونها جمعـاء لزيد مع كونها جمعاء لعمرو مستحيل ، وليس كذلك فى مسئلتنا ؛ فإن الزمان يصح أن يكون ميقاتاً لزيد وميقاتاً لعمرو؛ فبطل ما قالوه.

التاسـعة — لا خلاف بين العلماء أن من باع معلوماً من السِّلَع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب أو إلى أيام معروفة العـدد أن البيع جائز . وكذلك قالوا فى السَّلَم إلى الأجل المعلوم . واختلفوا فى من باع إلى الحصاد أو إلى الدّياس أو إلى العطاء وشبه ذلك ؛ فقال مالك : ذلك جائز لأنه معروف ؛ وبه قال أبو ثور . وقال أحمد : أرجو ألا يكون به بأس . وكذلك إلى قدوم الغزاة . وعن ابن عمر أنه كان يبتاع إلى العطاء . وقالت طائفة . ذلك غير جائز ؛ لأن الله تعالى وقّت المواقيت وجعلها علَماً لآجالهم فى بياعاتهم ومصالحهم . كذلك قال ابن عباس، وبه قال الشافعى والنعمان . قال ابن المنذر : قول ابن عباس صحيح .

العاشـرة — إذا رُؤى الهلال كبيرا فقـال علماؤنا : لا يُعوَّل على كبره ولا على صغره وإنمـا هو ابن ليلته . روى مسلم عن أبى البَخْتَرِى قال : خرجنا للعُمْرة فلما نزلنا ببطن نَخْلة قال : تراءينا الهلال؛ فقال بعض القوم : هو ابن ثلاث، وقال بعض القوم : هو ابن ليلتين . قال : فلقينا ابنَ عباس فقلنا : إنا رأينا الهلال فقال بعض القوم هو ابن ثلاث، وقال بعض القـوم هو ابن ليلتين . فقال : أىّ ليلة رأيتموه؟ قال فقلنا : ليـلة كذا وكذا . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله مدّه للرؤية " فهو لِلَيْلَةٍ رأيتموه .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ اتصـل هـذا بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقوع القضيتين فى وقت السؤال عن الأهـلّة وعن دخول البيوت من ظهورها ؛ فنزلت الآية فيهما جميعًا . وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعًا ألا يحول بينهم و بين

Marfat.com

السماء حائل، فإذا خرج الرجل منهم بعد ذلك ، أى من بعد إحرامه من بيته ، فرجع لحاجة لا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينــه و بين السماء ؛ فكان يتسنّم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته . فكانوا يرون هذا من النسك والبِرّ، كما كانوا يعتقدون أشياء نسكًا ؛ فردّ عليهم فيها؛ و بيّن الربّ تعالى أن البِرّ فى آمتثال أمره . وقال آبن عباس فى رواية أبى صالح : كان الناس فى الجاهلية وفى أوّل الإسـلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المَـدَر — يعنى من أهل البيوت — نقب فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سُلَّمًا فيصعد منه وينحدر عليه . و إن كان من أهل الوَبَر — يعنى أهل الخيـام — يدخل من خلف الخيام الخيمةَ ، إلا من كان من الحُمْس . وروى الزهرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أهلّ زمن الحُدَيْبِيَـة بالعُمْرة فدخل حجرته ودخل خلفه رجل أنصارىّ من بنى سـلمة، فدخل وخرق عادة قومه ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لِمَ دخلت وأنت قـد أحرمت" . فقـال : دخلتَ أنت فدخلتُ بدخولك . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إنى أَحْمَس" أى من قوم لا يدينون بذلك . فقال له الرجل : وأنا دينى دينك؛ فنزلت الآية، وقاله آبن عباس وعطاء وقتـادة . وقيل : إن هذا الرجل هو قطبة بن عامر الأنصارى .

والحُمْس : قريش وكِنَانة وخُزاعة وثَقِيف وجشْم (١) و بنـو عامر بن صعصعة و بنو نصر آبن معاوية . وسُمُّوا حُمْسًا لتشديدهم فى دينهم . والحماسة الشدّة . قال العجاج :

* وكم قَطَعنا من قِفافٍ حُمْسِ (٢) *

أى شـداد . ثم آختلفوا فى تأويلها ؛ فقيل ما ذكرنا ، وهو الصحيح . وقيـل : إنه النَّسِيء وتأخير الحج به ، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حرامًا بتأخير الحج إليـه، والشهرَ الحرامَ حلالًا بتأخير الحج عنه؛ فيكون ذكر البيوت على هـذا مثلًا لمخالفة الواجب فى الحج وشهوره .

(١) كذا فى جـ . وفى سائر الأصول والفخر الرازى : « خيثم » . وفى البحر لأبى حيان : « خثعم » .
(٢) فى نسخ الأصل : « قفار » بالراء ، والتصويب عن اللسان . والقفاف : الأماكن الغلاظ الصلبة .

Marfat.com

وسيأتى بيان النَّسِىء فى سورة « براءة »[١] إن شاء الله تعـالى . وقال أبو عبيدة : الآية ضَرْب مَثَل ، المعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن آتقوا الله وآسألوا العلماء؛ فهـذا كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه . وحكى المهدوىّ ومكىّ عن آبن الأنبارى، والمـاوردىّ عن آبن زيد أن الآية مَثَل فى جماع النساء ، أمر بإتيانهن فى القُبُل لا من الدُّبُر . وسُمى النساء بيوتاً للإيواء إليهن كالإيواء إلى البيوت . قال آبن عطية : وهـذا بعيد مغيِّر نَمَط الكلام . وقال الحسن : كانوا يتطيّرون ، فمن سافر ولم تحصل حاجته كان يأتى بيتـه من وراء ظهره تطيّراً من الخيبة، فقيل لهم : ليس فى التَّطير بِرٌّ، بل البِرّ أن تتقوا الله وتتوكّلوا عليه .

قلت : القول الأوّل أصح هذه الأقوال ، لمـا رواه البَرَاء قال : كان الأنصار إذا حَجُّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ؛ قال : فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه ، فقيل له فى ذلك، فنزلت هذه الآية : « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » وهذا نصّ فى البيوت حقيقة . خرّجه البخارىّ ومسلم . وأما تلك الأقوال فتؤخذ من موضع آخر لا من الآية ، فتأمّله . وقد قيل : إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البِرّ من وجهه ، وهو الوجه الذى أمر الله تعالى به ؛ فذكر إتيـان البيوت من أبوابها مثلاً ليشير به إلى أن نأتى الأمور من مأتاها الذى ندبنا الله تعالى إليه .

قلت : فعلى هـذا يصح ما ذُكر من الأقوال . والبيوت جمع بيت ، وقرئ بضم البـاء وكسرها . وتقدّم معنى التقوى والفلاح ولعل، فلا معنى للإعادة[٢] .

الثانيـة عشرة — فى هـذه الآية بيان أن ما لم يَشْرعه الله قُرْبة ولا نَدَب إليـه لا يصير قربة بأن يتقرّب به متقرّب . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : إذا أشكل ما هو بِرّ وقُرْبة بمـا ليس هو بِرّ وقُرْبة أن ينظر فى ذلك العمل؛ فإن كان له نظير فى الفرائض والسنن فيجوز أن يكون، وإن لم يكن فليس ببِرّ ولا قُرْبة . قال : وبذلك جاءت الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وذكر حديث آبن عباس قال : بينما رسـول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم

(١) راجع جـ ٨ ص ١٣٦ (٢) راجع جـ ١ ص ١٦١ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

فى الشمس فسأل عنه، فقالوا: هو أبو إسرائيل[1]؛ نذر أن يقومَ ولا يقعدَ ولا يستظلَّ ولا يتكلَّم ويصوم. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "مُرُوه فليتكلَّمْ وليستظلَّ وليقعد وليُتِمَّ صومَه". فأبطل النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان غير قُرْبة مما لا أصل له فى شريعته، وصحّح ما كان قُرْبة مما له نظير فى الفرائض والسُّنَن.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا﴾ هذه الآية أوّل آية نزلت فى الأمر بالقتال؛ ولا خلاف فى أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله: «ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»[2] وقوله: «فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ»[3] وقوله: «وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا»[4] وقوله: «لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ»[5] وما كان مثله مما نزل بمكة. فلما هاجر إلى المدينة أُمر بالقتال فنزل: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» قاله الربيع بن أنس وغيره. وروى عن أبى بكر الصدّيق أن أوّل آية نزلت فى القتال: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا»[6]. والأوّل أكثر. وأن آية الإذن إنما نزلت فى القتال عامّةً لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعُمْرة، فلما نزل الحُدَيْبِيَة بقرب مكة — والحُدَيْبِيَة ٱسم بئر، فسُمّى ذلك الموضع بٱسم تلك البئر — فصدّه المشركون عن البيت. وأقام بالحُدَيْبِيَة شهرًا، فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء؛ على أن تُخْلَى له مكة فى العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة. فلما كان من قابل تجهّز لعُمْرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحَرَم وفى الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية؛ أى يحلّ لكم القتال إن قاتلكم الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت

---

(١) أبو إسرائيل هذا: رجل من الأنصار من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، اختلف فى ٱسمه. راجع الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة فى «باب الكنى». (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٤٧ (٣) راجع جـ ٦ ص ١١٦ (٤) راجع جـ ١٩ ص ٤٤ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ (٦) راجع جـ ١٢ ص ٦٧

Marfat.com

من ظهورها، فكان عليه السلام يقاتل من قاتله ويكُفّ عمن كَفّ عنه، حتى نزل «فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ» (١) فنسخت هذه الآية؛ قاله جماعة من العلماء. وقال آبن زيد والربيع: نسخها «وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» (١) فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال آبن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هى مُحْكَمَة؛ أى قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا فى قتل النساء والصبيان والرُّهبان وشبههم؛ على ما يأتى بيانه. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح القولين فى السُّنّة والنَّظر؛ فأما السُّنّة فحديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى بعض مغازيه آمرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان؛ رواه الأئمة. وأمّا النَّظر فإن «فاعَل» لا يكون فى الغالب إلا من آثنين، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة؛ والقتال لا يكون فى النساء ولا فى الصبيان ومن أشبههم، كالرُّهبان والزَّمْنَى والشيوخ والأجراء فلا يُقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام؛ إلا أن يكون لهؤلاء إذاية؛ أخرجه مالك وغيره، وللعلماء فيهم صُوَر ستّ:

الأولى — النساء إن قاتلن قُتِلن؛ قال سُحْنون: فى حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله: «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»، «وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ». وللمرأة آثار عظيمة فى القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيِّرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن؛ غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن، وتعذّر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.

الثانيــة — الصبيان فلا يُقتلون للنّهى الثابت عن قتل الذرّية، ولأنه لا تكليف عليهم؛ فإن قاتل [الصبيّ] قُتل.

الثالثــة — الرُّهبان لا يُقتلون ولا يُسترقّون، بل يُترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا آنفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد (٢): «وستَجد أقوامًا زعموا أنهم حبَسوا

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٢ وص ١٣٢

(٢) هو يزيد بن أبى سفيان بن حرب، أسلم يوم فتح مكة، وعقد له أبو بكر رضى الله عنه سنة ١٣ هـ مع أمراء الجيوش إلى الشام، وكان أوّل الأمراء الذين خرجوا إليها، وشيعه أبو بكر راجلا، وقال له: «... وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن». راجع موطأ مالك باب الجهاد، وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى.

Marfat.com

أنفسهم لله ؛ فذرهم وما زعموا أنهـم حَبَسُوا أنفسهم له » فإن كانوا مع الكفار فى الكنائس قُتلوا . ولو ترهّبت المرأة فروَى أشهب أنها لاتُهاج[(١)] . وقال سُحْنون : لايغيّر الترهّب حكمها . قال القـاضى أبو بكر بن العـربى : « والصحيح عنـدى رواية أشهب ، لأنها داخلة تحت قوله : فذرهم وما حَبَسُوا أنفسهم له » .

الرابعـــة — الزَّمْنَى . قال سُحْنون : يُقتلون . وقال آبن حبيب : لايُقتلون . والصحيح أن تُعتبر أحوالهم ؛ فإن كانت فيهم إذاية قُتلوا، و إلا تُركوا وما هم بسبيله من الزَّمانة وصاروا[(٢)] مالا على حالهم وحشوة .

الخامســـة — الشيوخ . قال مالك فى كتاب محمد : لا يُقتلون . والذى عليـه جمهور الفقهاء : إن كان شيخًا كبيرًا هرِمًا لا يُطيق القتال ، ولا يُنتفع به فى رأيٍ ولا مدافعـة فإنه لا يُقتل ؛ وبه قال مالك وأبو حنيفة . وللشافعى قولان : أحدهما — مثـل قول الجماعة . والثـانى — يُقتل هـو والراهب . والصحيح الأوّل لقـول أبى بكر ليزيد ؛ ولا مخالف له فثبت أنه إجماع . وأيضًا فإنه ممن لا يُقاتِل ولا يعين العدوّ فلا يجوز قتـله كالمرأة ، وأمّا إن كان ممن تخشى مضرّته بالحرب أو الرأى أو المـال فهذا إذا أُسِر يكون الإمام فيه مخيّرًا بين خمسة أشياء : القتل أو المنّ أو الفداء أو الآسترقاق أو عَقْد الذمة على أداء الجزية .

السادســـة — العُسَفاء، وهم الأُجراء والفلّاحون؛ فقال مالك فى كتاب محمد : لايُقتلون . وقال الشافعى : يُقتل الفلاحون والأُجراء والشيوخ الكبار إلا أن يُسلموا أو يؤدّوا الجزية . والأوّل أصحّ، لقوله عليه السلام فى حديث رَباح[(٣)] بن الربيع ” الحقْ بخالد بن الوليد فلا يقتلنّ ذرية ولا عَسيفًا“ . وقال عمر بن الخطاب: آتقوا الله فى الذرية والفلّاحين الذين لايَنْصُبون لكم الحرب . وكان عمر بن عبد العزيز لا يَقتل حرّاثًا ؛ ذكره آبن المنذر .

---

(١) لا تهاج : أى لا تزعج ولا تنفر .		(٢) هكذا فى الأصول .

(٣) رباح، بباء موحدة . وقيل : بالياء المثناة من تحت . راجع تهذيب التهذيب فى حرف الراء .

Marfat.com

الثانيــة — روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » أهلُ الحُدَيْبِيَة[1] أمروا بقتال من قاتلهم . والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين، أمر كلّ أحد أن يقاتل من قاتله إذ لا يمكن سواه . ألا تراه كيف بيّنها فى سورة « براءة » بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ[2] » وذلك أنّ المقصود أوّلاً كان أهل مكة فتعيّنت البداءة بهم ؛ فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلى ممن كان يؤذى حتى تعمّ الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق ولا يبقى أحد من الكفرة ، وذلك باقٍ متمادٍ إلى يوم القيامة ، ممتدٌّ إلى غايةٍ هى قوله عليه السلام : "الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأَجْرُ والمَغْنَم". وقيل : غايته نزول عيسى بن مريم عليه السلام ، وهو موافق للحديث الذى قبله ؛ لأن نزوله من أشراط الساعة.

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ قيل فى تأويله ما قدمناه ، فهى مُحْكَمَة . فأما المرتدّون فليس إلا القتل أو التوبة ، وكذلك أهل الزيغ والضلال ليس إلا السيف أو التوبة . ومن أسرّ الاعتقاد بالباطل[3] ثم ظهر عليه فهو كالزنديق يُقتل ولا يُستتاب . وأما الخوارج على أئمة العدل فيجب قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق . وقال قوم : المعنى لا تعتدوا فى القتال لغير وجه الله ، كالحميّة وكسب الذكر ، بل قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ؛ يعنى دِيناً وإظهاراً للكلمة . وقيل : «لا تعتدوا» أى لا تقاتلوا من لم يقاتل . فعلى هذا تكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال لجميع الكفار ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢)

---

(١) فى ا ، ب ، ز : « أهل المدينة » . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٧

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... بالباطن ... » بالنون .

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ يقال : ثَقِفَ يَثْقَفُ ثَقْفًا وثَقَفًا، ورجل ثَقْفٌ لَقْفٌ : إذا كان مُحْكِمًا لما يتناوله من الأمور. وفي هذا دليل على قتل الأسير، وسيأتي بيان هذا في « الأنفال »(١) إن شاء الله تعالى . ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي مكة . قال الطبري : الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل . قال مجاهد : أي من أن يقتل المؤمن ؛ فالقتل أخف عليه من الفتنة . وقال غيره : أي شركهم بالله وكفرهم به أعظم جُرْمًا وأشد من القتل الذي عيّروكم به . وهذا دليل على أن الآية نزلت في شأن عمرو بن الحَضْرَمِيّ حين قتله واقد بن عبد الله التميمي في آخر يوم من رجب الشهر الحرام ، حسب ما هو مذكور في سَرِيّة عبد الله بن جَحْش، على ما يأتي بيانه(٢) ؛ قاله الطبري وغيره .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ الآية . للعلماء في هذه الآية قولان : أحدهما — أنها منسوخة ، والثاني — أنها مُحْكَمة . قال مجاهد : الآية مُحْكَمة، ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يُقاتِل ؛ و به قال طاوس ، وهو الذي يقتضيه نص الآية ، وهو الصحيح من القولين ، و إليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه . وفي الصحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : إن هذا البلد حَرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحُرْمة الله تعالى إلى يوم القيامة و إنه لم يَحِلّ القتالُ فيه لأحد قبلي ولم يَحِلّ لي إلا ساعةً من نهار فهو حرام بحُرْمة الله إلى يوم القيامة". وقال قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى : « فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(٣) . وقال مُقاتل : نسخها قوله تعالى : « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » ثم نسخ هذا قوله : « اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . فيجوز الابتداء بالقتال في الحرم .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠ (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٩ (٣) راجع جـ ٨ ص ٧٢

Marfat.com

ومما آحتجّوا به أن «براءة» نزلت بعد سورة «البقرة» بسنتين، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعليه المِغْفَر(١)؛ فقيل: إن آبن خَطَل متعلّق بأستار الكعبة؛ فقال: "اقتلوه".

وقال آبن خُوَيْزِمَنْداد: «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» منسوخة؛ لأن الإجماع قد تقرّر بأن عَدُوًّا لو آستولى على مكة وقال: لأقاتلكم، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال؛ فمكة وغيرها من البلاد سواء. وإنما قيل فيها: هى حرام تعظيماً لها؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد يوم الفتح وقال: "احصدهم بالسيف حتى تلقانى على الصَّفَا" حتى جاء العباس فقال: يا رسول الله، ذهبت قريش، فلا قريش بعد اليوم. ألا ترى أنه قال فى تعظيمها: "وَلَا يَلْتَقِط لُقَطَتَهَا إلّا مُنْشِد" واللُّقَطة بها وبغيرها سواء. ويجوز أن تكون منسوخة بقوله: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ».

قال آبن العربى: «حضرتُ فى بيت المقدس — طهّره الله — بمدرسة أبى عُقْبة الحنفى، والقاضى الزَّنجانى يلقى علينا الدرس فى يوم جمعة، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بَهِىّ المَنْظَر على ظهره أطمار، فسلّم سلام العلماء وتصدّر فى صدر المجلس بمدارع الرِّعاء(٢)؛ فقال القاضى الزَّنجانى: مَن السيد؟ فقال: رجل سلبه الشُّطّار(٣) أمس، وكان مقصدى هذا الحَرَم المقدّس، وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم. فقال القاضى مبادرًا: سَلُوه — على العادة فى إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم — ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحَرَم هل يُقتل أم لا؟ فأفتى بأنه لا يقتل. فسُئل عن الدليل؛ فقال قوله تعالى: «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ» قُرِئَ «ولا تقتلوهم، ولا تقاتلوهم» فإن قُرِئَ «ولا تقتلوهم» فالمسألة نصّ، وإن قرئ «ولا تقاتلوهم» فهو تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذى هو سبب القتل كان دليلاً بَيِّنًا ظاهرًا على النهى عن القتل. فآعترض عليه القاضى منتصرًا للشافعىّ ومالك، وإن لم يرَ مذهبهما، على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

---

(١) المغفر ومثله المغفرة والغفارة (كلها بالكسر): زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٢) المدرع والدراعة: ضرب من الثياب التى تلبس. وقيل: جبة مشقوقة المقدم.

(٣) الشطار: جمع شاطر، وهو الذى أعيا أهله ومؤدّبه خبثا.

Marfat.com

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» . فقال له الصاغانى : هذا لا يليق بمَنْصب القاضى وعلمه؛ فإن هذه الآية التى آعترضتَ بها عامةٌ فى الأماكن، والتى آحتججت بها خاصّة، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العامّ يَنْسَخ الخاص . فبُهت القاضى الزنجانى، وهذا من بديع الكلام»[1]. قال آبن العربى: « فإن لجا إليه كافر فلا سبيل إليه ، لنصّ الآية والسُّنة الثابتة بالنّهى عن القتال فيـه . وأما الزانى والقاتل فلا بدّ من إقامة الحدّ عليه، إلا أن يبتدئ الكافرُ بالقتال فيُقتل بنصّ القرآن» .

قلت : وأما ما آحتجّوا به من قتل آبن خَطَل وأصحابه فلا حجة فيه ، فإن ذلك كان فى الوقت الذى أُحِلّت له مكة وهى دار حَرْب وكُفْر ، وكان له أن يُرِيق دماء من شـاء من أهلها فى الساعة التى أُحِلّ له فيها القتال . فثبت وصحّ أن القول الأوّل أصح، والله أعلم .

الرابعــة ـ قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن الباغى على الإمام بخلاف الكافر، فالكافرُ يُقتل إذا قاتل بكل حال، والباغى إذا قاتل يقاتل بنية الدفع .ولا يُتْبَعُ مُدْبِر ولا يُجْهَز على جريح . على ما يأتى بيانه من أحكام الباغين فى « الحجرات »[2] إن شاء الله تعالى.

الخامســة ـ قوله تعالى : ﴿فَإِنِ ٱنْتَهَوْا﴾ أى عن قتالكم بالإيمان فإن الله يغفر لهم جميع ما تقدّم، و يرحم كلًّا منهم بالعفو عما آجترم؛ نظيره قوله تعالى : «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »[3] . وسيأتى .

قوله تعالى : وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أمْرٌ بالقتال لكل مشرك فى كل موضع؛ على من رآها ناسخة . ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم : «فإنْ قَاتَلُوكُمْ» والأوّل أظهر، وهو أَمْرٌ بقتالٍ مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار . دليـل ذلك قوله تعالى : « ويكونَ الدّينُ لله » ، وقال عليه السلام : " أُمِرْتُ أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله

(١) وردت عبارة ابن العربى فى كتابه ببعض اختلاف عما فى الأصول . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣١٥ وما بعدها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٠١

Marfat.com

إلا الله". فدلّت الآية والحديث على أن سبب القتال هو الكفر؛ لأنه قال: «حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ» أى كفر؛ فجعل الغاية عدم الكفر، وهذا ظاهر . قال ابن عباس وقتادة والربيع والسُّدّى وغيرهم: الفتنة هناك الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين . وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان؛ مأخوذ من فتَنْتُ الفضة إذا أدخلتها فى النار لتميّز رديئها من جيّدها . وسيأتى بيان محاملها إن شاء الله تعالى .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ فإنِ ٱنْتَهَوْا ﴾ أى عن الكفر، إما بالإسلام كما تقدّم فى الآية قبلُ، أو بأداء الجِزْية فى حق أهل الكتاب؛ على ما يأتى بيانه فى «براءة»[1] وإلا قوتلوا وهم الظالمون لا عدوان إلا عليهم. وسُمّى مايصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمّن العدوان، فسُمّى جزاء العدوان عدواناً؛ كقوله: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»[2]. والظالمون هم على أحد التأويلين: من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقى على كُفْر وفتنة.

قوله تعـالى : ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ ﴾ قـد تقدّم اشتقاق الشهر[3]. وسبب نزولها ما رُوى عن ابن عباس وقتادة ومجاهد ومِقْسَم والسُّدّى والربيع والضحاك وغيرهم قالوا: نزلت فى عُمْرة القضيّة وعام الحُدَيْبِيَة، [وذلك[4] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معتمِراً حتى بلغ الحديبية] فى ذى القعدة سنة ستّ، فصدّه المشركون كفارُ قريش عن البيت فانصرف؛ ووعده الله سبحانه أنه سيدخله. فدخله سنة سبع وقضى نُسكه؛ فنزلت هذه الآية. ورُوى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم: أَنُهيت يا محمد عن القتال فى الشهر الحرام؟ قال: "نعم". فأرادوا قتاله؛ فنزلت الآية. المعنى: إن استحلّوا ذلك فيه فقاتلهم؛ فأباح الله بالآية مدافعتهم، والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر.

(١) راجع جـ ٨ ص ١٠٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٤٠ (٣) راجع ص ٢٩٠ من هذا الجزء.
(٤) ما بين المربعين ساقط من ب .

Marfat.com

الثانيـــة – قوله تعـالى : ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ الحُرُمات جمع حُرْمة ، كالظُّلُمات جمع ظُلْمة ، والحُجُرات جمع حُجرة . و إنما جُمعت الحُرُمات لأنه أراد [حُرْمة] الشهر الحرام [وحُرْمة] البلد الحرام ، وحُرْمة الإحرام . والحُـرْمة : ما مُنِعتَ من آنتهاكه . والقصاص المساواة ؛ أى آقتصصت لكم منهم إذ صدّوكم سنة سِتٍّ فقضيتم العُمْرة سنة سبع . ف « الحُرُمات قصاصٌ » على هذا متّصل بمـا قبله ومتعلّق به . وقيل : هو مقطوع منه . وهو آبتداءُ أمرٍ كان فى أوّل الإسلام : إن مَن آنتهك حُرْمتك نِلت منه مثلَ ما آعتدى عليك ؛ ثم نسخ ذلك بالقتـال . وقالت طائفة : ما تناولت الآية من التعدّى بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم والجنايات ونحوها لم يُنسخ ، وجاز لمن تُعُدِّيَ عليه فى مال أو جرح أن يتعدّى بمثل ما تُعُدِّيَ به عليه إذا خفى[1] له ذلك ، وليس بينه و بين الله تعالى فى ذلك شيء ؛ قاله الشافعى وغيره ، وهى رواية فى مذهب مالك . وقالت طائفة من أصحاب مالك : ليس ذلك له ، وأمور القصاص وَقْفٌ على الحكام . والأموال يتناولها قوله صلى الله عليه وسلم : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تَخُن من خانك " . خرّجه الدارقطنيّ وغيره . فمن آئتمنه من خانه فلا يجوز له أن يخونه و يصل إلى حقه مما آئتمنه عليه ، وهو المشهور من المذهب ، و به قال أبو حنيفة تمسّكاً بهذا الحديث ، وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا »[2] . وهو قول عطاء الخُراسانيّ . قال قُدامة بن الهَيْثَم : سألت عطاء بن مَيْسرة الخراسانى فقلت له : لى على رجل حق ، وقد جحدنى به وقد أعيا علىّ البيّنة ، أفأقتص من ماله ؟ قال : أرأيت لو وقع بجاريتك ، فعلمت ما كنت صانعا .

قلت : والصحيح جواز ذلك كيف ما توصّل إلى أخذ حقّه مالم يعدّ سارقًا ؛ وهو مذهب الشافعيّ وحكاه الداودى عن مالك ، وقال به آبن المنـذر ، وآختاره آبن العربى ، وأن ذلك ليس خيانة و إنما هو وصول إلى حق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انصر أخاك ظالمـاً أو مظلوماً " وأخذ الحق من الظالم نَصْرٌ له . وقال صلى الله عليه وسلم لهند بنت عُتْبة آمرأة أبى سُفيان لمـا قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بَنِيّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه ، فهل علىّ جناح ؟ فقال رســول الله صلى الله

(١) قوله : « إذا خفى » أى ظهر . وهذا اللفظ من الأضداد ؛ يقال . خفيت الشيء : كتمته . وخفيته : أظهرته . راجع جـ ١١ ص ١٨٢ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥

Marfat.com

عليه وسلم : "خُذِى ما يَكفيك ويَكفِى وَلَدك بالمعروف" . فأباح لها الأخذ وألّا تأخذ إلا القدر الذى يجب لها . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقولُه تعـالى : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » قاطع فى موضع الخلاف .

الثالثـــة — وآختلفوا إذا ظَفِر له بمـال من غير جنس ماله ؛ فقيل : لا يأخذ إلا بحُكم الحاكم . وللشافعىّ قولان ، أصحهما الأخذ ، قياسًا على ما لو ظَفِر له من جنس ماله . والقول الثانى لا يأخذ لأنه خلاف الجنس . ومنهم من قال : يتحرّى قيمة ما له عليه و يأخذ مقدار ذلك . وهذا هو الصحيح لمـا بيّناه من الدليل ، والله أعلم .

الرابعـــة — و إذا فرّعنا على الأخذ فهل يعتبر ما عليـه من الديون وغير ذلك ؛ فقـال الشافعىّ : لا ، بل يأخذ ماله عليه . وقال مالك : يعتبر ما يحصل له مع الغرماء فى الفلس ؛ وهو القياس ، والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ عموم متّفق عليه ، إمّا بالمباشرة إن أمكن ، و إمّا بالحُكّام . وآختلف الناس فى المكافأة هل تُسمَّى عُدوانًا أم لا ؛ فمن قال : ليس فى القرآن مجـاز ، قال : المقابلة عدوان ، وهو عدوان مباح ، كما أن المجاز فى كلام العرب كذب مباح ؛ لأن قول القائل :

* فقالت له العينان سمعًا وطاعة *

وكـذلك :

* آمتـلأ الحوض وقال قَطْنِى *

وكـذلك :

* شـكا إلىّ جملى طول السُّرَى *

ومعلوم أن هذه الأشياء لا تَنطق . وحدّ الكذب : إخبار عن الشىء على خلاف ما هو به . ومن قال فى القرآن مجاز سَمّى هـذا عدوانًا على طريق المجاز ومقابلة الكلام بمثـله ؛ كما قال عمرو بن كلثوم :

ألَا لا يجهلن أحـد علينـا * فنجهلَ فوق جهـل الجاهلينـا

Marfat.com

وقال الآخر :

ولي فَرَسٌ للحِلم بالحِلم مُلْجَمٌ * ولي فرس للجهل بالجهل مُسْرَجُ
ومن رام تقويمي فإني مُقَوَّمٌ * ومن رام تعويجي فإني معوَّجُ

يريد : أكافئ الجاهل والمعوِّج ، لا أنه امتدح بالجهل والاعوجاج .

السادسة — واختلف العلماء فيمن استهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العُرُوض التي لا تكال ولا توزن ؛ فقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء : عليه في ذلك المثل ، ولا يُعدَل إلى القيمة إلا عند عدم المثل ؛ لقوله تعالى : « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ » وقوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »[1] .

قالوا : وهذا عموم في جميع الأشياء كلها ، وعَضَدُوا هذا بأن النبي صلى الله عليه وسلم حبس القصعة المكسورة في بيت التي كسرتها ودفع الصحيحة وقال : "إناءٌ بإناء وطعامٌ بطعام" خرّجه أبو داود قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا يحيى ح وحدّثنا محمد بن المثنى حدّثنا خالد عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمّهات المؤمنين مع خادم قَصعة فيها طعام ، قال : فضربت بيدها فكسرت القصعة . قال ابن المثنّى : فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم الكسرتين فضمّ إحداهما إلى الأخرى ، فجعل يجمع فيها الطعام ويقول : "غارت أمّكم" . زاد ابن المثنّى "كُلُوا" فأكلوا حتى جاءت قصعتها التي في بيتها . ثم رجعنا إلى لفظ حديث مسدّد وقال : "كُلُوا" وحبس الرسولَ والقصعةَ حتى فرغوا ، فدفع القصعة الصحيحة إلى الرسول وحبس المكسورة في بيته . حدّثنا أبو داود قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا يحيى عن سفيان قال وحدّثنا فُلَيْتٌ العامري — قال أبو داود : وهو أَفْلَت بن خليفة — عن جَسْرة بنت دَجاجة قالت قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت صانعًا طعاما مثل صَفِيّة ؛ صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعامًا فبعثتْ به ، فأخذني أَفْكَلٌ[2] فكسرتُ الإناء ، فقلت : يا رسول الله ، ما كفارة ما صنعتُ ؟ قال : "إناءٌ مثل إناءٍ وطعامٌ مثلُ طعام" . قال مالك

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠ (٢) الأفكل (على وزن أفعل) : الرعدة ، أي ارتعدت من شدة الغيرة .

Marfat.com

وأصحابه : عليه فى الحيوان والعروض التى لا تُكال ولا توزن القيمةُ لا المثل؛ بدليل تضمين النبيّ صلى الله عليه وسلم الذى أعتق نصف عبده قيمة نصف شريكه ، ولم يضمّنه مثل نصف عبده . ولا خلاف بين العلماء على تضمين المثل فى المطعومات والمشروبات والموزونات ؛ لقوله عليه السلام : " طعامٌ بطعام " .

السابعـــة - لا خلاف بين العلماء أن هـذه الآية أصـل فى المماثلة فى القصاص؛ فمن قَتل بشىء قُتِل بمثل ما قَتل به ؛ وهو قول الجمهور ، مالم يقتله بفسق كاللُّوطية و إسقاء الخمر فيُقتل بالسيف . وللشافعية قول : إنه يُقتل بذلك ؛ فيُتّخذ عود على تلك الصفة ويُطعن به فى دُبُره حتى يموت ، و يسقى عن الخمر ماء حتى يموت . وقال ابن الماجشون : إن من قَتل بالنار أو بالسمّ لا يُقتل به ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يعذّب بالنار إلا الله " . والسمّ نار باطنة . وذهب الجمهور إلى أنه يُقتل بذلك ؛ لعموم الآية .

الثامنـــة - وأما القَوَد بالعصا فقال مالك فى إحدى الروايتين : إنه إن كان فى القتل بالعصا تطويل وتعذيب قُتل بالسيف ؛ رواه عنه ابن وهب ، وقاله ابن القاسم . وفى الأخرى : يُقتـل بها وإن كان فيه ذلك ؛ وهو قول الشافعى . وروى أشهب وابن نافع عن مالك فى الحجر والعصا أنه يُقتل بهما إذا كانت الضَّربة مُجْهِزة ؛ فأمّا أن يُضرب ضربات فلا . وعليه لا يُرْمَى بالنَّبل ولا بالحجارة لأنه من التعذيب ؛ وقاله عبد الملك . قال ابن العربى : «والصحيح من أقوال علمائنا أن المماثلة واجبة ، إلا أن تدخل فى حدّ التعذيب فلتترك إلى السيف» . واتّفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه قصْدَ التعذيب فُعل به ذلك ، كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بقَتَلة الرِّعاء [(1)] . وإن كان فى مدافعة أو مضاربة قتل بالسيف . وذهبت طائفة إلى خلاف هذا كله فقالوا : لا قَوَد إلا بالسيف ، وهو مذهب أبى حنيفة والشَّعبيّ والنَّخَعيّ .

(1) هم قوم من عُرَينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا واستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم واصفرت ألوانهم وعظمت بطونهم ؛ فبعث بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحّوا فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل ؛ فبعث نبى الله فى طلبهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم . (راجع كتب السنة فى هذا الحديث) .

Marfat.com

واحتجّوا على ذلك بما رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا قَوَد إلا بحديدة"، وبالنهى عن المُثْلة، وقوله : "لا يُعذِّب بالنار إلّا ربُّ النار". والصحيح ماذهب إليه الجمهور، لما رواه الأئمة عن أنس بن مالك أن جارية وُجِد رأسها قد رُضّ بين حجرين؛ فسألوها : من صنع هذا بك ! أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا فأوْمأت برأسها، فأُخِذ اليهودى فأقرّ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُرَضّ رأسه بالحجارة . وفى رواية : فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حجرين . وهذا نصٌّ صريح صحيح، وهو مقتضى قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » وقوله : « فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . وأمّا ما آستدلّوا به من حديث جابر فحديث ضعيف عند المحدّثين، لا يُروَى من طريق صحيح، ولو صح قلنا بموجبه، وأنه إذا قتل بحديدة قُتل بها؛ يدلّ على ذلك حديث أنس : أن يهوديًّا رضّ رأس جارية بين حجرين فرضّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بين حجرين . وأمّا النّهى عن المُثْلة فنقول أيضًا بموجبها إذا لم يُمثِّل، فإذا مثّل مثّلنا به؛ يدلّ على ذلك حديث العُرَنيّين، وهو صحيح أخرجه الأئمة . وقوله : "لا يُعذِّب بالنار إلّا ربُّ النار" صحيح إذا لم يُحرِق، فإن حرق حُرِق؛ يدلّ عليه عموم القرآن . قال الشافعيّ : إن طرحه فى النار عمدًا طُرِح فى النار حتى يموت؛ وذكره الوَقّار[1] فى مختصره عن مالك . وهو قول محمد بن عبد الحكم . قال آبن المنذر : وقول كثير من أهل العلم فى الرجل يَخنُق الرجلَ : عليه القَوَد؛ وخالف فى ذلك محمد بن الحسن فقال : لو خنقه حتى مات أو طرحه فى بئر فمات، أو ألقاه من جبل أو سطح فمات، لم يكن عليه قصاص وكان على عاقلته الدِّية؛ فإن كان معروفًا بذلك — قد خنق غير واحد — فعليه القتل . قال آبن المنذر : ولما أقاد النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليهوديّ الذى رضّ رأس الجارية بالحجر كان هذا فى معناه، فلا معنى لقوله .

قلت : وحكى هذا القول غيره عن أبى حنيفة فقال : وقد شذّ أبو حنيفة فقال فيمن قتل بخَنْق أو بسمّ أو تردية من جبل أو بئر أو بخشبة : إنه لا يُقتل ولا يُقتصّ منه، إلا إذا

(١) هو (كما فى كشف الظنون) : زكريا بن يحيى بن إبراهيم الفقيه المصرى، أخذ عن ابن القاسم وابن وهب .

Marfat.com

قتل بمحـدّدٍ حديدٍ أو حجر أو خشب أو كان معروفاً بالخنق والتّردية وكان على عاقلته الدّية . وهذا منه ردّ للكتاب والسّنة ، و إحداثٌ مالم يكن عليه أمر الأمة ، وذريعةٌ إلى رفع القصاص الذى شرعه الله للنفوس ، فليس عنه مناص .

التاســعة — وآختلفوا فيمن حبس رجلا وقتـله آخر ؛ فقـال عطاء : يُقتـل القاتل ويُحبَس الحابس حتى يموت . وقال مالك : إن كان حبسه وهو يرى أنه يريد قتله قُتلا جميعًا ، وفى قول الشافعىّ وأبى ثور والنّعمان يُعاقَب الحابس . وآختاره آبن المنذر .

قلت : قول عطاء صحيح ، وهو مقتضى التنزيل . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن آبن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا أمسك الرجلُ الرجلَ وقتله الآخر يُقتل القاتل ويُحبس الذى أمسكه" . رواه سفيان الثورىّ عن إسماعيل بن أميّـة عن نافع عن آبن عمر ، ورواه معمر وآبن جُريج عن إسماعيل مُرسَلًا .

العاشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى ﴾ الآعتداء هو التجاوز ؛ قال الله تعالى : «وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ»[1] أى يتجاوزها ؛ فمن ظلمك فخذ حقّك منه بقدر مظلمتك ، ومن شتمك فردّ عليه مثل قوله ، ومن أخذ عِرْضَك فخذ عِرضه ؛ لا تتعدّى إلى أبويه ولا إلى آبنه أو قريبه ؛ وليس لك أن تكذب عليه و إن كذب عليك ، فإن المعصية لا تُقابل بالمعصية ؛ فلو قال لك مثلاً : يا كافر ، جاز لك أن تقول له : أنت الكافر . و إن قال لك : يازان ، فقصاصك أن تقول له : يا كذّاب يا شاهد زُور . ولو قلت له يا زانٍ ، كنت كاذبًا وأثمتَ فى الكذب . و إن مَطَلك وهو غنىّ دون عُذر فقل : يا ظالم ، يا آكل أموال الناس ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لَىُّ[2] الواجد يُحِلّ عِرْضَه وعقوبتَه" . أمّا عِرْضه فبما فسّرناه ، وأمّا عقوبته فالسجن يُحبس فيه . وقال آبن عباس : نزل هذا قبل أن يقوَى الإسلام ؛ فأمر مَن أُوذِىَ من المسلمين أن يُجازِى بمثل ما أُوذِىَ به ، أو يَصبر أو يعفو ؛ ثم نسخ ذلك بقوله : «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً»[3] . وقيل : نسـخ ذلك بتصييره إلى السلطان . ولا يحِلّ لأحد أن يقتصّ من أحد إلا بإذن السلطان .

(١) راجع جـ ٣ ص ١٤٦ و جـ ١٨ ص ١٥٦ (٢) اللىّ : المطل . والواجد : القادر على قضاء دينه .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٣٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٩٥)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخاري عن حذيفة : « وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ » قال : نزلت في النفقة . وروى يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال : غزونا القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد ، والروم مُلْصِقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مَهْ مَهْ ![1] لا إله إلا الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة ! فقال أبو أيوب : سبحان الله ! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيّه وأظهر دينه ؛ قلنا : هلمّ نقيم في أموالنا ونُصلحها ؛ فأنزل الله عز وجل : « وأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ » الآية . والإلقاء باليد إلى التَّهْلُكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد . فلم يزل أبو أيوب مجاهدًا في سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية ؛ فقبره هناك . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك . ورُوي مثله عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك .

قلت : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا الخبر بمعناه فقال : « كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فُضالة بن عُبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يُلقي بيديه إلى التهلكة . فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يأيها الناس ، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام

---

(١) مه : زجر ونهي ، فإن وصلت نونت قلت : مه مه ، وكذلك صه .

Marfat.com

وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم يردّ علينا ما قلنا : « وَأَنْفِقُوا فِى سَــبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال و إصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصًا فى سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح » . وقال حُذيفة بن اليمان وآبن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد و جمهور الناس : المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العَيْلة ، فيقول الرجل : ليس عندى ما أنفقه . و إلى هذا المعنى ذهب البخارىّ إذ لم يذكر غيره، والله أعلم . قال آبن عباس : أنفق فى سبيل الله، وإن لم يكن لك إلا سَهم أو مِشْقَص(١)، ولا يقولنّ أحدكم : لا أجد شيئًا . ونحوه عن السُّدّى : أنفق ولو عِقالًا ، ولا تُلْق بيــدك إلى التهلكة فتقول : ليس عنــدى شىء . وقول ثالث قاله آبن عباس ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم لمــا أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام إليه أناس من الأعراب حاضرين بالمدينة فقالوا : بماذا نتجهّز ! فوالله مالنا زاد ولا يطعمنا أحد، فنزل قوله تعالى : «وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ» يعنى تصدّقوا يا أهل المَيْسرة فى سبيل الله، يعنى فى طاعة الله « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » يعنى ولا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا، وهكذا قال مقاتل . ومعنى قول آبن عباس : ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا ؛ أى لا تمسكوا عن النفقة على الضعفاء ، فإنهم إذا تخلّفوا عنكم غلبكم العــدوّ فتهلكوا . وقول رابع — قيل للبراء ابن عازب فى هــذه الآية : أهو الرجل يَحمل على الكتيبة ؟ فقال لا ، ولكنه الرجل يصيب الذّنب فيُلقى بيديه و يقول : قد بالغت فى المعاصى ولا فائدة فى التوبة، فييأس من الله فينهمك بعد ذلك فى المعاصى . فالهلاك : اليأس من الله، وقاله عَبيدة السَّلْمانى . وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تســافروا فى الجهاد بغير زاد ، وقد كان فَعَــل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع فى الطريق ، أو يكون عالة على الناس . فهذه خمسة أقوال . و « سبيل الله » هنا : الجهاد ، واللفظ يتناول بعــدُ جميع سُبُله . والبــاء فى « بأيديكم » زائدة . التقــدير تلقوا أيديكم .

(١) المشقص (كمنبر) : نصل عريض أو سهم فيه نصل ، يرمى به الوحش .

Marfat.com

ونظيره : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » (١) . وقال المبرّد : « بِأَيْدِيكُمْ » أى بأنفسكم ؛ فعبّر بالبعض عن الكل ؛ كقوله : « فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » (٢) ، « بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ » (٣) . وقيل : هذا ضَرْب مَثَل ؛ تقول : فلان ألقى بيده فى أمر كذا إذا آستسلم ؛ لأن المستسلم فى القتال يُلقى سلاحه بيديه ، فكذلك فعلُ كلّ عاجز فى أىّ فعل كان ، ومنه قول عبد المطلب : « والله إن إلقاءنا بأيدينا للموت لَعجزٌ » (٤) . وقال قوم : التقدير لاتلقوا أنفسكم بأيديكم ؛ كما تقول : لاتفسد حالك برأيك . والتَّهْلُكة (بضم اللام) مصدر من هَلَك يَهْلِك هلاكًا وهُلْكًا وتَهْلُكة ، أى لا تأخذوا فيما يهلككم ؛ قاله الزجاج وغيره . أى إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم . وقيل . إن معنى الآية لا تمسكوا أموالكم فيرثها منكم غيركم ، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم . ومعنى آخر : ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخَلَف فى الدنيا والثواب فى الآخرة . ويقال : « لا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة » يعنى لاتنفقوا من حرام فيُرَدّ عليكم فتهلكوا . ونحوه عن عكرمة قال : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » قال : « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » . وقال الطبرى : قوله « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » عامّ فى جميع ما ذُكر لدخوله فيه ، إذ اللفظ يحتمله .

الثانيـــة — آختلف العلماء فى آقتحام الرجل فى الحرب وحَمْله على العدوّ وحدَه ؛ فقال القاسم بن مُخَيْمِرة والقاسم بن محمد وعبد الملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيــه قوّة ، وكان لله بنيّة خالصة ؛ فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة . وقيل : إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل . لأن مقصوده واحد منهـم ؛ وذلك بيّن فى قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَــهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » (٥) . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : فأمّا أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنّه أن سيقتل مَن حمل عليه وينجو فحسن . وكذلك لو علم وغلب على ظنّه أن يُقتل ولكن سَيُنْكِى نِكاية أو سيُبلى أو يؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضا . وقد بلغنى أن عسكر المسلمين لما لقى الفرس نفرت خيل المسلمين من

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٤   (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠   (٣) فى نسخ الأصل : « بما كسبت » راجع جـ ١٢ ص ١٦   (٤) عبارة عبد المطلب كما أوردها آبن هشام فى سيرته عند الكلام على حفر زمزم : « والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لعجز » اهـ .   (٥) راجع جـ ٣ ص ٢٠ .

Marfat.com

الفيلة ، فعمد رجل منهم فصنع فيلًا من طين وأنّس به فرسه حتى أَلِفه ، فلما أصبح لم ينفِر فرسُه من الفيل فحمل على الفيل الذى كان يقدُمها فقيل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضَير أن أُقتل ويُفتح للسلمين . وكذلك يوم اليمامة لما تحصّنت بنو حنيفة بالحديقة ، قال رجل من المسلمين[1] : ضعونى فى الجحفة[2] وألقونى إليهم ؛ ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب .

قلت : ومن هــذا ماروى أن رجلًا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن قُتِلت فى سبيل الله صابرًا محتسبًا؟ قال : "فلك الجنة" . فانغمس فى العدو حتى قُتِل . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُفرِد[3] يوم أُحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش؛ فلما رَهِقوه[4] قال: "من يردّهم عنّا وله الجنة" أو "هو رفيق فى الجنة" فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . [ثم رهِقوه أيضا فقال : "من يردّهم عنا وله الجنة" أو "هو رفيق فى الجنة". فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل[5]] . فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "ما أنصفْنا أصحابَنا". هكذا الرواية «أنصفْنا» بسكون الفاء «أصحابَنا» بفتح الباء؛ أى لم نَدُلّهم[6] للقتال حتى قتلوا . وروى بفتح الفاء ورفع الباء ؛ ووجهها أنها ترجع لمن فرّ عنه من أصحابه، والله أعلم. وقال محمد بن الحسن: لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدو؛ فإن لم يكن كذلك فهو مكروه ؛ لأنه عرّض نفسه للتلف فى غير منفعة للسلمين . فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه، ولأن فيه منفعة للسلمين على بعض الوجوه . وإن كان قصده إرهاب العدو وليعلم صلابة المسلمين فى الدّين فلا يبعد جوازه . و إذا كان فيه نفع للسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذى مدح الله به المؤمنين فى قوله : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »[7] الآية، إلى غيرها من آيات المدح التى مدح الله بها من بذل نفسه . وعلى ذلك ينبغى أن يكون حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنه متى رجا نفعًا فى الدّين فبذل نفسه فيه حتى قُتل كان

(١) هو البراء بن مالك، أخو أنس بن مالك، كما فى تاريخ الطبرى . (٢) الجحفة (بتقديم الحاء على الجيم والتحريك) : ترس يتخذ من الجلود . (٣) أفرد يوم أحد ، أى حين انهزم الناس وخلص إليه العدو . (٤) رهقه (بكسر ثانيه) : غشيه ولحقه . (٥) زيادة عن صحيح مسلم . (٦) أى لم نرشدهم . نسدّدهم . (٧) راجع جـ ٨ ص ٢٦٧ .

Marfat.com

فى أعلى درجات الشهداء ؛ قال الله تعالى : « وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »[1] . وقد روى عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجلٌ تكلّم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتله " . وسيأتى القول فى هذا فى « آل عمران » إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا ﴾ أى فى الإنفاق فى الطاعة ، وأحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم . وقيل : «أحسنوا» فى أعمالكم بامتثال الطاعات ؛ روى ذلك عن بعض الصحابة .

قوله تعالى : وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعُمْرة لله ؛ فقيل : أداؤهما والإتيان بهما ؛ كقوله : « فَأَتَمَّهُنَّ » وقوله : « ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ » أى ائتوا بالصيام ؛ وهذا على مذهب من أوجب العُمرة ، على ما يأتى . ومن لم يوجبها قال : المراد تمامهما بعد الشروع فيهما ، فإن مَن أحرم بنُسك وجب عليه المضيّ فيه ولا يفسخه ؛ قال معناه الشعبيّ وابن زيد . وعن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إتمامهما أن تُحرم بهما من دُوَيْرة أهلك . ورُوى ذلك عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقّاص ، وفعله عمران بن حصين . وقال سفيان

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٨ .

Marfat.com

الثَّورِيّ : إتمامهما أن تخرج قاصدًا لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك ؛ ويقوى هذا قوله «لله» . وقال عمر : إتمامهما أن يُفرد كلّ واحد منهما من غير تمتّع وقِران؛ وقاله آبن حبيب . وقال مُقاتل : إتمامهما ألّا تستحِلّوا فيهما ما لا ينبغى لكم ؛ وذلك أنهم كانوا يشركون فى إحرامهم فيقولون : لَبّيْك اللّهُمّ لَبّيْك ، لا شريكَ لك إلا شريكًا هو لك ، تَمْلكه وما مَلَك . فقال: فأتموهما ولا تخلطوهما بشىء آخر .

قلت : أمّا ما رُوِىَ عن علىّ وفعله عِمران بن حُصين فى الإحرام قبل المواقيت التى وقّتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال به عبد الله بن مسعود وجماعة من السلف، وثبت أن عمر أهلّ من إيلياء، وكان الأسود وعلقمة وعبد الرحمن وأبو إسحاق يُحرمون من بيوتهم؛ ورخّص فيه الشافعى . وروى أبو داود والدّارَقُطنِيّ عن أمّ سَلَمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن أحرم من بيت المقدس بحجّ أو عُمْرة كان من ذنوبه كيوم[(١)] ولدته أمه" فى رواية "غُفرله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر" . وخرجه أبو داود وقال : «يرحم الله وَكيعًا ! أحرم من بيت المقدس ؛ يعنى إلى مكة» . ففى هذا إجازة الإحرام قبل الميقات. وكره مالك رحمه الله أن يُحرم أحدٌ قبل الميقات ، ويروى ذلك عن عمر بن الخطاب، وأنه أنكر على عِمران بن حُصين إحرامه من البصرة . وأنكر عثمان على آبن عمر[(٢)] إحرامه قبل الميقات . وقال أحمد وإسحاق : وجه العمل المواقيت ؛ ومن الحجة لهذا القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت المواقيت وعيّنها ، فصارت بيانًا لمجمل الحج ، ولم يُحرم صلى الله عليه وسلم من بيته لحجته ، بل أحرم من ميقاته الذى وقّته لأمته ؛ وما فعله صلى الله عليه وسلم فهو الأفضل إن شاء الله . وكذلك صنع جمهور الصحابة والتابعين بعدهم . وآحتج أهل المقالة الأولى بأن ذلك أفضل بقول عائشة : ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا آختار أيسرهما ؛ وبحديث أمّ سلمة مع ما ذُكر عن الصحابة فى ذلك ، وقد شهدوا إحرام رسول الله

---

(١) كذا فى الدارقطنى . وفى الأصول : « كهيئة يوم » . (٢) فى شرح الموطأ للزرقانى : « ... على عبد الله بن عامر » وعبد الله بن عامر هذا ابن خال عثمان وكان واليا له على البصرة .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم فى حجته من ميقاته، وعرفوا مغزاه ومراده، وعلموا أن إحرامه من ميقاته كان تيسيرًا على أمته .

الثانيــة — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت لأهل المدينة ذا الحُلَيفة(١)، ولأهل الشام الجُحْفة(٢)، ولأهل نجد قَرْن(٣)، ولأهل اليمن يَلَمْلَم(٤)، هُنّ لهنّ ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعُمْرة . ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ؛ حتى أهل مكة من مكة يُهِلّون منها. وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله، لا يخالفون شيئا منه . واختلفوا فى ميقات أهل العراق وفيمن وقّته؛ فروى أبو داود والترمذى عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم وقّت لأهل المشرق العَقِيق . قال الترمذىّ : هذا حديث حَسَن . وروى أن عمر وقّت لأهل العراق ذات عِرْق(٥) . وفى كتاب أبى داود عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت لأهل العراق ذات عِرْق؛ وهذا هو الصحيح . ومن روى أن عمر وقّته لأن العراق فى وقته افتتحت، فغفلة منه ؛ بل وقّته رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وقّت لأهل الشام الجُحْفة . والشام كلها يومئذ دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان، ولم تُفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر ، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل السِّيَر . قال أبو عمر : كلّ عِراقىّ أو مَشْرِقىّ أحرم من ذات عِرْق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته ، والعقيق أحوط عندهم وأولى من ذات عِرْق ، وذات عِرْق ميقاتهم أيضا بإجماع .

الثالثــة — أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتى الميقات أنه مُحْرِم ، وإنما منع من ذلك من رأى الإحرام عند الميقات أفضل؛ كراهية أن يضيّق المرء على نفسه ما قد وسّع الله عليه . وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يحدث فى إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك . لأنه زاد ولم ينقص .

(١) ذو الحليفــة (مصغر حلفة) : قرية خربة بينها وبين مكة مائتا ميــل .　(٢) الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة) : قرية خربة بينها وبين مكة خمس مراحل ، و يقرب منها القرية المعروفة برابغ — براء وموحدة وغين معجمة — ويصح الإحرام منها .　(٣) قرن : (بفتح فسكون) : جبل مشرف على عرفات ، وهو على مرحلتين من مكة .　(٤) يلملم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام) : مكان على مرحلتين من مكة .
(٥) ذات عرق : قرية على مرحلتين من مكة .

Marfat.com

الرابعـــة -- فى هذه الآية دليل على وجوب العُمْرة ، لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج . قال الصُّبَىّ[(١)] بن مَعْبد : أتيت عمر رضى الله عنه فقلت إنى كنت نصرانيًّا فأسلمت، وإنى وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ ، وإنى أهللت بهما جميعًا . فقال له عمر هُدِيت لسُنّة نبيّك . قال آبن المنذر : ولم ينكر عليه قوله : «وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ» . وبوجوبهما قال علىّ بن أبى طالب وآبن عمر وآبن عباس . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن آبن جُريج قال : أخبرنى نافع أن عبـد الله بن عمر كان يقول : ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعُمرة واجبتان مَن آستطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فمن زاد بعدها شـيئا فهو خير وتطوّع . قال : ولم أسمعه يقول فى أهل مكة شيئا . قال آبن جريج : وأُخبرت عن عكرمة أن آبن عباس قال : العمرة واجبة كوجوب الحج من آستطاع إليه سبيلا . وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وآبن سيرين والشّعبىّ وسعيد بن جُبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شدّاد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عُبيد وآبن الجَهْم من المـالكيين . وقال الثورىّ : سمعنا أنها واجبة . وسـئل زيد بن ثابت عن العمرة قبـل الحج ؛ فقال : صلاتان لا يضرّك بأيّهما بدأت ؛ ذكره الدّارَقُطْنِىّ . وروى مرفوعًا عن محمـد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرّك بأيّهما بدأت" . وكان مالك يقول : «العمرة سُنّة ولا نعلم أحدًا أرخص فى تركها» . وهو قول النخعىّ وأصحاب الرأى فيما حكى آبن المنذر . وحكى بعض القزوينيين والبغداديين عن أبى حنيفة أنه كان يوجبها كالحج ، وبأنها سنة ثابتة ؛ قاله آبن مسعود وجابر بن عبد الله . روى الدّارقطنى حدّثنا محمد بن القاسم بن زكريا حدّثنا محمد بن العلاء أبو كُرَيب حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبـد الله قال : سأل رجل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : "نعم" فسأله عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : "لا وأن تعتمر خير لك" . رواه يحيى[(٢)] بن أيوب عن حجاج وآبن جريج عن آبن المنكدر

---

(١) الصبى (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وتشديد الياء) .

(٢) فى نسخ الأصل : « محمد » والتصويب من سنن الدارقطنى .

Marfat.com

عن جابر موقوفًا من قول جابر . فهذه حجـة من لم يوجبها من الســنة . قالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب ؛ لأن الله سبحانه إنمـا قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء ، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكَاةَ » . وابتدأ بإيجاب الحج فقال : «وِلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»(١) ولمـا ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها، فلو حج عشر حجج، أو اعتمر عشر عُمَر لزم الإتمام فى جميعها ؛ فإنما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء ، والله أعلم . واحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال : عماد الحج الوقوف بعرفـة ؛ وليس فى العمرة وقوف ؛ فلو كانت كسُنّة الحج لوجب أن تساويه فى أفعاله ؛ كما أن سُنة الصلاة تساوى فريضتها فى أفعالها .

الخامســـة — قرأ الشعبي وأبو حَيْوَة برفع التاء فى «العُمرة» ؛ وهى تدل على عدم الوجوب . وقرأ الجماعة « العمرةَ » بنصب التاء ، وهى تدل على الوجوب . وفى مصحف ابن مسعود « وأتمّوا الحجّ والعمرةَ إلى البيت لله »(٢) وروى عنه « وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» . وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتّظاهر والتّناضـل والتّنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق ؛ وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ، ولاحظّ بقصد ، ولا قُرْبة بمعتقَـد ؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليـه لأداء فرضه وقضاء حقـه ، ثم سامح فى التجارة ، على ما يأتى .

السادســـة — لا خلاف بين العلمـاء فيمن شهد مناســك الحج وهو لا ينوى حجًّـا ولا عُمـرة — والقلم جارٍ له وعليه — أن شهودها بغير نيّة ولا قصد غير مغْنٍ عنه ، وأن النية تجب فرضًا ؛ لقوله تعالى : « وَأَتِمُّوا » ومن تمام العبادة حضور النية ، وهى فرض كالإحرام عند الإحرام ؛ لقوله عليه السلام لمـا ركب راحلته :"لَبَّيْكَ بحجّة وعُمْرة معًا" على ما يأتى . وذكر الربيع فى كتاب البُوَيْطى عن الشافعى قال : ولو لَبّى رجلٌ ولم يَنْوِ حجًّا ولاعمرة لم يكن

(١) راجع جـ ٤ ص ١٤٢ (٢) قال أبو حيان فى البحر : ينبغى أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمع عليه المسلمون .

Marfat.com

حاجًّا ولا مُعْتَمِرًا، ولو نوى ولم يُلَبِّ حتى قضى المناسك كان حجه تامًّا؛ وآحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنّيات " . قال : ومن فعل مثل ما فعل علىٌّ حين أهلّ على إهلال النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزته تلك النية؛ لأنها وقعت على نيةٍ لغيره قد تقدّمت، بخلاف الصلاة .

السابعــة — وآختلف العلماء فى المراهق والعبد يُحرِمان بالحج ثم يحتلم هذا و يعتِق هذا قبل الوقوف بعرفة؛ فقال مالك : لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد متمسكًا بقوله تعالى : « وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لِلهِ » ومَن رفض إحرامه فلا يتمّ حجـه ولا عمرته . وقال أبو حنيفة : جائز للصبيّ إذا بلغ قبل الوقوف بعَرَفة أن يجدّد إحراما ؛ فإن تمـادى على حجه ذلك لم يجزه من حجّة الإسلام. واحتجّ بأنه لمـّا لم يكن الحج يجزى عنه،ولم يكن الفرض لازمًا له حين أحرم بالحج ثم لزمه حين بلغ آستحال أن يُشغل عن فرضٍ قد تعيّن عليه بنافلة و يعطّل فرضه ؛ كمن دخل فى نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخَشِىَ فوتها قطع النافلة ودخل فى المكتوبة . وقال الشافعىّ : إذا أحرم الصبىّ ثم بلغ قبل الوقوف بعَرَفة فوقف بها مُحْرِمًا أجزاه من حجة الإسلام، وكذلك العبد . قال : ولو عَتَق بمزدلفة و بلغ الصبىّ بها فرجعا إلى عرفة بعــد العتق والبلوغ فأدركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإســلام، ولم يكن عليهما دم ؛ ولو آحتاطا فأهراقا(١) دمًا كان أحبّ إلىّ،وليس ذلك بالبيّن عندى. وآحتجّ فى إسقاط تجديد الإحرام بحديث علىّ رضى الله عنه إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من اليمن مُهِلًّا بالحج : " بِمَ أَهْلَلْتَ " قال قلت : لَبَّيْكَ اللّهُمّ بإهلالٍ كإهلال نبيّك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"فإنى أهللتُ بالحج وسُقْتُ الهَدْىَ". قال الشافعىّ : ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته،ولا أمره بتجديد نيةٍ لإفرادٍ أو تمتّع أو قِرانٍ. وقال مالك فى النصرانىّ يُسلم عشيّةَ عرفة فيُحْرِم بالحج : أجزاه من حجة الإسلام ، وكذلك العبد يَعتِق ، والصبىّ يبلغ إذا لم يكونوا محرمين ولادَمَ على واحد منهم؛و إنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يُحرم من الميقات .

---

(١) هراق الماء وأهرقه وأهراقه : صبه . وأصله : أراقه .

Marfat.com

وقال أبو حنيفة : يلزم العبد الدّم . وهــو كالحُر عندهم في تجاوز الميقات ؛ بخلاف الصبيّ والنّصرانيّ فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما . فإذا أسلم الكافر وبلغ الصبيّ كان حكمهما حكم المكيّ، ولا شيء عليهما في ترك الميقات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فيه آثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قال ابن العربي : هذه آية مشكلة، عُضْلة من العُضَل .

قلت : لا إشكال فيها، ونحن نبيّنها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذي تقصده بالعوائق جملةً ؛ فـ«جملة» أي بأيّ عذر كان، كان حَصْرُ عدوٍّ أو جورُ سلطان أو مرضٌ أو ما كان . وآختلف العلماء في تعيين المانع هنا على قولين : الأوّل — قال علقمة وعُروة ابن الزبير وغيرهما : هو المرض لا العدوّ . وقيل : العدوّ خاصّة ؛ قاله آبن عباس وآبن عمر وأنس والشافعيّ . قال آبن العربي : وهو آختيار علمائنا . ورأى أكثر أهل اللغة ومحصّليها على أنّ « أُحْصِر » عُرِّض للمرض، و « حُصِر » نزل به العدوّ .

قلت : ما حكاه آبن العربي من أنه آختيار علمائنا فلم يقل به إلّا أشهب وحده، وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا وقالوا : الإحصار إنما هو المرض، وأما العدوّ فإنما يقال فيه : حصر حَصْرًا فهو محصور ؛ قاله الباجي في المنتقَى . وحكى أبو إسحاق الزجاج أنه كذلك عنـد جميع أهل اللغة، على ما يأتي . وقال أبو عبيدة والكسائي : « أُحْصِر » بالمرض ، و « حُصِر » بالعدوّ . وفي المجمَل لابن فارس على العكس ؛ فحُصِر بالمرض، وأُحْصِر بالعدوّ . وقالت طائفة : يقال أحصر فيهما جميعًا من الرباعي ، حكاه أبو عمر .

قلت : وهو يشبه قول مالك حيث ترجم في مُوَطّئه «أحصر» فيهما ؛ فتأمله . وقال الفرّاء : هما بمعنًى واحد في المرض والعدوّ . قال القُشيري أبو نصر : وآدّعت الشافعية أن الإحصار يستعمل في العدوّ، فأما المرض فيُستعمل فيه الحصر ؛ والصحيح أنهما يُستعملان فيهما .

قلت : ما آدّعته الشافعية قـد نَصّ الخليل بن أحمد وغيره على خلافه . قال الخليـل : حَصرت الرجل حصرًا منعته وحبسته ، وأُحْصِر الحاج عن بلوغ المناسك من مرض أو نحوه ؛

Marfat.com

هكذا قال ، جعـل الأول ثُلاثيًا من حصرت، والثانى فى المرض رُباعياً . وعلى هـذا خرج قول ٱبن عباس : لا حَصْرَ إلا حَصْرُ العدو . وقال ٱبن السِّكيت : أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريدها . وقـد حصره العدو يحصُرونه إذا ضيّقوا عليـه فأطافوا به، وحاصروه محاصرةً وحصاراً . قال الأخفش : حصرت الرجل فهـو محصور؛ أى حبسته . قال : وأحصرنى بَوْلى، وأحصرنى مرضى؛ أى جعلنى أحصر نفسى . قال أبو عمرو الشيبانى: حصرنى الشىء وأحصرنى؛ أى حَبسنى .

قلت : فالأكثر من أهل اللغة على أن «حُصر» فى العدو، و «أحصر» فى المرض؛ وقد قيل ذلك فى قول الله تعالى: « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ »(١) . وقال ٱبن مَيّادة :

وما هجر لَيْـلَى أن تكون تباعدَتْ * عليكَ ولا أنْ أحْصَرَتْك شُـغولُ

وقال الزجاج: الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأمّا من العدو فلا يقال فيه إلا حُصِر؛ يقال : حُصِر حصرًا، وفى الأوّل أُحصِر إحصاراً؛ فدل على ما ذكرناه . وأصل الكلمة من الحبس ؛ ومنـه الحَصِير للذى يَحبس نفسه عن البَوْح بسرّه . والحَصِير : المَلِك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب . والحَصِير الذى يجلس عليـه لأنضمام بعض طاقات البَرْدِيّ(٢) إلى بعض؛ كحبس الشىء مع غيره .

الثانيـــة — ولمّـا كان أصل الحصر الحبس قالت الحنفيّة : المُحْصَر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غير ذلك . وٱحتجُّوا بمقتضى الإحصار مطلقا ، قالوا : وذِكْرُ الأمن فى آخر الآية لا يدل على أنه لا يكون من المرض؛ قال صلى الله عليه وسلم: "الزكام أمان من الجُذام"، وقال : "مَن سَبَق العاطسَ بالحمد أَمِن من الشَّوْص واللَّوْص والعِلَّوْص" . الشَّوْص : وجع السن . واللَّوْص : وجع الأذن . والعِلَّوْص : وجع البطن. أخرجه ٱبن ماجه فى سُننه . قالوا : و إنما جعلنا حبس العدو حصارًا قياسًا على المرض إذا كان

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٩ (٢) البردى (بفتح الموحدة وسكون الراء) : نبات يعمل منـه الحصر . وبضمها وسكون الراء : ضرب من أجود التمر .

Marfat.com

فى حكمه، لا بدلالة الظاهر . وقال ٱبن عمر وٱبن الزبير وٱبن عباس والشافعىّ وأهل المدينة: المراد بالآية حَصْر العدو؛ لأن الآية نزلت فى سنة سِتّ فى عُمْرة الحُدَيْبِيَة حين صدّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة. قال ٱبن عمر: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحال كفار قريش دون البيت، فنَحَر النبيّ صلى الله عليه وسلم هَدْيه وحلَق رأسه . ودلّ على هذا قوله تعـالى : «فَإِذَا أَمِنتُمْ» . ولم يقل : برأتم؛ والله أعلم .

الثالثـــة — جمهور الناس على أن المُحْصَر بعدوّ يَحِلّ حيث أُحْصِر ويَنْحَر هَدْيه إن كان ثَمّ هَدْيٌ ويَحْلِق رأسه . وقال قتادة وإبراهيم : يبعث بهَدْيه إن أمكنه، فإذا بلَغ مَحِلّه[1] صار حلالاً . وقال أبو حنيفة : دم الإحصار لا يتوقّف على يوم النحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر إذا بلَغ مَحِلّه، وخالفه صاحباه فقالا : يتوقّف على يوم النحر، وإن نُحِر قبله لم يُجْزه . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان .

الرابعـــة — الأكثر من العلماء على أن من أُحْصِر بعدوّ كافر أو مسلم أو سلطان حبسه فى سجن أنّ عليـه الهَدْى؛ وهو قول الشافعى، وبه قال أشهب . وكان ٱبن القاسم يقول : ليس على مَن صُدّ عن البيت فى حج أو عُمْرة هَدْىٌ إلا أن يكون ساقه معه؛ وهو قول مالك . ومن حُجّتهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما نحر يوم الحُدَيْبِيَة هَدْيًا قد كان أشعره[2] وقلّده حين أحرم بعمرة، فلما لم يبلغ ذلك الهَدْى مَحِلّه للصّدّ أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنُحِر، لأنه كان هَدْيًا وجب بالتقليد والإشعار، وخرج لله فلم يجز الرجوع فيه؛ ولم ينحره رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الصدّ؛ فلذلك لا يجب على مَن صُدّ عن البيت هَدْىٌ . وٱحتجّ الجمهور بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَحِلّ يوم الحُدَيْبِيَة ولم يَحْلِق رأسه حتى نحر الهَدْىَ؛ فدلّ ذلك على أنّ مِن شَرْط إحلال المُحْصَر ذَبْح هَدْى إن كان عنده، وإن كان فقيرًا فمتى وجده وقَدَر عليه لا يَحِلّ إلا به؛ وهو مقتضى قوله : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » .

---

(١) محله : أى الموضع والوقت الذى يحل فيهما نحره؛ وهو يوم النحر بمنى .

(٢) إشعار الهدى : هو أن يشق أحد جنبى السنام حتى يسيل الدم؛ ويجعل ذلك علامة له يعرف بها أنه هدى . وتقليده : أن يجعل فى عنقه شعار يعلم به أنه هدى .

Marfat.com

وقد قيـل : يحلّ ويُهْدى إذا قَدَر عليـه ؛ والقولان للشافعي . وكذلك من لا يجد هَدْيًا يشتريه ؛ قولان .

الخامســـة ـــ قال عطاء وغيره : المُحْصَر بمرض كالمُحْصَر بعدو . وقال مالك والشافعيّ وأصحابهما : من أحصره المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت و إن أقام سنين حتى يُفيق . وكذلك من أخطأ العدد أوخَفِيَ عليه الهلال . قال مالك : وأهلُ مكة فى ذلك كأهل الآفاق . قال : و إن آحتاج المريض إلى دواء تداوى به وآفتدى و بقى على إحرامه لايحلّ من شيء حتى يبرأ من مرضه ؛ فإذا برئ من مرضه مضى إلى البيت فطاف به سبعًا ، وسعى بين الصَّفَا والمَرْوة ، وحلّ من حَجّتـه أو عُمرته . وهـذا كله قول الشافعى ، وذهب فى ذلك إلى ماروى عن عمر وآبن عباس وعائشة وآبن عمر وآبن الزبير أنهم قالوا فى المُحْصَر بمرض أو خطأ العـدد : إنه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وكذلك مَن أصابه كسر أو بطن منخرق . وحُكْم من كانت هذه حاله عند مالك وأصحابه أن يكون بالخيار إذا خاف فوت الوقوف بعرَفَة لمرضه ، إن شاء مضى إذا أفاق إلى البيت فطاف وتحلّل بعمرة ، و إن شاء أقام على إحرامه إلى قابل ، و إن أقام على إحرامه ولم يواقع شيئا مما نُهى عنه الحاجّ فلا هَدْى عليه . ومن حُجّته فى ذلك الإجماع من الصحابة على أن من أخطأ العدد أن هذا حكمه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وقال فى المكىّ إذا بقى محصورًا حتى فرغ الناس من حَجّهم : فإنه يخرج إلى الحِلّ فيُلَبِّي ويفعل ما يفعله المعتمِر ويحلّ ، فإذا كان قابل حجّ وأهدى . وقال آبن شهاب الزهرىّ فى إحصار من أُحْصِر بمكة من أهلها : لا بدّ له من أن يقف بعرفة و إن نُعِش نَعْشًا . وآختار هـذا القول أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير المـالكى فقال : قول مالك فى المُحْصَر المكىّ أن عليه ما على الآفاق من إعادة الحج والهَدْى خلاف ظاهر الكتاب ؛ لقول الله عز وجل : «ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ » . قال : والقول عندى فى هذا قول الزهرىّ فى أن الإباحة من الله عز وجل لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام أن يقيم لبعد المسافة يتعالج وإن فاته الحج ، فأما من كان بينه و بين المسجد الحرام ما لا تقصر فى مثله الصلاة فإنه يحضر المشاهد و إن

Marfat.com

نُعَش نعشًا لقرب المسافة بالبيت . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كل مَن مُنع من الوصول إلى البيت بعدو أو مرض أو ذهاب نفقة أو إضـلال راحلة أو لَدْغ هامّة فإنه يقف مكانه على إحرامه ويبعث بهَدْيه أو بثمن هَدْيه ،فإذا نُحر فقد حلّ من إحرامه . كذلك قال عروة وقتادة والحسن وعطاء والنَّخَعي ومجاهد وأهل العـراق؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَـدْيِ » الآية .

السادســة — قال مالك وأصحابه : لاينفع المُحْرِم الاشتراط في الحج إذا خاف الحصر بمرض أو عدو ؛ وهو قول الثوريّ وأبي حنيفة وأصحابهم . والاشتراط أن يقول إذا أهَلّ : لَبَّيْكَ اللّهُمّ لَبَّيْكَ ، ومَحِلّي حيث حبستني من الأرض . وقال أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهَوَيْه وأبو ثور : لا بأس أن يشترط وله شرطه ؛ وقاله غير واحد من الصحابة والتابعين ، وحجتهم حديث ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إني أردت الحج ، أأشترط ؟ قال : " نعم ". قالت : فكيف أقول ؟ قال : " قولي لبَّيْكَ اللّهـمّ لَبّيْك ومَحِلّي من الأرض حيث حبستني " . أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنيّ وغيرهما . قال الشافعيّ : لو ثبت حديث ضُبَاعة لم أَعْدُه ، وكان مَحِلّه حيث حبسه الله .

قلت : قد صححه غير واحد، منهم أبو حاتم البستي وآبن المنذر. قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لضُبَاعة بنت الزبير : " حُجّي وآشترطي " . وبه قال الشافعيّ إذ هو بالعراق ، ثم وقف عنه بمصر . قال آبن المنـذر : وبالقول الأوّل أقول . وذكره عبـد الرزاق أخبرنا آبن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أن طاوسًا وعكرمة أخبراه عن آبن عباس قال : جاءت ضُبَاعة بنت الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني آمرأة ثقيلة[(١)] وإني أريد الحج ، فكيف تأمرني أن أهلّ؟ قال : "أهلّي وآشترطي أن مَحِلّي حيث حبستني " . قال : فأدركَتْ[(٢)] . وهذا إسناد صحيح

(١) أى أثقلني المرض .		(٢) أى أدركت الحج ولم تحل حتى فرغت منه .

Marfat.com

السابعـة — وآختلفت العلماء أيضا فى وجوب القضاء على من أحصر؛ فقال مالك والشافعىّ : من أحصر بعدوّ فلا قضاء عليه لحجّه ولا عمرته ، إلّا أن يكون صَرُورةً[1] لم يكن حجّ ؛ فيكون عليه الحج على حسب وجوبه عليه، وكذلك العمرة عند من أوجبها فرضًا . وقال أبو حنيفة : المُحْصَر بمرض أو عدوّ عليه حجة وعمرة؛ وهو قول الطبرى . قال أصحاب الرأى : إن كان مُهِلًّا بحج قضى حجة وعمرة؛ لأن إحرامه بالحج صار عمرة . و إن كان قارنًا قضى حجة وعمرتين . و إن كان مُهِلًّا بعُمْرة قضى عُمرة . وسواءعندهم المُحْصَر بمرض أو عدوّ ، على ما تقدّم . وآحتجّوا بحديث ميمون بن مِهران قال : خرجت معتمِرًا عامَ حاصر أهل الشام آبن الزبير بمكة وبعث معى رجالٌ من قومى بهَدْى؛ فلما آنتهيت إلى أهل الشام منعونى أن أدخل الحَرَم؛ فنحرت الهَدْى مكانى ثم حَلَلتُ ثم رجعتُ؛ فلما كان من العام المقبل خرجت لأقضى عمرتى ، فأتيت آبن عباس فسألته ، فقال : أبدل الهَدْى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُبدلوا الهَدى الذى نحروا عام الحُدَيْبِيَة فى عمرة القضاء . وآستدلوا بقوله عليه السلام : "مَن كُسِر أو عَرِج فقد حَلّ وعليه حجة أخرى أو عمرة أخرى". رواه عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عَرِج أو كُسِر فقد حَلّ وعليه حجة أخرى". قالوا : فآعتمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى العام المقبل من عام الحديبية إنما كان قضاء لتلك العمرة؛ قالوا : ولذلك قيل لها عمرة القضاء. وآحتج مالك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر أحدًا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئا ولا أن يعودوا لشىء، ولا حُفظ ذلك عنه بوجه من الوجوه، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصِرت فيها، ولم يُنقل ذلك عنه . قالوا : وعُمرة القضاء وعُمرة القضيّة سواء ؛ و إنما قيل لها ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضى قريشا وصالحهم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل ؛ فسُمّيت بذلك عمرة القضيّة .

(١) الصرورة (بالصاد المهملة) : الذى لم يحج قط . ويطلق أيضا على من لم يتزوج ؛ وأصله من الصر : الحبس والمنع .

Marfat.com

الثامنــة — لم يقل أحد من الفقهاء فيمن كُسِر أو عَرِج أنه يحلّ مكانه بنفس الكسر غير أبي ثور على ظاهر حديث الحجاج بن عمرو ؛ وتابعه على ذلك داود بن علي وأصحابه . وأجمع العلماء على أنه يحلّ من كُسر ؛ ولكن آختلفوا فيما به يحلّ ؛ فقال مالك وغيره : يحلّ بالطواف بالبيت لا يحلّه غيره . ومن خالفه من الكوفيين يقول: يحلّ بالنية وفعل ما يتحلّل به ؛ على ما تقدّم من مذهبه .

التاسـعة — لا خلاف بين علماء الأمصـار أن الإحصار عامٌّ في الحج والعمرة . وقال آبن سيرين : لا إحصار في العمرة، لأنها غير مؤقّتة . وأجيب بأنها و إن كانت غير مؤقتة لكن في الصبر إلى زوال العذر ضرر، وفي ذلك نزلت الآية . وحُكي عن آبن الزبير أن من أحصره العدو أو المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت؛ وهذا أيضًا مخالف لنصّ الخبر عامَ الحُدَيْبِيَة .

العـاشرة　الحاصر لا يخلو أن يكون كافرًا أو مسلمًا ، فإن كان كافرًا لم يجز قتاله ولو وَثِق بالظهور عليه، و يتحلّل بموضعه؛ لقوله تعالى : «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» كما تقدّم. ولو سـأل الكافر جُعْلًا لم يجز، لأن ذلك وَهْن في الإسلام . فإن كان مسلمًا لم يجز قتاله بحـال، ووجب التحلّل؛ فإن طلب شـيئا و يتخلّى عن الطريق جاز دفعـه، ولم يجـز القتال لمـا فيـه من إتلاف المُهَج ، وذلك لا يلزم في أداء العبادات ، فإن الدين أسمح . وأمّا بذل الجُعْل فلمَا فيه من دفع أعظم الضررين بأهونهما ، ولأن الحج مما يُنفَق فيه المـال ، فيُعدّ هذا من النفقة .

الحادية عشرة — والعدو الحاصر لا يخلو أن يتيقّن بقاؤه وآستيطانه لقوته وكثرته أوْلا ؛ فإن كان الأول حلّ المحصَر مكانه من ساعته . و إن كان الثـاني وهو مما يرجَى زواله فهـذا لا يكون محصورا حتى يبق بينه و بين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدو لا يدرك فيه الحج ، فيحلّ حينئذ عند آبن القاسم وآبن الماجشون . وقال أشهب : لا يحلّ مَن حُصر عن الحج بعدو حتى يوم النحر، ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس إلى عَرَفة . وجه قول آبن القاسم : أن هذا وقت يأس من إكمال حجّه لعدو غالب ، فجاز له أن يحلّ فيه ؛ أصل ذلك يوم عرفة . ووجه

Marfat.com

قول أشهب أن عليه أن يأتى من حكم الإحرام بما يمكنه [والتزامه له إلى يوم النحر، الوقت الذى يجوز للحاج التحلّل بما يمكنه](١) الإتيان به [فكان ذلك عليه](١) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ «ما» فى موضع رفع؛ أى فالواجب أو فعليكم ما آستيسر . ويحتمل أن يكون فى موضع نصب؛ أى فآنحروا أو فآهدوا . و « مَا آسْتَيْسَرَ» عند جمهور أهل العلم شاة . وقال آبن عمر وعائشة وآبن الزبير: «ما آستيسر» جمل دون جمل، و بقرة دون بقرة لا يكون من غيرهما . وقال الحسن : أعلى الهَدْى بدنة، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة . وفى هذا دليل على ما ذهب إليه مالك من أن المحصَر بعدوّ لا يجب عليه القضاء؛ لقوله : « فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » ولم يذكر قضاء . والله أعلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وهو ما يُهْدَى إلى بيت الله من بَدَنة أو غيرها . والعرب تقول: كم هَدِىّ بنى فلان؛ أى كم إبلهم . وقال أبو بكر: سُمّيت هَدِيًّا لأن منها ما يُهْدَى إلى بيت الله؛ فسمّيت بما يلحق بعضها، كما قال تعالى: «فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ »(٢) . أراد فإن زنى الإماء فعلى الأَمَة منهن إذا زَنَت نصف ما على الحُرّة البكر إذا زَنَت؛ فذكر الله المحصنات وهو يريد الأبكار؛ لأن الاحصان يكون فى أكثرهن فسمّين بأمر يوجد فى بعضهن . والمُحْصَنة من الحرائر هى ذات الزوج، يجب عليها الرَّجْم إذا زنت، والرجم لا يتبعّض، فيكون على الأَمَة نصفه؛ فآنكشف بهذا أن المُحْصَنات يراد بهن الأبكار لا أُولات الأزواج . وقال الفرّاء : أهل الحجاز و بنو أسد يخفّفون الهَدْى؛ قال : وتميم وسُفْلَى قيس يثقّلون فيقولون : هَدِىّ . قال الشاعر :

حلفتُ بربّ مكة والمُصَلَّى ۞ وأعناقِ الهَــدِىِّ مُقَلَّدات

قال : وواحد الهَدْى هدية . و يقال فى جمع الهدى : أهداء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ فيه سبع مسائل :

(١) الزيادة عن كتاب « المنتقى » للباجى يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٣

Marfat.com

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ الخطاب لجميع الأمة : مُحْصَر ومُخَلًّى . ومن العلماء من يراها للمحصَرين خاصّةً؛ أى لا تتحلّلوا من الإحرام حتى يُنْحَر الهَـدْى . والمَحِلّ : الموضع الذى يحلّ فيـه ذبحه . فالمحِلّ فى حصر العـدو عند مالك والشافعى : موضع الحصر؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحُدَيْبِيَة؛ قال الله تعالى : « وَالْهَـدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِـلَّهُ »[(١)] قيـل : محبوسًا إذا كان محصرًا ممنوعًا من الوصول إلى البيت العَتيق . وعند أبى حنيفة مَحِلّ الهَدْى فى الإحصار : الحَرَم؛ لقوله تعالى : « ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ »[(٢)] . وأجيب عن هذا بأن المخاطَب به الآمنُ الذى يجد الوصول إلى البيت . فأمّا المُحْصَر فخارج من قول الله تعالى : « ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » بدليل نحر النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه هَدْيَهم بالحديبية وليست من الحَرَم . واحتجُّوا من السُّـنة بحديث ناجية ابن جُندب صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ابعث معى الهَدْىَ فأنحره بالحرم . قال : "فكيف تصنع به" قال : أخرجه فى الأَوْدية لا يقدرون عليه، فانطلق به حتى أنحره فى الحرم . وأجيب بأن هذا لا يصح، وإنما يُنحر حيث حلّ؛ اقتداءً بفعله عليه السـلام بالحديبية ؛ وهو الصحيح الذى رواه الأئمة، ولأن الهَدْىَ تابع للمُهْدِى، والمهدِى حلّ بموضعه؛ فالمُهْدَى أيضا يحل معه .

الثـانيـــة — واختلف العلماء على ما قررناه فى المحصَر هل له أن يحلق أو يحلّ بشىء من الحِلّ قبل أن يَنحر ما استيسر من الهَدْى؛ فقال مالك : السُّنة الثابتة التى لا اختلاف فيها عندنا أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من شعره حتى ينحر هديه، قال الله تعـالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ » . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا حلّ المحصَر قبل أن يَنحر هَدْيه فعليه دمٌ، ويعود حرامًا كما كان حتى يَنحر هَدْيه . وإن أصاب صيدًا قبل أن يَنحر الهَدْىَ فعليه الجزاء . وسـواء فى ذلك الموسر والمعسر لا يحلّ أبدا حتى يَنحر أو يُنحر عنـه . قالوا : وأقلّ ما يُهديه شاة، لا عمياء، ولا مقطوعة الأذنين؛ وليس هـذا عندهم موضع صيام . قال أبو عمر : قول الكوفيين فيه ضعف وتناقض؛ لأنهم لا يجيزون لمُحْصَر بعدوّ ولا مرض أن يحلّ

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٣ .	(٢) راجع جـ ١٢ ص ٥٧ .

Marfat.com

حتى يَنحر هديه فى الحَرَم. و إذا أجازوا للحصَر بمرض أن يبعث بهَدْى و يواعد حامله يومًا ينحره فيه فيحلّ و يحلق فقـد أجازوا له أن يحـلّ على غير يقين من نحر الهدى و بلوغه، وحملوه على الإحلال بالظنون . والعلماء متفقون على أنه لا يجوز لمن لزمه شىء من فرائضه أن يخرج منه بالظن؛ والدليل على أن ذلك ظنّ قولهم : لو عَطِب ذلك الهَدْىُ أو ضَلّ أو سُرِق لحلّ مُرْسله وأصاب النساء وصاد أنه يعود حرامًا وعليه جزاء ما صاد؛ فأباحوا له فساد الج والزموه ما يلزم مَن لم يحلّ من إحرامه . وهذا ما لا خفاء فيه من التناقض وضعف المذاهب ، و إنمـا بَنَوْا مذهبهم هذا كله على قول آبن مسعود ولم ينظروا فى خلاف غيره له . وقال الشافعى فى المحصر إذا أعسر بالهدى : فيه قولان : لا يحلّ أبدا إلا بهَدْى . والقول الآخر : أنه مأمور أن يأتى بما قدر عليه؛ فإن لم يقدر على شىء كان عليه أن يأتى به إذا قَدَر عليه . قال الشافعى : ومن قال هذا قال : يحلّ مكانه و يذبح إذا قَدَر؛ فإن قدر على أن يكون الذبح بمكة لم يُجْـزه أن يذبح إلا بها، و إن لم يقدر ذبح حيث قدر . قال ويقال : لا يجزيه إلا هَدْى . ويقال : إذا لم يَجد هديًا كان عليه الإطعام أو الصيام . و إن لم يجد واحدا من هذه الثلاثة أتى بواحد منها إذا قدر . وقال فى العبـد : لا يجزيه إلا الصوم، تُقوّم له الشاة دراهم ثم الدراهم طعاماً ثم يصوم عن كل مُدّ يوما .

الثالثـــة — وآختلفوا إذا نَحر المُحْصَر هَدْيَه هل له أن يَحلق أَوْ لا؛ فقالت طائفة: ليس عليه أن يحلق رأسه؛ لأنه قد ذهب عنه النُّسك . وآحتجّوا بأنه لمـا سقط عنه بالإحصار جميعُ المناسك كالطواف والسّعْى — وذلك مما يحلّ به المحرِم من إحرامه — سقط عنه سائر ما يحلّ به المحرم من أجل أنه مُحْصَر . وممن آحتجّ بهذا وقال به أبو حنيفة ومحمد بن الحسن قالا : ليس على المُحْصَر تقصير ولا حِلاق . وقال أبو يوسف : يَحلق المقصِّر، فإن لم يَحلق فلا شىء عليه . وقد حكى آبن أبى عمران عن آبن سماعة عن أبى يوسف فى نوادره أن عليه الحلاق؛ والتقصير لابدّ له منه. وآختلف قول الشافعى فى هذه المسألة على قولين : أحدهما أن الحلاق للمُحْصَر من النُّسك؛ وهو قول مالك . والآخر ليس من النساك كما قال أبو حنيفة . والحجة

Marfat.com

لمالك أن الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة قد منع من ذلك كله المحصر وقد صُدّ عنه؛ فسقط عنه ما قد حيل بينه و بينه. وأما الحلاق فلم يُحَلْ بينه و بينه، وهو قادر على أن يفعله. وما كان قادرا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه. ومما يدل على أن الحلاق باق على المحصَر كما هو باق على مَن قد وصل إلى البيت سواء قوله تعالى: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ»، وما رواه الأئمة من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمُحَلِّقين ثلاثا وللمُقَصِّرين واحدة. وهو الحجة القاطعة والنظر الصحيح فى هذه المسألة، وإلى هذا ذهب مالك وأصحابه. الحلاق عندهم نُسك على الحاجّ الذى قد أتمّ حجّه، وعلى من فاته الحج، والمُحْصَر بعدو والمُحْصَر بمرض.

الرابعة — روى الأئمة واللفظ لمالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللّهمّ آرحم المُحَلِّقين" قالوا: والمُقَصِّرين يارسول الله؛ قال. "اللّهمّ آرحم المحلِّقين" قالوا: والمُقَصِّرين يارسول الله؛ قال: "والمُقَصِّرين". قال علماؤنا: ففى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلِّقين ثلاثا وللمُقَصِّرين مرّةً دليل على أن الحلق فى الحج والعُمْرة أفضل من التقصير، وهو مقتضى قوله تعالى: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ» الآية، ولم يقل تُقَصِّروا. وأجمع أهل العلم على أن التقصير يجزئ عن الرجال؛ إلا شىء ذُكر عن الحسن أنه كان يوجب الحلق فى أوّل حَجّة يحجّها الإنسان.

الخامسة — لم تدخل النساء فى الحَلْق، وأنّ سنّتهن التّقصير؛ لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس على النساء حَلْق إنما عليهن التقصير". خرّجه أبو داود عن آبن عباس. وأجمع أهل العلم على القول به. ورأت جماعة أن حلقها رأسها من المُثْلَة، وآختلفوا فى قدر ما تُقَصِّر من رأسها؛ فكان آبن عمر والشافعى وأحمد وإسحاق يقولون: تُقَصّر من كل قَرْن مثل الأنملة. وقال عطاء: قدر ثلاث أصابع مقبوضة. وقال قتادة: تقصر الثلث أو الربع. وفرقت حفصة بنت سيرين بين المرأة التى قعدت فتأخذ الربع، وفى الشابة أشارت بأنملتها تأخذ وتقلّل. وقال مالك: تأخذ من جميع قرون رأسها، وما أخذت

Marfat.com

من ذلك فهو يكفيها ؛ ولا يجزى عنــده أن تأخذ من بعض القُــرون وتُبق بعضًا . قال ابن المنذر : يجزى ما وقع عليه اسم تقصير ، وأحْوط أن تأخذ من جميع القرون قدر أنملة .

السادســة ــ لا يجوز لأحد أن يحلق رأســه حتى ينحر هديه ؛ وذلك أن سُنّة الذبح قبل الحلاق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ » ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدأ فنحر هديه ثم حَلَق بعد ذلك ؛ فمن خالف هذا فقدّم الحلاق قبل النحر فلا يخلو أن يقدّمه خطأً وجهلًا أو عمدًا وقصدًا ؛ فإن كان الأوّل فلا شىء عليه ؛ رواه ابن حبيب عن ابن القاسم ، وهو المشهور من مذهب مالك . وقال ابن المـاجشون : عليه الهَدْىُ ؛ و به قال أبو حنيفة . و إن كان الثانى فقد روى القاضى أبو الحسن أنه يجوز تقديم الحلق على النحر ؛ و به قال الشافعى . والظاهر من المذهب المنع ، والصحيح الجواز ؛ لحديث ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قيل له فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير فقال : " لَا حَرَجَ " رواه مسلم . وخرّج ابن ماجه عن عبد الله بن عمــرو أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سُئل عمن ذَبح قبل أن يَحلق ، أو حَلَق قبل أن يَذبح فقال : " لا حَرَجَ " .

السابعــة ــ لا خلاف أن حلق الرأس فى الحج نُسك مندوب إليه وفى غير الحج جائز ؛ خلافًا لمن قال : إنه مُثْلة ؛ ولو كان مثلة ما جاز فى الحج ولا غيره ؛ لأن رســول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المُثْلة ، وقد حلق رءوس بنى جعفر بعــد أن أتاه قتله بثلاثة أيام ، ولو لم يجز الحلق ما حلقهم . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحلق رأسه . قال ابن عبد البر : وقد أجمع العلماء على حبس الشعر وعلى إباحة الحلق . وكفى بهذا حجة ، و بالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ استدلّ بعض علماء الشافعية بهذه الآية على أن المُحْصَر فى أول الآية العدوّ لا المرض ، وهذا لا يلزم ؛ فإن معنى قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أو بِهِ أذًى مِنْ رأسِهِ ﴾ فحَلَق « فَفِدْيَةٌ » ، أى فعليه فِدْية ، و إذا كان هذا واردًا فى المرض

Marfat.com

بلا خلاف كان الظاهر أن أول الآية ورد فيمن ورد فيه وسـطها وآخرها ، لاتساق الكلام بعضه على بعض ، وانتظام بعضه ببعض ؛ ورجوع الإضمـار فى آخر الآية إلى من خوطب فى أولها ، فيجب حمل ذلك على ظاهره حتى يدلّ الدليـل على العدول عنه . ومما يدلّ على ماقلناه سبب نزول هٰذه الآية ، روى الأئمة واللفظ للدارقطنيّ : «عن كعب بن عُجْرَة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقَمْلُه يتساقط على وجهه فقـال : " أيؤذيك هوامّك " قال نعم . فأمره أن يحلق وهو بالحُدَيْبِيَة ، ولم يبيّن لهم أنهم يحلّون بها وهم على طمـع أن يدخلوا مكة ؛ فأنزل الله الفدية ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُطعم فَرَقًا[1] بين ستة مساكين ، أو يُهدى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام» . خرّجه البخارى بهذا اللفظ أيضا . فقوله : «ولم يبيّن لهم أنهم يحلّون بها » يدلّ على أنهم ما كانوا على يقين من حصر العدوّ لهم ؛ فإذًا الموجب للفِدْية الحلق للأذى والمرض ، والله أعلم .

الثانيـــة — قال الأوزاعى فى المُحْرِم يصيبه أذًى فى رأسه : إنه يجزيه أن يكفّر بالفدية قبل الحلق .

قلت : فعلى هـذا يكون المعنى « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ» إن أراد أن يَحْلِق ، ومن قدر فحَلَق ففدية ؛ فلا يفتدى حتى يحلق . والله أعلم .

الثالثـــة — قال ٱبن عبد البر : كلّ مَن ذكر النُّسك فى هذا الحديث مفسَّرًا فإنما ذكره بشاة ، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء . وأمّا الصوم والإطعام فاختلفوا فيه ؛ فجمهور فقهاء المسلمين على أن الصوم ثلاثة أيام ، وهو محفوظ صحيح فى حديث كعب بن عُجْرَة . وجاء عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام ، والإطعام عشرة مساكين ، ولم يقل أحد بهذا من فقهاء الأمصار ولا أئمة الحـديث . وقد جاء من رواية أبى الزبير عن

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا ، وهى اثنا عشر مدا ، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز ، وقيل : خمسة أقساط ، والقسط : نصف صاع . والفرق (بالسكون) : مائة وعشرون رطلا . عن نهاية ابن الأثير .

Marfat.com

مجاهد عن عبد الرحمن عن كعب بن عُجْرة أنه حدّثه أنه كان أَهَلّ فى ذى القعـدة، وأنه قمِل رأسه فأتى عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يوقد تحت قِدْر له؛ فقال له : "كأنك يؤذيك هوامّ رأسك" . فقال أَجَل . قال : " أحلِق واْهدِ هَدْيًا " . فقال : ما أجد هَدْياً . قال : " فاطعم ستة مساكين " . فقال : ما أجد . قال : "صُم ثلاثة أيام" . قال أبو عمر : كان ظاهر هذا الحديث على الترتيب وليس كذلك، ولو صح هـذا كان معناه الآختيار أوّلا فأوّلا؛ وعامة الآثار عن كعب بن عجرة وردت بلفظ التخيير، وهو نصّ القرآن، وعليـه مضى عمل العلماء فى كل الأمصار وفتواهم ، و بالله التوفيق .

الرابعـــة ــ اختلف العلماء فى الإطعام فى فِدية الأذى؛ فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام فى ذلك مُدان بمُـدّ[1] النبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ وهو قول أبى ثور وداود . وروى عن الثورى أنه قال فى الفِـدْية : مِن البُرّ نصف صاع، ومن التمر والشـعير والزبيب صاع . وروى عن أبى حنيفـة أيضا مثله ، جعل نصفَ صاع بُرٍّ عِدْل صاع تمر. قال ٱبن المنذر : وهذا غلط؛ لأن فى بعض أخبار كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : " أن تصدّق بثلاثة أَصْوُع من تمر على سـتة مساكين " . وقال أحمد بن حنبل مرّةً كما قال مالك والشافعى، ومرّةً قال: إن أطعم بُرًّا فمُدّ لكل مسكين، و إن أطعم تمرًا فنصف صاع .

الخامســـة ــ ولا يجزى أن يغدّى المساكين و يعشّيهم فى كفارة الأذى حتى يعطى كل مسكين مُدّين بمدّ النبيّ صـلى الله عليـه وسلم . و بذلك قال مالك والثورى والشـافعى ومحمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : يجزيه أن يغدّيهم ويعشّيهم .

السادســـة ــ أجمع أهل العلم على أن المحرِم ممنوع من حَلق شعره وجَزّه و إتلافه بحلق أو نُورة أو غير ذلك إلا فى حالة العلة كما نصّ على ذلك القرآن . وأجمعوا على وجوب الفِدية ن مَن حلق وهو مُحْرِم بغير علّة ، وٱختلفوا فيما على من فعل ذلك ، أو لبس أو تطيّب بغير عذر عامدًا ؛ فقال مالك : بئس ما فعل ! وعليه الفدية؛ وهو مخيّر فيها؛ وسواء عنده العمد ن ذلك والخطأ، لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفـة والشافعى وأصحابهما وأبو ثور :

(١) فى ب ، ز : « مدان بمدان بمد ... » .

Marfat.com

لبس بمخير إلا فى الضرورة؛ لأن الله تعالى قال : «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ» فإذا حلق رأسه عامدًا أو لبس عامدًا لغير عذر فليس بمخير وعليه دمٌ لا غير .

السابعــة — وآختلفوا فيمن فعل ذلك ناسيًا ؛ فقال مالك رحمه الله : العامد والناسى فى ذلك سواء فى وجوب الفِدْية ؛ وهو قول أبى حنيفة والثورىّ والليث . وللشافعىّ فى هذه المسألة قولان : أحدهما — لا فِدْيةَ عليه ؛ وهو قول داود و إسحاق . والثانى — عليه الفدية. وأكثر العلماء يوجبون الفدية على المُحْرِم بلبس المَخِيط وتغطية الرأس أو بعضه . ولبس الخُفَّين وتقليم الأظافر ومسّ الطِّيب و إماطة الأذى ، وكذلك إذا حلق شعر جسده أو آطّلى ، أو حلق مواضع المحاجم . والمرأة كالرجل فى ذلك ، وعليها الفِدْية فى الكُحْل و إن لم يكن فيه طِيب . وللرجل أن يكتحل بما لا طِيب فيه . وعلى المرأة الفدية إذا غطّت وجهها أو لبست القُفّازين ، والعمد والسهو والجهل فى ذلك ســواء ؛ و بعضهم يجعــل عليهما دمًا فى كل شىء من ذلك . وقال داود : لا شىء عليهما فى حلق شعر الجسد .

الثامنــة — وآختلف العلماء فى موضع الفدية المذكورة ؛ فقال عطاء : ما كان من دمٍ فبمكة ، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء ؛ وبنحو ذلك قال أصحاب الرأى . وعن الحسن أن الدم بمكة . وقال طاوس والشافعىّ : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة ، والصوم حيث شاء ؛ لأن الصيام لا منفعة فيــه لأهل الحَرَم ، وقد قال الله سبحانه « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ »[(1)] رِفقًا لمساكين جيران بيته ؛ فالإطعام فيــه منفعة بخلاف الصيام ، والله أعلم . وقال مالك : يفعل ذلك أين شاء ؛ وهو الصحيح من القول ، وهو قول مجاهد . والذبح هنا عند مالك نُسك وليس بِهَدْى لنص القرآن والسنة ؛ والنُّسك يكون حيث شــاء ، والهَدْى لا يكون إلا بمكة . ومن حُجته أيضا ما رواه عن يحيى بن سعيد فى مُوَطّئه ، وفيــه : فأمر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه برأسه - يعنى رأس حسين[(2)] — فحلق ثم نسك عنه بالسُّقْيا[(3)] فنحر عنه بعيرا . قال مالك قال يحيى بن سعيد : وكان حسين خرج مع عثمان فى سفره [ذلك][(4)] إلى مكة . ففى هذا

(1) راجع جـ ٦ ص ٣٠٤ .　(2) هو حسين بن على .　(3) السقيا : منزل بين مكة والمدينة ؛ قيل هى على يومين من المدينة .　(4) زيادة من الموطأ .

Marfat.com

أوضح دليل على أن فِدْية الأذى جائز أن تكون بغير مكة، وجائز عند مالك فى الهَدْى إذا نُحر فى الحَرَم أن يُعطاه غير أهل الحرم؛ لأن البُغْية فيـه إطعام مساكين المسلمين . قال مالك : ولما جاز الصوم أن يؤتى به بغير الحَرَم جاز إطعام غير أهل الحرم؛ ثم إن قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا » الآية، أوضح الدلالة على ما قلناه؛ فإنه تعالى لما قال : « فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » لم يقل فى موضع دون موضع ، فالظـاهر أنه حيثما فعـل أجزأه . وقال : « أو نسك » فسمّى ما يذبح نُسكا، وقد سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يسمّه هَدْيا؛ فلا يلزمنا أن نرده قياسا على الهَدْى، ولا أن نعتبره بالهدى مع ما جاء فى ذلك عن علىّ. وأيضا فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما أمر كَعْبًا بالفدية ما كان فى الحَرَم؛ فصحّ أن ذلك كله يكون خارج الحرم؛ وقد رُوى عن الشافعىّ مثل هذا فى وجه بعيد .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ النُّسك : جمع نسيكة ، وهى الذبيحة يَنْسُكها العبد لله تعالى . ويُجمع أيضا على نسائك . والنُّسك : العبادة فى الأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « أَرِنَا مَنَاسِكَنَا »(١) أى مُتعبَّداتنا . وقيل : إن أصل النّسك فى اللغة الغسل ؛ ومنه نَسَك ثوبه إذا غسله ؛ فكأن العابد غسل نفســه من أدران الذنوب بالعبادة . وقيـل : النّسك سبائك الفضة ، كل سبيكة منها نسيكة ؛ فكأن العابد خلّص نفسه من دنس الآثام وسبكها .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ قيل : معناه برأتم من المرض . وقيـل : من خوفكم من العدو المُحْصِر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وهو أشـبه باللفظ إلا أن يتخيّل الخوف من المرض فيكون الأمن منه ، كما تقدّم، والله أعلم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ الآية . اختلف العلماء مَن المخاطب بهذا ؟ فقال عبد الله بن الزبير وعَلْقَمة و إبراهيم : الآية فى المحصَرين دون المُخَلَّى سبيلهم . وصورة المتمتّع عند ابن الزبير : أن يُحْصَر الرجل حتى يفوته الحج ، ثم يصل إلى البيت

(١) راجع ص ١٢٧ من هذا الجزء .

فيحلّ بعُمْرة، ثم يقضي الحج من قابل؛ فهذا قد تمتّع بمـا بين العُمْرة إلى حج القضاء. وصورة المتمتّع المُحْصَر عنـد غيره: أن يُحصر فيحلّ دون عُمرة ويؤخّرها حتى يأتي من قابل فيعتمر في أشهر الحج ويحـج من عامه. وقال ابن عباس وجمـاعة: الآية في المُحْصَرين وغيرهم ممن خُلّيَ سـبيله.

الثالثـــة — لا خلاف بين العلماء في أن التمتع جائز على ما يأتي تفصيله، وأن الإفراد جائز، وأن القِرَان جائز؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَضِيَ كُلًّا ولم ينكره في حجّته على أحد من أصحابه، بل أجازه لهم ورَضِيَه منهم، صلى الله عليه وسلم. وإنمـا اختلف العلماء فيما كان به رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحْرِمًا في حجّته وفي الأفضل من ذلك، لاختلاف الآثار الواردة في ذلك؛ فقال قائلون منهم مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُفْرِدًا، والإفراد أفضل من القِرَان. قال: والقِرَان أفضل من التمتع. وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال: "من أراد منكم أن يُهِلّ بحج وعُمرة فليفعل ومن أراد أن يهِلّ بحج فَلْيُهِلّ ومن أراد أن يهِلّ بعمرة فليُهِلّ" قالت عائشة: فأهَلّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم بحج، وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعُمْرة والحج، وأهلّ ناس بعمرة، وكنت فيمن أهلّ بالعمرة؛ رواه جمـاعة عن هشام بن عروة عن أبيـه عن عائشة. وقال بعضهم فيـه: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "وأما أنا فأُهِلّ بالحج" وهـذا نصّ في موضع الخلاف، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله. وحكى محمد بن الحسن عن مالك أنه قال: إذا جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديثان مختلفان وبلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحد الحديثين وتركا الآخر كان في ذلك دلالة على أن الحق فيما عملا به. واستحب أبو ثور الإفراد أيضا وفضّله على التمتع والقِرَان؛ وهو أحد قولي الشافعيّ في المشهور عنه. واستحب آخرون التمتع بالعمرة إلى الحج، قالوا: وذلك أفضل. وهو مذهب عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو أحد قولي الشافعيّ. قال الدارَقُطنيّ قال الشافعيّ: اخترت الإفراد، والتمتعُ حسَن لا نكرهه. احتجّ مَن فضل التمتع بمـا رواه مسلم عن عمران بن حُصين

Marfat.com

قال : نزلت آية المُتْعَة فى كتاب الله — يعنى متعة الحج — وأمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم تنزل آيةٌ تنسخ [آية](1) متعة الحج، ولم ينـه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات؛ قال رجل برأيه بعدُ ماشاء . وروى الترمذى حدّثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن آبن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نَوْفَل أنه سمع سعد بن أبى وقاص والضحاك آبن قيس عامَ حَجّ معاوية بن أبى سفيان وهما يذكران التّمتع بالعُمْرة إلى الحج ؛ فقال الضحاك آبن قيس : لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى . فقال سعد : بئس ماقلت يآبن أخى ! فقال الضحاك : فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك . فقال سعد : قد صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنعناها معه ؛ هـذا حديث صحيح . وروى آبن إسحاق عن الزهرى عن سالم قال : إنى لجالس مع آبن عمر فى المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التّمتع بالعمرة إلى الحج ؛ فقال آبن عمر : حَسَن جميل . قال : فإن أباك كان ينهى عنها . فقال : ويلك ! فإن كان أبى نهى عنها وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر به، أفبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ قُمْ عنّى . أخرجه الدّارَقُطْنِىّ، وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن آبن شهاب عن سالم . ورُوى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان، وأول من نهى عنها معاوية . حديث حسن . قال أبو عمر : حديث ليث هـذا حديث منكر ، وهو ليث ابن أبى سليم ضعيف . والمشهور عن عمر وعثمان أنهما كان ينهيان عن التّمتع، وإن كان جماعة من أهل العلم قد زعموا أن المتعة التى نهى عنها عمر وضرب عليها فسخ الحج فى العُمْرة . فأما التمتع بالعُمْرة إلى الحج فلا . وزعم من صحّح نهى عمر عن التمتع أنه إنما نهى عنه لينتجع البيت مرتين أو أكثر فى العام حتى تكثر عمارته بكثرة الزوّار له فى غير الموسم ، وأراد إدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس تحقيقًا لدعوة إبراهيم : « فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ »(2) . وقال آخرون : إنمـا نهى عنها لأنه رأى النـاس مالوا إلى التمتع ليسارته وخفته ؛ فخشى أن يضيع

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٧٣ .

Marfat.com

الإفراد والقِرَان وهما سُنّتان للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وآحتج أحمـد فى آختياره التمتع بقوله صلى الله عليه وسلم : "لو آستقبلتُ من أمرى ما آستدبرتُ ما سقتُ الهَدْى و لجعلتها عُمْرة". أخرجه الأئمة . وقال آخرون : القِرَان أفضل ؛ منهم أبو حنيفـة والثورى ؛ و به قال المُزَنى قال : لأنه يكون مؤدّيا للفرضين جميعا ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم قارنًا ؛ وهو قول علىّ بن أبى طالب . وآحتج من آستحب القِرَان وفضّله بمـا رواه البخارىّ عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم بوادى العقيق(١) يقول : " أتانى الليلة آتٍ من ربى فقال صلّ فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حَجّـة " . وروى الترمذىّ عن أنس قال سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : " لبّيك بعمرة وحجة " . وقال : حديث حسن صحيح . قال أبو عمر : والإفراد إن شاء الله أفضل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مُفْرِدًا ، فلذلك قلنا إنه أفضل ؛ لأن الآثار أصح عنـه فى إفراده صلى الله عليه وسلم ، ولأن الإفراد أكثر عملا ثم العمرة عمل آخر . وذلك كله طاعة والأكثر منها أفضل . وقال أبو جعفر النحاس : المفرِد أكثر تعباً من المتمتّع ، لإقامتـه على الإحرام وذلك أعظم لثوابه . والوجه فى آتفاق الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا أمرنا بالتمتع والقِرَان جاز أن يقال : تمتّع رسول الله صـلى الله عليه وسلم وقَرَن ، كما قال جل وعز : « وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ(٢) » . وقال عمر بن الخطاب : رجمنا ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إنما أمر بالرجم .

قلت : الأظهر فى حجته عليه السلام القِرَانُ ، وأنه كان قارنا ، لحديث عمر وأنس المذكورين . وفى صحيح مسلم عن بكر عن أنس قال : "سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يُلَبّى بالحج والعُمْرة معًا(٣)" . قال بكر : فحدّثت بذلك آبن عمر فقال : لبّى بالحج وحده ، فلقيت أنسا فحدّثته بقول آبن عمر ، فقال أنس : ما تَعُدُّونا إلا صِبيانًا ! سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لبّيك عمرة وحجّا" . وفى صحيح مسلم أيضا عن آبن عباس قال : أهلّ النبيّ صلى الله عليه وسـلم بعمرة

(١) العقيق : موضع بينه وبين المدينة أربعة أميال .　　(٢) راجع جـ ١٦ ص ٩٨

(٣) عبارة مسلم : « جميعا » .

Marfat.com

وأهلّ أصحابه بحجّ؛ فلم يَحِلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا مَن ساق الهَدْىَ من أصحابه، وحلّ بقيّتهم . قال بعض أهل العلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قارنًا، و إذا كان قارنًا فقد حَجّ وآعتمر، وآتّفقت الأحاديث . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَهَلّ بعمرة ؛ فقال من رآه : تمتّع ثم أَهَلّ بحجّة . فقال من رآه : أَفْرَد ثم قال : "لَبَّيْكَ بحجّة وعُمرة" . فقال من سمعه : قَرَن . فآتفقت الأحاديث . والدليل على هذا أنه لم يَرْوِ أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفردت الحج ولا تمتّعت . وصح عنه أنه قال: "قرنت" كما رواه النسائى عن علىّ أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى: "كيف صنعت" قلت : أهللت بإهلالك . قال "فإنى سُقتُ الهَدْىَ وقَرَنْتُ" . قال وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "لو آستقبلتُ من أمرى كما آستدبرتُ لفعلتُ كما فعلتم ولكنّى سُقتُ الهَدْىَ وقَرَنْتُ" . وثبت عن حفصة قالت قلت : يا رسول الله، ما بال الناس قد حَلّوا من عمرتهم ولم تَحِلّ أنت ؟ قال : "إنى لَبّدْتُ رأسى وسُقت هَدْيِى فلا أحِلّ حتى أنْحَر" . وهذا يبيّن أنه كان قارنًا، لأنه لو كان مُتَمَتِّعًا أو مُفْرِدًا لم يمتنع من نَحْر الهَدْى .

قلت : ما ذكره النحاس أنه لم يَرْوِ أحد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أفردتُ الحج" فقد تقدّم من رواية عائشة أنه قال : "وأمّا أنا فأهِلّ بالحج" . وهذا معناه : فأنا أفرد الحج ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون قد أحرم بالعمرة؛ ثم قال: فأنا أهلّ بالحج. ومما يبين هذا ما رواه مسلم عن آبن عمر، وفيه : و بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهلّ بالعمرة ثم أهلّ بالحج؛ فلم يبق فى قوله : "فأنا أهلّ بالحج" دليل على الإفراد . و بقى قوله عليه السلام : "فإنى قرنت" . وقول أنس خادمه أنه سمعه يقول: "لَبَّيْكَ بحجة وعُمْرة معًا" نصٌّ صريح فى القِران لا يحتمل التأويل . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : إنما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة لأنه علم أنه ليس بحاجّ بعدها .

الرابعة — وإذا مضى القول فى الإفراد والتمتّع والقِران وأن كل ذلك جائز بإجماع فالتمتع بالعمرة إلى الحج عند العلماء على أربعة أوجه؛ منها وجه واحد مجتمع عليه، والثلاثة مختلف

Marfat.com

فيها . فأما الوجه المجتمع عليه فهو التمتع المراد بقول الله جل وعز : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» وذلك أن يحرم الرجل بعُمْرة فى أشهر الحج — على ما يأتى بيانها — وأن يكون من أهل الآفاق ، وقدم مكة ففرغ منها ثم أقام حلالًا[1] بمكة إلى أن أنشأ الحج منها فى عامه ذلك قبل رجوعه إلى بلده، أو قبل خروجه إلى ميقات أهل ناحيته؛ فإذا فعل ذلك كان متمتعًا وعليه ما أوجب الله على المتمتع ، وذلك ما آستيسر من الهـدى ؛ يذبحه ويعطيه للساكين بمنًى أو بمكة؛ فإن لم يجد صام ثلاثة أيام، وسبعةً إذا رجع إلى بلده — على ما يأتى — وليس له صيام يوم النحر بإجماع من المسلمين . وآختلف فى صيام أيام التشريق على ما يأتى .

فهذا إجماع من أهل العلم قديمـا وحديثًا فى المُتْعة، ورابطها ثمانية شروط : الأول — أن يجمع بين الحج والعُمْرة . الثانى — فى سفر واحد . الثالث — فى عام واحد . الرابع — فى أشهر الحج . الخامس — تقديم العمرة . السادس — ألا يمزُجَها، بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة . السابع — أن تكون العمرة والحج عن شخص واحد . الثـامن — أن يكون من غير أهل مكة . وتأمل هذه الشروط فيما وصفنا من حكم التمتع تجدها .

والوجه الثانى من وجوه التمتع بالعمرة إلى الحج : القِران ، وهو أن يجمع بينهما فى إحرام واحد فيهل بهما جميعًا فى أشهر الحج أو غيرها، يقول: لبيك بحجة وعُمرة معاً، فإذا قدم مكة طاف لحجته وعمرته طوافا واحدا وسعى سعيا واحدا ، عنـد من رأى ذلك ، وهم مالك والشافعى وأصحابهما وإسحاق وأبو ثور . وهو مذهب عبـد الله بن عمـر وجابر بن عبد الله وعطاء بن أبى رباح والحسن ومجاهد وطاوس، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فأهللنا بعمرة. الحديث . وفيه : وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنما طافوا طوافًا واحدًا . أخرجه البخارى. وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يوم النَّفْر[2] ولم تكن طافت بالبيت وحاضت : " يَسَـعُك طوافُك لحجّك وعُمـرتك " فى رواية :

(١) الحلال : الخارج من الإحرام .

(٢) يوم النفر (بفتح النون وتسكين الفاء وفتحها) : يوم الذى ينفر (يرحل) الناس فيه من منى .

Marfat.com

"يُجْزِئُ عنكِ طوافُكِ بالصّفا والمروَة عن حَجّكِ وعُمْرتك". أخرجه مسلم — أو طاف طوافين وسعى سعيين، عنـد من رأى ذلك ، وهو أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى والحسن ابن صالح وآبن أبى لَيْـلَى ، ورُوى عن علىّ وآبن مسعود، و به قال الشعبى وجابر بن زيد . وآحتجوا بأحاديث عن علىّ عليه السلام أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسَعَى لهما سعيين، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل. أخرجهما الدّارَقُطْنى فى سُننه وضَعّفها كلها، و إنمـا جعل القران من باب التمتع ؛ لأن القارن يتمتّع بترك النَّصَب فى السفر إلى العُمرة مرّةً و إلى الحج أخرى، و يتمتع بجمعهما، ولم يُحرم لكل واحدة من ميقاته، وضَمّ الحج إلى العمرة؛ فدخل تحت قول الله عز وجل : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » . وهـذا وجه من التمتع لا خلاف بين العلماء فى جوازه . وأهل المدينة لا يجيزون الجمع بين العُمْرة والحج إلا بسياق الهَدْى، وهو عندهم بَدَنة لا يجوز دونها . ومما يدلّ على أن القران تمتّع قولُ آبن عمر : إنما جعل القران لأهل الآفاق ؛ وتلا قول الله جلّ وعزّ « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» فمن كان من حاضرى المسجد الحرام وتمتّع أو قرن لم يكن عليه دمُ قِرانٍ ولا تمتع . قال مالك : وما سمعت أن مكّيًّا قرَن، فإن فعل لم يكن عليه هَدْىٌ ولا صيام؛ وعلى قول مالك جمهور الفقهاء فى ذلك . وقال عبد الملك بن المـاجشون : إذا قرَن المكىّ الحج مع العمرة كان عليه دَمُ القِران من أجل أن الله إنمـا أسقط عن أهل مكة الدم والصيام فى التمتع .

والوجه الثالث من التمتع : هو الذى توعّد عليه عمر بن الخطاب وقال : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما : مُتعةُ النّساء ومُتعةُ الحج . وقد تنازع العلماء فى جواز هذا بعدُ هلُم جرّا[1]، وذلك أن يُحرِم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجّه فى عمرة، ثم حلّ وأقام حلالا حتى يُهِلّ بالحج يوم التّروية[2] . فهـذا هو الوجه الذى

(١) كذا فى الأصل . وفى المنتقى للباجى بحث طويل فى هذه المسألة، فارجع إليه .

(٢) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة، وهو الثامن من ذى الحجة ؛ سمى به لأن الحجاج يتروون فيه من الماء، ينهضون إلى منى ولا ماء بها .

Marfat.com

تواردت به الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيه أنه أمر أصحابه فى حجّته مَن لم يكن معه هَدْىٌ ولم يَسُقْه وقد كان أحرم بالحج أن يجعلها عمرة. وقد أجمع العلماء على تصحيح الآثار بذلك عنه صلى الله عليه وسلم ولم يدفعوا شيئا منها؛ إلا أنهم آختلفوا فى القول بها والعمل لعلل؛ فجمهورهم على ترك العمل بها؛ لأنها عندهم خصوص خصّ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه فى حجّته تلك. قال أبو ذرّ: كانت المتعة لنا فى الحج خاصة. أخرجه مسلم. وفى رواية عنه أنه قال: «لا تصلح المتعتان إلا لنا خاصّةً، يعنى متعة النساء ومتعة الحج». والعلة فى الخصوصية ووجه الفائدة فيها ماقاله آبن عباس رضى الله عنه قال: «كانوا[1] يَرَون أن العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ويجعلون المُحَرَّمَ صَفَرًا[2] ويقولون: إذا بَرَأَ الدَّبَرْ، وعفا الأَثَرْ، وآنسلخ صَفَرْ، حَلّت العمرةُ لمن آعتمرْ. فقَدِم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه صبيحةَ رابعة[3] مُهِلّين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرةً، فتعاظم ذلك عندهم فقالوا: يا رسول الله، أيّ الحِلّ[4]؟ قال: "الحِلّ كله". أخرجه مسلم. وفى المسند الصحيح لأبى حاتم عن آبن عباس قال: والله ما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة فى ذى الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك؛ فإن هذا الحىّ من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عَفَا الوَبَرْ، وبَرَأَ الدَّبَرْ، وآنسلخ صَفَرْ، حَلّت العُمْرةُ لمن آعتمرْ. فقد كانوا يحرّمون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة؛ فما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة إلا لينقض ذلك من قولهم. ففى هذا دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما فسخ الحج فى العمرة ليريهم أن العمرة فى أشهر الحج لا بأس بها. وكان ذلك له ولمن معه خاصّة؛ لأن الله عز وجل قد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من

---

(١) ضمير و«كانوا» يعود الى الجاهلية. (٢) قوله: «ويجعلون المحرم صفرا». المراد الإخبار عن النسىء الذى كانوا يفعلونه وكانوا يسمون المحرم صفرا ويحلونه، وينسئون المحرم، أى يؤخرون تحريمه الى ما بعد صفر لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر محرمة تضيق عليهم أمورهم من الغارة وغيرها. والدبر: الجرح الذى يحصل فى ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب، وإنها كانت تدبر بالسير عليها للحج. وعفا الأثر: أى درس وامّحى، والمراد أثر الإبل وغيرها فى سيرها، عفا أثره لطول مرور الأيام. وقال الخطابى: المراد أثر الدبر. وهذه الألفاظ تقرأ كلها ساكنة الآخر ويوقف عليها، لأن مرادهم السجع. (عن شرح النووى لصحيح مسلم). (٣) أى صبح رابعة من ذى الحجة.

(٤) قوله: «أىّ الحل» أى هل هو الحل العام لكل ما حرم بالإحرام حتى الجماع أو حل خاص.

Marfat.com

دخل فيها أمرًا مطلقًا، ولا يجب أن يخالف ظاهر كتاب الله إلا إلى مالا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سُنّة مبيّنة . وآحتجوا بما ذكرناه عن أبى ذرّ وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال قلنا : يا رسول الله، فسخ الحج لنا خاصّةً أم للناس عامّةً ؟ قال : " بل لنا خاصة". وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام، إلا شيء يروى عن آبن عباس والحسن والسُّدّى، و به قال أحمد بن حنبل . قال أحمد : لا أردّ تلك الآثار الواردة المتواترة الصحاح فى فسخ الحج فى العمرة بحديث الحارث بن بلال عن أبيه و بقول أبى ذرّ . قال : ولم يجمعوا على ما قال أبو ذرّ ، ولو أجمعوا كان حجة ؛ قال : وقد خالف آبن عباس أبا ذرّ ولم يجعله خصوصًا . وآحتج أحمد بالحديث الصحيح، حديث جابر الطويل فى الحج، وفيه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لو أنى آستقبلت من أمرى ما آستدبرت لم أَسُق الهَدْىَ وجعلتها عمرة " فقام سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يا رسول الله ، ألِعامنا هذا أم لأبَد ؟ فشبّك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدةً فى الأخرى وقال : " دخلتِ العُمْرة فى الحج — مرتين(1) — لا بل لأبَدِ أبَدٍ " لفظ مسلم . وإلى هذا والله أعلم مال البخارىّ حيث ترجم « باب مَن لَبّى بالحج وسمّاه » وساق حديث جابر بن عبد الله : قدِمْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقول : لَبّيْكَ بالحج، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلناها عُمرة. وقال قوم : إن أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالإحلال كان على وجه آخر . وذكر مجاهد ذلك الوجه ، وهو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا فرضوا الحج أوّلا ، بل أمرهم أن يُهِلّوا مطلقًا و ينتظروا ما يؤمرون به؛ وكذلك أَهَلّ علىٌّ باليمن. وكذلك كان إحرام النبىّ صلى الله عليه وسلم، و يدلّ عليه قوله عليه السلام : " لو آستقبلتُ من أمرى ما آستدبرتُ ما سُقْتُ الهَدْىَ وجعلتها عمرة " فكأنه خرج ينتظر ما يُؤمر به و يأمر أصحابه بذلك ، و يدلّ على ذلك قوله عليه السلام : " أتانى آتٍ من ربّى فى هذا الوادي المبارك وقال قل حَجّة فى عمرة " .

(1) قوله : مرتين ، أى قاله مرتين .

Marfat.com

والوجه الرابع من المتعـة : مُتعة المُحْصر وَمَن صُـدّ عن البيت ؛ ذكر يعقوب بن شيبة قال حدّثنا أبو سـلمة التَّبُوذَكِىّ حدّثنا وُهَيب حدّثنا إسحاق بن سُوَيْد قال سمعت عبـد الله ابن الزبير وهو يخطب يقول : أيها الناس، إنه والله ليس التمتع بالعُمْرة إلى الحج كما تصنعون، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجًّا فيحبسه عدوّ أو أَمْر يعـذر به حتى تذهب أيام الحج، فيأتى البيت فيطوف ويسـعَى بين الصّفا والمَرْوَة ، ثم يتمتع بحِلّه إلى العام المسـتقبل ثم يحج ويُهـدِى .

وقد مضى القول فى حكم المُحْصَر وما للعلماء فى ذلك مبيّناً ، والحمد لله .

فكان من مذهبه أن المُحْصَر لا يحلّ ولكنه يبقى على إحرامه حتى يذبح عنـه الهَدْىَ يوم النحر، ثم يحلق ويبقى على إحرامه حتى يقدم مكة فيتحلّل من حَجّه بعمل عُمرة . والذى ذكره ابن الزبير خلاف عموم قوله تعـالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَـا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ » بعد قوله : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » ولم يفصل فى حكم الإحصار بين الحج والعُمْرة ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين أحصروا بالحُدَيْبِيَة حلّوا وحَلّ، وأمرهم بالإحلال .

واختلف العلمـاء أيضًا لم سُمِّىَ المتمتع متمتّعـاً ؛ فقال ابن القاسم : لأنه تمتّع بكل ما لا يجـوز للمُحْرِم فعله من وقت حِلّه فى العمـرة إلى وقت إنشـائه الحج . وقال غيره : سُمِّىَ متمتعًا لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين ، وذلك أن حقّ العمرة أن تقصد بسفر، وحقّ الحج كذلك؛ فلمـا تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ؛ كالقارن الذى يجمع بين الحج والعمرة فى سـفر واحد . والوجه الأوّل أعم؛ فإنه يتمتع بكل ما يجوز للحلال أن يفعله، وسقط عنـه السفر لحجّه من بلده، وسقط عنه الإحرام من ميقاته فى الحج . وهذا هو الوجه الذى كرهه عمر وابن مسعود، وقالا أو قال أحدهما : يأتى أحدكم مِنًى وذَكَرُه يَقْطر مَنِيًّا؛ وقد أجمع المسلمون على جواز هذا . وقد قال جماعة من العلماء : إنما كرهه عمر لأنه أحبّ أن يزار البيت فى العام مرّتين : مرّةً فى الحج، ومرّةً فى العُمْرة . ورأى الإفراد أفضل ؛ فكان يأمر به ويَميل إليه

Marfat.com

و ينهى عن غيره آستحبابًا ؛ ولذلك قال : افصلوا بين حجكم وعمرتكم ، فإنه أتم لحج أحدكم و[أتم][1] لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج .

الخامســـة — آختلف العلماء فيمن آعتمر فى أشهر الحج ثم رجع إلى بلده ومنزله ثم حج من عامه ؛ فقال الجمهور من العلماء : ليس بمتمتع ، ولا هَدْىَ عليه ولا صيام . وقال الحسن البصرى : هو متمتع وإن رجع إلى أهـله ، حجّ أو لم يحجّ . قال لأنه كان يقال : عمـرة فى أشهر الحج مُتْعة ؛ رواه هُشيم عن يونس عن الحسن . وقـد روى عن يونس عن الحسن : ليس عليه هَدىٌ . والصحيح القول الأوّل ، هكذا ذكر أبو عمر « حجّ أو لم يحج » ولم يذكره آبن المنذر . قال آبن المنذر : وحجته ظاهر الكتاب قـوله عز وجل : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ » ولم يستثن : راجعًا إلى أهله وغير راجع ، ولو كان لله جل ثناؤه فى ذلك مراد لبينه فى كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليـه وسلم . وقد روى عن سعيد بن المسيّب مثل قول الحسن . قال أبو عمر : وقد روى عن الحسن أيضا فى هذا الباب قول لم يتابع عليه أيضا ، ولا ذهب إليه أحد من أهل العلم . وذلك أنه قال : من آعتمر بعد يوم النحر فهى مُتعة . وقد روى عن طاوس قولان هما أشدّ شذوذًا ممـا ذكرنا عن الحسن ، أحدهما : أن من آعتمر فى غير أشهر الحج ثم أقام حتى دخل وقت الحج ، ثم حجّ من عامه أنه متمتع . هذا لم يقل به أحد من العلماء غيره ، ولا ذهب إليه أحد من فقهاء الأمصار . وذلك — والله أعلم — أن شهور الحج أحقّ بالحج من العمرة ؛ لأن العمرة جائزة فى السنة كلّها ، والحج إنما موضعه شهور معلومة ؛ فإذا جعل أحد العمرة فى أشهر الحج فقد جعلها فى موضع كان الحج أولى به ، إلا أن الله تعـالى قد رخّص فى كتابه وعلى لسان رسـوله صلى الله عليه وسلم فى عمل العمرة فى أشهر الحج للتمتّع وللقارن ولمن شاء أن يُفردها ، رحمةً منه ، وجعل فيه ما آستيسر من الهَدْى . والوجه الآخر قاله فى المكىّ إذا تمتـع من مصر من الأمصار فعليـه الهَدْى ، وهـذا لم يُعرّج عليه ؛ لظاهر قوله تعـالى : « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » والتمتع الجائز عند جماعة العلماء ما أوضحناه بالشرائط التى ذكرناها ، وبالله توفيقنا .

(١) الزيادة عن الموطأ .

Marfat.com

السادســة — أجمع العلماء على أن رجلًا من غير أهل مكة لو قدم مكة معتمرًا فى أشهر الحج عازمًا على الإقامة بهـا ثم أنشأ الحج من عامه فحجّ أنه متمتّع، عليه ما على المتمتّع . وأجمعوا فى المكيّ يجيء من وراء الميقات مُحْرِمًا بعمرة، ثم ينشئ الحج من مكة وأهـله بمكة ولم يسكن سواها أنه لا دَمَ عليه، وكذلك إذا سكن غيرها وسكنها وكان له فيها أهلٌ وفى غيرها . وأجمعوا على أنه إن آنتقـل من مكة بأهله ثم قدمها فى أشهر الحج معتمرًا فأقام بهـا حتى حج من عامه أنه متمتّع .

السابعــة — وآتفق مالك والشـافعى وأبو حنيفـة وأصحابهم والثورى وأبو ثور على أن المتمتع يطوف لعمرته بالبيت ويسعى بين الصفـا والمروة؛ وعليه بعـدُ أيضًا طوافٌ آخر لحجـه وسَعْيٌ بين الصفا والمروة . وروى عن عطاء وطاوس أنه تكفيه سَـعْيٌ واحد بين الصفـا والمروة؛ والأوّل المشهور، وهـو الذى عليه الجمهـور، وأما طواف القارن فقد تقـدّم .

الثامنــة — وآختلفوا فيمن أنشأ عُمرة فى غير أشهر الحج ثم عمل لها فى أشهر الحج؛ فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حلّ فيه؛ يريد إن كان حلّ منها فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع، وإن كان حلّ منها فى أشهر الحج فهو متمتّع إن حَجّ من عامه . وقال الشافعى : إذا طاف بالبيت فى الأشهر الحُرُم للعمرة فهو متمتّع إن حج من عامه؛ وذلك أن العمرة إنما تكمل بالطواف بالبيت، وإنما ينظر إلى كمالها، وهو قول الحسن البصرى والحكم بن عُيَيْنَة وآبن شُبْرُمة وسفيان الثورى . وقال قتادة وأحمـد و إسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه؛ وروى معنى ذلك عن جابر آبن عبد الله . وقال طاوس : عمرته للشهر الذى يدخل فيه الحَرَم . وقال أصحاب الرأى : إن طاف لها ثلاثة أشواط فى رمضان، وأربعة أشواط فى شوّال فحج من عامه أنه متمتع . و إن طاف فى رمضان أربعة أشواط، وفى شوّال ثلاثة أشواط لم يكن متمتّعًا . وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء أطاف لها فى رمضان أو فى شوّال لا يكون بهذه العمرة متمتّعًا . وهو معنى قول احمد و إسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه .

Marfat.com

التاســـعة — أجمع أهل العلم على أن لمن أهـلّ بعمرة فى أشهر الحج أن يُدخل عليها الحج ما لم يفتتح الطّواف بالبيت، و يكون قارِنًا بذلك، يلزمه ما يلزم القارن الذى أنشأ الحج والعمرة معًا. وآختلفوا فى إدخال الحج على العمرة بعد أن آفتتح الطواف؛ فقال مالك: يلزمه ذلك ويصير قارِنًا ما لم يتم طوافه؛ وروى مثله عن أبى حنيفة، والمشهور عنه أنه لا يجوز إلا قبل الأخذ فى الطواف، وقد قيل: له أن يُدخل الحج على العمرة ما لم يركع ركعتى الطواف. وكل ذلك قول مالك وأصحابه. فإذا طاف المعتمر شوطًا واحدًا لعمرته ثم أحرم بالحج صار قارنًا، وسقط عنه باقى عمرته ولزمه دَمُ القِران. وكذلك من أحرم بالحج فى أضعاف طوافه أو بعد فراغه منه قبل ركوعه. وقال بعضهم: له أن يُدخل الحج على العمرة ما لم يُكمل السعى بين الصّـفَا والمروة. قال أبو عمر: وهذا كله شذوذ عند أهل العلم. وقال أشهب: إذا طاف لعمرته شوطًا واحدًا لم يلزمه الإحرام به ولم يكن قارنًا، ومضى على عمرته حتى يتمها ثم يُحرم بالحج؛ وهذا قول الشافعىّ وعطاء، و به قال أبو ثور.

العـاشرة — وآختلفوا فى إدخال العمرة على الحج؛ فقال مالك وأبو ثور و إسحاق: لا تدخل العمرة على الحج، ومن أضاف العمرة إلى الحج فليست العمرة بشىء؛ قاله مالك، وهو أحد قولى الشافعىّ، وهو المشهور عنـه بمصر. وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ فى القديم: يصـير قارِنًا، و يكون عليه ما على القارن ما لم يَطُف لحجّتـه شوطًا واحدًا، فإن طاف لم يلزمه؛ لأنه قد عمل فى الحج. قال آبن المنذر: و بقول مالك أقول فى هذه المسألة.

الحادية عشرة — قال مالك: مَن أهدى هديًا للعمرة وهو متمتّع لم يجزه ذلك، وعليـه هَدْىٌ آخر لُمتْعته؛ لأنه إنما يصير متمتّعًا إذا أنشأ الحج بعد أن حلّ من عمرته، وحينئذ يجب عليه الهدى. وقال أبو حنيفـة وأبو ثور و إسحاق: لا يَنحر هديه إلا يوم النحر. وقال أحمـد: إن قـدم المتمتع قبل العشر طاف وسَعَى ونَحر هَـدْيَه، و إن قدم فى العشر لم ينحـر إلا يوم النحر؛ وقاله عطـاء. وقال الشافعىّ: يحلّ من عمرته إذا طاف وسـعَى، ساق هديًا أو لم يسقه.

Marfat.com

الثانية عشرة — وٱختلف مالك والشافعيّ في المتمتع يموت؛ فقال الشافعيّ : إذا أحرم بالحج وجب عليه دمُ المتعة إذا كان واجدًا لذلك؛ حكاه الزعفرانيّ عنـه . وروى ٱبن وهب عن مالك أنه سئل عن المتمتّع يموت بعد ما يُحرم بالحج بعرفة أو غيرها ، أترى عليـه هديًا ؟ قال : من مات من أولئك قبل أن يرمي جمرة العَقَبة فلا أرى عليه هَدْيًا ، ومن رمى الجمرة ثم مات فعليه الهَدْى . قيل له : من رأس المـال أو من الثلث ؟ قال : بل من رأس المـال .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ قد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ يعني الهَدْي ، إمّا لعدم المـال أو لعدم الحيوان ، صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده . والثلاثةُ الأيام في الحج آخرها يوم عرفة ؛ هذا قول طاوس ، وروى عن الشـعبيّ وعطاء ومجاهد والحسن البصري والنَّخَعيّ وسعيد بن جُبير وعلقمة وعمرو بن دينار وأصحاب الرأي ؛ حكاه ٱبن المنـذر . وحكى أبو ثور عن أبي حنيفة يصومها في إحرامه بالعُمْرة ، لأنه أحد إحرامَي التمتع ؛ فجاز صوم الأيام فيه كإحرامه بالحج . وقال أبو حنيفة أيضا وأصحابه : يصـوم قبل يوم التَّرْوِيَة يومًا ، ويومَ التروية ويوم عرفة . وقال ٱبن عباس ومالك بن أنس : له أن يصومها منذ يُحرم بالحج إلى يوم النحر؛ لأن الله تعالى قال : « فَصِـيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ » فإذا صامها في العمرة فقد أتاه قبل وقتـه فلم يجزه . وقال الشافعيّ وأحمد بن حنبل : يصومهن ما بين أن يُهِلّ بالحج إلى يوم عرفة ؛ وهو قول ٱبن عمر وعائشة ؛ وروى هـذا عن مالك ، وهو مقتضى قوله في مُوَطّئه ؛ ليكون يوم عرفة مفطرًا ؛ فذلك أتبع للسُّنة ، وأقوى على العبادة ، وسيأتي . وعن أحمد أيضا : جائز أن يصوم الثلاثة قبل أن يُحرم . وقال الثوريّ والأوزاعيّ : يصومهنّ من أول أيام العشر ؛ وبه قال عطاء . وقال عُروة : يصومها مادام بمكة في أيام مِنًى ؛ وقاله أيضا مالك وجماعة من أهل المدينة .

Marfat.com

وأيام مِنًى هى أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر . روى مالك فى الموطأ عن عائشة أمّ المؤمنين أنها كانت تقول : « الصيام لمن تمتّع بالعمرة إلى الحج لمن لم يجد هَدْيًا مابين أن يُهِلّ بالحج إلى يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام مِنًى » . وهذا اللفظ يقتضى صحة الصوم من وقت يحرم بالحج المتمتع إلى يوم عرفة، وأن ذلك مبدأ، إمّا لأنه وقت الأداء وما بعد ذلك من أيام مِنًى وقت القضاء ، على مايقوله أصحاب الشافعى؛ وإمّا لأن فى تقديم الصيام قبل يوم النحر إبراء للذّمة، وذلك مأمور به . والأظهر من المذهب أنها على وجه الأداء، وإن كان الصوم قبلها أفضل؛ كوقت الصلاة الذى فيه سَعة للأداء وإن كان أوّله أفضل من آخره . وهذا هو الصحيح وأنها أداء لا قضاء؛ فإن قوله : « أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ » يحتمل أن يريد موضع الحج، ويحتمل أن يريد أيام الحج ؛ فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر، ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمى؛ لأن الرمى عَمَلٌ من عمل الحج خالصًا وإن لم يكن من أركانه . وإن كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة فى أيام مِنًى؛ كما قال عروة، ويقوى جدا . وقد قال قوم : له أن يؤخرها ٱبتداء إلى أيام التشريق ، لأنه لا يجب عليه الصيام إلا بألا يجد الهَدْى يوم النحر . فإن قيل وهى :

الثانيـــة — فقد ذهب جماعة من أهل المدينة والشافعى فى الجديد وعليه أكثر أصحابه إلى أنه لا يجوز صوم أيام التشريق لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام أيام مِنًى؛ قيل له : إن ثبت النهى فهو عامٌّ يخصَّص منه المتمتع بما ثبت فى البخارى أن عائشة كانت تصومها . وعن ٱبن عمر وعائشة قالا : لم يُرخَّص فى أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهَدْى . وقال الدّارَقُطْنِيّ : إسناده صحيح، ورواه مرفوعا عن ٱبن عمر وعائشة من طرق ثلاثة ضعّفها . وإنما رخّص فى صومها لأنه لم يبق من أيامه إلا بمقدارها، وبذلك يتحقق وجوب الصوم لعدم الهدى . قال ٱبن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : إذا فاته الصوم صام بعد أيام التشريق؛ وقاله الحسن وعطاء . قال ٱبن المنذر : وكذلك نقول .

Marfat.com

وقالت طائفة : إذا فاته الصوم فى العشر لم يجزه إلا الهَـدْى . روى ذلك عن ٱبن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومجاهد، وحكاه أبو عمر عن أبى حنيفة وأصحابه عنه ؛ فتأمله .

الثالثـــة — أجمع العلماء على أن الصوم لا سـبيل للتمتع إليه إذا كان يجد الهَـدْىَ ، وٱختلفوا فيه إذا كان غير واجدٍ للهَدْى فصام ثم وَجد الهَدْى قبل إكمال صـومه ؛ فذكر ٱبن وهب عن مالك قال : إذا دخل فى الصوم ثم وجد هَدْيًا فأحبّ إلىّ أن يُهدِى ، فإن لم يفعل أجزاه الصيام . وقال الشافعي : يمضى فى صومه وهو فرضه ، وكذلك قال أبو ثور ، وهو قول الحسن وقتادة ، وٱختاره ٱبن المنذر . وقال أبو حنيفة : إذا أيسر فى اليوم الثالث من صومه بطل الصوم ووجب عليه الهَـدْى ، و إن صام ثلاثة أيام فى الحج ثم أيسر كان له أن يصـوم السبعة الأيام لا يرجع إلى الهَدْى ، و به قال الثورىّ وٱبن أبى نَجيح وحماد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ ﴾ قراءة الجمهور بالخفض على العطف . وقرأ زيد ٱبن علىّ « وسبعةً » بالنصب ، على معنى : وصوموا سبعةً .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يعنى إلى بلادكم ؛ قاله ٱبن عمر وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء ، وقاله مالك فى كتاب محمد ، و به قال الشافعىّ . قال قتادة والربيـع : هذه رُخصة من الله تعالى ، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه ، إلا أن يتشدّد أحد ، كما يفعل من يصـوم فى السفر فى رمضان . وقال أحمـد و إسحاق : يجزيه الصـوم فى الطريق ؛ وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : إن شاء صامها فى الطريق ، إنما هى رخصة ؛ وكذلك قال عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : إذا رجعتم من الحج ؛ أى إذا رجعتم إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحِلّ . وقال مالك فى الكتاب : إذا رجع من مِنًى فلا بأس أن يصوم . قال ٱبن العربى : « إن كان تخفيفًا ورُخصةً فيجوز تقديم الرخص (١) وترك الرفق فيها إلى العزيمة إجماعًا . و إن كان ذلك توقيتًا فليس فيـه نصّ ، ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، وأنها المراد فى الأغلب (٢) » .

---

(١) كذا فى أحكام القرآن لابن العربى . وفى نسخ الأصل : « بدل » .

(٢) عبارة ابن العربى : « ... ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، و إنما المراد فى الأغلب والأظهر فيه أنه الحج » .

Marfat.com

قلت : بل فيه ظاهر يقرب إلى النص ، يبيّنه ما رواه مسلم عن آبن عمـر قال : تمتّع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهْدَى، فساق معه الهَدْىَ من ذى الحُلَيْفَة ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم فأهَلّ بالعمرة ثم أَهَلّ بالحج، وتمتّع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج؛فكان من الناس مَن أهْدَى(١) فساق الهَدْى، ومنهم مَن لم يُهـد ، فلما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكة قال للنـاس : " مَن كان منكم أهدى فإنه لا يحلّ من شيء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فلْيَطُف بالبيت و بالصّفا والمَرْوَة ولْيُقصّر ولْيَحْلِل ثم ليهِلّ بالحج ولْيُهدِ فمن لم يجد هَدْيًا فلْيَصُم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " الحديث . وهذا كالنص فى أنه لايجوز صوم السبعة الأيام إلا فى أهـله وبلده ، والله أعلم . وكذا قال البخارى فى حديث آبن عبـاس : « ثم أَمَرنا عَشيّة التروِيَة أن نُهِلّ بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطُفْنا بالبيت و بالصّفا والمَرْوَة وقد تمّ حجّنا وعلينا الهَدْى ، كما قال الله تعـالى : «فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَمْصَارِكُمْ(٢)» الحـديث ، وسيأتى . قال النحاس : وكان هذا إجماعًا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقال : كَمَل يَكْمُل؛ مثل نصر ينصر. وكَمُل يَكْمُل؛ مثل عَظُم يعظم . وكَمِل يَكْمَل؛ مثل حَمِد يحمَد؛ ثلاث لغات . وآختلفوا فى معنى قوله : ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ وقد عُلِم أنها عشرة؛ فقال الزجاج : لمـا جاز أن يتوهّم متوهّم التخيير بين ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجع بدلا منها؛لأنه لم يقل وسبعة أخرى — أزيل ذلك بالجملة من قوله «تلك عشرة» ثم قال : « كاملة» . وقال الحسن: « كاملة» فى الثواب كمن أهدى . وقيل : « كاملة» فى البدل عن الهَدْى؛ يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى . وقيل : « كاملة» فى الثواب كمن لم يتمتع . وقيـل : لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر ؛ أى أكملوها فذلك فرضها . وقال المبرّد : « عشرة » دلالة على آنقضاء العدد؛ لئـلا يتوهّم متوهّم أنه قـد بقى

(١) فى الأصول : « من أهل » .
(٢) قوله « إلى أمصاركم » : تفسير من آبن عباس للرجوع .

Marfat.com

منـه شيء بعـد ذكر السبعة . وقيـل : هو توكيد ؛ كما تقول : كتبت بيدى . ومنـه قول الشاعر :

ثلاثٌ واثنتان فهنّ خمسٌ * وسادسةٌ تميل إلى شِمامِي

فقوله « خمس » تأكيد . ومثله قول الآخر :

ثلاثٌ بالغداة فذاك حَسْبي * وستٌّ حين يدركني العِشاء

فذلك تسعة فى اليوم ريِّى * وشرب المرء فوق الرىّ داء

وقوله : « كاملة » تأكيد آخر ، فيـه زيادة توصـية بصيامها وألا ينقص من عددها ؛ كما تقول لمن تأمره بأمر ذى بال : اللهَ اللهَ لا تقصِّر .

السابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى إنما يجب دَمُ التمتّع عن الغريب الذى ليس من حاضرى المسـجد الحرام . خرّج البخارىّ « عن ابن عباس أنه سئل عن متعة الحج فقال : أَهَلّ المهاجرون والأنصار وأزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حَجّة الوداع وأهللنا ، فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجعلوا إهلالكم بالحج عُمرةً إلا مَن قلّد الهَدْى" طُفنا بالبيت و بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ، وقال : "مَن قلّد الهَدْى فإنه لا يَحِلّ حتى يبلغ الهَدْى مَحِلَّه" ثم أمرنا عشيّة التَّرْوِيَة أن نُهِلّ بالحج ، فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقد تمّ حجنا وعلينا الهدى ، كما قال الله تعالى : « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » إلى أمصاركم ، الشاةُ تَجزِى ، فجمعوا نُسُكَيْن فى عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله فى كتابه وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأباحه للناس غير أهل مكة ، قال الله عز وجل : « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وأشهر الحج التى ذكر الله عز وجل شوّال وذو القعدة وذو الحجة ؛ فمن تمتع فى هذه الأشهر فعليه دَمٌ أو صوم . والرَّفَثُ : الجماع والفسوق : المعاصى . والجدال : المِراء .

Marfat.com

الثامنــــة — اللّام فى قوله «لِمَنْ» بمعنى على؛ أى وجوب الدم على من لم يكن من أهل مكة ؛ كقوله عليه السلام : " اشترطى لهم الولاء " ، وقوله تعـالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »(١) أى فعليها . وذلك إشارة إلى التمتّع والقِران للغريب عند أبى حنيفة وأصحابه؛ لا مُتْعة ولا قِران لحاضرى المسجد الحرام عندهم . ومَن فعل ذلك كان عليه دَمُ جناية لا يأكل منه؛ لأنه ليس بدم تمتّع . وقال الشافعى: لهم دم(٢) تمتع وقِران . والإشارة ترجع إلى الهَدْى والصيام،فلا هدى ولا صيام عليهم . وفرق عبد الملك بن الماجشون بين التمتّع والقِران ، فأوجب الدم فى القِران وأسقطه فى التمتّع ، على ما تقدم عنه .

التاســـعة — وآختلف الناس فى حاضرى المسجد الحرام — بعد الإجماع على أن أهل مكة وما آتصل بها من حاضريه . وقال الطبرى : بعــد الإجماع على أهل الحرم . قال آبن عطية : وليس كما قال — فقال بعض العلماء : من كان يجب عليه الجمعة فهو حَضَرِىّ ، ومن كان أبعد من ذلك فهو بَدَوِىّ ؛ فجعل اللفظة من الحضارة والبَداوة . وقال مالك وأصحابه هم أهل مكة وما آتصل بها خاصة . وعند أبى حنيفة وأصحابه : هم أهل المواقيت ومَن وراءها من كل ناحية ؛ فمن كان من أهل المواقيت أو من أهل ماوراءها فهم من حاضرى المسجد الحرام . وقال الشافعى وأصحابه : هم من لا يلزمه تقصير الصلاة من موضعه إلى مكة، وذلك أقرب المواقيت . وعلى هذه الأقوال مذاهب السلف فى تأويل الآية .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أى فيما فرضــه عليكم . وقيل : هو أمر بالتقوى على العموم ، وتحذير من شدّة عقابه .

قوله تعـالى : ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٢) لفظة « دم » ساقطة من ب ، جـ ، ز .

Marfat.com

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ لما ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى في قوله : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » بيّن اختلافهما في الوقت؛ فجميع السّنة وقتٌ للإحرام بالعمرة، ووقت العمرة. وأما الحج فيقع في السّنة مرّةً، فلا يكون في غير هذه الأشهر. و« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ » ابتداء وخبر. وفي الكلام حذف تقديره : أشهرُ الحج أشهرٌ، أو وقت الحج أشهرٌ، أو وقت عمل الحج أشهرٌ. وقيل التقدير : الحج في أشهر. و يلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر. ولم يقرأ أحد بنصبها، إلا أنه يجوز في الكلام النصب على أنه ظرف. قال الفرّاء : الأشهر رَفْعٌ؛ لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات. قال الفرّاء : وسمعت الكسائي يقول : إنما الصيف شهران، و إنما الطيلسان(١) ثلاثة أشهر. أراد وقت الصيف، ووقت لباس الطيلسان؛ فحذف.

الثانيــة — واختلف في الأشهر المعلومات؛ فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهري : أشهر الحج شوّال وذو القعدة وذو الحجة كله. وقال ابن عباس والسدي والشعبي والنّخعي : هي شوّال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة؛ وروي عن ابن مسعود، وقاله ابن الزبير، والقولان مرويان عن مالك؛ حكى الأخيرَ ابنُ حبيب، والأولَ ابنُ المنذر. وفائدة الفرق تعلّق الدم؛ فمن قال: إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دماً فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر؛ لأنها في أشهر الحج. وعلى القول الأخير ينقضي الحج بيوم النحر، و يلزم الدم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته.

الثالثــة — لم يسمّ الله تعالى أشهر الحج في كتابه؛ لأنها كانت معلومة عندهم. ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين و بعض الثالث، لأن بعض الشهر يتنزّل منزلة كله، كما يقال : رأيتك سنة كذا، أو على عهد فلان. ولعله إنما رآه في ساعة منها؛ فالوقت يُذكر بعضه بكله، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أيامُ مِنًى ثلاثة ". و إنما هي يومان و بعض الثالث. و يقولون : رأيتك اليوم، وجئتك العام. وقيل: لما كان الاثنان وما فوقهما جمعٌ(٢) قال أشهر؛ والله أعلم.

(١) الطيلسان : كساء مدور أخضر، لحمته أو سداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم.

(٢) كذا في نسخ الأصل. ووجهه : أن اسم كان ضمير الشأن، وجملة « الاثنان وما فوقهما جمع » في محل نصب خبر كان.

Marfat.com

الرابعـــة ـ آختلف فى الإهـلال بالج فى غير أشهر الج ؛ فروى عن آبن عباس : من سُنّة الج أن يُحرم به فى أشهر الج . وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعي : من أحرم بالج قبل أشهر الحج لم يجـزه ذلك عن حَجّه ويكون عمـرة ؛ كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فإنه لا تجزيه وتكون نافلة؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور . وقال الأوزاعى : يَحِـلّ بعمرة . وقال أحمد بن حنبل : هذا مكروه ؛ وروى عن مالك ، والمشهور عنه جواز الإحرام بالج فى جميع السنة كلها ؛ وهو قول أبى حنيفة . وقال النَّخعىّ : لايحلّ حتى يقضى حَجّه؛ لقوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » وقد تقـدّم القول فيها . وما ذهب إليـه الشافعىّ أصح ؛ لأن تلك عامة ، وهـذه الآية خاصـة . ويحتمل أن يكون من باب النص على بعض أشخاص العموم ، لفضل هذه الأشهر على غيرها ؛ وعليـه فيكون قول مالك صحيحا ، والله أعلم .

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أى ألزمه نفسه بالشروع فيه بالنية قصدًا باطنًا ، وبالإحرام فعلًا ظاهرًا ، وبالتلبية نُطقًا مسموعًا ؛ قاله آبن حبيب وأبو حنيفة فى التلبية. وليست التلبية عند الشافعى من أركان الج؛ وهو قول الحسن بن حَيّ. قال الشافعىّ : تكفى النية فى الإحرام بالج . وأوجب التلبية أهل الظاهر وغيرهم . وأصـل الفرض فى اللغة : الحَزّ والقَطْـع ؛ ومنه فُرْضَة القَوْس والنّهر والجبل[(1)] . ففرضـية الج لازمةٌ للعبد الحرّ كلزوم الحَزّ للقِدْح . وقيل : « فَرَض » أى أبان ؛ وهذا يرجع إلى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . و « مَن » رفع بالآبتداء ومعناها الشرط ، والخبر قوله : «فَرَض» ؛ لأن « من » ليست بموصولة ؛ فكأنه قال : رَجُلٌ فَرَضَ . وقال : « فيهن » ولم يقل فيها؛ فقال قوم : هما ســواء فى الآستعمال . وقال المـازنى أبو عثمان : الجمع الكثير لمـا لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثـة . والقليل ليس كذلك ؛ تقـول : الأجذاع آنكسرن ، والجذوع آنكسرت؛ ويؤيد ذلك قول الله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » ثم قال : « مِنها » .

(1) فرضـــة القوس (بضم أوّله وسكون ثانيه) : الحز يقع عليـه الوتر . وفرضـة النهر : مشرب الماء منه . وفرضة الجبل : ما آنحدر من وسطه وجانبه .

Marfat.com

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ قال آبن عباس وآبن جُبير والسُّدّى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك : الرَّفَثُ الجماعُ ؛ أى فلا جماع لأنه يفسده . وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج ، وعليه حَجٌّ قابل والهَدْىُ . وقال عبد الله آبن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام ؛ لقوله : إذا أحللنا فعلنا بك كذا ، من غير كناية ؛ وقاله آبن عباس أيضا ، وأنشد وهو مُحْرِم :

وهنّ يمشين بنا هَمِيسَا　　⁕　　إن تَصدقِ الطيرُ نَنِكْ لَمِيسَا (١)

فقال له صاحبه حُصين بن قيس : أترفُث وأنت مُحْـرِم ! فقال : إن الرفث ما قيل عند النساء . وقال قوم : الرفث الإفحاش بذكر النساء ، كان ذلك بحضرتهنّ أم لا . وقيل : الرفث كلمةٌ جامعةٌ لما يريده الرجل من أهله . وقال أبو عبيدة : الرفث اللَّغَا من الكلام ، وأنشد :

ورُبَّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّـمِ　　⁕　　عن اللَّغَا ورَفَثِ التكلُّـمِ

يقال : رَفَث يرْفُث ، بضم الفاء وكسرها . وقرأ آبن مسعود « فلا رفوث » على الجمع . قال آبن العربى : المراد بقوله « فلا رفث » نفيه مشروعًا لا موجودًا ، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده ، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره ، وإنما يرجع النفى إلى وجوده مشروعًا لا إلى وجوده محسوسًا ، كقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ (٢) » معناه : شرعًا لا حسًّا ؛ فإنا نجد المطلّقات لا يتربّصن ؛ فعاد النفى إلى الحكم الشرعى لا إلى الوجود الحسّى . وهذا كقوله تعالى : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٣) » إذا قلنا : إنه وارد فى الآدميين — وهو الصحيح — أن معناه لا يمسّه أحد منهم شرعًا ، فإن وُجد المسّ فعلى خلاف حكم الشرع ؛ وهذه الدقيقة هى التى فوّتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهى ، وما وُجد ذلك قَطُّ ، ولا يصحّ أن يوجد ، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادّان وَصْفًا » .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ يعنى جميع المعاصى كلّها ؛ قاله آبن عباس وعطاء والحسن . وكذلك قال آبن عمر وجماعة : الفسوق إتيان معاصى الله عز وجل

(١) اللميس : المرأة اللينة الملمس .　(٢) راجع جـ ٣ ص ١١٢　(٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥

Marfat.com

فى حال إحرامه بالحج؛ كقتل الصيد وقصّ الظفر وأخذ الشعر، وشبه ذلك . وقال ٱبن زيد ومالك : الفسوق الذبح للأصنام؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ »(١) . وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب؛ ومنه قـوله : « بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ »(٢) . وقال ٱبن عمر أيضا : الفسوق السباب؛ ومنه قوله عليه السلام : "سِبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالُه كفرٌ" . والقول الأوّل أصح ، لأنه يتنـاول جميع الأقوال . قال صلى الله عليه وسـلم : "مَن حَجّ فلم يَرْفُث ولم يفسُـق رَجع كيـوم ولدته أمـه" ، "والحج المـبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنـة" خرّجه مسلم وغيره . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "والذى نفسى بيده ما بين السماء والأرض مِن عملٍ أفضلُ من الجهاد فى سبيل الله أو حَجّـة مبرورة لا رَفَث فيها ولا فسوق ولا جدال" . وقال الفقهاء : الحج المبرور هو الذى لم يُعص الله تعـالى فيه أثناء أدائه . وقال الفرّاء : هو الذى لم يُعص الله سبحانه بعده؛ ذكر القولين ٱبن العربى رحمه الله .

قلت : الحج المبرور هو الذى لم يعص الله سبحانه فيه لا بعده . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة . وقيل غير هذا، وسيأتى .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ قُرِئ « فلا رَفَثٌ ولا فسوقٌ » بالرفع والتنوين فيهما . وقرئا بالنصب بغير تنوين . وأجمعوا على الفتح فى « ولا جدال »، وهو يقوّى قراءة النصب فيما قبله ، ولأن المقصود النفى العام من الرفث والفسوق والجدال، وليكون الكلام على نظام واحد فى عموم المنفى كلّه؛ وعلى النصب أكثر القـرّاء . والأسماء الثـلاثة فى موضع رفع(٣)، كل واحد مع « لا » . وقوله « فى الحج » خبر عن جميعها . ووجه قراءة الرفع أن « لا » بمعـنى « ليس » فٱرتفع الاسم بعدها ، لأنه ٱسمهـا، والخبر محذوف تقـديره : فليس رفث ولا فسوق فى الحج؛ دلّ عليه «فى الحج» الثـانى الظاهر وهو خبر « لا جدال » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرفع بمعنى فلا يكون رفثٌ ولا فسوقٌ؛ أى شىء يُخرج من الحج، ثم ٱبتدأ النفى فقال : ولا جدال .

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٢٨
(٣) هذا على أحد قولين للنحويين، والثانى أن « لا » عاملة فى الاسم النصب وما بعدها خبر .

Marfat.com

قلت : فيحتمل أن تكون كان تامة، مثل قوله : « وإنْ كَانَ ذُو عُسْرةٍ » فلا تحتاج إلى خبر . ويحتمل أن تكون ناقصة والخبر محذوف، كما تقدّم آنفًا . ويجوز أن يرفع « رفث وفسوق » بالابتداء، «ولا» للنفى، والخبر محذوف أيضا . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع بالرفع فى الثلاثة . ورُويت عن عاصم فى بعض الطرق، وعليه يكون « فى الحج » خبر الثلاثة، كما قلنا فى قراءة النصب ؛ وإنما لم يحسن أن يكون « فى الحج » خبر عن الجميع مع آختلاف القراءة، لأن خبر ليس منصوب وخبر «ولا جدال» مرفوع؛ لأن «ولاجدال» مقطوع من الأوّل وهو فى موضع رفع بالابتداء ، ولا يعمل عاملان فى آسم واحد . ويجوز « فلا رَفَثَ ولا فسوقٌ » تعطفه على الموضع . وأنشد النحويون :

لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلّةٌ　*　اتّسع الخَرْقُ على الرّاقِـعِ (١)

ويجوز فى الكلام « فلا رفثَ ولا فسوقًا ولا جدالًا فى الحج » عطفًا على اللفظ على ما كان يجب فى « لا » . قال الفرّاء : ومثله :

فلا أبَ وآبنًا مثلَ مروانَ وآبنِهِ　*　إذا هو بالمجـدِ آرتَدَى وتأزّرا

وقال أبو رجاء العطاردى : « فلا رفثَ ولا فسوقَ » بالنصب فيهما، « ولا جدالٌ » بالرفع والتنوين . وأنشد الأخفش :

هــذا وَجدّكم الصَّغار بعينه　*　لا أُمَّ لِى إن كان ذاك ولا أبُ

وقيل : إنّ معنى « فلا رفث ولا فسوق » النهى ؛ أى لا ترفثوا ولا تفسقوا . ومعنى « ولا جدال » النفى، فلما آختلفا فى المعنى خولف بينهما فى اللفظ . قال القشيرى : وفيه نظر، إذ قيل : « ولا جدال » نهى أيضا؛ أى لا تجادلوا، فلم فرق بينهما .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ الجدال وزنه فعال من المجادلة، وهى مشتقة من الجَدْل وهو الفَتْل؛ ومنه زمامٌ مجدول . وقيل : هى مشتقة من الجَدَالة التى هى الأرض .

---

(١) البيت لأنس بن العباس السلمى . راجع الكلام عليه فى شرح الشواهد الكبرى للعينى .

Marfat.com

فكأنّ كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبـه ، فيكون كمن ضَرب به الجَدَالة .

قال الشاعر :

قد أركب الآلة بعد الآلهْ (١) * وأترك العـاجز بالجَـدَالهْ

* مُنْعَفِرًا ليست له محاله *

العاشـــرة — وآختلفت العلماء فى المعنى المراد به هنا على أقوال ستة ؛ فقال آبن مسعود وآبن عباس وعطاء : الجدال هنا أن تُمارِى مسلمًا حتى تغضبه فينتهى إلى السِّباب ؛ فأما مذاكرة العلم فلا نهى عنها . وقال قتادة : الجدال السِّباب . وقال آبن زيد ومالك بن أنس : الجدال هنا أن يختلف الناس : أيّهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية حين كانت قريش تقف فى غير موقف سائر العرب ، ثم يتجادلون بعد ذلك ، فالمعنى على هذا التأويل : لا جدال فى مواضعه . وقالت طائفة : الجدال هنا أن تقول طائفة : الحج اليوم ، وتقول طائفـة : الحج غدًا . وقال مجاهد وطائفة معه : الجدال المماراة فى الشهور حسب ما كانت عليـه العرب من النَّسِىء ، كانوا ربما جعلوا الحج فى غير ذى الحجة ، ويقف بعضهم بجمع (٢) وبعضهم بعَرَفة ، ويتمارون فى الصواب من ذلك .

قلت : فعلى هذين التأويلين لاجدال فى وقته ولا فى موضعه ، وهذان القولان أصح ماقيل فى تأويل قوله « وَلَا جِدَالَ » ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الزمان قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " الحديث ، وسيأتى فى « براءة » (٣) . يعنى رجع أمر الحج كما كان ، أى عاد إلى يومه ووقته . وقال صلى الله عليه وسلم لمـا حجّ : " خذوا عنى مناسككم " فبين بهـذا مواقف الحج ومواضعه . وقال محمـد بن كعب القُرَظِى : الجدال أن تقول طائفـة : حجّنا أبرّ من حجّكم . ويقول الآخر مثل ذلك . وقيل : الجدال كان فى الفخر بالآباء ، والله أعلم .

الحـادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْـهُ اللَّهُ ﴾ شرط وجوابه ، والمعنى : أن الله يجازيكم على أعمالكم ، لأن المجازاة إنمـا تقع من العالم بالشىء . وقيـل :

(١) الآلة : الحالة ، والشدة . (٢) هى المزدلفة . (٣) راجع ج ٨ ص ١٣٢

Marfat.com

هو تحريض وحثّ على حُسن الكلام مكان الفحش، وعلى البرّ والتقوى فى الأخلاق مكان الفســوق والجدال . وقيــل : جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد ما نُهوا عنه .

الثانية عشرة — قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أَمْرٌ بآتخاذ الزاد . قال آبن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وآبن زيد : نزلت الآية فى طائفة من العــرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحجّ بيت الله ولا يطعمنا ؛ فكانوا يبقون عالةً على النــاس ، فنُهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتّكل بعضهم على بعض بالزاد؛ فأمروا بالزاد . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مسيره راحلةٌ عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مُزَينة ، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال : " يا عمر زوّد القوم " . وقال بعض الناس : «تزوّدوا» الرفيق الصالح . وقال آبن عطية : وهذا تخصيص ضعيف ، والأولى فى معنى الآية : وتزوّدوا لمعادكم من الأعمال الصالحة .

قلت : القول الأوّل أصح ، فإن المراد الزاد المتّخذ فى سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرنا ؛ كما روى البخاريّ عن آبن عباس قال : كان أهــل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ويقــولون : نحن المتوكلون ؛ فإذا قدموا مكة سألوا النــاس ، فأنزل الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وهذا نص فيما ذكرنا ، وعليه أكثر المفسرين . قال الشعبيّ : الزاد التمر والسَّويق . آبن جبير : الكعك والسويق . قال آبن العربيّ : « أمر الله تعالى بالتزوّد لمن كان له مال ، ومن لم يكن له مال فإن كان ذاحرفة تَنْفُق فى الطــريق أو سائلا فلا خطــاب عليــه ؛ وإنمــا خاطب الله أهــلَ الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد ويقولون : نحن المتوكلون . والتوكل له شروط ، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل فى الخطاب ، فإنه خرج على الأغلب من الخلق وهم المقصّرون عن درجة التوكل الغافلون عن حقائقه ، والله عز وجل أعلم » . قال أبو الفرج الجوزيّ : وقد لَبّس إبليس على قوم يدعون التوكل ، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هــذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج

Marfat.com

إلى مكة على التوكل بغير زاد ؛ فقال له أحمد : اخرج فى غير القافلة . فقال لا ، إلا معهم . قال : فعلى جُرُب[1] الناس توكلت ؟!

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ أخبر تعالى أن خير الزاد آتقاء المنهيّات ؛ فأمرهم أن يضموا إلى التزوّد التقوى . وجاء قوله « فإن خير الزاد التقوى » محمولا على المعنى ؛ لأن معنى «وَتَزَوَّدُوا» : اتقوا الله فى آتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد . وقيل: يحتمل أن يكون المعنى : فإن خير الزاد ما آتقى به المسافر من الهَلَكة[2] أو الحاجة إلى الســؤال والتكفّف . وقيل : فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار . قال أهل الإشارات : ذكّرهم الله تعـالى ســفر الآخرة وحثّهم على تزوّد التقوى ؛ فإن التقـوى زاد الآخرة . قال الأعشى :

إذ أنت لم تَرْحل بزادٍ من التُّقَى * ولاقَيْتَ بعد الموت مَن قد تَزوّدَا
نَدِمتَ على ألّا تكون كمثـــله * وأنك لم تَرْصُد كما كان أرْصَدَا

وقال آخر :

الموتُ بحـــرٌ طامِحٌ موجـه * تذهب فيـــه حيـلة السابحِ
يا نفسُ إنى قائـلٌ فآسمعى * مقالةً مِن مُشـــفق ناصحِ
لا يصحب الإنسانَ فى قبره * غيرُ التُّـــقَى والعملِ الصالحِ

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّقُـونِ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَـابِ ﴾ خصّ أولى الألبـاب بالخطاب — وإن كان الأمر يعم الكل — لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها . والألباب جمع لُبّ ، ولُبُّ كلّ شىء : خالصه ؛ ولذلك قيل للعقل: لُبّ . قال النحاس : سمعت أبا إسحاق يقول قال لى أحمد بن يحيى ثعلب : أتعرف فى كلام العرب شيئًا من المضاعف جاء على فَعُلَ؟ قلت نعم، حكى سيبويه عن يونس : لَبُبْتَ تَلُبُّ ؛ فاستحسنه وقال : ما أعرف له نظيرا .

(١) جرب (بضمتين) : جمع جراب وهو الوعاء . (٢) الهلكة (بالتحريك) : الهلاك .

Marfat.com

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أى إثم، وهو آسم ليس . ﴿ أَن تَبْتَغُوا ﴾ فى موضع نصب خبر ليس؛ أى فى أن تبتغوا . وعلى قول الخليل والكسائى أنهـا فى موضع خفض . ولمـا أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرَّفث والفُسوق والجدال رخّص فى التجارة؛ المعنى: لا جناح عليكم فى أن تبتغوا فضل الله. وآبتغاءُ الفضل ورَد فى القرآن بمعنى التجارة ، قال الله تعالى : « فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ »[1] .والدليل على صحة هذا ما رواه البخارى عن آبن عباس قال : كانت عُكَاظ ومَجَنّة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية فتأثّموا أن يتّجروا فى المواسم[2] فنزلت : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فى مواسم الحج[3] .

الثانيـــة — إذا ثبت هذا ففى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه.

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ (٢) الذى فى البخارى : « كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ... الخ » . وعكاظ : نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال . وذو المجاز : خلف عرفة . ومجنة : بمر الظهران ، قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها . وهذه أسواق للعرب ، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضى عشرين يوما من ذى القعدة ، فاذا رأوا هلال ذى الحجة ذهبوا من مجنة إلى ذى المجاز ، فلبثوا به ثمان ليال ، ثم يذهبون إلى عرفة . ولم تزل هذه الأسواق قائمة فى الإسلام إلى أن كان أوّل ماترك منها سوق عكاظ فى زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة ، لمـا خرج الحرورى بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف خاف الناس أن ينتهبوا فتركت إلى الآن ، ثم ترك ذو المجاز ومجنة بعد ذلك ، وآستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة . (عن شرح القسطلانى) .

(٣) قوله : « فى مواسم الحج » قراءة آبن عباس ، كما نبه عليه المؤلف فى مقدمة الكتاب ص ٨٣ ، وقال أبو حيان فى البحر : « وقرأ آبن مسعود وآبن عباس وآبن الزبير « فضلا من ربكم فى مواسم الحج » وجعل هذا تفسيرا؛ لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمعت عليه الأمة .

Marfat.com

خلافًا للفقراء[١] . أمّا إن الحج دون تجارة أفضل؛ لعروّها[٢] عن شوائب الدنيا وتعلّق القلب بغيرها. روى الدّارَقُطْنيّ في سُننه عن أبي أمامة التّيمى قال قلت لآبن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه ، و إن ناسًا يقولون : إنه لا حجّ لك . فقال آبن عمر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله مثل هذا الذى سألتنى ، فسكت حتى نزلت هذه الآية : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لك حجًّا " .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ فيه ست عشرة مسألة[٣] .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ ﴾ أى آندفعتم . ويقال : فاض الإناء إذا آمتلأ حتى ينصبّ عن نواحيه . ورجل فيّاض ؛ أى مندفق بالعطاء . قال زُهير :

وأبيضَ فيّاضٍ يداه غمامة * على مُعْتَفيه ما تُغِبّ فواضله[٤]

وحديث مستفيض ؛ أى شائع .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ قراءة الجماعة « عَرفاتٍ » بالتنوين؛ وكذلك لو سُمّيت آمرأةٌ بمسلمات ؛ لأن التنوين هنا ليس فرقا بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه، و إنما هو بمنزلة النون فى مسلمين . قال النحاس : هذا الجيّد . وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات ؛ يقول : هـذه عرفات ياهـذا ، ورأيت عرفاتِ يا هـذا ، بكسر التاء و بغير تنوين؛ قال: لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين . وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء، تشبيهًا بتاء فاطمة وطلحة . وأنشدوا :

تَنَوّرتها من أذرعاتَ وأهلُها * بيثربَ أدنَى دارِها نَظَرٌ عالِ

والقـول الأوّل أحسن ، وأن التنوين فيـه على حدّه فى مسلمـات ؛ الكسرة مقابلة اليـاء فى مسلمين والتنوين مقابل النون . وعرفات : آسم عَلَم، سُمّى بجَمْع كأذرعات . وقيل : سُمّى

(١) لعله يريد بالفقراء الصوفية . (٢) كذا فى نسخ الأصل . ومقتضى الظاهر تذكير الضمير لعوده إلى الحج ؛ ولعله يريد بالتأنيث هنا : الحج بمعنى العبادة . (٣) يلاحظ أن الأصول آضطربت فى العدد هنا .

(٤) الفيض : الكثير العطاء . المعتفون : الطالبون ما عنده . يقال : عفاه وآعتفاه إذا أتاه يطلب معروفه . ما تغب فواضله : أى عطاياه دائمة لا تنقطع .

Marfat.com

بمـا حوله ، كأرض سباسب.[1] وقيل : سُمِّيَتْ تلك البُقعة عرفات لأن الناس يتعارفون بها . وقيل : لأن آدم لمـا هبط وقع بالهند، وحوّاء بجُدّة، فآجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عَرفة وتعارفا[2] ، فسُمِّيَ اليوم عرفة، والموضع عرفات؛ قاله الضحاك. وقيل غير هذا لمـا تقدّم ذكره عند قوله تعالى : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا »[3] . قال آبن عطية : والظاهر أن آسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع . وعرفة هي نَعمان الأراك ؛ وفيها يقول الشاعر :

تزوّدتُ من نَعمان عُودَ أراكة ٭ لهنـدٍ ولكن مَن يُبلّغه هنـدا

وقيل : هي مأخوذة من العَرْف وهو الطِّيب؛ قال الله تعالى : « عَرَّفَهَا لَهُمْ »[4] أي طيّبها ، فهي طيبة بخلاف مِنًى التي فيهـا الفُرُوث[5] والدّماء ؛ فلذلك سُمِّيَتْ عرفات . ويوم الوقوف يوم عرفة . وقال بعضهم : أصل هذين الآسمين من الصبر؛ يقال : رجل عارف، إذا كان صابرًا خاشعًا . ويقال في المَثَل : النفْسُ عَرُوف وما حمّلتها تتحمّل . قال :

٭ فصبرتْ عارفةً لذلك حُرّةً[6] ٭

أي نفس صابرة .

وقال ذو الرُّمّة :

٭ عَرُوفٌ لمـا خطّت عليه المقادرُ[7] ٭

أي صبور على قضاء الله ؛ فسُمِّيَ بهذا الاسم لخضوع الحـاجّ وتذلّلهم ، وصبرهم على الدعاء وأنواع البلاء وآحتمال الشدائد ؛ لإقامة هذه العبادة .

الثالثــة — أجمع أهل العلم على أن مَن وقف بعرفة يوم عَرفة قبـل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يُعتدّ بوقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمـام حَجّ مَن وقف بعرفة

---

(١) جاء في اللسان مادة سبسب : « وحكى اللحياني بلد سبسب ، وبلد سباسب ؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبا ؛ ثم جمعوه على هذا » . والسبسب : القفر والمفازة . وقيل : الأرض المستوية البعيدة . (٢) كل هذا يحتاج الى التثبت . (٣) راجع ص ١٢٧ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣١ .

(٥) الفروث : جمع فرث ، وهو السرجين (الزبل) ما دام في الكرش .

(٦) البيت لعنترة ، وتمامه : ٭ ترسو اذا نفس الجبان تطلّع ٭

(٧) صـــدر البيت : ٭ اذا خاف شيئا وقرته طبيعة ٭

بعـد الزوال وأفاض نهارًا قبل الليل؛ إلا مالك بن أنس فإنه قال : لا بدّ أن يأخذ من الليل شيئًا . وأمّا مَن وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة فى تمـام حجّه . والحجة للجمهور مطلَق قوله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ » ولم يخص ليلا من نهار، وحديث عُرْوة بن مُضَرِّس قال: أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى الموقف من جَمْع، فقلت يارسول الله، جئتك من جَبَلَىْ طَيّء، أكلَلْتُ مَطِيّتِى، وأتعبتُ نفسى ، واللهِ إنْ تَركتُ من جبل[1] إلا وقفتُ عليه ، فهل لى مِن حَجّ يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من صلّى معنا صلاةَ الغداة بجَمْع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد قَضَى تَفَثَه[2] وتَمّ حجه". أخرجه غير واحد من الأئمة، منهم أبو داود والنسائى والدّارَقُطْنى واللفظ له .وقال الترمذى: حديث حسن صحيح . وقال أبو عمر : حديث عُرْوة بن مُضَرِّس الطائى حديث ثابت صحيح ، رواه جماعة من أصحاب الشّعبى الثقات عن الشعبى عن عروة بن مضرس؛ منهم إسماعيل بن أبى خالد وداود بن أبى هنـد وزكريا بن أبى زائدة وعبـد الله بن أبى السَّـفَر ومُطَرِّف ، كلهم عن الشعبى عن عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام . وحجةُ مالك من السُّنة الثابتة : حديث جابر الطويل ، خرّجه مسلم ؛ وفيـه : فلم يزل واقفًـا حتى غَرَبت الشـمس وذهبت الصُّفرة قليلا حتى غاب القُرص . وأفعاله على الوجوب، لا سِيّمَا فى الحج وقد قال : " خذوا عنّى مناسككم " .

الرابعـــة — واختلف الجمهور فيمن أفاض قبـل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع صحة الحج؛ فقال عطاء وسفيان الثورى والشافعى وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأى وغيرهم :

(١) فى ز وبعض كتب الحـديث ونهاية ابن الأثير بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الموحدة . قال الترمـذى فى سننه : «قوله : من حبل» اذا كان من رمل يقال له حبل ، واذا كان من حجارة يقال له جبل» . وقال ابن الأثير فى تفسير هذا الحديث : « الحبل : المستطيل من الرمل ،وقيل : الضخم منه ؛ وجمعه حبال .وقيل : الحبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل » . وقال الخطابى : الحبال ما دون الجبال فى الارتفاع .

(٢) قال صاحب التعليق المغنى على سنن الدارقطنى : « وقوله : وقضى تفثه . قيل : المراد به أنه أتى بما عليه من المناسك ، والمشهور أن التفث ما يصنعه المحرم عنـد حله من تقصير شعر أو حلقه وحلق العانة ونتف الإبط وغيره من خصال الفطرة ، ويدخل فى ضمن ذلك نحر البدن ، وقضاء جميع المناسك ؛ لأنه لا يقضى التفث إلا بعد ذلك ، وأصل التفث الوسخ والقذر . قاله الشوكانى » .

Marfat.com

عليه دَمٌ . وقال الحسن البصري : عليه هَدْيٌ . وقال ابن جُرَيج : عليه بَدَنة . وقال مالك : عليه حَجٌّ قابلٌ، والهَـدْيُ ينحره في حجّ قابل ، وهو كمن فاته الحج . فإن عاد إلى عرفة حتى يَدْفع بعد مغيب الشمس فقال الشافعيّ : لا شيء عليه ، وهو قول أحمد و إسحاق وداود، و به قال الطبري . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ : لا يسقط عنه الدّم و إن رجع بعـد غروب الشمس ؛ و بذلك قال أبو ثور .

الخامسـة — ولا خلاف بين العلماء في أن الوقوف بعرفة راكبًا لمن قدر عليه أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كذلك وقف إلى أن دَفع منها بعد غروب الشمس ، وأردف أسامةَ بن زيد؛ وهذا محفوظ في حديث جابر الطويل وحديث عليّ ، وفي حديث ابن عباس أيضا . قال جابر : ثم ركب رســول الله صلى الله عليه وسـلم حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصَّخَرات[1] ، وجعل حَبْل[2] المُشاة بين يديه وآسـتقبل القبلة ؛ فلم يزل واقفًا حتى غَرَبت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القُرص ، وأردف أسامةَ بن زيد خلفه ، الحديث . فإن لم يقدر على الركوب وقف قائمًا على رجليه داعيًا ، ما دام يقدر ، ولا حرج عليه في الجلوس إذا لم يقدر على الوقوف؛ وفي الوقوف راكبًا مباهاةٌ وتعظيم للحج «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ»[3] . قال ابن وهب في مُوَطّئه قال لي مالك : الوقوف بعَرَفة على الدواب والإبل أحبّ إليّ من أن أقف قائمًا ، قال : ومن وقف قائمًا فلا بأس أن يستريح .

السادسـة — ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه عليه السـلام كان إذا أفاض من عَرَفة يسير العَنَق[4] فإذا وَجد فَجْوَةً نَصَّ . قال هشام بن عروة : والنّص فوق العَنَق .

(١) الصخرات : هي صخرات مفترشات في أسفل جبـل الرحمة ، وهو الجبـل الذي بوسط أرض عرفات .

(٢) قال ابن الأثير : « وجعل حبـل المشاة بين يديه ؛ أي طريقهـم الذي يسلكونه في الرمل . وقيـل : أراد صفهم ومجتمعهم في مشيهم تشبيها بحبل الرمل » .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٥٦

(٤) العنق (محركة) : سير مسريع فسيح واسع للإبل والدابة . والفجوة : الموضع المتسع بين شيئين .

Marfat.com

وهكذا ينبغى على أئمة الحاج فمَن دونهم ؛ لأن فى آستعجال السير إلى المزدلفة آستعجال الصلاة بها ، ومعلوم أن المغرب لا تُصلّى تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة ، وتلك سُنّتها ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعــة — ظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها مَوْقف ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " ووقفتُ هاهنا وعَرَفة كلها موقف " رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل . وفى مُوَطّأ مالك أنه بلغه أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قال : " عرفةُ كلها موقف وآرتفعوا عن بطن عُرَنة والمزدلفةُ كلها موقف وآرتفعوا عن بطن مُحَسِّر " . قال آبن عبد البر : هذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله ، ومن حديث آبن عباس ، ومن حديث عليّ بن أبى طالب ، وأكثر الآثار ليس فيها آستثناء بطن عُرَنة من عَرَفة ، وبطن مُحَسِّر من المزدلفة ؛ وكذلك نقلها الحفاظ الثقات الأثبات من أهل الحديث فى حديث جعفر بن محمد عن أبيــه عن جابر . قال أبو عمر : وآختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعُرَنة ؛ فقال مالك فيما ذكر آبن المنذر عنه : يُهْريق دماً وحجُّه تام . وهذه رواية رواها خالد بن نزار عن مالك. وذكر أبو المصعب أنه كمن لم يقف وحجّه فائت ، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عُرَنة. وروى عن آبن عبـاس قال : من أفاض من عُرَنة فلا حج له . وهو قول آبن القاسم وسالم ، وذكر آبن المنــذر هذا القول عن الشافعىّ ، قال وبه أقول : لا يجزيه أن يقف بمكان أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم ألا يوقف به . قال آبن عبد البر : الآستثناء ببطن عُرَنة من عرفة لم يجئ مجيئًا تلزم حُجته ، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع . وحُجةُ من ذهب مذهب أبى المصعب أن الوقوف بعرفة فرض مجمع عليه فى موضع معيّن ، فلا يجوز أداؤه إلا بيقين ، ولا يقين مع الآختلاف . وبطن عُرَنة يقال بفتح الراء وضمها ، وهو بغربى مسجد عرفة ؛ حتى لقــد قال بعض العلماء : إن الجدار الغربى من مسجد عرفة لو سـقط سقط فى بطن عرنة . وحكى الباجى عن آبن حبيب أن عرفة فى الحِلّ ، وعرنة فى الحَرَم . قال أبو عمر :

Marfat.com

وأما بطن مُحَسِّر فذكر وَكيع : حدّثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أَوْضَعَ[(١)] في بطن مُحَسِّر .

الثامنــــة — ولا بأس بالتعريف في المساجد يوم عَرَفة بغير عرفة ، تشبيهاً بأهل عرفة . روى شعبة عن قتادة عن الحسن قال : أوّل من صنع ذلك ٱبن عباس بالبصرة . يعني ٱجتماع النـاس يوم عرفة في المسجد بالبصرة . وقال موسى بن أبي عائشة : رأيت عمر بن حُرَيث يخطب يوم عرفة وقد ٱجتمع الناس إليه . وقال الأثرم : سألت أحمد بن حنبل عن التعريف في الأمصار ، يجتمعون يوم عرفة ، فقال : أرجو ألا يكون به بأس ، قد فعله غير واحد : الحسن وبكر وثابت ومحمد بن واسع ، كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة .

التاســـعة — في فضل يوم عرفة . يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم ، يكفّر الله فيه الذنوب العظام ، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "صوم يوم عرفة يكفِّر السنة المـاضية والباقية" . أخرجه الصحيح . وقال صلى الله عليه وسلم : "أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيّون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له" . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم أكثر أن يُعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عز وجل ثم يُباهي بهم الملائكة يقول ما أراد هؤلاء" . وفي الموطأ عن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رُؤِي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لمـا رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر" . قيل : وما رأى [يوم بدر][(٢)] يارسول الله ؟ قال : " أما إنه قد رأى جبريل يَزَع الملائكة[(٣)]" . قال أبو عمر : روى هذا الحـديث أبو النضر إسمـاعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك عن إبراهيم ٱبن أبي عَبْلَة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن أبيه ، ولم يقل في هذا الحديث عن أبيه غيره

---

(١) الإيضاع : سير مثل الخبب (ضرب من العدو) ؛ يقال : وضع البعير يضع وضعا ، وأوضعه راكبه إيضاعا إذا حمله على سرعة السير . (٢) زيادة عن الموطأ . (٣) قوله « يزع الملائكة » : يرتبهم ويسوّيهم ويصفّهم للحرب ؛ فكأنه يكفهم عن التفرق والانتشار .

Marfat.com

وليس بشىء ، والصـواب مافى الموطأ . وذكر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : حدّثنا حاتم بن نعيم التميمى أبو روح قال حدّثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى قال حدّثنا عبد القاهر بن السرى السّلمى قال حدّثنى آبنٌ لكنانة بن عباس بن مرداس عن أبيه عن جدّه عباس بن مرداس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشيّةَ عرفة بالمغفرة والرحمة، وأكثر الدعاء فأجابه : إنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضًا فأما ذنوبهم فيما بينى و بينهم فقد غفرتها . قال : "يارب إنك قادر أن تثيب هذا المظلوم خيراً من مظلمته وتغفر لهذا الظالم" فلم يجبه تلك العشيّة ؛ فلما كان الغداة غداة المزدلفة آجتهد فى الدعاء فأجابه : إنى قد غفرت لهم ،فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛فقيل له : تبسمْتَ يارسول الله فى ساعة لم تكن تتبسم فيها؟ فقال: "تبسمت من عدوّ الله إبليس إنه لما علم أن الله قد آستجاب لى فى أمتى أهوى يدعو بالويل والثّبور ويَحثِي التراب على رأسه ويَفِرّ". وذكر أبو عبدالغنى الحسن(١) بن على حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج الخالص و إذا كان ليلة المزدلفة غفر الله للتجار و إذا كان يوم منًى غفر الله للجمالين و إذا كان يوم جمرة العقبة غفر الله للسُّؤال ولا يشهد ذلك الموقف خلق ممن قال لا إله إلا الله إلا غفرله " . قال أبو عمر : هذا حديث غريب من حديث مالك ،وليس محفوظًا عنه إلا من هذا الوجه ؛وأبو عبدالغنى لا أعرفه ،وأهل العلم مازالوا يسامحون أنفسهم فى روايات الرغائب والفضائل عن كل أحد ، و إنما كانوا يتشدّدون فى أحاديث الأحكام .

العاشـــرة — آستحب أهل العلم صوم يوم عرفة إلا بعرفة . روى الأئمة واللفظ للترمذى عن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أفطر بعرفة ، وأرسلت إليه أم الفضل بلبن فشرب . قال : حديث حسن صحيح . وقد روى عن آبن عمر قال : « حججت مع النبيّ صـلى الله

(١) فى نسخة ب : « الحسين » . والذى يروى عن عبد الرزاق بن هشام الحميرى — أحد رجال هذا السند — هو الحسن بن على الخلال أبو على ، وقيل أبو محمد .

Marfat.com

عليه وسلم فلم يصمه — يعني يوم عرفة — ومع أبي بكر فلم يصمه ، ومع عمر فلم يصمه ؛ والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، يستحبون الإفطار بعرفة ليتقوّى به الرجل على الدعاء ، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة بعرفة » . وأسند عن ابن عمر مثل الحديث الأول ، وزاد في آخره : ومع عثمان فلم يصمه ، وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنه ؛ حديث حسن . وذكره ابن المنذر . وقال عطاء في صوم يوم عرفة : أصوم في الشتاء ولا أصوم في الصيف . وقال يحيى الأنصاري : يجب الفطر يوم عرفة . وكان عثمان بن أبي العاصي وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة . قال ابن المنذر : الفطر يوم عرفة بعرفات أحب إلىّ ، اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصوم بغير عرفة أحبّ إلىّ ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن صوم يوم عرفة فقال : "يكفر السنة الماضية والباقية". وقد روينا عن عطاء أنه قال : من أفطر يوم عرفة ليتقوّى على الدعاء فإن له مثل أجر الصائم .

الحادية عشرة — في قوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ أي اذكروه بالدعاء والتلبية عند المشعر الحرام . ويسمّى جَمْعًا لأنه يجمع ثَمّ المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة . وقيل : لاجتماع آدم فيه مع حوّاء ، وازدلف إليها ، أي دنا منها ، وبه سُمّيت المزدلفة . ويجوز أن يقال : سُمّيت بفعل أهلها ؛ لأنهم يزدلفون إلى الله ، أي يتقربون بالوقوف فيها . وسُمّيَ مَشْعَرًا من الشّعار وهو العلامة ؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت به ، والدعاء عنده من شعائر الحج . ووصف بالحرام لحُرْمته .

الثانيــة عشرة — ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعًا . وأجمع أهل العلم — لا اختلاف بينهم — أن السُّنة أن يَجْمع الحاج بجَمْع بين المغرب والعشاء . واختلفوا فيمن صلّاها قبل أن يأتي جَمْعًا ؛ فقال مالك : مَن وقف مع الإمام ودَفع بدفعه فلا يصلّ حتى يأتي المزدلفة فيجمع بينها ؛ واستدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد : "الصلاة أمامك" . قال ابن حبيب : من صلّى قبل أن يأتي المزدلفة دون

Marfat.com

عذر يعيد متى ما علم، بمنزلة من قد صلى قبل الزوال؛ لقوله عليه السلام: "الصلاة أمامك"، وبه قال أبو حنيفة . وقال أشهب : لا إعادة عليه، إلا أن يصليهما قبل مغيب الشفق فيعيد العشاء وحدها؛ وبه قال الشافعى، وهو الذى نصره القاضى أبو الحسن ، واحتج له بأن هاتين صلاتان سُنّ الجمع بينهما ، فلم يكن ذلك شرطًا فى صحتهما، و إنما كان على معنى الاستحباب ، كالجمع بين الظهر والعصر بعرفة . واختار ابن المنذر هذا القول ، وحكاه عن عطاء بن أبى رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبير وأحمد و إسحاق وأبى ثور ويعقوب . وحكى عن الشافعى أنه قال : لا يصلّى حتى يأتى المزدلفة، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتى المزدلفة صلاهما .

الثالثة عشرة — ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق، [لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق]؛ (١) لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" ثم صلّاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق . [ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق] (١)؛ فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أخرت عنه .

الرابعة عشرة — وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام ، أو كان له عذر ممن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصل كل صلاة لوقتها . وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام : إنه يصلى إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما . وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتى المزدلفة ثلث الليل فليؤخر الصلاة حتى يأتى المزدلفة ، وإلا صلّى كل صلاة لوقتها . فحمل ابنُ المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره، وراعى مالك الوقت دون المكان، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان، وكان مراعاة وقتها المختار أولى .

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ح .

Marfat.com

الخامسة عشرة — اختلف العلماء فى هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين : أحدهما — الأذان والإقامة . والآخر — هل يكون جمعهما متصلًا لا يفصل بينهما بعمل ، أو يجوز العمل بينهما وحطّ الرحال ونحو ذلك ؛ فأما الأذان والإقامة فثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين . أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل . وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وابن المنذر . وقال مالك : يصليهما بأذانين وإقامتين . وكذلك الظهر والعصر بعرفة ؛ إلا أن ذلك فى أوّل وقت الظهر بإجماع . قال أبو عمر : لا أعلم فيما قاله مالك حديثا مرفوعا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه ، ولكنه روى عن عمر بن الخطاب ، وزاد ابنُ المنذر ابنَ مسعود . ومن الحجة لمالك فى هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّ فى الصلاتين بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعا وقت واحد ، وإذا كان وقتهما واحدا وكانت كل صلاة تصلّى فى وقتها لم تكن واحدة منهما أوْلى بالأذان والإقامة من الأخرى ؛ لأن ليس واحدة منهما تقضى ، وإنما هى صلاة تصلّى فى وقتها ، وكلّ صلاة صُلّيت فى وقتها سُنّتها أن يؤذّن لها وتقام فى الجماعة ، وهذا بيّن ؛ والله أعلم . وقال آخرون : أما الأولى منهما فتُصلَّى بأذان وإقامة ، وأما الثانية فتصلى بلا أذان ولا إقامة . قالوا : وإنما أمر عمر بالتأذين الثانى لأن الناس قد تفرقوا لعشائهم فأذّن ليجمعهم . قالوا : وكذلك نقول إذا تفرّق الناس عن الإمام لعشاء أو غيره ، أمر المؤذّنين فأذّنوا ليجمعهم ، وإذا أذّن أقام . قالوا : فهذا معنى ما روى عن عمر ، وذكروا حديث عبد الرحمن بن يزيد قال : كان ابن مسعود يجعل العشاء بالمزدلفة بين الصلاتين ، وفى طريق أخرى وصلّى كل صلاة بأذان وإقامة ؛ ذكره عبد الرزاق . وقال آخرون : تُصلَّى الصلاتان جميعا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان فى شيء منهما ؛ روى عن ابن عمر وبه قال الثورى . وذكر عبد الرزاق وعبد الملك بن الصباح عن الثورىّ عن سلمة بن كُهَيل عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء بجَمْع ، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة . وقال آخرون : تُصلّى الصلاتان جميعا بين

Marfat.com

المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد و إقامة واحدة . وذهبوا فى ذلك إلى مارواه هُشيم عن يونس آبن عبيد عن سعيد بن جبير عن آبن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد و إقامة واحدة ؛ لم يجعل بينهما شيئا . وروى مثل هذا مرفوعا من حديث خزيمة بن ثابت ، وليس بالقوى . وحكى الجُوزْجانى[(١)] عن محمد بن الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة أنهما تُصلّيان بأذان واحد و إقامتين، يؤذن للغرب ويقام للعشاء فقط . و إلى هذا ذهب الطحاوى لحديث جابر ، وهو القول الأوّل وعليـه المعوّل . وقال آخرون : تصلّى بإقامتين دون أذان لواحدة منهما . وممن قال ذلك الشافعى وأصحابه و إسحاق وأحمد بن حنبل فى أحد قوليه ، وهو قول سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد؛ وآحتجوا بمـا ذكره عبد الرزاق عن معمر عن آبن شهاب عن سالم عن آبن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا جاء المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، صلّى المغرب ثلاثًا والعشـاء ركعتين بإقامة لكل واحدة منهما ولم يصـل بينهما شيئا . قال أبو عمر : والآثار عن آبن عمر فى هـذا القول من أثبت ماروى عنه فى هذا الباب، ولكنها محتملة للتأويل، وحديث جابر لم يُختلف فيه، فهو أولى ؛ ولا مدخل فى هذه المسألة للنظر، وإنمـا فيها الآتباع .

السادسة عشرة — وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت عن أسامة بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصـلاة فصلى المغرب ، ثم أناخ كل إنسان بعيره فى منزله ، ثم أقيمت الصـلاة فصلاها ، ولم يصل بينهما شيئا . فى رواية : ولم يَحُلُّوا[(٢)] حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حَلّوا . وقد ذكرنا آنفًا عن آبن مسعود أنه كان يجعل العشاء بين الصلاتين؛ ففى هذا جواز الفصل بين الصلاتين بجَمْع . وقد سئل مالك فيمن أتى المزدلفة : أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحطّ عن راحلته ؟ فقال :

---

(١) الجوزجانى (بجيم وواو وزاى معجمة ثم جيم أخرى) : هذه النسبة إلى مدينة بخراسان ممـا يلى بلخ ؛ وهو أبو سليمان موسى بن سليمان ؛ صاحب الإمام محمد بن الحسن بن فرقد ، أخذ الفقه عنه وروى كتبه .

(٢) قوله : ولم يحلوا . هو من الحـل بمعنى الفك ، أو من الحلول بمعنى النزول ؛ أى لم يفكوا ما على الجمال ، أو ما نزلوا تمـام النزول الذى يريده المسافر البالغ منزله .

Marfat.com

أما الرحل الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة، وأما المحامل والزوامل فلا أرى ذلك(١)، وليبدأ بالصلاتين ثم يحطّ عن راحلته . وقال أشهب فى كتبه : له حطّ رَحْله قبل الصلاة، وحطّه له بعد أن يصلى المغرب أحبّ إلىّ ما لم يضطر إلى ذلك ؛ لمَا بدابّته من الثقل، أو لغير ذلك من العذر . وأما التنفل بين الصلاتين فقال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من السُّنة ألا يتطوع بينهما الجامع بين الصلاتين ، وفى حديث أسامة : ولم يُصَلّ بينهما شيئا .

السابعة عشرة — وأما المبيت بالمزدلفة فليس رُكْنًا فى الحج عند الجمهور . واختلفوا فيما يجب على من لم يبِتْ بالمزدلفة ليلة النحر ولم يقف بجَمْع ؛ فقال مالك : مَن لم يبت بها فعليه دم، ومن قام بها أكثر ليله فلا شيء عليه؛ لأن المبيت بها ليلة النحر سُنّة مؤكدة عند مالك وأصحابه، لا فرض؛ ونحوه قول عطاء والزهرىّ وقتادة وسفيان الثورى وأحمد وإسحاق وأبى ثور وأصحاب الرأى فيمن لم يبِت. وقال الشافعىّ: إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شيء عليه، وإن خرج قبل نصف الليل فلم يعد إلى المزدلفة افتدى، والفدية شاة . وقال عكرمة والشعبىّ والنخعىّ والحسن البصرى : الوقوف بالمزدلفة فرض، ومن فاته جَمْع ولم يقف فقد فاته الحجّ ، ويجعل إحرامه عُمْرة . وروى ذلك عن ابن الزبير وهو قول الأوزاعىّ . وروى عن الثورى مثل ذلك ، والأصح عنه أن الوقوف بها سُنة مؤكدة . وقال حماد ابن أبى سليمان : من فاته الإفاضة من جَمْع فقد فاته الحج ؛ وليتحلّل بعمرة ثم ليحج قابلًا . واحتجوا بظاهر الكتاب والسُّنة؛ فأما الكتاب فقول الله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ »، وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : "مَن أدرك جَمْعًا فوقف مع الناس حتى يُفيض فقد أدرك ومَن لم يُدرك ذلك فلا حجّ له" . ذكره ابن المنذر. وروى الدارَقُطْنِيّ عن عُرْوة بن مُضَرِّس : قال أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بجَمْع فقلت له : يا رسول الله، هل لى من حجّ ؟ فقال : "مَن صلّى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى نُفيض وقد أفاض قبل ذلك [من عرفات](٢) ليلًا أو نهارًا فقد تمّ حجه وقضى تَفَثَه" .

---

(١) عبارة الأصل : « فلا أدرى » وليبدأ ... الخ » والتصويب عن كتاب « المنتقى » للباجى .

(٢) الزيادة عن الدارقطنى .

Marfat.com

قال الشعبى : من لم يقف بجمع جعلها عُمرة . وأجاب مَن احتج للجمهور بأن قال: أما الآية فلا حُجة فيها على الوجوب فى الوقوف ولا المبيت، إذ ليس ذلك مذكورا فيها، وإنما فيها مجرد الذكر. وكلٌّ قد أجمع أنه لو وقف بمزدلفة ولم يذكر الله أن حجه تام، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من صُلب الحج فشهود الموطن أولى بألا يكون كذلك. قال أبو عمر: وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجَمْع ، وأن من أدرك الوقوف بها قبل طلوع الشمس فقـد أدرك ، ممن يقول إن ذلك فرض ، ومن يقول إن ذلك سُـنّة . وأما حديث عروة بن مُضَرِّس فقد جاء فى بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المبيت بالمزدلفة ، ومثله حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة ، وأتاه ناس من أهل نجـد فسألوه عن الحج؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " الحج عرفة من أدركها قبل أن يطلع الفجر من ليلة جَمْع فقد تمّ حجه " . رواه النسائى قال : أخبرنا إسحاق ابن إبراهيم قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان — يعنى الثورى — عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن ابن يعمر الدِّيلى قال: شهدت...؛ فذكره. ورواه ابن عُيينة عن بكير عن عبد الرحمن بن يعمر الدِّيلى قال : شهدت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيامُ مِنًى ثلاثة فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه " . وقوله فى حديث عروة : " مَن صلّى صلاتنا هذه " . فذكر الصلاة بالمزدلفة؛ فقد أجمع العلماء أنه لو بات بها ووقف ونام عن الصـلاة فلم يصل مع الإمام حتى فاتته أن حجه تام . فلمـا كان حضور الصـلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذى تكون فيه الصلاة أحرى أن يكون كذلك. قالوا: فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة .

الثامنة عشرة(1) — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ كرر الأمر تأكيدا؛ كما تقول : ارْمِ ارْمِ . وقيـل : الأول أمرٌ بالذكر عند المَشْعَر الحرام . والثـانى أمرٌ بالذكر على حكم الإخلاص. وقيل: المراد بالثانى تعديد النعمة وأمرٌ بشكرها؛ ثم ذكّرهم بحال ضلالهم ليظهر

(1) يلاحظ أن الأصول اضطربت فى عدد هذه المسائل .

Marfat.com

قدر الإنعام فقال : « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » . والكاف فى « كما » نعتٌ لمصدر محذوف، و«ما» مصدرية أو كافة . والمعنى : آذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هدايةً حسنة، وآذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه . و «إنْ» مخففة من الثقيلة، يدلّ على ذلك دخول اللام فى الخبر؛ قاله سيبويه . الفراء : نافية بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا؛ كما قال :

ثـكلتك أمّك إنْ قتلتَ لمسلمًا * حلّت عليك عقوبة الرحمن[1]

أو بمعنى قد؛ أى قد كنتم؛ ثلاثة أقوال . والضمير فى « قبله » عائد إلى الهدى . وقيل إلى القرآن؛ أى ما كنتم من قبـل إنزاله إلا ضالين . وإن شئت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، كناية عن غير مذكور؛ والأول أظهر والله أعلم .

قوله تعـالى : ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ قيل : الخطاب للحُمْس؛ فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهى من الحَـرَم، وكانوا يقولون : نحن قطِين الله[2]، فينبغى لنا أن نعظّم الحرم، ولا نعظّم شيئاً من الحِل . وكانوا مع معرفتهم و إقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لايخرجون من الحرم، و يقفون بجَمْع و يُفيضون منه و يقف الناس بعرفة؛ فقيل لهم : أفيضوا مع الجملة . و «ثم» ليست فى هذه الآية للترتيب وإنما هى لعطف جملة كلام هى منها منقطعة . وقال الضحاك : المخاطَب بالآية جملة الأمة، والمراد بـ «الناس» إبراهيم عليه السلام؛ كما قال : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ »[3] وهو يريد واحدا . ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة ، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى ، وهى التى من المزدلفة ؛ فتجىء « ثم » على هـذا الاحتمال على بابها ؛ وعلى هـذا الاحتمال عوّل

---

(١) البيت لعاتكة بنت زيد . والرواية فيه : ... عقوبة المتعمد . راجع الكلام عليه فى الشاهد ٨٦٨ .
(٢) قطين الله : أى سكان حرمه ؛ والقطين جمع قاطن كالقطان . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩

Marfat.com

الطبرى . والمعنى : أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة جَمْع؛ أى ثم أفيضوا إلى مِنًى لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جَمْع .

قلت : ويكون فى هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة؛ للأمر بالإفاضة منها ، والله أعلم . والصحيح فى تأويل هذه الآية من القولين القول الأوّل . روى الترمذىّ عن عائشة قالت : كانت قريش ومن كان على دينها وهم الحُمْس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قَطِين الله، وكان من سواهم يقفون بعرفة؛ فأنزل الله تعالى : «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» . هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : الحُمْس هم الذين أنزل الله فيهم : « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » قالت : كان النـاس يُفيضون من عرفات، وكان الحُمْس يُفيضون من المزدلفة، يقولون : لانُفيض إلا من الحَرَم؛ فلما نزلت : «أفيضوا من من حيث أفاض الناس» رجعوا إلى عرفات . وهـذا نصٌّ صريح ، ومثـله كثير صحيح ، فلا معوّل على غيره من الأقوال . والله المستعان . وقرأ سعيد بن جبير «الناسى» وتأويله آدم عليه السلام ؛ لقوله تعالى : « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(١) . ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء فيقول الناس ؛ كالقاض والهـادِ . ٱبن عطية : أما جـوازه فى العربيـة فذكره سيبويه، وأما جوازه مقروءا به فلا أحفظه . وأمر تعالى بالٱستغفار لأنها مواطنه ، ومَظَانّ القبول ومساقط الرحمة . وقالت فرقة : المعنى وٱستغفروا الله من فعلكم الذى كان مخالفًا لسُنّة إبراهيم فى وقوفكم بقُزَحَ من المزدلفة دون عرفة .

الثانيـــة ــ روى أبو داود عن علىّ قال : فلما أصبح ــ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم ــ وقف على قُزَحَ فقال : "هذا قُزَحُ وهو الموقف وجَمْعٌ كلّها موقف ونَحَرْتُ هاهنا ومِنًى كلها مَنْحَر فٱنحروا فى رحالكم". فحكم الحَجِيج إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة ان يبيتوا بها ثم يغلِّس(٢) بالصبح الإمامُ بالناس ويقفون بالمشعر الحرام . وقُزَحُ هو الجبـل الذى يقف عليه الإمام، ولا يزالون يذكرون الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس، ثم يدفعون قبل الطلوع؛ على مخالفة العرب؛ فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع ويقولون : أشرِقْ ثَبِير ، كيما نُغِير؛ أى كيما نقرب

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ (٢) الغلس (محركة) : ظلمة آخر الليل .

Marfat.com

من التحلّل فتوصّل إلى الإغارة . وروى البخارى[(١)] عن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمــر صلّى بجَمْع الصبحَ ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس و يقولون : أشْرِق ثَبِير[(٢)] ، وأن النبيّ صــلى الله عليــه وسلم خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس . وروى ابن عُيينة عن ابن جُريج عن محمد بن قيس بن مَخْرَمة عن آبن طاوس عن أبيه أن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة قبل غروب الشمس ، وكانوا يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس ، فأخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وعجّل هذا ، أخّر الدفع من عرفة ، وعجّل الدفع من المزدلفة مخالفًا هَدْى المشركين .

الثالثــة ــ فإذا دَفعوا قبل الطلوع فحُكْمهم أن يدفعوا على هيئة الدّفع من عرفة ، وهو أن يسير الإمام بالناس سير العَنَق ، فاذا وَجد أحدهم فُرجة زاد فى العَنَق شيئًا . والعَنَق : مَشْىٌ للدواب معروف لا يُجهل . والنَّصّ : فوق العَنَق ؛ كالخَبَب أو فوق ذلك . وفى صحيح مسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما وسُئل : كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفة ؟ قال : كان يسير العَنَق ، فإذا وجد فَجْوَةً نَصّ . قال هشام[(٣)] : والنَّصّ فوق العَنَق ، وقد تقدم . ويُستحب له أن يحرّك فى بطن مُحَسِّر قدر رَمْيَة بحجر ، فإن لم يفعل فلا حَرَج ، وهو من مِنًى . وروى الثورى[(٤)] وغيره عن أبى الزبير عن جابر قال : دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه السَّكينة وقال لهم : "أوْضِعوا فى وادى مُحَسِّر" ، وقال لهم : "خذوا عنّى مناسككم" . فإذا أتوا مِنًى وذلك غُدوة يوم النحر ، رمَوا جمرة العقبة بها ضُحًى رُكبانًا إن قدروا ، ولا يستحب الركوب فى غيرها من الجمار ، و يرمونها بسبع حَصَيات ، كلّ حصاة منها مثل حَصَى الخَذْف[(٥)] ــ على ما يأتى بيانه ــ فاذا رموها حل لهم كل ما حَرُم عليهم من اللباس

(١) فى ب ، جـ : « النحاس » وهو خطأ . (٢) ثبير (بفتح المثلثة وكسر الموحدة وسكون التحتية) : جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها إلى منى . هذا هو المراد ؛ وللعرب جبال أخر اسم كل منها ثبير . (عن زهر الربى للسيوطى) . (٣) هشام هو أحد رواة سند هذا الحديث . (٤) فى جـ : « الترمذى » .

(٥) الخذف (بالخاء المعجمة المفتوحة والذال المعجمة الساكنة) : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين الإبهام والسبابة وترمى بها . والمراد الحصا الصغار .

Marfat.com

والتّفَث كله، إلا النساء والطّيب والصيد عند مالك و إسحاق فى رواية أبى داود الخفّاف عنه .
وقال عمر بن الخطاب وآبن عمر : يَحلّ له كل شيء إلا النساء والطّيب . ومن تطيّب عند مالك بعد الرمى وقبل الإفاضة لم ير عليه فِدْية؛ لما جاء فى ذلك . ومن صاد عنده بعد أن رمى جمرة العقبة وقبل أن يفيض كان عليه الجزاء . وقال الشافعى وأحمد و إسحاق وأبو ثور: يحل له كل شيء إلا النساء ؛ وروى عن آبن عباس .

الرابعـــة — ويقطع الحاجّ التّلبية بأوّل حصاة يرميها من جمرة العقبة ؛ وعلى هذا أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها، وهو جائز مباح عند مالك . والمشهور عنه قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة ، على ما ذكر فى موطّئه عن علىّ ، وقال : هو الأمر عندنا .

قلت : والأصل فى هذه الجملة من السُّنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس ، وكان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى عشيّة عرفة وغداة جَمْع(١) للناس حين دَفعوا : "عليكم بالسكينة" وهو كافٌّ(٢) ناقته حتى دخل مُحَسِّرًا (وهو من مِنًى) قال: "عليكم بحصى الخَذْف الذى يُرْمَى به الجمرة" ، وقال : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُلَبِّى حتى رمى جمرة العقبة . فى رواية : والنبىّ صلى الله عليه وسلم يشير بيده كما يَخْذِف الإنسان . وفى البخارى عن عبد الله أنه آنتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره ومِنًى عن يمينه، ورمى بسبع وقال : هكذا رمى الذى أُنزلت عليه سورة البقرة صلى الله عليه وسلم . وروى الدارقطنى عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رميتم وحلقتم وذبحتم فقد حلّ لكم كل شيء إلا النساء وحلّ لكم الثياب والطّيب" . وفى البخارى عن عائشة قالت : طيّبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدىّ هاتين ، حين أحرم، ولحلّه حين أحلّ قبل أن يطوف؛ وبسطت يديها . وهذا هو التحلل الأصغر عند العلماء . والتحلّل الأكبر: طواف الإفاضة، وهو الذى يحلّ النساء وجميع محظورات الإحرام، وسيأتى ذكره فى سورة «الحج»(٣) إن الله تعالى .

---

(١) أى صباح المزدلفة . (٢) من الكف بمعنى الإسراع . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٥١ .

Marfat.com

قوله تعالى : فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ قال مجاهد : المناسك الذبائح وهِراقة الدماء . وقيـل : هي شعائر الحج ؛ لقوله عليه السلام : " خذوا عنى مناسككم " . المعنى : فإذا فعلتم منسكاً من مناسك الحج فآذكروا الله وأثنوا عليـه بآلائه عندكم . وأبو عمرو يُدغم الكاف في الكاف ، وكذلك « ما سلككم » ، لأنهما مثـلان . و « قضيتم » هنا بمعنى أدّيتم وفرغتم ، قال الله تعالى : « فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ »[1] أى أدّيتم الجمعة . وقد يعبّر بالقضاء عمـا فعل من العبادات خارج وقتها المحدود لها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كانت عادة العرب إذا قضت حجّها تقف عند الجمرة ، فتفاخر بالآباء ، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم ، وغير ذلك ؛ حتى أن الواحد منهم ليقول : اللّهُمّ إن أبى كان عَظِيمَ القُبّة ، عظيمَ الجَفْنَة[2] ، كثير المـال ؛ فأعطنى مثل ما أعطيته ؛ فلا يذكر غير أبيه ؛ فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر آبائهم أيام الجاهلية . هـذا قول جمهور المفسرين . وقال آبن عباس وعطاء والضحاك والربيع : معنى الآية وآذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم : أَبَه أُمّه ؛ أى فآستغيثوا به وآلجئوا إليه كما كنتم تفعلون فى حال صغركم بآبائكم . وقالت طائفة : معنى الآية آذكروا الله وعظموه وذُبّوا عن حُرَمه ، وآدفعوا من أراد الشرك فى دينه ومشاعره ؛ كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غَضّ أحد منهم ، وتحمون جوانبهم وتَذُبّون عنهم . وقال أبو الجوزاء لآبن عبـاس : إن الرجل اليوم لا يذكر أباه ، فما معنى الآية ؟ قال : ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله تعالى

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ (٢) الجفنة : أعظم ما يكون من القصاع .

Marfat.com

إذا عُصِىَ أشـدّ من غضبك لوالديك إذا شُتِمَا . والكاف من قوله «كذكركم» فى موضع نصب؛ أى ذكرًا كذكركم . ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ قال الزجاج : «أو أشد» فى موضع خفض عطفًا على ذكركم ، المعنى : أو كأشدّ ذكرًا، ولم ينصرف لأنه «أفعل» صفة، ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى أو اذكروه أشدّ . و «ذِكْرًا» نصب على البيان .

قوله تعالى : ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا﴾ «من» فى موضع رفع بالابتداء، وإن شئت بالصفة . «يقول ربنا آتنا فى الدنيا» صلة «من» ، والمراد المشركون . قال أبو وائل والسدّى وابن زيد : كانت العرب فى الجاهلية تدعوا فى مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدو ، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ، فنُهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم . ويجوز أن يتناول هذا الوعيدُ المؤمنَ أيضا إذا قصَر دعواته فى الدنيا؛ وعلى هذا فـ «ماله فى الآخرة من خلاق» أى كخلاق الذى يسأل الآخرة . والخلاق النصيب . و «من» زائدة وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم﴾ أى من الناس ، وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة . واختلف فى تأويل الحسنتين على أقوال عديدة ؛ فرُوِىَ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسناء، وفى الآخرة الحُور العين . «وقنا عذاب النار» : المرأة السوء .

قلت : وهذا فيه بُعْد ، ولا يصح عن علىّ ، لأن النـار حقيقة فى النار المحرقة ، وعبارة المرأة عن النـار تجوّز . وقال قتادة : حسـنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المـال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة . وقيل غير هذا . والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نِعَم الدنيا والآخرة . وهذا هو الصحيح؛ فإن اللفظ يقتضى هذا كله، فإن «حسنة»

Marfat.com

نكرة فى سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل. وحسنة الآخرة : الجنة بإجماع . وقيل : لم يرد حسنة واحدة، بل أراد : أعطنا فى الدنيا عطية حسنة؛ فحذف الاسم.

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وقِنَا عَذابَ النّارِ ﴾ أصل « قِنَا » أَوْقِنا ، حُذفت الواو كما حُذفت فى يَقِي ويَشِي ، لأنها بين ياء وكسرة ، مثل يَعِد ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : حُذفتْ فرقًا بين اللازم والمتعدّى . قال محمد بن يزيد : هذا خطأ؛ لأن العرب تقول : ورِم يرِم ؛ فيحذفون الواو . والمراد بالآية الدعاء فى ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشـفاعة . ويحتمل أن يكون دعاء مؤكدا لطلب دخول الجنـة ؛ لتكون الرغبـة فى معنى النجاة والفوز من الطرفين ؛ كما قال أحد الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أنا إنما أقول فى دعائى : اللّهمّ أدخلنى الجنة وعافنى من النار، ولا أدرى ما دَنْدَنَتك[(1)] ولا دَندنة معاذ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حَوْلَهـا[(2)] نُدَندن " خرّجه أبو داود فى سُننه وآبن ماجه أيضا .

الثالثـــة ـــ هذه الآية من جوامع الدعاء التى عمّت الدنيا والآخرة . قيل لأنس : اُدع الله لنا، فقال : اللّهـمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار . قالوا : زدنا . قال : ما تريدون ! قد سألت الدنيا والآخرة ! . وفى الصحيحين عن أنس قال : كان أكثر دعوة يدعو بها النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " اللّهمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " . قال : فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بهـا، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وفى حديث عمر أنه كان يطـوف بالبيت وهو يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ماله هِجِّيرَى[(3)] غيرها ؛ ذكره أبو عبيد . وقال آبن جريج : بلغنى أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الموقف هذه الآية : ربنا آتنا

(١) الدندنة : أن يتكلم الرجل الكلام تسمع نغمته ولا يفهم ؛ وهو أرفع من الهينمة قليلا .

(٢) فى حاشية السندى على سنن آبن ماجه : « وفى بعض النسخ حولها بالتثنية ؛ فعلى الأوّل معناه حول مقالتك ، أى كلامنا قريب من كلامك . وعلى الثانى معناه حول الجنة والنار ؛ أى كلامنا أيضا لطلب الجنة والتعوّذ من النار » .

(٣) الهجير والهجيرى : الدأب والعادة والديدن .

Marfat.com

فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النـار » . وقال ابن عباس : إن عند الرُّكْن مَلَكًا قائمًا منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين، فقولوا : " رَبَّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". وسئل عطاء بن أبى رَبَاح عن الركن اليمانى وهو يطوف بالبيت، فقال عطاء : حدّثنى أبو هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " وُكّل به سبعون مَلَكًا فمن قال اللّهُمّ إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار قالوا آمين " الحـديث . خرّجه ابن ماجه فى السنن ، وسيأتى بكماله مسندًا فى « الحج » إن شاء الله .

قوله تعـالى : أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ هذا يرجع إلى الفريق الثانى ، فريق الإسلام؛ أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء ، فإن دعاء المؤمن عبادة . وقيل : يرجع «أولئك» إلى الفريقين؛ فللمؤمن ثواب عمله ودعائه، وللكافر عقاب شركه وقصر نظره على الدنيا؛ وهو مِثْل قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »[1] .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ مِن سَرُع يَسْرُع ــ مثـلُ عَظُم يَعْظُم ــ سِرْعًا وسُرْعة؛ فهو سريع . « الحساب » : مصدر كالمحاسبة؛ وقد يُسَمَّى المحسوب حسابا . والحساب العدّ؛ يقال: حَسَب يحسُب حِسابًا وحِسابةً وحُسبانًا وحِسبانًا وحَسْبًا؛ أى عدّ . وأنشد ابن الأعرابى :

يا جُمْلُ أسقاكِ بلا حِسابَهْ[2] * سُقْيًا مَلِيكٍ حَسَنِ الرِّبابَهْ[3]

* قَتَلْتِنِي بالدَّلِّ والخِلَابَهْ *

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٧ (٢) هكذا أورده الجوهرى فى الصحاح، وهى رواية الأصول . وفى اللسان : « وصواب إنشاده : يا جمل أسقيت » أى أسقيت بلا حساب ولا هنداز . (٣) فى الأصول : « الرياسة » والتصويب عن الصحاح واللسان . والربابة (بالكسر) : القيام على الشىء بإصلاحه وتربيته . والخلابة (بالكسر) : أن تخلب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأعذبه .

Marfat.com

والحَسَب : ما عُدّ من مفاخر المرء . ويقال : حَسَبُه دِينُه . ويقال : مالُه؛ ومنه الحديث: "الحَسَبُ المـالُ والكرَمُ التقوى" رواه سَمُرة بن جُنْدب، أخرجه ابن ماجه، وهو فى الشهاب أيضا. والرجل حسيب، وقد حَسُب حَسابة (بالضم)؛ مثل خَطُب خَطابة. والمعنى فى الآية: أن الله سبحانه سريع الحساب، لا يحتاج إلى عدّ ولا إلى عقـد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحسّاب؛ ولهذا قال وقوله الحق: «وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللَّهُمّ منزّل الكتاب سريع الحساب " الحـديث . فالله جل وعز عالم بمـا للعباد وعليهـم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل، إذ قـد علم ما للمحاسب وعليه؛ لأن الفائدة فى الحساب علم حقيقته . وقيـل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم. وقيل : المعنى لا يشـغله شأن عن شأن، فيحاسبهم فى حالة واحدة؛ كما قال وقوله الحق : «مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»(1) . قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر؛ وفى الخبر "إن الله يحاسب فى قدر حلب شاة". وقيـل : هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميـع الخلق . وقيـل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: كيف يحاسب الله العباد فى يوم؟ قال: كما يرزقهم فى يوم! . ومعنى الحساب: تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه؛ بدليل قوله تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ»(2) . وقيـل : معنى الآية سريع بمجىء يوم الحساب؛ فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

قلت : والكل محتمل، فيأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة؛ وإنمـا يخف الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا .

الثالثـــة ــ قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ هو الرجل يأخذ مالًا يحـج به عن غيره، فيكون له ثواب . وروى عنه فى هـذه الآية أن رجلا قال : يا رسول الله، مات أبى ولم يحج؛ أفأحج عنه؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: " لو كان على أبيك دَين فقضيته أمَا كان ذلك يجزى " . قال نعم . قال : "فدين الله أحق أن يُقضَى" . قال : فهل لى من أجر؟ فأنزل الله تعالى : «أُولَٰـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّـا كَسَبُوا» يعنى من حج

(1) راجع جـ ١٤ ص ٧٨ (2) راجع جـ ١١ ص ٢٨٩

Marfat.com

عن مَيِّت كان الأجر بينه وبين الميّت . قال أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه: قول ابن عباس نحو قول مالك؛ لأن تحصيل مذهب مالك أن المحجوج عنه يحصل له ثواب النفقة، والحجة للحاج؛ فكأنه يكون له ثواب بدنه وأعماله، وللمحجوج عنه ثواب ماله و إنفاقه، ولهذا قلنا : لا يختلف فى هذا حكم من حج عن نفسه حجة الإسلام أو لم يحج؛ لأن الأعمال التى تدخلها النيابة لا يختلف حكم المستناب فيها بين أن يكون قد أدّى عن نفسه أو لم يؤدّ، آعتبارًا بأعمال الدين والدنيا . ألا ترى أن الذى عليه زكاة أو كفارة أو غير ذلك يجوز أن يؤدّى عن غيره و إن لم يؤدّ عن نفسه، وكذلك من لم يراع مصالحه فى الدنيا يصح أن ينوب عن غيره فى مثلها فتتم لغيره و إن لم تتم لنفسه، و يزوّج غيره و إن لم يزوج نفسه .

تمّ الجزء الثانى من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث،

وأوّله قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ... ﴾ الآية .

Marfat.com